

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقُرْآنُ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ













طبعة خاصة  
بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار البيان للتراث

● د. الربيع للتراث ١٧٧ شارع الهرم .  
● مصر الجديدة : ٢٠ شارع الانس . ت : ٢٥٩١٨٩٢ / ٢٥٩١٨٩١

الجامع الإسلامي القرآن الكريم

النفيس  
القرطبي

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أستاذية  
الهيئة العامة

رقم الترخيص	١٨٨٨٢
رقم التسجيل	

دار الريان للتراث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وبه نستعين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العامل العلامة المحتسب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر  
ابن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي رضي الله عنه :

الحمد لله المبدئى محمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،  
الرب الصمد الواحد ، الحى القيوم الذى لا يموت ؛ ذوالجلال والإكرام ، والمواهب العظام ؛  
والمتكلم بالقرآن ، والخالق للإنسان ، والمنعم عليه بالإيمان ، والمرسل رسوله بالبيان ، عدا صلل الله  
عليه وسلم ما أختلف المألوفان ، وتماقب الجديدان ، أرسله بكتابه المبين ، التافق بين الشك واليقين ،  
الذى أعجزت النصحاء معارضته ، وأعيت الأكفاء مناقضته ، وأخرست البلغاء مشاكسته ، فلا يأتون  
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . جعل أمثاله عبرا لمن تدبرها ، وأوامره هدى لمن استبصرها ؛  
وشرح فيه واجبات الأحكام . وفترق فيه بين الحلال والحرام ، وكرر فيه المواعظ والقصص  
للأنفهام ، وضرب فيه الأمثال وقص فيه غيب الأخبار ؛ فقال تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِابِ  
مِنْ تَحْوِيلٍ ﴾ . خاطب به أولياء قتهموا ، وبين لهم فيه مراده فعملوا ؛ فقرأوا القرآن حلة سر الله  
المكتون ، وسفطة علمه المخزون ، خلفاء أنبيائه وأمنائه ، وهم أهل وخصته وشيرته وأصفيائه ؛ قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا لله أميين منا » قالوا : يا رسول الله من هم ؟ قال : « هم أهل  
القرآن هم أهل الله وخصته » أخرجه ابن ماجه فى سننه ، وأبو بكر البزار فى مسنده . فهاحق من  
علم كتاب الله أن يزيد بنواحيه ، ويتذكر ماشرح له فيه ، ويغشى الله ويتقيه ، ويراقبه ويستحيه ؛  
فانه قد حمل أعباء الرسل ، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل . قال الله تعالى :  
( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ) . ألا وإنا الحجة على من علمه فأغفله ،

أوكد منها على من قصر عنه وجهه . ومن أبى علم القرآن فلم يتفجع ، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ،  
وارتكب من المأثم قبيله ، ومن الجرائم فضوحا ، كان القرآن حجة عليه ، وخصما لديه ، قال رسول الله  
صل الله عليه وسلم : « القرآن حجة لك أو عليك » خرجه مسلم . فالواجب على من خصمه الله بحفظ  
كتابه أن يتلوه حتى تلاوته ، ويتدبر صفاتي عبارته ، ويتفهم عجائبه ، ويتقرب غرابيه ، قال الله تعالى :  
( كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ) . وقال الله تعالى : ( أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى  
قُلُوبٍ أَقْفَالٌ ) . جعلنا الله ممن رعاه حتى رعايشه ، ويتدبره حتى تدبره ، ويقوم بقسطه ، ويرى  
بشرطه ، ولا يتمس المدي في غيره ، وهذا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه الخفية الباهرة ، وجمع  
لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المفرة . ثم جعل إلى رسوله سبل الله عليه وسلم  
بيان ما كان منه مجلا ، وتفسير ما كان منه مشكلا ، وتحقيق ما كان منه محتملا ، ليكون له مع تليق  
الرسالة ظهور الاختصاص به ، ومثله التوفيق إليه . قال الله تعالى : ( وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ  
الْحَكِيمَ ) . ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صل الله عليه وسلم استنباط ما نبه على  
معانيه ، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد ، فيمتازوا بذلك عن غيرهم ،  
ويختصوا بواب اجتهادهم . قال الله تعالى : ( يَرْجِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْإِيمَانَ دَرَجَاتٍ )  
فصار الكتاب أصلا والسنن له بيانا ، واستنباط العلماء أيضا وتبانا ، فالحمد لله الذي جعل صدورنا  
أوعية كايه ، وأكثنا موارد سنن نبيه ، وهمتنا مضروفة إلى تعلمهما والبحث عن معانيهما وعنهما ؛  
طالبين بذلك رضا رب العالمين ، ومتذجرين به إلى علم الملة والعين .

( وبعد ) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع ظلم الشرع ، الذي استغل بالسنن والقرص ، وتزل  
به أمين السماء إلى أمين الأرض ، زابت أن أشتل به مدى عمرى ، واستفرغ فيه مئتي ، بأن أكتب  
فيه تليقا وبيانا ، يتفهم نكاح من التفسير واللغات ، والإعراب والقراءات ، والرد على أهل الزيغ  
والضلال ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام وتزول الآيات ، جامع بين معانيها ،  
ومبين ما أشكل منها ، بأقوال السلف ، ومن تبعهم من الخلف ، وعلمه تذكرا لضي ، وذخيرة  
ليوم رمى ، وعملا صالحا بعد موتى . قال الله تعالى : ( يَتَّبِعُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ مِمَّا قَلَّمْ وَأُتْر ) .

وقال تعالى : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلما مات الإنسانُ انقطع عمله إلا من ثلاثٍ صدقةٍ جاريةٍ أو عِلْمٌ يَنْفَعُ به أو ولدٌ صالحٌ يدعو له » .  
 وشرطى في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائلها ، والأحاديث إلى مصنفها ، فإنه يقال : من ركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيرا ما يحى الحديث في كتب الفقه والتفسير معها ، لا يعرف من أخرجه إلا من أطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف للصحيح من الباطل ، وسرفة ذلك علم جسم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ، ولا الاستدلال حتى يضيئه إلى من تحريجه من الأئمة الأعلام ، والفتاوى المشاهير من علماء الإسلام . ونحن نشير إلى جل من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب ؛ وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لا بد منه ولا غناء عنه للبين . واعتصمت من ذلك تبين آى الأحكام بمائل تسفر عن معناها ، وترشد الطالب إلى متنهاها ، فضمنت كل آية تضمن حكما أو حكمة فإزاد ، مسائل تبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب القول والتفسير والتعريب والحكم ؛ فإن لم تضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، هكذا إلى آخر الكتاب .

(وسميته بالجامع لأحكام القرآن ، والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان) ، جعله الله خالصا لوجهه ، وإن ينفعى به والدي ومن أراد به منتهى ، إنه سمع الدعاء قريب مجيب أمين .

### باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه ، ونقل طلبة

#### وقارنه ومستمعه والعالم به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير ، ألفت فيه العلماء كتباً كثيرة ، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله ، وما أعتد الله لأخيه ، إذا أخلصوا الطالب لوجهه ، وعملوا به . فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين غير مخلوق ، كلام من ليس ككلمة شيء ، وصفة من ليس له شبه ولا ند ، فهو من نور ذاته جل وعز ؛ وأن القراءة أصوات التزاور وتماثلهم ، وهى أكسابهم التى يؤمرون بها فى حال ، إيجابا فى بعض العبادات ، وتنبها فى كثير من الأوقات ؛ ويزحرون عنها إذا أجنبوا ، ويتأبون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق ونظمت به

الآثار ، ودل عليها المستفيض من الأخبار ؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد ، على ما يأتي بيانه . ولو لا أنه سبحانه - جعل في قلوب عبادنه من القوة على حمله ما جعله ليتدبروه وليعتبروا وليتدكروا ما فيه من طاعته وعبادته ، وأداء حقوقه وفرائضه ، لضعفت ولاكدت ينقله ، أو لضعفت له وائى تطبيقه ، وهو يقول - تعالى جلده - وقوله الحق : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَائِشًا سَخِرَاجًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ . فإين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكن الله تعالى رزق عبادنه من القوة على حمله ما شله أن يرزقهم ، فضلا منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب - فأقول ذلك ، ما تحريه الترمذى عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيت أفضل ما أعطى السائلين » قال : « وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمد الباقى السمرندى - في مسنده عن عبده الله قال : السبع الطوال مثل التوراة ، والمئون مثل الإنجيل ، والمئتان مثل الزبور ، وسائر القرآن بسد فضل . وأسند من الحارث عن علي رضي الله عنه وتخرجه الترمذى ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون قن كقطع الليل المظلم » قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نيا من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو جبل الله المئين ونوره المئين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا ترفع به الأهواء ولا تلبس به الألسنة ولا تشعب معه الآراء ولا تنسج منه العلام ولا يله الأحمياء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم حمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خضعوا إليك يا أمور » الحارث رماه الشعبي بالكذب وليس بشئ ، ولم يبين من الحارث كذب ، وإنما تم عليه إنراطة في حب علي وتفضله له على غيره ، ومن علمنا والله أعلم كذب الشعبي لأن الشعبي ينهب إلى تفضيل أبي بكره وإلى أنه أول من أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث المصداني : حدثني الحارث وكان أحد الكذابين .



واسند أبو بكر محمد بن النّاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحويّ الثوريّ في كتاب الردّ على من خالف مصحف عثمان، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآن مآدبة الله فتعلموا من مآدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل الله المتين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ونجاة من أكله لا يموج فينزم ولا يزيغ فيستنب ولا يستغنى بخائبه ولا يتخلّى عن رده فانلوه فإن الله يجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنة أما إني لا أقول ألم حرف ولا ألفين أحدكم واضحا إحدى رجله يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن للشيطان فتور من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة وإن أحضر البيوت من خير البيت الصّغير من كتابه الله. وقال أبو سعيد في غريبه عن عبد الله قال: إن هذا القرآن مآدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن. قال: وتاويل الحديث، أنه شبه القرآن بصنع صنعه الله عز وجل للناس، لم فيه خير ومنافع، ثم دعاهم إليه، يقال: مآدبة ومآدبة، فن قال: مآدبة، أراد الصنع يصنعه الإنسان فيدعو إليه الناس، ومن قال: مآدبة فإنه يذهب به إلى الأدب، يجعله مفعلة من الأدب ويحتج بحديثه الآخر: «إن هذا القرآن مآدبة الله عز وجل فتعلموا من مآدبته» وكان الأحرار يحامها لنتين بمعنى واحد، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره، والتفسير الأول أعجب إلى.

وروى البخاري عن عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وروى مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأثيرة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل الثمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الخنزيرة لا ريح لها وطعمها مر». وفي رواية مثل الفاجر بدل المساكين. وقال البخاري: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأثيرة، طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالأثيرة، وذكر الحديث.

وذكر أبو بكر الأنباري وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلواني حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا هشيم بن: وأبنا إدريس حدثنا خلف حدثنا هشيم عن الثورمذلي عن حوشب: أن أبا عبد الرحمن له امرئ كان إذا ختم عليه الخاتم التران أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه، وقال له: يا هذا أتق الله فما أعرف أحدا خيرا منك إن عملت بالذي علمت! وروى البخاري عن وهب الدماغي قال:

من آتاه الله القرآن فقام به آتاه الليل وآتاه النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة، بعثه الله يوم القيامة مع السفرة والأحكام. قال سعد: السفرة: الملائكة، والأحكام: الأنبياء.

وروى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المساخر بالقرآن مع السفرة الكرام العورة والذي يقرأ القرآن ويتنصع فيه وهو عليه شاق له أجران» التمتع: التردد في الكلام عبا وصموية، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متمتعا عليه، ثم ترقى عن ذلك إلى أن شبه بالملائكة، والله أعلم. وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بغير أمثاله لا أقول ألف حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف». قال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روى موقوفا. وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال: نخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفة، فقال: «أيكم يحب أن يندو كل يوم إلى بطحان أو العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم» قلنا: يا رسول الله كلما يحب ذلك؟ قال: «أفلا يندو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين وثلاث خيوله من ثلاث وأربع خيوله من أربع ومن أهدأهن من الإبل».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على مصسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبلا به عمله لم يسرع به نسبه».

وروى أبو داود والسنائي والدارقطني والترمذي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الجاهل بالقرآن كالجاهل بالصفة والمستر بالقرآن كالمستر بالصفة» قال الترمذي: حديث حسن غريب. وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) والأحكام حكما في التنصع التي يأتيها دليل العرض وذو الأحكام. أو مخرج حكم كثير باب وأعراف أو حكم كليل وأبلا به.

قال : « يحيى صاحب القرآن يوم القيامة يقول يا رب حلّ فليس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فليس حلّة الكرامة ثم يقول يا رب أرض عنه فيرضى عنه فيقول له اقرأ وأرق ويزاد لكل آية حسنة » قال : حليث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وأرق وعل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » وأخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فقرا ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه . » وأسند أبو بكر الأثباري عن أبي أمامة الحمصي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ومن أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث التوراة ومن أعطى ثلث النبوة ومن أعطى ثلث التوراة فقد أعطى ثلث النبوة ومن أعطى ثلث النبوة ومن أعطى ثلث التوراة فقد أعطى ثلث النبوة » وقال له : يوم القيامة اقرأ وأرق فقرأ آية ويصعد درجة حتى يجز ما معه من القرآن ثم يقال له أقبض فقبض ثم يقال له أمدى ما في يدك فإذا في يده اليمنى الخلد وفي اليسرى النعم . »

حدثنا إدريس بن خلف حدثنا إسماعيل بن حسان عن تمام عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوة ومن أخذ نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوة ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ النبوة كلها » . قال

وحدثنا محمد بن يحيى المروزي أنباء محمد وهو ابن سعدان حدثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن خزيمة عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الجنة وشغفه في عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار . » وقالت أم الدرداء : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه من دخل الجنة ؟ قالت ثائثة رضي الله عنها : إن عدد آي القرآن على عدد درج الجنة ، فليس أحد دخل الجنة أفضل من قرأ القرآن ، ذكره أبو محمد مكي . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : ( فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ) قال ابن عباس : فمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ذكره مكي أيضا . وقال الليثي : قاله : ما الرحمة إل

أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقول الله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ولعل من الله واجبة .

وفي مستند أبي داود الطيالسي وهو أول مستند ألف في الإسلام عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » . والآثار في معنى هذا الباب كثيرة وفيها ذكرنا كفاية والله الموفق للهداية .

### باب كيفية التلاوة لكاتب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم وأختلاف الناس في ذلك

وروى البخاري عن قتادة قال : سألت أنسا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان يمدّ مَدًّا [إذا] قرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يمدّ بسم الله ويمد بالرحن ويمد بالرحيم .  
وروى الترمذي عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقول : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثُمَّ يَقِفُ ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ثُمَّ يَقِفُ ، وَكَانَ يَقْرَأُ مَا لَكَ يَوْمَ الدِّينِ . قال : حديث غريب . وأخرجه أبو داود بخوجه .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحسن الناس صوتا من إذا قرأ رأيتَهُ يُغْشَى اللَّهُ تَعَالَى » وروى عن زياد النميري : أنه جاء مع التمره إلى أنس بن مالك فقبل له : اقرأ فرفع صوته وطرب وكان رفع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه وكان على وجهه خرقه سوداء ، فقال : يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون ؛ وكان إذا رأى شيئا يكره كشف الخرقه عن وجهه . وروى عن قيس ابن عباد أنه قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يركعون رفع الصوت عند الذكر .  
ومن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والتاسم ابن محمد والحسن ابن سيرين والنخعي وغيرهم ، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه . روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فطرب في قراءته ، فأرسل إليه سعيد يقول : - أصلحك الله - إن الأئمة لا يقرأ هكذا ، فترك عمر التطريب يمد . وروى عن القاسم بن محمد : أن رجلا قرأ في مسجد النبي (١) يصح هذا إذا كان أبو داود هو الذي أتته ولكن الذي أتته عليه ابن حبيب فليحمله سنة أبي في الإسلام .

صل الله عليه وسلم فطرب، فانكر ذلك القاسم وقال : يقول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ الآية .

وروى عن مالك : أنه سئل عن البر في قراءة القرآن في الصلاة فانكر ذلك وكرهه كراهة شديدة ، وانكر رفع الصوت به . وروى ابن القاسم عنه : أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال : لا يمجني ، وقال : إنما هو غناء يَتَفَتَنُونَ به لِأَصْوَاتِهِمْ عليه الدرام . واجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به ، وذلك لأنه إذا حسن الصوت به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب ، واحتجوا بقوله عليه السلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » رواه البراء بن عازب . أخرجه أبو داود والنسائي ؛ ويقول عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أخرجه مسلم . ويقول أبي موسى للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبته لك تحمياً ؛ وبما رواه عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسير له سورة التفتح على راحلته فرجع في قراءته . ومن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وابن المبارك والنضر بن شيل ، وهو اختيار أبي جعفر الطبري وأبي الحسن بن بطلال والقاضي أبي بكر بن السري وغيرهم . قلت : القول الأول أصح لما ذكرناه ويأتي . وأما ما احتجوا به من الحديث الأول فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب أي زينوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطابي : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث : زينوا أصواتكم بالقرآن ؛ وقالوا : هو من باب المقلوب كما قالوا : عرضت الحوض على الناقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض ؛ قال : ورواه معمر بن منصور عن طلحة ، فنقل الأصوات على القرآن وهو الصحيح ؛ قال الخطابي : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عوجبة عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » أي ألججوا بقراءته وأشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعاراً وزينة ؛ وقيل : معناه ألخص على قراءة القرآن والدخول عليه . وقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه [ أنه ] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « زينوا أصواتكم بالقرآن » وروى عن عمر أنه قال : « حسنوا أصواتكم بالقرآن » قلت : وإلى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أي ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن ؛ كذلك نأمله عبد الله بن أبي مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت ابن أبي مليكة يقول : قال عبد الله بن أبي يزيد : مررت بأبي ليابة فأتبعته حتى

دخيل بينه فإذا رجع رث الحية، فسمته يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: وليس  
 مما من لم يمتز بالقرآن . قال: فقلت لآبى مليكة: يا أبا محمد، أرايت إذا لم يكن حسن الصوت؟  
 قال: بسمه ما استطاع . ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى النبي صلى الله عليه  
 وسلم: إنى لو علمت أنك تسمع لقراءته لحسنت صوتي بالقرآن وزينته وزيته؛ وهذا يدل أنه كان  
 يهد في قراءته مع حسن صوته الذي جبل عليه ، والتجويد: التزين والتحسين ، فلو علم أن النبي  
 صلى الله عليه وسلم كان يسمعه لهد في قراءته وزينها كما كانت بقراء على النبي صلى الله عليه وسلم ،  
 فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومما الله أن يتأول على رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم أن يقول: إن القرآن زين بالأصوات أو بغيرها ، فمن تأول هذا فقد واقع أمرا عظيما أن  
 يخرج القرآن إلى من يزينه ، وهو التور والفساء والزين الأعلى لمن ليس بهجته واستنار بضيائه ؛  
 وقد قيل: إن الأمر بالترين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتها وتقدير ذلك أى زينوا القراءات  
 بأصواتكم فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى: ( وَقرآن الفجر ) أى قراءة الفجر ، وقوله:  
 ( فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ) أى قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: إن في البحر  
 شياطين مسجونة أو تحبها سليمان عليه السلام ، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا أى قراءة .  
 وقال الشاعر في بيان رضى الله عنه :

صحوا بأشبه عنوان السجود به . . يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

أى قراءة ، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التى هى التلاوة عن حدّها  
 على ما نبهنا فبفتح . وقد قيل: إن معنى يتنقى به يستغنى به من الاستغناء الذى هو ضد الانقار ،  
 لا من الغناء ؛ يقال: تنبئت وتغائيت بمعنى استغنيت . وفي الصحاح: تنبى الرجل بمعنى استغنى  
 وأغناه الله وتغائوا أى استغنى بعضهم عن بعض . قال المعنى بن حبان التميمي :

كلانا غنى عن أخيه حياته . . ونحن إذا متنا أشد تغائيا

والى هذا التأويل ذهب مفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، ورواه مفيان عن سعد بن أبي وقاص ،  
 وقد روى عن مفيان أيضا وجه آخر؛ ذكره البخاري بن راهويه أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث

(٢) هو سعد بن ثابت رضى الله عنه .

(١) الهدى في القراءة: الأسراع فيها .

والى هذا التأويل ذهب البغاري محمد بن اسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ والمراد الاستثناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم، قاله أهل التأويل .  
وقيل : إن معنى يتقن به يحزن به أى يظهر على قارنه الحزن الذى هو ضد السرور عند قراءته وتلاوته ، وليس من الغيبة لأنه لو كان من الغيبة لقال : يتقن به ولم يقل يتقن به . وذهب الى هذا جماعة من العلماء منهم الإمام أبو محمد بن حبان البستي ، واحتجوا بما رواه مطازف بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء . الأزيز بزين : صوت الرعد وغليان التدوير . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزن ، وعضدوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال : قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على » فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِنَّا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ نَذِيرًا ﴾ فنظرت اليه فأنما عيناه تدمعان ، فنهض أربعة تأويلات ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والتبرجع فيها . وقد أبو سعيد بن الأعرابي فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس من لم يتقن بالقرآن » قال : كانت العرب تولج بالفناء والنشيد فى أكثر أوقالها ، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هيمراهم مكان الفناء ، فقال : « ليس من لم يتقن بالقرآن » .

التأويل الخامس ما تأوله من استدلل به على التبرجع والتطريب فذكر عمر بن شبة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيل تأويل أبى عينة فى قوله : يتقن يتقن ، فقال : لم يصح أبى عينة شيئا . وسئل الشافى عن تأويل ابن عينة فقال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الاستثناء لقال : من لم يستغن ، ولكن لما قال : « يتقن » علمنا أنه أراد التقنى . قال الطبري : المعروف عندنا فى كلام العرب أن التقنى إنما هو الفناء الذى هو حسن الصوت بالتبرجع . وقال الشاعر :  
تقن بالشعر منهما كنت قائله . إن الفناء لهذا الشعر مضار

قال : وأما آخذ الزاعم أن تقنيت بمعنى استغنيت فليس فى كلام العرب وأسماءها ، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله ، وأما احتجائه بقول الأعشى :

وكنت أمرا زنا بالبراق . خفيف المتنازع طولى التقن

وزعم أنه أراد الاستثناء فإنه غلط منه، وإنما عني الأعشى في هذا الموضع الإقامة، من قول العرب: غنى فلان بمكان كذا أى أقام. ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَضَوْا فِيهَا﴾ وأما استنباده بقوله:

• ونحن إذا متنا أشد تنانيا •

فإنه إغفال منه، وذلك أن التثاني تعامل من تعين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال تضارب الرجلان إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه. ومن قال هذا في فصل الاثنين لم يميز أن يقول مثله في الواحد. غير جائز أن يقال: تناني زيد وتضارب عمرو؛ وكذلك غير جائز أن يقال: تننى بمعنى استغنى.

قلت: ما أذعاه الطبري من أنه لم يرد في كلام العرب تننى بمعنى استغنى، فقد ذكره الجوهري كما ذكرنا، وذكره المروى أيضا. وأما قوله: إن صيغة فاعل إنما تكون من اثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة: منها قول ابن عمر: وأنا يومئذ قد تاهزت الأحلام. ويقول العرب: طارقت النعل وعاقبت اللص ودأبت الليل، وهو كثير، فيكون تناني منها. وإذا احتصل قوله عليه الصلاة والسلام: «يتنن» الفناء والاستثناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الاستثناء أولى، لو لم يكن لنا تأويل غيره، لأنه مروى عن صحابي كبير كما ذكر سفيان. وقد قال ابن وهب في حق سفيان: ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة، ومعاصره أنه رأى الشافعي ومعاصره.

وتأويل سادس وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما أذن الله لشيء أذنه لنبي حسن الصوت يتننى بالقرآن يمجهر به». قال الطبري: ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والمجهر به معنى. قلنا: قوله: يمجهر به لا يخلو أن يكون من قول النبي صلى الله عليه وسلم أو من قول أبي هريرة أو غيره، فإن كان الأقل وفيه بعد فهو دليل على عدم التطريب والترجيع لأنه لم يقل: يطرب به، وإنما قال: يمجهر به أى يسمع نفسه ومن يليه؛ بدليل قوله عليه السلام لأذى سمعه وقد رفع صوته بالتلهيل: «أياها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لستم تعلمون أصم ولا غلظا» الحديث. وسأني وكذلك إن كان من صحابي أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه؛ وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال: وهذا



أنتبه لأن العرب تسمى كل من رفع صوته ووالى به غانياً ، وقبلة ذلك غناء وإن لم يبعثه بتلمين الغناء؛ قال : وعلى هذا فسر الصحابي وهو أعلم بالقتال وأقصد بالحال .

وقد احتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعي فقال : وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابن أبي شيبة ، قال : حدثنا زيد بن الحباب قال حدثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن عتبة ابن حابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا القرآن وغنوا به واكبوه فوالذي قضى بيده لمواشدة نفعها من الخافض من القمل » قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح حسنه فريقة ما يصلح على القطع والبيات من أن قراءة القرآن تلقيناً متواترة عن كافة المشايخ جيلاً بجيل إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلمين ولا تطريب ، مع كثرة التسميعين في مخارج الحروف وفي المسد والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفية التقرات . ثم إن في الترجيع والتطريب هزماً ما ليس بمعمود ومد ما ليس بممدود ، فترجع الألف الواحدة ألفاً والواو الواحدة واواً والشبه الواحدة شبهات فيؤدى ذلك إلى زيادة في القرآن وذلك ممنوع ، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صبروها نبرات وهمزات ، والبرة حيناً وقتت من الحروف فإنما هي همزة واحدة لا ضمير ، إما ممدودة وإما منقوصة . فأن قيل : وقد روى عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير له سورة الفتح على راحلته فرجع في قراءته ؛ وذكره البخاري وقال في صفحة الترجيع : آه آه ثلاث مرات .

قلت : ذلك محمول على إشباع المد في موضعه ، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند من الراحلة كما يعثر رافع صوته إذا كان راكباً من أنضاط صوته ونسطيعه لأجل هز المركوب ، وإذا احتمل هذا فلا حجة فيه . وقد تخرج أبو محمد عبد النبي بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن ابن أبي بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المد ليس فيها ترجيع . وروى ابن جرير عن عطية عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأذن سهل سبيل سمع فإنما كان أذناك سمها سهلاً وإلا فلا تؤذن » أخرجه البارقطي في سننه . فأنما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك في الأذن فأحرى ألا يجوز في القرآن الذي حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَقْرِئْ مِنْ حِكْمٍ مَجِيدٍ ﴾ .

(١) . ليل أمل العبارة - والشمين الواحدة شبهات . أو الواحدة تسميعات

قلت : وهذا الخلاف أنا هو ما لم يفهم معنى القرآن بتدريج الأصوات وكثرة الترجمات ، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق كما يفعل القراء بالتيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والحائز ، ياخذون على ذلك الأجور والجوائز ، حل سمعهم ، وسار عملهم : فبستلون بذلك تغير كتاب الله ، ويؤثرون على أنفسهم ألا يجزأ على الله أن يزيدوا في تزييله ما ليس فيه : جهلا بدينهم ومروفا عن سنة نبيهم ، ورفضاً لسير الصالحين فيه من سلفهم ، وزوفا إلى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؛ فهم في غيهم يقرءون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، فإن الله وإنما إليه راجعون ، لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

ذكر الامام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذى الحكيم في نواهد الأصول من حديث سديفة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكافرين وسيجيء جدى قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الفناء والنوح لا يحاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يسيجونهم شأنهم » . « اللحن : جمع لحن وهو التطريب وترجيح الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والفناء » .

قال علامنا : ويشبه أن يكون هذا الذى يفعله قراء زماننا بين يدى الوعاظ وفى المجالس من اللحن الأعجمية التى يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترجيح فى القراءة ترديد الحروف كثرة التناصير ، والتبديل فى القراءة هو التانى فيها والتهميل وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالنثر المتروك وهو التشبيه بنور الأخوان وهو المطلوب فى قراءة القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرْآنُ نَزِيلًا ﴾ . وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته فقالت : ما لكم وصلاته ! فسمعت قراءته فإذا هى سمعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً . أخرجه النسائى وأبو داود والترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

### باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ كَانَ رِجْوَافُ اللَّهِ رَبِّهِ فَلَيْسَ سَمًّا وَلَا حَالِطًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فترنه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال فانت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكك فانت ليقال جرى . فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فترنه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فترنه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل عيب إلا أنفق فيها لك قال كذبت ولكك . فقلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . وقال الترمذي في هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي ، فقال : « يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تحريمهم النار يوم القيامة » . أبو هريرة اسمه عبد الله وقيل : عبد الرحمن ، وقال : كذبت أبا هريرة لأنني حملت هرة في كتي فرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : « ما هذه » قلت : هرة ، فقال : « يا أبا هريرة » . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يرد بعمله وعلمه وجه الله تعالى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليؤا مقعده من النار » .

وتخرج ابن المبارك في رواقه عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يظهر هذا الدين حتى يحاوو البحار وحتى تخاض البحار بالليل في سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتي أقوام يقرعون القرآن فإذا قرعوه قالوا من أنقرأ منا من أعلم منا » ثم انفت إلى أصحابه فقال : « هل ترون في أولئك من خير » قالوا : لا قال : « أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار » . وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما مما يتقى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » . بنى ويحيا . قال الترمذي : حديث حسن . وروى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تؤذوا بالله من جب الحزن » قالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : « وإد في جهنم تتؤذ منه جهنم في كل يوم مائة مرة » قيل : يا رسول الله ، ومن يسخله ؟ قال : « القرآن » .

الرملون بأعمالهم قال : هذا حديث غريب ، وفي كتاب أحمد بن موسى : أت النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن في جهنم نواديا إن جهنم لتعوز من شر ذلك الوادي كل يوم سبع مرات وإن في ذلك الوادي لجا إن جهنم وذلك الوادي ليتعوزن بالله من شر ذلك الجب وإن في الجب لجة وإن جهنم والوادي والجب ليتعوزن بالله من شر تلك الجبة سبع مرات أضعها الله للأشقياء من حملة القرآن الذين يصون الله » فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يبقى الله في نفسه ويخلص العمل لله ، فإن كان تقدم له شيء مما يكره فليادر التوبة والإقامة ، وليبتدئ الإخلاص في التوبة وعمله ، فألذي يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذي عن أبي النضر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزل الله في بعض الكتب أو أوس إلى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لنير الذين ويتعلمون لنير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ينسبون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحل من العسل وقلوبهم أحر من الصبر : إياي يتعادون ويبتغون لا يتبين لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران » .

وترجع الطبري في كتاب آداب النفوس : حدثنا أبو كرب<sup>(١)</sup> محمد بن العلاء حدثنا الحارثي عن عمرو بن عامر الجلي عن ابن صلفه عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو من حديثه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله وقسه يخدع لو يشعر » قالوا : يا رسول الله وكيف يخادع الله ؟ قال : « تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره وأتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المرائي يدعى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا فاجر يا غادر يا خسر من عملك ويطل أجرك فلا خلاق لك اليوم فأنتس أجرك بمن كنت تعمل له يا غادع » . وروى حقة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أتم إذا لمستم فتنة يرو فيها الصغير ويهرم الكبير وتتخذ سنة مبتدعة يمرى عليها الناس فإذا غير منها شيء قيل : قد غيرت السنة قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كثرت أراؤكم ، وقل قهواؤكم ، وكثر أمرؤكم ، وقل أمانؤكم ، وأتقت الدنيا بعمل الآخرة ، وتفقه لنير اللئيم . وقال سفيان بن عيينة : بلغنا عن ابن عباس أنه قال : لو أن حملة القرآن أخذوه بجمته وما يفتن لأحببهم الله ، ولكن طلبوا به الدنيا

(١) في بعض النسخ « أبو بكر بن محمد » والصواب ما أثبتناه .

فَأَيُّهُمْ إِلَهٌ، وَهَاتُوا عَلَى النَّاسِ . وَرَوَى عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ حُلَيْقٍ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ تَكْبُرُوا فِيهَا هُمْ وَالْآنُورُونَ ﴾ قَالَ : قَوْمٌ وَضَعُوا الْحَقَّ وَالْعَدْلَ بِالسُّتُورِ ، وَخَالَفُوهُ إِلَى ضَمِيرِهِ . وَسَيَأْتِي لَنَا الْبَابُ مُزِيدٌ بَيَانٌ فِي أَثْنَاءِ الْكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه  
فَأَزَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَخْلُصَ فِي طَلَبِهِ لِقَاءَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ كَمَا ذَكَرْنَا ، وَأَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ لِثَلَاثِيهِ . رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي عَمْرٍو : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنْ مِثْلَ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَثَلَ صَاحِبُ الْإِبِلِ الْمُقْلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَسْكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا نَجِبَتْ وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ قَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ » وَيُنَبِّئُ لَهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَامِلًا ، وَلَيْسَ شَاكِرًا ، وَلَهُ ذَاكَ رَأَى ، وَطَيْبُهُ مُتَوَكِّلًا ، وَبِهِ مُسْتَعِينًا ، وَإِلَيْهِ رَاجِعًا ، وَبِهِ مُتَمَتِّيًا ، وَلَقَدْ ذَكَرْنَا ، وَلَهُ مُسْتَعِينًا . وَيُنَبِّئُ لَهُ أَنْ يَكُونَ شَاكِرًا مِنْ ذَنْبِهِ ، رَاجِعًا عَنْ ذَنْبِهِ ، وَيَكُونَ الْخَوْفُ فِي صَحْنِهِ أَغْلَبَ عَلَيْهِ ، إِذْ لَا يَسْلُمُ بِمَا يَحْتَمِلُ لَهُ ؟ وَيَكُونَ الرَّجَاءُ عِنْدَ حُضُورِ أَجَلِهِ أَقْوَى فِي نَفْسِهِ ، لِحُسْنِ الْفَنِّ بِلَدِهِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَمُوتُ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يَحْسُنُ بِاللَّهِ الْفَنُّ » أَيْ أَنَّهُ يَرْجِعُهُ وَيُفَرِّقُهُ . وَيُنَبِّئُ لَهُ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِأَمَلِ زَمَانِهِ ، مُتَحَفِّظًا مِنْ سُلْطَانِهِ ، سَاعِيًا فِي خِلَاصِ نَفْسِهِ ، وَنِيْجَةِ مَهْجَتِهِ ، مُقْتَمِلًا مِنْ يَدِيهِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ عَرْضِ دُنْيَاهُ ، جَاهِلًا لِنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ . وَيُنَبِّئُ لَهُ أَنْ يَكُونَ أَمَامَ أُمُورِهِ عِنْدَ الْوَرَعِ فِي ذَنْبِهِ ، وَاسْتِمْلَاقِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَمِرَاقِبَتِهِ فِيَا أَمْرِهِ بِهِ وَنَهْيِهِ عَنْهُ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : يَنْبَغِي لِقَارِئِ الْقُرْآنِ أَنْ يَعْرِفَ بِلِلِهِ إِذَا النَّاسُ نَامُوا ، وَنَهَارَهُ إِذَا النَّاسُ مُسْتَيْقِظُونَ ، وَيَكُنْ لَهُ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ ، وَيَبْكُونَ إِذَا النَّاسُ يَخْشَعُونَ ، وَيَخْشَعُونَ ، وَيَخْشَعُونَ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ ، وَيَعِزُّهُ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو : لَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَخْشَى مَعَ مَنْ يَخْشَى ، وَلَا يَهْجُلَ مَعَ مَنْ يَهْجُلُ ، وَلَكِنْ يَفْضَحُ وَيَصْفَحُ لِحَقِّ الْقُرْآنِ ، لِأَنَّهُ فِي جَوْهَرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى . وَيُنَبِّئُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالتَّصَوُّنِ مِنْ طَرُقِ الشَّهَابِ ، وَيَقِلَّ الضُّعْفُ وَالْكَلَامُ فِي مَجَالِسِ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهَا يَمَّا لَا تَأْتِيهِ فِيهِ ، وَيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ ، وَيُنَبِّئُ لَهُ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِلْفَقَرَاءِ وَيُجَنَّبَ التَّكْبِيرَ وَالْإِعْجَابَ وَيَحْشَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَيَّامِهَا أَنْ خَافَ مِنْ نَفْسِهِ الْفِتْنَةَ ، وَيَتَرَكَّ الْجِدَالَ وَالْمِرْلَةَ ، وَيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالْإِيْتِاقِ وَالْأَدَبِ . وَيُنَبِّئُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ رُؤَسَا شَيْئِهِ ،

وروى غيره ويُسَمَّى من ضربه، وألا يسمع من ثم عنده، ويصاحب من يواونه على الخير ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق، ويزينه ولا يشبهه. ويبنى له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فيفتح بما يقرأ ويعدل بما يتلو. فما أجمع لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه. وما أجمع أن يسأل عن فقه ما يتلو ولا يدريه، فمثل من هذه حاله إلا كمثل الجار يحمل أسفارا. ويبنى له أن يعرف المكي من المدني ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما نهيهم الله في آخر الإسلام، وما افترض الله في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره. فألدي هو الناسخ لكن في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكي للمدني لأن المنسوخ هو المنقذ في التزول قبل النسخ له. ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو. وقد قال أبو جعفر الطبري: سمعت الجري يقول: أنا منذ ثلاثين سنة ألقى الناس في الفقه من كتاب سيويه؛ قال محمد بن يزيد: وذلك أن أبا عمر الجري كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيويه تنفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيويه يتعلم منه النظر والتفسير. ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما يصل الطالب إلى مراد الله عز وجل في كتابه، وهي فتوح له أحكام القرآن تنما؛ وقد قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ كُتِبَ عَلَيْهِ رَبِّانِينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ الْكِتَابَ﴾. قال: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون تقيا.

وذكر ابن أبي الحواري قال: أتينا فضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومائة وعن جماعة، فوقفتا على الباب فلم ياذن لنا بالدخول، فقال بعض القوم: إن كان خاربنا شيء فنبخر ثلاثرة القرآن، فأمرنا فأقرأنا فأطلع علينا من كوة، قلنا: السلام عليك ورحمة الله؛ فقال: وعليكم السلام، قلنا: كيف أنت يا أبا علي، كيف حالك؟ فقال: أنا من الله في طافية ومتك في أذى، وإن ما أتم فيه حدث في الإسلام، فإن الله وإنا إليه راجعون، ما هكذا كنا نطلب العلم، ولكننا كنا ناتي المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلا للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسرق السمع، فإذا مر الحديث سألناهم إن حدثوا وقيدناه، وأتم تطلبون العلم بالجهل، وقد ضيعتم كتاب الله ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم به شفاء لما تريدون. قال: قلنا قد تبلينا القرآن، قال: إني في تعلمي القرآن شغلا لأعمالك.

وَأَعَارَ أَوْلَادَكُمْ فَلَا : كَيْفَ يَا أَبَا عَلِيٍّ ؟ قَالَ : لَنْ تَعْلَمُوا الْقُرْآنَ حَتَّى تَعْرِفُوا إِعْرَابَهُ ، وَحِكْمَهُ مِنْ مِثْلَابِهِ ، وَنَاسِخَهُ مِنْ مَنْشُوعِهِ ، فَإِذَا عَرَفْتُمْ ذَلِكَ اسْتَغْنَيْتُمْ عَنْ كَلَامِ فَضْلِ وَأَبْنِ عَيْنَةَ ، ثُمَّ قَالَ :  
أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّامِعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ  
مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي السُّلُوبِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ فَضَّلَ اللَّهُ وَبِرحَتِهِ قِيْلَ ذَلِكَ  
فَلْيَتَّخِذُوا هُذًى مِمَّنْ يَتَّبِعُونَ ۝﴾ .

قلت : فإنما حصلت هذه المراتب لتأري القرآن كل ما هو بالقرآن ، وعلما بالفرقان ؛ وهو قريب عل من قرب الله عليه ، ولا ينفع بشئ ، مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه هل جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تنتم . فقد يندئ الطالب للعلم يريد به المباحاة والشرف في الدنيا ، فلا يزال به نهم العلم حتى يبين أنه عل خطأ في اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى ، فينفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كان نطلب العلم للفتيا فخرنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثوري . وقال حبيب بن أبي ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد .

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معرباً  
قال أبو بكر بن الأنباري : جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه وتابعيه رضوان  
الله عليهم من تفصيل إعراب القرآن ، والحض على تعليمه ، وذم الغن وكرايته ما وجب به على  
قراءة القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه .

الأصوات . وأمره فانه عربي والله يحب أن يعرب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أمروا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد قال : قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : إعراب القرآن أحب البنا من حفظ حروفه . وعن الشعبي قال : قال عمر رضي الله عنه : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : لم يبق أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر صفتان ممن قرأ بشير إعراب . وروى ابن جريج عن عطية عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب العرب ثلاث لائق عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى » . وروى سفيان عن أبي حمزة قال : قيل للحسن في قوم يتعلمون العربية قال : أحسنوا ، يتعلمون لغة نبيهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماما يلحن ، قال : أخروه .

وعن ابن أبي مليكة قال : قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : من يقرئني مما أتول الله على عبد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فأقرأه رجل براءة ، فقال : أن الله برئ من المشركين ورسوله بالحق ، فقال الأعرابي : أو قد برئ الله من رسوله ! فإن يكن الله برئ من رسوله فانا أبرأ منه ؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدماء ، فقال : يا أعرابي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني قسمت المنية ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني ، فأقرأني هذا سورة براءة ، فقال : أن الله برئ من المشركين ورسوله ، فقلت : أو قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فانا أبرأ منه ؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي ، قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : ( أن الله برئ من المشركين ورسوله ) فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ؛ فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود فوضع النحو .

وعن علي بن الحسن قال : سمعت شعبة يقول : مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية مثل الجمار عليه غلالة لا علف فيها . وقال حماد بن سلمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربية فهو كمثل الجمار تعلق عليه غلالة ليس فيها شئ . قال ابن عطية : إعراب القرآن أصل في الشريعة ، لأن ذلك تقوم معانيه التي هي الشرح .

قال ابن الأثيري : وسمي عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقاصمهم رضوان الله عليهم ، من الاحتياج على غريب القرآن وشكله باللغة والشعر ما بين صحة مذهب الصحويين في ذلك ، وأوضح



فساد مفاهيم من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدثنا ابن أبي مرزوق قال : أنبأنا ابن فروخ ، قال أخبرني أسامة قال أخبرني عكرمة : أن ابن عباس قال : إذا سالتوني عن غريب القرآن فالتبسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب . وحدثنا إدريس ابن عبد الكريم قال حدثنا خلف قال حدثنا حماد بن زيد عن علي بن زيد بن جدعان قال سمعت سعيد بن جبير ويوسف بن مهران يقولان : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة عن ابن عباس ، وسأله رجل عن قول الله جل وعز : ( وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ ) قال : لا تلبس ثيابك على غدر ، وتخل بقول غيلان التميمي :

فاني بمجد الله لا توب غدير      لست ولا من سوة أنتج

وسأل رجل عكرمة عن الزم قال : هو ولد الزنا ، وتخل بيت شعر :

زيم ليس يعرف من أبوه      يعني الأم ذو حسب لبي

وعنه أيضا الزم : الدعى الفاحش اللئيم ، ثم قال :

زسيم نداءه الرجال زيادة      كما زيد في عرض الأديم الكارعة

وعنه في قوله تعالى : ( ذَوَاتَا أَنتَانِ ) قال : ذواتا ظل وأغصان ، ألم تسمع الى قول الشاعر :

ما حاج شوقك من هديل حامية      تدعو على قن النصوص حساما

تدعو أبا قرحين صادف طائرا      ذا عجلين من الصقور قطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ( فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ) قال : الأرض ، قاله ابن عباس ،

وقال أمية بن أبي الصلت : «عندهم لم يبحر ولم ساهرة» . قال ابن الأثيري والرواة يروون هذا البيت :

وفيا لهم ساهرة ويحير      وما فاهوا به لم يقيم

(١) أورد الأوسى في تفسيره روح المعاني هذا البيت عند قوله تعالى « وثيابك فطهر » برواية أخرى هكذا :

فاني بمجد الله لا توب تابي      لست ولا من سوة أنتج

(٢) كذا في الأصول ولعل ابن عباس يريد ما قصه البيت الذي قاله أمية والذي ذكره ابن الأثيري فباطل وقد مرز

قول ابن الأثيري صاحب السان في مادة سهر وما فيه تفسير روح المعاني ج ١ ص ٢٨٦ طبع د لاق .

وقال تابع بن الأوزق لابن عباس: أخبرت عن قول الله جل وعز: ﴿لَا تَأْخُذْ بِهِ وَلَا تَوَلِّهِ﴾<sup>(١)</sup> ما السنة؟ قال: الناس؛ قال زهير بن أبي سلمى:

لَا يَسْكُنُ فِي طَوْلِ الْبَلِّ تَأْخُذُهُ • وَلَا يَسْلُمُ وَلَا فِي أَمْرِهِ قَدْ

### باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله

قال علامنا رحمه الله عليهم:

وأما ما جاء في فضل التفسير من الصلوة والتأبين، فمن ذلك: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم؛ فقال له رجل: - جعلت فداك - تصف جابرا بالعلم وأنت أنت! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَصَادِقِهِ﴾. وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل، وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيها أنزل وما يعني بها. وقال الشعبي: رجل سرور إلى البصرة في تفسير آية، فقبل له ابن الذي يفسرها رجل إلى الشام، فجهز ورجل إلى الشام حتى علم تفسيرها. وقال عكرمة: في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَابِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو خزيمة بن حبيب وسيأتي. وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المراتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يعني الإيهاب، فسأته فقال: هي حفصة وعائشة. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يملكون تفسيره، كمثل قوم يلطمون كلب من ملكهم لئلا وليس عنهم مصباح، فتداخلكم روعة ولا يدرون ما في الكلب؛ ومثل الذين يقرءون التفسير كمثل رجل يلطم مصباح فقرأوا ما في الكلب.

### باب ما جاء في حلال القرآن ومن هو وفيمن علماؤه

قال أبو عمر: روى من وجوه فيها لين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من نظم جلال الله إكرام ثلاثة، الإمام للقيسط، ونبي الشيعية للمسلم، وحامل القرآن غير النال فهووا الجاني عنه»

وقال أبو عمر : وحلة القرآن هم المأمون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ؛ والمأمون بمأثقه . وروى  
أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « القرآن أفضل من كل شيء » فمن قرأ القرآن فقد وقرأه  
ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى حلة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المظنون كلام الله  
المليسون بورد الله فمن والاه فقد والى الله ومن نكاهه فقد استخف بحق الله تعالى .

### باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمة

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول : من حرمة القرآن ألا يسه إلا طامرا .  
ومن حرمة أن يقرأ وهو على طهارة . ومن حرمة أن يسك ويخالف فيطيب فاه ، إذ هو طريقه ،  
قال يزيد بن أبي مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن ، فطهروها ونظفوها ما استطعتم . ومن  
حرمة أن يتلبس كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج . ومن حرمة أن يستقبل القبلة لقراءته .  
وكان أبو العباس إذا قرأ أتم ولبس ولرعى واستقبل القبلة . ومن حرمة أن يتضمض كما تنح .  
روى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه قود إذا تنح فتنمض ثم أخذ  
في الذكر وكان كلما تنح فتنمض . ومن حرمة إذا تناب أن يسك عن القراءة لأنه إذا قرأ  
فهو مخاطب به وساج ، والتأذي من الشيطان . قال مجاهد : إذا تنابت وأنت تقرأ القرآن فأسك  
عن القرآن تعظيما حتى يلعب تتأذي . قال عكرمة : يريد أن في ذلك الفعل إجلالا للقرآن . ومن  
حرمة أن يستمد بالله عند ابتدائه القراءة من الشيطان الرجيم ، وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن  
كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ . ومن حرمة إذا أخذ في القراءة لم يقطعها  
ساعة فساعة بكلام الأديمين من غير ضرورة . ومن حرمة أن يتلو قراءته حتى لا يقطع عليه أحد  
بكلام فينقطعه بمواجه ، لأنه إذا نزل ذلك عنه سلطان الاستعانة الذي استند في البدء . ومن  
حرمة أن يقرأ على قعدة وترسيل وترتيل . ومن حرمة أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يستل  
ما يخاطب به . ومن حرمة أن يقف على آية الومد فيرجع إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن  
يقف على آية الومد فيستخير الله به . ومن حرمة أن يقف على آية فيستأجر ، ومن حرمة أن  
يخمس غير آية . ومن حرمة أن يردى لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ غالبا ، وإن

له بكل حرف عشر حركات. ومن حرمة اذا انتهت قراءته أن يصلي ربه ويشهد بالبلاغ لرسوله صلى الله عليه وسلم، وشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صليت ربنا وبلغ رسولك. ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم اجعلنا من شهداء الحق، الفائزين بالنسب، ثم يدعو بدعوات، ومن حرمة اذا قرأه ألا يلتقط الآي من كل سورة قيراً، فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه من يلا له وهو يقرأ من كل سورة شيئاً فأمره أن يقرأ على السور أو كما قال. ومن حرمة اذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشوراً وألا يضع فوقه شيئاً من الكتب حتى يكون أبداً عالياً لساير الكتب، علماً كان أو غيره. ومن حرمة أن يضعه في حجره اذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمة ألا يحمله من اللوح بالصاق ولكن يمسكه بالماء. ومن حرمة اذا غسله بالماء أن يتوق النجاسات من الموضع التي توطأ، فإن تلك التساللة حربة، وكان من قبلنا من السلف منهم من يستشيئ بفسالته. ومن حرمة ألا يتخذ الصحيفة اذا بليت ودست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يحومها بالماء. ومن حرمة ألا يخل يوماً من أيامه من النظر في المصحف سرراً. وكان أبو موسى يقول: إني لأستحي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة. ومن حرمة أن يعطى عينيه حظهما منه فإن العين تؤذي إلى النفس وبين النفس والمصدر حجاب، والقرآن في الصدر فإذا قرأه عن ظهر قلبه فإنه يسمع أذنه فتؤذي إلى النفس، فإذا نظر في الخط كانت العين والأذن قد اشتراكا في الأداء وذلك أوفر للأداء؛ وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة» قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: «النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند مجاشئه». وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل عادة أمتي قراءة القرآن نظراً». ومن حرمة ألا يتأوله عند ما يعرض له شيء من أمر الدنيا. حدثنا عمرو بن زياد الحنظلي قال حدثنا هشام بن بشير عن المنيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شيء من القرآن عند ما يعرض له شيء من أمر الدنيا، والتأويل مثل قولك للرجل اذا جاءك: جئت على قدر يا موسى؛ ومثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَامْشَوْا هَيْهَاتَ﴾ وما أشبهتم في الألفاظ الخالية هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا. ومن حرمة ألا يقال: سورة كنا نقولك: سورة التحمل وسورة البقرة وسورة النساء ولكن يقال: السورة التي يذكر فيها كذا. قلت: هذا يمارسه

قوله صلى الله عليه وسلم : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كُتِبَ له » ختمه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود . ومن حرته ألا يتل من كُتِبَ له معنى الصيام يتمس أحدهم بذلك أن يرى الخلق من نفسه والمهارة ، فإن تلك مخالفة . ومن حرته ألا يقرأ في قراءة كُتِبَ له هؤلاء المعززين المبتدئين المتعطئين في إيراد الكلام من تلك الأتواء المقتنة تكلفاً ، فإن ذلك محدث أتاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرته ألا يقرأ بالحناء الفناء كلحون أهل القسق ولا يترجى النصرارى ولا نوح الرومانية ، فإن ذلك كله زنج وقد تقدم . ومن حرته أن يجمل تحطيطه إذا خطه . وعن أبي حكمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فزعموا أن الله تعالى نظر إلى كتابته ، فقال له : أجل قلبك ، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطاً ، ثم كتبت وعلى رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتي ، فقال : هكذا توره كما توره الله عز وجل . ومن حرته ألا يحجر بعض على بعض في القراءة فيفسد عليه حتى ينفض اليه ما يسبح ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرته ألا يمارى ولا يجادل فيه في القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة بآية من القرآن ، فيكون قد مجد كتاب الله . ومن حرته ألا يقرأ في الأسوان ولا في مواطن اللط واللفو ويجمع السناه ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم إذا مروا باللفو مرواً كراماً ، هذا لمروده بنفسه ، فكيف إذا مر بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهراني أهل اللغو ويجمع السناه . ومن حرته ألا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ولا يرى به إل صاحبه إذا أراد أن يتاوله . ومن حرته ألا يصفر المصحف ، روى الأعمش عن إبراهيم بن علي رضى الله عنه قال : لا يصفر المصحف . قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفاً صغيراً في يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فصره بالذرة ، وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مسجدة أو مصحف . ومن حرته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرته ألا يجلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا . وروى مشقة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يجلى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلّم عند رموس الآى أو يصغر . وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا زعمتم مساعدكم وتعليم مصاحفكم فالدبار عليكم » وقال ابن عباس رأى مصحفاً قد زين بفضة : ترون يد السارق ، وزينه في جوفه .

ومن حرمة ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل بهذه المساجد الحديثة . حدثنا محمد بن علي  
 الشنقي عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن حفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز  
 يحدث قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب في أرض ، فقال لشاب من هذيل : « ما هذا »  
 قال : من كتاب الله كتبته يهودي ، فقال : « لعن الله من فعل هذا ، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه » .  
 قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز أبا له يكتب القرآن على حائط فصر به . ومن حرمة  
 أنه إذا غسل بكتابه مستنفا من سقم ألا يصبه على كاسة ، ولا في موضع نجاسة ولا على موضع  
 يوطأ ، ولكن ناحية من الأرض في بقعة ، لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفرة في موضع طاهر حتى ينصب  
 من جسده في تلك الحفرة ثم يكبها ، أو في نهر كبير يختلط بمائه فيجري . ومن حرمة أن يفتح  
 كما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من  
 أول القرآن قدر خمس آيات ، لتلا يكون في هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال : جاء رجل  
 فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « عليك بالحلال المرحل » قال : وما الحلال أذرحل ؟  
 قال : « صاحب القرآن يضرب من آتله حتى يبلغ آخره ثم يضرب من آتله كما حل أرحل » .  
 قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنباري أن أبا إدريس حدثنا  
 خلف حدثنا وكيع عن سمر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا .  
 وأخبرنا إدريس حدثنا خلف حدثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعبد بن أبي لبابة  
 وقوم يرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يغموا وجهوا إليها أحضروا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم  
 القرآن . وأخبرنا إدريس حدثنا خلف حدثنا هشام الثؤامي عن إبراهيم عن التيمي قال : من ختم القرآن  
 أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي ، ومن ختم أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح ؛  
 قال : فكأنوا يستحبون أن يغموا أول الليل وأول النهار . ومن حرمة ألا يكتب التلاويذ ثم يدخل  
 به في الخلاه إلا أن يكون في خلاف من آدم أو نضة أو غيره ، فيكون كأنه في صدرك . ومن حرمة أن  
 يكتبه بشره سمي الله بن كل نفس وعظم أمة فيه فإن الله يؤتيه على قدره . روى إيت عن مجاهد  
 قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه للمريض . وعن أبي جعفر قال : من وجد في قلبه قسوة  
 فليكتب « يس » في جلم يضر فإن ثم يشربه . قلت : ومن حرمة ألا يقال : سورة صغيرة ؛ وكرة

أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ، وقال ابن سبويه قالما : أنت أصغر منها ؛ وأما القرآن فكله عظيم ذكره مكى رحمه الله . قلت : وقد روى أبو داود ما يمرض هذا من حديث عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده أنه قال : ما من المفضل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم بها الناس في الصلاة .

### باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأى والجرأة على ذلك ومراتب المفسرين .

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بسيد عليه إيمان جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث في مفاتيح القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا ، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى . ومن جملة منيائته ما لم يعلم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها ، مما يستغنى من الفناخلة كمكسد التفخات في الصور ، وكثرة خلق السموات والأرض . روى الترمذى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كتب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » . وروى أيضا عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » . قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود وتكلم في أحاديثه . وزاد رزين : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم ابن بشر بن محمد الأنبارى النحوى القفوى في كتاب الرد : فسر حديث ابن عباس تفسيرين : أحدهما من قال في شكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لخطأ الله . والجواب الآخر وهو أثبت القولين وأصحهما معنى : من قال في القرآن قولاً بطل أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار . ومعنى يتبوأ : يتزل ويحبال ، قال الشاعر :

وَبُوتَ فِي صَمِيمٍ مَتَّيْهَا      فَسَمَّ فِي قَوْمِهَا نَبِيًّا

وقال في حديث جندب : تحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الراى متى به المولى : من قال في القرآن قولاً يوافق قوله ، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ الحكيم .

(١) بد في لسان العرب فليتبوأ خسراناً لهذا البيت : أي تلت من الكرم في صميم

بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والفتل فيه . وقال ابن عطية : ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى من كتاب الله عز وجل فيستدبر عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين السلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لتبني والتجويين نحوه والتفقه معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر ، فإن التسائل على هذه الصفة ليس قائلاً لمجرد رأيه . قلت : هذا صحيح وهو الذي اختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سح في وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو غلط ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناه فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وهذا فاسد لأن النبي عن تفسير القرآن لا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط ، أو المراد به أسرا آخر ، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم قد قرءوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس وقال : « اللَّهُمَّ فَفِّهْ فِي آلِ النَّبِيِّ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ » فإن كان التأويل مسموعاً كالتبريل فما فائدة تخصيصه بذلك . وهذا بين لا إشكال فيه ؛ وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة النساء إن شاء الله تعالى . وإنا النبي يحمل على أحد وجهين « أحدهما أن يكون له في الشيء ، رأي ؛ واليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأي والموى لكان لا يوجب له من القرآن ذلك المعنى ؛ وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالشيء يخرج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو مسلم أن ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يلبس على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك إذا كانت الآية محتملة ليعمل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسر برأيه أي رأيه حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي ، فيقول : قال

(١) من قيل : سبق الحائط إذا صد عليه وبين به هذا التهم بالإقدام بغير صيرة ولا تدبر .



الله تعالى : ( اَنْهَبْ اِلَى فِرْعَوْنَ اِنَّهُ ظَنَّى ) ويشير الى قلبه ويؤى الى انه المراد فرعون ، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوناط في المناقضة الصحيحة تحديا للكلام وترغيا للسمع ، وهو ممنوع لانه قياس في اللغة ، وذلك غير جائز . وقد قسمه الباطنية في المناقضة المتقدمة لتعريف الناس ودعوتهم الى مذاهبهم الباطلة ، فيقولون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا انها غير مرادة . فهذه الفتون أحد وجهي الخع من التفسير بالزأى ، الوجه الثاني أن يتنازع الى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسباع والنقل فيا يتناقض بترائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المهمة والمبسطة <sup>(١)</sup> ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ، فن لم يُعَيِّم ظاهر التفسير ويدار الى استنباط المعاني فيؤخذ فهم العربية كثر غلطه ، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالزأى ، والنقل والسباع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولا ليتقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتبع القهم والاضطباب ، والتراب الى تهم الا بالسباع كثيرة ولا مطمع في الوصول الى الباطن قبل احكام الظاهر ، الا ترى أن قوله تعالى : ( وَآتَيْنَا نُحُودَ الْاَفْئَةِ مَبِصْرَةً مُّتَقَلِّبُوا فِيهَا ) معناه آية مبصرة فظالموا أنفسهم بقلها ، فأناظر الى ظاهر العربية بطلن أن المراد به أن الائمة كانت مبصرة ، ولا يدعى بمنا ظلموا وانهم ظلموا غيرهم وأفسدهم ، فهذا من الحذف والإضمار ، وأمثال هذا في القرآن كثير وما منا هذين الوجهين فلا يتطرق اليه والله أعلم .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كسبوا بن السيب وعامر الشعبي وغيرهما ينظرون تفسير الترائف ويتوقعون عنه توزعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم . قال أبو بكر الأثيري : وقد كان الأئمة من السلف الماخى يتوزعون عن تفسير المشكل من القرآن ، فبعض يقولون الذي يفهمه لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحجَم من القول ، وبعض يُكفَى من أن يصل في التفسير إماما يُخَي على مذهبه ويُتخى طريقه ، فقلل متأخرا أن يفسر حرفا بآيه ويخطئ فيه ، ويقول : إمامي في تفسير القرآن بالزأى فلان الإمام من السلف . ومن ابن أبي مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أى سمعته يُقَالُ ، وأى أَوْضَحَ يُقَالُ ! وابن أنهب ! وكيف أصح ! أنا قلت في حرف من كتاب الله فسرنا أراد تبارك وتعالى .

قال ابن عطية : وكانت جملة من السلف كثير عدهم يفسرون القرآن وهم أقوا على المسلمين في ذلك رضى الله عنهم ، فاما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلى بن ابي طالب رضى الله عنه ، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو يجتهد فيه للأمر وكله وتبعه العلماء عليه كجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن من علي بن ابي طالب ، وكان علي رضى الله عنه يتقلى على تفسير ابن عباس وبعض على الأخذ عنه ، وكان ابن مسعود يقول : **نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس** . وقال عنه علي رضى الله عنه : **ابن عباس كأنما ينظر الى النبي من ستر رقيق** . ويتلوه عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص ؛ وكل ما أخذ عن الصحابة فحسن مقدم لشيدهم التريل وتروله بلتهم . وعن ناصر بن واثلة قال : شهدت علي بن ابي طالب رضى الله عنه يخطب فسمعتة يقول في خطبته : **سألت فوائله لا تسألوني عن شيء يكون الى يوم القيامة إلا حدثتكم به** ، سألتني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا أنا أعلم **أبيل نزلت أم بنهار أم في سهل نزلت أم في جبل** ؛ فقام اليه **ابن الكتوة** فقال : **يا أمير المؤمنين ما التلويح قدروا؟ وذكر الحديث** . وعن المنال بن عمرو قال : قال عبد الله بن مسعود : **لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه المعلى لأتيته** ؛ فقال له رجل : أما لقيت علي بن ابي طالب ؟ فقال : **بلى قد لقيته** . وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل الإخاذ يروى الواحد والإخاذ يروى الإثنين ، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصلدهم ، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ ؛ ذكر هذه المناقب أبو بكر الأثيري في كتاب الرد ، وقال : **الإخاذ عند العرب : الموضع الذي يحبس الماء كالندى** . قال أبو بكر حسنا ١٠٠ . بن الحليم بن خالد حسنا أحمد بن عبد الله بن يونس حسنا سلام عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« أرحم أمي يا أبو بكر وأقوام في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأفضلهم علي وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل**

(١) بن قريظ ؛ أبيت على فلان إذا أخفت عليه ورجحه .

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أوفى الشكري كافي في تاريخ الطبري في عدة مواضع .

(٣) جاء في حاشية عباس الأمل ؛ أنه سمى زيدا للمساواة كان ينادى من ربه يا نعم . ويضاف ترتيب الترتيب عند التكرار على اسم زيد المذكور ؛ أنه تبت بذلك لأنه كان إذا سئل عن النبي - يقول : حتى أسأل عني .

أبي بن كعب وأعلمهم بالخلال والحلوم معاذ بن جبل وأمين هذه الأمة أبو عيسى بن الجراح وأبو هريرة وطه من العلم وسلمان بحر من علم لا يدرك وما أنزلت الحضرة ولا أقلت التبراه - أوقال - : البطحاء من ذى طيبة أصدق من أبي ذر .

قال ابن عطية : ومن المبرزين في التابعين الحسن البصري - ويجاهد وسعيد بن جبير وعائشة ، قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة فهم ووقوف عند كل آية ، ويتلوهم صكرمة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس ، وإنما أخذ من ابن جبر ، وأما السدي فكان عامر الشيء <sup>١١١</sup> يطن عليه وعلى أبي صالح لأنه كان يراها مقصدين في النظر . قلت : وقال يحيى بن معين : الكلبي ليس بشيء . وعن يحيى ابن سعيد القطان عن سفيان قال : قال الكلبي : قال أبو صالح : كل ما حشرك كذب . وقال حبيب بن أبي ثابت : كنا نسبه للثوروخ زن - يعني أبا صالح - مولى أم هانئ ، والثوروخ زن : هو الكتاب بلفظ القوس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « يجعل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » نحوه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علي البغدادي : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف ، والانتحال الباطل ، ورد تأويل الأئمة الجاهل ، وأنه يجب الرجوع إليهم ، والمعول في أمر الدين عليهم ، رضي الله عنهم .

قال ابن عطية : وأنت الناس فيه كبد الرزاق والمفضل وعلى بن أبي طلحة والبخاري وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير رحمه الله جمع كل الناس أشباه التفسير ، وقرب البعيد منها وشقي في الإسناد . ومن المبرزين من التابعين أبو إسحاق الزجاج وأبو علي الفارسي ، وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النعمان فكثيرا ما استترك الناس طبعهما . وعن أبي طالب رضي الله عنه وأبو العباس الكاهنوني <sup>١١٢</sup> قال : وكلهم مجتهد ما جود رحمهم الله ونظر وجودهم .

(١١) أبو طالب بن عبد الله بن أبي طالب كان الخليفة في الخلافة .

### باب تبيين الكتاب بالأسنة وما جاء في ذلك

قال الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاكَ الْكِتَابَ الْكَافِرَ لِلنَّاسِ مَا تَزِلُّ بِهِمُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن ابن يزيد : أنه رأى عمرًا عليه ثيابه فنهى المحرم ؛ فقال : انتهى بآية من كتاب الله تنزع ثيابه ؛ قال : اقرأ عليه ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وعن هشام بن عمار قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : اتركهما ؛ فقال : إنا نبني عنهما أن نخدنا سنة ؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ؛ فلا أدري أتعذب عليهما أم تؤجر ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ . وروى أبو داود عن المقدام بن معديكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا واني قد أوتيت الكتاب ومشله معه ألا يوشك رجل شبعان على أركته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يخل لكم الخمار الأهل ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطعة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن زل يقوم فليقيم أن يقرؤه فان لم يقرؤه فله أن يعقبنه بمثل قراءه » .

قال الخطابي : قوله « أتيت الكتاب ومشله معه » يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أن معناه أنه أوتي من الروح الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو ، والثاني أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى ، وأوتي من اليان مشله أي أذن له أن يبين ما في الكتاب فيم ويخص وي زيد عليه ويشرح ما في الكتاب ؛ فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كإظهار المتلو من القرآن ؛ وقوله « يوشك رجل شبعان » الحديث ، يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التي منها ما ليس له في القرآن ذكر كل ما ذهب إليه الخوارج والروافض ، فانهم تلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد خفحت بيان الكتاب ؛ قال : فتعبروا وضلوا ؛ قال والأريكة : السرير ؛ ويقال : إنه لا يسمى

(١) جبرية ويسمى مفرقا في التلاوة في أسماء الرجال .

أريكة حتى يكون في جملة ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفه والذمة الذين لم يأتوا للبيت ولم يطلبوا العلم من مظانه ؛ وقوله : « إلا أن يستغنى عنها صاحبها » معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها ؛ كقوله : « ( تَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَقْنَى اللَّهُ ) » معناه تركهم الله استغناء عنهم ؛ وقوله : « وقوله أن يعقوب بمنزل قراه » هذا في حال المضطر الذي لا يجد طعاما ويتأفف التأفف على نفسه ، فله أن يأخذ من ما لم يقدر قراه عوض ما حرمه من قراه . ويقعهم يروي مشددا وغفقا من المماقية ، ومنه قوله تعالى : « ( وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ) » أي فكأن التوبة لكم فنستم منهم ، وكذلك لهذا أن يقيم من أموالهم بقدر قراه ؛ قال : وفي الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يمرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءك الحديث فأعرضوه على كتاب الله فإني والله تقفوه وإن لم يوافقكم فأتركوه » فإنه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان يجمل في الكتاب ، كيانه للصلوات الخمس فهو لقبها ومجموعها ودفعها وسائر أحكامها ، وكيانه لمقتل الزكاة ووقتها وما الذي تؤخذ منه من الأموال ، وبيان لمناك الحج ، قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : « خذوا عني مناسككم » وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلي » أخرجه البخاري . وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل : إنك رجل أحمق ، أتعبد الظهور في كتاب الله أربا لا يجهز فيها بالقراءة ؟ ثم مدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتعبد هذا في كتاب الله تعالى فمفسرا ! إن كتاب الله تعالى أهم هذا ، وإن السنة فسر هذا .

وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك ، وروى سعيد بن منصور : حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن . وبه عن الأوزاعي قال : قال يحيى ابن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب بقاض على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السنة قاضية على الكتاب ، فقال : ما أجسر من هذا أن أقوله ، ولكني أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبينه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الخمر  
الأهلية وكل ذي ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك ، على ما يأتي بسأله  
إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وستة نبيه صلى الله عليه وسلم  
وما جاء أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الباقى في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبي : أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم المشر فلا يجاوزونها إل عشرين أخرى حتى يتعلموا ما فيها  
من العمل ، فيعلموا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء بن السائب عن  
أبي عبد الرحمن السلمي قال : كما إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم المشر التي بعدها حتى  
نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفي موطأ مالك : أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة  
البقرة ثمانى سنين يتعلمها . وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ في كتابه المسمى في ذكر أسماء  
من روى عن مالك : عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعري قال : حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر  
قال : تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنباري : حدثني  
محمد بن شهر بن حوشب عن حسين بن الأسود حدثنا عبد الله بن موسى عن زياد بن أبي مسلم عن أبي عمرو  
عن زياد بن غزاق قال : قال عبد الله بن مسعود : إذا صمب علينا حفظ ألفاظ القرآن ، ويسهل  
علينا العمل به ، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ ألفاظ القرآن ، ويصمب عليهم العمل به .

حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا الفضل بن دكين حدثنا اسماعيل بن إبراهيم  
ابن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن ابن عمر قال : كان الفضائل من أصحاب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، وروفوا العمل بالقرآن ،  
وإن تمر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يروفون العمل به . حدثني حسن  
ابن عبد الوهاب أبو محمد بن أبي الصير حدثنا أبو بكر بن حماد المقرئ قال : سمعت حنبل بن هشام

(١) مكانا في . . . (٢) في بعض النسخ « عبد الله » .

البنارى يقول : ما أظن القرآن إلا طرية في أيدينا ، وذلك أنا رويت أن عمر بن الخطاب يحفظ البقرة في بضع عشرة سنة ، فلما حفظها نخرجوا شكرًا لله ، وإن اللام في دهرنا هذا يحل بين يدي فقراء ثلث القرآن لا يسقط منه حرفاً ، فاحسب القرآن إلا طرية في أيدينا . وقال أحسن العلم بالحديث : لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه ودون معرفته وفهمه ، فيكون قد أنصب نفسه من غير أن يظفر بباطل ، ولكن تحفظه الحديث على التدرج قليلاً قليلاً مع الليالي والأيام . وعن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وأبن عيسى ومعمار ، قال معمر : سمعت الزهري يقول : من طلب العلم جملة فاته جملة ، وإنما يدرك العلم حديثاً وحديثين والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : اعلوا ما شئتم أن تعلموا فلن يجرمكم الله بعلومه حتى تعملوا . قال ابن عبد البر : وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل قول معاذ من رواية عباد بن عبد الصمد ، وفيه زيادة أن العلماء همتهم الدراية ، وأن السفهاء همتهم الرواية . وروى موقفاً وهو أولى من رواية من رواه موقفاً ، وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يحتاج به ، ولقد أحسن القائل في نظمته في فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسنة النبوية :

إن العلوم وإن جلت عاينها	فتأجها ما به الإيمان قد وجبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه	وبسبب ذلك علم فتوح الكوا
فذلك فاعلم حديث المصطفى فيه	نور النبوة من التنوير والأدبا
وبعد هذا علوم لا آتياه لها	فاختر لضحك يامن أثر الطلبا
والعلم كثر تجسده في مادته	ياها الطالب أبحث وأنظر الكتب
واقل بهم كتاب الله فيه أنتا	كل العلوم تدبره تر السجدا
وأقرأ حديث حديث المصطفى وسيل	مولانا ما انتهى يقضى لك الأدبا
من ذاق طعم العلم العن سره	أنا تريد منه قال وأطربا

باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «إن هذا القرآن

أنزل على سبعة أحرف فأقرعوا ما تيسر منه»

روى مسلم عن أبي بن كعب : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضواء بن غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمك القرآن على حرف ، فقال : «سأل الله معافاته ومنغفرته وإن أمي لا تطيق ذلك» ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمك القرآن على حرفين ؛ فقال : «سأل الله معافاته ومنغفرته وإن أمي لا تطيق ذلك» ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمك القرآن على ثلاثة أحرف ؛ فقال : «سأل الله معافاته ومنغفرته وإن أمي لا تطيق ذلك» ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمك القرآن على خمسة أحرف فأما حرف قرعها عليه فقد أصابوا . وروى الترمذي عنه قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل ، فقال : «يا جبريل إني بعثت إلى أمة أمية منهم المعجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية : الرجل الذي لا يقرأ كتاباً قط فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف» قال : هذا حديث حسن صحيح ، وثبت في الأهمات : البخاري ومسلم والموطأ وأبي داود والنسائي وغيرهما من المصنفات والمستندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسأيت بكاه في آخر الباب .

- وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال :

- الأول وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسنيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتعارفة بالفاظ مختلفة ، نحو أنزل وتعال وحلم . قال الطحاوي : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكر قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ على حرف ؛ فقال ميكائيل : استرده ، فقال : اقرأ على حرفين فقال ميكائيل : استرده حتى بلغ إلى سبعة أحرف ؛ فقال : اقرأ فبكل شأف كاف إلا أنه تخطأ آية رحمة بآية عذاب أو آية

(١) الأمانة : غدير صبير وقيل : هو . بئر الماء إلى الندي . وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وقيل .

توبة من مخالفة .



عذاب بآية رحمة، على نحوهم وتعال وأقبل وانهب وأسرع وعجل. وروى ورفاه عن ابن أبي نجیح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب : أنه كان يقرأ : ( الَّذِينَ كَفَرُوا ) للذين آمنوا أهلوا، للذين آمنوا انكروا، للذين آمنوا ارتكبوا . وبهذا الاستدلال عن أبي كان يقرأ : ( كَلِمًا أَمْيًا لَمْ يَشْرَوْا فِيهِ ) مروا فيه، سوا فيه . وفي البخاري ومسلم قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنما كانت السبعة للثلاث في الحروف لمعجم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، فلما شق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولورام ذلك لم يتبها له إلا بمشقة عظيمة ، ولم يلم في اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقاً ، فكانوا كذلك حتى كثرت منهم من يكتب وعادت لغاتهم ، لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففسدوا بذلك على تحفظ الألفاظ ، فلم يسمعهم جيلنا أن يقرء غلظتها . قال ابن عبد البر : فإن بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لفرضه دعوت إلى ذلك ، ثم أوقفت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف أحد .

وروى أبو داود عن أبي قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا عبد الله أتدري أني أموت القرآن فقيل لي على حرف أو حرفين فقال الملك الذي معي قل على حرفين فقيل لي على حرفين أو ثلاثة فقال للملك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شاف كاف إن قلت جميعاً عليا ، عزيراً حكماً ، ما لم تخط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بنذاب . واستأنفت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر من كلام ابن مسعود نحوه . قال القاضي ابن الطيب : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أبي — حل على أن هذا كان مطلقاً ثم نسخ ، فلا يجوز للثلاث أن يبدلوا اسماء الله تعالى في موضع غيره بما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثاني قال قوم : هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها : بينها وتزارما ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم شيئاً منها ، وكان قد أوتي جوامع الحكم ، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن ، فبعضها لغة قريش ، وبعضها لغة هذيل ، وبعضها لغة خزاعة ، وبعضها لغة اليمن ، قال الخطابي : على أن في القرآن

قريش سبعة أوجه، وهو قوله : (وَعِيدُ الطَّاعُونَ) . وقوله : (أَرَسَهُ مَعًا غَدًا يَرْجِعُ وَيَسْبُ) . وذکر وجوهاً كأنه ينذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله، وإل هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف على سبع لغات، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام وأخوه ابن عطية قال أبو عبيد : وبعض الأحياء أسندوها وأكثر حفظاً منها من بعض، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما اختلتم أتم وزيد فأكثوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهم . ذكره البخاري وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبيين كتب قريش وكتب نزاعة قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن اللسان واحدة . قال أبو عبيد : يعني أن نزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضي ابن الطيب رضي الله عنه : معنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره، ولم يتم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منقول بلغة قريش فقط، إذ فيه كلمات وحروف وهي خلاف لغة قريش، وقد قال الله تعالى : (أَنَا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) ولم يقل قريشاً، وهذا يدل على أنه منقول بجميع لسان العرب، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشاً من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون قحطان، أو ربيعة دون مضر، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولاً واحداً .

وقال ابن عبد البر : قول من قال : إن القرآن نزل بلغة قريش معناه حدى في الأغلب والله أعلم، لأن غير لغة قريش موجود في صحيح القراءات من تحقيق الممزلات ونحوها، وقريش لا تهجر . وقال ابن عطية : معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي فيه عبارة سبع قبائل بلغة بلهجات نزل القرآن، فيجوز عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بشعر ذلك بحسب الإصحح والأوجز في اللفظ، ألا ترى أن فطر معناه عند غير قريش ابتداء فاجتاز في القرآن فلم يتجه لابن عباس، حتى اختصم إليه أمريان في شيء، فقال أحدهما : أنا فطرناها، قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى : (فَأَطِيعُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) . وقال أيضاً : ما كنت أدري معنى قوله تعالى : (وَرَبَّنَا آتِنَا مِن مَّا نَحْنُ بِأَعْيُنِنَا) حتى سمعت بنت ذى رزن تقول لزوجها : تسأل أفلحك أي أخطأك، وكذلك قال عمر - الخليل . كذا لا يفهم معنى قوله تعالى : (أَوْ يَخْتَفِرْ

على تحريف ( أى على تنصص لهم . وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة : ( وَالنَّهْلَ بِأَسْفَلِ ) ذكره سلم في باب القراءة في صلاة النحر إلى غير ذلك من الأمثلة .  
القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون في مضر قاله قوم ، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر ، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكثانة ، ومنها لأسد ، ومنها لهذيل ، ومنها لثيم ، ومنها لثيبة ، ومنها لقيس ، قالوا : فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب ؛ وقد كان ابن مسعود يجب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وإنكار آخرون أن تكون كلها في مضر ، وقالوا : في مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها ، مثل كشكشة قيس ، وتممة تميم ، فاما كشكشة قيس فانهم يعملون كآب المؤث شيئا فيقولون في : ( جَعَلَ رَيْكَ تَحْتِكَ سِرًّا ) . جعل ريش تحتش سرى ، وأما تممة تميم فيقولون في الناس : التات ، وفي أكياس : أكيات ، قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهجزة عينا وإبدال حروف الحلق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجلهة واحتجوا بقراءة ابن مسعود : ليسجته عني حين ذكرها أبو داود ، وقول ذي الرمة :

فميناك عينا ما وجيدك جيدها • ولونك إلا عنها غير طائل

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء وحكى نحوه القاضي ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعا : منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته ؛ مثل : ( هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ) وأطهر ، ( وَيَضِيقُ مَسْدَى ) ويضيق ؛ ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب ؛ مثل : ( رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ) وباعد ؛ ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : ( تَنْشُرُهَا ) وتنشرها ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه : ( كَالْمُهَنَّى ) المنقوش ؛ وكالصورف المنقوش ؛ ومنها ما تتغير صورته ومعناه ؛ مثل : ( وَطَلَّحَ مَنُضُودٌ ) وطلع منضود ؛ ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : ( وَبَيَّعَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ) وبيعت سكرة الحق بالموت ؛ ومنها بالزيادة والتقصان مثل قوله : تسع وتسعون نسبة أثنى وقوله : وأما التلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين وقوله : فإن الله من بعد أكرهين لمن يقور رحم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى ، وهي أمر ونهى ووعيد ونقص ومجادة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفاً ، وإنما بالاجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شيء من المعاني . وذكر القاضي ابن الطيب في هذا المعنى حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هي التي أباح لهم القراءة بها ، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة ، ومع قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنْ يَعْلَمُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ فكذلك معنى هذا : الخبير على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » القراءات السبع التي قرأ بها القرآن السبعة ، لأنها كلها سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه على ما يأتي .

(فصل) قال كثير من علماء كالملاوي وابن أبي صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التي تسب هؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره ؛ وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيها روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعرف به ونسب إليه ، قليل : حرف قاف ، وحرف ابن كثير ، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكروا بل سؤفه وجزؤه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر وكل صحيح ، وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتقاد على ما سمع من هؤلاء الأئمة مما رويهم ورواه من القراءات وكثيراً في ذلك مصنفات ، فاستمر الإجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ؛ وعلى هذا الأئمة المتصبرون والفخلاء المحققون كلقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما . قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأعصار على قراءة السبعة وبها يصلى لأئمتنا ثبتت بالاجماع ، وأما شاذ القراءات فلا يصلى به لأنه لم يمنع الناس عليه ، أما أن للمروى منه عن الصحابة رضي الله عنهم وعن علماء التابعين فلا نتخذ فيه إلا أنهم رويوه ، وأما ما يؤخر عن أبي الساج ومن قارنه فإنه لا يوثق به ، قال غيره : أما شاذ القراءة عن المعانيف المشاورة فلا تستقرآن ، ولا يعمل بها على أنها منه ،

وأحسن عاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت إليه كقراءة ابن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات ، فأما لو صرح الراوي بسامعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأختلف العلماء في العمل بذلك على قولين : الثاني والاحبات ، ووجه الثاني أن الراوي لم يروه في معرض التبريل في معرض القرآن . ولم يثبت فلا يثبت ، والوجه الثاني أنه وإن لم يثبت كونه قرأاً فقد ثبت كونه سنة ، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الاحاد .

فصل في ذكر معنى حديث عمرو هشام . قال ابن عطية : أباح الله تعالى لبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام في عرضاته على عرضاته التي فيه الإعجاز وجودة الرصف ، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام : « قلتموا ما تيسر منه » بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن ينقل القصة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا لتعيب إعجاز القرآن ، وكان معرضاً أن ينقل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله ، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة التي صلى الله عليه وسلم ليوسف بها على أمته ، فأقرأ مرة لأبي بن عارضة به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً ، وعلى هذا نجي . فقرأه عمر بن الخطاب لسورة الفرقان ، وقراءة هشام بن حكيم لها ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في كل قراءة منهما ، وقد اختلفنا : « هكنا أقرأني جبريل » هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة به مرة به مرة به . وهذا يحمل قول أنس حين قرأ : إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب فلا يقل له : إنما قرأ وأقوم قِلا . فقال أنس : وأصوب قِلا وأقوم قِلا وأبى واحد ، فأما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : ( إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) . وروى البخاري ومسلم وفيهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرئها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأها ، فكنت أن أعجل عليه ، ثم أمهله حتى انصرف ثم ليته برداه ، جفت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرسله ، أقرأ » فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

”هكذا أنزلت“ ثم قال لي : ”اقرأ“ فقرأت فقال : ”هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل عل -  
أحرف فأقرءوا ما تيسر منه“.

قلت : وفي معنى حديث عمر هذا ، ما رواه مسلم عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد  
فدخل رجل يصلي ، فقرأ قراءة أنكرها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضيتا  
الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرها عليه ،  
ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم ، فقرأ أحسن النبي صلى الله  
عليه وسلم شأنهما ، فسقط في نفسي من التكذيب ولا اذ كنت في الجاهلية ، فلما رأيت النبي صلى الله  
عليه وسلم ما قد غشيتني ، ضرب في صدري ففصمت عرقا . وكأني أنظر الى الله تعالى فوقنا ، فقال :  
”يا أبي أرسل الي أن أقرأ القرآن على حرف فرددت اليه أن هون على أمي فردت الي الثانية أن أقرأه  
على حرفين فرددت اليه أن هون على أمي فردت الي الثالثة أن أقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة  
رددتها سألة تسألني فقلت : اللهم أغفر لأمي وأخبرت الثالثة ليوم يرغب الي فيه الخلق كلهم حتى  
إبراهيم عليه السلام“.

قول أبي رضي الله عنه فسقط في نفسي معناه اعترفتي سيرة ودهشة أي أصابته رغبة من الشيطان  
لبشوش عليه حاله ، ويكدر عليه وقته ، فانه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما في نفسه  
والأفأى شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله في النسخ  
التي هو أعظم ، فكيف بالقراءة !

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما أصابه من ذلك انحطاطه بان ضربه في صدره ، فاعقب  
ذلك بأن انشرح صدره وتوزر باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح الى حالة المعينة ؛ ولما ظهر  
له قبح ذلك انحطاط خاف من الله تعالى وفاض بالعرف استحياء من الله تعالى ، فكان هذا انحطاط من  
قيل ما قاله فيه النبي صلى الله عليه وسلم - حين سأله : إنا نجد في أنفسنا ما يتناغم أحدنا أن  
يتكلم به - قتل : ”وقد وجدتموه“ قالوا : نعم قال : ”ذلك صريح الإيمان“ أخرجه <sup>٢٢</sup> من حديث  
أبي هريرة . وسيأتي الكلام عليه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى .

باب ذكر جمع القرآن ومبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها  
وذكر من حفظ القرآن من الصلبة رضى الله عنهم في زمن النبي  
صلى الله عليه وسلم

كان القرآن في مدة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقا في صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه  
في صحف وفي جريد وفي لحاف وطُرِدَ وفي خزف وغير ذلك — قال الأصمعي : الحاف : حجارة بيض  
وقاق واحدتها ثلثة . والطرِد : حجر له حد كحد السكين والجمع طراد ؛ بـ ( الجـ ) و ( طـ ) و ( مـ ) و ( بـ )  
وزباع ، وطرد يطر أيضا مثل صرد وصردان — قلنا استحر القتل بالقراء يوم الجمعة في زمن الصديق  
رضي الله عنه ، وقتل منهم في ذلك اليوم نيا قيل سبائة ، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق  
رضي الله عنهما بجمع القرآن غافة أن يموت أشياخ القراء ، كآبى وابن مسعود وزيد ، فندبا يزيد بن  
ثابت إلى ذلك ، فجمعهم مرتب السور ، بعد تعب شديد ، رضي الله عنه ؛ روى البخاري عن زيد بن  
ثابت قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل الجمعة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال إن  
القتل قد استحر يوم الجمعة بالناس ، وإن أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير  
من القرآن إلا أن تمعه ، وإنى لأرى أن يجمع القرآن ؛ قال أبو بكر : فقلت لمسيكف أنزل شيئا لم  
يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعي حتى شرح الله قتلك  
صدري ، ورايت الذي رأى عمر ؛ قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لي أبو بكر : إنك رجل  
شاب عاقل ولا تهماك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتبّع القرآن فأجمعه ، فوالله  
لو كلفني قتل جبل من الجبال ما كان أهمل عليّ ما أمرني به من جمع القرآن ؛ قلت : كيف تفعلان  
شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح  
الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ؛ فثبتت القرآن أجمعه من الزناح والأكثاف  
والسب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع نزعة الأنصارى لم أجد هـام

(١) الأكلة : كلف وهو عظم مريض يكون في أصل كنف الحيوان كانوا يكتسبون فيه قلة القراطين عنه .

(٢) كلف : كلف وهو جريد القتل إذا نزع عنه عظمه .

غيره : ( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ) إلى آخرها . فكانت المصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثني عبد الرحمن بن غالب عن ابن شهاب وقال : مع أبي نزيمة الأنصاري ، وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع نزيمة أو أبي نزيمة ( فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعِزُّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ) .

وقال الترمذي في حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع نزيمة بن ثابت ( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعِزُّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ) . قال : حديث حسن صحيح .

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها ، لم أجدها مع أحد إلا مع حريمة الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين ( رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ) . وقال الترمذي عنه : فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها ( مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَيَسْخَرُ ) فالتفتها فوجدتها عند نزيمة بن ثابت أو أبي نزيمة ، فالحقها في سورتها . قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر براءة في الجمع الأول ، على ما قاله البخاري والترمذي ، وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة الأحزاب . وحكي الطبري : أن آية براءة سقطت في الجمع الأخير ، والأوّل اسمع والله أعلم . فإن قيل : لما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك ووقع منه ؛ قيل له : أن عثمان رضى الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسل إليك بالمصحف نسخها في المصاحف ثم زدها إليك على ما أتى ، وإنما فصل ذلك عثمان لأن الناس استنسخوا في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان واشتد الأمر في ذلك ، وعظم اختلافهم وتبهمهم ؛ ووقع بين أهل الشام والبرقي ما ذكره حفصة رضى الله عنه ، وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أرمينية قرأت كل طائفة بما روى لها ، فاختلّفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفاره بعض ، والبراءة منه وتلاعنوا ، فاشتق حفصة عما رأى منهم ؛ فلما قدم حفصة المدينة فبدأ ذكر البخاري



والترمذي دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ، قال :  
 فيأذا ؟ قال : في كلب الله ، إلى حضرت هذه القزوة وجمعت ثاسا من السراق والثام والجحاز ،  
 فوصف له ما تقدم وقال : إلى أخشي عليهم أن يختفوا في كلهم كما اختفى اليهود والنصارى .  
 قلت : وهذا أدل دليل على طلاق من قال : إن اللزاد بالأحرف النسبة قوامات القزوة السبعة ،  
 لأن الحق لا يختب فيه ، وقد روى سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالب أن عثمان قال : ما ترون  
 في المصاحف فإن الناس قد اختفوا في القرعة حتى إن الرجل ليقول : إن قرأتني خير من قرأتك ،  
 وقرأتني أفضل من قرأتك ، وهذا شبيه بالكفر ، قلنا : ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال :  
 الرأي عندي أن يمتنع الناس على قرعة ، فإنكم إذا اختتمتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا ، قلنا :  
 الرأي رأيك يا أمير المؤمنين . فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسل إليكم بالمصحف فنسخها في المصاحف  
 ثم رزقها إليكم ، فأرسلت بها إليه فامر زيد بن ثابت وعبد الله بن التمر وسعيد بن العاصي وعبد الرحمن  
 ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرجل القريش : إذا اختتمتم أمم وزيد  
 ابن ثابت في شيء من القرآن فأكثوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا  
 المصحف في المصاحف ردت عثمان المصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أئمة بمصحف عما نسخوا ،  
 وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وكان هذا من عثمان رضي الله عنه  
 بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجملة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك ، فاتفقوا على جمعه بما مع  
 وبرت من القراءات المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأطراح ما سواه ، واستدبروا دأبه وكان  
 رأيا صديقا موقفا رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الطبري فيما روى : إن عثمان قرأ يزيد أبان  
 ابن سبيد بن العاصي وحده وهذا ضعيف . وما ذكره البزار والترمذي وغيرهما أصح ، وقال الطبري  
 أيضا : إن المصحف التي كانت عند حفصة جعلت إماما في هذا الجمع الأخير ، وهذا صحيح .

قال ابن شهاب : وأخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود ذكره زيد بن ثابت فنسخ  
 المصاحف ، وقال : يا مشرك المسلمين ، أعزل عن نسخ المصاحف ويؤتاه رجل ، والله لقد أسألت  
 وإنه لي صلب رجل كافرا . — يزيد زيد بن ثابت — وذلك قال عبد الله بن مسعود : يا أهل  
 المرقأ اكتموا المصاحف التي عندكم وغارها ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَنْ يَتْلُ مَا عُلِّقَ ﴾

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) فَأَقْرَأَ اللَّهُ بِالصَّاحِفِ ، نَحْوَهُ التِّرْمِذِيُّ . وَبَيَّنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

كَيْفَ أَبُو بَكْرٍ الْأَثَرِيُّ : وَلَمْ يَكُنِ الْاِخْتِلَافُ لَزِيدٍ مِنْ جِهَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ  
ابْنِ مَسْعُودٍ فِي جَمْعِ الْقُرْآنِ ، وَجَدَ اللَّهُ أَنْضَلَ مِنْ زَيْدٍ ، وَأَقْدَمَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَكْثَرَ سَوَابِقَ ، وَأَعْظَمَ  
فَضَائِلَ ، إِلَّا لِأَن زَيْدًا كَانَ أَحْفَظَ لِلْقُرْآنِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ إِذْ وَهَّاهُ كَلَهُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
حِينَ وَالَّذِي حَفِظَ مِنْهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِيفَ وَسَبْعُونَ سُورَةً ، ثُمَّ تَعَلَّمَ  
الْبَاقِيَ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَالَّذِي خَتَمَ الْقُرْآنَ وَحَفِظَهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
سَمَى أَوَّلِي جَمْعِ الْمَصْحَفِ وَأَحَقَّ بِالِإِثْبَارِ وَالِاخْتِيَارِ ، وَلَا يُغْنِي أَنْ يَظُنَّ جَاهِلٌ أَنَّ فِي هَذَا طَعْمًا عَلَى  
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، لِأَن زَيْدًا إِذَا كَانَ أَحْفَظَ لِلْقُرْآنِ مِنْهُ فَابِسَ ذَلِكَ مُوجِبًا لِنَقْصِهِ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ  
وَعُمَرَ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ زَيْدٌ أَحْفَظَ مِنْهُمَا لِلْقُرْآنِ ، وَلَيْسَ هُوَ خَيْرًا مِنْهُمَا وَلَا سَلَوِيًا لِمَنَا فِي الْفَضَائِلِ  
وَالنَّقِيبِ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَمَا بَدَأَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِنْ تَكْرِيرِ ذَلِكَ فَتَنِي ، تَتَبَعْتُ النُّقْصَ ، وَلَا يَمُوتُ  
بِهِ وَلَا يُؤْخَذُ بِهِ ، وَلَا يَشُكُّ فِي أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَدْ عَرَفْتُ بَعْدَ زَوَالِ النُّقْصِ عَنْهُ حَسَنَ اخْتِيَارِ  
عُمَرَ وَمِنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبَنَى عَلَى مَوَاقِفِهِمْ وَتَرَكَ الْخِلَافَ لَهُمْ ، فَالْبَاشِعُ  
الْقَائِمُ الْمُسَالِمُ عِنْدَ أَهْلِ الرِّوَايَةِ وَالْفَضْلِ : أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ تَعَلَّمَ بَقِيَّةَ الْقُرْآنِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى  
لَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَثَمَةِ : مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَبْلَ أَنْ يَخْتِمَ الْقُرْآنَ . قَالَ زَيْدُ بْنُ  
هَارُونَ : الْمَعْزُودَانِ بِمِثْلَةِ الْبَغْرَةِ وَالْإِمْرَانُ مِنْ زَعْمِ أَنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ كَانُوا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ،  
قِيلَ لَهُ : فَقَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ نِهْمًا ؟ قَالَ : لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ  
مَاتَ وَهُوَ لَا يَحْفِظُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ . قُلْتُ : هَذَا فِيهِ نَقَرٌ وَسَيَاقٌ ، وَدَرَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ قَالَ  
حَمَادٌ : أَظَنَّهُ مِنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِي الْآيَةِ يَقُولُونَ أَفْرَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
فَلَنْ يَنْفَلَنْ مِنْ فُلَانٍ ، فَهِيَ أَنَّ يَكُونُ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَلَاثِ لَيَالٍ فَيُرْسَلُ إِلَيْهِ فَيُجَاهِدُ بِهِ ، يُقَالُ : كَيْفَ  
أَفْرَأَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَكْتَبُونَ كَمَا قَالَ . قَالَ ابْنُ شَهَابٍ : وَاخْتَلَفُوا  
يَوْمَئِذٍ فِي التَّائِبَاتِ ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ النَّبَوِيِّ ، وَقَالَ ابْنُ الزَّيْبَرِ وَتَمِيمُ بْنُ الْعَاصِي التَّائِبِيُّ ، فَرَفَعَ اخْتِلَافَهُمْ  
إِلَى عُثْمَانَ فَقَالَ : اكْتُبُوهُ بِالْمَاءِ ، فَإِنَّهُ تَلَّ بِلِسَانٍ فَرَفَعَ اخْتِلَافَهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ . قَالَ ابْنُ عَدَى .

قرأه زيد بلقاء والفرسيون بالهاء، فأنبتوه بالهاء وكتبت المصاحف على ما هو عليه نابر النحر، ونسخ منها عثمان نسخا، قال غيره : قيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجه بها إلى الآفاق ، فوجه للمراق والشام ومصر بأهيات، فاحتفظوا قراء الأصل معتمد اختيارهم ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذي بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف في حروف يزيدنا بعضهم ويتقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع في بعض النسخ ولم يكتبها في بعض إشارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال ابن عطية : ثم إن عثمان أصر بما سواها من المصاحف أن تحرق أو تحرق، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالطاء على معنى ثم تنفي؛ ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال : سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : يا منشر الناس اتقوا الله وإياكم والفتن في عثمان وقولكم : حرق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب عبد صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن سعيد قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لو كنت الوالي وقت عثمان لعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان ، قال أبو الحسن بن بطال : وفي أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام، وطرحها في ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طلوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف إذا اجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عمرو بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحزوة، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها ذكر الله تعالى، وقول من حرقها أولى بالصواب، وقد فعله عثمان؛ وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة : جائز للأمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، إذا أتاه الاجتهاد إلى ذلك .

فصل — قال ملأنا رحمة الله عليهم : وفي فعل عثمان رضي الله عنه رد على الحولية والحوية<sup>(١)</sup> القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛  
(١) الحولية : فئة من المشركين تقول : إن الله خلق كل شيء في كل يوم، فخرجوا من حبيبا لأن يقول كل شيء الله فاعلموا بالحولية فاعتنوا بالحيوية يسكنوا بالقرآن ويؤمنوا بالله الصميم وغيره .

وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد أن القديم لا يفعل ولا يتعلّق به قدرة قادر يؤجبه ولا يسبب ، ولا يجوز السدم على القديم وأن القديم لا يصير محدثاً ، والمحدث لا يصير قديماً ، وأن القديم مالا أول لوجوده ، وأن المحدث هو ما كان بعد أن لم يكن ، وهذه الطائفة تحرت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم ؛ فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديماً ، وأن العبد إذا قرأ كلام الله تعالى قبل كلام الله قديماً ، وكذلك إذا نحت حروفاً من الآجر والخشب ، أو صاغ أحرفاً من الذهب والفضة ، أو نسج ثوباً فنقش عليه آية من كتاب الله قصد فعل هؤلاء كلام الله قديماً ، وصار كلامه منسوجاً قديماً ومنحوتاً قديماً ومصوغاً قديماً ؛ فيقال لهم : ما تقولون في كلام الله تعالى : أيجوز أن يذاب ويغى ويحرق ؟ فان قالوا : نعم ، فارقوا الذين ، وإن قالوا : لا ، قيل لهم : فما قولكم في حروف مصوّرة آية من كتاب الله تعالى من شمع ، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كائند فوسّعت في النار فذابت واحترقت فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فان قالوا : نعم ، تركوا قولهم ، وإن قالوا : لا قيل لهم : أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت ؛ فان قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق ، رجعوا إلى الحق والصواب ودأبوا بالجواب ؛ وهو الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، منها ما يقوله أهل الحق : « ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما احترق » وقال الله عز وجل : « أنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان » الحديث أخرجه مسلم ثبت بهذا أن كلامه سبحانه ليس يحرق ولا يشبه الحروف . والكلام في هذه المسألة يطول ونعيمها في كتب الأصول ، وقد ينالها في « الكتاب الأضنى » في شرح أسرار الله الحسنى .

فصل - وقد طعن الزائفة - فبحم الله تعالى - في القرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى في نقل الآية والحرف كما قلتم ، فانكم أنتم تقولون رجلاً واحداً وهو خزيمية بن ثابت وحده آخرو سورة براءة ، وقوله : « **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ** » فالجواب أن خزيمية رضى الله عنه لما جاء بهما نذرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يرفعهما ، ولذلك قال : قد كنت آتين من آخرو سورة التوبة ولو لم يعرفهما لم يدرك هل قد سبوا أو لا فآلية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمية وحده . جواب ثان إنما ثبتت بشهادة خزيمية وحده القيام بالدليل على صحته في حصة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي قرينة تفي عن طلب شاهد آخر بخلاف آية

الأحزاب فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبي خزيمة لسماعهما إياها من النبي صلى الله عليه وسلم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبي خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذي وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتي في الأحزاب وجدت مع خزيمتين تابعتا قمارض ، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته ، وهو أبو خزيمة بن أوس بن يزيد بن أسرم بن قطبة بن قثم بن مالك بن النجار ، شهد بدر وما بعدها من المشاهد ، وتوفي في خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس ، قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آية التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمه نسب إلا اجتماعهما في الأنصار ، أحدهما أوسي والآخر خزرجي . وفي مسلم والبخاري عن أنس بن مالك قال جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومي . وفي البخاري أيضا عن أنس قال : مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو السرياء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد ، وأبو زيد ، ونحن ورثناه . وفي أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عقباً ، وكان بدرياً ، واسم أبي زيد سعد بن عبيد . قال ابن الطيب رضى الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعمر وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص ، يقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذت ثقيفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة ، فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه من غيره ، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام ، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم قلت : لم يذكر القاضي ، عبد الله بن

(١) في الأصل الحارث بن خزيمه أي خزيمه واقتضى أن خزيمه مزيد واسم الحارث بن خزيمه هذا قيل أنه هو الذي روي عنه آخر سورة التوبة . عليه ذكره الإشارة إلى ذلك .

مسعود وسالم مول أبي حنيفة رضي الله عنهما فيما رأيت، وهما من جمع القرآن . روى جرير عن  
عبد الله بن يزيد الصياني عن كليل قال :

قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معه أبو بكر ومن شاء الله ، قرأنا  
بمسد الله بن مسعود وهو يصل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من هذا الذي يقرأ القرآن ؟ " .  
فقال له : هذا عبد الله بن أم عبد ، فقال : " إن عبد الله يقرأ القرآن غضا كما أنزل " . الحديث ،  
قال بعض العلماء : معنى قوله : " غضا كما أنزل " أي أنه كان يقرأ الحرف الأول الذي أنزل عليه القرآن  
دون الحروف البقية التي رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته عليها بعد معاوضة جبريل  
عليه السلام القرآن إياه في كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبي طيخان قال :  
قال لي عبد الله بن عباس : أتى القراءتين تقرأ ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة ابن أم عبد ؟  
فقال لي : بل هي الآخرة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمرض القرآن على جبريل في كل  
عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه عليه مريضا ، فحضر  
ذلك عبد الله فلم ينسخ من ذلك وما يعل . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت  
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خفوا القرآن من أرومة من ابن أم عبد » . فبدأ به : « وسأخذ  
ابن جيل وأبني بن كعب وسالم مول أبي حنيفة » . قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع  
القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدم ، والله أعلم .

وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد : حدثنا محمد بن شهر بن حوشب عن حسين بن الأسود حدثنا  
يحيى بن آدم عن أبي بكر عن أبي إسحاق قال : قال عبد الله بن مسعود : قرأت من في رسول الله  
صلى الله عليه وسلم اثنين وسبعين سورة أو ثلاثا وسبعين سورة ، وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى :  
( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ) . قال أبو إسحاق : وتلى عبد الله بقية القرآن من يجمع  
ابن جارية الأنباري . قلت : فإن صح هذا مع الإجماع الذي ذكره يزيد بن جابر فذلك لم يذكره  
القاضي أبو بكر الطيب مع من جمع القرآن وحفظه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم .

قال أبو بكر الأنباري : حدثني إبراهيم بن موسى الخولعي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مالك بن  
إسماعيل حدثنا زهير عن أبي إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟

نقال : ما كان يعلما حتى قدم الكوفة؛ قال : وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود راحة الله عليه قبل أن يتعلم العوذتين ، فهذه العلة لم توجد في مصحفه ، وقيل : غير هذا على ما يأتي بيانه آخر الكتاب عند ذكر المؤمنتين أن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذي حدثناه إبراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عمرو بن هارون الخراساني عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القرظي قال : كان من ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ، حدث ليس يصحح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يؤول عليه . قلت : قوله عليه السلام : «خفوا القرآن من أربعة من أين أم عبد» . يدل على محضته وبما بين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الجواز والشام والعراق كل منهم عزوا قراءته التي اختارها إلى رجل من الصحابة قراها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن شيئا ، فاستدعاهم قراءته إلى علي وأبي مسعود ، واستد ابن كثير قراءته إلى أبي ، وكذلك أبو عمرو ابن العلاء استد قراءته إلى أبي ، وأما عبد الله بن عامر فإنه استد قراءته إلى عثمان ، ومؤلاه كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسند هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات قاله الخطابي .

باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه وتخزيه

وتعشيره وعدد حروفه وأجزائه وكتابه وآيه

قال ابن الطيب : إن قال قائل : قد اختلف السلف في ترتيب سور القرآن ، فبهم من كتب في مصحفه السور على تاريخ ترتيبها ، وقسم المكتبة على المذاهب ، ومنهم من جعل في أول مصحفه الحمد ، ومنهم من جعل في أوله : ( اقرأ باسم ربك ) وهذا أول مصحف علي رضي الله عنه ، وأما مصحف ابن مسعود فإن أوله : ( مالك يوم الدين ) ثم البقرة ثم النساء على ترتيب مختلف ، ومصحف أبي كان أوله الحمد ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ثم كذلك على اختلاف شديد . قال القاضي أبو بكر بن الطيب : فالحجاب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاختلاف بين الصحابة ، وقد ذكرنا ذلك في كتابنا في تفسير سورة

براءة، وذكر أن ترتيب الآيات في السور ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي صلى الله عليه وسلم،  
ولما لم يأمِر بذلك في أول سورة براءة تركت بلا بسملة، هذا أصح ما قيل في ذلك وسيأتي .

وذكر ابن وهب في جامعہ قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت  
البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثلاثون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة: قد قدمت  
وألف القرآن على علم من ألفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما يتنبأ إليه، ولا يسأل  
عنه . وقد ذكر سعيد قال حدثنا معمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال : قال ابن مسعود :  
” من كانت منكم مناسيا فليأتس بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا أبرز هذه  
الأمة علواً، وأعقها علماً، وأتقها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، اختارهم الله لصحبة نبيه  
صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فانهم كانوا على الهدى  
المستقيم “ . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان عن  
توقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، وأما ما روى من اختلاف مصحف أبي وعلى وعبد الله فإنه  
كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لم تأليف السور بعد أن لم يكن  
فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال : سمعت مالكاً يقول : إنما ألفت القرآن على ما كانوا  
يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر أبو بكر الأثيري في كتاب الرد : إن الله تعالى  
أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فرق على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة، وكانت السورة  
تزل في أمر يحدث، والآية جواباً لمستغبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم  
على موضع السورة والآية، فالتألق السور كالتألق الآيات والحروف، فكله من عند خاتم النبيين، عليه  
السلام من رب العالمين، فمن أتم سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤثرة فهو كمن أقصد نظم الآيات، وغير  
الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة  
لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذته هذا الترتيب، وهو كان يقول : ” ضحوا هذه السورة  
موضع كذا وكذا من القرآن “ . وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات .

حدثنا حسن بن الحباب حدثنا أبو هشام حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن البراء  
قال : آخر ما نزل من القرآن : ( يَسْتَعِثُّكَ قُلُوبُ اللَّهِ فِي الْكَلَامِ ) . قال أبو بكر بن عياش :



وأخطأ أبو إسحاق لأن محمد بن السائب حدثنا عن أبي السائب عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . فقال جبريل للنبي عليهما السلام : يا محمد ضعها في رأس غنمين ومائتين من البقرة .

قال أبو الحسن بن بطال : ومن قال بهذا القول لا يقول : إن تلاوة القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقوف عليه في المصحف ، بل إنما يجب تأليف سورة في الرسم والخط خاصة ، ولا يعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودروسه ، وأنه لا يعمل لأحد أن يتلن الكهف قبل البقرة ولا الج قبل الكهف ، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها الذي سألتها : لا يضرك أية قرأت قبل ؛ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة السورة في ركعة ، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها ؛ وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنها كرما أن يقرأ القرآن منكوسا ؛ وقالوا : ذلك منكوس القلب ، فإنما علينا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، ويحدث من آخرها إلى أولها لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتعاطى هذا في القرآن والتشريف لسانه بذلك ويقدر على الحفظ ، وهذا حفظه الله تعالى ومنعه في القرآن ، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لما قصد بها .

وما يدل على أنه لا يجب إتيانه في المصاحف على تاريخ نزوله ما سمع وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فوضع في السورة المكية ، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها : وما نزلت سورة البقرة وللنساء إلا وأنا عندهم — تعني بالمدينة — وقد قلنا في المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولولا قوله على تاريخ القول لوجب أن يقتض ترتيب آيات السور .

قال أبو بكر الانباري حدثنا اسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن ثناء قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، وبراءة ، والرد ، والحمل ، والجم ، والتور ، والإنزاب ، ومحمد ، والفتح ، والمجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والمنحة ، والصف ، والجمعة ، والمائدة ، والطلاق ، وأية التي لم تحسم إلى رأس الشهر ، فلما دلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلت بالمدينة ، وماز القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور على منازلها بمكة والمدينة ، لم يدركن تقع القاطعة ، لاختلاف الناس في موضع نزولها ، ويضطر إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ، ورد على عبد الله عليه وسلم ما حكاه عن ربه تعالى : وقد قيل : إن طاعة تقديم المذني على المكي هو أن الله تعالى خاطب العرب بلفظها ، وما يعرف من أفاين خطبتها ومعاورتها ، فلما كانت في من كلامهم مينا على تقديم المؤخر وتأخير المقدم خوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله تعالى الذي لو تقدموه من القرآن لقالوا ما باله عسى من هذا الباب الموجود في كلامنا المستعمل من نظامنا . قال عبيد ابن الأبرص :

أَنْ تَبْلُغَ مِنْهُمْ وَحُوشًا • وَفُتِرَتْ حَالُهَا انْطِطُوبُ

عِيَاكَ دَسَمَهَا سُرُوبُ • كَأَنَّ شَانِيَهَا تَسْبِيبُ

أراد عيناك دسهما سرروب لأن تبلت من أهلها وحوشا ، فقدم المؤخر وأخر المقدم ، ومعنى سرروب : منصّب على وجه الأرض . ومنه الساروب ، قال الشاعر :

• أُنَى سَرِيَتْ وَكُنْتُ خَيْرَ سُرُوبِ •

وقوله شانيها ، الشأن : واحد الشؤون وهي مواصل قبائل الراس وملتحاقها ، ومنها يحيى النعم . شبيب : متفرق .

فصل - وأما شكل المصحف وقطعه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به عمله ، فتجوز لذلك الججاج بواسطة وجدّه فيه وزاد تحزيه ، وأمر وهو والي العراق الحسن ويحيى بن عمر بذلك ، وألف إرفك بواسط كتابا في القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيها وافق الخط ، ومضى الناس على ذلك زمانا طويلا ، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات .

وأستد الزبيدي في كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من قطّ للمصحف أبو الأسود الدؤلي ، وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف قطعه له يحيى بن يعمر .

فصل - وأما وضع الأختار فقال ابن عطية : مرّ في بعض التواريخ أن المؤمن تلياسي أمر بذلك ، وقيل إن الججاج قسّل ذلك . وذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له عن عبد الله

ابن مسعود أنه كره التشير في المصحف ، وأنه كان يحكمه . وعن مجاهد أنه كره التشير والعلب في المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسئل عن الشور التي تكون في المصحف بالحمرة وغيرها من الألوان ، فكره ذلك ، وقال : تشير المصحف بالحبر لا بأس به ، وسئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور في كل سورة ما فيها من آية ، قال : إني أكره ذلك في أمهات المصاحف أن يكتب فيها شيء . أو يشكل ، فأما ما يتلم به الثلثان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلي مصحفا بلهذه ، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف ، قرأنا خواتمه من جرجل عمل السلسلة في طول البطر ، ورأيت مجروح الآي بالحبر . وقال قاذفة : بعدوا فنعطوا ثم تمسحوا ثم مسحوا . وقال يحيى بن أبي كثير : كان القرآن مجزأ في المصاحف ، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والراء والشاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو قوله ، ثم أحدثوا تقطعا عند منتهى الآي ، ثم أحدثوا القوافي والخلوات . وعن أبي حمزة قال : رأى إبراهيم الخثعمي في مصحف فاتحة سورة كذا وكذا ، فقال لي : اخذ فانجد الله بن مسعود قال : لا تخططوا في كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبي بكر السراج قال . قلت لأبي رزين : أكتب في مصحف سورة كذا وكذا ، قال : إني أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونهم من القرآن .

قال الباقى رضى الله عنه : وهذه الأخبار كلها تؤيد باب الصغير والخميس ونوافل السور  
ورعوس الآى من عمل الصلابة رضى الله عنهم ، فقدم إلى عمله الاجتهاد؛ وأرى أن من كره ذلك  
منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالآثران كالخمرة والصخرة وغيرهما ، على أن المسلمين في سائر الآفاق  
قد أطبقوا على جواز ذلك واستعمله في الأمهات وغيرها ، والحرج والخطأ مرخصان عنهم فما أطبقوا  
عليه إن شاء الله .

فصل - وأما مدد حروفه وأحزاب فروى سلام أبو عبد الحاتم أن الحاج بن يوسف جمع التزاد والمخاطب والكتاب، فقال : أخبرني عن القرآن كله من حرف هو - قال : وكنت فيهم نفسيته فأجبتني على أن القرآن ثلثة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفاً، قال : فأخبرني إلى أي حرف ينتهي نصف القرآن، فإذا هو في الكوف "وَلْيَطَّلِقْ" في النساء، قال : فأخبرني بأن أوله ثلث الألف وأربعون حرفاً من رواية أبي عبد الحاتم وأخبرني أيضاً أنه

من طعم الشعراء، والثالث الثالث ما بقي من القرآن؛ قال : فأخبروني بأسباعه على الحروف، فإذا أول سبع في النساء (وَيَتَمَمْنَ مِنْ آمَنَ بِهِ وَيَتَمَمْنَ مِنْ صَدِّ) في النحل، والسبع الثاني في الأعراف (أُولَئِكَ حَبِطَتْ) في النساء، والسبع الثالث في الرعد (أَكَلُوا دَأْبًا) في الألف من آخر آكلها، والسبع الرابع في الحج (وَلِكُلِّ أُمَةٍ جَعَلْنَا مَنَاسِكَ) في الألف، والسبع الخامس في الأحزاب (وَمَا كَانَتْ لِيُؤْمِنِينَ وَلَا مُؤْمِنَةٍ) في المائدة، والسبع السادس في النفع (الْفَائِزِينَ وَاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ) في الواو، والسبع السابع ما بقي من القرآن ..

قال سلام أبو عمرو : علمناه في أربعة أشهر، وكان المجلع يقرأ في كل ليلة ربما ، فأقول وبه  
ساعة الأسماء، والرابع الثاني في الكهف "وَلَيْسَ لَطْفٌ"، والرابع الثالث خاتمة الزمر، والرابع الرابع ما بقي من القرآن؛ وفي هذه الجمل خلاص مذكور في كتاب البيان لأبي عمرو الثاني، من أراد الوقوف عليه وبهذه هناك .

فصل - وأما عدد آي القرآن في المدني الأول، قال محمد بن عيسى : بجمع عدد آي القرآن في المدني الأول ستة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العدد الذي رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة ولم يسموا في ذلك أحدا يثبت به يستوثق به .

وأما المدني الأخير فهو في قول اسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آي القرآن في قول للمكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد ابن عيسى : وجميع عدد آي القرآن في قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتلاثون وست آيات، وهو العدد الذي رواه مسلم والكناني عن حمزة وأسنده الكناني إلى علي رضي الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آي القرآن في عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات، وهو العدد الذي مضى عليه سلفهم حتى الآن ، وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الشامي : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون، في رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون قصص آية . قال ابن ذركون : فقلبت أن يحيى لم يسم (بسم الله الرحمن الرحيم) . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التي يتداولها الناس ألقافا، ويستدلون بها في سائر الألفاظ قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن في قول عطاء بن يسار : سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا . قلت : هذا يخالف ما تقدم عن الجاني قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصيناه من القرآن ، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثلاثون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الجاني من عد حروفه .

### باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة في كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وانفصلها عنها ، سميت بذلك لأنه يرتفع فيها من مترلة الى مترلة . قال الثانية :

الم تر أن الله أعطاك سورة      ترى كل ملك دونها يتذنب

أي مترلة شرف ارفعتم إليها عن مترل الملوك . وقيل : سميت بذلك لشرفها ولارتفاعها كما يقال لها ارفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده ، كسور البناء ، كله بغير همز . وقيل : سميت بذلك لأنها قطعت من القرآن على حدة ، من قول العرب للبقية : سورة ، وجاء في أسرار الناس أي غايهم ، فعل هذا يكون الأمل سورة بالمعز ثم خففت فأبدلت واوا لانتهام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك تمامها وكاملها من قول العرب لثافة الثامة : سورة ، وجميع سورة سور بفتح الواو . وقال الشاعر :

سود المجار لا يقرن بالسور

ويجوز أن يجمع على سوريات وسورات .

وأما الآية فهي العلامة بمعنى أنها علامة لاقطاع الكلام الذي قبلها من الذي بعدها وانفصاله ، أي هي بائنة من أختها ومتفرقة ، وتقول العرب : بين وبين فلان آية ، أي علامة ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ( إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ) وقال الثانية :

توهمت آيات لها ففرقتها      لست أعوام وذا السام مابع

وقيل : سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وملائمة منه ، كما يقال : تخرج القوم بأيهم أي  
بأيهم . قال برج بن مسهر الطائي :

نرجنا من القئين لاسي سنا • بأقنا نرجس للقلح المظفلا

وقيل : سميت آية لأنها عجب يسجد البشر من تكلم بثلثها . واختلف النحويون في أصل آية ، فقال  
سبويه : آية على صلة مثل آكة وشجرة ، فلما تحركت الياء واقتح ما قبلها انقلبت ألفا فصارت آية  
بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائي : أصلها آية على وزن فاعلة مثل آتت قلبت الياء ألفا لتحركها  
واقتح ما قبلها ، ثم حذفت لالتباسها بالجمع . وقال الفراء : أصلها آية بتشديد الياء الأولى قلبت  
ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها أي وآياء وآيات . وأشد أبو زيد :

لم يبق هذا الشعر من آياته • غير أنافيه وأرمدائه

وأما الكلمة فهي الصورة القائمة بجميع ما ينطو بها من الشبكات أي الحروف ، فأطول الكلم  
في كتاب الله عز وجل ما بلغ عشرة أحرف ، نحو قوله تعالى : ( لَيْسَ تَقِيْلُمْ ) . ( وَأَنْزَلْنَاهَا نُوحِيْهِمْ ) ؛  
فأما قوله : ( فَاسْمِعْنَا كُوْنُ ) فهو عشرة أحرف في الرسم واحد عشر في اللفظ ، وأقصر من ما كان  
على حرفين نحو ما ولا ولا وما أشبه ذلك . ومن حروف اللسان ما هو على كلمة واحدة ، مثل  
همزة الاستغفار وولو العطف ، إلا أنه لا ينطق به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية ثلثة نحو  
قوله تعالى : ( والنجى ) . ( والصبر ) . وكذلك ( ألم ) . و ( لكس ) . و ( طه )  
و ( يس ) . و ( حم ) في قول الكوفيين ، وذلك في قوافي السور ، فاما في حشون فلا . قال  
أبو عمرو الباقى : ولا أعلم كلمة هي وحدها آية الا قوله في الرحمن : ( مَعْنَانِ ) لا غير ، وقد أنت  
كلمتان متصلتان وهما آيتان ، وذلك في قوله : ( حم نحت ) على قول الكوفيين لا غير . وقد تكون  
الكلمة في غير هذا ، الآية الثامة ، والكلام القائم بنفسه ، وإن كان أكثر أو أقل ، قال الله عز وجل  
( وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى نَبِيِّ إِسْرَآئِيلَ بِأَصْبَرَ ) قيل إنما ينطق بالكلمة طعنا ، قوله تبارك وتعالى :  
( وَتَزَيَّدَ أَنْ تَعْنَى عَلَى النَّبِيِّ اسْتَفْهِمُوا فِي الْأَرْضِ ) إلى آخر الآيتين ، وقال عز وجل : ( وَالزَّمَنُ

(١) لم أر هذا الشعر غير المؤلف وحيداً في نسخة ١٢ طبعاً عليه .

(٢) كلمة الصبر كلمة أخرى في الرسم فقلت .

كَلِمَةُ النَّفْثَى : قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَيِّتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ" وقد تسمى العرب النقصية بأسرها، والقصة كلها، كلقيةقولون : قال قُصٌّ في كَلِمَةٍ كَذَا، أى في خطبته، وقال زهير في كَلِمَةٍ كَذَا، أى في قصيدته، وقال فلان في كَلِمَةٍ معني في رسالته، قسسى جملة للكلام كلمة لاذ كانت الكلمة منها، على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قالوه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا .

وأما الحرف فهو الشبهة الثامنة وعلما من الكلمة وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بناء من الاتساع والمجاز - قال أبو عمرو الباقى : فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من حروف المعجم في القوامع على حرف واحد نحو - (ص) و(ق) و(ن) حرفا أو كلمة؟ قلت : كلمة لا حرفا، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه، ولا يتغرد وحده في الصورة، ولا ينفصل عما يخطط به، وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كأفراد الكلم واتصافها بها، فلذلك سميت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف في غير هذا، المذهب والوجه، قال الله عز وجل : **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْذُلُ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ** أى على وجه ومذهب، هن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : **«أُتِرِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ** أى سبعة أوجه من اللغات والله أعلم .

### باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلاما من لسانه غير لسان العرب : كاسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط، واحتقوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب، فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب والطبري وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربي صريح، وما وجد فيه من الألفاظ التي تسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت للغات عليها فكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لفتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مينا، ولا رسول الله عن كونه متكلما بلسان قومه، فالتشكك : الكوة، وتسا : قام من الليل، ومنه **(إِنْ تَشَاءُ اللَّيْلُ)** و**(يَتَذَكَّرُ كَثِيرًا)** أى خفيين . و**(قُرْآنٌ مِّنْ قَبْرٍ)** أى الأسد، كله بلسان الحبشة . والتساق :

البارد للمتن بلسان الترك . والتسلس : الميزان بلغة الروم . والسجيل : الحجارة والطين بلسان  
الفرس . والفلود : الجبل . والم : البحر بالسريانية . والتتور : وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية حقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب  
وعربتها فهي عربية بهذا الوجه ، وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسان  
الأكسة بقبليات ، ورسقى قريش ، وكسفر مسافرين أبي عمرو إلى الشام ، وكسفر عمرو بن الخطاب ،  
وكسفر عمرو بن العاصي ، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته  
لنصاراها مع كونه حجة في اللغة ، فعملت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية فبرت بعضها بالنقص من  
حروفها ، وبرت إلى تخفيف نقل العجمة واستعملتها في أشعارها ومعاو رثائها ، حتى جرت مجرى  
العربي الصحيح ، ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن ، فإن جهلها عربي ما فكجهله  
الصريح بما في لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر إلى غير ذلك .

قال ابن عطية : وما ذهب إليه العلوي رحمه الله من أن اللفتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك  
بمبدأ بل إحداها أصل والأخرى فرع ، لا أنا نلغ أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذ ، قال غيره :  
والأول أصح . وقوله : هي أصل في كلام فيهم دخيلة في كلامهم ، ليس بأولى من العكس ، فإن  
العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أولا ، فإن كان الأول فهي من كلامهم إذ لا معنى للتسم  
وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ولا يبعد أن يكون فيهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال  
ذلك الإمام الكبير أبو حنيفة .

قال قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه ، قلنا : ومن سلم  
لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى خرجوا هذه منها ، فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب  
ورد هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عربتها استعمال  
أن تخاطبهم الله بما لا يعرفون وحاشا لا يكون القرآن عربيا مينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا  
بقوم بلسانهم والله أعلم .



## باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها .

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الملة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسُميت معجزة لأن البشر معجزون عن الإنشائها ، وشرائطها خمسة ، فإن اختلف منها شرط لا تكون معجزة .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه ، وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت في زمان يصح فيه بغي الرسل وادعى الرسالة وجعل معجزة أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرته الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون للمعجزات كفائق البحر ، واتساق القمر ، وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر .

والشرط الثاني هو أن يخرق العادة ، وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعى للرسالة : آتى بغي الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها لم يكن في ادعاه معجزة ، لأن هذه الأعمال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله ، فلم تخلف من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه ، ودعواه في دلالتها على نبوته كدعوى غيره ، فيان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذي يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه ، وذلك أن يقول الدليل على صدق أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواي عليه الرسالة ، فيقلب هذه المعصية ثباتا ، ويشق الخمر ويخرج من وسطه ناقة ، أو ينجع الماء من بين أصابعي كما ينبع من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات المتعارفة للمعادات ، التي يتفرد بها جبار الأرض والسماوات ، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه ، لو استمعنا كلامه العزيز ، وقال : صدق ، أنا مبتدئ ومثال هذه المسألة وقته ولرسوله المثل الأعلى ؛ ما لو كانت جماعة بمحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجائه وهو يرى ويسمع منه والملك يسمنه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكنا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدق بفعل من أماله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديق ، فإنا سمع الملك كلامه لم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما استشهد به على صدقه ، قام ذلك مقام قوله لو قال ، صدق في ادعاه على ، فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو ، وخرق به العادة على يدى الرسول ، قام ذلك القيل مقام كلامه تعالى لو اسمعناه ، وقال : صدق عدى في دعوى الرسالة ، وأنا أرسلت اليكم فاتمروا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدعى الرسالة على الله عز وجل؛ فيقول : آتني أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتا أو يحرك الأرض عند قولي لما تزولي، فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به .

الشرط الرابع هو أن يقع على وفق دعوى المتحدى بها المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعى للرسالة : آية نبوتى ودليل حجتى أن تنطق بى أو هذه العجزة فتطفت بى أو العجزة : بأن قالت : كذب وليس هو نبى، فإن هذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دلت على كذب ذلك المدعى للرسالة، لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه؛ وكذلك ما روى أن مسيحا الكتاب لعنه الله فعل فى بئر ليكر ماؤها فنفارت البئر وذهب ما كان فيها من الماء، فما فعل الله سبحانه من هذا، كان من الآيات المكتبة لمن ظهرت على يديه، لأنها وقعت على خلاف ما أرادته المظني الكتاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدى على وجه المعارضة، فإن تم الأمر المتحدى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدمة، نهى معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده، فإن أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيا، ونخرج عن كونه معجزة ولم يدل على صدقه، ولهذا قال المولى سبحانه : (فَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) وقال : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ نَأْتُوا بِمِثْلِهِ بِفَرَاتٍ) كأنه يقول : إن ادعيت أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر مسوس من جنس نظمه، فلما عجزتهم بأسركم عن ذلك فاعملوا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات المقيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدي الصادقين، وهذا المسخ الدجال فيما روي عن نبيك صلى الله عليه وسلم يظهر على يديه من الآيات العظام، والأمور الجسام، ما هو معروف مشهور، فلما حول : ذلك يدعى الرسالة، وهذا يدعى الرواية وينهما من القرآن، ما بين البصائر والبيان، وقد علم اللبيب العقل على أن بعض الخلق إلى بعض غير متممة ولا مستحيلة، فلم يجد أن يتم الله تعالى الإكتمال على صدق مخلوق آتى به بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيح الدجال فيه التصوير والتغيير من حال إلى حال ،  
وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات ، تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه  
شيء ، ليس كنهه شيء ، وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هذا فاعلم أن المعجزات على ضربين : الأول ما اشتهر قله وانقرض عصره  
بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، والثاني ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، واستفاضت بثبوته  
وجوده ، ووضع لاسمها العلم بذلك ضرورة ، ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا ووجها  
غفيرا ، وأن يكونوا علمين بما قلوه علما ضروريا ، وأن يستوى في النقل أولم وآخرهم ووسطهم  
في كثرة العدد ، حتى يستحل عليهم التواطؤ على الكذب ، وهذه صفة نقل القرآن ، ونقل وجود  
النبي عليه الصلاة والسلام ، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلقا عن سلف والسلف  
عن سلفه إلى أن اتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة ، وصدقه بالأدلة والمعجزات ،  
والرسول أخذ عن جبريل عليه السلام عن ربه جل وعز ، فنقل القرآن في الأصل رسولان  
معصومان من الزيادة والنقصان ، وقله البنا بعدم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما يتقارنه  
ويسمعونه ، لكثرة العدد ، ولذلك وقع لنا العلم الضروري بصدقهم فيما قلوه من وجود محمد صلى الله  
عليه وسلم ومن ظهور القرآن على يديه وتحميه به ، ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما قيل إليه  
من وجود البلدان : كالبحر والشم والمواقي وخراسان والمدينة هكذا ، واشباه ذلك من الأخبار  
الكثيرة الظاهرة المتواترة ، فالقرآن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم الباقية بعده إلى يوم القيامة ،  
ومعجزة كل نبي انقرضت باقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالنوراة والانجيل .

وربوه اعجاز القرآن الكريم عشرة .

منها : نظم البديع الخالف لكل نظم مهود في لسان العرب وفي غيرها ، لأن نظمهم ليس من  
نظم الشعر في شيء ، وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمهم : ( وَمَا عَلَّمَهُ الْقُرْآنُ حِمْيَرًا لَّهُمْ )  
وفي صحيح مسلم أن أنيسا أخا أبي ذر ، قال لأبي ذر : لتيت رجلا يمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ،  
قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء ، قال  
أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، وقد وضعت قوله على أفواه الشعراء فلم يلزم على لسان  
أحد مدعى أنه شعر ، والله إنه لصديق وإهم لكاذبون ، وكذلك أخرجني عن ربيعة أنه ليس بشعر

ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حم » فصلت ، على ما يأتي بيانه هناك ،  
فإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة ، بأنه ما سمع مثل القرآن قط  
كان في هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضرباته من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع  
أجناس القول وأنواعه .

ومنها : الأسلوب المختلف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التي لا تصح من علقو بحال ، وتأمل ذلك في سورة ( ق وَالْقُرْآنِ الْفَرِيدِ ) إلى  
آخرها ، وقوله سبحانه : ( وَالْأَرْضُ بَيْعًا قَبَضْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) إلى آخر السورة ، وكذلك قوله سبحانه :  
( وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ) إلى آخر السورة . قال ابن الحصار : فمن علم أن الله  
سبحانه وتعالى هو الحق ، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره ؛ ولا يصح من أعظم  
ملوك الدنيا أن يقول : وَلَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ، ولا أن يقول : وَرَسُولُ الصَّوْأَقِ قَيْصِبُ بِأَمْنٍ يَسَاءً .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة ، بل هي  
لازمة كل آية ، ويجتمع هذه الثلاثة بجزء يسير من كل آية وكل سورة من ما تكلم البشر ؛ وبها  
وقع التحدي والتعجب ، ومع هذا فكل سورة تشتمل هذه الثلاثة ، من غير أن يضاف إليها أمر آخر من  
الوجوه الستة ؛ فهذه سورة الكوثر ، ثلاث آيات قصار ، وهي أقصر سورة في القرآن ، وقد تضمنت  
الإخبار عن متين ، أسدما : الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوائيه ، وذلك يدل على  
أن المصدقين به أكثر من اتباع ما رآه الرسول ، والثاني : الإخبار عن الوليد بن المغيرة ، وقد كان عند  
تدوّل الآية ظاهرا ، على ما مضى في قوله الحق : ( قَدْ تَرَى مِن قِوَامِهِ وَجْهًا ) وَجَلَّتْ لَهُ  
مَلَا مَعْمُودًا . وَتَرَى شُهُودًا وَمَعْدَنُ لَهُ تَحْيِيدًا ) ثم أهلك الله سبحانه ، ماله وولده ، واقطع نسبه .

ومنها : التصرف في لسان العرب على وجه لا يستعمل به عرب ؛ حتى يقع منهم الاتفاق من  
جميعهم على أصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التي تهلست في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمي ما كان يتلو من  
قبله من كتاب ، ولا يخطه بيته ، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرآن الخالية في دعواها ،

وذكر مأساة أهل الكتاب عنه، وتحذره به، من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والحضر عليهما السلام، وحال ذى القرنين؛ فطعم - وهو أى من أمة آتية، ليس لما بذلك علم - بما عرفوا من الكتب السابقة صحته؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضي ابن الطيب : - ونحن نعلم ضرورة - أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن علم؛ ولما كان معروفاً أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار، وحلة الأخبار، ولا متوقفاً إلى اللطم منهم، ولا كان ممن قرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فياخذ منه؛ علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة أخرى .

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس في البیان، في كل ما وعد الله سبحانه؛ ويتيسر : إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد عقيد بشرط، كقوله : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) .

ومنها : الإخبار عن المنيات في المستقبل التي لا تطلع عليها إلا بالوحي؛ فمن ذلك : ما وعد الله فيعطيها السلام أنه سيظهر دينه على الإديان بقوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) الآية . ففعل ذلك ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغترى جيوشه همهم ما وعدهم الله في إظهار دينه، ليقيموا بالنصر، وليستقيموا بالفتح، وكان عمر يفعل ذلك ؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقاً وغرباً، براً وبحراً، قال الله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) وقال : (لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوَفَا بِالْحَقِّ لَنُدْخِلَنَّهُ لِلْمَسِيحِ الْحَرَامَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ) . وقال : (وَإِذْ يَبْلُغُ اللَّهُ أَهْلَ الْبَيْتِ أَهْلَهُمْ) . وقال : (اللَّهُ) . فليأت الرُّومُ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيقلِّبونَ . ففعله كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين، أو من أوقفه عليها رب العالمين؛ فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنته القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأوامر، في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام .

ومنها : الحكم البالغة التي لم يجر العادة بأن تصغر في كثرتها وشرعتها من آدبي .

ومنها : التناوب في جميع ما تضمنته ظاهرا وباطنا من غير اختلاف : قال الله تعالى : **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النظام وبعض القدونية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصرقة عند التعدى بمثله ؛ وأن المنع والصرقة هو المعجزة ، دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف همهم عن معارضته مع تحقيرهم بأن أتوا بسورة من مثله ، وهنا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث الخلف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا : إن المنع والصرقة هو المعجز تخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك ، علم أن نفس القرآن هو المعجز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ؛ إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مالونا معتادا منهم ، دل على أن المنع والصرقة لم يكن معجزا ، واختلف من قال بهذه الصرقة على قولين :

أحدهما : أنهم صرّفوا عن القدرة عليه ؛ ولو صرّفوا له لتعجزوا عنه .

الثاني : أنهم صرّفوا عن التعرض له مع كونه في مقدورهم ؛ واو صرّفوا له بلز أن يقدروا عليه .

قال ابن عطية : وجه التعدي في القرآن إما هو بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ؛ ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ، فلم يحاط به أيا لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك ، من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهول والنيان والتحول ، وسلموا ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فهذا جاء نظم القرآن في النابة القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يطل قول من قال : إن العرب كان في قدرتها أن تاتي بمثل القرآن في النابة القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صرّفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر في أن التصحيح منهم ، يضع خطية أو قصيدة يستفزع فيها جهده ، ثم لا يزال يتقبحها حولا كاملا ، ثم تعلى الآخر صده فأخذها بقرينة جامدة فيبدل فيها ويتقبح ، ثم لا يزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبذل ، وكاتب الله تعالى . لو ترعت من لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جل ذكره، ذكر الآية واحدة أمرين، وتبيين، وخبرين، وضارين وهو قوله تعالى : ( وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ) الآية؛ وكذلك غائصة سورة المسائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحال تحيلا مانعا، ثم استغنى استثناء جمل استثناء، ثم أخبر عن حكمه وقدرته، وذلك بما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأبنا سبحانه من الموت : وحسرة القوت، والنايا الآخرة وتوابعها وعقابها، وفوز الفائزين، وتردى الخاسرين، والتحذير من الاقتدار بالنبيا، وكوصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : ( كُلُّ نَفْسٍ ذَائِمَةٌ لِلْمُوتِ وَأَنَّمَا نُوقِنُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) الآية؛ وأبنا أيضا من قصص الأولين والآخرين، ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، في شطرا آية، وذلك في قوله تعالى : ( فَبِمَن مِّنْ أَرْسَالِنَا عَلَيْهَا حَالِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذْنَا الْعِصْمَةَ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَفَّيْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ) ، وأبنا جل وعز من أمر السفينة وإحراقها وإهلاك الكفرة، واستقرار السفينة واستوائها، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عز وجل : ( وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنْ حَبِّ خِلْيَةٍ أَوْ مِرْسَالَةٍ إِلَىٰ آلِهِمْ ) ( وقيل ميثاق القوم الظالمين ) إلى غير ذلك .

فلما غزت قريش عن الإيمان بمثله، وقالت : إن النبي صلى الله عليه وسلم تموله، أنزل الله تعالى : ( أَمْ يَقُولُونَ كَوَلَّىٰ بَعْضٌ لَا يُفْقَهُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا حَادِقِينَ ) . ثم أنزل تمييزا أبلغ من ذلك فقال : ( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِشَيْرِ مِثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ ) . فلما عجزوا حطيم عن هذا المقادير، إلى مثل سورة من السور القصصار، فقال جل ذكره : ( وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ) . فاجعوا عن الجواب ، وتخطعت بهم الأسباب ، وعدلوا إلى الحروب والعدا ، وآثروا سبي الحرم والأولاد ؛ ولو قدروا على الممارسة لكان أهون كثيرا، وأبلغ في الهجة وأشد تأنيبا . هذا مع كونهم أبواب البلاغة والهن، وعظم ترسخ الفصاحة واللحن .

فبلاغة التبركان في أعلى طبقات الإحسان ، ولرفع درجات الإعجاز والبيان ، بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة، إلى سيز الإبداع والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أوتي من جوامع الحكم، وأخص به من غرائب الحكم ، إذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم في صفة الحنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وبعده مصحفا عن رتبة القرآن؛ وذلك في قوله عليه السلام : " فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر " فإين ذلك من قوله عز وجل :

( وَيَقِيماً مَا تَشْتَرِيهِ الْآفَاقُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ ) . وقوله : ( فَلَا تَلْمِزْ أَنْفُسَكُمْ ) . أي : لا تلمزوا أنفسكم من قوة أعينكم .  
 هنا أعدل وزناً ، وأحسن تركيباً ، وأعذب لفظاً ، وأقل حروفاً ؛ على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة  
 أو أطول آية ، لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف ، وضاق المثلل على التامر المتكلف ؛  
 وبهذا قامت الخجة على العرب ، إذ كانوا أو باب الفصاحة ، ومظنة المعارضة ؛ كما قامت الخجة في معجزة  
 عيسى عليه السلام على الأطباء ، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة ، فإن الله سبحانه إنما جعل  
 معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أربع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره ؛ فكان  
 السحر في زمان موسى عليه السلام ، انتهى إلى فائته ؛ وكذلك الطب في زمن عيسى عليه السلام ،  
 والفصاحة في زمن محمد صلى الله عليه وسلم .

### باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره

لا أكتفئ لما وضعه الواضعون ، وأخلفه المخلفون ، من الأحاديث الكاذبة ، والأخبار الباطلة ؛  
 في فضل سور القرآن ، وغير ذلك من فضائل الأعمال ؛ قد أرتكبها جماعة كثيرة ، اختلفت أغراضهم  
 ومقاصدكم في أرتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة ؛ مثل : المنيرة بن سعيد الكوفي ، ومحمد بن سعيد  
 الشامي ، المصلوب في الزندقة ، وغيرهما ، وضعوا أحاديث وحدّثوا بها ليوقنوا بذلك الشك في قلوب  
 الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك في قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا ساتم الأنبياء  
 لا نبي بعدي إلا ما شاء الله " ، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعوا إليه من الإلهاد والزندقة . قلت :  
 وقد ذكره ابن عبد البر في كتاب ( التمهيد ) ولم يتكلم عليه ؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا ؛ فانه أعلم  
 ومنهم قوم وضعوا الحديث لموى يدعون الناس إليه ؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب :  
 إن هذه الأحاديث دين ، فانظروا بمن تأخذون دينكم ، فإننا كنا إنا حريصاً أصراً صبرناه حديثاً .  
 ومنهم جماعة وضعوا الحديث حجة كما زعموا ، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال ، كما روى  
 عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم المروزي ، ومحمد بن عكشة الكرماني ، وأحمد بن عبد الله  
 الجواليقي ، وغيرهم . قيل لأبي عصمة : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل سور القرآن  
 سورة سورة ؟ فقال : إني رأيت للناس قد أمرضوا عن القرآن واشتغلوا بفضله أي حفيضة ، ومنازى محمد



ابن إسحاق؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن الصلاح في كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل القرآن سورة سورة ، وقد بحث باحث عن أخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه ، وإن أثر الوضع عليه لين . وقد أخطأ الواحد من المفسرين ذكره من المفسرين في إيداعه تلاميذه . ومنهم قوم من السؤال والمكيد يفتنون في الأسواق والمساجد ، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث باسناد صحاح قد حفظوها ، فيذكرون الموضوعات بتلك الاسانيد ، قال جعفر ابن محمد الطيالسي : صلى أحمد بن حنبل ، ويعني بن معين ، في مسجد الوصاة ، قسام بن أبيهبا قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويعني بن معين قال أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يخلق من كل كلمة منها طائر مثله من ذهب وريشه مرجان ، وأخذ في قصة نحو من عشرين ورقة ، فجعل أحد ينظر إلى يحيى ويعني ينظر إلى أحمد ، فقال : أنت حدثت بهذا فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة ، قال : فسكنا جميعا حتى فرغ من قصصه ، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمد بن حنبل ويعني بن معين ؟ فقال أنا ابن معين ، وهذا أحمد بن حنبل ، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان لا بد من الكذب فعل غيرنا ، فقال له : أنت يحيى بن معين ؟ قال : نعم ، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ، وما علمته إلا هذه الساعة ، فقال له يحيى : وكيف علمت أني أحمق ؟ قال : كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما ، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا ، قال : فوضع أحمد كفه على وجهه وقال : دعه يقوم ، قدام كل مستزير بهما ، فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن يجري مجراهم . يذكر : أن الرشيد كان يسجبه الحمام والهرج به ، فأهله إليه حمام وعنده أبو البختري القضاة ، فقال : روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح" فزاد : "أو جناح" ، وهي لفظة وضعا للرشيد ، فأعطاه جائزة سنية ، فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب ، وأمر بالحمام أن يذبح ، فقيل له : وما ذنب الحمام ؟ قال : من أجله كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فترك العلماء حديثه لذلك ، وغيره من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرها من المصنفات التي تداولها العلماء ، ورواها الأئمة الفقهاء ، لكان لهم في ذلك عنية ، وتخرجوا عن تعديه صلى الله عليه وسلم حيث قال : " اتقوا الحديث على إلا ما علمتم من كذب على " متعلداً فليتقوا مقدمه من النار " - الحديث . ، فتخوفه صلى الله عليه وسلم أنه بالنار على الكذب ، دليل على أنه كان يعلم أنه سيكتب عليه ، خدار بما وضعه أعداء الدين ، وزناقة المسلمين ، في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ، وأعظمهم ضرراً أقول من المتوسمين إلى الزهد ، وضروا الحديث حسبة فيما زعموا ، يقبل الناس موصوعاتهم ، فتهمة منهم بهم ، وركنا إليهم ، فضلبوا وأضلوا .

### باب ما جاء من الحجة في الرد على من طعن في القرآن ومخالف مصحف عثمان بالزيادة والتقصان

لا خلاف بين الأئمة ، ولا بين الأئمة ، أهل السنة ، أن القرآن لم يكلم الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له ، على ما تقدم ، وأنه محفوظ في الصدور ، مقروء بالأكسة ، مكتوب في المصاحف ، معلومة على الاضطراب وسوره وآياته ، مبرأة من الزيادة والتقصان حروفه وكلماته ، فلا يحتاج في ترميزه بحذف ولا في خصره بحد ، فمن ادعى زيادة عليه ، أو نقصاناً منه ، فقد أبطل الإجماع ، وبيت الناس ، ورد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن للثقل عليه ، ورد قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ وأبطل آية رسوله عليه السلام ، لأنه إذ ذاك بصير القرآن مقدوراً عليه ، حين شيب بالباطل ، ولما قدر عليه لم يكن حجة ولا آية ، وخرج من أن يكون معجزة .

فانقضى بان القرآن فيه زيادة ونقصان راد لكاتب الله ولما جاء به الرسول ، وكان كمن قال : الصلوات المفروضة خمسون صلاة ، وتزوج قس من النساء حلال ، وفرض الله إماماً مع شهر رمضان ، إلى غير ذلك مما لم ينبت في الدين ، فلما ردت هذا بالإجماع ، كان الإجماع على القرآن آية وأكد والله وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشير بن محمد الأتباري: ولم يزل أهل الفضل والمثل يعرفون من شرف القرآن، وعقو مترنسه، ما يوجب الحق والاتصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه للملحدين وتحريف الزائعين، حتى نبع في زماننا هذا زائغ زائغ عن الله، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التي لا يزال الله يؤيدها، ويثبت لها، ويحيي فرعها، ويحرسها من معاصي أولى الخيف والجور، ومكابد أهل البدوة والكفر.

فزع أن المصحف الذي جمعه عثمان رضي الله عنه - باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل - لا يشمل كل جمع القرآن، إذ كان قد سقط منه بحسبته حروف، قد قرأت بعضها وساقراً يبقيتها، منها: «والعصر ونواب العصر» فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين «ونواب العصر» ومنها: «حتى إذا أخذت الأرض زخرفاً وازينت وظن أهلها أنهم ظفرون عليها أنما أمراً فلا أولها بخطاها حصيلاً كان لم تن بالأس وما كان الله ليلها إلا بظنوب أهلها»، فادعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن: «وما كان الله ليلها إلا بظنوب أهلها»، وذكر ما يدعى حروفاً كثيرة.

وادعى أن عثمان والصحابه رضي الله عنهم زادوا في القرآن ما ليس فيه، فقرأ في صلاة القرض والناس يسمعون: «الله الواحد الصمد» فأسقط من القرآن «قل هو» وغيره لفظ واحد، ولغيره أن هذا هو الصواب والذي عليه الناس هو الباطل والهمال، وقرأ في صلاة القرض: «قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون» وطمع على قراءة المسلمين.

وادعى أن المصحف الذي في أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفصلة متفرقة، منها: (إِنْ تَسْتَعْجِلْهُمْ فَإِنَّهُمْ عَائِدُونَ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا فَيَحْشُرُوا إِلَيْكُمْ إِنَّكُمْ مُرْجِعُونَ إِلَيْهِ) فادعى أن الحكمة والبركة لا يلائم كلاهما المقترع، وأن الصواب: «وإن تفر لم تترك أنت الغفور الرحيم» وراى به القبي في هذا وأشكك حتى ادعى أن المسلمين يصحفون: (وكان عند الله وجيهاً) والصواب الذي لم يغير عنه: «وكان عبد الله وجيهاً»، وحتى قرأ في صلاة بقرعة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه: «لا تحرك به لسانك إن علياً جمعه وقرأه فإذا قرأه تتبع قرأه ثم إن علياً ياب به»، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ: «وقد نصره الله يلو يسف على تأم الله»، وروى هؤلاء أيضاً أنه قال:

« هذا صراط على مستقيم » ، وأخبرونا أنه أدخل في آية من القرآن ما لا يضاهي فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل في لسان فومه الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ فقرأ : « أليس قلت للناس » في موضع : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ وهذا لا يعرف في نحو المعريين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين ؛ لأن العرب لم تقل : ليس قت ، فاما : لست قت ، بالناء فتشاذب فيج خيبت ردى ؛ لأن ليس لا تجعد الفعل الماضي ، ولم يوجد مثل هذا إلا في قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم ، وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

وادعى أن عثمان رضي الله عنه لما استد جمع القرآن الى زيد بن ثابت لم يصب لأن عبد الله ابن مسعود وأبي بن كعب كانا أولي بذلك من زيد بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أقرأ أنتي أبي ابن كعب » ولقوله عليه السلام : « من سره أن يقرأ القرآن فضا كما أنزل فليقرأه بقرأة ابن أم عبد » ، وقال هذا القائل : لي أن اختلف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن السلاء ، فقرأ : « إن هذين » ، « فأصدق وأكون » ، « وبشر عبادي الذين » بفتح الباء ، « إنا أناني الله » بفتح الباء ، والذي في المصحف : ﴿ إِنَّ هَذَانِ ﴾ بالأنف ، ﴿ فَأَصْدَقْ وَأَكُنْ ﴾ بغير واو ، ﴿ فَيَشْرِعْ جَادِ ﴾ ﴿ وَقَالَ إِنَّا اللَّهُ ﴾ بغير يامين ، في الموضعين . وكما خالف ابن كثير ونافع وحزرة والكسائي مصحف عثمان فقرأوا : ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بإشبات توين ، بفتح الثانية بعضهم ويسكنها بعضهم ، وفي المصحف نون واحدة ؛ وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أتمدوني بمال » بنون واحدة ووقف على الباء ، وفي المصحف نونان ولا ياء بعدها ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : « ألا إن عمودا كفروا بربهم » بغير توين ، وإشبات الألف بيجب التوين ؛ وكل هذا الذي شنع به على القراء ما يلزمهم به خلاف المصحف .

قلت : قد أشرنا إلى المد فيما تقدم مما اختلف فيه المصاحف ، وسيأتي بيان هذه المواضع في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أبي بن كعب هو الذي قرأ « كأن لم تنن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ؛ لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على ابن عباس ، وابن عباس قرأ القرآن على أبي بن كعب (حصيدا) كان لم تنن بالأمس كَذَلِكَ

سُحِّلَ الْآيَاتُ، في رواية وقرا أبي القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهذا الإسناد متصل بالرسول عليه السلام قله أهل العدالة والسياسة، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفه؛ وقال يحيى بن المبارك الزبيدي: قرأت القرآن على أبي عمرو بن العلاء، وقرا أبو عمرو على مجاهد، وقرا مجاهد على ابن عباس، وقرا ابن عباس على أبي بن كعب، وقرا أبي على النبي صلى الله عليه وسلم، وليس فيها «وما كان الله ليهلكها إلا بدنوب أهلها» فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم.

حدثني أبي نباتا نصر بن داود الصائغ نباتا أبو عبيد قال: ما يروى من الحروف التي تخالف المصحف الذي عليه الإجماع من الحروف التي يعرف أسانيدنا الخاصة دون العامة فيما نقلوا فيه عن أبي: «وما كان الله ليهلكها إلا بدنوب أهلها»؛ وعن ابن عباس «ليس عليكم جناح أن تنكحوا فضلا من ربكم في مواسم الحج»، ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ: «غير المقضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر هذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها محل، ولا على أنها مراض بها مصحف عثمان، لأنها حروف لو محدها جاهد أنها من القرآن لم يكن كافرا؛ والقرآن الذي جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكرا كان كافرا، حكاه حكم المرتد، يستتاب؛ فإن تاب وإلا صربت عققه، وقال أبو عبيد: لم يزل صنع عثمان رضي الله عنه في جمعه القرآن <sup>مؤثرا</sup> يستدل به بأنه من مناقه المقام؛ وقد طعن عليه فيه سبب أهل الزبح فأنكشف عواره، ووصحت فضائحه؛ وقال أبو عبيد: وقد حدثت عن يزيد بن ربيع عن عمران بن جرير عن أبي مجلز قال: طعن قوم على عثمان رحمه الله بحفظهم جمع القرآن، ثم قرءوا ما نسخ؛ قال أبو عبيد: يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذي أسقط علم كما أثبت الذي أثبت علم. قال أبو بكر: وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ دلالة على كفر هذا الإنسان؛ لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغير والتبدل، والزيادة والنقصان، فإذا قرأ قارئ: «ثبت يدي أبي لمب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصل ناراً ذات لمب ومربته حاملة الخطب في جبهتها جبل من لنب» فقد كذب على الله جل وعلا وقوله ما لم يقل، وبذل كتابه وحرقه، وسأول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به؛ وفي هذا الذي أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، ليدخلوا في القرآن ما يحلون به ضرا الإسلام، وينسبونه إلى قوم

كذلك، القوم الذين آمنوا بهذا بالباطل عليهم ؛ وفيه إبطال الإجماع الذي به يحرس الإسلام ،  
 وبنائه نظام الصلوات ، وتوقى الزكوات ، وتحرى التعبدات . وفي قول الله تعالى : ﴿ الرَّكْبُ  
 أَحْكَمُ آيَاتِهِ ﴾ دلالة على بطلان هذا الإنسان ونزوه إلى الكفر ، لأن منى « أحكت آياته » :  
 منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها ، أو ينقصوا منها ، لو صاروها بطلها ، وقد وجدنا هذا  
 الإنسان زاد فيها وكفى الله المؤمنين القتلى ، بلى . وكان الله قويا عزيزا ، فقال في القرآن هيرا ، وبذ كر عليا  
 في مكان لو سمع يذكره فيه لأمضى عليه الحقد ، وحكم عليه بالقتل ، وأسقط من كلام الله « قل هو »  
 وغير أحد فقرأ الله الواحد الصمد وإسقاط ما أسقطه نبي له وكفر ، ومن كفر بحرف من القرآن  
 فقد كفر به كله وإبطال معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : تركت الآية جوابا لأهل الشرك لما قالوا  
 ( رسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك ) ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صخر ؟ فقال الله  
 جل وعز ردًا عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ففى هو دلالة على موضع الرد ومكان الجواب فلما سقط  
 بطل معنى الآية ، ووضح الاقراء على الله عز وجل ، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وقال لهذا  
 الإنسان ومن يحمل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذي ترقوه ولا تعرفون ولا من كان قبلنا من  
 أسلافنا سواء ، هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، صحيح الاقطار والمعادى ، ما من  
 التصادم والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عما كان غائب عن أسلافنا والمتقدمين  
 من أهل ملتنا ؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذي صنف مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شيء ، صحيح  
 اللفظ والمعاني ، سليمًا من كل زلل وخلل ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس  
 له اليوم منها جميع وليس له شراب إلا من شرب من عيون تجري من تحت الجحيم » فأى زيادة في القرآن  
 أوضح من هذه ، وكيف يحفظ بالقرآن وقد حرمه الله منها ومنع كل منعه وبطل من أن يلحق به مثله ،  
 وإذا توكلت ويحتمل عن معناه وجعلت فليدة غير صحيحة ، لا تسلك كلام الباري تعالى ولا تخطئ به ،  
 ولا توافق معناه ، وذلك أن بعده ، لا يأكله إلا الخاطئون « فكيف يؤكل للشراب والذي أتى به قبلها  
 » فليس له اليوم منها جميع وليس له شراب إلا من شرب من عيون تجري من تحت الجحيم لا يأكله  
 إلا الخاطئون ، فهذا متناقض يقصد به بطلان القرآن ؛ لأن الشراب لا يؤكل ، ولا يقول العرب : أكلت  
 المشربة لكنهم يقولون : شربته وقبضه وطعمته ، ومعناه في أول الله تبارك وتعالى على البصيرة

في القرآن الذي من خالف حرفاً به كفر: ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَائِبٍ﴾ لا يأكل النساين إلا الخاطئون  
أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والنساين : ما يخرج من أنوفهم من الشحم وما يتعاق به من  
الصديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البلية والفتنة ، وللشراب محال أن يؤكل ، فإن ادعى هذا  
الإنسان أن هذا الباطل الذي زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بسدحا «لا يأكله  
إلا الخاطئون» وتى هذه الآية من القرآن تصح له زيادته ، فقد كفر لما جحد آية من القرآن .  
وحسبك بهذا كله ردنا لقوله ، ونزياً لقوله . وما يؤثر عن الصلابة والتأبين أنهم قرعوا بكنا وكنا إنما  
ذلك على جهة التبيان والتوضيح لا أن ذلك قرآن يتل ، وكذلك ما نسخ لفظه وحكه أو قتلوه دون حكه  
ليس بقرآن على ما يأتي بيانه عند قوله تعالى : ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ إن شاء الله تعالى .

### القول في الاستعاذة

وفى اثنا عشرة مسألة :

الأولى - أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال تعالى : ﴿لَئِنْ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ  
بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أى إذا أردت أن تقرأ فأوقع الماضي موضع المستقبل كما قال الشاعر :  
وإني لأتيمم له كرى الذى مضى • من الود واستئناف ما كان في غد .

أراد ما يكون في غد ؛ وقيل : في الكلام تحديق وتأخير ، وأن كل فعلين متواليين في المعنى جاز  
تقديم أحدهما شئت ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ للمنى فتدل ثم دنا ؛ ومثله : ﴿لِقَرَّبَتِ السَّاعَةِ  
وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وهو كثير .

الثانية - هذا الأمر على التنبه في قول الجمهور وحكى النقاش عن طلاء : إن الاستعاذة واجبة  
في صدر كل قراءة في غير الصلاة ؛ واختلقوا فيه في الصلاة ، وكان ابن سيرين والخصي وقوم يتوحدون  
في الصلاة في كل ركعة ، ويمتلئون أمر الله في الاستعاذة على العموم ؛ وأبو حنيفة والثاني يتوحدان  
في الركعة الأولى من الصلاة ويربان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة ؛ وما لا يرى التحوذ في الصلاة  
المفروضة فرباه في قيام رمضان .

الثالثة - أجمع العلماء على أن التحوذ ليس من القرآن ولا آية منه ، وهو قول القارئ : أعوذ  
بالله من الشيطان الرجيم ؛ وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء في التحوذ لأنه لفظ كتاب الله

تعالى . وروى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « يا ابن آدم عبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أفرأى جبريل عن اللوح عن القلم » .

الرابعة - روى أبو داود وابن ماجه في سننهما عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل صلاة قتال عمرو<sup>(١)</sup> : لا أدرى أى صلاة هي ؟ فقال : الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا ، أعوذ بالله من الشيطان من نفسه وقتله ومزه ؛ قال عمرو : همزه الموتة ، وقتله الشعر ، وقتله الكبر ، وقال ابن ماجه : الموتة بين الجنون . والتفت : فشق الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه : والكبر : التيه . وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل كبر ثم قال : « سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك » ثم يقول : « لا إله إلا الله ثلاثا » ؛ ثم يقول : « الله أكبر كبيرا ثلاثا أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه وقتله وقتله » ؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن القاسم رحمه الله : أن الاستعاذة أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطية : وأما المقرئون فأكثروا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى ، وفي الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله الخبيث ، من الشيطان المريد ؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نعمت البدعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز .

الخامسة - قال المهدوي : أجمع التزاء على إظهار الاستعاذة في أول قراءة سورة « الحمد » إلا حمزة فإنه أسرها . وروى السدي عن أهل المدينة : أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسلة . وذكر أبو الليث السمرقندي عن بعض المفسرين : أن التمؤذ فرض ، وإذا نسيه القارئ وذكره في بعض الحزب قطع وتمؤذ ، ثم ابتدأ من أوله . وبعضهم يقول : يستعيد ثم يرجع إلى موضعه الذي وقف فيه ؛ وبالأول قال أسانيد البخار والراقي ؛ والثاني قال أسانيد الشام ومصر .

(١) لله عمرو بن مرة المذكور في سنن هذا الحديث ( أنظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٣٩ ) وسنن أبي داود ج ١ ص ٧٧

طبع مصر .

(٢) في بعض النسخ : « أبي القاسم » .



السادسة - بحكي الزهرى قال : نزلت الآية في الصلاة وتذكينا إلى الاستمالة في غير الصلاة وليس بفرس ، قال غيره : كانت فرسا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، ثم تأمينا به .

السابعة - روى عن أبي هريرة أن الاستمالة بعد القراءة ؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربي انتهى النبي يقوم إلى أن قالوا : إذ أفرغ القارئ من قراءة القرآن يستعذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد روى أبو سعيد الخدري : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوذ في صلاته قبل القراءة ، وهذا نص . فان قيل : فما الفائدة في الاستمالة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتها امتثال الأمر ؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لما باطنلها أمرا واجتنابها تنبها ؛ وقد قيل : فائدتها امتثال الأمر بالاستمالة من وموسة الشيطان عند القراءة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ . قال ابن العربي : ومن أغرب ما وجدناه قول مالك في الجموعة في تفسير هذه الآية : قلنا قرأت القرآن فاستمد بالله من الشيطان الرجيم ، قال : ذلك بعد قراءة أم القرآن لمن قرأ في الصلاة . وهذا قول لم يرد به أثر ، ولا يعضده نظر ؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستمالة بعد القراءة ، كان تخصيص ذلك بقراءة أم القرآن في الصلاة دعوى عريضة ، ولا يشبه أصل مالك ولا فهمه ؛ فانه أعلم بسر هذه الرواية .

الثامنة - في فضل التوذ . روى مسلم عن سليمان بن صرد قال : استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم بفصل أحدهما ينضب ويمر وجهه وتنفخ أوداجه ؛ فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إني لأعلم كلمة لو قالها لقب ذاعته أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام إلى الرجل رجل سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل تدري ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : " إني لأعلم كلمة لو قالها لقب ذاعته ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أجموتان ترائي ! أخرجه البخاري أيضا ، وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبي العاص الثقفي : أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين ملاقى ، وقرأني ويأسها علي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خرب قلنا أحسسته فتوذ بالله منه واتخذ من يشاركه " قلنا : ففعلت فأنذبه الله عني . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال : " يا أloysي وبني وربك الله ،

أعوذ بالله من شرك ومن شر ما خلق فيك ومن شر ما يدب عليك ومن أسد وأسود ومن الحية والقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد . وروى خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من تزل متلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . لم يضره شيء حتى يرتحل " أخرجه في اللوطا ومسلم والترمذي وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يتوخذ منه كثير ، ثابت في الأخبار ، والله المستعان .

التاسعة - معنى الاستعاذة في كلام العرب الاستجارة ، والتعيز إلى الشيء ، على معنى الانتفاع به من المكره ، يقال : عذت بفلان واستعنت به ، أي بجات إليه ، وهو عيادي ، أي ملجئي وأعذت غيري به وعوذته بمعنى ، ويقال : عوذ بالله منك ، أي أعوذ بالله منك ، قال الرازي :  
قالت وقها حيدة وذعر \* عوذ بربي منكم ومجسر

والعرب تقول عند الأمر [شكره] : حجرا له بالضم أي دفعا ، وهو استعاذة من الأمر . والعودة والمعاودة والتعويذ كله بمعنى ، وأصل أعوذ : أعوذ قلت الضمة إلى العين لاستقالتها على الواو فسكت .  
الساخرة - الشيطان واحد الشياطين على التكبير والنون أصيلة ، لأنه من شطن إذا بعد عن الخير ، وشطنت داره أي بعدت ، قال الشاعر :

ثأت بسعاد عنك نوى شطون \* فبانت والفسو بها رين

ويتر شطون أي بعيدة النمر . والشطن : الحبل الذي به ليمد طرفه وامتداده . ووصف أعرابي فرسا [لا يحمي] فقال : كأنه شيطان في أشطان مؤتمى الشيطان شيطا لبعده عن الحق وتزده ، وذلك أن كل عات متزود من الحق والإنس والمواب شيطان ، قال جرير :

أبام يدعوني للشيطان من غزل \* وعن يوتي إذ كنت شيطانا

وقيل : إن شيطانا مأخوذ من شاط يبط إذا بطل قالون زائدة . وشاط إذا استرق وشيطت النعم ، إذا دخته ولم تسفجه ، واشتاط الرجل ، إذا احتد غضبا . وثافة يشاط التي يطير فيها السن . واشتاط ، إذا هلك ، قال الأعشى :

(١) الزيادة عن لغة العرب مادة (جر) - (٢) حوالية القرآن كافي لسائر العرب مادة (شطن) -

(٣) الزيادة من لغة العرب مادة (شطن) -

قد غضب السير في مكنون قائله • وقد يسيط علي أرماحتا البطل

أي يهلك •

ويرد على هذه القرعة ، أن سيويه حكى أن العرب تقول : تبيعن فلان إذا فعل أعمال الشياطين ، فهذا بين أنه خيل من شطن ولو كان من شاط لقالوا : تشيد ويرد عليهم أيضا بيت أبي ابن الصلت :

أبما شاطني عصاه عكاه • ورماء في السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لاشك فيه •

الحادية عشرة - الرجم أي المبد من الخير للمهان • وأصل الرجم : الرمي بالجمارة ، وقد رجته أرحمه ، فهو رجم ومرجوم • والرجم : القتل واللعن والطرد والشم ، وقد قيل هذا كلني قوله تعالى : ( لَقَدْ لَمْ تَنْتَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ) وقول أبي إبراهيم : ( لَقَدْ لَمْ تَنْتَ لَأَرْجُمَنَّكَ ) ، وسيأتي إن شاء الله تعالى •

الثانية عشرة - روى الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : قال علي بن أبي طالب عليه السلام : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم عند الصفا وهو مقبل على شخص في صورته القبل وهو يلتمسه ، قلت : ومن هذا الذي تلتمه يا رسول الله ؟ قال : « هذا الشيطان الرجيم » قلت : يا عبد الله والله لا تقتلك ولا ترجين الأمة منك ، قال : ما هذا جزائي منك ، قلت : وما جزاؤك مني يا عبد الله ؟ قال : والله ما أفضك أحد قط إلا شركت أباه في رحم أمه •

## البسملة

ومما صبح وعشرون مسئلة :

الأولى - قال الطحاوي : بسم الله الرحمن الرحيم ، قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة ، يسم لباده • إن هذا الذي وضعت لكم بإعادي في هذه السورة حق ، وإن أوفى لكم بجميع ما ضمننت في هذه السورة من وعدى ولطفى وجزى • وبسم الله الرحمن الرحيم • ما أنزله الله تعالى في كتابنا وعلى

(١) القائل : عرق في القطنين يكون في نوبة الورك • (٢) مكافئ الحديد والبرون إذا شده •

حذره الأئمة خصوصاً بعد سليمان عليه السلام، وقال بعض العلماء: إن بسم الله الرحمن الرحيم تضمنت جميع الشئخ، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات، وهذا صحيح .

الثانية - قال سعيد بن أبي سكينه : بلغني أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه نظر إلى رجل يكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال له : جردها فإن رجلاً جردها فغفر له ، قال سعيد : وبلغني أن رجلاً نظر إلى قرطاس فيه "بسم الله الرحمن الرحيم" فقبله ووضعه على عيفيه فغفر له . ومن هذا المعنى قصة بشرى الحانن فإنه لما وضع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها . طيب اسمه ، ذكره التفسيرى . وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا عثرت بك الدابة فلا تقل نرس الشيطان فإنه يتعاطم حتى يصير مثل البيت يقولون : بقوى صنته، ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم ، فإنه يتصاغر حتى يصير مثل النمل" . وقال له على ابن الحسين في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَّغُوا فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ قال معناه : إذا قلت "بسم الله الرحمن الرحيم" وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : من أراد أن يخيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" ليحصل الله تعالى له بكل حرف منها جنة من كل واحد . فالسبعة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم : ﴿ طَلَبُوا ثَمَنًا عَشْرًا ﴾ وهم يقولون في كل أنفاسهم : "بسم الله الرحمن الرحيم" فمن هنا لك هي قوتهم ، ويسم الله استقبلوا . قال ابن عطية : ونظير هذا قولهم في ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين مراعاة للفظه هي من كلمات سورة إنا أنزلناه . ونظيره أيضاً قولهم في عدد للملائكة الذين ابتدروا قول القائل : ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، فإنها بضعة وثلاثون حرفاً، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يتدرونها أيهم يكتبها أول" . قال ابن عطية : وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثة - روى الشيخ والأعمش : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب "باسمك اللهم" حتى أمر أن يكتب "بسم الله" فكتبها ، فلما نزلت : ﴿ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرِّحْمَ ﴾ : كتب "بسم الله الرحمن" فلما نزلت : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كتبها . وفي مصنف أبي داود : قال الشيخ وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمار : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الزامة - روى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : البسلة ثبيان السورقلت : وهذا يدل على أنها ليست آية من القاعة ولا غيرها .

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

( الأول ) ليست آية من القاعة ولا غيرها ، وهو قول مالك .

( الثاني ) أنها آية من كل سورة ، وهو قول عبد الله بن المبارك .

( الثالث ) قال الشافعي : هي آية في القاعة ، وتردد قوله في سائر السور ، فترد قال : هي آية من كل سورة ، ومرتة قال : ليست آية إلا في القاعة وحدها . ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة التمل .

وأصح الشافعي بما رواه البارقطنى من حديث أبي بكر عبد الحميد بن جعفر الحنفى عن فوح ابن أبي بلال عن سعيد بن أبي سعيد المقبرى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين ، فآفروا بسم الله الرحمن الرحيم ، إنها أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها » . وضع هذا الحديث عبد الحميد بن جعفر ، وعبد الحميد هذا وقته أحمد بن حنبل ، ويحيى بن سعيد ، ويحيى بن معين ، وأبو حاتم يقول فيه : محله الصدق ، وكان سفيان الثوري يضعفه ويحلى عليه . ونوح بن أبي بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبارك وأحد قول الشافعي ما رواه مسلم عن أنس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أنظروا إذ أغشى إغفاءة ثم رفع رأسه متعباً ، قلنا : ما أخصك يا رسول الله ؟ قال : « نزلت على آفنا سورة فقرأ » ( بسم الله الرحمن الرحيم : إنا أعطيناك الكؤور . فصل ربك وأخبر . إن شأيتك هو الآخر ) . وذكر الحنفيت ، وسأى بكه في سورة الكؤور إن شاء الله تعالى .

له الخاتمة - الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بإخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعى الذى لا يختلف فيه . قال ابن العربي : ويحكفك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها ، والقرآن لا يختلف الناس فيه . والأخبار الصلح التى لا مطمئن فيها دالة على أن البسلة ليست آية من القاعة ولا غيرها ، إلا فى التمل وحدها . روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدى

نصفين ، إحدى ما سأل ، وإذا قال العبد ( الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ) . قال الله تعالى مريد عبيده ، وإذا قال العبد ( الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ) . قال الله تعالى على عبيده ، وإذا قال العبد ( يَا أَيْكُ يَا أَيْكُ يَا أَيْكُ ) . قال مريد عبيده . وقال : هذه فوض إلى عبيدي . . . وإذا قال ( يَا أَيْكُ يَا أَيْكُ يَا أَيْكُ ) . قال : هنا بيني وبين عبيدي ، ولعبيدي ما سأل ، وإذا قال ( أَعِدْنَا لِلْعَصَاةِ الْكَثِيرَةِ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْجَمْتَ عَلَيْهِمْ ، يَوْمَ تَكُونُ الْفُتُوبُ عَلَيْهِمْ وَلَا أَفْأَلِينَ ) . قال هؤلاء لعبيدي ، ولعبيدي ما سأل . . . فتوكل سبحانه . فذهب الصلاة ، يريد الفاتحة ، وسماها صلاة ، لأن الصلاة لا تصح إلا بها ، بفعل الثلاث الآيات الأولى لنفسه ، وأختص بها تبارك اسمه ، ولم يختص للمسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبيده ، لأنها تضمنت تذلل العبد وطلب الامتئان منه ، وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى . ثم ثلاث آيات ثمة سبع آيات . وثنا يدل على أنها ثلاث قوله : "هؤلاء لعبيدي" أخرجه مالك ، ولم يقل : "هاتان" فهذا يدل على أن ( أَنْجَمْتَ عَلَيْهِمْ ) آية . قال ابن بكير قال مالك : ( أَنْجَمْتَ عَلَيْهِمْ ) آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة التي قسمها الله تعالى . وبفعله عليه السلام لا ي : « كيف تقرأ إذا انتهت الصلاة » قال : فترتل ( الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ) حتى أتيت على آية بها : إِنَّ الْبَسْمَلَةَ لَيْسَتْ بِآيَةٍ مِنْهَا ، وَكَذَا مَعَهُ أَمَلُ اللَّيْنَةِ وَأَمَلُ الشَّامِ وَأَمَلُ الْبَصْرَةِ ، وَكَأَنَّ الْفَرْقَةَ مَعَهَا ( أَنْجَمْتَ عَلَيْهِمْ ) آية ، وَكَذَا رَوَى تِسَادَةَ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : الْآيَةُ السَّادِسَةُ ( أَنْجَمْتَ عَلَيْهِمْ ) وَأَمَّا أَمَلُ الْكُوفَةِ مِنَ الْفَرْقَةِ وَالْفَتْحَاءِ فَلَهُمْ مَعَهَا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " ولم يمتوا ( أَنْجَمْتَ عَلَيْهِمْ ) .

فإن قيل : قلنا ثبت في المصحف وهي مكتوبة بخطه وقلت قوله ، كما قلت في الفل ، وذلك متواتر عنهم .

قلنا : ماذا كثره صحيح ، ولكن لكونها قاصلة بين السور ، كما روى عن الصائبة ، كما لا تعرف انقضاء السورة حتى تقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" أخرجه أبو داود . أو تركها بها ، كما قد أعققت الأئمة على كتبها في أوائل الكتب ، والرسائل ، كل ذلك محتمل . وقد قال الجرجاني : يسأل الحسن عن "بسم الله الرحمن الرحيم" ، قال : في صدره والرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تزل به "بسم الله الرحمن الرحيم" في شيء من القرآن إلا في من ( أَنْتَ يَا سَلَامٌ يَا بَرٌّ يَا مُنِمْ يَا رَحِيمُ ) "بسم الله الرحمن الرحيم" ، واليواصل .

أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل للتواتر القطعي الاضطرابي . ثم قد اضطرب قول الشافعي فيها في أول كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ، والحمد لله .  
فإن قيل : فقد روى جماعة قراءتها ، وقد تولى المارغطلي جمع ذلك في جزء محصيه .

قلنا : لسنا نذكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها ، ولنا أخبار ثابتة في مقابقتها ، ولها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة في صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، الحديث ، وسألي بكلمة . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ؛ لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم إلا في أول قراءة ولا في آخرها .

ثم إن من ذهبنا يرجح في ذلك بوجه عظيم ، وهو المنقول ، وذلك أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة انقضت عليه المصور ، وصارت عليه الأئمة والصور ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قط « بسم الله الرحمن الرحيم » ابتداء للسنة . وهذا يرد أحاديثكم ، بيد أن أصحابنا استحبوا قراءتها في النفل : وعليه عمل الآئمة الواردة في قراءتها أو على السنة في ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها في النافلة ومن يمرض القرآن عرضا .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست متضمنة آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها ، ولا يقرأ بها المصل في المكتوبة ولا في غيرها لا : راء ولا جهرا ؛ ويجوز أن يقرأها في التواقل . هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . وهذه رواية أخرى : أنها تقرأ أول السورة في التواقل ، ولا تقرأ أول أم القرآن . وروى عنه ابن تيمية : ابتداء القراءة بها في الصلاة القرض والنفل ولا تحرك بحال . ومن أهل المدينة من يقول : إنه لا بد فيها من « بسم الله الرحمن الرحيم » منهم ابن عمر ، وابن شهاب ، وبه قال الشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور ، وأبو عبيد . وهذا يدل على أن البسلة مسئلة اجتهادية ؛ لا قطعية ، كما ظنه بعض الجهال من المتفهمة الذي يلزم على قوله تكفير المسلمين ؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف للمذكر ؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسراء بها مع فاتحة ، منهم أبو حنيفة ، والثوري ؛ وروى ذلك عن عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وعمر ، وابن الزبير ؛ وهو قول الحكم ، وحده ؛ وبه قال أحمد بن حنبل

وأبو عبيد، وروى عن الأوزاعي مثل ذلك، حكاه أبو عمر بن عبد البر في الاستذكار. واحتجوا من الآخر في ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمنا قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم». وما رواه عمار بن رزيق<sup>(١)</sup> عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر، وعمر، فلم أسمع أحدا منهم يمجهر بسم الله الرحمن الرحيم.

قلت: هذا قول حسن وعليه تنفق الآثار عن أنس ولا تضاد، ويخرج به من الخلاف في قراءة البسطة. وقد روى عن سعيد بن جبير قال: كان المشركون يحضرون المسجد، فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا: هذا يذكّر رحمان الجماعة - يعنون مسيلة - فأمر أن يخافت بسم الله الرحمن الرحيم، وتزل: «وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا». قال الترمذي: الحكم أبو عبد الله: فبق ذلك إلى يومنا هذا على ذلك الرسم وإن زالت اللمة، كما بين الرجل في الطواف وإن زالت اللمة، وبقيت الخفافة في صلاة النهار وإن زالت اللمة.

السادسة - اتفقت الأمة على جواز كتبها في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل، فإن كان الكتاب ديوان شعر، فروى مجاهد عن الشعبي قال: أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» وقال الزهري: مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم». ونهت إلى رسم النسبية في أول كتب الشعر سعيد بن جبير، وتابسه على ذلك أكثر المتأخرين. قال أبو بكر الخطيب: وهو الذي تختاره وفصحيه.

السابعة - قال الماوردي ويقال لمن قال: بسم الله بمسئل، وهي لغة موالدة. وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة:

لقد بسلت لي غلة لقيتها • فإحينا ذاك الحبيب الميسل

قلت: المشهور عن أهل اللغة بسمل. قال يعقوب بن السكيت والمطرز والتمالي وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل، إذا قال: بسم الله. يقال: قد أكثر من البسطة، أي من قول بسم الله. ومنه قول الرجل، إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وهمل، إذا قال: لا إله

(١) كما في تهذيب التهذيب. وروى يفتح الراء على الزاى صحرا. وفي الأصول: «ما من زورين وهو غشا».



إلا الله . وسبحل ، إذا قل : سبحان الله . وحمل ، إذا قال : الحمد لله . وحصل ، إذا قال : حم  
على الصلاة . وجعل ، إذا قال : جعلت فداك . ومقل ، إذا قال : أطال الله بقاءك . وسمع ،  
إذا قال : أدام الله عزك . وحمل ، إذا قل : حم على الفلاح . ولم يذكر المطرز : الحيلة ، إذا  
قال : حم على الصلاة .

الثانية — نبت الشرع إلى ذكر البسلة في أول كل فعل ، كالأكل والشرب والنحو والجماع  
والطهارة وركوب البحر ، إلى غير ذلك من الأفعال ، قال الله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾  
﴿ وَقُلْ لَأَكْبِرُنَّ فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ تَجَرِبًا وَمُتَسَاهًا ۝ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أغلق  
بابك وإذا ذكر اسم الله ، وأطغى مصباحك وإذا ذكر اسم الله ، ونهر إناءك وإذا ذكر اسم الله ، وأورك سفارك  
وإذا ذكر اسم الله " وقال : " لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب  
الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يقتر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدا " وقال لسرين أبي سلمة :  
" يا غلام بسم الله وكل بينك وكل بما يليك " وقال : " إنا الشيطان ليستحل الطعام إلا أن يذكر اسم  
الله عليه " وقال : " من لم يذبح فليذبح بسم الله " وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وجعا بمعدة في جسده  
منذ أسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ضع يديك على النوى يالم من جسدك وقل  
بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بركة الله وفدته من شر ما أجد وأحاذر " . هذا كله ثابت  
في الصحيح . وروى ابن ماجه والترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ستر ما بين [أمين]  
الجن وعورات بني آدم إذا دخل [أحد] الكنيف أن يقول بسم الله " . وروى البرقطنى عن عائشة  
قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره حمى الله تعالى ، ثم يفرغ الماء على يديه .

الثالثة — قال ملهؤنا : وفيها ردة على التقديرية وغيرهم من يقول : إن أفضلهم مقدورة لهم .  
وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك : أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتح بذلك ،  
كما ذكرنا .

فبني بسم الله أى بالله ، ومعنى بالله أى بخلقته وتقديره ويوصل إلى ما يوصل إليه . وسأيت لهذا  
مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله ، بسم الله معنى بدأت بكون الله وتوقيفه

وبركه ؛ وهذا تعليم من الله تعالى عباده ، لذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتى يكون  
الافتتاح بركة لله جل وعز .

العاشر - ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن « اسم » صلة زائدة ، واستشهد يقول ليد :

إلى الحلول ثم اسم السلام عليك . ومن يك حولا كاملا قد اعتذر

فذكر اسم زائدة ، وإنما أراد ثم السلام عليك

وقد استدلت علماؤها بقول ليد هنا على أن الأسم هو المسمى . وسيأتى الكلام فيه في هذا الباب

وغيره ، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة - اختلف في معنى زيادة « اسم » ، فقال قطرب : زيدت لإجلال ذكره

تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرك ؛ لأن

أصل الكلام لله .

الثانية عشرة - اختلفوا أيضا في معنى دخول الباء عليه ، هل دخلت على معنى الأمر ؟

والتقدير : ابدا بسم الله ، أو معنى التبرؤ ؛ والتقدير : ابتدأت بسم الله ، قولان : الأول للقرآن ، والثاني

للزجاج . فسم في موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى ابتدأت بسم الله ؛ فسم الله في موضع

رفع خبر الابتداء . وقيل : الخبر محذوف ، أى ابتدأت مستقرا أو ثابت بسم الله ؛ فإذا أظهرته كان

بسم الله في موضع نصب ثابت أو مستقر ، وكان بمثابة قولك : زيد في الفل . وقيل : التثنية ( قلنا )

وَأَمْ مُسْتَقَرًّا عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ قَبْلِ رَبِّي ) فسمه في موضع نصب ، روى هذا عن حماد أهل البصرة .

وقيل : التقدير : ابتدأت بسم الله موجود أو ثابت ، فسم في موضع نصب بالمصدر الذى هو ابتدأت .

الثالثة عشرة - بسم الله ، تكسب خبر ألف استثناء عنها بيا الإصاق في اللفظ وتلحق لكثرة

الاستعمال ، بخلاف قوله : ( اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ) فانها لم تحذف لثقل الاستعمال . وأما قوله في حذفها

مع الرحمن والقلم ؛ فقال الكسائي وسعيد الأخفش ، تحذف الألف . وقال يحيى بن زهير :

لا تحذف إلا مع بسم الله قط ، لأن الاستعمال إنما كثرت فيه .

الرابعة عشرة - وأخفق في تخصيص به الجهر بالكسر على ثلاثة معان ؛ قليل : إنما سب

لفظها عملها . وقيل : لما كانت الباء لا تدخل إلا على الأسماء خست بالتلفظ الذى لا يكون

إلا في الأسماء . القسالت : ليعرف بينها وبين ما قد يكون من الحروف أسماء ، نحو الكاف في قول الشاعر :

• ورحا بكابن الماء تحجب وسطا •

أي يبتل ابن الماء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — اسم ، وزنه إفع ، والقاهب منه الواو ، لأنه من سموت وجمه أسماء وتصنيه سمى . واختلف في تقدير أصله ، قيل : قيل ، وقيل : قُبل . قال الجوهري : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جذع وأجذاع ، وقفل وأقفال ؛ وهذا لا يتدرك صيته إلا بالباع . وفيه أربع لسانات : اسم بالكسر ، وسم بالضم ، قال أحمد بن يحيى : من ضم الألف أخذ من سموت أسمو ، ومن كسر أخذ من سميت أسمي . ويقال : سَمَّ وَسَمَّ ويشد :

واقه اسمك سما مباركا ، آمرك الله به إشاركا

وقال آخر :

وعلمنا أعجبا مُسَمِّه • يدعى أبا السمح وقضاب سُمِه

• سَبْرًا لكل عظم يلحمه •

قَرَضَ الرجل : إذا أكل شيئا بإسافه هو قرضاب . سم بالضم والكسر جميعا .

ومنه قول الآخر :

• باسم القتي في كل سورة سَمِه •

وسكنت السين من بسم اعتلا<sup>(١)</sup> على غريقيس ، وألفه ألف وصل ، وربما جعلها الشاعر ألف

قطع للضرورة ، كقول الأحموس :

وا أنا بالخصوس في جضم مالك • ولان نسي ثم يلزم الإسماء

السادسة عشرة — بقول العرب في النسب إلى الاسم : سُمِّيَ ، وإن شئت : اسمي تركمه على

حاله ، وجمه أسماء ، وجمع الأسماء أسام . وحكى التزاء : أعينك باسماءوات الله .

(١) التصويب من اللسان مادة « برأيه سما » . - وروى ميرزا : متعمل القتي ملح ويلحمه : يزوج معاهم .

(٢) كان الأمل لمحتل حركة المزة إلى السين ثم حذفت المزة ولما وصلت اليامية سكنت السين تخفيفا .

السابعة عشرة - اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقال البصريون : هو مشتق من السمو وهو العلو والرفعة؛ فقل اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل لأن الاسم يسمى بالمسمى فيرفعه عن غيره . وقيل انما سمي الاسم اسما لأنه علا بقرته على نسي الكلام : الحرف والفعل؛ والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل؛ فلعونه عليهما سمي اسما؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السمة وهي العلامة ، لأن الاسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل اسم على هذا «وسم» والأوّل أصح ، لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها؛ فلا يقال : : وسيم ولا أوبام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي :

الثامنة عشرة - فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فطنتهم؛ ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السنة . ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول : كان الله في الأوّل بلا اسم ولا صفة ، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات؛ فأنما هم يقي بلا اسم ولا صفة؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة؛ وهو أعظم في الخطأ من قولهم : إن كلامه مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ، وغل هذا الخلاف وقع الكلام في الاسم والمسمى وهي :

التاسعة عشرة - فنذهب أهل الحق فيما قيل القاضى أبو بكر بن الطيب : إلى أن الاسم هو المسمى وإرضاه ابن فورك؛ وهو قول أبي عبيدة وسيأتي . فإذا قال قائل : الله عالم، فقله دال على الذات الموصوفة بكونه عالما ، فالاسم كونه عالما وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق ، فخالق هو الرب ، وهو بعينه الاسم . فالاسم عندهم هو المسمى بعينه من غير تفصيل .

قال ابن الحصار : من ينسب الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات . ولذلك يقولون : الاسم غير المسمى ، ومن ينسب الصفات ينسب للتسميات مدلولات هي أوصاف الذات وهي غير العبارات وهي الأسماء عندهم . وسيأتي لهذه مزيد بيان في البقرة والأحرف إن شاء الله تعالى .

الوفية عشرين - قوله : (الله) هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجملها ، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم ينسب به غيره؛ ولذلك لم يثن ولم يجمع؛ وهو أحد أطول قوله تعالى :

(هَلْ تَسْمَعُ لَهُ سَمِيًّا) أى من تسمى باسمه الذى هو "الله". فاقه اسم الوجود الحق الجامع لصفات الإلهية، الممتوت بتعوت الروبية، المفرد بالوجود الحقيقى، لا إله الا هو سبحانه. وقيل: معناه الذى يستحق أن يعبد. وقيل: معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد.

الحادية والمشرون - واختلفوا في هذا الاسم، هل هو مشتق؟ أو موضوع للذات، علم فنذهب إلى الأول كثير من أهل العلم. واختلفوا في اشتقاقه وأصله. فروى سيويه عن الخليل: أن أصله إله، مثل يقال: فادخلت الألف واللام بدلا من الهزة. قال سيويه: مثل الناس أصله أناس. وقيل: أصل الكلمة "إلاه" وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيويه. وبأنشد:

لاه ابن عمك لا أنفقت في حبيب . عني ولا أنت ديانى تحزوني

كذا الرواية: تحزوني، بإلقاء المعجمة ومعناه: تأسوني.

وقال الكسائى والنزاه: معنى بسم الله؛ بسم الإله؛ خذفوا الهزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية فصارتا لاما مشددة كما قال عز وجل: (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) ومعناه: لكن أنا، كذلك فوأها الحسن. ثم قيل هو مشتق من «وله» إذا تغير، والوله: ذهب المقل. يقال: رجل وله وأمراته والملة وواله، وماء موله: أرسل في الصطارى. فاقه سبحانه تحير الأكباب وتذهب في حقائق صفاته والفكر في معرفته. فعلى هذا أصل "إلاه" «ولاه» وأن الهزة مبذلة من واو كما أبدلت في إشاح ووشاح، وإسادة ووسادة. وروى عن الخليل، وروى عن الضحاك أنه قال: إنما سمي "الله" إلهما، لأن الخلق يتألمون إليه في حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائهم. وذكر عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يألمون إليه بنصب اللام ويألمون أيضا بكسرهما وهما لنتان. وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شئ مرتفع: لاهما، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت. وقيل: هو مشتق من إله الرجل إذا تعبد. وإله إذا تسك. ومن ذلك قوله تعالى: (وَيَذَرُكَ وَيَآخِثُكَ) على هذه القراءة؛ فإن ابن عباس وغيره قالوا: وعبادتك.

قالوا: فاسم الله مشتق من هنا، فاقه سبحانه معناه: للقصود بالعبادة، ومنه قول اللوحدين: لا إله الا الله، معناه: لا ميسود غير الله. وإلا في الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الاستثناء. وزعم

بعضهم أن الأصل فيه «الماء» التي هي الكتابة عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجودا في فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكتابة ثم زيدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فنصار «له» ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفضيلا .

الفصل الثاني : ذهب إليه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعي، وأبو المال، والخطابي، والقرطبي، والمفضل، وغيرهم . وروى عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة لو لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابي : والدليل على أن الألف واللام من بنية هذا الاسم ، ولم يدخلها للتعريف : دخول حرف النداء عليه ، كقولك : يا الله ، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا الرحمن ولا يا أرحمهم ، كما تقول : يا الله فدل على أنها من بنية الاسم . والله أعلم .

الثانية والمشرون . واختلفوا أيضا في اشتقاق اسم الرحمن . فقال بعضهم : لا اشتقاق له ، لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ، ولأنه لو كان مشتقا من الرحمة لاتصل بذكر المرحوم ، فجاز أن يقال : الله الرحمن بعباده ، كما يقال : رحم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة لم تنكره العرب حين سمعوه ، إذ كانوا لا يتكبرون رحمة ربهم ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ الْآيَةَ . وَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صَلَاحِ الْحَدِيدِ بِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، قَالَ سُبَيْلُ بْنُ عَمْسَرٍ : مَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ! وَلَكِنْ أَكْتُبُ مَا تَعْرِفُ : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، الْحَدِيث . قَالَ أَبُو الْعَرَبِيِّ : إِنَّا جَهِلُوا الصَّعَةَ دُونَ الْمُوصُوفِ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ وَلَمْ يَقُولُوا : وَمَنْ الرَّحْمَنُ ؟ قَالَ ابْنُ الْحَصَارِ : وَكَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يقرأ الْآيَةَ الْآخِرَى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ . وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَنَّ الرَّحْمَنَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ سِقَى عَلَى الْمُبَالَغَةِ ، وَسَاءَ ذُو الرَّحْمَةِ الَّذِي لَا تَقْظِرُ لَهُ فِيهَا ، فَلِذَلِكَ لَا يَتَّبَعُ وَلَا يَجْمَعُ كَمَا يَتَّبَعُ الرَّحِيمَ وَيَجْمَعُ . قَالَ ابْنُ الْحَصَارِ : وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْاِشْتِقَاقِ مَا نَحَرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا الرَّحْمَنُ ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ ، وَشَقَقْتُ لَهَا آسَاسَ مِنْ أَسْمَى ، مِنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ ، وَمَنْ خَطَمَهَا قَطَعْتُهُ » وَهَذَا نَصٌّ فِي الْاِشْتِقَاقِ ، فَلَا مَعْنَى لِلخَالْفَةِ وَالْتِقَاقِ ، وَإِنْكَارُ الْعَرَبِ لَهُ لِيُجَاهِلَهُمُ بِاللَّهِ وَمَا وَجِبَ لَهُ .

الثالثة والعشرون - زعم المبرد فيما ذكر ابن الأثير في كتاب «الزاهر» له : أن الرحمن  
اسم عراقي بفتح السين بالرحم . وأنتد :

لن تُذكرُوا الجِدَّ أو تُشروا عِيَانَكُمْ . بالنزْز أو يَجْلُوا الْيَتِيمَ شَمْرًا  
أو تَرْكُونَ إِلَى الْقَسِينِ حِرْمَكُمْ . وَتَحْكُمُ عَلَيْهِمْ رَحْمَانُ قُرْبَانَا

قال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن : وقال أحد بن يحيى : الرحمن عراقي والرحمن عراقي ،  
فهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : التثنية قد يقع للنح كقول : قال جرير الشاعر . وروى مطزف عن  
قائدة . في قول الله عز وجل : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق : وهذا  
قول حسن . وقال قطرب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق : وهذا قول  
حسن ، وفي التوكيد أعظم الفائدة . وهو كثير في كلام العرب ، ويستثنى عن الاستشهاد ، والفائدة  
في ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضل بمد تفضل ، وإمام بمد إمام ، وتقوية لطامع الراغبين ،  
ووعد لا يجيب آمله .

الرابعة والعشرون - واخفقوا هل هما بمعنى واحد أو بعنيين ؟ قيل : هما بمعنى واحد كقوله  
ويكسر . قاله أبو عبيدة : وقيل : ليس ببناء فلان كقيل ، فإن فلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل  
نحو قولك : رجل غضبان ، المثل غضبان . وقيل قد يكون بمعنى الصاعل والمفعول . قال عيسى :

فَمَا إِذَا غَضِبْتَ بِكَ الْحَرْبَ غَضَةً . فَتَكُ مَعْطُوفٌ عَلَيْكَ رَحِيمٌ

والرحمن خاص الاسم عام الفعل . والرحيم عام الاسم خاص الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله ، والرحيم  
إنما هو في جهة المؤمنين كما قال تعالى : (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) . وقال المرزوقي : الرحمن لجميع خلقه  
في الأساطير وهم الحواريون والشمس العامة . والرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم ، والقطامي . وقال ابن المبارك :  
الرحمن إنما سئل أعطى ، والرحيم إنما لم يسئل غضب . وروى ابن ماجة في سننه والترمذي في جامعه

(١) غر عيسى بن علي كان في زمان العرب عادة وهم .

(٢) هو عبد الملك بن أبي سليمان المرزوقي كان في الخلافة .

عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يبال الله بغضب عليه»  
لفظ الترمذي. وقال ابن ماجه: «من لم يدع الله غضب عليه» وقال: سألت أبا زرعة عن  
أبي صالح هذا، فقال: هو الذي يقال له: القارسي وهو خوزي ولا أعرف اسمه. وقد أخذ  
بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

الله يغضب إن تركت مؤالته • وبني آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان: أحدهما أرق من الآخر أي أكثر راحة.  
قال الخطابي: وهذا مشكل، لأن الرقة لا مدخل لها في شيء من صفات الله تعالى. وقال  
الحسين بن الفضل الجبلي: هذا وهم من الراوي، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى في شيء،  
وإنما هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، والرفق من صفات الله عز وجل قال النبي صلى  
الله عليه وسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».  
- الخليفة والعشرون - أكثر العلماء على أن الرحمن مختص بالله عز وجل، لا يجوز أن يسمى به  
غيره، ألا تراه قال: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرِّحْمٰنَ﴾ فمادل الاسم الذي لا يشركه فيه غيره.  
وقال: ﴿وَسَأَلْتُ رَبِّي أَمْسَلَتْ مِنْ رُسُلِنَا أَجَلْتُمْ مِنْ دُونِ الرِّحْمٰنِ أَلَمْ يَعْصُوا﴾ فأخبر  
أن الرحمن هو المستحق للعبادة جل وعز. وقد تجانس اسمي الكتاب لعمد الله، فسمى بربان التامة  
وما قرع اسمه، حتى أزمه الله تعالى نستهلك الكتاب لذلك. ولئن كان كل كلام قد صار  
هذا الوصف لاسم الله بما يعرف به، أزمه الله إياه. وقد قيل في اسمه الرحمن: إنه اسم الله الأعظم؛  
ذكره ابن العربي.

«السابعة والعشرون - الرحيم صفة مطلقة للخلقين، ولما في الرحمن من السموم، فقم في كلامنا  
على الرحيم، مع موافقة التقريل، قاله المهندوي. وقيل: إن معنى الرحيم أي بالرحيم وصلتم إلى الله  
وإلى الرحمن، فالرحيم نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نعت تمالك بذلك فقال: ﴿رَبُّكَ رَحِيمٌ﴾  
فكان المعنى أن يقول: بسم الله الرحمن والرحيم، أي ونحمد صلى الله عليه وسلم وصلتم إلى، أي  
بإتباعه وبإتباعه إلى توابي وكرامتي والنظر إلى وجهي وإله أعلم.

(١) نسبة إلى خوزستان بلاد بين فارس والهند وفي بعض النسخ خوزي بإزاء الجملة نسبة إلى خوزية بلخ.



السابعة والعشرون - روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال في قوله : بسم الله شفاء من كل داء، وعون على كل دواء، وأما الرحمن، فهو عون لكل من آمن به، وهو اسم لم يسم به غيره، وأما الرحيم، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

وقد فسره بعضهم على الحروف، فروى عن عثمان بن عفان : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم، فقال : أما الباء فيبلاء الله وروحه ونصره وبهاؤه، وأما السين فسنة الله . وأما الميم فملك الله، وأما الله، فلا إله غيره وأما الرحمن، فالعالم طيف على البر والفاجر من خلقه، وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة . وروى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه، والسين سناؤه فلا شيء أعلى منه، والميم ملكه، وهو على كل شيء قدير، فلا شيء يمازاه . وقد قيل : إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه، فالباء مفتاح اسمه بصير، والسين مفتاح اسمه سميع، والميم مفتاح اسمه ملك، والألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والمهاء مفتاح اسمه هادي، والراء مفتاح اسمه رازق، والحاء مفتاح اسمه حلیم، والتون مفتاح اسمه نور، ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شيء .

الثامنة والعشرون - واختلف في وصل الرحيم بالحمد لله، فروى عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم، الرحيم بسمكين الميم ويقف عليها، ويتبدى بالث مقطوعة، وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور الناصب الرحيم الحمد، يرب الرحيم بالتلفظ ويوصل الألف من الحمد . وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ الرحيم الحمد، بفتح الميم وصلة الألف كأنها سكنت الميم وقطعت الألف ثم أقيمت حركتها على الميم وحذفت . قال ابن عطية : ولم ترو هذه قراءة عن أحد فيما علت . وهذا نظري محي بن زياد في قوله تعالى ألم الله .

## تفسير سورة الفاتحة

بجول الله وكرمه ، وفيها أربعة أبواب

### الباب الأول

في قضائها وأسمائها وفيه سبع مسائل

الأول - روى الترمذي عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولبيدي ما سأل " أخرجه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سعيد مولى [ ابن ] ماسر بن كرز أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبي بن كعب وهو يصلي ، فدكر الحديث . قال ابن عبد البر : أبو سعيد لا يعرف له على اسم وهو معدود في أهل المدينة ، روايته عن أبي هريرة وعديته هذا مرسل ، وقد روى هذا الحديث عن أبي سعيد بن الملق رجل من الصحابة لا يعرف على اسمه أيضا ، رواه عنه حفص بن عاصم ، وعبد بن حنين .

قلت : كذا قال في التعميد : لا يعرف له على اسم . وذكر في كتاب الصحابة الاختلاف في اسمه .  
والحديث يخرج البخاري عن أبي سعيد بن الملق قال : كنت أصلي في المسجد فعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلي ، فقال : ألم يقل الله : ( اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ) ثم قال : " إني لأعلمك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد " ثم أخذ يدي فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل : لأعلمك سورة هي أعظم سورة في القرآن ، قال : " الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته " . قال ابن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن الملق من جلة الأنصار ، وسادات الأنصار ، تغرد به البخاري ، واسمه رافع ويقال : الحارث بن قبيص بن الملق ، ويقال : أوس بن الملق ، ويقال : أبو سعيد بن أوس بن الملق ، توفي سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين [ سنة ] ، وهو أول من صلى إلى القبلة

(١) لعل ما سأل به ما رواه مسلم عن أبي هريرة فيقول الله تعالى نست الصلاة (أي الفاتحة) بيني وبين عبدي .

(٢) قال في الإسماعيلية ما يستمر أن تكون قصة مع النبي صلى الله عليه وسلم وعمره وسوق الحديث باب ذلك .

بين حوثلة . وسأقي . وقد أسند حديث أبي يزيد بن زريع قال : حدثنا روح بن القاسم عن  
العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال . نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي  
وهو يصلي ، فذكر الحديث بمناه .

من تراجم الأثرين ، في كتاب الرد له : حدثني أبي حدثني أبو عبيد الله الوراق حدثنا أبو داود ،  
حدثنا شيخان عن منصور . عن مجاهد قال . إن إبليس لعنه الله رث أربع رثات ، حين لم ي ، وحين  
أهبط من الجنة ، وحين مات محمد صلى الله عليه وسلم ، وحين نزلت فاتحة الكتاب ، وأنزلت بالمدينة .  
الثانية - اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض ، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى  
الحسنى على بعض . فقال قوم : لا فضل لبعض على بعض ، لأن الكلام كلام الله ، وكذلك أسماء  
لامفاضلة بينها ، ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري ، والقاضي أبو بكر بن الطيب ، وأبو حامد  
محمد بن حبان البستي ، وجماعة من الفقهاء . وروى عنه عن مالك قال يحيى بن يحيى : تفضيل  
بعض القرآن على بعض خطأ ، وكذلك كره مالك أن تهاذ سورة أو تزدد دون غيرها . وقال عن مالك  
في قول الله تعالى : (ثَابِتٍ يُخْرِجُنَا مِنْهَا أَوْ مُنْقَلَبًا) . قال : محكمة مكان منسوخة . وروى ابن كثة مثل  
ذلك كله عن مالك . واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشترطه المفضل ، والقاسية  
في الكل واحدة ، هي كلام الله ، وكلام الله تعالى لا تقص فيه . قال البستي : «بمعنى هذه اللفظة  
(ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن) ، أن الله تعالى لا يعطى لقارئ التوراة والإنجيل مثل  
ما يعطى لقارئ أم القرآن ، إذ الله يفضل هذه الأمة على غيرها من الأمم ، وأعطاهم من الفضل  
على قراءة القرآن كلامه ، أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه ، وهو فضل منه لهذه  
الأمة . قال : ومعنى قوله : أعظم سورة أراد به في الأجر لا أن بعض القرآن أفضل من بعض .  
وقال قوم بالتفضيل ، وأن ما قصته قوله تعالى : (وَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)  
رواية الترمذي ، وآخر سورة الحشر ، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وسفاته ليس موجودا  
مثلا في (ثَابِتٍ يُخْرِجُنَا مِنْهَا أَوْ مُنْقَلَبًا) وما كان مثله .

والتفضيل إنما هو بالمعاني الدينية والثرية ، لا من حيث الرفعة ، وهذا هو الحق . ونحن قال  
بالتفضيل أصحاق بن راهويه ، وغيره من العلماء والمحكمين ، وهو اختيار القاضي أبي بكر بن العربي وابن

الحصار لحديث أبي سعيد بن الملقى وحديث أبي بن كعب أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا أي آية منك في كتاب الله أعظم" قال : فقلت : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال : فضرب في صدري وقال : "لهلك العلم يا أبا المنذر" أخرجه البخاري ومسلم .

قال ابن الحصار : عجبي ممن يذكر الخلاف مع هذه النصوص .

وقال ابن العربي : قوله : "ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها" وسكت عن سائر الكتب ، كالصحيح المتروك والزبور وغيرها ؛ لأن هذه المذكورة أفضلها ، وإذا كان الشيء أفضل الأفضل ، صار أفضل الكل ، كقولك زيد أفضل العلماء ، فهو أفضل الناس .

وفي القامحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شريفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده ، ولا تصح القرية إلا بها ، ولا يلحق عمل بشاؤها ، وبهذا المعنى سارت أم القرآن العظيم ، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تملث ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ، ووعظ ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيد كله ، وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السلام لأبي : "لدى آية في القرآن أعظم" قال : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ . وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبل لا إله إلا الله وحده لا شريك له" أفضل الذكر ، لأنها كلمات حوت جميع العلوم في التوحيد ، والقامحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى .

الثالثة - روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قامحة الكتاب ، وآية الكرسي ، وشهادة الله أنه لا إله إلا هو ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ، هذه الآيات مطلقات بالعرش ، ليس بينهما وبين الله حجاب" . أسنده أبو عمرو الداني في كتاب (البيان) له .

الرابعة - في اسمائها وهي اثنا عشر اسما :

(الأول) الصلاة ، قال الله تعالى : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين" الحديث وقد تقدم .

(١) أي في الحديث القدسي .

(الثاني) الحمد، لأن فيها ذكر الحمد كما يقال : سورة الأعراف، والأُنفال، والتوبة، ونحوها.  
(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها انقضاء، وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطأ، وتفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب، وفي هذا الاسم خلاف، جزؤه الجمهور، وكرهه أنس، والحسن، وابن سيرين، قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : ﴿ آيَاتُ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُنْزِلْنَ مِنْهَا بَيِّنَاتٌ ﴾ . وقال أنس، وابن سيرين : أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ .

(الخامس) أم القرآن، واختلف فيه أيضا، فحوزها الجمهور، وكرهه أنس، وابن سيرين، والأحاديث الثابتة ترد هذين القولين . روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني » قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي البخاري قال : وسميت أم الكتاب لأنه يتبدأ بكتابتها في المصاحف، ويسدأ بقراءتها في الصلاة . وقال يحيى ابن يعمر : أم القسرى مكة . وأم خراسان : مروء . وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سميت أم القرآن لأنها أوله ومتضمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أول الأرض ومنها دجيت، ومنه سميت الأم أمنا لأنها أصل النسل، والأرض أمنا، في قول أمية بن أبي الصلت :

فالأرض مقلنا وكانت أمنا \* فيها مقابرنا وفيها نولد

ويقال لراية الحرب : أم، لتقدمها ولاتباع الجيش لها، وأصل أم أمهة، ولذلك يجمع على أمهات قال الله تعالى : ﴿ وأمهاتكم ﴾ . ويقال : أمات بنير هاه . قال :

\* فرجت الظلام بأماتكا \*

وقيل : إن أمهات في الناس، وأمات في البهائم، حكاه ابن فارس في المجمل .  
(السادس) المثاني، سميت بذلك لأنها تنبئ في كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها امتنيت لهذه الأمة فلم تقتل على أحد قبلها ذخرا لها .

(السابع) القرآن العظيم، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على التناهى ربي عن وجل بأوصاف كما له وجلاله، وعمل الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز

عن القيام بشئ منها إلا بإعائته تعالى ، وعلى الإتيال إليه ، في الهداية إلى الصراط المستقيم ، وكفاية  
أحوال التاكثين ، وعلى بيان عاقبة الملاحدين .

(التامن) الشفاء ، روى الباقى عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » .

(التسع) الرقية ، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدرى وفيه أن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال للرجل الذى رقى سيد الحى : « ما أدراك أنها رقية » فقال : يا رسول الله شئ الذى  
فى روعى . الحديث نحره الأئمة وسبأ به جماعة .

(العشر) الأساس ، شكا رجل إلى الشعي وجع الماصرة ، فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة  
الكتاب ، سمعت ابن عباس يقول : لكل شئ أساس ، وأساس الدنيا مكة ، لأنها منها دحيت ، وأساس  
السماوات غريب ، وهى السياه السابعة ، وأساس الأرض عجيب ، وهى الأرض السابعة السفلى ، وأساس  
الجنة جنة عدن ، وهى سره الجنان عليها أسست الجنة ، وأساس النار جهنم ، وهى الفكرة السابعة  
السفلى عليها أسست الدركات ، وأساس الخلق آدم ، وأساس الأنبياء نوح ، وأساس بنى إسرائيل  
يعقوب ، وأساس الكتب القرآن ، وأساس القرآن الفاتحة ، وأساس العائنة بسم الله الرحمن  
الرحيم ، فإذا اعتظلت أو اشتكت فعليك بالفاتحة تشفى .

(الحادى عشر) الزاوية قاله سفيان بن عيينة : لأنها لا تنصف ولا تحتمل الاختزال ، ولو قرأ  
من سائر السور نصفها فى ركعة ، ونصفها الآخر فى ركعة ، لأجزأ ، ولو نصف الفاتحة فى ركعتين لم يجز .  
(الثانى عشر) الكفاية ، قال يحيى بن أبى كثير : لأنها تكفى عن سواها ولا يكتفى سواها عنها .  
يدل عليه ما روى محمد بن خالد الاسكندراني قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أم القرآن عون  
من غيرها وليس غيرها منها عوضا » .

الخاتمة — قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو ( إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) وقيل :  
السورة كلها رقية ، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : « وما أدراك أنها رقية » ولم يقل : إن فيها رقية .  
فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية ، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه ، ومنضمة لجميع علومه ، كما تقدم  
والله أعلم .

السادسة - ليس في تسميتها بالمثنى وأم الكتاب، ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عز وجل : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ ﴾ فاطلق على كتابه : مثنى، لأن الأخبار تنبئ فيه . وقد سميت السبع الطوال أيضا مثنى، لأن القرائض والقصاص تنبئ فيها . قال ابن عباس : أدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثاني . قل : السبع الطوال . ذكره النسائي، وهي من البقرة إلى الأعراف ست واختلفوا في السابعة، فقيل : يونس، وقيل الأفعال والتوبة، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجوا المسجد وادعوا ربكم • وادرسوا هذى المثنى والطول

وسألت لهذا مزيد بيان في سورة الحجرات، إن شاء الله تعالى .

السابعة - المثنى جمع مثنى، وهي التي جاءت بعد الأولى، والطول جمع أطول . وقد سميت الأفعال من المثنى لأنها تتلو الطول في القدر . وقيل : هي التي تزيد آياتها على الفصل وتقص عن المثني . والمثنون : هي السور التي تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

## الباب الثاني

في تزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة

الأولى - أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ماروى عن حسين الجعفي : أنها ست، وهذا شاذ. وإلا ماروى عن عمرو بن عبيد . أنه جعل ﴿ إياك نعبد ﴾ آية، وهي على هذا ثمان آيات وهذا شاذ . وقوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني ﴾ وقوله : " قسمت الصلاة " الحديث يرد هذين القولين . وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأنها عبد الله بن مسعود في مصحفه . ولما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن، كالمؤذنين عنده . الجواب ما ذكره أبو بكر الأنباري قال : حقتا الحسن بن الحباب حقتا سليمان بن الأشعث حقتا ابن أبي قدامة حقتا جرير عن الأعمش قال : أخذه عن إبراهيم قال : قيل لعبد الله بن مسعود : لم لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعني أن كل ركعة سبيلها أن تفتح بأم القرآن قبل السورة المثناة بعدها، فقال : اختصرت بأسفلها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها في موضع فيلزمني أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها في الصلاة .

التيانية - اخطفوا هي مكية أم مدنية ؟ . فقال ابن عباس ، وقادة ، وأبو العالية الرياحي - واسمه رفيع - وغيرهم : هي مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري وغيرهم : هي مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي في تفسيره . والأول أصح لقوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ والمجر مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بخير الحمد لله رب العالمين ، يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بماضية الكتاب " وهذا خبر عن الحكم ، لا عن الابتداء والله أعلم .

وقد ذكر القاسمي ابن الطيب اختلاف الناس في أول ما نزل من القرآن ، فقيل : المذثر ، وقيل : اقرأ ، وقيل : الفاتحة . وذكر البيهقي في دلائل النبوة : عن أبي مسيرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : " إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً " قالت : معاذ الله ، ما كان الله ليعمل بك ، عز الله إنك لتؤتي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث . فلما دخل أبو بكر ، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ، ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : يا عتيق ، انهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده ، فقال : انطلق بنا إلى ورقة ، فقال : ومن أخبرك . قال خديجة ، فانطلقا إليه ، فقصا عليه ، فقال : " إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد ، يا محمد ، فانطلق هارباً في الأرض " فقال : لا تفعل ، إذا أتاك فأنتيت حتى تسمع ما يقول ، ثم أنني فأخبرني . فلما خلا ، ناداه : يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى يبلغ وال الصالحين قل : لا إله إلا الله . فأتى ورقة ، فذكر ذلك له ، فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فانا أنشهد أنك الذي بشر به عيسى ابن مريم ، وأنت على مثل تاموس موسى ، وأنت نبي مرسل ، وأنت سوف تقوم بالجهاد بعد يومك هذا ، وإن يدركني ذلك لأجاهدك معك . فلما توفى ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد رايت القدس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني " يعني ورقة . قال البيهقي رضي الله عنه : هذا منقطع يعني هذا الحديث ، فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن تزولها بعد ما نزل عليه ( اقرأ باسم ربك ) و ( يا أيها المذثر ) .



الثالثة - قال ابن عطية : ظن بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم يزل بسورة الحمد ؛ لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : بينا جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقیضاً <sup>(١)</sup> من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم يزل إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته . قال ابن عطية : وليس كما ظن ، فإن هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام قدم الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُبَلِّغاً به وما يزل معه ، وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها وافتاحها .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبي صلى الله عليه وسلم نبئاً من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة ، نزل بها جبريل عليه السلام ، لقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ وهذا يقتضي جميع القرآن ، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ، ونزل الملك بنوها بالمدينة . وانه أعلم . وقد قيل : إنها مكبة مدنية ، نزل بها جبريل مرتين ، حكاية التعليل . وما ذكرناه أولى ، فإنه جمع بين القرآن والسنة ، وقه الحد والملة .

الرابعة - قد نعلم أن البسلة ليست بآية منها على القول الصحيح، وإذا ثبت ذلك حكم المصل إذا كبر أن يصله بالفتحة ولا يسكت، ولا يذكر توجيها، ولا اسميها، لحديث عائشة، وأنس المتقدمين وغيرهما، وقد جلبت أحاديث بالتوجيه، والتسيج، والسكوت، قال بها جماعة من العلماء، فروى عن عمر ابن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهما: أنها كانتا يقولان إذا اقتما الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جتك، ولا إله غيرك؛ وبه قال سفيان، وأحمد، وإسحاق وأصحاب الرأي. وكان الشافعي يقول بالتدوير عن غل عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا افتتح الصلاة كبر ثم قال: "وَجْهَتْ وَجْهِي" الحديث، ذكره مسلم، وسيأتي تجامه في آخر سورة الأقسام، وهناك يأتي القول في هذه المسألة مستوفى. إن شاء الله.

قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر في الصلاة سكت به قبل أن يقرأ يقول : " اللهم إني أعوذ بك من المشرق والمغرب ، اللهم قني من

خطابى كما تبقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والتلج والبرد“ واستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتان طعنوا فيها القراءة . وكان الأوزاعى ، وسعيد بن عبد العزيز ، وأحمد بن حنبل ، يميلون الى حديث النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة - واختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة، فقال مالك وأصحابه : هى متينة للإمام والمفرد فى كل ركعة . قال ابن خوزاذ مناذ البصرى المالكي : لم يختلف قول مالك انه من نسبها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزئ . واختلف قوله ، فمن تركها ناسيا فى ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يبعد الصلاة، وقال مرة أخرى : يسجد سجدة السهو وهى رواية ابن عبد الحكم وغيره، عن مالك . قال ابن خوزاذ مناذ وقد قيل : إنه يبعد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام . قال ابن عبد البر : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة وإتاي بركعة بدلا منها، كمن أسقط سجدة سهوا . وهو اختيار ابن القاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة، والغنية بن عبد الرحمن المخزومي المدني : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصلاة أجزأه ولم يكن عليه إعادة؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ؛ وهى تامة لقوله عليه السلام : “لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن“ وهنا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة، وهو الضحيح، على ما باتى، ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم .

وقال أبو حنيفة . والثوري ، والأوزاعى : إن تركها عامدا فى صلاته كلها وقرا غيرها أجزأه، على اختلاف عن الأوزاعى فى ذلك . وقال أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدين . وعن محمد بن الحسن أيضا ؛ قال : أسوغ الاجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة بنحو : ( الحمد لله ) . ولا أسوغه فى حرف لا يكون كلاما .

قال الطبري : يقرأ المصلئ بأم القرآن فى كل ركعة، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن فى عدد آياتها، وحروفها . قال ابن عبد البر : وهذا لا معنى له؛ لأن التبيين لما والنص عليها قد خصها

بهذا الحكم دون غيرها ؛ وعلم أن يحىء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها ، وإنما عيه أن يحىء بها ويعد إليها ، كسائر المفروضات المنعيت في العبادات .

السادسة - وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعاً فالإمام يحل عنه القراءة ؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعاً أنه يكبر ويركع ولا يقرأ شيئاً ، وإن أدركه قائماً فإنه يقرأ وهي المسئلة

السابعة - ولا ينبغي لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه في صلاة الله ، فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه عند مالك ، وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهي المسئلة

الثامنة - فلا قراءة بغائبة الكتاب ولا غيرها في المشهور من مذهب مالك ، لقول الله تعالى : **(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)** ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"مالي أنزع القرآن"** وقوله في الإمام : **"إنما قرأ فأنصتوا"** وقوله : **"من كان له إمام فقراءة الإمام له : ١-٢"** .

وقال الشافعي فيها حكم عيسى بن عيسى ، وأحد من حنبل : لا تجزئ أحدا صلاة حتى يقرأ بغائبة الكتاب في كل ركعة ، إماماً كان أو مأموماً ، جهر إمامه أو أسر . وكان الشافعي بالمرأى يقول في المأموم : يقرأ إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر ؛ كمشهور مذهب مالك . وقال عاصم بن يحيى في الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يحزله ألا يقرأ ويكتفي بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب ، وأشب ، وابن عبد الحكم ، وابن حبيب ، والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئاً ، جهر إمامه أو أسر ، لقوله عليه السلام : **"قراءة الإمام له قراءة"** ، وهذا عام ؛ ولقول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بآم القرآن فلم يصل ، إلا وراء الإمام .

الثامنة - الصحيح من هذه الأقوال : قول الشافعي ، وأحمد ، ومالك ، في القول الآخر ، وأن النافعة منسبة في كل ركعة لكل أحد على المأموم لقوله صلى الله عليه وسلم : **"لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بغائبة الكتاب"** وقوله : **"من صلى صلاة لم يقرأ فيها بآم القرآن فهي خداج ثلاثاً"** قال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنأى تأتيه : **"لا صلاة إلا بقراءة فائحة الكتاب فإذا زاد"** أخرجه أبو داود . كما لا ينوب بعبود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ؛ فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها ؛ وبه قال عبد الله بن حنبل ، وأبو يوسف السرخسي ، وأبو ثور ، وغيره من أصحاب الشافعي ، ومولود بن علي . وروى مثله عن الأوزاعي ؛ وبه قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وأبي بن كعب، وأبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمرو بن العاصي، وعادة بن الصامت، وأبي سعيد الخدري، وعثمان بن أبي العاصي، وخوات بن جبير، أنهم قالوا: لا صلاة إلا فاتحة الكتاب. وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي؛ هؤلاء الصحابة بهم القدوة، وفهم الأسرة، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة.

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال؛ فقال: حدثنا أبو كريب حدثنا محمد بن فضيل، وحدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر جميعا عن أبي سفيان السدسي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة الحمد وسورة في فريضة أو غيرها ». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه عليه السلام قال للذي عليه الصلاة: « وأفضل ذلك في صلاتك كلها » وسيأتي. ومن الحجّة في ذلك أيضا: ما رواه أبو داود سن نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري قال: أبنا عبادة بن الصامت عن صلاة الصبح؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصلاة فصل أبو نعيم بالناس، وأقبل عبادة بن الصامت وأنا معه حتى صفتنا خلف أبي نعيم؛ وأبو نعيم يجهر بالقراءة؛ بفعل عبادة يقرأ بآم القرآن؛ فلما انصرف قلت لعبادة: سمعتك تقرأ بآم القرآن وأبو نعيم يجهر؛ قال: أجل! صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمض الصلوات التي يجهر فيها بالقراءة فالتبست عليه؛ فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: « وهل تقرأون إذا جهرت بالقراءة » فقال بمض: إنا نصنع ذلك، قال: « فلا وأنا أقول مالي يتنازعني القرآن فلا تقرأوا بشيء من القرآن إذا جهرت إلا بآم القرآن ». وهذا نص صريح في المأموم. وأخرجه أبو عيسى الترمذي من حديث محمد بن إسحاق بمناه؛ وقال حديث حسن. والمعمل على هذا الحديث في القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس، وابن المبارك، والثاقبي، وأحمد وإسحاق، ويرون القراءة خلف الإمام. وأخرجه أيضا الدارقطني وقال: هذا إسناد حسن، ورجاله كلهم ثقات؛ وذكر: أن محمود بن الربيع كان يسكن الياء، وأن أبا نعيم أول من أذن في بيت المقدس. وقال أبو محمد عبد الحق: ونافع بن محمود لم يذكره البخاري في تاريخه ولا ابن أبي حاتم ولا أخرج له

البخارى ومسلم شيئا . وقال فيه أبو عمر : مجهول . وذكر البارقي عن يزيد بن شريك قال سألت عمر عن القراءة خلف الإمام . فأمرني أن أفرا ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؟ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرت . قال للبارقي : هذا إسناده صحيح . وروى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإمام ضامن ثما صنع فاصنعوا" قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ، وبهذا أفتى أبو هريرة الثاوري أن يقولوا بها في نفسه حين قال له : إني أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم استدلل بقوله تعالى : " قسمت الصلاة بيني و بين عبدى تصفين نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين " الحديث .

الماثرة — أنا ما استدلل بالأقول بقوله عليه السلام : " وإذا قرأ فأنصتوا " أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ، وقال : وفي حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة " وإذا قرأ فأنصتوا " قال البارقي : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمي فيها عن قتادة ، وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ، منهم شعبة ، وهشام ، وسعيد بن أبي عروبة ، وهمام ، وأبو عوانة ، ومعمّر ، وعدي بن أبي عامرة . قال البارقي : لجامعهم يدل على وهمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمي ، ولكن ليس هو بالقوى . تركه القطان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة وقال هذه الزيادة " إذا قرأ فأنصتوا " ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صحح حديث أبي هريرة ، وقال : هو عندى صحيح .

قلت : وما يدل على صحتها عنده إدخالها في كتابه من حديث أبي موسى وإن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وابن المنذر .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام في الصلاة نزل بالمدينة ، كما قال زيد بن أرقم ، فلاحجة فيها ، فإن المقصود كان للمشركين ، على ما قال سعيد بن المسيب . وقد روى البارقي عن أبي هريرة : أنها نزلت في دفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : " مالى أنأزع القرآن " فأخرجه مالك عن ابن شهاب عن ابن أكيمة اللثبي ، وأسمه فيها قال مالك : عمرو

وغيره يقول : عامر ، وقيل : يزيد ، وقيل : عمار ، وقيل : عباد ، يكنى أبا الوليد توفي سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة ، لم يرو عنه الزهري إلا هذا الحديث الواحد ، وهو ثقة ، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره ، والمعنى في حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك سائر وتماذب وتخالج ، اقرءوا في أنفسكم . بينه حديث عبادة ، وقتيا الفاروق ، وأبي هريرة الراوي للثنين . فلو فهم المنع جملة من قوله : "مالي أنازع القرآن" لما أتى بخلافه ، وقول الزهري في حديث ابن أركمة : فاتمى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيا جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفراء ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بالجهر على ما بينا ، وبالله توفيقنا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : "من كان له إمام فقرأه الإمام له قراءة" فثبت ضعيف أسنده الحسن بن عمار وهو بطرولك ، وأبو حنيفة<sup>(١)</sup> وهو ضعيف ، كلاهما عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر ، أخرجه الدارقطني ، وقال : رواه سفيان الثوري ، وشعبة ، وإسرايل بن يونس وشريك ، وأبو خالد الدالاني ، وأبو الأحوص ، وسفيان بن عيينة ، وجابر بن عبد الحميد ، وغيرهم عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد مرفعا عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا دولة امام ، فرواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر قوله ، قال ابن عبد البر ورواه يحيى بن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبي نعم وهب ابن كيسان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وصوابه موقوف على جابر ، كما في الموطأ . وفيه من لقيه إبطال الركعة التي لا يقرأ فيها بأم القرآن ، وهو يشهد لصحة ما ذهب إليه ابن القاسم ، ورواه عن مالك في إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يستد المصل بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ، وهذا مذنب جابر وقد خلفه فيه غيره .

الحادية عشرة - قال ابن العربي لما قال صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" واختلف الناس في هذا الأصل هل يحمل هذا اللفظ على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟

(١) في نسخة : "عنه بن عمر"

(٢) قد روي عن جعفر بن الزبير وابن خلكان في الوفيات ولم يذكره في الحديث ولكن ابن سعد في الطبقات قد وصفه بذلك .

اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر . ولما كان الأشهر في هذا الأصل والأقوى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ الفاتحة في صلاته بطلت . ثم نظرنا في تكرارها في كل ركعة ؛ فمن تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنمبل ذلك في صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة - ما ذكرناه في هذا الباب من الأحاديث والمعاني في تعيين الفاتحة؛ يرد على الكوفيين قولهم : في أن الفاتحة لا تتعين ، وأنها وغيرها من آي القرآن سواء ؛ وقد عينا النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ، كما ذكرناه ؛ وهو الميّن عن الله تعالى مراده في قوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ . وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر . فدل هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابي : " اقرأ ما تيسر معك من القرآن " مازاد على الفاتحة ، وهو تفسير قوله تعالى : ﴿ فَاقْرَأْ مَا تيسر منه ﴾ . وقد روى مسلم عن عباد بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن " زاد في رواية " فصاعداً " . وقوله عليه السلام : " هي خداج ثلاثا غير تمام " أي غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والجداج : النقص والفساد . قال الاخفش : خدجت الثاقبة ، إذا ألقت ولدها لغير تمام ، وأخدجت إذا خدقت به قبل وقت الولادة وإن كان تام التلقا .

والنظر يوجب في التقصان ألا تجوز معه الصلاة ؛ لأنها صلاة لم تتم ؛ ومن خرج من صلاته وهي لم تتم فعليه إعادتها كما أمر ، على حسب حكمها . ومن ادعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل ، ولا سبيل إليه من وجه يُعْرَف ، والله أعلم .

الثالثة عشرة - روى عن مالك أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعي يقول بالمرأى فيمن نسيها ؛ ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن فاتحة الكتاب إلا بها ؛ ولا يجزئ أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته ، وإن قرأ بنبرها . وهذا هو الصحيح في المسئلة . وأما ما روى عن عمر رضى الله عنه صلى الله عليه وسلم المقرب فلم يقرأ فيها ، فذكر ذلك له ؛ فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن ، قال : لا بأس إذا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد ، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمي عن عمر ؛ وسره يرويه إبراهيم عن أبي سلمة

ابن عبد الرحمن بن عمر، وكلاهما متقطع لا حجة فيه، وقد ذكره مالك في الموطأ، وهو عند بعض الرواة، وليس عند يحيى وطائفة معه، لأنه رماه مالك من كتابه بأخره<sup>(١)</sup> : وقال ليس عليه العمل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» وقد روى بن عمر أنه أعاد تلك الصلاة، وهو الصحيح عنه . روى يحيى بن يحيى النيسابوري قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعي عن همام بن الحارث : أن عمر نسي القراءة في المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همام من عمر روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سئل مالك بن النضر نسي القراءة : أيسجد ما قال عمر؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمر فعله - وأنكر الحديث - وقال : يرى الناس عمر يصنع هذا في المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة - أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة، على ما تقدم من أصولهم في ذلك، وأجمعوا على أن لا توفيت في ذلك بعد فاتحة الكتاب، إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال مالك : وسنة القراءة أن يقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة، وفي الأخرين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعي : يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزاء، وقال : وإن نسي أن يقرأ في ثلاث ركعات أعاد . وقال الثوري : يقرأ في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ويسجد في الأخرين إن شاء . وإن شاء قرأ، وإن لم يقرأ ولم يسجد جازت صلاته، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : اقرأ في الأوليين، وسجد في الأخرين، وبه قال النخعي . قال سفيان : فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئ قراءة ركعة . قال : وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو نور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة، كقول الشافعي المصري، وعليه جماعة أصحاب الشافعي . وكذلك قال ابن خواز منذاذ المالكي : قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة، وهذا هو الصحيح في المسألة . روى مسلم عن أبي قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل بنا قتيلاً في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويسمعنا الآية أحياناً، وكان يلحظ

(١) أي يتأخر به عن الشيء .



في الركعة الأولى من الظهر ويقتصر الباقية ، وكذلك في الصبح . وفي رواية : وقرأ في الركعتين الآخرين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك ، ونص في تعيين الفاتحة في كل ركعة ، خلافاً لمن أبي ذلك ، والجمعة في السنة ، لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : في كل صلاة قراءة ؛ فما أسمتنا النبي صلى الله عليه وسلم أسمناكم ، وما أخفى منا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد أفضل . وفي البخاري : « وإن زدت فهو خير » . وقد أبي كثير من أهل العلم ترك السورة لفرضه أو لفرضه من غيره عمران بن حصين ، وأبو سعيد الخدري ، وخوات بن جبير ، ومجاهد ، وأبو وائل ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن ؛ ففهم من حديثين ، ومنهم من حدث آية ، ومنهم من لم يحدث ، وقال : شيء من القرآن معها ؛ وكل هذا موجب لتعلم ما تيسر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ، لحديث عبادة ، وأبي سعيد الخدري ، وغيرهما . وفي المدونة : وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال : حدثني من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها . واختلف المذهب في قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة ، فضيلة ، واجبة .

السادسة عشرة — من تفلذ ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا خلق منه شيء ، لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه ، من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى وحده ، أو مع إلهام فيما أسره له للإمام ؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبيد الله بن أبي أوفى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني لا أستطيع أن أخذ من القرآن شيئاً ، فملني ما يبرئني منه ؛ قال : قل « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » ؛ قال : يا رسول الله ، هذا لله ، فما لي ؟ قال : قل « اللهم ارحمني وعاقي واحدني وأرزقني » .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده ؛ فالإمام يجعل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبداً أن يجهل نفسه في تعلم فاتحة الكتاب فما زاده ؛ إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيمذره الله .

الثامنة عشرة - من لم يؤت لسانه إلى التكلم بالعربية من الأعجميين وغيرهم ترجم له الدعاء  
نحو: بلسانه الذي يفقه لأقامة صلاته ؛ فإن ذلك يحزنه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة - لا تجزئ صلاة من قرأ بالعربية وهو يحسن العربية في قول الجمهور .  
وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية ، لأن المقصود إصابة المعنى . قال  
ابن المنذر : لا يجزئه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به . وخلاف ما علم النبي صلى الله عليه وسلم ،  
وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية المشرين - من أفتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة ؛ فطرا عليه العلم بها في أثناء  
الصلاة ، ويتصور ذلك بأن يكون سمع من قراها فملقت بحفظه من مجرد السماع فلا يستأنف  
الصلاة ؛ لأنه أدى ما مضى على حسب ما أمر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله في كتاب ابن سمعون .

## الباب الثالث

### في التأمين ، وفيه ثمان مسائل

الأولى - ويسن لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون (والفضائل)  
آمين ، يتميز ما هو قرآن بما ليس بقرآن .

الثانية - ثبت في الأمهات من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
”إذا أمن الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه“ قال علماؤنا رحمه  
الله عليهم : تقربت المغفرة للذنوب على مقدمات أربع ، تضمنها هذا الحديث ؛ الأولى : تأمين الإمام ،  
الثانية : تأمين من خلفه ، الثالثة : تأمين الملائكة ، الرابعة : موافقة التأمين ؛ قيل : في الإجابة ؛  
وقيل : في الزمن ، وقيل : في الصفة ، من إخلاص الدعاء ، لقوله عليه السلام : ”ادعوا الله وأتمم  
موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه“ .

الثالثة - روى أبو داود عن أبي مصبح المقراني قال : كنا نجلس إلى أبي زهير النخعي وكان من  
الصحابية ، فيحدث أحسن الحديث ؛ فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختتمه آمين ، فإن آمين مثل  
الطابع على الصحيفة ؛ قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك ، نرجعنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات ليلة ، فأتيت على رجل قد ألح في المسئلة ، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم يسمع منه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أوجب إن ختم" فقال له رجل من القوم : بأى شئ يتم ؟ قال : "بآمين فانه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذى سأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى الرجل فقال له : اختم يا فلان وأبشر . قال ابن عبد البر : أبو زهير النخعي اسمه يحيى بن نفيذ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تقتلوا الجراد فانه جند الله الأعظم" وقال وهب بن منبه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف ملكا يقول : اللهم اغفر لكل من قال آمين . وفي الخبر : "لقننى جبريل آمين عند فرائض من فاتحة الكتاب ، وقال : إنه كان تاتم على الكتاب" وفي حديث آخر : "آمين ، خاتم رب العالمين" . قال المروى : قال أبو بكر : معناه أنه طاب الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم] الآفات ، والبلايا ؛ فكان تكاتم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده ، وإظهار ما فيه . وفي حديث آخر : "آمين درجة في الجنة" ؛ قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة في الجنة .

الإبادة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهم استجب لنا ، وضع موضع الدعاء . وقال قوم : هو اسم من أسماء الله ، روى عن جعفر بن محمد ، وبجاهد ، وحلال بن يساف ، ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله ابن العرب . وقيل : معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهري : وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما معنى آمين ؟ قال : "رب أفعل" وقال مقاتل : هو قوة للدعاء ، واستزال للبركة . وقال الترمذي : معناه لا تحيب رجاءنا .

الخامسة — وفي آمين لتتان : المد على وزن فاعيل يكاسين . والقصر على وزن يمين . قال الشاعر في المد :

يا رب لا تقسطنى حبا أبدا . ويرحم الله عبدا قال آمينا

وقال آخر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة . حتى أبلغها ألفين آمينا

وقال آخر في القصر :

تبادع مني فطعل إذ سألته . آمين فزاد الله ما بيننا بعدا  
وتسديد الميم خطأ ، قاله الجوهري . وقد روى عن الحسن ، وجعفر الصادق ، التشديد ؛  
وهو قول الحسين بن الفضل ؛ من أم إذا قصد أي نحن قاصدون نحوك ؛ ومنه قوله : ( وَلَا آمِينَ  
أَبَيْتَ الْحَرَامَ ) . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري .  
قال الجوهري : وهو مبني على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين . وتقول منه :  
أئن فلان تأمينا .

السادسة - واختلف العلماء : هل يقول الإمام وهل يحجر بها ؟ فذهب الشافعي ومالك  
في رواية المدنيين إلى ذلك . وقال الكوفيون وبعض المدنيين : لا يحجر بها . وهو قول الطبري ؛  
وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو غدير . وروى ابن القاسم عن مالك :  
أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك من خلفه ؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب  
مالك ، وجميعهم : حديث أبي موسى الأشعري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لما سئنا  
وعلمنا صلاتنا فقال : « إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ ، ثُمَّ لِيُؤْمِكُمْ أَحَدُكُمْ ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا ، وَإِذَا قَالَ :  
( غَيْرِ الْمَنْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْفُضَّلَيْنِ ) فَقُولُوا آمِينَ بِحَيْثُ قَالَ » . وذكر الحديث ، أخرجه مسلم . ومثله  
حديث سُمِّيَ عن أبي هريرة ؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وائل بن حجر قال : كان  
رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ : ( وَلَا الْفُضَّلَيْنِ ) . قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه  
أبو داود والدارقطني .

قال أبو بكر : هذه سنة تفرد بها أهل الكوفة - هذا صحيح - والذي بعده ؛ ترجم له البخاري  
باب جهر الإمام بالتأمين .

وقال عطاء : آمين دعاء ؛ أمِّن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للسجد لجة . قال الترمذي : وبه يقول  
غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن بعدهم ، يرون أن يرفع الرجل صوته  
بالتأمين لا يخفيها . وبه يقول الشافعي ؛ وأحمد ، وإسحاق . وفي الموطأ ، والصحاحين ، قال ابن شهاب  
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « آمين » . وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال :  
ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : ( غَيْرِ الْمَنْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْفُضَّلَيْنِ )

قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرجع بها المسجد . وأما حديث أبي موسى وسمى  
فما هما التعريف بالموضع الذي يقال فيه آمين : وهو إذا قال الإمام : ( ولا الضالين ) —  
ليكون قولها مع ولا يتقدمه بقول : آمين ، لما ذكرناه ، والله أعلم . وقوله عليه السلام : « إذا آمن  
الإمام فأمنا » وقال ابن تافع في كلب ابن الحارث : لا يقول المأموم إلا أن يسمع الإمام يقول :  
( ولا الضالين ) . وإذا كان يبعد لا يسمعه فلا يقل .

وقال ابن عبدوس : يتخذى قدر القراءة ويقول : آمين .

السابعة — قال أصحاب أبي حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال  
الله تعالى : ( ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ) . قالوا : واللَّيل عليه ما روى في تأويل قوله تعالى :  
( قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ ) . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمن ، فسمها الله داعين .

والجواب : أن إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلوة الجماعة  
فتشبهها إشهار شعار ظاهر ، وإظهار حتى يستدب للباد إلى إظهاره . وقد تدب الإمام إلى إشهار  
قراءة الفاتحة المشتعلة على الدعاء ، والتأمين في آخرها ؛ فإذا كان الدعاء بما يسن الجهر فيه فالتأمين على  
الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بين .

الثامنة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام . ذكر الترمذي الحكيم  
في ( نوادر الأصول ) : حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدثنا أبي قال حدثنا زرين مؤذن  
مسجد هشام بن حسان قال حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن  
الله أعطى أمي ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام ، وهو تحية أهل الجنة ، وصفوف الملائكة ، وآمين  
إلا ما كان من موسى وهارون » قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمن هارون ، فقال  
الله تبارك اسمه عند ما ذكر دعاء موسى في تزييله : ( قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ ) ولم يذكر مقالة هارون ،  
وقال موسى ربنا ، فكان من هارون التأمين ، فسمها داعيا في تزييله ، إذ صير ذلك منه دعوة . وقد قيل :  
إن آمين خاص لهذه الأمة ، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما حسنتكم اليهود على  
شيء ما حسنتكم على السلام والتأمين » أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن ساهل بن أبي  
صالح عن أبيه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحديث . وأخرج أيضا من حديث ابن

عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما حدثكم اليهود على شيء ما حدثكم على آمين ، فأكثروا من قول آمين " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما حدثنا أهل الكتاب لأن أولها حمد الله وشأنه عليه ثم خضوع له واستكانة ، ثم دعاء لنا بالمهداية والصراف المستقيم ، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين .

## الباب الرابع

فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين ، وفيه ست وثلاثون مسألة

الأولى - قوله سبحانه وتعالى : ( الحمد لله ) . روى أبو محمد عبد النبي بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمدى " وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ " . وفى (توازي الأصول) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن الدنيا كلها بخذا فيهما بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك قال أبو عبد الله : معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا ، ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية ، والكلمة باقية ، من الباقيات الصالحات . وقال : هو « خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » . وقيل فى بعض الروايات : لكن ما أعطى أكثر مما أخذ . فضمير الكلمة أعطى من العبد والدنيا أخذ من الله فهذا فى التذكير كذاك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد ، والدنيا من الله ، وكلهما من الله ؛ فى الأصل الدنيا منه ، والكلمة منه ، أعطاه

الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشره بها في الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : "أن عبدا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقضت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا الى السماء فقالا يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - ماذا قال عبدي، فقالا يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما : اكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها " .

قال أهل اللغة : أفضل الأمر : اشتد واستنق ، والمضلات بتشديد الضاد ، الشدائد . وعضلت المرأة والشاة، إذا تيب ولدها فلم يسهل مخرجه ؛ بتشديد الضاد أيضا ؛ فعل هذا يكون : أعضلت الملكين أو عضلت الملكين يترباه . والله أعلم . وروى عن مسلم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطهور شرط الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانية - اختلف العلماء : أيما أفضل ؛ قول البعد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول : لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ؛ لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحده ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك ؛ وعليها يقايل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" واختار هذا القول ابن عطية ؛ قال : والحاكم بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له" .

الثالثة - أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه ؛ وأن ما أتم الله به الإيمان ؛ فدل على أن الإيمان فعله وسنقه ؛ والدليل على ذلك قوله : ( رب العالمين ) . والمؤمنون جملة المخلوقات ؛ ومن جعلها الإيمان . لا كما قال القدرية : إنه خلق لهم على ما يأتي بيانه .

الرأسة - الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل ؛ والألف واللام لا ستغرق الجنس من المالحمة ؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلى ؛ وقد جمع لفظ الحمد جمع القلة في قول الشاعر :

وأبلغ محمود الثناء خصصته \* بأفضل أقبالي وأفضل أحمدي

فالحمد : قبض الظم ؛ تقول : حمدت الرجل أحدهم حمدا فهو حميد ومحمود ؛ والتحميد أبلغ من الحمد ؛ والحمد أهم من الشكر ، ونظمه : الذى كثرت خصاله الحميدة . قال الشاعر :

\* إلى المساجد القرم الجوارد الحمد \*

وبذلك سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر :

فنسق له من اسمه ليحبه \* فذر البرش محمود وهذا محمد

والحمدة : خلاف المذمة ؛ وأحمد الرجل : صار أمره إلى الحمد ؛ وأحمدته : وجدته محمودا ؛ تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته ، أى صادفته محمودا موافقا ، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه ؛ ورجل حمدة - مثل همزة - يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحدة النار - بالتحريك - : صوت التهايا .

الخامسة - ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء . وليس بمرضى . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب " الحقائق " له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكره إذا كان منه الاستئذان على تسليمنا إياه حتى حمدناه ، وأما المبرد على أنهما بمعنى بصمة قواك : الحمد لله شكرا . قال ابن عطية : وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه ؛ لأن قواك شكرا ؛ إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم . وقال بعض العلماء : إن الشكر أهم من الحمد ، لأنه باللسان وبالحوارج والقلب ؛ والحمد إنما يكون باللسان خاصة . وقيل : الحمد أهم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح ؛ وهو أهم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد . وروى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمة كل شاكر ، وإن آدم عليه السلام قال حين عطس : الحمد لله . وقال الله لنوح عليه السلام :



(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَنَانَا مِنَ الْقُسُومِ الطَّالِبِينَ) وقال إبراهيم عليه السلام : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ). وقال في قصة داود وسليمان : (وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) وقال لنبية صلى الله عليه وسلم : (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا). وقال أهل الجنة : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ). (وَأَيُّ دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). فهي كلمة كل شاكر.

قلت : الصحيح أن الحمد شاء على المدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر شاء على المشكور بما أولى من الإحسان. وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يقع على التناهى وعلى التحديد، وعلى الشكر، والجزأه خصوصاً، إنما يكون مكافأة لمن أولاك مرفوعاً، فصار الحمد أعم في الآية، لأنه يزيد على الشكر. ويذكر الحمد بمعنى الرضا، يقال : بلوته خيمته، أى رضيته. ومنه قوله تعالى : (مَتَابًا مَحْمُودًا) وقال عليه السلام : "أحمد إلهم غسل الإحليل" أى أرضاه لكم. ويذكر عن جعفر الصادق في قوله : (الحمد لله) من حمد بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد، لأن الحمد جاه وميم، وقال : فالحمد من الوحدانية، والميم من الملك، والذال من الديمومية، فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه، وهذا هو حقيقة الحمد لله. وقال شقيق بن إبراهيم في تفسير (الحمد لله) قال : هو على ثلاثة أوجه : أولاً إذا أعطاك الله شيئاً ترفق من أعطاك. والثاني أن ترضى بما أعطاك. والثالث ما دامت قوته في جسدك ألا تمصيه، فهذه ثمرات الحمد.

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره، بل ناهى عن ذلك في كتابه، وعلى لسان نبيه عليه السلام، فقال : (قُلَّا تَرَوْكَوَ اتَّخَذَكُمْ حُجَجًا عَلَى أَنْتُمْ) وقال عليه السلام : "أحشوا في وجوه للمؤمنين التراب" رواه للقداد وسيأتي القول فيه في النساء أن شاء الله تعالى.

فسمى الحمد لله رب العالمين : أى سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد من المخلوقين، وحدهى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بطله، لو حمد الخلق مشوب بالذل. قال علماؤنا : فصحيح من المخلوق الذى لم يسط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لما المانع ويدفع عنها المضار. وقيل : لما (١) عذب ذلك ابن حطية في نفسه بقره فاعلم من الناس من التواضع والى الصفات وبه ينفع كلام المؤلف.

علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده، هو عل  
 المعجز عن حمده، ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر المعجز بقوله: "لا أحصى ثناء عليك" وأتشدوا:  
 إذا نحن أثينا عليك بصالح • فانت كما نثني وفوق الذي نثني

وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده  
 فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهدأ إليهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنة •

✓ السابعة - وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الهمزة من ( الحمد لله ) • وروى عن  
 سفيان بن عيينة، ورؤبة بن السباع • الحمد لله؛ ينصب الهمزة وهذا على إضمار فعل • ويقال:  
 الحمد لله بالرفع مبتدأ وخبر، وسيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيويه قال:  
 إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع فقيه من المعنى مثل ما في قولاك: حمدت الله حمدا؛ إلا أن الذي يرفع  
 الحمد يفيد أن الحمد منه ومن جميع المخلوق لله؛ والذي ينصب الحمد يفيد أن الحمد منه وحده لله • وقال  
 غير سيويه • إنما يتكلم بهذا تعريضا لغواؤه وبغفرته وتعظيلا له وتمجيذا • فهو خلاف معنى الخبر  
 فيه معنى السؤال • وفي الحديث: "من شغل بذكرى عن مسطى أعطيته أنفصل ما أعطى  
 السائلين" • وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه، وثناء عليها، يعلم ذلك عباده؛ فالمنى على هذا:  
 قولوا الحمد لله • قال الطبري: الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يتنوا عليه؛  
 فكأنه قال: قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يحى قولوا إياك • وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر  
 الكلام عليه؛ كما قال الشاعر:

وأعلم أنني ما كون رسا • إذا سر التوايح لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم • فقال القائلون لمن وزير

المنى المحفور له وزير فخفف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير • وروى عن ابن أبي جلة<sup>(١)</sup>  
 الحمد لله، بضم الهمزة واللام على اتباع الثاني الأول، ولينجانس اللفظ، وطلب التجانس في اللفظ كثير  
 في كلامهم، نحو أخوك وهو متحدث من الجبل، بضم الهمزة والجيم<sup>(٢)</sup> • قال:  
 • اضرب الساقين أمك حابل •

(١) اسمه إبراهيم • (٢) له أتياء الجيم •

بضم التون لأجل ضم المزة . وفي قوله لأهل مكة "مردفين" بضم الراء اتباعا للميم ، وعلى ذلك  
«مقتلين» بضم القاف . وقالوا : لأماك فكسروا المزة اتباعا للام ، وأشد النيران بن بشر :

ويل أنما في حوله الجو طالبة • ولا كهذا الذي في لأرض مطلوب

الأصل : ويل لأنها ، غنفت اللام الأولى واستقل ضم المزة بعد الكسرة فغلقها اللام ثم اتبع  
اللام الميم . وروى عن الحسن بن أبي الحسن ، وزيد بن علي : الحمد لله ؛ بكسر الدال على اتباع  
الأول أنشأني .

الثامنة — قوله تعالى : ( رَبِّ الْعَالَمِينَ ) . أي مالكم وكل من ملك شيئا فهو ربه ؛ فالرب :  
المالك . وفي الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة ؛ وقد قالوه  
في الجاهلية لله ، قال الحارث بن حنظلة :

وهو الرب والشمس على رؤس الحيارين والبلبل بلاء

والرب السيد ، ومنه قوله تعالى : ( أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ) . وفي الحديث : "أن تعد الأمة ربها"  
أي سيدتها ؛ وقد ينادى في خطاب (التذكرة) . والرب : المصلح ، والمدير ، والجار ، والقائم . قال المروزي  
وفيه : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه ، قد وهبه ربه فهو رب له ورأب ؛ ومنه سمي الربانيون  
لقيامهم بالكتب . وفي الحديث : "هل لك من نعمة تربها عليه" أي تقوم بها وتصلحها . والرب :  
المعبود ؛ ومنه قول الشاعر :

أرب بيول التملكت برأسه • لقد ذل من يالت عليه الصالح

ويقال على الكثير : ربه وربيه وربته ؛ حكاه النحاس . وفي الصحاح : ورب فلان ولده ربه  
وبا وربيه وتربيته بمعنى : أي ربه . والمربوب : المرئى .

الثامنة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم ، لكثرة دعوة الماعين به ،  
وتأمل ذلك في القرآن ، كما في آثر آل عمران ، وسورة إبراهيم ، وغيرهما ؛ ولما يشعر به هذا الوصف من  
الصلة بين الرب والمربوب ، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال . واختلف  
في اشتقاقه ، قيل : إنه مشتق من التربية ؛ فله سبحانه وتعالى مدبر خلقه ، ومن يربهم ومنه قوله تعالى :  
( وَرَبَّانِيكُمْ إِلَهِانِي فَتُحْيِيكُمْ ) . فسمى بنت الزوجية ربة لتربية الزوج لها .

فعل أنه مدبر الخلقه وضريرهم يكون صفة فعل ؛ وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد ، يكون صفة ذات .

المانرة - متى أدخلت الألف واللام على رب ، اختص الله تعالى به لأشياء للمهدى ؛ وإن حذفنا منه صار مشتركاً بين الله وبين عباده ، فيقال : الله رب العباد ، وزيد رب القار ؛ فأنه سبحانه رب الأرباب ؛ يملك الممالك والملوك ، وهو خالق ذلك ورازقه ، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق ، وكل مملوك فملك بعد أن لم يكن ، ومتبرع ذلك من يده ، وإنما يملك شيئاً دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهذه الممانى ، فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشرة - قوله تعالى : (الْمَالِئِينَ) - اختلف أهل التأويل في المأليين اختلافاً كثيراً ، فقال قتادة : المألون جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رطل وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم ؛ قاله الحسين بن الفضل لقوله تعالى : ( أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ يَنِ الْغَالِيَيْنِ ) أى من الناس . وقال الساج :

• نَحْنُ نَفْ هَامَةُ هَذَا الْعَالَمِ •

وقال جرير بن الحطاي :

• تنصفه البرية وهو سام • ويضحي المألون له عيالا

وقال ابن عباس : المألون الجن والإنس . دليله قوله تعالى : ( لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ) ولم يكن نذيراً للبهائم . وقال الفراء ، وأبو عبيدة : العالم ، عبارة عن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنسان ، والجن ، والملائكة ، والشیاطين . ولا يقال للبهائم عالم لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة . قال الأعشى :

• ما إن سمعت يمثلم في المأليا •

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء : هم الروحانيون ، وهو معنى قول ابن عباس أيضاً : كل ذى روح دب على وجه الأرض . وقال وهب بن منبه : إن لله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم ؛ الدنيا عالم منها . وقال أبو سعيد الخدري : إن لله أربعين ألف عالم ؛

الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد . وقال مقاتل : المألون ثمانون ألف عالم ، أربعون ألف عالم في البر ، وأربعون ألف عالم في البحر . وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : الجن عالم ، والإنس عالم ، وسوى ذلك للأرض أربع زوايا في كل زاوية ألف وخمسمائة عالم ، خلقهم لعبادته .

قلت والفتول الأول أصح هذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ ثُمَّ هُوَ مَأْخُذٌ مِنَ الْمَلِئِكَةِ وَالْعَلَمَةِ ، لأنه يدل على موجد كذا قال الزجاج قال : العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العلم ، والعلامة ، والمعلم : ما دل على الشيء ؛ فالعالم دال على أن له خالقاً ومدبراً ، وهذا واضح . وقد ذكر أن رجلاً قال بين يدي الخليل : الحمد لله ؛ فقال له : أتمها كما قال الله ؛ قل : رب العالمين ؛ فقال الرجل : ومن العالمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال قل يا أحمى ، فإن الحديث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب في رب ؛ والنصب على المدح ، والرفع على القطع ؛ أي هو رب العالمين .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه تعالى بمد رب العالمين ، بأنه الرحمن الرحيم ، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترحيب ، قرنه بالرحمن الرحيم ، لما تضمن من الترحيب ليجمع في صفاته بين الرحمة منه ، والرغبة إليه ، فيكون آمون على طاعته وأمنع ؛ كما قال : ﴿ تَبٰى تَبٰى بِيْءِى اَنِّىْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ . وَاَنْ عَذٰبِىْ هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ ﴾ . وقال : ﴿ غَايِرُ الذَّنْبِ وَقَايِلُ التَّوْبِ شَدِيْدُ الْعِقَابِ ذِي الْعَرْسِ الْعُلُوِّ ﴾ . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بيمينه أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قطعت من جنته أحد " وقد تقدم ما في هذين الأسمين من المعاني ، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . قرأ محمد بن السميع : ينصب مالك ؛ وفيه أربع لغات : مَالِكٌ وَمَلِكٌ وَمَلِكٌ — مخففة من مَلِك — ومَلِكٌ ، وقال الشاعر :

وَأَيُّمَ لَنَا غَرْمٌ طَسُوَالٌ • عَصَيْنَا الْمَلِكَ فَمَا أَنْ نَعِيَا

وقال آخر :

فلتقن بما قسم الملك فإنما . قسم الخلائق بيننا علامها

الخلائق : الطباع التي جبل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة في ملك ؛ فقرا ملكي على لغة من يشع الحركات ؛ وهي لغة للعرب ذكرها المهدوي وغيره .  
الخامسة عشرة - اختلف العلماء أيما أبلغ : ملك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان عن النبي صل الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر ، ذكرهما الترمذي ؛ فقيل : ملك أعم وأبلغ من مالك ؛ إذ كل ملك مالك ، وليس كل مالك ملكا ، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه ، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل : مالك أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم ؛ فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم ؛ إذ إليه إحراء قوانين الشرع ، ثم عنده زيادة التملك .

وقال أبو علي حكي أبو بكر بن السراج عن بعض من آتخار القراءة بملك : أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله : ( رب العالمين ) فلا فائدة في قراءة من قرأ مالك لأنها تكرر . قال أبو علي : ولا حجة في هذا لأن في التثنية أشياء على هذه الصورة ، تقدم العام ثم ذكر الخاص كقوله : ( هو الله الخالق الباري المصور ) فالخالق يعم ؛ وذكر المصور ، لما فيه من التنبيه على الصنعة ، ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعالى : ( وبالأخرة هم يوقنون ) بعد قوله : ( الذين يؤمنون بالآية ) والنيب يعم الآخرة وغيرها ؛ ولكن ذكرها لمظلمها ، والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والرد على الكفرة الجاحدين لما ؛ وكما قال : ( الرحمن الرحيم ) فذكر الرحمن الذي هو عام وذكر الرحيم بعده ، لخصيص المؤمنين به في قوله : ( وكان بالمؤمنين رحيما ) . وقال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك ، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك ، والفرق بينهما أن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإن كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، واختار هذا القول القاضي أبو بكر بن العربي ؛ وذكر ثلاثة أوجه ؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام فتقول : مالك النار والأرض والنوب ، كما تقول : مالك الملوك . الثاني : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ وإنما تأملت هذين القولين وحسنتهما واحدا . الثالث : أنك تقول : مالك الملك ؛ ولا تقول : ملك الملك . قال ابن الحصار : إنما كان

ذلك، لأن المراد من مالك الدلالة على الملك بكنز الميم وهو لا يتضمن الملك بضم الميم، ومالك يتضمن الأمرين جميعاً، فهو أولى بالمبالغة، ويتضمن أيضاً الكمال، ولذلك استحق الملك على من دونه، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، ولهذا قال عليه السلام: "الإمامة في قریش" وقریش أفضل قبائل العرب، وللعرب أفضل من العجم وأشرف، ويتضمن الاقتدار، والاختيار، وذلك أمر ضروري في الملك إن لم يكن قادراً غتاراً نافذاً حاكمه وأمره، فمهره عدوه، وظبه غيره، وازدريته رعيته، ويتضمن البطش والأمر والتهى والوعد والوعد؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَأَنَّ مِنَ الْتَائِيَيْنِ . لَا عَجَبٌ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إلى غير ذلك من الأمور العجيبة، والمغاني الشريفة، التي لا توجد في المالك.

قلت: وقد احتج بعضهم على أن مالكا المبح لأن فيه زيادة حرف؛ فقاربه عشر حركات زيادة عن قرأ ملك. قلت: هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتت القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس في مالك، على ما بينا والله أعلم.

السادسة عشرة - لا يجوز أن يسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى؛ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بحينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟" وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أختع اسم عبد الله رجل قسى ملك الأملاك" زاد مسلم: "لا مالك إلا الله عز وجل" قال سفيان: مثل: شاهان شاه. وقال أحمد بن حنبل: سألت أبا عمرو الشيباني عن أختع؛ فقال: أوضح. وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبره رجل تسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه". قال ابن الحصار: وكذلك ملك يوم الدين، وملك الملك؛ لا ينبغي أن يختلف في أن هذا محرم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء، وأما الوصف بملك وملك وهي:

السابعة عشرة - فيجوز أن يوصف بها من أنصف بفهومها؛ قال الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: "ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله يركبون شيخ هذا الحر ملوكاً على الأئمة أو مثل الملوك على الأسرة".

الثامنة عشرة - إن قال قائل : كيف قال « مالك يوم الدين » ويوم الدين لم يوجد بعد ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجد ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعلين ملك يملك ، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما مدينا مقولا صحيحا ، كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاج بيت الله في العام المقبل ، تأويله سيجع في العام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد يكتسب إليه وهو لم يفعله بعد ، وإنما أريد به الاستقبال ؛ فكذلك قوله عز وجل : ( مالك يوم الدين ) على تأويل الاستقبال ، أى سيملك يوم الدين أوفى يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المالك راجعا إلى القدرة ؛ أى أنه قادر في يوم الدين ، أو على يوم الدين وأحداثه ، لأن المالك للشيء هو المتصرف في الشيء والتقدير عليه ؛ والله عز وجل مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يتمتع عليه منها شيء .

والوجه الأول أس بالبرية وأخذ في طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجي .

ووجه ثالث : يقال لم خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا متزعمين في الملك ، مثل : فرعون ، ونمرود ، وغيرهما ، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه ، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى : ( لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ) فأجاب جميع الخلق : ( لله الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ) فذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أى في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا فاض ولا مجازفة ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة - إن وصف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموتى العشرين - اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فاستعير فيها بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيها ، وقد يطلق اليوم على الساعة منه ؛ قال الله تعالى : ( الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ) وجمع يوم أيام ؛ وأصله أيام نادغم ؛ وربما عبروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أيوم ، كما يقال : ليلة ليلاء . قال الزاجر :

نعم أخو الميعاد في اليوم الآتي .

(١) هو الأخرى لما كان في السان مادة ذنوم .



وهو مقلوب منه : آخر الواو وقسم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طرنا ، كما قالوا :  
أدُل في جمع دلو .

الحادية والعشرون — الذين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ، كذلك قال ابن عباس ، وابن  
مسعود ، وابن جريح ، وقاعدة ، وغيرهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدل عليه قوله تعالى :  
(يَوْمَئِذٍ يُؤْقِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ) . أى حاسبهم . وقال : (اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)  
و(اليوم تجزون ما كنتم تعملون) . وقال : (أَنَا لَمَيِّنُونَ) . أى مجزون عاسبون . وقال ليد :  
حصانك يوما ما زرمت وإنما « يدلان القى يوما كما هو دائن

آخر :

إذا ما رمونا رميتهم « وديهم مثل ما يقرضونا

آخر :

وأعلم يقينا أن ملكك زائل « وأعلم بأن كما تدفن تدفن

وحكى أهل اللغة : دنته بفعله دينا بفتح الدال ودينا بكسرهما جزيته ؛ ومنه الديان في صفة  
الرب تعالى أى المجازى ، وفق الحديث : « الكيس من دان نفسه » أى حاسب ؛ وقيل : القضاء .  
وروى عن ابن عباس أيضا ، ومنه قول طرفة :

لمعرك يا كنت حكومة بعيد « نعل جندنا حريا لبنيك من مضر

ومعاني هذه الثلاثة متقاربة . والدين أيضا : الطاعة ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال « عصينا الملك فيها أن ندنا

فعل هذا هو لفظ مشترك ومعى

(١) وهو أى نهي .

(٢) في اللسان مادة (دين) : « قال خويهد بن نوفل الكلبي ، لما رث بن أبي شمر اللساني وكان قد ائصبه ابنته »

باسم آيتن أن ملكك زائل « ... .. الخ

الثانية والعشرون - قال ثعلب : دان الرجل إذا أطاع ؛ ودان إذا عصى ؛ ودان إذا عان ؛ ودان إذا ذل ، ودان إذا قهر ، فهو من الأضداد . ويطلق الذين على المادة والشأن ، كما قال :  
• كبتك من أم الحو رب قلها •

وقال المصنف :

تقول إذا درأت لما وضئى • أهدا دينه أهدا وديي

والدين : سيرة الملك • قال زهير .

لئن حلت يحمو في بني أسد • في دين عمرو وحالت بينا قدك  
أراد في موضع طاعة عمرو ، والدين : الدلاء ، عن الهياثي وأشد .

• يدين قلبك من سلمى وقد دينا •

الثالثة والعشرون - قوله تعالى : ( إِيَّاكَ نَعْبُدُ ) . رجع من التوبة الى الخطاب على التلويح ؛ لأن من أوّل السورة الى ما هنا خبرا عن الله تعالى وشاء عليه كقوله : ( وَسَقَاهُمْ مِنْ شَرَابٍ طَهُورًا ) . ثم قال : ( إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ) . وعكسه : ( وَخَلَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَهْرَيْنِ يَوْمَ ) على ما يأتي . و« نعبد » : منناه نطيع ، والعبادة : الطاعة والتذلّل ، وطريق معبد ، إذا كان مثلاً للسالكين ؛ قاله المروئي . ونطق المكلف به إقرار بالربوبية ، وتحقيق لعبادة الله تعالى ؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك : ( وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) . أى نطلب العون والتأييد والتوفيق •

قال السلي : في حقايقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص القرطبي يقول : من أقر بربايك تعبد وإياك تستعين ، فقد برئ من الجبر والقدر .

الرابعة والعشرون - إن قيل : لم يقدّم المفعول على الفاعل ؟ قيل له : قدّم اهتماماً ؛ وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أرا أعرابيا سب أتر فاعرض المسبوب عنه ، فقال له الساب : إياك أعنى فقال له الآخر : وعنت أعرص ، فقدّم الأهم ؛ وأيضاً لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز تعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدّم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يقع لفظ القرآن . وقال السباج :

إياك أدعو فتقبل ملني • وأغفر خطاياي وكثروني

يروى ونحوه . أما قول الشاعر :

• اليك حو، لفت، إياك •

مشاذ لا يقاس عليه . والورق بكسر الهمزة من الدوام وفتحها : المال، وكرر الاسم ثلاثا يتوهم إياك نعيد ونستعين بغيرك •

الخامسة والعشرون — الجمهور من القراء والعلماء على حذف الياء من إياك في الموضعين، وقرأ عمرو ابن وائد : إياك بكسر الهمزة وتخفيف الياء وذلك أنه كره تضييف الياء لتقلها وتكون الكسرة قبلها، وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير شمسك نعيد أو ضوئك؛ وإيالة الشمس بكسر الهمزة : ضروها وقد تفتح . وقال :

سقطت إيالة الشمس إلا لئانه • أَيْفَ ظَمَ تَكْرِمَ عَلَيْهِ يَأْتِدُ

فإن أسقطت الماء مددت . ويقال : الإيالة للشمس، كالمالاة للتمر، وهي البكرة حولها . وقرأ الفضل الباقاني : إياك بفتح الهمزة وهي لغة مشهورة، وقرأ أبو السوار التنوي : هياك في الموضعين وهي لغة، قال :

قَبِيْكَ وَالْأَمْرَ الَّذِيْ إِنْ تَوَسَّعْتَ • مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهُ

السادسة والعشرون — (وإِيَّاكَ تَسْتَعِيْنُ) عطف جملة على جملة؛ وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش : تستعين بكسر النون، وهي لغة تميم، وأسد، وقيس، وربيعة، ليدل على أنه من استعان، فكسرت النون كما تكرر ألف الوصل . وأصل تستعين تستون، قلبت حركة الواو إلى العين، فصارت ياء، والمصدر استانة، والأصل استوان، قلبت حركة الواو إلى العين فانتقلت ألفا ولا يلتقي ما كان مخذفت الألف الثانية، لأنها زائدة، وقيل الأولى، لأن الثانية للعين، ولزمت الماء نحوضا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى: (إِنْدِنَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ) . إهدنا دماء ورغبة من المربوب إلى الرب، والمعنى دلنا على الصراط المستقيم، وأرشدنا إليه، وأرأنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك . قال بعض العلماء : يفعل الله جبل وعمر عظم الدعاء وجملة موضوعات في هذه السورة، نصفها فيه جمع الناء، ونصفها فيه جمع الحاءات، وجميل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل . من

الذي يدعو به [الداعي] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فانت تدعو بدعاه هو كلامه الذي تكلم به، وفي الحديث : "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء" وقيل المعنى أرشدنا باستعمال السنن في أدائه فرائضك ؛ وقيل الأصل فيه الإمامة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ . أى ملنا ؛ ونخرج عليه السلام في مرضه يتهدى بين آنتين : أى عمار ؛ ومنه الهدية لأنها تمال من ملك إلى ملك . ومنه الهدى للحيوان الذي يساق إلى الحرم ؛ فالعنى مل بقلوبنا إلى الحق . وقال الفضيل بن عياض : الصراط المستقيم طريق الحج وهذا خاص، والعموم أولى ؛ قال محمد بن الحنفية في قوله عز وجل : إِهْدِنَا الصراط المستقيم : هو دين الله الذي لا يقبل من العبادة غيره . وقال عاصم الأحول عن أبي العباس : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحبه من بعده ؛ قال عاصم : فقلت للنس : إن أبا العباس يقول : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والشرائح — أصل الصراط في كلام العرب : الطريق ؛ قال عاصم بن الطميل :

نَحْنُ أَرْضُهُمْ بِالْحِيلِ حَتَّى • تَرَكَاهُمْ أَذِلَّ مِنَ الصَّرَاطِ

وقال جرير :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطِ • إِذَا أَعْوَجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمِ

وقال آخر :

• قَصَصَ عَنْ نَجِجِ الصَّرَاطِ الْوَاضِعِ •

وحكى النقاش : الصراط : الطريق لغة الروم ؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف جداً، وقرئ : الصراط بالسين من الاستطراد بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يستقر من يسلكه . وقرئ بين رأى والعبادة ؛ وقرئ برأى خالصة والسين الأصل ؛ وحكى سلمة عن الفراء قال : الزواط بإخلاص الزاى : لغة لمنزلة، وكتب، وبني التين قال : وهؤلاء يقولون [فإن أصدق] : أزدق . وقد قالوا : الأزد في الأسد والأزد في الأسد، ولزق به في لصق به . والصراط تصب على المفعول الثاني لأن الفعل من الهداية يتمدى إلى المفعول الثاني بحرف جر، قال الله تعالى : ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ آبَائِهِمْ ﴾ . وبغير حرف كما

في هذه الآية . المستقيم صفة للصراف ، وهو الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ومنه قوله تعالى :  
 ﴿وَأَنْتَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ . وأصله مستقيم ، نقلت الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء  
 لانكسار ما قبلها .

التاسعة والستون — ( صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ) . صراط يدل من الأول بدل الشيء من  
 الشيء ، كقولك : جاءني زيد أبوك ، ومعناه : آدم هدايتنا ، فإن الإنسان قد يهدي إلى الطريق  
 ثم يقطع به ، وقيل : هو صراط آخر ومعناه العلم بالله جل وعز والفهم عنه ، قاله جعفر بن محمد .  
 ولغة القرآن الذين في الرفع والنصب والبحر ، وهذا يدل لقول : اللذون في الرفع ، ومن العرب من يقول :  
 اللذون ، ومنهم من يقول : اللئي<sup>(١)</sup> ومياني .

وفي عليهم عشر لغات : قرئ يسمتها عليهم بضم الماء وإسكان الميم ، وعليهم بكسر الماء وإسكان  
 الميم ، وعليهم بكسر الماء والميم والحاق ياء بعد الكسرة ، وعليهم بكسر الماء وضم الميم وزيادة واو  
 بعد الضمة ، وعليهم بضم الماء والميم كلتيهما وإدخال واو بعد الميم ، وعليهم بضم الماء والميم من غير  
 زيادة واو ، وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القراء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب ، غير  
 محكية . قرئ : عليهم بضم الماء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم ، حكاهما الحسن البصري<sup>(٢)</sup> عن  
 العرب ، وعليهم بضم الماء وكسر الميم من غير زيادة ياء ، وعليهم بكسر الماء وضم الميم من غير الحاق  
 واو ، وعليهم بكسر الماء والميم ولا ياء بعد الميم ، وكلها صواب قاله ابن الأنباري .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب ، وابن الزبير رضي الله عنهما صراط<sup>(٣)</sup> من أنعمت عليهم ،  
 واختلف الناس في الميم عليهم ، فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين  
 والشهداء والصالحين ، واتفقوا ذلك من قوله تعالى : ( وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ  
 أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رِفْقًا ) . فالآية تقتضي  
 أن هؤلاء على صراط مستقيم ، وهو المطلوب في آية الحمد . وجميع ما قيل إلى هذا يرجع ، فلا معنى  
 لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — في هذه الآية رد على القدرية والمعتلة والإمامية ، لأنهم يستدلون أن إرادة  
 الإنسان كائنة في صدور أصفائه منه ، طاعة كانت أو معصية ، لأن الإنسان عندهم خالق لأنفائه ، فهو غير

(١) أي قوله تعالى احذروا عباده . (٢) أي أفرادا رجعا في الرفع والنصب والبحر كما يؤخذ من لسان العرب .

(٣) في نسخة : « الأنفس البصري » .

محتاج في صدورهما عنه إلى ربه ، وقد أكتبهم الله تعالى في هذه الآية ، إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم ؛ فلو كان الأمر إليهم ، والاختيار بيدهم دون ربه ، لما سألوه الهداية ، ولا كروا السؤال في كل صلاة ، وكذلك تصرفهم إليه في دفع المكروه ، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : ( صرأط الذين آمنتم عليهم غير المفضوب عليهم ولا الضالين ) ؛ فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألا يضلهم ، وكذلك يدعون فيقولون : ( ربنا لا تُرغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ) الآية .

الثانية والثلاثون - ( غير المفضوب عليهم ولا الضالين ) . اختطف في المفضوب عليهم والضالين ، من هم ؟ فالجمهور : أن المفضوب عليهم : اليهود ، والضالين : النصارى ؛ وجاء ذلك منسرا عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عدي بن حاتم ، وقصة إسلامه ، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، والترمذي في جامعه ، وشهد لهذا التفسير أيضا قوله سبحانه في اليهود : ( وبأموالهم يغتصب من الله ) . وقال : ( وغضب الله عليهم ) . وقال في النصارى : ( قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ) . وقيل : المفضوب عليهم ، المشركون . والضالين ، المنافقون . وقيل : المفضوب عليهم ، هو من أسقط فرض هذه السورة في الصلاة ؛ والضالين عن بركة قراءتها ، حكاة السلي في حقايقه ، والموردى في تحصيله - وليس بشيء - قال الماوردى : وهذا وجه مردود ، لأن ما تناقضت فيه الأخبار ، وتقابلت فيه الآثار ، وانتشر فيه الخلاف ، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : المفضوب عليهم باتباع البدع ، والضالين عن سنن الهدى . قال الشيخ المؤلف رحمه الله : وهذا حسن ؛ وتفسير النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأحسن . وعليهم في موضع رفع ، لأن المعنى غضب عليهم ؛ والغضب في اللغة : الشدة ؛ ورجل غضوب أى شديد الخلق . والمفضوب : الحية الخبيثة ، لشدة الغضب : الدقة من جلد البعير يطوى بعضها على بعض ؛ سميت بذلك لشدةها . ومعنى الغضب في صفة الله تعالى إرادة ، فهو صفة ذاته ، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته ؛ أرقس العقوبة ومنه الحديث : " إن الصدقة لتطفئ غضب الرب " فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون - ( ولا الضالين ) الضلال في كلام العرب هو التعاب عن سنن التقصد وطريق الحق ، ومنه : ضل الدين في الماء أى غاب . ومنه : ( أخذ ضلالتا في الأرض ) . أى غيبا بالموت وصرفنا تزيبا ؛ قال :

الم تمال تضربك الميطر • عن الحى المضال أين ساووا

والضلالة : حمر ألس يرتده الماء فى الوادى ؛ وكذلك التضبة : حجرة فى الجبل مخالفة لونه ، قال :

• وغضبة فى غضبة ما أمتعا •

الرابعة والثلاثون - قرأ عمر بن الخطاب ، وأبى بن كعب (غير المنضوب عليهم وغير الضالين) وروى عنهما فى الرأى النصب وانقضى فى الحرفين ؛ فانقضى على البدل من التين أو من الماء والميم فى علمهم ، أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالتركات ولا التركات بالمعارف ، إلا أن الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إني لأمر بمثلك فأكرمه ؛ أولأن غير تمزفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما ، كما تقول : الخى غير الميت ، والساكن غير المتحرك ، والقائم غير القاعد ، قولان : الأول للفارسي ، والثانى للزغشري . والنصب فى الرأى على وجهين : على الحال من الذين ، أو من الماء والميم فى علمهم ، كأنك قلت : أمتعت عليهم لا مقصوبا عليهم أو على الاستثناء ؛ كأنك قلت : إلا المنضوب عليهم . ويموز النصب بأخى وحكى عن الخليل .

خامسة والثلاثون - لا ، فى قوله ( ولا الضالين ) اختلف فيها ، قيل هى زائدة قاله الطبرى . ومنه قوله تعالى : ( مَا مَلَكَ إِلَّا تَجِدُ ) وقيل : هى تأكيد دخلت للتأنيدهم أن الضالين معطوف على التين ، حكاة مكي ، والمهدوى . وقال الكوفيون : لا ، بمعنى غير وهى قراءة عمرو أبى وقد ختم .

السادسة والثلاثون - الأصل فى الضالين : الضالين حذفت حركة اللام الأولى ثم ادغمت اللام فى اللام فاجتمع ما كان مدة الألف واللام المدغمة . وقرأ أيوب السخيتانى : ولا الضالين بهمة غير ممدودة كأنه قرمن القاء الساكنين وهى لغة . حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : ( فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ) . فظنته قد لحن حتى سمعت من العرب : دابة وشابة ؛ قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كثير :

• إذا ما القول بالبيط احمازت •

نجز تفسير سورة الحمد ؛ وشه الحمد والمئة .

## تفسير سورة البقرة

بحول الله، وكرمه لأرب سواه .

وأول مدو به، الكلام في نزولها، وفضلها، وما جاء فيها؛ وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك؛ فنقول :

سورة البقرة مدنية، نزلت في مدنتي؛ وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَأُوا يَوْمَ يُنصَفُونَ فِيهِ آلَ اللَّهِ﴾ فإنه آخر آية نزلت من السماء؛ ونزلت يوم النحر في حجة الوداع معني؛ وآيات الرأ أيضا من لواخر ما نزل من القرآن .

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم؛ ويقال لها: فسطاط القرآن؛ قاله خالد بن معدان؛ وذلك لمعظمها ونهايتها، وكثرة أحكامها ومواضعها؛ وتعلمها عمر رضى الله عنه بفتحها وما تحتوى عليه في اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله في ثمانين سنة كما تقدم .

قال ابن العربي: سمعت بعض أشياني يقول: فيها ألف أمر، وألف نهى، وألف حكم، وألف خبر؛ وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتا وهم ذوو عدد وقدم عليهم أحدهم سنا، لحفظه سورة البقرة؛ وقال له: "أذهب فانت أميرهم" أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، ومحمدة. وروى مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اقرأوا سورة البقرة فإنا أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة" قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة. وروى أيضا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة" وروى الدارمي عن عبد الله قال: ما من بيت يعرفه سورة البقرة إلا أخرج منه الشيطان وله ضراط . وقال: إن لكل شيء ستاما، وإن ستام القرآن سورة البقرة؛ وإن لكل شيء ألبا، وإن لباب القرآن المنفصل؛ قال أبو محمد الدارمي: اللباب: الخالص. وفي صحيح البستي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لكل شيء ستاما وإن ستام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث



ليال ومن قرأها نهاراً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام . قال أبو حاتم البستي : قوله صل الله عليه وسلم : "لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" أراد : مردة الشياطين . وروى الدارمي في مسنده عن الشعبي قال : قال عبد الله : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح ؛ أربعاً من أولها وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثاً خواتمها ، أولها : (فَهَـ مَا فِي السَّمَوَاتِ) . وعن الشعبي عنه لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء ، يكرمه ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق . وقال : المغيرة بن سبيع : - وكان من أصحاب عبد الله - لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قد حفظ . قال أبو عبد الله الدارمي : منهم من يقول : المغيرة بن سبيع . وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لزيد بن ربيعة <sup>(١)</sup> [بن عامر] بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ؛ أدرك الإسلام لحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام ، وسأله عمر في خلافته عن شعره وأمنتشده ؛ فقراً : سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علمت الله البقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قوله ؛ وكان عطاءه الذين فزاده نعمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لزيداً لم يقل شعراً منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجل . حتى اكتسبت من الإسلام سربالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقردة بن قنافة السلولي ، وهو أعم عندى ،

وقال غيره : بل البيت الذى قاله في الإسلام :

ما عاتب المرء الكريم كف نفسه . والمراء يصلحه التورين الصالح

وسياق ماورد في آية الكرسي وخواتم البقرة ، ويأتى في أول سورة آل عمران زيادة بيان لفضل

هذه السورة إن شاء الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن .

قوله تعالى : (أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ) الآية . اختلف أهل التأويل في الحروف التى في أوائل السور ؛

فقال عامر الشعبي ، وسفيان الثوري ، وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن ؛ وفيه في كل كتاب

(١) الزيادة عن كتاب الامتياز (ج ١ ص ٢٣٥) طبع الحديث .

من كتبه سر، فهي من التشابه الذي انفرد الله تعالى بملءه؛ ولا يجوز أن تتكلم فيها؛ ولكن تؤمن بها وتقرأ كما جاءت؛ وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق، وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما .  
 وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمره وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور؛ ولا ندرى ما أراد الله جل وعز بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأثيري : حدثنا الحسن بن الحبيب حدثنا أبو بكر بن أبي طالب حدثنا أبو المنذر الواسطي بن مالك بن مغول عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خثيم قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء؛ فأما ما استأثره لنفسه فسلم بتأليه، فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه، وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعلمون . قال أبو بكر : فهذا يوضح أن حروف القرآن سترت معانيها عن جميع العالم، اختبأوا من الله عز وجل وامتنعوا؛ فمن أسر بها أنيب وسدد، ومن كفر وشك أثم وبعد . حدثنا أبو يوسف بن يعقوب القفاضي حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حريث بن ظهير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفنسل من إيمان بنيب؛ ثم قرأ : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَالْقَبِيلَ﴾ .

قلت : هذا القول في التشابه وحكمه ، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في آل عمران إن شاء الله تعالى . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن تتكلم فيها ، وتلمس الفوائد التي تحتها ، والمعاني التي تخرج عليها ، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة؛ فروى عن ابن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والقراء وغيرهما هي إشارة إلى حروف المبدأ . أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤلف من حروف هي التي بناه كلامهم ، ليكون يحزم عنه أبلغ في الحجة عليهم؛ إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون عند استماع القرآن ، فلما سمعوا : ﴿الْمَ﴾ و ﴿الْمَصَّ﴾ استكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤلف ليثبت في أسماعهم وأذانهم ، ويقم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لما أمرضوا عن سماع القرآن بككة وقالوا : ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾

لَمَّا [الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ] نَزَلَتْ لِيَسْتَرْبِوهَا فَيَقْتَحِنُوا لَهَا أَسْمَاعَهُمْ فَيَسْتَمُونَ الْقُرْآنَ بِلِسَانٍ تَعْجَب عَلَيْهِمُ الْهَجْجَةُ . وَقَالَ جَسَاعَةُ : هِيَ حُرُوفٌ دَالَّةٌ عَلَى أَسْمَاءٍ أَخَذَتْ مِنْهَا وَحَدَفَتْ بَقِيَّتَهَا ، كَقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ : الْآلِفُ مِنْ اللَّهِ ، وَاللَّامُ مِنْ جِبْرِيلَ ، وَالْمِيمُ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقِيلَ : الْآلِفُ مِفْتَاحُ اسْمِ اللَّهِ ، وَاللَّامُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ لَطِيفٌ ، وَالْمِيمُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ عَجِيدٌ . وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ( اللَّهُ ) قَالَ : أَنَا اللَّهُ أَعْلَمُ . ( الرَّ ) أَنَا اللَّهُ أَرَى . ( الْمَعْنَى ) أَنَا اللَّهُ أَفْضَلُ . فَلَا أَلِفَ تَوْذِي عَنْ مَعْنَى أَنَا ، وَاللَّامُ تَوْذِي عَنْ اسْمِ اللَّهِ ، وَالْمِيمُ تَوْذِي عَنْ مَعْنَى أَعْلَمُ . وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ الزَّجَاجُ وَقَالَ : أَتَجِبُ إِلَى أَنْ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهَا يَوْذِي عَنْ مَعْنَى ؛ وَقَدْ تَكَلَّمَ الْعَرَبُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ نَفْظًا لَهَا وَوَضَعَا بِدَلِّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي الْحُرُوفُ مِنْهَا ؛ كَقَوْلِهِ :

• نَقَلْتُ لَهَا قِيَّ فَقَالَتْ قَافٌ •

أَرَادَ : قَالَتْ وَقَفْتُ . وَقَالَ زُهَيْرٌ :

بِالْخَيْرِ خَيْرَاتٍ وَإِنْ شَرًّا قَا • وَلَا أُرِيدُ الشَّرَّ إِلَّا أَنْتَا

أَرَادَ : وَإِنْ شَرًّا فَشَرِّ . وَأَرَادَ : إِلَّا أَنْ تَشَاءَ .

وَقَالَ :

نَادَوْهُمْ أَلَّا يَجْلُوا أَلَتَنَا • قَالُوا جَمِيعًا كَلِّمُوا أَلَتَنَا

أَرَادَ : أَلَا تَرْكَبُونَ ، قَالُوا : أَلَا فَارْكَبُوا . وَفِي الْحَدِيثِ : "مَنْ أَمَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ" قَالَ شَقِيقٌ : هُوَ أَنْ يَقُولَ فِي أَقْتَلِ : أَقَى كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "كُنْفِي بِالسَّيْفِ شَاءَ" مَعْنَاهُ : شَافِيَا .

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : هِيَ أَسْمَاءُ السُّورِ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : هِيَ أَصْنَافُ أَقْسَمِ اللَّهِ تَسَالَى بِهَا لِشَرْفِهَا وَفَضْلِهَا ؛ وَهِيَ مِنْ أَسْمَاءِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا . وَرَدَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ هَذَا الْقَوْلَ فَقَالَ : لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ تَقْسِيمًا لِأَنَّ التَّقْسِيمَ مَعْقُودٌ عَلَى حُرُوفٍ مِثْلَ : إِنْ وَقَدْ وَلَقَدْ وَمَا ؛ وَلَمْ يَوْجِدْ هَاهُنَا حَرْفٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ ، فَلَا يَحْزُنُ أَنْ يَكُونَ تَقْسِيمًا . وَابْجَوَابُ أَنْ يَقَالَ : مَوْضِعُ التَّقْسِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ( لَا رَيْبَ فِيهِ ) فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا حَلَفَ فَقَالَ : وَابَّهَ هَذَا الْكَلْبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ؛ لَكِنَّ الْكَلَامَ سَدِيدًا ، وَتَكُونُ لَا ، جَوَابُ التَّقْسِيمِ : فَنَبِتُ أَنْ قَوْلَ الْكَلْبِيِّ وَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَدِيدٌ صَحِيحٌ .

فإن قيل : ما الحكمة في القسم من الله تعالى ؟ وكان القوم في ذلك الزمان على صفتين : مصدق ، ومكذب ؛ فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم .

قيل له : القرآن نزل بلغة العرب ؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجّة ، فأقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم : ( **الذَّ** ) أي أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة في قوله : ( **الذَّ** ) قال : اسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن علي الترمذي أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والتقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة ؛ ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي ، ثم بين ذلك في جميع السور ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال ؛ فانه أعلم .

والوقف على هذه الحروف على السكون لتقصاتها إلا إذا أخبرتها فأنك تعرفها ؛ واختلف : هل لما عمل من الإعراب ؟ فقيل : لا ، لأنها ليست أسماء متمكنة ، ولا أمثالا مضاربة ؛ وإنما هي بمثلة حروف التهجى فهي محكية ؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه . ومن قال : إنها أسماء السور فوضعها عنده الزعم على أنها عنده خير ابتداء مضمرة ؛ أي هذه ( **الذَّ** ) كما تقول هذه سورة البقرة ، أو تكون رافعا على الابتداء والتجريد ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ابن كيسان النحوي : ( **الذَّ** ) في موضع نصب ؛ كما تقول : اقرأ ( **الذَّ** ) أو عليك ( **الذَّ** ) وقيل : في موضع خفض بالقسم لقول ابن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ( **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ** ) قيل : المعنى هذا الكتاب ، وذلك قد تستعمل في الإشارة إلى حاضر ، وإن كان موضوعا للإشارة إلى غائب ؛ كما قال تعالى في الإنجيل عن نفسه جل وعز : ( **بَلَّغْ عَالِمُ الْقَيْيَمِ وَالشَّهَادَةِ الْغَيْرُ الرَّحْمُ** ) ؛ ومنه قول خفاف بن ثعلبة :

أقول له والرح يا طرته • تأمل خفاقا إني أنزلكما

أي أنا هذا ، فذلك إشارة إلى أن القرآن ، موضوع لهذا ؛ فخصه **الذَّ** هذا الكتاب لاربي فيه ؛ وهذا قول أبي عبيدة ، وعكرمة ، وغيرهما ؛ ومنه قوله تعالى : ( **وَتِلْكَ حِجَّتُنَا آتَيْنَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ** ) ( **تِلْكَ آيَاتُ لَدِّ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْخَلْقُ** ) أي هذه ؛ لكنها لما اتفقت صارت كأنها بديهة ؛ فقيل

تلك . وفي البخاري وقال معمر : ذلك الكتاب ، هذا القرآن هدى للتيقين بيان ودلالة . كقوله :  
**(ذَلِكُمْ كِتَابُ اللَّهِ يَتْلُو بَيْنَهُمْ)** . هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء هذا بمعنى ذلك ، ومنه قوله عليه السلام في حديث أم حرام : "يركون شج  
 هذا البحر" أى ذلك البحر ، والله أعلم . وقيل هو على باب إشارة على غائب .

واختلف في ذلك الغائب على أقوال عشرة ؛ ف قيل : ذلك الكتاب ، أى الكتاب الذى كتبت على  
 الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لأربى فيه أى لا ينبدل له . وقيل : ذلك الكتاب ، أى  
 الذى كتبت على نفسى فى الأزل ، أن رحمتى سبقت غضبى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب على نفسه فهو موضوع عنده أنه  
 رحمتى تغلب غضبى" فى رواية : «سبقت» . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعدنيبه عليه السلام أن يتول  
 عليه كتابا لا يحوه المساء ، فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار الجاشعي  
 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض ففهمهم عربهم وعجمهم إلا بقايا  
 من أهل الكتاب وقال إنما بعتك لأتبعك وأتبعك بك وأزلت عليك كتابا لا يغسله المساء تقرأه  
 دائما ويقظانا" الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى  
 لما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم بمكة : **(إِنَّا سَخَّرْنَا لَكَ قَوْلًا قَلِيلًا)** لم يزل رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم مستشرفا لإنجاز هذا الوعد من ربه عز وجل ، فلما أنزل عليه بالمدينة :  
**(الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَرْجُونَ ظُلْمًا)** كان فيه معنى : هذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة ، ذلك الكتاب  
 الذى وعدتك أن أوجه اليك بمكة . وقيل : إن ذلك إشارة إلى ما فى التوراة والإنجيل ؛ و **(الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَرْجُونَ ظُلْمًا)**  
 اسم للقرآن ؛ والتقدير هذا القرآن : ذلك الكتاب المسمى التوراة والإنجيل ؛ يعنى أن التوراة والإنجيل  
 يشهدان بصحته ويستغرق ما فهما ويزيد عليهما ما ليس فهما . وقيل : إن ذلك الكتاب إشارة إلى  
 التوراة والإنجيل كليهما ؛ والمعنى : الله ذا تلك الكتابان أو مثل ذلك الكتابين ، أى هذا القرآن جامع  
 لما فى ذلك الكتابين فعبّر بذلك عن الاثنين ، بشاهد من القرآن ؛ قال الله تبارك وتعالى : **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ دِينِهِمْ بَيْنَ مَا مَلَاحَتْهُمُ بِهِمْ شُرَكَائِهِمْ أَتْلُوهَا مِنْ يَوْمِ يُنْفَخُ الْكُتُبُ وَالْجَنَّةُ مَبْدُوءَةٌ لَكُمْ وَأَنَّ الْآخِرَةَ أَهْوَىٰ أَفَبِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)** . وقيل : إن ذلك  
 إشارة إلى اللوح المحفوظ ، وقال الإسكافي : ذلك إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم يتل بعد .

وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أنه يترل على عهد صلى الله عليه وسلم كتابا ؛ فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرد : المعنى هذا القرآن ، ذلك الكتاب الذي كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم في قول من قال : ( أَلَمْ ) الحروف التي تعدتكم بالنظم منها . والكتاب مصدر من كتب يكتب إذا جمع ؛ ومنه قيل : كتيبة لأجتماعها ، وتكتبت الخيل ، صارت كاتب ؛ وتكتت البغلة ، إذا جمعت بين شفرى وحما بحلقة أو سير ؛ قال :

لا تأمن نزاريا حلت به • على قلوبك واكتبها بأسبار

والكُتبة (بضم الكاف) : الحُرَّة ، والجمع كُتَبٌ ، والكُتَبُ : الحُرَّز . قال ذو الرمة :

وفراء غمرية اتى خوارزما • مشتل ضيعته بينا الكتب

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم بمجموعة أو متفرقة ؛ وبمى كتابا وإن كان مكتوبا كما قال الشاعر :

توقل رجعة منى وفيها • كتاب مثل ما لصق للشراء

والكتاب : الفرض والحكم والقدر ؛ قال الجعدي :

يا أبنسة عى كتاب الله أخرجنى • عنكم وهل أمتن الله ما فضلا

قوله تعالى : ( لا ريب ) قى عام ؛ ولعلك نصب الرب به . وفى الرب ثلاثة معان .

أحدها : الشك ؛ قال عبد الله بن الزبير :

ليس فى الحق يا أمية ريب • إنما الرب ما يقول الجهول

وثانيها : التهمة ؛ قال جميل :

بينة قالت يا جميل أربى • فقلت كلانا بأثنين مريب

وثالثها : الحاجة ؛ قال :<sup>(١)</sup>

قضيتا من تمامة كل ريب • وخير ثم أجمعتا السوفا

فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا ارتياب ؛ والمعنى أنه فى ذاته حق ، وأنه مقبل من عند الله ، وصفة من صفاته ، غير مخلوق ولا محدث ، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خير ومعناه التهنى ،

(١) مركب من ماك الأصاير ؛ كفى اللسان مادة ( ريب ) .

أى لا تهابوا، وتم الكلام، كأنه قال ذلك الكتاب حقا، ونقول : رابى هذا الأمر إذا أدخل عليك شكاً وخيفاً، وأراب : صار ذارية فهو مربوب رابى أمره، وريب الشعر : صروقه .

قوله تعالى : (فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) فيه ست مسائل .

الأولى - قوله تعالى : (فِيهِ) الهاء في فيه في موضع خفض جى . وفيه خمسة أوجه، أجودها : فيه هدى، وفيه فيه هدى بضم الهاء ينبر واو وهى قراءة الزهرى وسلام أبى المنذر، وفيه يفيى هدى بإثبات الياء وهى قراءة أبى كثير، ويجوز فيهو هدى بالواو، ويجوز فيه هدى مدغماً، وإرضع هدى على الابتداء والخبر فيه، والهدى في كلام العرب معناه الرشد واليان، أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى .

الثانية - الهدى هديان : هدى دلالة، وهو الذى يهتدى عليه الرسل واتباعهم، قال الله تعالى : (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) وقال : (وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فأنبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتهية، وتهد هو سبطه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق، فقال ليه صل الله عليه وسلم : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) فالهدى على هذا معنى، بمعنى خلق الإيمان فى القلب، ومنه قوله تعالى : (أَوَلَيْكَ مَلَأَ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) وقوله : (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) . والهدى : الاهتداء ومعناه راجع الى معنى الإرشاد كنهما تصرفت، قال أبو المالى : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين الى مسالك الجنان والطرق المقضية اليها، من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : (لَقَدْ يَمْلَأُ أَعْمَالَهُمْ سَبِيلِهِمْ) ومنه قوله تعالى : (فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) معناه فاسلكوهم اليها .

الثالثة - الهدى لفظ مؤنث . قال الفراء : بعض جى أسد تؤنث الهدى فتقول : هذه هدى حسنة . وقال الحياضى : هو مذكر، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرك، ويتمدى بحرف وينبر حرف، وقد مضى فى الفاتحة تقول : هديته الطريق وإلى الطريق، والدارو إلى الدار أى عرفته، الأولى لغة أهل الحجاز والثانية حكاهما الأخفش . وفى التزييل : (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) و(اتَّبِعْ هُدًى اللَّهِ هَدًى مُنَافًى) . وقيل : إن الهدى اسم من أسماء النهار، لأن الناس يتدفقون فيه لما يشبههم وجميع ما رجعهم، ومنه قول ابن مقبل :

(١) أى يهدى الناس من (فيه) .

[ حتى استلبت الهدى والييد حاجبة \* يخشعن في الأكل غلغا أو يصليا ]

الزامة - قوله تعالى : ( للتقين ) خص الله تعالى المتقين بهديته وإن كان هدى لخلق اجمعين تشريفا لهم ، لانهم آمنوا وصدقوا بما فيه . وروى عن أبي روق أنه قال : هدى للتقين ، أى كرامة لهم ، يعنى إنما أضاف إليهم إجلالهم وكرامة لهم وبيننا لفضلهم . وأصل التقين : اللواتين بياءين مخففتين حذفن الكسرة من الياء الأولى لضعفها ثم حذفن الياء لاختفاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم في اجتناع الواو والتاء وأدغمت التاء في التاء فصار للتقين .

الخامسة - التقوى يقال أصلها في اللغة : قلة الكلام ؛ حكاه ابن فارس . قلت : ومنه الحديث : " التقى ملحم والمتى فوق المؤمن والطائع " وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعوته عذاب الله تعالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه بما يجمله حاجزا بينك وبينه ؛ كما قال النابغة :

سقط النسيب ولم ترد إسقاطه \* فتناولته واتقتنا باليد

وقال آخر :

فالتقت بياغا دونه الشمس وانفتت \* بأحسن موصولين كف وممهم

وتخرج أبو محمد عبد الله الحافظ من حديث سعيد بن زكريا أبي عبيدة عن عاصم بن بهدلة عن زكريا بن حيش عن ابن مسعود قال : قال يوما لابن أخيه : يابن أنى ترى الناس ما أكثرهم ؟ قال : نعم ؛ قال : لا خير فيهم إلا تأتب أو تقي ، ثم قال : يابن أنى ترى الناس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم . وقال أبو يزيد البسطامي : المتقى من إذا قال قال الله ، ومن إذا عمل عمل الله . وقال أبو سليمان الداراني : المتقون الذين تزج الله عن قلوبهم حب الشهوات . وقيل : المتقى الذى اتقى الشرك وبرى من النفاق . قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبيًا عن التقوى ؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛ قال : فما عملت فيه ؟ قال : قسمرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى ؛ وأخذ هذا المعنى ابن المتر ففظمه :



خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرًا • وَكَبِيرًا ذَلِكَ النَّبِيُّ  
وَأَصْنَحَ كَمَا شِئَ فَوْقَ أَر • ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى  
لَا تَحْفَرُ صَغِيرَةٌ • إِنْ الْجِبَالُ مِنَ الْحَمَى

السادسة - التقوى، فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيد الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له إن أصحابك يقولون الشكر وأنت ما حفظت عنك شيء، فقال :

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤْتِيَ مَنَاءً • وَيَسْأَلُ اللَّهَ إِلَّا مَا أَرَادَا

يَقُولُ الْمَرْءُ فَأَتَقَى وَمَالًا • وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَغْنَا

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : «مَا اسْتَغْنَا لِلرَّءِ بِسَدِّ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زُيْمَةٍ صَالِحَةٍ إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ وَإِنْ نَهَرَهَا سَبَرَتْهُ وَإِنْ أَسَمَّ عَلَيْهَا أَبْرَتْهُ وَإِنْ تَلَبَّ عَنْهَا فَصَحَّتْهُ فِي تَقْوَاهَا وَمَالُهُ » .

والأصل في التقوى : وقوى على وزن فعل قلبت الواو منه من وقته أقيمه أى منعه ؛ ورجل تقى أى خاف ، أصله وقى ؛ وكذلك تهاة كانت في الأصل وقاة كما قالوا : تجاه وتراث ، والأصل وجاه ووراث .

قوله تعالى : ( الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ) فيها ست وعشرون مسألة .

الأولى - قوله : ( الَّذِينَ ) في موضع خفض تحت التثنية ، ويموز الرفع على القطع أى هم الذين ، ويموز النصب على المذبح . ( يُؤْمِنُونَ ) يصدقون ، والإيمان في اللغة : التمسك ؛ وفي الترتيل : ( وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ) أى بصدقى ؛ ويشهدى بالباء واللام ؛ كما قال : ( وَلَا تَزِمُونَا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ بَيْنَكُمْ ) ( قُلْ آمَنَ الْمُؤْمِنُونَ ) وروى حجاج بن حجاج الأحمول - ويلقب بزق المسيل - قال سمعت قتادة يقول : يا أيها آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتى الخير إلا عن نسطاق فإن نفسك مائلة إلى السامة والفتنة والملة ؛ ولكن المؤمن هو المتعاطل ، والمؤمن هو المتقوى ، والمؤمن هو المتشدد ، وإن المؤمنين

هم الساجدون إلى الله الليل والنهار؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربنا ربنا في السر والعلانية حتى استجاب لهم في السر والعلانية .

الثانية - قوله تعالى : ( يَا نَبِيَّ ) النيب في كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من دوات الياء ؛ يقال منه : غابت الشمس تغييباً ؛ والنيبة معروقة ، وأغابت المرأة فهي منية إذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا في غيبة وغيابة ، أى مبطلة من الأرض ؛ والنيابة : الأجرة ، وهى جماع الشجر يناب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : النيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثة - واختلف المفسرون في تأويل النيب هنا ؛ فقالت فرقة : النيب في هذه الآية : الله سبحانه . وضعفه ابن العربي . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من النبوء . وقال آخرون النيب : كل ما أخبر به الرسول عليه السلام عما لا تهتدى إليه العقول من أسرار الساعة ، وعذاب القبر ، والحشر والنشر ، والصراط والميزان ، والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع النيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : " فأسبرني عن الإيمان " قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ؛ قال : " صدقت " وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان نيب ، ثم قرأ : ( الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ )

قلت : وفي الترتيل : ( وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ) وقال : ( الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ) . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى في هذه الدار ؛ غير غائب بالنظر والاستدلال ؛ فهم يؤمنون أن لهم ربا قادرا يجازى على الأعمال ، فهم يخشونه في سرائرهم ، وخلواتهم التى يخبون فيها عن الناس ، لعلهم باطلاعه عليهم ؛ وعلى هذا تنقضى الآى ولا تتعارض ؛ والحمد لله .

وقيل بالنيب ، أى بضائرهم وقلوبهم ، بخلاف المنافقين ؛ وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالنيب آمننا وقد كان قوما • يصلون لأوثان قبل محمد

للإقامة — قوله تعالى : (وَيَقِيضُونَ الصَّلَاةَ) معطوف جملة على جملة ؛ وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وحياتها في أوقاتها على ما يأتي بيانه ؛ يقال : قام الشيء أى دام وثبت ؛ وليس من القيام على الرجل ، وإنما هو من قولك : قام الحق أى ظهر وثبت ؛ قال الشاعر :

• وقامت الحرب بنا على ساق •

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتم لم يرحبوا • حتى تقيم الخليل سوق طمان

وقيل : يقبون : يديمون ، وأقامه : أى أدامه ؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بن الخطاب ، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع •

الخامسة — إقامة الصلاة معسوفة ؛ وهى سنة عند الجمهور ، ولا إعادة على تأخيرها ؛ وعند الأوزاعي ، وعطاء ، وعجماد ، وابن أبى ليل ، هى واجبة وطل من تركها الإعادة ؛ وبه قال أهل الظاهر • وروى عن مالك ، وأخذه ابن الربيع قال : لأن فى حديث الأعرجى : "واتم" فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء •

قال : فاما اتم الآن وقد وقفتم على الحديث ؛ فقد نسين عليكم أن تقولوا بإحدى روايتي مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض • قال ابن عبد البر قوله صلى الله عليه وسلم : "وتحرمها التكبير" دليل على أنه لم يدخل فى الصلاة من لم يحرم ، فسا كان قبل الإحرام فحكمه إلا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعا على شئ ، فيسلم للإجماع كالطهارة والتبيلة والوقت ونحو ذلك ؛ وقال بعض علماءنا : من تركها عمدا أماد الصلاة ، وليس ذلك لو جوبها إذ لو كان ذلك لا ستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنة والله أعلم •

السادسة — واختلف العلماء فى من سمع الإقامة هل يسرع أولا ؟ فنذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام : "إنما أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون عليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا" رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وعنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما تؤب بالصلاة فلا يسى إليها أحدكم ولكن يمش وعليه السكينة والوقار ، صل ما أدركت وأقضى ما سبقتك" وهذا نص ؛ ومن جهة المعنى أنه

إذا أسرع أن يهرق فوش عليه دخوله في الصلاة وقراءتها وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم ابن عمر ، وابن مسعود ، على اختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع ، وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ، وروى عن مالك نحوه ؛ وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يهرك الفرس ، وتأوله بعضهم على الفرق بين المسائي والراكب لأن الراكب ، لا يكاد أن ينهر كما ينهر المسائي .

قلت : واستمال ستة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حال أولى ، فيمشي كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار ، لأنه في صلاة ؛ ومحال أن يكون غيره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبرنا فكان أن الداخل في الصلاة يلزم الوقار ، والسكون ، كذلك المسائي ، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه ، وما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة ، وما خرجه الدرر في مستنده ، وقال حشاشا محمد بن يوسف قال حدثنا سفيان عن محمد بن عجلان عن المقبري عن كعب بن عجرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا توضأت فمضت إلى المسجد فلا تسبك بين أصابعك فإنه في صلاة " فنعى صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وهو صحيح بما هو أقل من الإسراع ، وجهه كالصلى ، وهذه السنن تين معنى قوله تعالى : ( فَاسْتَوُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ) وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام ، وإنما هي العمل والقتل ، هكذا فسر مالك ، وهو الصواب في ذلك والله أعلم .

السابعة - واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام : " وما فاتكم فاتموا " وقوله : " وانقص ما سبقك " هل هما بمعنى واحد أولا ؟ فقول : هما بمعنى واحد وأن النقص قد يطلق ويراد به إتمام ، قال الله تعالى : ( فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ) وقال : ( فَإِذَا قُضِيَ مَنَاسِكُكُمْ ) . وقيل : معناه ما غلب وهو الصحيح ، ويرتّب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل ، هل هو أول صلاة أو آخرها ؟ فذهب إلى الأول جماعة من أصحاب مالك ، منهم ابن القاسم ولكنه يقضي ما فاته بالحمد وسورة ، فيكون إنياء في الأفعال قاضيا في الأقوال . قال ابن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال ابن خواز مناذ : وهو الذي عليه أصحابنا ، وهو قول الأوزاعي ، والشافعي ، ومحمد بن الحسن ، وأحمد بن حنبل ، والطبري ، ودาวود بن علي . وروى أنسب وهو الذي ذكره ابن عبد الحكم عن مالك ، ورواه عيسى عن ابن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضيا في الأفعال والأقوال ، وهو قول الكوفيين . قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال ابن عبد البر : من

جعل ما أدرك أول صلاته فأنظروهم راعوا الإحرام لأنه لا يكون إلا في أول الصلاة، والقنشد والتسليم لا يكون إلا في آخرها، فمن هنا قالوا : إن ما أدرك مهر أول صلاته، مع ما ورد في ذلك من السنة من قوله : "فأتموا" والتمام هو الآخر.

واحتج الآخرون بقوله : "فأفوضوا" والذي يقضيه هو الفائت، إلا أن رواية من روى : فأتوا أكثر، وليس يستقيم على قول من قال : إن ما أدرك أول صلاته ويطرد، إلا ما قاله عبد العزيز أبي سامة الماسجون، والمزني، وإسحاق، وداود، من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه؛ وإذا قام للقضاء فقرأ بالحمد وحدها؛ فهؤلاء اطرءوا على أصلهم قولهم وفعلهم؛ رضى الله عنهم.

الثامنة — الإقامة تنع من ابتداء صلاة نافلة؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" نرجه مسلم وغيره؛ فأما إذا شرع في نافلة فلا يقطعها لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَطْلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ وخاصة إذا صلى ركعة منها؛ وقيل : يقطعها، لعدم الحديث في ذلك والله أعلم.

الثامنة — واختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركعتي الفجر، ثم أقيمت الصلاة، فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما؛ وإن كان لم يدخل المسجد، فإن لم يخف فوت ركعة فليركع خارج المسجد، ولا يركعهما في شيء من أفتية المسجد — التي تصل فيها الجمعة — الا لصقة بالمسجد؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل ويصل معه، ثم يصلهما إذا طلعت الشمس، أخب إلى وأفضل من تركهما؛ وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشي أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع في الثانية دخل معه، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتي الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام؛ وكذلك قال الأوزاعي؛ إلا أنه يجوز ركوعهما في المسجد ما لم يخف فوت الركعة الأخيرة؛ وقال الثوري : إن خشي فوت ركعة دخل معهم ولم يصلهما، وإلا صلحهما وإن كان قد دخل المسجد. وقال الحسن بن حي ويقال ابن حبان : إذا أخذ المقيم في الإقامة فلا تطوع إلا ركعتي الفجر. وقال الشافعي : من دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا في المسجد؛ وكذلك قال الطبري وبه قال أحمد بن حنبل؛ وحكي عن مالك وهو الصحيح في ذلك لقوله عليه السلام : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة". وركعتا الفجر

إثنا ستة، وإما فضيلة، وإما رغبة، وإلحجة عند التنازع حجة السنة، ومن حجة قول مالك المشهور وأبي حنيفة، ما روى عن ابن عمر: أنه جاء والإمام يصلي صلاة الصبح فصلاتها في حجرة حفصة، ثم إنه صلى مع الإمام. ومن حجة التورى والأوزاعي ما روى عن عبد الله بن مسعود: أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصل إلى اسطوانة في المسجد ركعتي الفجر، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبي موسى رضي الله عنهما. قالوا: وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك في المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك بن نجدة قال: أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلي والمؤذن يقيم، فقال: "انصل الصبح أربعا!" وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل، لصلاته ركعتي الفجر في المسجد والإمام يصلي، ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتي الفجر إن وقعت في تلك الحال صححت، لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته، مع تحكيكه من ذلك، والله أعلم.

الماشرة - الصلاة أصلها في اللغة: الدعاء، مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا، ومنه قوله عليه السلام: "إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليصم" أي فليدع. وقال بعض العلماء: إن المراد الصلاة المعروفة، فيصلي ركعتين ويصوم، والأقول أشهر، وعليه من العلماء الأكثر. ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قالت أسماء: ثم سمعته وصلي عليه، أي دعا له. وقال تعالى: (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) أي أدعهم. وقال الأعشى:

تقول بتي وقد قربت مرعخلا • يا رب منبأ أبي الأوصاب والوجما  
عليك مثل الذي صليت فاعتمضي • يوما تأنى لجنب المرء مضطجعا  
وقال الأعشى أيضا:

وقالها الرع و دنها • وصل على دنها وارتم

ارتم الرجل: كبر ودعا، قاله في الصحاح. وقال قوم: هي مأخوذة من الصلاة وهو حرم في وسط الظهر ويترقى عند السجود فيكتمه؛ ومنه أخذ المصلي في سبيل الخليل، لأنه أتى في الصلاة.

(١) ربيعة أنه روى بنت الحارث عن عبد الصليب وأبيه مالك بن النضر بن قيس القرظي.

ورأسه عند صلوى السابق؛ فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصل من الليل، وإما لأن الراكع تنهى صلاؤه. والصلاة مفرز الذنب من القرس، والإشنان صلوان؛ والمصل، تلى السابق، لأن رأسه عند صلاه. وقال على رضى الله عنه: سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى أبو بكر وثلاث عمر. وقيل: هي مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صلي بالناس إذا لزماها؛ ومنه: (تَصَلَّى تَارَةً حَامِيَةً) قال الحارث بن عباد:

لم أكن من جنتها، علم الله. هـ وإنى بحرهما اليوم صال

أى ملازم لحرهما، وكأنَّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحذ الذى أمر الله تعالى به. وقيل: هي مأخوذة من صليت العود بالنار إذا قومتها وليته بالصلاة؛ والصلاة: صلاة النار يكسر الصاد بمدود، فإن فحمت الصاد قصرت، فقلت صلا النار، فكأنَّ المصل يقوم نفسه بالمعانة فيها ويلين وينحس؛ قال الخارزجى<sup>(١)</sup>:

فلا تسجل بأمرك واستمته. هـ فسا صلي عمالك كستيم

والصلاة: الدعاء؛ والصلاة: الرحمة، ومنه: "اللهم صل على محمد" الحديث. والصلاة: العبادة؛ ومنه قوله تعالى: (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ) الآية، أى عبادتهم. والصلاة: النافلة؛ ومنه قوله تعالى: (وَأَسْرَأْ هَآلَكَ بِالصَّلَاةِ). والصلاة: التسبيح؛ ومنه قوله تعالى: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) أى من المصلين. ومنه: سبحة الضحى. وقد قيل فى تأويل: (نسبح بحميك) نصلى: والصلاة: القراءة؛ ومنه قوله تعالى: (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ) فهى لفظ مشترك. والصلاة: بيت يصل فيه، قاله ابن فارس. وقد قيل: إن الصلاة اسم علم لهدى العبادة فإن الله تعالى لم يخل زماناً من شرع، ولم يخل شرعاً من صلاة؛ حكاه أبو نصر الشيرازى.

قلت: فعل هذا القول لا اشتقاق لها؛ وعلى قول الجمهور وهى:

الحادية عشرة - اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى، وكذلك الإيمان والركعة والصيام والنج، والشرع إنما تصرف بالتروط والأحكام، وعلى تلك الزيادة من الشرع

(١) كذا فى جميع الأصول، أى فى اللسان مادة (صلا): «... خمس بن زهير». (٢) كذا فى جميع الأصول؛

وفى اللسان: «عبادة».

يصبرها موضوعة كالوضع الابتدائي من قبل الشرع ؛ هنا اختلافهم ؛ والأول أصح ؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية ؛ والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين ؛ ولكن للعرب تحكم في الأسماء ؛ كإدابة وضعت لكل ما يبد ؛ خصصها العرب بالهائم ؛ فكذلك لعرف الشرع تحكم في الأسماء والله أعلم .

الثانية عشرة - واختلف في المراد بالصلاة هنا ؛ قليل : العرائض ؛ وقيل : الفرائض والنوافل معا ؛ وهو الصحيح لأن اللفظ علم والمثنى يأتي بها .

الثالثة عشرة - الصلاة حب للرزق ؛ قال الله تعالى : ( وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ) الآية على ما يأتي بيانه في طه إن شاء الله تعالى ؛ وشفاء من وجع البطن وغيره ؛ روى ابن ماجه عن أبي هريرة قال : جهر النبي صلى الله عليه وسلم فهجرت فصليت ثم جلست ؛ فالتفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أشكيت ذرد " قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : " ثم فصل فإن في الصلاة شفاء " في رواية : " أشكيت ذرد " يعني تهتكى بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حربه أمر فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة - الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض ؛ فمن شروطها : الطهارة ؛ وسياق بيان أحكامها في سورة النساء والمائدة ؛ وستر العورة ؛ يأتي في الأعراف القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة ؛ والنية ؛ وتكبير الإحرام ؛ والقيام لها ؛ وقراءة أم القرآن ؛ والقيام لها ؛ والركوع والطمأنينة فيه ؛ ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ؛ والسجود والطمأنينة فيه ؛ ورفع الرأس من السجود ؛ والجلوس بين السجدين والطمأنينة فيه ؛ والسجود الثاني والطمأنينة فيه .

والأصل في هذه الجملة حديث أبي هريرة في الرجل الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أدخل بها ؛ فقال له : " إذا قلت إلى الصلاة فأسبح الوضوء ؛ ثم استقبل القبلة ؛ ثم كبر ؛ ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ؛ ثم أركع حتى تطمئن راكعا ؛ ثم ارفع حتى تستدل قائما ؛ ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ؛ ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ؛ ثم أصل ذلك في صلاتك كلها " أخرجه مسلم ؛ ومثله حديث رفاع بن رافع ؛ أخرجه الدارقطني وغيره . قال علماؤنا : فيمن قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ؛ وسكت عن الإقامة ؛ ورفع اليدين ؛ وعن حد القراءة ؛ وعن تكبير الاستبالات ؛ وعن التيسيع في الركوع والسجود ؛ وعن الجلبة



الوسطى، وعن التشهد، وعن الجلسة الأخيرة، وعن السلام، أما الإقامة وتعيين القائمة فقد مضى الكلام فيها، وأما رفع اليدين فليس بواجب عند جماعة العلماء، وعامة الفقهاء، لحديث أبي هريرة، وحديث رفاعة ابن رافع؛ وقال داود وبعض أصحابه بوجوب ذلك عند تكبيرة الإحرام؛ وقال بعض أصحابه: الرفع عند الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب، وإن من لم يرفع يديه فصلاته باطلة وهو قول الجديدي، ورواية عن الأوزاعي، واحتجوا بقوله عليه السلام: "صلوا كما رأيتموني أصلي" أخرجه البخاري؛ قالوا: فوجب علينا أن فعل كما رأيناه يفعل، لأنه المبلغ من الله مراده؛ وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فسنون عند الجمهور للحديث المذكور، وكان ابن قاسم صاحب مالك يقول: من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد السهو قبل السلام، وإن لم يسجد بطلت صلاته، وإن نسي تكبيرة واحدة أو اثنتين سجد أيضا السهو، فإن لم يفعل فلا شيء عليه؛ وروي عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها، وهذا يدل على أن عظم التكبير وجمته عنده فرض، وأن البسر منه تجاوز عنه. وقال أصبغ بن المرج، وحديث الله بن عبد الحكم: ليس على من لم يكبر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد السهو، فإن لم يسجد فلا شيء عليه، ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامدا، لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء، ولا شيء عليه، وصلاته ماضية.

قلت: هذا هو الصحيح وهو الذي عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين، وجماعة أهل الحديث، والمالكيين غير من ذهب مذهب ابن القاسم. وقد ترجم البخاري رحمه الله "باب إتمام التكبير في الركوع والسجود" وشاق حديث مطرّف بن عبد الله قال: صليت خلف علي بن أبي طالب أنا وعمران بن حصين، فكان إذا سجد كبر، وإذا رفع رأسه كبر، وإذا نهض من الركعتين كبر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين قال: لقد ذكرني هذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم، أو قال: لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم. وصليت عزيمة قال: رأيت رجلا عند المقام يكبر في كل خفض ورفع، وإذا قام وإذا وضع؛ فأخبرت ابن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أم لك؟ فذلك البخاري رحمه الله بهذا السبب على أن التكبير لم يكن معمولاً به عندهم. روى أبو إسحاق السبيعي عن زيد بن أبي مريم عن أبي مريم عن أبي مريم قال:

صل بنا على يوم الجبل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكبر في كل خفض ورفع ، وقيام وقعود قال أبو موسى : فلما نسيها وإما تركها عمدا .

قلت : أنزاهم أعادوا الصلاة ! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والقرض ، والشئ إذا لم يجب أفراداه لم يجب جميعه ، وبالله التوفيق .

الخامسة عشرة - وأما التسبيح في الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور الحديث المذكور ؛ وأوجه إحقاق بين وآخيه ، وأن من تركه أباد الصلاة ، لقوله عليه السلام : "أما الركوع فنظمو فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في السطء ، فممن أن يستجاب لكم" .

السادسة عشرة - وأما الجلوس والقشدة فاختلف العلماء في ذلك ، فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأول والقشدة له سكتان ؛ وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأول وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالمرأيا من المزانية ، والقراض من الإجازات ، وكالوقوف بعد الاحرام لم يجد الإمام راكماء واحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان العابد تركه تبطل صلاته كما لا تبطل بترك سنن الصلاة ؛ احتج من لم يوجب به بأن قال : لو كان من فرائض الصلاة لرجع السامع عنه إليه حتى يأتي به ، كما لو ترك سجدة أو ركعة ؛ ويراعى فيه ما يراعى في الركوع والسجود من الولاية والزينة ؛ ثم يسجد لسجدة كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بها . وفي حديث عبد الله ابن يحيى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يشهد فسمع الناس خلفه يكلموا مجلس فثبت قائما فقالوا : فلما فرغ من صلاته سجد سجدتين السهو قبل التسليم ؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ؛ لأن الفرائض في الصلاة يستوى في تركها السهو والمعد إلا في المؤتم . واختلفوا في حكم الجلوس الأخير في الصلاة وما تفرض من ذلك . وهي

السابعة عشرة - على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض ، والقشدة فرض ، والسلام فرض ، ومن قال ذلك الثاني واحد ابن حنبل في رواية ؛ وحكمه أبو مصعب في مختصره عن مالك وأهل المدينة ، وبه قال لدود . قال الثاني : من ترك التشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه ، وعليه سجدة السهو لتركه ؛ وإذا ترك التشهد الأخير ناهيا أو عائدا أخذ ؛ واختلفوا بأن يبين النبي صلى الله عليه

وسلم في الصلاة فرض، لأن أصل فرضها مجمل يفتر إلى اليان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صل الله عليه وسلم : «صلوا كما رأيتموني أصلي» .

القول الثاني : إن الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب، وإنما ذلك كله سنة مسنونة ؛ هذا قول بعض البصريين ، وإليه ذهب إبراهيم بن عتبة ، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى ، تخالف الجمهور وشذ ، إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيئاً من ذلك كله . ومن حجه حديث عبد الله بن عمرو بن الماصي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدة في صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته » وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر ؛ وقد يناه في كتاب المقتبس <sup>(١)</sup> . وهذا اللفظ إنما يسقط السلام لا الجلوس .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض ، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضاً . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين ، واحتجوا بحديث ابن المبارك عن الإفريقي عبد الرحمن ابن زياد ، وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جلس أحدكم في آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلم فقد تمت صلاته » قال ابن العربي : وكان شيخنا نفي الإسلام ينشدنا في الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضرطة . أين الضراط من السلام عليكم

قال ابن العربي : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما : فروى عبد الملك بن عبد الملك : أن من سلم من ركعتين متتابعين فخرج اليان أنه كان على أربع ، أن يحزونه ؛ وهذا مذهب أهل العراق بيته . وأما الثاني : فوقع في الكتب المتبوعة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متممدا وقبل السلام أنه يحزى من خلقه ؛ وهذا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه في الفتوى ؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس والسلام فرض ، وليس التشهد بواجب ؛ ومن قال هذا مالك ابن أنس ، وأصحابه ، وأحمد بن حنبل في رواية ؛ واحتجوا بأن قالوا : ليس شيء من ذلك يجب إلا بتكبير الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

(١) في بعض الأصول «المقتبس» .

القول الخامس : أدب التشهد والجلوس واجبان ، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسماعيل بن راهوية ، واحتج إسماعيل بحديث ابن مسعود حين علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " قال البارقطي : قوله : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك " أدريه بعضهم عن زهير في الحديث ، ووصله بكلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وفصله بشابة عن زهير ، وجعله من كلام ابن مسعود ؛ وقوله أشبه بالصواب من قول من أدريه في حديث النبي صلى الله عليه وسلم .. وشابة ثقة وقد تابعه غسان بن الربيع على ذلك . جعل آخر الحديث من كلام ابن مسعود ، ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة - واختلف العلماء في السلام ؛ فقيل : واجب ؛ وقيل : ليس بواجب ؛ والمصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث علي الصحيح ثمانية أبو داود والترمذي ورواه سفیان الثوري عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتخليها التسليم " وهذا الحديث أصل في إيجاب التكبير والتسليم ، وأنه لا يجزئ عنهما غيرها كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها باتفاق ، قال عبد الرحمن ابن مهدي : لو انتح رجل صلاته بيمين أيما من أسماء الله عز وجل ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه ، وإن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه ؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهدي لحديث علي ، وهو إمام في علم الحديث ومعرفته صحيحة من سقيه . وحسبك به !

وقد اختلف العلماء في وجوب التكبير عند الافتتاح وهي :

الثامنة عشرة - قال ابن شهاب الزهري ، وسعيد بن المسيب ، والأوزاعي ، وعبد الرحمن ، وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة ؛ وقد روى عن مالك في المأموم ما يدل على هذا القول ؛ والمصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصلاة ؛ وهو الصواب وعليه الجمهور ، وكل من خالف ذلك فمصحح بالسة :

الموفية عشرين - واختلف العلماء في اللفظ الذي يدخل به في الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه وجهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير ، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تمجيد ؛ هذا قول المجازين وأكثر المراقين ؛ ولا يجزئ عند مالك إلا : " الله أكبر " لا غير ذلك ؛ وكذلك قال الشافعي

وزاد : ويميز " الله الأكبر " والله الكبير . والحجة لما لك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح الصلاة بالكبير ، والقراءة ( الحمد لله رب العالمين ) . وحديث علي : وتحريمها الكبير ؛ وحديث الأعرابي : فكبير ؛ وفي متن ابن ماجة حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد الطنافسي قالا : حدثنا أبو أسامة قال : حدثني عبد الحميد بن جعفر قال : حدثنا محمد بن عمرو ابن عطاء قال : سمعت أبا حميد الساعدي يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة استقبل القبلة ورفع يديه ، وقال : " الله أكبر " وهذا نص صريح ، وحديث صحيح ، في تعيين لفظ الكبير ، قال الشاعر :

رأيت الله أكبر كل شيء \* عاورة وأعظمه جنودا

ثم أنه يتضمن القدم ، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم ، فكان أبلغ في المعنى والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن أفصح بلا إله إلا الله يميزه ، وإن قال : اللهم اغفر لي لم يميزه ؛ وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يميزه إذا كان يحسن الكبير . وكان الحكم بن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان الكبير أجراه . قال ابن المنذر : ولا أعلمهم يفتقون أن من أحسن القراءة فهال وكبر ولم يقرأ أن صلاته فاسدة ، فمن كان هذا منعبه فاللازم له أن يقول لا يميزه مكان التكبير غيره ، كما لا يميز القراءة غيرها ؛ وقال أبو حنيفة : يميزه التكبير بالفارسية وإن كان يحسن العربية . قال ابن المنذر : لا يميزه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين ، وخلاف ما علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته ؛ ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال والله أعلم .

الحادية والعشرون — وافقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيئا روى عن بعض أصحابنا يأتي الكلام عليه في آية الطهارة ؛ وحقيقتها قصد التقرب إلى الأمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ابن العربي : والأصل في كل نية أن يكون بعدها مع التلبس بالفعل المنوي بها ، أو قبل ذلك بشرط استصحابها ، فإن تقدمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة في تلك الحالة لم يتدبها ، كما لا يتدب بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل ؛ وقد رخص في تقديمها في الصوم لمعلم المخرج في اقتربها به . قال ابن العربي : وقال لنا أبو الحسن القروي يثغر عسفلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية ، ويجرد النظر

في الصانع وحدوث العالم والنبوت حتى ينتهي نظره الى نية الصلاة، قال : ولا يحتاج ذلك الى زمان طويل، وإنما يكون ذلك في أوسى لحظة، لأن تعلم الجمل يقتصر الى الزمان الطويل، وتوعد كارها يكون في لحظة، ومن تعلم النية أن تكون مستعجبة على الصلاة كلها، إلا أن ذلك لما كان أمرا يتقدم سمح الشرع في عزوب النية في ابتدائها، سمعت شيخنا أبا بكر القهري بالمسجد الأقصى يقول : قال محمد بن يحيى : رأيت أبا بصير رحمه الله يكل الصلاة فيمدها، فقلت له ما هذا؟ فقال : عزيت نيتي في ابتدائها فلا أجل ذلك أمتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتي بيانها في مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى، يأتي ذكر الركوع، وصلاة الجماعة، والقبلة، والمبادرة الى الأوقات، وموضع صلاة الخوف، في هذه السورة، ويأتي ذكر قصر الصلاة، وصلاة الخوف، في "النساء"، والأوقات، في "هود وسبحان والزم"، وصلاة الليل، في "الزمل"، ويجوز التلاوة، في "الأعراف"، ويجوز الشكر، في "ص"، كل في موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانية والعشرون - قوله تعالى : (وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُشْكِرُونَ) رزقهم : أعطيتهم، والرزق عند أهل السنة ما صح الاستفاد به، حلالا كان أو حراما، خلافا للعلامة في قولهم : إن الحرام ليس رزقا لأنه لا يصح ملكه، وإن الله لا يرزق الحرام، وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك . قالوا : فلو نشأ صبي مع الصبوس ولم يأكل شيئا إلا ما أطعمه الصبوس إلى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ما تلصصه إلى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئا، إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا ناسد، والدليل عليه أنه الرزق لو كان بمعنى التملك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التي ترعى في الصحراء، ولا النمل من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون النمل . ولما اجتمعت الأمة على أن الطفل والنمل والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو التملك لأن الأمة مجمعة على أن السيد والإمام مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين، فلم أن الرزق ما تملكه، لا ما قالوه، والذي يدل على أنه لا رزق فيه قوله الحق : (هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) وقال : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) وقال: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) وهذا قاطع، فأنه تعالى وازق حقيقة، وابن آدم وازق تجوزاً، لأنه يملك ملكاً مستزماً، كما يملكه في الفاعلة ومرزوق حقيقة، كالبهائم التي لا ملك لها، إلا أن الشيء إذا كان مأذوناً له في تناوله فهو حلال حكماً، وما كان منه غير مأذون له في تناوله فهو حرام حكماً، وجميع ذلك رزق.

وقد تخرج بعض النبلاء من قوله تعالى: (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا مَلِيَّةً وَرَبِّ غَفُورٌ) قال: ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام.

الثالثة والعشرون - قوله تعالى: (وَمَا رَزَقْنَاهُمْ) الرزق مصدر رزق يرزق رزقاً، فالرزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وجمعه أرزاق، والرزق: المعطاء. والرازقية: ثياب كان [بيضاً]. وارتزق الجند: أخذوا أرزاقهم. والرزقة: المرة الواحدة، وهكذا قال أهل اللغة. وقال ابن السكيت: الرزق بلدة أزدشونة: الشكر، وهو قوله عز وجل: (وَيَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْتُمُونَ) أي شكرهم التكذيب. ويقول: رزقني أي شكرني.

الرابعة والعشرون - قوله تعالى: (يَتَّقُونَ) يتفقون، يخرجون، والإتقاق: إخراج المال من اليد، ومنه تفق البيع: أي خرج من يد البائع إلى المشتري. وتفتت البابية: خرجت روحها؛ ومنه التفتاء بجر البريوع الذي يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى. ومنه اللاتفاق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه؛ ويتفق السراويل معروفة وهو يخرج الرجل منها. وتفق الزاد: تقي وأتقنه صاحبه. وأتقى القوم: تقي زادهم؛ ومنه قوله تعالى: (إِذَا لَأَسْتَكْمُ خَشْيَةَ الْإِتْقَانِ).

الخامسة والعشرون - واختلف العلماء في المراد بالنفقة ههنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة - روى عن ابن عباس - لمقارنتها الصلاة. وقيل: نفقة الرجل على أهله - روى عن ابن مسعود - لأن ذلك أفضل النفقة؛ وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقية، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك" وروى عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« أنفصل دينار يتقنه الرجل دينار يتقنه على عياله ، ودينار يتقنه الرجل على دابته في سبيل الله عز وجل ، ودينار يتقنه على أصحابه في سبيل الله » قال أبو قلابه : وبدأ بالمال [ثم] قال أبو قلابه : وأرى رجلاً أعظم أجراً من رجل يتقن على عياله صغارهم أو يتقنهم الله به ويتقنهم - وقيل : المراد صدقة التطوع - روى عن الضحاك - نظراً إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بقلتها المختص بها ، وهو الزكاة ، فإذا جاءت بقلتها غير الزكاة احتسبت القرض والتطوع ، فإذا جاءت بقلتها الإحاطة لم تكن إلا التطوع . قال الضحاك : كانت الثقة قريباً ما يتقرون بها إلى الله جل وعز على قدر جهدهم حتى زلت فراغص الصدقات والتامحات في «برامته» . وقيل : إنه الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة ، لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضاً ، ولما عدل عن قسطها كان فرضاً سواها . وقيل : هو طام ، وهو الصحيح ، لأنه يخرج عرج الملاح في الإضاق بما رزقوا ، وذلك لا يكون إلا من الحلال : أي يؤتون ما ألزهمهم الشرع من زكاة وفيها ما يمن في بعض الأحوال مع ما تنهم إليه . وقيل : الإيمان بالنبي : حظ القلب ، وإقام الصلاة : حظ البدن ، وبما رزقناهم يتقنون : حظ المال ، وهذا ظاهر . وقال بعض المتقدمين في تأويل قوله تعالى : (وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُتَّقُونَ) أي بما ملأنهم يملأون ، حكاه أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيري .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) الآية ، قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب ، كعبه الله ابن سلام وفيه زلت ، وزلت الأولى في مؤمن العرب ، وقيل : الآتية جريماً للمؤمنين ، وعليه فأمراب الذين خفض على العطف ، ويصح أن يكون رفاً على الاستئناف أي وهم الذين ، ومن جعلها في صفتين فأمراب الذين رفع بالابتداء وخبره أولئك على هدى ، ويحتمل الخفض مطلقاً .

قوله تعالى : (وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) يعني القرآن (وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) يعني الكتب السابقة ، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ قَالُوا قُلُوبُنَا غَائِبَةٌ ) الآية . ويقال : لما زلت هذه الآية : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَالنَّبِيُّ) . قالت اليهود والنصارى : نحن آتينا بالنبي ، فلما قال : (وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) . قالوا : نحن نقيم الصلاة ،

(١) مثل قوله تعالى : حظ من أموالهم صدقة الآية قد قال ابن حجر أنها ناسخة لآية : والذين يذكرون الشعب واقعة الآية انظر صفحة ٢٨٨ من الجزء الأول من تفسير الطبري بصرة ١٢٢١ . وكذلك روى الجصاص نسخها بما أخرجه من عبد العزيز .



فلما قال : ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُشْكُونَ﴾ قالوا : نحن نتفق ونصدق، فلما قال : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ نفروا من ذلك . وفي حديث أبي ذر قال : قلت يا رسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : بمائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيت خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرين صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشرين صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان<sup>(١)</sup> الحديث . أخرجه الحسين الأجرى، وأبو حاتم البستي .

وهنا مسألة، إن قال قائل : كيف يمكن الإيمان بجمعها مع تنافي أحكامها ؟ قيل له فيه جوابان أحدهما : أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله، وهو قول من أسقط التعبد بما تقدم من الشرائع . الثاني : أن الإيمان بلام ينسخ منها ، وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدمة على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ مِنْ الْأُولَى﴾ أى وبالبعث والنشور علمون . واليقين : العلم دون الشك ؛ يقال منه : يقنت الأمر بالكسر يقنا، وأيقنت واستيقنت وتيقنت كله بمعنى ؛ وأنا على يقين منه . وإنما صارت الباء وإلوا في قولك : موقن ، للضممة قبلها وإذا صغرته رددته إلى الأصل ، فقلت ميقن . والتصغير يرد الأشياء إلى أصولها وكذلك الجمع ، وربما عبروا باليقين عن الظن ، ومنه قول علمائنا في إيمين القفو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ، ثم يبين له أنه خلاف ذلك ، فلا شيء عليه ؛ قال الشاعر :

تَحَسَّبَ هَوَاسٌ وَأَيَّقَنَ أَنِّي • بَهَا مُفْتَدٍ مِنْ وَاحِدٍ لَا أَعَاظِرُهُ

يقول : تسم الأسد فأتني، بظن أنني مفتر بها منه ، واستحسني نفسي فأنكرها له ولا أقهرهم الممالك بمقاتلته . فاما الظن بمعنى اليقين فورد في التزويل وهو في الشعر كثير وسيأتي . والآخرة مشتقة من التأخر لأنها ما تأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من البدو على ما يأتي .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال النحاس أهل نجد يقولون : أولئك ، وبعضهم يقول : أولك، والكاف للخطاب . قال الكسائي : من قال أولئك فواحدك ذلك، ومن قال أولك فواحدك ذلك، والاولك مثل أولئك؛ وأشد ابن السكيت :

(١) أخنوخ مواءيس عليه السلام .

الآلِك قوى لم يَكُونُوا أَشَابَةً • وهل يفظ الضليل إلا الالكا

وربما قالوا : أولئك في غير المقلاء، قال الشاعر :

دَمَ المنزل بعد مَرَّةِ اللوى • والميش بعد أولئك الأيام

وقال تال : ( إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ) وقال علماؤنا إن

في قوله تال : ( من ربيهم ) • ردًا على القدريّة في قولهم : يخلفون إيمانهم ومعلمهم ، تال بقه عن قولهم ؛ ولو كان كما قالوا لقال : « من أنفسهم » ؛ وقد تقدم الكلام فيه وفي الهدى فلا معنى لإعادة ذلك .

( وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ) • هم ، يميز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره المفلحون ، والثاني وخبره خبر

الأول ؛ ويموز أن تكون هم زائدة — يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا — والمفلحون خبر أولئك .

والفلاح أصله في اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

• إن الحديد بالحديد ينلح •

أي ينشق ، ومنه فلاحه الأرضين إنما هو شققها للحرث ، قاله أبو عبيد ، ولتلك سمي الأكارفلاحا ،

وقال للذي شقت شفته السفلى أنلح ، وهو من القلعة ، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال

مطلوبه • وقد يستعمل في الفوز والبقاء ، وهو أصله أيضا في اللغة ، ومنه قول الرجل لامرأته :

استنلعي بأمرك ، معناه فوزي بأمرك ؛ وقال الشاعر :

لو كان حق مدرك الفلاح • أدركه ملاعب الرياح

وقال الأصبط بن قريع السعدي في الجملية الجلهاء :

لكل هم من المعلوم سمه • والمشي والصبح لا فلاح معه

يقول : ليس مع كل الليل والنهار بقاء ؛ وقال آخر :

نحل يلا ما كلها حل قبلنا • وزجر الفلاح بعد عاد وجير

أي البقاء ؛ وقال عبيد :

أنلح بما شئت فقد يدرك بالضع • ف وقد يُخَدَّع الأريب

أى أبى بما شئت من كيس وحق فقد يرزق الأحق ويحرم الماقل . لئنى وأولئك هم المفلحون :  
 أى الفائزون بالجنة واللباقون بها . وقال ابن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا  
 من شر ما منه هربوا ، والمعنى واحد . وقد استعمل الفلاح فى السحور ، ومنه الحديث : حتى  
 كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وما الفلاح ؟ قال : السحور ، أخرجه  
 أبو داود ، فكأن معنى الحديث : أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سماه فلاحا . والفلاح بتشديد اللام :  
 المكارى فى قول القائل .

لها رطل تكيل الزيت فيه . وفلاح يسوق لها حمارا

ثم الفلاح فى العرف : الطفر بالمطلوب ، والنبة من المرحوب .

مسئلة -- إن قال قائل كيف فرأ حزة : عليهم وإلهم وإلهم ، ولم يقرأ من ربهم ولا فيهم  
 ولا جنتهم ؟ فالجواب أن عليهم وإلهم وإلهم الياء فيه متقلة من ألف ، والأصل علام وإلهم  
 وآلام فاقوت الهاء على ضمتها ، وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جنتهم وواقته الكسافى فى عليهم  
 الذلة وإلهم اثنين على ما هو معروف من القراءة عنهما .

فوله تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ) الآية ؛ لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ، ذكر الكافرين وأحوالهم ؛  
 والكفر ضد الإيمان وهو المراد فى الآية ؛ وقد يكون بمعنى مجود النعمة والإحسان ، ومنه قوله عليه  
 السلام فى النساء فى حديث الكسوف : "ورأيت النار فلم أر منظرا كاليدوم قط أنقطع ورأيت أكثر  
 أهلها النساء قبل يم يا رسول الله ؟ قال : "يكفرن" ؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : "يكفرن بالشير  
 ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا  
 قط" أخرجه البخارى وغيره . .

وأصل الكفر فى كلام العرب : البتر والتعطية ؛ ومنه قول الشاعر :

• فى ليلة كفر النجوم غمامها •

أى سترها ، ومنه سعى الليل كافرا لأنه ينطى كل شئ يسواده ، قال الشاعر :

قَدَرَا قَتْلًا وَبَيَدًا بَعْدَ مَا • أَلَقَتْ دُكَاهُ يَمِينَهَا فِي كَافِرٍ •

(١) من غزوين أحمر الجاهل ؛ كاقى اللسان مادة (طع) -

(٢) موشكين صخرة المائل ، يصف ظلمة وألوانها ودرورها إلى يشبهها بغيره من الشئ - اللسان مادة (كفر) .

ذَكَاهُ بضم الذال والمذ كسم الشمس؛ ومنه قول الآخر:

فوردت قبل ابتلاج الفجر • وأين ذكاه كامن في كفر

أى في ليل • والكافر أيضا ، البحر ، والنهر المظلم ، والكافر : الزارع والجمع كفار ، قال الله تعالى : ( كَيْلَ غَيْثٍ أَنْجَبَ الْكُفَّارَ بَنَاتُهُ ) . يعنى الزارع لأنهم ينطون الحب ، ورماذ مكفور : سفت الریح عليه القراب . والكافر من الأرض : ما بعد عن الناس لا يكاد يتلوه ولا يتره أحد ؛ ومن حل تلك المواضع فهم أهل الكفور؛ ويقال الكفور : القرى .

قوله تعالى : ( سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ) سواء معتدل عندهم الإنذار وتركه ، أى سواء عليهم هذا ؛ ورجى بالاستفهام من أجل التوسية ، ومنه قوله تعالى : ( سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ) .  
وقال الشاعر :

وليس يقول الناس من ظلماته • سواء صحیحات المیون وعورها

قوله تعالى : ( وَأَنْذَرْتَهُمْ ) الإنذار : الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا في تخوف يسع زمانه الاستقار ، فان لم يسع زمانه للاحتراز كان إشمارا ولم يكن إنذارا ؛ قال الشاعر :

أندرت عمرا وهو في مهل • قبل الصبح فقد عصى عمرو

وتأذرنو فلان هذا الأمر إذا خوفه بعضهم بعضا .

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقيل : هى عامة ومساها الخصوص فيمن حقت عليه كلمة العذاب ، وسبق في علم الله انه يموت على كفره ؛ أراد الله تعالى أن يعلم أن في الناس من هذه صالة ، دون أن يمين أحدا . وقال ابن عباس والكلبي : نزلت في رؤساء اليهود ، منهم حبي ابن أخطب ، وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأول أصح ، فإن من عين أحدا وإنما مثل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر ، وفك داخل في ضمن الآية .

قوله تعالى : ( لَا يُؤْمِنُونَ ) . موضحة رضى خبر إن ، أى إن الذين كفروا لا يؤمنون ، وقيل خبر إن سواء ، وما بعده يقوم مقام الصلة ؛ قاله ابن كيسان . وقال محمد بن يزيد : سواء رضى بالاستثناء ،

ما أنذرتهم أم لم تنذرهم : الخبر . والجملة خبر إن . قال النحاس : أى أنهم يتألمون فلم تكن فيهم النذارة شيئا . واحتسب القراء في قراءة ما أنذرتهم ، قرأ أهل المدينة ، وأبو عمرو ، والأخفش ، وعبد الله بن أبي إسحاق : أنذرتهم تحقيق الأول وتسهيل الثانية ، واختارها الخليل وسيبويه ، وهى لغة قریش وسعد بن بكر ، وعليها قول الشاعر :

أياطية الوعاء بين جُلَاجِل • وبين النقا آت أم أم سالم

عما أنت ألف واحدة؛ وقال الآخر :

نظاللت فاستشرفته ففرته • فقلت له أنت زيد الأراب

وروى عن ابن محيص أنه قرأ : ( **أَنْذَرْتُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ** ) بهزة لا ألف بعدها ، حذف لانهاء المميزين أول لأن أم تدل على الاستفهام كما قال الشاعر :

تروح من الحى أم تصكر • وماذا بضميرك لو تنتظر

أراد : أتروح فأكفى مام من الألف . وروى عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ : ما أنذرتهم ، خفف المميزين : وأدخل بينهما ألفا للاييجع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية ؛ وأبو عمرو ، ونافع ، يملآن ذلك كثيرا ؛ وقرأ حمزة ، وعاصم ، والكاكبي بتحقيق المميزين : أنذرتهم وهو اختيار أبي عبيد ، وذلك بيد عند الخليل ؛ وقال سيبويه : يشبه في الثقل ضنونا ؛ قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأول من المميزين وذلك ردى ، لأنهم إنما يخففون بعد الاستقلال ، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف المميزين جميعا ؛ فهذه سبعة أوجه من القراءات ووجه ثامن : يجوز في غير القرآن ، لأنه مخالف للشواذ ؛ قال الأخفش سعيد : تبدل من الهزمة هاء قبول : ما أنذرتهم ؛ كما يقال هياك وإياك ؛ وقال الأخفش في قول الله تعالى : ( **مَا أَنْتُمْ** ) إنما هو أنتم . قوله تعالى : ( **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** ) الآية فيها عشر مسائل .

الأولى - قوله تعالى : ( **خَتَمَ اللَّهُ** ) بين سبحانه في هذه الآية السامع لم من الإيعان بقوله : ختم الله ، وأختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختم ومختم شدة اللبابة ، ومعناه التغطية على الشيء .

والاستباق منه حتى لا يدخله شيء ، ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل الماتى : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالنم ، والطبع ، والضيق ، والمرض ، والرن ، والموت ، والقساوة ، والانصراف ، والحجة ، والإنكار ، فقال في الإنكار : ( قُلُوبُهُمْ مُّكْرَهُةٌ وَهُمْ يُسْتَكْبِرُونَ ) . وقال في الحجة : ( إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحِجَابَ ) . وقال في الانصراف : ( ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ قُلُوبِهِمْ عَنْ قُلُوبِهِمْ أَنْتُمْ قَوْمٌ لَا تَفْقَهُونَ ) . وقال في القساوة : ( نُوَبِّلُ الْبَاقِيَاسَةَ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ) . وقال : ( ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ) . وقال في الموت : ( أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا نَاجِيَةً ) . وقال : ( إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَسْمَعُهُمْ ) . وقال في الرن : ( كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ) . وقال في المرض : ( فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ) . وقال في الضيق : ( وَمَنْ يُدْ أَنْ يُضَلَّ يَحْمِلْ صَدْرَهُ ضِيقًا حَرِيًّا ) . وقال في الطبع : ( وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ نَجْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ) . وقال : ( بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ) . وقال في النم : ( خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ) . وسيأتي بيانها كلها في مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانية - انلم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنى كما في هذه الآية ؛ فانلم على التلويح : عدم الوعي من الحق سبحانه مفهوم خاطيء ، والفكر في آياته ؛ وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إنا تل عليهم أودعوا إلى وحدانيته ؛ وعلى الأبعاد : عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته ، وعجائب مصنوعات ؛ وهذا معنى قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وقتادة ، وغيرهم .

الثالثة - في هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل ، على أن الله سبحانه خالق المبدى والاضلال ، والكفر والإيمان ؛ فاحسبوا أيها السامعون ، وتسجروا أيها المفكرون من حقول القدرة القائلين بخلق إيمانهم ومسلمهم ؛ فإن انلم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهلوا ؛ وقد طبع على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فحق يتدون ؛ أو من يلمهم من بعد الله أن أضلهم وأسمعهم وأعمى أبصارهم ( وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ) . وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وغشاه ، إذ لم يمتدح حقا وجب له قهره صفة العدل ، وإنما منهم ما كان له أن يتفضل به عليهم ، لا ملوجب لهم ؟

فإن قالوا، إن معنى الختم والطبع والقتاوة: التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون، لا القفل .  
قلنا: هذا فاسد، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو قفل ما يصير به القلب مطبوعا غنوماً ولا يجوز  
أن تكون حقيقة التسمية والحكم، ألا ترى أنه إذا قفل فلان طبع الكتاب وختمه، كان حقيقة أنه  
قفل ما صار به الكتاب مطبوعاً وغنوماً، لا التسمية والحكم؛ هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة،  
ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين، مجازاة لكفرهم؛  
كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وأجمت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من  
جهة النبي عليه السلام، والملائكة، والمؤمنين، ممنوع؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما  
امتنع من ذلك الأتياء والمؤمنون، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم غنوم  
عليها، وأنهم في ضلال لا يؤمنون، ويحكون عليهم بذلك؛ فنبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية  
والحكم؛ وإنما هو معنى يخلفه الله في القلب يمنع من الإيمان به؛ دليله قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسُكُّهُ  
فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ . وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ . أى للآل  
يفقهوه، وما كان مثله .

الرابعة - قوله: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ . فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح؛ والقلب للإنسان  
وغيره . وغالص كل شيء وأشرقه قلبه؛ فالقلب موضع الفكر؛ وهو في الأصل مصدر قلبت الشيء  
أقلبه قلباً، إذا رددته على بدائه؛ وقلبت الإثاء : رددته على وجهه؛ ثم نقل هذا اللفظ فسمى به هذا  
العضو، الذي هو أشرف الحيوان، لسرعة انطوائه إليه، ولتردها عليه؛ كما قيل :

ما سمى القلب إلا من تقلبه . فاحذر على القلب من قلب وتحويل

ثم لما قلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف، التزمت فيه تعظيم قافه؛ فترقياً بينه  
وبين أصله؛ وروى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قاله: "مثل  
القلب ريشة تقلبها الريح بقلادة" ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول: "اللهم يا مبتدئ  
القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك" فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول مع عظيم قدره، وجلال  
منصبه، فنحن أولى بذلك، اقتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْمِقِينَ﴾ .  
وسبقني .

السلامة - الحواشي وإن كانت نابعة للقلب فقد يثار القلب - وإن كان رئيسها وملكمها - بأعمالها للارتباط الذي بين الظاهر والباطن؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدق فتنتك في قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه" وروى الترمذي وصححه عن أبي هريرة : "إن الرجل ليصيب القلب فيسود قلبه فإن هو غاب صقل قلبه" قال : وهو الرين الذي ذكره الله في القرآن في قوله : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) . وقال جهمد : القلب كالكلب يقبض منه بكل قنب اصبح ، ثم يطبع .

قلت : وفي قول جهمد هذا ، وقوله عليه السلام : "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب" دليل على أن القلب يكون حلييا والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصورة ؛ وهو بفساد قول جهمد . والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيثين قد رأيت أحدهما وإذا انتظر الآخر حدثنا : "أن الأمانة زلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : "يتم الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الجمل يجره حرجته على رجله فقط ، قراء ستبرا وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصي فدرجته على رجله فيصبح الناس يتبايرون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلا أميناً حتى يقال للرجل ما أجمله ما نظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى على زمان وما أبالي أيكم يايت لتن كان مساماً ليرثه على دينه ولئن كان نصرانيا أويهوديا ليرثه على ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبابع منكم إلا فلانا وفلانا" .

ففي قوله : الوكت وهو الأثر اليسير ؛ ويقال للبسر إذا وقعت فيه نكتة من الأرباب قد وكت ، فهو موكت . وقوله : الجمل ، وهو أن يكون بين الجلد والعظم ملاء ؛ وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : "بجره حرجته" أي دورته على رجله فقط ، قراء ستبرا أي صرغما ؛ ما يدل على أن ذلك كله محسوس في القلب يصل فيه وكذلك الختم والطبع والله أعلم . وفي حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "عرض الفتن على القلوب كالغصن عرضا عودا



فأى قلب أشربها نكت نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت في نكتة بيضاء حتى تعبر على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرابط كالخوز بجحيا لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه“ وذكر الحديث . بجحيا : بمعنى مائلًا .

السادسة — القلب قديمير عنه بالقواد والصدر؛ قال الله تعالى : ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ . وقال : ﴿أَلَمْ تَنْسَخْ لَكَ صِدْقَكَ﴾ يعني في الموضعين قلبك ، وقد يعبر به عن العقل قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى عقل ؛ لأن القلب محل العقل في قول الأكثرين ، والقواد محل القلب ، والصدر محل القواد . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ استدل بها من فضل السمع على البصر لتقدمه عليه ، وقال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ . وقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ . قال : والسمع يدرك به الجهات الست ، وفي النور والظلمة ، ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المقابلة ، وبواسطة من ضياء وشماع . وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السمع لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام ، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والحيثيات كلها . قالوا : فلما كانت تملقاه أكثر كان أفضل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنة — إن قال قائل : لم جمع الأبصار ووجه السمع ؟ قيل له : إنما وحده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير ، يقال : سمعت الشيء سمعًا وسماعًا ، فالسمع مصدر سمعت ، والسمع أيضا اسم للجماعة المسموعة بها سميت بالمصدر . وقيل : إنه لما أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة ؛ كما قال الشاعر :

يهاجيف الحسرى فاما عظامها \* فيفيض وأما جلدنا فضليب

إنما يريد جلودها ، فوحده لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر في مثله :

لا تنكر القتل وقد سينت \* في خلقكم عظم وقد شيئا

يرد في حلقكم، ومنه هذا :

كأنه : زرين قد غصبا ، مستهف لمعان غير تدبير

وما يريد بهجوس : ضل وجه تركين لأنه قد علم أنه لا يكون الاثنين وجه واحد ، ومنه كثير جدا . وقرئ : وهل اسماعهم ، ويحصل أن يكون للمنى وحل مواضع سمهم ، لأن السمع لا يتم وإنما يتم موضع السمع ، فحذف الضاف وأقيم للضاف إليه طرفة . وقد يكون السمع بمنى الاستماع ، يقال : سمعت حديثا . أم استمعتك إلى حديثي . - يعني ، ومنه قيل ذي الرقة ، يصف ثورا نسج إلى صوت صائد وكلاب :

وقد توجس دكرا مصفرتس . - بذلة الصوت ما في صم كذب

أي ما في استماعه كذب ، أي هو صادق الاستماع ، والقدس : الخلق . والنبأ : الصوت الثاني ، وكذلك الركا . والسمع بكسر السين والمسكان للمنى : ذكر الإنسان بالجهل ، يقال : ذهب سمه في الناس أي ذكره . وفسح أيضا : وقد انتب من النج . وقرئت هنا : وحل سمهم . وغشاوة راع على الابتداء وما قبله خبه . والحقار في تلويهم وما خلف طيه لن سبق في علم أنه لا يؤمن من كفار قرش . وقيل من المقتنين ، وقيل من اليهود ، وقيل من الجميع ، وهو أصوب ، لأنه يتم . فالحزم على القلوب والسمع . والفتاوة على الأجسام . والفتاء : فتاء . وهي :

التاسعة - ومنه فاشية السرج ، وغشيت النى . أغشيت قال النابغة :

هلا سالت بن ذبيان ما حسي . إذا النخائل تنشى الأخطال البرما

وقال آخر :

صبتك إذ عيني طما غشوة . فلما انجلت قطعت نسي الرومها

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشوة قلت : غشاء . يحذف اللام . وحكى الفراء : غشوى مثل أعلوى وقرئ : غشوة بالتيب على معنى وجعل ، فيكون من باب قوله : غشيتا نساء وما باردا ، وقول الآخر :

يأليت زوجك في الرقا . متضلعا سيفا وروحا

المعنى وأسقيتها ماء ، وحاملا رعا ؛ لأن الرخ لا يتكبد . قال الفارسي : ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال معة واختيار ؛ فقرأه الرفع أحسن ، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من النشاة فصلا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : النشاة على الاستماع والأبصار ؛ والوقوف على قلوبهم . وقال آخرون : الختم في الجميع ، والنشاة هي الختم فالوقوف على هذا على غشاة ؛ وقرا الحسن غشاة بضم اللين ، وقرا أبو جوبة : بفتحها ؛ وروى عن أبي عمرو : غشوة رده إلى أصل المصدر ؛ قال ابن كيسان : ويجوز غشوة وغشوة وأجودها غشاة ؛ كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتملا على الشيء ، نحو عمامة وكأنة وفلاذة وعصاية وغير ذلك .

العنصرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعمة ؛ والعذاب مثل الضرب بالوسط والحرق بالنار والقطع بالحديد ؛ إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان . وفي التزييل : ﴿ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمْ طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو مشتق من الحبس والمنع ؛ يقال في اللغة : أعذبه عن كذا أي أحبه وأمنه ، ومنه سمي عذوبة الماء لأنها قد أعذبت ، واستعذب بالحبس في الوعاء ليصفو ، يفارقه ما خالطه ؛ ومنه قول علي رضي الله عنه : أعذبوا نساءكم من الخروج ، أي اسبوهن . وعنه رضي الله عنه وقد شيع سرية فقال : أعذبوا عن ذكر النساء فإن ذلك يكسركم عن النزوي ؛ وكل من منعه شيئا فقد أعذبه ؛ وفي المثل : « لأبجك لجاما معذبا » أي مانعا عن ركوب الناس ؛ ويقال : أعذب أي امتنع . وأعذب غيره فهو لازم ومتعد ؛ فسمى العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلزم الجسد من الخيروهمال عليه أضدادها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ابن جرير عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين ، وإثان في نص الكافرين ، وثلاث عشرة في المنافقين . وروى أسباط عن السدي في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس اسم جنس ، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانية — واختلف النحاة في لفظ الناس ، فقيل : هو اسم من أسماء المجموع جمع إنسان وإنسانة ، على غير اللفظ ، وتصغيره نؤيس . فالتاس من التوس وهو الحركة يقال : تاس ينوس أي

تحرک ، ومنه حدیث أم زرع : « أناس من حل أذنی » ، وقیل : أصله من نسی فأصل ناس نسی .  
 قلب فصار نیس تحرکت آلیه فاتضح ما قبلها فاقبلت ألیه ، ثم دخلت الألف واللام فقیل : الناس .  
 قال ابن عباس : نسی آدم عهد الله فسی إنسانا . وقال علیه السلام : « نسی آدم فنسیت ذریته »  
 وفي التتریل : ( ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسین ) . وسیاق ، وعمل هذا فالحزمة زائدة ، قال  
 الشاعر :

لا تنسین تک اليهود ذنبا • سمیت إنسانا لأشک ناسی

وقال آخر :

إن نسیت یهودا منك سائلة • تاغفر فأول ناس أول الناس

وقیل : سبی إنسانا لأنه یجوله . وقیل : لأنه یریه ، فالحزمة أصلية ، قال الشاعر :

وما سبی الإنسان إلا لأنه • ولا القلب إلا أنه یقلب

الثالثة — لما ذکر الله جل وتعالی للمؤمنین أولا ، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم ، ذکر الکافرین  
 فی مقابلتهم ، إذ الکفر والإیمان طرفان ، ثم ذکر المنافقین بدمم والمحقق بهم الکافرین قبلهم ، لنی الإیمان  
 عنهم بقوله الحق : ( وَمَا مُمْ يُؤْمِنِينَ ) . ففی هذا رد على الکراية حيث قالوا : إن الإیمان قول  
 بالسان وإن لم یستند بالقلب ، واحتجوا بقوله تعالى : ( فَأَتَاهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ) . ولم یقل : بما قالوا  
 وأضمرُوا ، وقوله علیه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتی یقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها  
 عصموا منی دماءهم وأموالهم » وهذا منهم قصور وجود ، وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة من  
 العمل مع القول والاعتقاد ، وقد قال رسول الله صل الله علیه وسلم : « الإیمان مرفقة بالقلب وقول  
 بالسان وعمل بالأركان » أخرجه ابن ماجه فی سننه ، فاذهب إليه محمد بن کرآم الجستانی وأصحابه  
 هو اتفاق وعین الشقاق ، ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد .

الرابعة — قال علماؤنا راحة الله علیهم : المؤمن ضربان : مؤمن یحب الله ویراؤه ، ومؤمن لا یحب  
 الله ولا یراؤه ، بل ینفص ويصاذه ، فکل من علم الله أنه یوافق بالإیمان ، فقد حب له ، موال له ،  
 راض عنه ، وکل من علم الله أنه یوافق بالکفر ، فإنه ینفص له ، ساطط علیه ، معاد له ، لا لأجل إعانة ،  
 ولكن لکفره وضلاله الذي یوافق به ، والکافر ضربان : کافر یقاب لا محالة ، وکافر لا یقاب ؛

فالذى يعاقب هو الذى يوابى بالكفر، فانه ساخط عليه بما دله ؛ والذي لا يعاقب هو المواقى بالإيمان، فانه غير ساخط على هذا، ولا باغض له، بل يحب له، موال، لا لكفره لكن لإيمانه المواقى به؛ فلا يجوز أن يطلق القول وهو :

الخامسة — بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تنقيده بالموافقة، ولأجل هذا قلنا إن الله راضى عن عمر في الوقت الذى كان يبدد الأصنام، ومريد لتوابعه ودخوله الجنة، لا لعبادته الصنم، لكن لإيمانه المواقى به؛ وإن الله تعالى ساخط على إبليس في حال عبادة لكفره المواقى به .

وخالف القدرية في هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم، وهذا قاسد لما ثبت أن الله سبحانه علم بما يوابى به إبليس لعنه الله، وبما يوابى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر؛ ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير عيبان علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتربن به العبد قولا وفلا؛ لكن الإيمان جرى السعادة في سوايق الأزل؛ وأما ظهوره على المياكل قريبا يكون عاريا، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت في صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضعة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" فان قيل وهو :

السادسة — فقد تخرج الإمام الحافظ أبو محمد عبد النبي بن حنبل المقرئ من حديث محمد سعيد الشافى المصلوب في الزنقة، وهو محمد بن أبي قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشعري،

عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رزین العقيلي قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأشركن أنا وأنت يا أبا رزین من لبن لم يتغير طعمه" قال: قلت: "كيف يحيي الله الموتى؟ قال: "أما مررت بأرض لك عجبة ثم مررت بها غصبة، ثم مررت بها عجبة ثم مررت بها غصبة" قلت: بلى، قال: "كذلك النشور" قال قلت: كيف لي أن أعلم أتى مؤمن؟ قال: "ليس أحد من هذه الأمة - قال ابن أبي قيس أو قال من أمتي - عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازي بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازي بها شرا أو ينفرها إلا مؤمن".

قلت: وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ابن مسعود، فإن ذلك موقف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام: "وإنما الأعمال بالخواتيم" وهذا إنما يدل على أنه مؤمن في الحال والله أعلم.

السابعة - قال علماء اللغة: إنما سمي المناق متافقا لإظهاره غير ما يضر تشبيها بالبريوع له بجر يقال له: التافق، وآخر يقال له: القاصم، وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب؛ فإذا رآه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج، فظاهر جمره تراب، وباطنه حفر؛ وكذلك المناق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدم هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. قال علماءنا: معنى يخادعون الله أي يخادعون به عند أنفسهم وعلى ظنهم. وقيل: قال ذلك لمعلمهم عمل الخادع. وقيل: في الكلام حذف، تقديره: يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن الحسن وغيره؛ وجعل خداعهم لرسوله - إذ اعلموا أنه لا يعلم برأسه - وكذلك إذا خدعوا المؤمنين فقد خادعوا الله، وعادتهم: ما أظهره من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليحققوا دواعيهم وأموالهم، ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا؛ قاله جماعة من المتأولين. وقال أهل اللغة: أصل الخدع في كلام العرب: القصد، حكاية تملب عن ابن الأعرابي وأشد:

أبيض اللون لبيذ طعمه • طيب الريق إذا الريق خدع<sup>(١)</sup>

(١) قاله سويد بن أبي كاهل، يصف ثمر امرأة، كما في اللسان مادة (خدع).

قلت : يُخَدِّعُونَ اللهَ عَلَى حَذَبٍ ، أَيْ يَفْسِدُونَ إِيمَانَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ فَيَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى بِلَاهِهِ .  
وَكَيْفَا جَاءَ مَفْصَرُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا يَأْتِي ، فِي التَّنْزِيلِ : (يَأْتُونَ النَّاسَ) . وَقِيلَ :  
أَصْلُهُ الْإِخْفَاءُ ، وَمَعْنَى خَدَعَ الْيَمِينُ الَّذِي يُخَرِّجُ فِيهِ الشَّيْءَ حِكْمَةً أَيْنَ فَارِسٍ وَضِيْعَةٍ ، وَيَقُولُ الْعَرَبُ :  
انْخَدَعَ الضَّبُّ فِي جَمْرِهِ .

قوله تعالى : (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) فِي وَإِصَابِ أَيْ مَا تَحِلُّ حَقِيقَةُ الْخَدْعِ إِلَّا بِهِمْ ، وَمِنْ  
كَلَامِهِمْ : مَنْ خَدَعَ مَنْ لَا يَنْجُو قَاتِمًا يَخْدَعُ نَفْسَهُ . وَهَذَا صَحِيحٌ لِأَنَّ الْخَدْعَ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ مَنْ  
لَا يَعْرِفُ الْبُؤَاطِينَ ، وَأَمَّا مَنْ عَرَفَ الْبُؤَاطِينَ فَمَنْ دَخَلَ مَعَهُ فِي الْخَدْعِ قَاتِمًا يَخْدَعُ نَفْسَهُ ، وَهَذَا  
مِمَّا أَنْ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يَعْرِفُوا اللَّهَ فَذَلُّوا مَعْرِفَتَهُ لَعَرَفُوا أَنَّهُ لَا يَخْدَعُ ، وَقَدْ هَدَمَ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ  
قَالَ : «لَا يَخْدَعُ اللَّهَ ، فَكَيْفَ مَنْ يَخْدَعُ اللَّهَ يَخْدَعُهُ اللَّهُ ، وَنَفْسُهُ يَخْدَعُ لَوْ يَشْرُءُ قَاتِلًا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،  
وَكَيْفَ يَخْدَعُ اللَّهَ ؟ قَالَ : «تَمَلَّ بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ وَتَطْلُبْ بِهِ ضَرْبَهُ» . وَيَأْتِي بَيَانُ الْخَدْعِ مِنْ  
اللَّهِ تَعَالَى كَيْفَ هُوَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) وَقَرَأَ قَتَادَةُ ، وَابْنُ كَثِيرٍ ، وَأَبُو جَرُّوْدٍ :  
(يَخْدَعُونَ) فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِجَانِبَيْ الْفُتَّانِ ، وَقَرَأَ طَبَرِي ، وَحُزْمَةُ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ : (يَخْدَعُونَ)  
الْأَنفُسَ ، وَالْمَصْدَرُ خَدَعَ بِكَسْرِ الْخَاءِ وَخُدَيْعَةً حَتَّى ذَكَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ . وَقَرَأَ مَوْفَّقُ السَّجَلِ : (يَخْدَعُونَ  
اللَّهَ) بِضَمِّ الْهَاءِ وَفَتْحِ الْخَاءِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِّ عَلَى التَّكْثِيرِ . وَقَرَأَ ابْنُ طَالَوْتُ عَبْدِ السَّلَامِ بْنُ شَدَادٍ وَالْمُجَارِدُ  
بِضَمِّ الْيَاءِ اسْكَنْ الْخَدْعَ وَفَتْحِ الدَّالِّ عَلَى مَعْنَى وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، خَلَفَ حَرْفَ الْجَزْمِ كَمَا قَالَ  
تَعَالَى : (وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ) . أَيْ مِنْ قَوْمِهِ .

قوله تعالى : (وَمَا يَسْتَرْوْنَ) . أَيْ يَخْطُبُونَ أَنْ وَيَلَّ خُدْمَهُمْ رَاجِعٌ طَبَرِي ، فَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ قَدْ  
نَجَوْا بِخُدْعِهِمْ وَظَنُّوا ، وَإِنَّمَا ذَكَ فِي الْفَتْوَا ، فِي الْآخِرَةِ يَقَالُ لَهُمْ : (أَرَيْسُوا وَرَأَيْتُمْ قَاتِلَيْسُوا تَوْرًا)  
عَلَى مَا يَأْتِي . قَالَ أَهْلُ الْفَتْوَا : شَرَعَتْ بِالنَّبِيِّ أَيْ فَطِنَتْ لِهَيْبِهِ وَمَعْنَى الشَّامِرِ لَطَفَتْ لَأَنَّهُ يَخْطُبُ لَهَا  
لَا يَخْطُبُ لَهُ قَوْمُهُ مِنْ غَيْرِ الْفَتْوَا .

ومع قولهم : لَيْتَ شَرُّهُ أَيْ لَيْتَ طَلَبْتُ .

قوله تعالى : (فِي ظُلُومٍ مَرْمَرٍ) . أَيْ بَشَرَةٍ وَضَرٍ ، وَالْمَرْضُ عِبْرَةٌ مَعْتَادَةٌ لِقَضَاءِ الَّذِي  
فِي حَقَائِقِهِمْ ، وَهَكَذَا إِنَّمَا أَنْ يَكُونَ شَكَا وَفَقَاتَا ، وَإِنَّمَا جَمْعًا وَتَكْنِيًا ، وَالْمَعْنَى ظُلُومٌ مَرْمَرٌ يَخْلُوقُهَا

عن المصمة والتوفيق ، والرعاية والتأييد ؛ قال ابن فارس اللغوي : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة ، من علة ، أو فاق ، أو تقصير في أمر . والقراء يجمعون على فتح الراء من مرض إلا ما روى الأصمعي عن أبي عمرو أنه سكن الراء .

قوله تعالى : ﴿ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ . قيل : هو دعاء عليهم ، ويكون معنى الكلام زادهم الله شكا وتفاقا ، جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار ، وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يا مرسل الحج جنوبا وصيا • إذ غضبت زيد فزدها غضيا

أى لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه ؛ وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدعاء على المناقذين والطردهم . لأنهم شر خلق الله ، وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم أى زادهم الله مرضا أى مرضهم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ فَرَادَتْهُمْ رَجًا إِلَى رَجِيمٍ ﴾ . وقال أبو باب الملقب : في قلوبهم مرض أى يسكنهم إلى الدنيا ، وجيم لها ، وغفلتهم عن الآخرة ، وإعراضهم عنها . وقوله : ﴿ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ أى وكلمهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفزعوا من ذلك إلى اهتمام بالدين ولم عذاب الله بما يفتنى عما سبق . وقال الحنيد : علل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَنْفَعِ الْإِيمَ ﴾ . أى في كلام العرب معناه مؤلم أى موجب ، مثل السجع بمعنى المسجع ؛ قال ذو الرمة يصف إبلا :

ونزع من صدور شمردلات • يصك وجوها ويح اليم

والم إذا أوجع ، والإيلام : الإيلعاج ، والإلم : الوجع ، وقد ألم بالأم ، والتالم : التوجع ، ويجمع اليم على الأما وألماء ، مثل : كريم وكرماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ يَمَّا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ ، ما مصدرية أى ينكذبهم الرسل ، ورتقم على الله حل وعز ، ونكذبهم بآياته ، قاله أبو حاتم . وقرأ حاتم ، وحزمة ، والكسائي بالتحفيف ، ومعناه يكذبهم ويحولهم أمنا وليسوا بمؤمنين .



مسألة — واختلف العلماء في إساءة النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بتناقضهم على أربعة أقوال :

القول الأول — قال بعض العلماء : إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد مسوؤه . وقد اتفق العلماء على بركة أبيهم على أن التعاضى لا يقتل بعلمه ، وإن اختلفوا في سائر الأحكام ، قال ابن العربي : وهذا مستفيض ، فقد قتل بالمخبرين زياد ، الحارث بن سويد بن الصامت لأن المخبر قتل أباه سويدا يوم بعاث ، فأسلم الحارث وأغضله يوم أحد فقتله ، فأخبر به جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقتله به لأن قتله كان غيلة<sup>(١)</sup> ، وقتل النيلة حد من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام ، لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمقتضى بما ذكر ، لأن الإجماع لا ينمقد ولا يثبت إلا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم واقطاع الوحي ، وعلى هذا فتكون تلك قضية في عين ، بوحى ، فلا يحتج بها أو ملسوخة بالإجماع والله أعلم .

القول الثاني — قال أصحاب الشافعي : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان يستتاب ولا يقتل . قال ابن العربي : وهذا وهم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستبهم ولا قتل ذلك أحد ، ولا يقول أحد إن استتابه الزنديق واجبة ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم معرضا عنهم مع علمه بهم . فهذا المتأخر من أصحاب الشافعي الذي قال : إن استتابه الزنديق جائزة قال قولاً لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحة ، لتأليف القلوب عليه ، فلا تنفر عنه ، وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لسر : "سماذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي" أخرجه البخاري ومسلم . وقد كان يعطى للوفقة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألفاً ، وهذا هو قول علمائنا وضيهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك رحمه الله في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ، نص على هذا محمد بن الجهم ، والشافعي إسماعيل ، والأبيرو ، وابن المساجشون ، واحتج بقوله تعالى : (لَنْ يَنْفَعِيَ الْمُظَافُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) إلى قوله . (وَقَتْلُوا قَتِيلًا) . قال قتادة : سماذ إنما هم أعداؤنا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع هذه المسألة في سورة آل عمران (ص ٢٥٦ ، ٢٥٧) طبع لردا . كتاب الاحتياط ، في اسم الخيل .

عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استنابة؛ وهو أحد قول الشافعي .  
قال مالك : وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المناقنين ليعين لآفته أن الحاكم لا يحكم  
بما له إذ لم يشهد على المناقنين . قال القاضي اسماعيل : لم يشهد على عبد الله بن أبي إلا زيد بن  
أرقم وحده؛ ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربه؛ ولو شهد على أحد منهم ورجل بكفروه  
وفاقه لقتل . وقال الشافعي رحمه الله محبا للقول الآخر : السنة فيمن شهد عليه بالزندقة بفحده وأعلن  
بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام إن ذلك يمنع من إراقة دمه؛ وبه قال أصحاب الرأي وأحد  
والطبري وغيرهم . قال الشافعي وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المناقنين  
ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ، لأن ما يظهرونه يجب ما قبله . وقال الطبري :  
جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه،  
فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون ، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به  
رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حكم المناقنين بحكم المسلمين بما أظهروا، وكل سرائرهم إلى الله،  
وقد كذب الله ظاهرهم بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ . قال ابن عطية : يتقبل  
المالكين عما يؤمنون من هذه الآية بأنها لم تميز أشخاصهم فيها وإنما جاء فيها توسيع لكل مغموص  
عليه بالنفاق؛ وبقي لكل واحد منهم أن يقول : لم أرد بها وما أنا إلا مؤمن، ولو عين أحد لما  
جب كذبه شيئا .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أو كثيرا منهم باسمائهم  
وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه، وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبي عليه السلام إياه حتى كان عمر  
رضي الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فتقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعالى كاف قد حفظ أصحاب نبيه عليه السلام بكونه ثبتم  
أن يفسدهم بالمناقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن في تيقنهم ضرر، وليس كذلك اليوم ؛ لأننا لا نأمن  
من الزندقة أن يفسدوا عايتنا وجهالتنا .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقِيلْ لَهُمْ لَا تَحْسِبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ، إذا في موضع نصب مل الظرف  
والعامل فيها قالوا ؛ وهي تؤذنت بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهري : إذا اسم يدل على زمان

مستقبل ولم تستعمل إلا مضانة إلى جملة، تقول : أجيتك إذا آحز للبسر وإذا قدم فلان؛ والذي يدل على أنها اسم وقوعها موضع قولك : آتيتك يوم يقدم فلان؛ فهي ظرف وفيها معنى المجازاة .  
وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء وإذا؛ فالفعل قولك : إن تأتني آتاك، والفاء إن تأتني فانا أحسن إليك؛ وإذا كقوله تعالى : ( وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَمْشُوا مُّقِيمَةً آيَاتِهِمْ إِذَا هُمْ يَخْتَفُونَ ) . وما جاء من المجازاة يلذا في الشعر قول قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسافنا كان وصلها • خطانا إلى أعدائنا فنضارب

نعتطف فنضارب بالجزم على موضع كان لأنه مجزوم، ولو لم يكن مجزوما لقال فنضارب بالنصب . وقد تراءى على إذا ، ما تأكيدا فيجزم بها أيضا؛ ومنه قول الفرزدق :

فقام أبو لبيل إليه ابن نطالم • وكان إذا ما يسال السيف يضرب

قال سيويه : وألبيل ما قال كئيب بن زهير :

وإذا ما تشاء تبث منها • مغرب الشمس ناشطا مذعورا

يعني أن الجبلد الأيجمز يلذا كما لم يجمز في هذا البيت . وحكى عن المبرد : أنها في قولك في المفاجأة تخرجت فإذا زيد ظرف مكان لأنها تضمنت جنة، وهذا مردود لأن المعنى تخرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومنه قوله : « اليوم نمر وضنا أمر » فمعناه وجود نمر ووقوع أمر .

قوله : ( قيل ) من القبول وأصله قول نقلت كسرة الواو إلى القاف فاقبلت الواو ياء؛ ويجوز: قيل لم، بإدغام اللام في اللام، وجاز الجمع بين ساكنين لأن الياء حرف مد ولين؛ قال الأخفش : ويجوز قيل بضم القاف والياء؛ وقال الكسائي : ويجوز اشتمام القاف الضم ليدل على أنه لم يسم فاعله، وهي لغة قيس؛ وكذلك جاء فيض وحيل وسبق وسىء وسيت، وكذلك رأى هشام عن ابن عباس، وروى عن يعقوب؛ وأثم منها نافع سىء وسيت خاصة؛ وزاد ابن ذر كان : حيل وسبق وكثر الباقون في الجمع . تأملوا هذا في بيتي أسد وبنى قنشق فيقولون : قول براوناسكة .

(١) فنة : « ابن عمر »

(٢) تدوين ( كذا ) قبل حدين القول الثاني ، رأى يعقوب بن اسحاق : « القاموس المحمدي »

قوله : ( لَا تَقْسِدُوا ) لا نهى ، والفساد ضد الصلاح ، وحقيقته السدول عن الاستقامة إلى ضدها . فسد الشيء يفسد فسادا وفسودا وهو فاسد وفسيد . والمعنى في الآية لا تقسدوا في الأرض بالكفر وبالإلحاد ، وتفريق الناس عن الإيمان بحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقبل : كانت الأرض قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيها الفساد ، وفسل فيها بالمعاصي ؛ فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد ووصلحت الأرض ؛ فلما عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ؛ كما قال في آية أخرى : ( وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ) .

قوله : ( فِي الْأَرْضِ ) الأرض مؤنثة وهي اسم جنس ، وكانت حتى الواحدة منها أن يقال أرضة ، ولكنهم لم يقولوا ، والجمع أرضات لأنهم قد يجمعون المؤنث التي ليست فيه هاء التانيث بالناء كقولهم : حُرَّسات ، ثم قالوا أرضون فجمعوا بالواو والتون ؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والتون إلا أن يكون مقوصا كقصة وعلبة ، ولكنهم جعلوا الواو والتون ، عوضا من حنفيهم الألف والتاء وتركوا قصة الزاء على حالها ، وربما سكنت ، وقد تجمع على أروض ؛ وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أرض وأراض ، كما قالوا : أهل وأهل ، والأراضى أيضا على غير قياس كأنهم جمعوا أرضا ؛ وكل ما سفل فهو أرض ؛ وأروض أرضة أى زكية بيئة الأراضة ، وقد أروضت بالضم أى زكت . قال أبو عمرو : نزلنا أرضا أريضة أى سجيبة للمين ؛ وقال : لأرض لك ، كما يقال : لأم لك . والأرض أسفل قوائم الناقة ؛ قال حيد يصف فرسا :

ولم يلق أرضها يطيار • ولا لجليه بها حيار

أى أثرى والأرض : النقضة والرسدة . روى حماد بن سلمة عن ثالثة عن عبيد الله بن الحارث قال : زلزلت الأرض بالبرصة ، فقال ابن عباس : والله ما أدرى ؟ أنزلت الأرض بي أم بي أرض ؟ أى أم بي رعدة ؛ وقال ذو الرمة يصف صائدا :

إذا توجس ركزا من سنايكها • أو كان صاحب أرض أو به المرم

والأرض : الزكام ، وقد أرضه الله إرضاء ، أى أزكه فهو مأروض ؛ وسفل مستأرض ، وودية مستأرضة بكسر الزاء وهو أن يكون له عرق في الأرض ؛ فاما إذا نبت على جذع النخل فهو الزاكب . والإراض بالكسر : بساط ضيق من صوف أو وبر ، ورجل أرضى ، أى متواضع خليق خيبر ؛ قال

الأيمنى يقال : هو أرضهم أن فعل ذلك أى أسخطهم ؛ وثئى عريض أرضى أتباعه ؛ وبضمهم يفرد ويقول : جدى أرضى أى سمين .

قوله : ( نَحْنُ ) أصل نحن نَحْنُ قلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله مشام ابن معاوية النحوى . وقال الزجاج : نحن بجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضممة من جنس الواو ؛ فلما اضطرروا إلى حركة نحن لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال ولهذا ضروا الواو الجمع في قوله عز وجل : ( أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْتَرُوا الصَّلَاةَ ) . وقال محمد بن يزيد : نحن مثل قبل وبسبب لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر ، فانا الواحد ، ونحن للتثنية والجمع ، وقد يجزبه التكم عن نفسه في قوله : نحن فناء قال الله تعالى : ( نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ) . والمؤنث في هذا إذا كانت متكلمة بمترلة المذكور ؛ تقول المرأة : قتت وذهبت ، وقتنا وذهبتنا ، وأنا فعلت ذلك ، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فأعلم .

قوله تعالى : ( مُصَلِّونَ ) اسم فاعل من أصلح ؛ والمصلح : ضد الفساد ، وصلح الشيء بهم اللام ونصحها لثان قاله ابن السكيت . والمصلوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام ؛ قال الشاعر :

فكيف بإطسراق إذا ما شمتنى . وما بعد شتم الوالدين صلوح

وصلاح من أساء مكة ؛ والصلح بكسر الصاد : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ، لأن إفسادهم عندهم إصلاح ، أى إن عمالنا لكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله ابن عباس وغيره .

قوله عز وجل : ( أَلَا إِنَّهُمْ مُمَّاسِقُونَ ) رنا عليهم وتكنيا لقولهم ؛ قال أرباب اللغى : من أظهر السعوى كذب ، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : ( أَلَا إِنَّهُمْ مُمَّاسِقُونَ ) . وهذا صحيح . وكسرت إن لأنها مبتدأة ، قاله النحاس . وقال علي بن سليمان : يجوز فتحها كما أجاز مسويوه : حقائق منطق ، بمعنى ألا . وهم يجوز أن يكون مبتدأ والمفسدون خبره والمبتدأ وخبره خبر إن ؛ ويجوز أن تكون هم توكيداً للهاء والميم في أنهم ، ويجوز أن تكون فاصلة — والكافيون يقولون عماداً — والمفسدون خبر إن ؛ والتقدير : ألا أنهم للمفسدون ، كما قلتم في قوله : ( وَأُولَئِكَ مُمَّاسِقُونَ ) .

(١) في الآية غرض ، ولعل المراد : ... يجوز فتحها كما أجاز مسويوه ، أي حقائق منطق ، على معنى حقائق منطق . ما بين الآية .

قوله تعالى : ( وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ) . قال ابن كيسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد أنهم يبنم ، إنما يبنم إذا علم أنه مفسد ، ثم أقصد على علم ، قال : ففيه جوابان ، أحدهما : أنهم كانوا يعملون الفساد سرا ويظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أسرهم يظهر عند النبي صلى الله عليه وسلم ، والوجه الآخر : أن يكون قسادهم عندهم صلاحا ، وهم لا يشعرون أن ذلك فساد ، وقد عصوا الله ورسوله في تركهم تبين الحق واتباعه . ولكن حرف تأكيد واستدراك ، ولا بد فيه من تقي وإثبات ، إن كان قبله تقي ، كان بعده إيجاب ، وإن كان قبله إيجاب ، كان بعده تقي ، ولا يجوز الاتصاف بسله على اسم واحد إذا تحتم الإيجاب ، ولكذلك تذكير جملة مضادة لما قبلها كما في هذه الآية ، وقولك : جاءني زيد لكن عمرو لم يحن ، ولا يجوز جاءني زيد لكن عمرو تم تسكت ، لأنهم قد استنفوا بيل في مثل هذا الموضع من لكن ، وإنما يجوز ذلك إذا تحتم التقي كقولك : ما جاءني زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ) يعني المنافقين ، في قول مقاتل وغيره ، ( مَا آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ) أي صدقوا بحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب . وألف آمنوا ألف قطع لأنك تقول : يؤمن ، والكاف في موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف أي إيمانا كما إيمان الناس .

قوله تعالى : ( قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ) . يعني أصحاب عبد صلى الله عليه وسلم ، عن ابن عباس ، وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب ، وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء ، فاطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك ، وقرر أن السفه ، ورقة الخلو ، وفساد البصائر ، إذ هي في حيزهم ، وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعملون للدين الذي على قلوبهم . ودرو الكعبة عن أبي صالح عن ابن عباس : أنها نزلت في شأن اليهود أي وإذا قيل لهم يعني اليهود آمنوا كما آمن الناس عبد الله بن سلام وأصحابه ، قالوا : أتؤمن كما آمن السفهاء ! يعني الجهال والخرقاء . وأصل السفه في كلام العرب : الخفة والرفة ، يقال : ثوب سفه إذا كان رديء النسيج خفيفه ، أو كان باليا رقيقا . وقصفت الريح الشجر : مالت به ، قال ذو الرمة :

مشين كما أهرت رباح تسفت <sup>(١)</sup> أعاليا مرة الرياح التواسم

(١) كما في الأسوا ، والآن نادة (سفه) وفي ديوانه : «وردية» .

وتسفتت الشيء : استحققرته . والسفة : ضد الحلم ؛ ويقال : إن السفة أن يكفر الرجل شرب الماء فلا يروى . ويحوز في هزق السفة أربعة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية وأوأ خالصة ، وهي قراءة أهل المدينة ، والمعروف من قراءة أبي عمرو ؛ وإن شئت خففتها جميعا فحلت الأولى بين همزة والواو وحملت الثانية وأوأ خالصة ؛ وإن شئت خففت الأولى وحققت الثانية ؛ وإن شئت حققتها جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ . مثل ولكن لا يشعرون ؛ وقد تقدم . والعلم معرفة المعلوم على ما هو به ، تقول : علمت الشيء ، علمه علما عرفته ، وعلمت الرجل فعلته علمته بالضممة في المستقبل ظنته بالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَالُوا آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ . أنزلت هذه الآية في ذكر المنافقين . أصل لقوا : لقوا ، نقلت الضمة إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء الساكنين ؛ وقرا محمد بن السميع إجماعا : لا قوا المؤمنين آمنوا . والأصل لا قيسوا تحركت الياء وقبلها فتحة انقلبت ألفا ، اجتمع ساكنان الألف والواو لحذفت الألف لالتقاء الساكنين ثم حركت الواو بالضم .

وإن قيل : لم حمت الواو في لا قوا في الإدراج ، وحذفت من لقوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التي في لقوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لعمل على اللسان التعلق بها لحذفت لتقلها ، وحركت في لا قوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَا بِكُمْ ﴾ . إن قيل : لم وصلت خلوا بكم وعرفنا أن توصل بالباء ؟ قيل له : خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا ؛ ومنه قول الفرزدق :

كيف تراني قالبا بمعنى . قد فصل الله زيادا عنى

لما أنزله مترلة صرف ؛ وقال قوم : إلى بمعنى مع وفيه ضعف . وقال قوم : إلى بمعنى الياء ، وهذا يباه بالليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ، فإلى على بابها . والشياطين جمع شيطان على التكسير وقد تقدم القول في اشتقاقه ومعناه في الاستاذة . واختلف المفسرون في المراد بالشياطين هنا ، فقال ابن عباس والسدي : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبي :

(١) أى مع كلمة الآلة بعد

هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والتخيريم جميع من ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : ( إِنَّمَا تَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ) . أى مكذبون بما ندعى إليه ؛ وقيل : سائحون . والمهزء : السخرة ولللب ؛ يقال : مهزئ به واستهزا ؛ قال الزجاج :

قد هزئت منى أم طيله • قالت أراه معدما لا مال له

وقيل : أصل الاستهزاء : الانتقام ؛ كما قال الآخر :

قد استهزوا منهم بالى مدحج • سرائهم وسط الضعاضع جثم

قوله تعالى : ( اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ) . أى يتقهم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويخازيهم على استهزائهم ؛ فسمى العقوبة باسم الذنب ، حقا قول الجمهور من العلماء ؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهل أحد علينا • فجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلا ؛ والجهل لا يفخر به ذو عقل ؛ وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما ؛ وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكره بمن لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه ؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة ؛ وقال الله عز وجل : ( وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ) . وقال : ( فَمَنْ أَعْدَىٰ طَيْفِكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ ) . والجزاء لا يكون ميثقا ، والقمعاس لا يكون اعتداء لأنه حق وجب ؛ ومثله : ( وَتَكُونُوا مَكْرَهُ اللَّهِ ) . و ( إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ) . و ( إِنَّمَا تَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ) . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ) . وليس منه سبحانه مكرولا مهزء ولا كيد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك ( يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ) . ( فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يَخِرُّ اللَّهُ مِنْهُمْ ) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : <sup>١</sup> «إن الله لا يلحق حتى تملوا ولا يسام حتى تساموا» قيل حتى بمعنى الواو أى وتملوا ؛ وقيل : للمنى وأتم تملون ؛ وقيل : للمنى لا يقطع عنكم ثوب الأعمالكم حتى تقطعوا العمل ؛ وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أنشالا



هى فى تأمل البشر هنـه وخضع ومكر، حسب ما روى : <sup>(١)</sup> « إن النار تجدد كما تجدد الإخالة فيشون عليها ويظنوها منجاة فتخسف بهم » وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى : **(وَإِنَّا لَنَرَاهُ فِي صَعْدَةٍ مُّصَوِّدَةٍ)** هم منافقو أهل الكلب ، فذكرهم وذكر استزاعهم ، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم بنى رؤساعهم فى الكفر — على ما تقدم — قالوا : إنا معكم على دينكم إنما نحن مستهزئون يا صاحب عهد صلى الله عليه وسلم ، الله يستهزئ بهم فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم قال لهم : تصالوا فقبلون يسبحون فى النار ، والمؤمنون على الأثران وهى السرد فى الجمال ينظرون إليهم ، فإذا اتوا إلى الباب سد عنهم ، فيضلك للمؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عز وجل : **(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)** أى فى الآخرة ، ويضلك المؤمنين منهم حين غلقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : **(يَالْيَوْمِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَثَرِ يَنْظُرُونَ)** . إلى أهل النار : **(هَلْ تَرَى الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)** . وقال قوم : الخلعاء من الله والاستهزاء هو استدراجهم بدور النعم الدنيوية عليهم ، فله سبانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا ، خلاف ما ينبى عنهم ، ويستتر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راض عنهم ، وهو تعالى قد حتم عذابهم ، فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع ؛ ودل على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : <sup>(٢)</sup> « إذا رأى الله عز وجل يعطى العبد ما يجب وهو مقيم على معاصيه فلما ذك من استدراج » ثم رجع هذه الآية : **(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ ثَمَرٍ إِذَا أَفْرَحُوا بِمَا أُوتُوا اخْتَفَعُوا بِهِنَّ فَأَنَّى يُصْلَوْنَ . فَنُفِطِعُ دَارَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** . قال بعض العلماء فى قوله تعالى : **(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)** . كلما أهدنا ذنباً أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : **(وَيَسْتَدْرِجُهُمْ)** . أى يطيل لهم المدة ويجهلهم ويغل لهم ، كما قال : **(وَسَأَعْمَلُنَّ لِمَنَ كَانُوا عَلَيْهِمْ وَيَسْتَدْرِجُهُمْ سِحْرَ الْوَاوِيلِ)** . قال يوسف بن حبيب : يقال مذق الشئ ، وأندق فى الشئ ، قال الله تعالى : **(وَأَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ ثَمَرٍ إِذَا أَفْرَحُوا بِمَا أُوتُوا اخْتَفَعُوا بِهِنَّ فَأَنَّى يُصْلَوْنَ . فَنُفِطِعُ دَارَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** . وقال : **(وَأَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ ثَمَرٍ إِذَا أَفْرَحُوا بِمَا أُوتُوا اخْتَفَعُوا بِهِنَّ فَأَنَّى يُصْلَوْنَ . فَنُفِطِعُ دَارَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** .

(١) فى نسخة «مكر» بضم الميم .

(٢) قوله تعالى «وَأَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ ثَمَرٍ إِذَا أَفْرَحُوا بِمَا أُوتُوا اخْتَفَعُوا بِهِنَّ فَأَنَّى يُصْلَوْنَ . فَنُفِطِعُ دَارَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» .

(٢) فى الجاهل العبري : «إِنَّا نَأْتِي» .

عن الأخص : مددت له إذا تركه ، وأمدته إذا أعطيه . وعن الثراء والحياق : مددت ، فإيا كانت زيادته من مثله ، يقال : مدَّ النهر [النهر] ، وفي التبريل : ( <sup>(١)</sup> وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَيْلِهِ سِجَةَ أَبْجَرٍ ) ؛ وأمدت فإيا كانت زيادته من غيره كقولك : أمدت الجيش بمدد ، ومنه : ( <sup>(٢)</sup> يُمَدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِجِسْمَةٍ مَلَافٍ مِنَ الْلَأْلَأِ ) وأمدَّ الحرج لأن اللدة من غيره أى صارت فيه مدة .

قوله تعالى : ( فِي طُغْيَانِهِمْ ) كفرهم وضلالم ؛ وأصل الطغيان مجاوزة الحد ؛ ومنه قوله تعالى : ( إِنَّا لَأَطْنَى الْأَلَمَى ) . أى ارتفع وغلا وتجاوز المقدر الذى قدرته الخزان ؛ وقوله فرعون : ( إِنَّهُ لَطَغَى ) . أى أسرف في الدعوى حيث قال : ( <sup>(٣)</sup> أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ) . والمعنى في الآية يمدم بطول المعر حتى يزيدوا في الطغيان فيزيدهم في عذابهم .

قوله تعالى : ( يَمْهَرُونَ ) يسمون ؛ وقال مجاهد : أى يترددون متحيرين في الكفر ؛ وحكى أهل اللغة : عم الرجل يمهعه عموها وعمها فهو عمه وعامه إذا حار ، وقال : رجل عامه وعمه : حائر متردد ، وجمعه عمه ؛ ونهبت إبله الممهى إذا لم يدر أين ذهبت . والمعنى فى العين ، والمعنى فى القلب ؛ وفي التبريل : ( <sup>(٤)</sup> فَإِنَّا لَا تَمْنَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَمْنَى الْقُلُوبُ آلَتِي فِي الْمُنُورِ ) .

قوله تعالى : ( أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَاةَ بِالْهَدَى ) . قال سيويه : ضمت الواو فى اشتروا فرقاً بينها وبين الواو الأصلية ، نحو : ( <sup>(٥)</sup> وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ) . وقال ابن كيسان : الضمة فى الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حركت بالضم كاضل فى نحن . وقرأ ابن أبي إسحاق ويحيى بن يسر بكسر الواو على أصل النقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصارى عن نصيب أبي السلال المدنى : أنه قرأ بفتح الواو ثلثة الفتنمة وأن ما قبلها مفتوحاً ؛ وأجاز الكسائى همز الواو وصحها كأزود . واشتروا من الشراء ، والشراء هنا مستعار ، والمعنى استحوا الكفر على الإيمان كما قال : ( <sup>(٦)</sup> فَانْتَجَبُوا أَلَمَى عَلَى أَلْمَدَى ) . فبرعه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يجهه مشتره ، فإما أن يكون معنى شراء للمعاوضة فلا ؛ لأن المتأقين لم يكونوا مؤسعين فيؤمنون بإيمانهم . وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، ومعناه استبدلوا واشتاروا الكفر على الإيمان ؛ وإنما

أخرجه بلفظ الشراء توسعاً لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال؛ والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء؛ قال أبو ذؤيب :

وإن ترعيني كنت أجهل فيكم • فإني اشتريت الخلم بمسك بالجهل

وأصل الضلالة : الحيرة ؛ ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة ؛ قال جل وعز :  
 ﴿فَعَلَّمْنَا إِذَا وَاتَّأَمِّنَ الضَّالِّينَ﴾ • أى الناسين ؛ ويسمى الملاك ضلالة ؛ كما قال عز وجل :  
 ﴿وَقَالُوا إِنَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ •

قوله تعالى : ﴿فَأَرْحَمْتَ تِجَارَتَهُمْ﴾ • أسند تعالى الرحم إلى التجارة على عادة العرب في قولهم :  
 ربح يبيعك ، وخسرت صفقتك ؛ وقولهم : ليل قائم ، ونهار صائم ؛ والمعنى ربحت وخسرت في بيعك ،  
 وقت في ليلك وصمت في نهارك ؛ أى فاربحوا في تجارتهم ؛ وقال الشاعر :

نهارك هائم وليلك نائم • كذلك في الدنيا تعيش البهائم

أين كيسان ؛ ويميز تجارة وتجارته وضلالة وضلاله •

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ في اشتقاقهم الضلالة ؛ وقيل : في سابق علم الله • والاهتداء ضد الرشاد ؛  
 وقد هتدم •

قوله تعالى : ﴿مَنْهُمْ كَذِبٌ أَلَّى اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ • فظلم رفع بالابتداء والخبر في الكاف ، فهى  
 اسم كاهى في قول الأعشى :

أنتهون ولن ينهى ذوى شطط • كالظعن يذهب فيه الزيت والقتل

وقول امرئ القيس :

ورحنا بكابن الماء يحنب ومسطنا • تصوب فيه العين طورا وترقى

أراد مثل الطعن ، وبمثل كبن الماء ؛ ويموز أن يكون الخبر محذوفاً تقديره مثلهم مستقر  
 كشل فالكاف على هذا حرف • والمثل والمثل والمثل واحد ومعناه الشبه ، والمتماثلان : المتشابهان  
 حكنا قال أهل اللغة •

قوله : ﴿الَّذِى﴾ يقع الواحد والجمع ؛ قال ابن السجري حبة الله بن مل : ومن العرب من يأتي  
 بالجمع بلفظ الواحد كما قال :

وإن الذي حانت فبلج دماؤهم = هم القوم كل القوم يا أم خلا

وقيل في قول الله تعالى : (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) . إنه بهذه اللفظة .  
 وكذلك قوله : (مَنْهُمْ كَتَلِ الَّذِينَ) . قيل : للمنى كتل الذين استوفدوا ، لذلك قال : (فَدَبَّ اللَّهُ  
 يُنْزِرُهُمْ) . فخل أزل للكلام على الواحد ، وآخره على الجمع ؛ فأنما قوله تعالى : (وَحُضْمٌ كَالَّذِي  
 حَاضُوا) . فإن الذي ما هنا يصف لمصدر محذوف تقديره وحُضْمٌ كَانْفُوضِ الذي حَاضُوا . وقيل :  
 إنما وحد الذي واستوفد لأن المستوفد كان واحدا من جماعة تولى الإيقاد لهم ، فلما ذهب الضوء  
 رجع عليهم جميعا فقال ينزورهم ؛ واستوفد بمعنى أوقد ؛ مثل استجاب بمعنى أجاب ؛ فالسين والتاء  
 زائدتان قاله الأخفش ؛ ومنه قول الشاعر :

وداع دما يامن يجيب إلى النداء = فلم يستجبه عند ذلك مجيب

أى يجبه ؛ واختلف النسخة في جواب لما ، وفي عود الضمير من نورهم ؛ فقيل : جواب لما  
 محذوف وهو طغث ، والضمير في نورهم على هذا للتائقين ، والإخبار بهذا عن حال تكون في الآخرة  
 كما قاله تعالى : (فَقَرَّبَ إِلَهُمُ سُورَهُ بَابٌ) وقيل : جوابه ذهب ، والضمير في نورهم عائذ على  
 الذي ؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل التائق بالمستوفد لأن قضاء المستوفد في ظلمات لا يصر كقضاء التائق  
 في حيرته وترده ؛ والمنى المراد بالآية ضرب مثل للتائقين ، وذلك أن ما يظهره من الإيمان الذي  
 ثبت لهم به أحكام المسلمين من المناجاة والتوارث والقتل ، والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم  
 بمثابة من أوقد نارا في ليلة مظلمة فاستضاء بها ، ورأى ما ينبغي أن يتقيه وأمن منه ؛ فإذا طغث  
 عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى وبقي متحييا ؛ فكذلك التائقون لما آمنوا اعتزلوا بكلمة الإسلام ،  
 ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم ؛ كما أخبر التنزيل : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ  
 مِنَ النَّارِ) ويذهب نورهم ؛ ولهذا يقولون : (أَنْظَرُونَا قَتَيْسَ مِنْ نُورِكُمْ) . وقيل : إن إقبال التائقين  
 إلى المسلمين ومنهم معهم كالنار ، وأنصرافهم عن موتهم وأركانهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : (نَارًا) النار مؤنثة وهي من النور وهو أيضا إله ؛ ومنه من الواو أولئك حقول  
 في التصغير ؛ وفي الجمع نور وأنور ؛ ويران انقلب الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ وضياءات

وأضاعت لنتان، يقال : ضاء القمر يضيء ضوئاً وأضاء يضيء، ويكون لازماً ومتعدياً ؛ وقرأ  
مجد بن السميع : ضاعت بغير ألف والعامية بالألف ؛ قال الشاعر :

أضاعت لم أحسابهم ووجوههم • دجى الليل حتى نظم الجرع ثاقبه

( مَا حَوَّلَهُ ) ما زائدة مؤكدة ؛ وقيل : مفعولة بأضاعت ؛ وحوله ظرف مكان والماء في موضع  
خفض بإضافته إليها • وَرَدَّ نَحْبَ : وأذهب لنتان من الذهب، وهو زوال الشيء • ( وَرَكَّعَهُمْ )  
أى أبقاهم • ( فِي ظُلُمَاتٍ ) جمع ظلمة، وقرأ الأعمش : ظلمات بإسكان اللام على الأصل ؛ ومن  
قرأها بالضم فلفظ فرق بين الاسم والنعت ؛ وقرأ أشهب الثقيل : ظلمات بفتح اللام ؛ قال البصريون  
أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف • وقال الكسائي : ظلمات، جمع الجمع، جمع ظلم • ( لَا يُبْصِرُونَ )  
فعل مستقبل في موضع الحال ؛ كأنه قال : غير مبصرين ، فلا يجوز الوقف على هذا، على ظلمات •

قوله تعالى : ( صُمُّكُمْ عَمَى ) صم أى هم صم ، فهو خبر ابتداء مضمر ، وفي قراءة عبد الله بن  
مسعود وحفصة : صما بكاء عيا ، فيجوز النصب على الذم ؛ كما قال تعالى : ( زُلْزِلَتْ أَسْفَادُهَا )  
وكما قال : ( وَأَمْرُهُمْ صَمَاتٌ كَالْحُطْبِ ) • وكما قال الشاعر :

سقوني الخمر ثم تكفوني • عادة الله من كذب وزور

فنصب عادة الله على الذم ، فالوقف على يبصرون على هذا المذهب صواب حسن ؛ ويجوز أن  
ينصب صما بجرهم ؛ كأنه قال : وتركهم صما بكاء عيا ؛ فعل هذا المذهب لا يحسن الوقف على  
يبصرون • والصم في كلام العرب : الانسداد ؛ يقال : فتاة صماء إذا لم تكن مجوفة ؛ وصممت القارورة  
إذا سدتها ، فالأصم : من انسدت خروق مسامحه ؛ والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو  
الأنرس ؛ وقيل : الأنرس والأبكم واحد ؛ ويقال رجل أبكم وبكم أى أنرس بين الخرس  
والبكم قال :

قلت لسانى كلف نصفين منهما • بكم ونصف عند مجرى الكواكب

والعمى : ذهاب البصر وقد عمى فهو أعمى ، وقوم عمى ، وأعماه الله ، وتعمى الرجل أرى ذلك  
من نفسه ، وعمى عليه الأمر إذا التبس ؛ ومنه قوله تعالى : ( قَمِيعَتِ طَلِيمُ الْآبَاءِ يَوْمَئِذٍ ) •

وليس الفرض مما ذكرناه حتى الإدراك كنت عن حواسهم جملة، وإنما الفرض فيها في جملة ما؛  
تقول . فلان أصم عن الخفا؛ ولقد أحسن الشاعر حيث قال :  
• أصم عما سمع سميع •

ونال آخر :

وعواء الكلام سمعت عنها • ولو أتى أنشاء بها سميع

وقال البداري :

أعمى إذا ما جارتى نرجعت • حتى يولرى جارتى الجندر

وقال بعضهم في وصاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أدخل إذا ما دخلت أعمى • وأخرج إذا ما خرجت أنحس

وقال قتادة : صم عن استماع الحق، بك عن التكلم به، عمى عن الإبصار له .

قلت : وهذا المعنى هو المراد في وصف النبي صلى الله عليه وسلم ولادة آخر الزمان في حديث  
جبريل " وإذا رأيت الحفاة العراة العم البكم ملوك الأرض فذلك من أشراطها " والله أعلم .

توله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرِجُونَ ﴾ أي إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم ؛ يقال : يرجع بنفسه  
ورجوعا، ورجعه غيره؛ وهذيل تقول : أرجحه غيره ؛ وقوله تعالى : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ  
الْقَوْلَ ﴾ . أي يتلامزون فيما بينهم حسب ما بينه الترتيل في سورة سبا .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ . قال الطبري : أو بمنى الواو؛ وقاله الفراء وأشد :

وقد زعمت ليل بأنى فاجر • لنفسى تقاها أو عليها فجورها

وقال آخر :

قال الخليفة أو كانت له قدرا • كما أتى ربه موسى على قدر

أي وكانت ؛ وقيل : أو للتخيير أي مثلوم بهذا أو بهذا، لا على الاختصار على أحد الأمرين ؛  
والمنى أو أصحاب صيب ؛ والصيب : المطر، واشتقاقه من صاب بصوب إذا نزل ؛ قال علقمة :

فلا تسلى بئى وبين معمر • متفك رويا المزن حيث تصوب

وأصله : صوب اجتمعت الياء والواو وبقت إحداها بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت ؛

كما فعلوا في ميت وسيد وهين ولين ؛ وقال بعض الكوفيين : أصله صويب على مثال فيل ؛ قال

النحاس : لو كان كما قالوا لما جاز إدغامه ، كما لا يجوز إدغام طويل ، وتجمع صيب صيايب ، والتقدير

في العربة مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً أو كصيب .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ السَّيِّئَاتِ ﴾ السَّيِّئَاتِ تذكر وتؤنث ، وتجمع على سيئة وسموات وسمي ، على فعول ، قال المصباح :

• تنصب الرياح والسمي •

والسَّيِّئَاتِ : كل ما علاك فأظلك ، ومنه قبل لسف الليت : سماء ، والسَّيِّئَاتِ : المطر سمي به لتروله من السَّيِّئَاتِ ، قال حسان بن ثابت :

ديار من بني الحساس قفر • تمصها الرواس والسَّيِّئَاتِ  
وقال آخر :

إذا سقط السَّيِّئَاتِ بارض قوم • رعيته وإن كانوا غضاباً

ويسمى الطين والكلا أيضاً سماء ، يقال : ما زلنا نطأ السَّيِّئَاتِ حتى أتيناكم ، يريدون الكلا والطين ، ويقال لظهر الفرس أيضاً سماء لملوه ، قال :

وأحر كالسَّيِّئَاتِ أما سماءه • فربما وأما أرضه فعول

والسَّيِّئَاتِ : ما علا ، والأرض : ما سفل ، على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ إسناده وخبره وورد ويرق معطوف عليه ، وقال ظلمات بالجمع إشارة إلى ظلمة الليل وظلمة النجم : وهو النجم ، ومن حيث تراكب وترايد جمعت ، وقد مضى ما فيه من اللغات فلا معنى للإعادة ، وكذا كل ما تقدم إن شاء الله تعالى .

واختلف العلماء في الرد ، ففى الترمذى عن ابن عباس قال : سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الرد ما هو ؟ قال : " ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله " قالوا : فما هذا الصوت الذى يسمع ؟ قال : " زجره بالسحاب إذا زجره حتى يتهى إلى حيث أمر الله " قالوا : صدقت ، الحديث يطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء ، فالرد : اسم الصوت المسموع ، وقاله على رضى الله عنه ، وهو المعلوم فى لغة العرب ، وقد قال ليد فى جاهليته :

بغنى الرد والصواعق بال • فغارس يوم الكربة النجد

(١) حوساية بن مالك . (٢) القائل هو قيس التميمي ، كان فى القبانة (مكة) .

وروى عن ابن عباس أنه قال : الرعد : ريح تختلق بين السحاب : فتصوت ذلك الصوت .  
واختلفوا في البرق ، فروى عن علي ، وابن مسعود ، وابن عباس رضوان الله عليهم : البرق : غرق  
حديد بيد الملك يسوق به السحاب .

قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذی ، وعن ابن عباس أيضا هو سوط من نور بيد الملك ،  
يزج به السحاب ، وعنه أيضا البرق : ملك يراهي . وقالت الفلاسفة : الرعد صوت اصطكاك  
أجرام السحاب ، والبرق لما يتقدح من اصطكاكها ؛ وهذا مردود لا يصح به قتل والله أعلم .  
وقال : أصل الرعد من الحركة ، ومنه الرعد الجبان ، وارتعد : اضطرب ؛ ومنه الحديث :  
"بغىء بهما رعد فرائصهما" الحديث أخرجه أبو داود . والبرق أصله من البرق والضوء ؛ ومنه  
البراق دابة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله ؛  
ورعدت السماء من الرعد ، وبرقت من البرق ؛ ورعدت المرأة وبرقت تحسنت وتزينت ؛ ورعد  
الرجل وبرق تهتد وأوعد ؛ قال ابن أحر :

يا جل ما بسدت بك بلادنا • وطلبتنا فأبرق بأرضك وأرعد

وأرعد القوم وأبرقوا : أصابهم رعد وبرق ؛ وحكى أبو عبيدة ، وأبو عمرو : أرعدت السماء  
وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهتد وأوعد ؛ وأبكره الأحمسي . وأُخْتُع عليه بقول الكيت :

أبرق وأرعد يا يز • ما دعا وعيك لي بضائر

فقال : ليس الكيت بحجة .

ثالثة : روى ابن عباس قال : كان مع عمر بن الخطاب في سفرة بين المدينة والشام ، ومعا كعب  
الأجبار ، قال : فأصابنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد ، ففرق الناس ، قال : فقال لي كعب :  
إنه من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ؛ عوفى عما يكون  
في ذلك السحاب والبرق والصواعق ؛ قال : فقلنا أنا وكعب ، فلما أصبحنا واجتمع الناس ؛ قلت  
لعمري : يا أمير المؤمنين ، كأننا في غير ما كان فيه الناس ، قال : وما ذلك ؟ قال : غدته حين  
كعب ؛ قال : سبحان الله ! أنزلنا قتلنا فقالوا كما قلتم ! في رواية فلما برده قد أصابت أنف عمر



فأثرت به ؛ وستأتي هذه الرواية في صورة الرد إن شاء الله ؛ ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب في روايات الصعابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرد والصواعق قال : " اللهم لا تقطنا بضربك ، ولا تهلكنا بضربك وعافنا قبل ذلك " .

قوله تعالى : ( يَحْمِلُونَ أَسَابِهِمْ فِي ظُلُمَاتٍ ) . جعلهم أصابعهم في أنفهم لئلا يسمعوا القرآن فيؤمنوا به ويحمد عليه السلام ؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفي واحد الأصابع خمس لغات : إصبع بكسر الهمزة وفتح الباء ، وأصبع بفتح الهمزة وكسر الباء ، ويقال يفتحهما جميعا ، وبضمهما جميعا ، وبكسرهما جميعا ؛ وهي مؤنثة ، وكذلك الأذن وتخفف وتنقل وتصغر ، فيقال : أذنية ولو سميت بها رجلا ثم صغرت قلت : أذنين ؛ فلم توث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى الذكر ؛ فاما قولهم : أذنية في الاسم العلم فإنما سمي به مصترا . والجمع أذان ، وتقول : أذنته إذا ضربت أذنه ؛ ورجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوى فيه الواحد والجمع ؛ وأذاني : عظيم الأذنين ؛ ومنحة أذناه ، وكيش أذني ؛ وأذنت النمل وغيرها أذينا ؛ إذا جعلت لها أذنا ، وأذنت السبي عركت أذنه .

قوله تعالى : ( مِنَ الصَّوَاعِقِ ) أي من أجل الصواعق ، والصواعق جمع صاعقة ؛ قال ابن عباس ومجاهد ، وغيرهما : إذا اشتد غضب الرد الذي هو الملك طار النار من فيه وهي الصواعق ، وكذا قال الخليل قال : هي الواقعة الشديدة من صوت الرد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة : نار تسقط من السماء في رد شديدة . وحكي الخليل عن قوم : الصاعقة بالسين ، وقال أبو بكر التاشي يقال : صاعقة وصعفة وصاقمة بمعنى واحد ؛ وقرا الحسن : من الصواعق بتقديم التاف ؛ ومنه قول أبي التميم :

يكونون بالمصقولة الصواعق \* تشقق البرق عن الصواعق

قال النحاس : وهي لغة تميم وبعض بني ديبعة ؛ ويقال : صعقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة ، والصاعقة أيضا صيحة العذاب ؛ قال الله عز وجل : ( تَأْخُذُهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ) . ويقال : صمق صعقة وتصمقا أي غشى طينه ؛ ومنه قوله تعالى : ( وَتَرْمُوْنِي صِعِقًا ) فاصمقه غيره ، قال ابن مقبل :

ترى الثمرات الزرقة تحت لبائه \* أحادي ومثنى أصغتها صواهلها

وقوله مثنى : ( فَصَيَّقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ) . أى مات ، وجبه الله تعالى في هذه الآية أحوال المتقين بما في الصيب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق ؛ فالظلمات مثل لما يستقدونه من الكفر ، والرعد والبرق مثل لما يخوفون به ، وقيل : مثل الله تعالى القرآن بالصيب لما فيه من الإشكال عليهم . والمعنى : هو الظلمات ، وما فيه من الوعيد ، والبرق : هو الرعد ؛ وما فيه من التور والنجح الباهرة التي تكاد أحيانا أن تبهتهم . هو كالبرق . والصواعق مثل لما في القرآن من الدعاء إلى القتال في العاجل ، والوعيد في الأجل . وقيل : الصواعق : تكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ( حَذَرَ الْمَوْتَ ) . حذر وحذار بمعنى ؛ وقرئ بهما ؛ قال سيوريه : هو منصوب لأنه مفعول له أى مفعول من أجله ؛ وحقيقته أنه مصدر ؛ وأنشد سيوريه :

وأغفر عوداء الكفر إنداره \* وأعرض عن شتم اللئيم تكرا

وقال الفراء : هو منصوب على التثنية . والموت : ضد الحياة ، وقد مات يموت ويمات أيضا قال الراجز :

بيني سيدة البنات \* عيشي ولا يؤمن أن تماتي

فهو ميت وميت \* يوم يموت وأموات وميتون وميتون ؛ والموات بالضم : الموت ؛ والموات بالفتح : المأرور فيه ، والموات أيضا الأرض التي لا مالك لها من الآدميين ولا يوضع بها أحد ؛ والموتان بالتحريك خلاف الحيوان ؛ يقال : اشتد الموتان ، ولا تشتر الحيوان ؛ أى اشتد الأرضين والدور ، ولا تشتر الرقيق والعباد ، والموتان بالضم : موت يقع في الماشية ؛ يقال : وقع في المال موتان ؛ وأما الله وموته شدة البالغة ، وقال :

.. فمروءة مات موتا مستريحا \* فهاذا أُمُوتُ كُلِّ رِيح

وأما التافة إذا مات ولها نفى محبة ومحنة ؛ قال أبو عبيد : وكذلك المرأة وجهها تامة وميت ؛ قال ابن السكيت : أ مات فلان إذا مات له ابن أو بنتون ؛ والمتواتر من صفة الناسك المرائي ،

وموت مائة كفتوك : ليل لائل، يؤخذ من لفظه ما يؤكد به، والمنشيت للأمر المستمر له،  
قال رؤبة :

وزيد البحر له كيتت : والليل فوق الماء منيتت.

والمنشيت أيضا : السقتل الذي لا يزال في الحرب من الموت، وفي الحديث : "أرى القوم  
مستيتين" وهم الذين يقاتلون على الموت، والموتة بالضم : جنس من الجنون والصرع يترى الإنسان؛  
فإذا أفاق عاد إليه كال عقله كالنائم والسكران، وموته بضم الميم وهمز الواو : اسم أرض قتل بها  
جعفر بن أبي طالب عليه السلام.

قوله تعالى : (وَأَنَّهُ حَيِّطٌ بِالْكَافِرِينَ) . ابتداء وخبر، أى لا يفوتونه، يقال : أحاط  
السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة، قال الشاعر :

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا • بما قد رأوا مالوا جميعا إلى السلم

ومنه قوله تعالى : (وَأَحْيِطْ بِمَنِّهِ) . وأصله يحيط قلت حركة الياء إلى الحاء فكنت . . .  
سبحانه يحيط بجميع المخلوقات، أى هى فى قبضته وتحت قهره؛ كما قال : (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ) . وقيل : يحيط بالكافرين، أى عالم بهم؛ دليله : (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عِلْمًا) . وقيل : مهلكهم وبأسهم، دليله قوله تعالى : (إِلَّا أَن يَمَاطَ يَوْمًا) . أى إلا أن تهلكوا  
جميعا، وخص الكافرين بالذكر لثقتهم ذكركم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : (يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْتَلِفُ أَبْصَارُهُمْ) . الآية يكاد معناه يقارب، يقال : كاد يفعل  
كذا إذا قارب ولم يفعل، ويمحز فى غير القرآن يكاد أن يفعل، كما قال رؤبة :

• قد كاد من طول الإلا أن يمصا •

• مشتق من المصح وهو الدرس؛ والأجود أن تكون خبر أن لأنها لغوية الحال، وأن تصرف  
الكلام إلى الاستقبال وهذا متناهي؛ قال الله عز وجل : (يَكَادُ سَاءَ بَرَقَهُ يَقْبَحُ بِالْأَبْصَارِ) . ومن  
كلام العرب : كاد التمام بطير، وكاد العروس يكون أميرا، لقرعها من تلك الحال، وكاد نمل  
تصرف على فيل يفعل، وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل، قال : وما كنت آتيا . ويمحز جري

كاد : كَرَبَ وجعل وقارب وعلّق؛ في كون خبرها بشران، قال الله عز وجل : (وَلَقَدْ بَيَّنَّصَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ) لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة؛ والحال لا يكون منها أن فاعلم .

قوله تعالى : (يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ) الخطف : الأخذ بسرعة؛ ومنه سمي الطير خطافا لسرعته؛ فمن جعل القرآن مثلا للتخويف فالمنى أن خوفهم مما يقرل بهم يكاد يذهب أبصارهم ، ومن جملة مثلا للبيان الذي في القرآن فالمنى أنهم جامع من البيان ما يهزمهم ؛ ويخطف ويخطف لثان قرئ بهما ؛ وقد خطفه بكسر يخطفه خطفا ، وهي اللفظة الجيدة ؛ واللفظة الأخرى حكاهما الأخفش : خَطَفَ يَخْطِفُ ؛ الجوهري ؛ وهي قليلة ودنية لا تكاد تعرف ؛ وقد قرأ بها يونس في قوله تعالى : (يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ) . وقال النحاس : في يخطف سبعة أوجه ؛ القراءة الفصيحة : يَخْطِفُ ؛ وقرأ علي بن الحسين ، ويحيى بن وثاب : يخطف بكسر الطاء . قال سعيد الأخفش : هي لغة ؛ وقرأ الحسن وقائدة ، وعاصم المجدي ، وأبو رجاء الطاردي : بفتح الياء وكسر الخاء والطاء ؛ وروى عن الحسن أيضا : أنه قرأ بفتح الخاء ؛ قال التزاء : وقرأ بعض أهل المدينة بإسكان الخاء وتشديد الطاء ؛ قال الكاسي والأخفش والقراء : يجوز يخطف بكسر الياء والهاء والطاء ، فهذه ستة أوجه موافقة لخط ؛ والسابعة حكاهما عبد الوارث قال : رأيت في مصحف أبي بن كعب يخطف ، وضم سيويه . والكاسي : أن من قرأ يخطف بكسر الخاء والهاء فالأصل عنده يخطف ثم ادغم الهمزة في الطاء فالتى ساكنان فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين ؛ قال سيويه : ومن فتح الخاء التي حركة الاء عليها ؛ وقال الكاسي : ومن كسر الياء فلأن الألف في اختطف مكسورة ؛ فأما ما حكاه التزاء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز لأنه جمع بين ساكنين قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبو رجاء يخطف . قال ابن جاهد : وأظنه خطأ ؛ واستدل على ذلك بأن خَطَفَ الخَطْفَةُ لم يقرأه أحد بالفتح .

(أَبْصَارَهُمْ) جمع بصروهم ساسة الرؤية ، والمنى : تكاد جميع القرآن وبهايته الساجدة يهزمهم ومن جعل البرق مثلا للتخويف فالمنى أن خوفهم مما يقرل بهم يكاد يذهب أبصارهم .

وقوله تعالى : (كَلِمَاتُ أَنَاءٍ لَّمْ يَشُوا فِيهِ) . كلما منصوب لأنه ظرف ؛ وإذا كان كلما جمعة ، إذا نفى مرصولة والمائل فيه مشوا وهو جوابه ؛ ولا يعمل فيه أناء لأنه في صلة ما ؛ والمفعول نزل المبرد محذوف ، التقدير عنده : كلما أناء لم البرق الطريق ، وقيل : يجوز أن يكون فعل وأنزل بمعنى كسك وأسكت ؛ فيكون أناء وضاء سواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول ، قال الفراء : يقال ضاء وأناء ، وقد هُذِمَ ، والمعنى : أنهم كلما سمعوا القرآن وتلوه لم يجمعوا لَمَشُوا ومشوا معه ، فإذا نزل من القرآن ما يسمون فيه ويصلون به أو يكفونه قالوا ؛ أي ثبوا على فراقهم ، عن ابن عباس ؛ وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم التهم قالوا : دين محمد بن مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابهم شدة ، سقطوه وثبوا في فراقهم ، عن ابن مسعود ، وقتادة ؛ قال النحاس : وهذا قول حسن ويدل على صحته : ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْذُلُ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ) . وقال علماء الصوفية : هذا مثل ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بدءاً ، فارتقى من تلك الأحوال بالدهاوى إلى أحوال الأكابر كان تضيء عليه أحوال الإرادة لو صححها بملازمة آدابها ، فلما مزجها بالدهاوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقى في ظلمات دعاويه لا يصير طريق الخروج منها . وروى عن ابن عباس أن المراد اليهود لما نصر النبي صلى الله عليه وسلم يبدؤ طمعوا ، وقالوا : هذا والله النبي الذي بشرنا به موسى لا تزله راية ، فلما نكب بإحدا رتدوا وشكروا ، وهذا ضعيف . والآية في المناقضين ، وهذا اسم عن ابن عباس ، والمعنى يتناول الجميع .

قوله تعالى : ( وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَقَبَّ بِسْمِئِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ) . لو حرف تمنى وفيه معنى الجزاء ؛ وجوابه اللام . والمعنى : ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب عنهم عن الإسلام والاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم ؛ وخص السمع والبصر لتقدم ذكرهما في الآية أولاً ، أولاً ثم أشرف ما في الإنسان . وقرئ بإسماعهم على الجمع ، وقد تقدم الكلام في هذا .

قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) عموم ، ومنه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه ؛ وأجملت الأمة على تسمية الله تعالى بالقدير ، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر ، والقدير أبلغ في الوصف من القادر ؛ قاله الزجاجي . وقال المروزي : والقدير والقادر بمعنى واحد ؛ يقال :

قدرت على الشيء أقدر قدرا وقدرا ومقدرة ومقدرة وقدرا أي قدرة؛ والاعتبار على الشيء : القدرة عليه ؛ فانه جل وعز قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم ؛ فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر ، له قدرة بها فعل وفعل ما يشاء على وفق علمه واختياره ؛ ويجب عليه أيضا أن يعلم أن العبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى المادة ؛ وأنه غير مستبد بقدرة ؛ وإنما خص هذا تعالى صفته التي هي القدرة بالتركودن غيرها ؛ لأنه تقدم ذكر فعل مضبنة الوعيد والإحانة ؛ فكان ذكر القدرة مناسبة لذلك والله أعلم .

فهذه عشرون آية على عدد الكافرين ؛ أوج آيات في وصف المؤمنين ، ثم عليها آيات في ذكر الكافرين ، وبقيتها في المتقين ، وقد تحدثت الرواية فيها عن ابن جريج ، وقاله مجاهد أيضا . قوله سبحانه وتعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ) . قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ ) . فلما نزلت بمكة ، وكل آية أولها : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ) فلما نزلت بالمدينة .

قلت : وهذا يرده أن هذه السورة ، والنساء مدينتان وفيهما ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ ) وأما قولها في ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ) فصحيح . وقال عروة بن الزبير : ما كان من حد أو فريضة فانه نزل بالمدينة ، وما كان من ذكر الأثم والعذاب فانه نزل بمكة ؛ وهذا واضح ؛ وإيا - في قوله : ( يَا أَيُّهَا ) حرف تداء ؛ ( أي ) متادى مفرد متبني على الضم لأنه متادى في اللفظ ، وها ، تنبيه . الناس مرفوع صفة لأي عند جماعة النحويين ماعدا المازني فانه أجاز النصب قياسا على جوازه في : يا هذا الرجل ؛ وقيل : سميت أي كما ضم المقصود المفرد ؛ ويا هذا ( بها ) عوضا عن ياء أخرى ، وإنما لم يأتوا بياء للتلايقطع الكلام ؛ فجاءوا ( بها ) حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيوطي : كأنك كررت يا مرتين وصار الاسم بينهما ؛ كما قالوا : ها هو ذا ؛ وقيل : لما تقرر عليهم الجمع بين حرف تعريف ؛ أتوا في الضرورة بمتادى مجرد عن حرف تعريف ؛ وأجروا عليه المرفوع باللام المقصود بالتداء وأتروا رفعه لأنه المقصود بالتداء ؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التي كان يستحقها لو بشرها التداء تنبيها على أنه المتادى . فأعلمه .

واختلف من المراد بالناس هنا على قولين ؛ أحدهما : الكفار الذين لم يسيروا ؛ يدل عليه قوله : ( وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ) . الثاني أنه عام في جميع الناس فيكون خطابهم للزمين بالاستجابة للعبادة ؛ والكافرين بإبتلائها ؛ وهذا نصير .

قوله تعالى : ﴿ أَعْبُدُوا ﴾ أمر بالعبادة له ؛ والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه  
وأصل العبادة : الخضوع والتذلّل ، يقال : طريق معبّدة إذا كانت موطوءة بالأقدام ، قال طرفة :

• وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد •

والعبادة : الطاعة ، والتعبّد : التفكّ ، وعبّدت فلاناً : اتخذه عبداً .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ . خص تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته ، إذ كانت العرب  
مقروّة بأن الله خلقها ، فذكر ذلك حجة عليهم وتقرّياً لهم ؛ وقيل : ليذكّرهم بذلك نعمته عليهم .  
وفي أصل الخلق وجهان ؛ أحدهما : التدبير ، يقال : خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته قبل القطع ،  
قال الشاعر :

ولا أنت تخزي ما خلقت به • حس القوم يخلق ثم لا يفري

وقال الجاحظ : ما خلقت إلا فريت ، ولا وعدت إلا وفيت . الثاني : الإنشاء والاختراع والإبداع ؛  
قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَقُونَ أَفْئًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ . فيقال إذا ثبت عدم خلقهم ، ثبت عدم خلق  
غيرهم ؛ فالجواب : أنه إنما يجري الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ في العظة ، فذكرهم من  
قبلهم ليعلموا أن الذي أمات من قبلهم وهو خلقهم بيّتهم ؛ وليفكروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ،  
وعلى أي الأمور مضوا من إهلاك من أهلك ؛ وليعلموا أنهم يتلون كما ابتلوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ تَقْوَى ﴾ . لعل متصلة بـاعبدوا ، لا بخلقكم ؛ لأن من ذواه الله جلّه لم يخلق  
ليتقى ؛ وهذا وما كان مثله فيما ورد في كلام الله تعالى من قوله ، ﴿ لَكُمْ تَقْوَى ﴾ لعلكم تشكرون ؛  
لعلكم تذكرون ، لعلكم تهتدون . فيه ثلاث تأويلات :

الأول — أن لعل على بابها من الترجى والتوقع ، والترجى والتوقع إنما هو في حيز البشرى ؛ فكانه :  
قيل لهم : اقبلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تغفلوا وأن تذكروا وأن تتقوا ؛ فهذا قول سيويه  
ورؤساء اللسان ؛ قال سيويه في قوله عز وجل : ﴿ ادْعُوا إِلَى قَوْمٍ لَهُمْ ظَنَنٌ أَنَّهُ قَوْلُنَا لَهُ قَوْلًا  
لَنَا لَعَلَهُ يُذَكِّرُ أَوْ يَخْتِي ﴾ . قال سيويه : ادعوا على طمعكم وربنا كما أن يتذكر أو يوحى في وادعوا  
هذا القول أبو الممالى .

الثاني - أن العرب استعملت لمل مجردة من الشك بمعنى لا مكي ؛ فالملعى لتعلقوا ولتذكروا  
ولتسقوا؛ وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنا كفوا الحروب لملنا • نكف ووقفم لنا كل موت

فلما كففتا الحرب كانت عهدكم • كلع سراب في الملا مائق

المنى : كفوا الحروب لنكف : ولو كانت لمل هنا شكاً لم يوجهوا لهم كل موتى ؛ وهذا القول  
عن قطرب والطبري •

الثالث - أن تكون لمل بمعنى التعرض للشيء ؛ كأنه قيل : اضلوا ذلك متعرضين لأن تعلقوا ،  
أولاً نذكروا أولاً نتنصوا ؛ والمنى في قوله : ( لَمَلَكُمْ تَتَّقُونَ ) • أى لملكم أن تجعلوا بقبول  
ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار ؛ وهنا من قول العرب : اتهاه بمقه إذا استقبله به ؛ فكانه  
جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة ، ومنه قول علي رضي الله عنه : كا إذا احمر البأس اتقينا  
بالي صلى الله عليه وسلم ، أى جعلناه وقاية لنا من العدو ، وقال عترة :

ولقد كررت المهر يدى نحره • حتى اتحتى الخليل بأبى حذيم

قوله تعالى : ( الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ) • فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( الَّذِي جَعَلَ ) معناه هنا صير لعديه إلى مفعولين ؛ وبأى بمعنى خلق  
ومنه قوله تعالى : ( مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيعَةٍ وَلَا مَآبٍ ) • وقوله : ( وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ) • وبأى  
بمعنى سمى ؛ ومنه قوله تعالى : ( حَمَّ • وَالْيَكْتَابِ الْكُيُومِ • إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ) • وقوله :  
( وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُنًّا ) • ( وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ) • أى سموهم ؛ وبأى  
بمعنى أخذ كما قال الشاعر :

وقد جعلت نفسي طيباً لضميمة • لضميمة ما يقرع العظم ناهياً

وقد أتى زائدة كما قال الآخر :

وقد جعلت أرى الاثنين أربعة • والأربع اثنين لما هدنى الكبر

وقد قيل في قوله تعالى : ( وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ) • إنها زائدة ؛ وجعل واجتمع بمعنى واحد ،

قال الشاعر :



ناط أمر الضعاف واجتعل الي . مل كجسل المادية المسمود

(فِرَاشًا) ؛ أى وطأ يفتروشونها ويستقرون عليها ؛ وليس فِرَاش كالجبال والأوعار وسبر  
فهى من مصالح ما يفتروش منها ؛ لأن الجبال كالأوتاد كما قال : ( أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا . وَالْجِبَالَ  
أَوْتَادًا ) . والبحار تركب إلى سائر مآنها ؛ كما قال : ( وَلَقَدْ أَتَى بِجَرَى فِي الْبَحْرِ مَا يَشْفَعُ النَّاسَ ) .

الثانية — قال أصحاب الشافى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج سراج  
فبات على الأرض ، وجلس في الشمس لم يحنث ؛ لأن اللفظ لا يرجع إليها عرفا . وأما المالكية  
فتبوه على أسلمهم في الأيمان أنها محمولة على التبة أو السبب أو البساط الذى جرت عليه العين ؛ فإن  
عدم ذلك فالعرف .

الثالثة — قوله تعالى : ( وَاللَّيْلَ بَنَاءً ) البناء للأرض كالسقف للبيت ؛ ولهذا قال وقوله الحق :  
( وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ سَفَاً مَحْظُوظًا ) . وكل ما علا فأظلم ؛ قيل له : سماء ؛ وقد تقدم القول فيه . والوقف  
على « بناء » أحسن منه على « ستقون » ؛ لأن قوله : ( أَلَدَى جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا ) نبت للرب ؛  
ويقال : بنى فلان بيتا ، وبنى على أهل بناء فيهما أى زفها ؛ والعامية تقول : بنى بأهله ، وهو خطأ ؛  
وكان الأصل فيه : أن الفاعل بأهله كان يصرب عليها قبة ليلة دخوله بها ؛ فقبل لكل داخل بأهله ؛  
بان ؛ وبنى مقصورا ؛ شدد للكثرة ؛ وابتنى دانا وبنى بمعنى ؛ ومنه بَيَان الحائط ؛ وأصله : وضع  
لبنة على أخرى حتى تهت .

وأصل الماء : موه ؛ قبلت الواو ألفا لتحزوها وتحرك ما قبلها فقلت ماء ، فالتقى حرفان خفيفان  
فأبدلت من الماء حمزة ؛ لأنها أجلد ، وهى بالآلف أشبه فقلت : ماء ؛ الألف الأولى عين الفعل ،  
وبعدها الهمزة التى هى بدل من الماء ، وبعد الهمزة ألف بدل من التثنية . قال أبو الحسن : لا يجوز  
أن يكتب إلا بالثنية عند البصريين ، وإن شئت بثلاث ؛ فإذا جمعوا أو صفروا ردوا إلى الأصل ؛  
فقالوا : مويه وأمواه ومياه ، مثل : جمال وأجمال .

الرابعة — قوله تعالى : ( فَاتَّخِذْ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ) . الثمرات جمع ثمرة ؛ ويقال : ثمر  
مثل عجبر ؛ ويقال : ثمر مثل خشب ؛ ويقال : ثمر مثل بدن ؛ وثمر مثل إكام جمع ثمرة . وسبأى  
لهذا مزيد بيان في الأسماء إن شاء الله ؛ وثمار السيات : عقد أطرانها .

والمنى في الآية أخرجه لكم الرزق من الثروات ، وأنواعا من النبات ، رزقا ، طعاما لكم ، وعلفا لدوابكم ، وقد بين هذا قوله تعالى : ( **أَنَا صَيِّدُ الْكِبَابِ** ) . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَنَبَاتًا وَغَضَبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَبَآكِيَةً وَبَآبًا . مَا مَالَكُمْ وَلَا تَأْمِنُونَ ) . وقد مضى الكلام في الرزق مستوفى والحمد لله .

فلان قيل : كيف اطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثروات قبل التملك ؟ قيل له : لأنها معدة لأن تملك ، ويصح بها الانتفاع ، فهي رزق .

الخاتمة - قلت : ودلت هذه الآية على أن الله تعالى أفاض الإنسان عن كل خلق ، ولما قال عليه السلام مشيرا إلى هذا المعنى : " والله لأن يأخذ أحدكم حبله فيخطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه " أخرجه مسلم ، ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الاشتغال من الصنائع وغيرها ، فمن أخرج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا ، فقد أخذ بطرف من جعل لله نكاحا . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عز وجل في هذه الآية سبيل الفقر ، وسر أن تجعل الأرض طماء ، والسماء غطاء ، والماء طيبا والكلام طعاما ، ولا تمسك أحدا في الدنيا من الخلق بسبب الدنيا ، فإن الله عز وجل قد أباح لك ما لا بد لك منه ، من غير منة فيه لأحد عليك . وقال توف الحكيم : رأيت علي بن أبي طالب خرج فتعطر إلى النجوم فقال : يا زوف ، أراك أنت أم راقى ؟ قلت : بل راقى يا أمير المؤمنين ، قال : طوبى للزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة وأولئك قوم اجتفوا الأرض بساطا ، وزيلها قرشاً ، وماها طيباً ، والقرآن والدعاء دثاراً وشعاراً ، فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام . وذكر باقي الخبر وسيأتي تمامه في هذه السورة عند قوله تعالى : ( **أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ** ) إن شاء الله تعالى .

الخاتمة - قوله تعالى : ( **فَلَا تَجْلُوا** ) نهي . ( **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ) أي أكفاه وأماناً ونظراً في واحدكم ، وكذلك قرأ محمد بن السميع : **تَدَا** . قال الباقون : ...  
بِحَسْبِ اللَّهِ . وَلَا تَدْلُوهُنَّ فِي عَنَادِ النَّاسِ . وَلَا تَدْلُوهُنَّ فِي عَنَادِ اللَّهِ .  
وقال حسان :

أتهجوه وليست له جندكم . فشرابكم خليجكم والقتل

ويقال نذونك يد ونذيدة على المبالغة؛ قال ليد :

ليلا يكون السندري تديق • وأجسل أقواما عموما عماما

وقال أبو عبيدة : أنادا : أضدادا . الخامس : أنادا مفعول أول، وقه في موضع الثاني .  
الجوهري : والنذ بفتح النون : التل المرتفع في المياه، والتدين الطيب ليس بمرى؛ وتد البعير يد  
ندا وتنادا وتندوا : نذر وذهب على وجهه؛ ومنه قرأ بعضهم : (( يَوْمَ النَّادِ )) . ونذد به أى شهره  
وتشمع به .

السابعة — قوله تعالى : (( وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ )) ابتداء وخبر، والجملة في موضع الحال، والخطاب  
للكافرين والمنافقين؛ عن ابن عباس .

فان قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نتمهم بخلاف ذلك من انتم والطبع والصمم والعمى ؟

فالجواب من وجهين، أحدهما : وأنتم تعلمون ، يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق  
وأئذ الماء وأئذ الرزق ، فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد . الثاني : أن يكون المعنى وأنتم  
تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتهم ؛ والله أعلم . وفي هذا دليل على الأمر باستمال  
جميع العقول، وإبطال التقليد، وقال ابن قزوين : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين ؛ فالمعنى لا ترتدوا  
أي المؤمنون وتجعلوا لله أنادا بعد علمكم الذي هو قبيح الجهل بأن الله واحد .

قوله تعالى : (( وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ )) . أى في شك (( بِمَا نَزَّلْنَا )) بين القرآن، والمواد المشركون  
الذين تحذوا ، فانهم لما سمعوا القرآن قالوا ما يشبه هذا كلام الله، وإنا لنرى شك منه؛ فزلت الآية .  
وجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر في الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ،  
ذكر بعدها الدلالة على نبوة نبيه ، وأن ما جاء به ليس مفترى من عنده .

قوله : (( عَلَى عَيْنَاتِ )) . يعنى بما صلى الله عليه وسلم ، والعبد مأخوذ من التبد وهو التذلل ؛  
نسبى المملوك من جنس ما يفعله عبدا، لتذلل مولاه ؛ قال طرفة :

إلى أن تحامتى الشيرة كلها • وأفردت أفراد البعير المبيد

أبغ المذلل، قال بعضهم: لما كانت آياد أشرف الخصال، والتسمي بها أشرف الخطب؛ سمي  
نبيه عبداً، وأتدوا:

يا قوم قلبي عند زهراء • يعرفه السامع والرائي

لا تمنى إلا بيا عبدا • فانه أشرف اسماء

(فَاتُوا سُورَةَ) الفاء جواب الشرط، أو ما مقصور لأنه من باب المجيء، قاله ابن كيسان، وهو  
أمر معناه التمييز لأنه تعالى علم محزم عنه. والسورة واحدة السرر. الكلام فيها وفي إعجاز  
القرآن، فلا معنى للإعادة. ومن - في قوله: (مِنْ مِثْلِهِ) - زائدة كما قال (فَاتُوا سُورَةَ مِثْلِهِ).  
والضمير في مثله عائذ على القرآن عند الجمهور من العلماء؛ كتفاده، ومجاهد: نساء، وقيل: يعود  
على التوراة والإنجيل. فالمنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فأنها صدق ما فيه؛ وزيل: يعود على النبي  
صلى الله عليه وسلم. المنى من يشرأى مثله لا يكتب ولا يقرأ. فز: على هذين التارئين سميض.  
والوقف على مثله ليس بتمام، لأن وأدعوا نسق عليه.

قوله تعالى: (وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ) معناه أعوانكم ونصراءكم. القراء: آلتكم. وقال ابن كيسان:  
فإن قيل كيف ذكر الشهداء عامين، وإنما يكون الشهداء لشهداء أمراء، أو ليخبروا بأمر شهوده؛  
وإنما قيل لهم: فأتوا بسورة من مثله؟ فالجواب أن المعنى استعينوا بمن وعدتموه من علمائكم،  
وأحضروهم ليشاهدوا. فز: فيكون الرد على الجميع آت في الحج: ٣٠.

قلت: هذا هو معنى فون شاهد، قال مجاهد: منى وأدعوا شهداءكم، أي ادعوا ناسا يشهدون  
لكم أي يشهدون أنكم عارضتموه. النحاس: شهداءكم نصب بالفعل جمع شهود؛ يقال: شاهد  
وشهيد مثل، قادر وقدير.

وقوله: (مِنْ دُونِ اللَّهِ). أي من غيره، ودون تقيض فوق؛ وهو تقصير عن التامة، ويكون  
ظرفاً. والذون: الحقيق الخسيس؛ قال:

إذا ما حلل المسرة وأم السلاء • ويقع بالذون من كان دونا

ولا يشق منه قال، ويضخم يقول منه: فإن يدون دونا، ويقال: هذا دون ذلك، أي أقرب  
منه، يقال في الإغراء بالشيء: دونك، قال تميم الجعفي: أقربا صالحا - وكان قد صلبه -  
ال: دونكوه.

قوله تعالى: (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . فيا قوم من أنتم تتدبرون على المبالغة، لقولهم في آية أخرى: (وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَكُّنَّكُمْ بِمِثْلِ هَذَا) . والصدق: خلاف الكذب، وقد صدق في الحديث، والصدق: الصلب من الراح، وقال: صدقوا فقال: والصدق: للملازم للصدق؛ وقال: رجل صدق، كما يقال: نعم الرجل. والصدقة مشتقة من الصدق في الصبح والورد.

قوله تعالى: (إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا) يعني فيا مضي. (وَلَنْ تَعْمَلُوا) أى تطبقوا ذلك فيما باتى. والوقف على هذا على «صادقين» ثم. وقال جماعة من المفسرين: معنى الآية: وادعوا شهداءكم من دون الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ تَعْمَلُوا، فَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا فَأَهْوُوا النَّارَ. فكل هذا التفسير لا يتم الوقف على «صادقين». فإن قيل: كيف دخلت إن على لم؟ ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجواب أن إن هاهنا غير عاملة في اللفظ؛ فدخلت على لم كما تدخل على الماضى، لأنها لا تعمل في لم كما لا تعمل في الماضى؛ فمعنى إن لم تفعلا أن تركتم الفعل.

قوله تعالى: (وَلَنْ تَعْمَلُوا) نصب بن، ومن العرب من يحزم بها، ذكره أبو عبيدة، مع بيت الشافعية.

• فَلَنْ أَعْرِضَ آيَةَ اللّٰهِ بِالْعَدَدِ •

وفي حديث ابن عمر حين ذهب به إلى النار في مثله فقيل لى: لن ترجع، هذا على تلك اللغة وفي قوله: (وَلَنْ تَعْمَلُوا) إثارة لمسمهم، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبلغ، وهذا من النبوة التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها. وقال ابن كيسان: ولَنْ تَعْمَلُوا، توقيفا لهم على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيا زعموا من أنه كذب، وأنه مفترى، وأنه محمر، وأنه شمر، وأنه أساطير الأولين؛ وهم يدعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله.

وقوله: (فَأَهْوُوا النَّارَ) جواب فإن لم تفعلا، أى اهتوا النار بتصدقني التي صلى الله عليه وسلم، وطاعة الله تعالى. وقد تقدم معنى التقوى فلا معنى لإعادتها. وقال: إن لغة تميم وأسد، فتقوا النار. وحكى سيوريه: تقى نقي، مثل: تقى يقضى. النار مفعولة، التي، من انتهأ، وفيها ثلاث

(في اللسان مادة) (صدق) وشره الصرافية (ص ٦٦٨) طبع بيروت: «قم». وفي ديوانه الخطوط المعروفة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٦٦٧ أدب): «قامرمت».

لغات ؛ التي واللت بكسر التاء واللت بإسكانها ؛ وهي اسم مبهم للوث ، وهي معرفة ؛ ولا يجوز ؛ زرع  
الأكف واللام منها للتكثير ؛ ولا تم إلا بصلة . وفي تنبيها ثلاث لغات أيضا ؛ اللتان واللتا بحذف  
النون واللتان بتشديد النون . وفي جمعها خمس لغات ؛ اللاتي وهي لغة القرآن ؛ واللات بكسر التاء  
بلا ياء ؛ وأشد أبو عبيدة :

من اللواتي واللاتي واللاتي . زعمن أن قد كبرت لغاتي

وللوا بإسقاط التاء ، هذا ما حكاه الجوهري . وزاد ابن السجري : اللاتي بالهمزة وإثبات  
الياء ، واللاء بكسر الهمزة وسنّف الياء ، واللا بحذف الهمزة ؛ فإن جمعت الجمع قلت في اللاتي :  
اللواتي ، وفي اللاتي : اللواتي . قال الجوهري : وتصغير التي اللتيا بالفتح والتشديد ، قال الرازي :  
بعد اللتيا واللتيا والتي . إذا علبا أحسن ردت

وبعض الشعراء أدخل على التي حرف التاء ، وحروف التاء لا تدخل على ما فيه الألف واللام  
إلا في قولنا : يا الله ، وحده ، فكانه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها ، وقال :  
من أجلك يا التي تحت قلبي . وأنت بمنجلة بالسود عني

ويقال : وقع فلان في اللتيا والتي ؛ وهما اسمان من أسماء الداعية . والوقود بالفتح : الحطب ،  
وبالضم : انتقد . والناس ، عموم ، وممناه المنصوص فين سبق عليه القضاء أنه يكون حطبا لها ، أجازها  
الله منها . والمجارة ، هي مجارة الكبريت الأسود — عن ابن مسعود والفسراء — ونخصت بذلك  
لأنها تزيد على جميع الأشجار بمخة أنواع من العذاب ؛ سرعة الاتقاد ، تن الرائحة ، كثرة الدخان ،  
شدة الالتصاق بالأبدان ، قوة حرها إذا حيت ؛ وليس في قوله تعالى : ( وَوَعَدْنَا النَّاسَ وَآلِهِيَّارُهُ )  
دليل على أن ليس فيها غير الناس والمجارة بلبيل ما ذكره في غير موضع من كون الجن والشیاطين  
فيها . وقيل : المراد بالمجارة الأصنام ؛ لقوله تعالى : ( إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ )  
أي حطب جهنم ، وعليه فتكون المجارة والناس وقودا للنار ؛ وذكر ذلك تظليما للنار أنها تحرق  
المجارة مع إسمائها للناس . وعلى التأويل الأول يكونون معذبين بالنار والمجارة ؛ وقد جاء الحديث  
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل مؤذ في النار " . وفي تأويله وجهان ، أحدهما : أن  
كل من أذى الناس في الدنيا عذبه الله في الآخرة بالنار . الثاني : أن كل ما يؤذي الناس في الدنيا من

الساع والحوام وغيرها في النار، بعد لعقوبة أهل النار. ونهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار  
المنصوصة بالحجارة هي نار الكافرين خاصة. والله أعلم.

وروى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوملك  
وينصرك، فهل نعمة ذلك؟ قال: "نعم ويعدته في غمرات من النار فأخرجته إلى صفحاح" في رواية  
"ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار". وقودها مبتدأ، الناس خبره؛ والحجارة عطف عليهم.  
وقرأ الحسن، وبجاهد، وطلمة بن مصرف: وقودها بضم الواو؛ وقرأ عبيد بن عمير: وقيدھا الناس.  
قال الكسائي والأخفش: والوقود بفتح الواو: الحطب، وبالضم الفعل؛ يقال: وقدت النار قد  
وقودا بالضم ووقدا ووقدة ووقدنا أي توقدت؛ وأقصدنا أنا واستوقدتها أيضا، والاحتداد مثل التوقد،  
والموضع موقد، مثل مجلس، والنار موقدة؛ والوقدة: شدة الحر، وهي عشرة أيام أو نصف شهر.  
قال النحاس: يجب على هذا ألا يقرأ إلا وقودها لأن المتي حطبها؛ إلا أن الأخفش قال:  
وحكى أن بعض العرب يحمل الوقود والوقد بمعنى الحطب والمصدر. قال النحاس: ونهب إلى  
أن الأزل أكثر، قال: كما أن الوضوء الماء، والوضوء المصدر.

قوله تعالى: (أُصِيبَتْ الْكَافِرِينَ). ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك؛ بدليل  
ما ذكره في غير موضع من الوعيد للفنيين والأطاحت الثابتة في الشفاعة على ما يأتي؛ وفيه دليل  
على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة؛ خلافا لبدعة في قولهم: إنها لم تخلق حتى  
الآن؛ وهو القول الذي سقط فيه القناضي منثورين سيد البلوطي الأندلسي. روى مسلم عن  
عبد الله بن مسعود قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة فقال النبي صلى الله عليه  
وسلم: "تندرون ما هنا" قال قاتل: الله ورسوله أعلم؛ قال: "هنا حميرى به في النار منذ سبعين  
سنة فما هو يهوى في النار الآن حتى انتهى إلى قمرها" وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احتجبت النار والجنة فقال هذه يحسني الجبارون والمكبرون  
وقالت هذه يحسني الضعفاء والمساكين فقال الله لهذه أنت عذابي أعذب بك من إنشاء وقال لهذه  
أنت رحمتي أرجح بك من إنشاء ولكل واحدة منكما مخلوقا" وأخرجه مسلم بفتح. يقال: احتجبت

بمعنى تحجج، للحديث المتقدم حديث ابن مسعود؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أرحمهما في صلاة الكسوف، ورأى أيضا في أمرائه ودخل الجنة؛ فلا معنى لما خالف ذلك، وبالله التوفيق .  
 و (أَعْلَتْ) ، يجوز أن يكون حالا للنازل على معنى معلة، وأضرت معه قد؛ كما قال : (أَوْجَاءُ وَكَمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) . فمعناه : قد حصرت صدورهم ، فع حصرت قد مضرة لأن الماضي لا يكون حالا إلا مع قد؛ فلهذا لا يتم الوقف على الجملة . ويجوز أن يكون كلاما مقطعا عما قبله ، كما قال : (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ) . وقال السجستاني : أعلت للكافرين من صلة التي ، كما قال في آل عمران : (وَأَتَّخُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) . ابن الأنباري : وهذا غلط لأن التي في سورة البقرة قد وصلت بقوله : (وَتَوَعَّاهَا النَّاسُ) . فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ؛ وفي آل عمران ليس لها صلة غير أعلت .

قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) . فيه ثلاث مسائل :

الأولى - لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا ، والبشير : الإخبار بما يظهر أثره على البشرة وهي ظاهر الجلد لتغيرها بأول خبر يرد عليها ؛ ثم التائب أن يستعمل في السرور مقيدا بالخير المشرى ، وفيه مفيد أيضا ؛ ولا يستعمل في التوب والشر إلا مقيدا منصوصا على الشر المشرى ؛ قال الله تعالى : (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . ويقال : بشرته وبشرته مخفف ومشدد بشارة بكسر الهمزة وبشر واستبشر ، وبشر بشر إذا فرح ، ووجه بشر إذا كان حسنا من البشارة بفتح الباء ، والبشرى : ما يعطاه المهر ، وبشائر الشيء : أوله .

الثانية - أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال من بشرني من عبيد بكذا فهو حر ، فبشر واحد من عبيده فأكثر فإن أولم يكون حرا دون الثاني واختلقوا إذا قال : من أخبرني من عبيد بكذا فهو حر فهل يكون الثاني مثل الأول ؟ فقال أصحاب الشافعي : نعم ، لأن كل واحد منهم خير وقال علماؤنا : لا ، لأن المكلف إنما قصد خيرا يكون بشارة ؛ وذلك يخص بالأول ، وهذا معلوم عرفا فوجب القول إليه . وقرئ محمد بن الحسن بن قوله : أخبرني ، وحديثي ؛ فقال : إذا قال الرجل أي غلام لي أخبرني بكذا ، أو أهلكني بكذا وكذا ، فهو حر - ولا تيسة له - فأخبره غلام له بذلك بكذب ، أو كلام ، أو رسول ؛ فإن التلام يمتنع لأن هذا خبر ، وإن أخبره بعد ذلك



غلام له عتي، لأنه قال: أي غلام أخبرني فهو حر، ولو أخبروه كلهم عتقوا؛ وإن كان عتي بالغير، كلام مشافهة لم يمتق واحد منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الغير. قال: وإذا قال أي غلام لي حدثني، فهذا على المشافهة، لا يمتق واحد منهم.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. رد على من يقول: إن الإيمان يعزده يقتضي الطاعات، لأنه لو كان ذلك ما أعادها؛ فالجنة تال بالإيمان والعمل الصالح، وتيسل: الجنة تال بالإيمان، والدرجات تستحق بالأعمال الصالحات. والله أعلم.

(أَنَّ لَكُمْ) في موضع نصب بشر، والمثنى وبشر الذين آمنوا بأن لهم، أول لأن لهم؛ فلما سقط الخلفى عمل التعليل؛ وقال الكسائي وجماعة من البصريين: أنه في موضع خفض باضمار الياء. (جَنَاتٍ) في موضع نصب اسم أن، وأن وما علمت فيه في موضع المفعول الثاني. والجنات: البساتين؛ وإنما سميت جنت لأنها تجن من فيها أي تسره بشجرها؛ ومنه: الجن والجنين والجنة. (تَجْرِي) في موضع التثنية، وهو مرفوع لأنه فعل مستقبل حذفت الضمة من الياء لقلها معها.

(مِنْ تَحْتِهَا) أي من تحت أشجارها، ولم يحرمها ذكر لأن الجنات دالة عليها.

(الْأَنْهَارُ) أي ماء الأنهار؛ فنسب الجوى إلى الأنهار توسعا، وإنما يجري الماء وحده غنفا اختصارا، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْقَى الْقَرْيَةَ﴾. أي أهلها، وقال الشاعر:

نبئت أن النار بسدك أوقدت \* وأشتب بسدك يا كليب المجلس

أراد: أهل المجلس غنفا. والتهو: مأخوذ من أنهرت أي وسعت؛ ومنه قول عيسى بن الخطيم:

ملكك بها كفى فأنهت فقها \* يرى قائم من دونها ما ورامها

أي وسعها، يصف طمعة؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه» معناه: ما وسع التبع حتى يجري الدم كالنهر؛ وجمع النهر: نهران وأنهار؛ ونهر تهو: كثير الماء؛ قال أبو ذؤيب:

أنامت به فأنبتت خيمة \* على قصب وفرات نهر

وروى : أن أنهار الجنة ليست في أخاديد ، إنما تجري على سطح الجنة منضبطة بالقدر : حيث شاء أهلها . والوقوف على الأنهار حسن وليس بتمام ، لأن قوله : **( كَمَا وَرَقُوا مِنْهَا مِنْ عُثْرَةٍ )** من وصف الجفات . .

**( رِزْقًا )** معدود ، وقد تقدم القول في الرزق . ومعنى **( مِنْ قَبْلِ )** يعنى في الدنيا ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنهم قالوا : هذا الذى وعدنا به في الدنيا . الثانى : هذا الذى رزقنا في الدنيا ؛ لأن لو أنها يشبه لون نمار الدنيا ؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيل : « من قبل » يعنى في الجنة لأشبههم يرزقون ثم يرزقون ؛ فإذا أتوا بطعام ونسار في أول النهار فأكلوها منها ، ثم أتوا منها في آخر النهار ؛ قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، يعنى أطمعنا في أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ؛ فإذا أكلوا منها وجدوا لها طمعا غير طعم الأول .

**( وَأَتُوا )** فُعلوا من أتيت ، وقراء الجماعة يضم الهزء والثاء ، وقراء هارون الأعرور : **( وَأَتُوا )** بفتح الهزء والثاء ، فالضمير في القراءة الأولى لأهل الجنة ؛ وفي الثانية للخدام . **( بِهِ مُتَشَابِهًا )** حال من الضمير في به ، أى يشبه بعضه بعضا في النظر ويختلف في الطعم . قاله ابن عباس ، وعلمه ، والحسن ، وغيرهم . وقال عكرمة : يشبه نحر الدنيا ويأينه في جل الصفات . ابن عباس : هذا على وجه التعجب ، وليس في الدنيا شيء مما في الجنة سوى الأسماء ، فكانهم تسجوا لما رأوه من حسن الثمرة ، وعظم خلقها . وقال قتادة : خيارا لأرض فيه ، كقوله تعالى : **( كَيْفًا مُتَشَابِهًا )** . وليس كثمار الدنيا التي لا تتشابه ؛ لأن فيها خيارا وغير خيار .

**( وَلَمْ يَفِئَ أَزْوَاجٌ )** . ابتداء وخبر ؛ وأزواج : جمع زوج ؛ والمرأة : زوج الرجل ؛ والرجل : زوج المرأة ، قال الأصمعي : ولا تكاد الترتيب تحول زوجة ؛ وحكى القراء أنه يقال : زوجة ، وأشد التردد :

وإن الذى يسمى ليفسد زوجتي . . كساع إلى أمد الشرى يستيها <sup>(١)</sup>  
وقال جميل بن أبيه في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : والله إنى لأعلم أنها زوجة في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم ، ذكره البخاري ، واختاره الكسائي .

(١) في اللسان مادة (زوج) : «عززش» .

(مُطَهَّرَةٌ) . نمت للأزواج؛ ومطهرة في اللغة : أجمع من طاهرة وألح؛ ومعنى «نه الطهارة من الخبث والبصاق وسائر أفتار الآدميات» ذكر عبد الرزاق قال أخبرني الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد : مطهرة ، قال : لا يلين ولا يتنوطن ولا يلدن ولا يمضن ولا يمخن ولا يصمغن . وقد أتينا على هذا كله في وصف أهل الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

(وَمِمَّنْ فِيهَا خَالِدُونَ) . هم مبتدأ؛ خالدون خبره، والظرف ملني ، يجوز في غير القرآن نصب خالدين على الحال . والخلود : البقاء؛ ومنه جنة الخلد؛ وقد تستعمل مجازاً فيما يطول ، ومنه قولهم في الدعاء : خلد الله ملكه ، أى طوله . قال زهير :

إلا لا أرى على الحوادث باقيا • ولا خالما إلا الجبال الرواسيا

وأما الذي في الآية فهو أبدي حقيقة .

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا) . قال ابن عباس في رواية أبي صالح : لما ضرب الله سبحانه هذين المثالين للناقين : يعنى (مَثَلَهُمْ كَمِثْلِ الدُّبِيِّ اسْتَوْفَدْنَا) . وقوله : (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ) ، قالوا : الله أجل وأعل من أن يضرب الأمثال ، فأنزل الله هذه الآية . وفي رواية عطاء عن ابن عباس قال : لما ذكر الله آلهة المشركين ، فقال : (وَلِإِنْ يَسْأَلُكُمْ النَّبِيُّ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ) . وذكر كيد الآلهة بفعله كيت المنكوبت ، قالوا : أرايت حيث ذكر الله المنكوبت والمنكوبت فيما أنزل من القرآن على محمد ، أى شئ يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والمنكوبت في كتابه ، وضرب للمشركين به المثل ؛ ضحك اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ؛ فأنزل الله الآية . (وَيَسْتَحْيِي) . أصله يستحي عينه ولامه حرفا علة ؛ أعلت اللام منه بأن استقلت الضمة على الياء فسكنت ؛ واسم الفاعل على هذا : مستحي ، والجمع مستحيون ومستحيين ؛ وفرا ابن محصن يستحي بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة . وروى عن أبي كثير <sup>(١)</sup> روى لغة تميم ، وبكر بن وائل ، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ؛ ثم انتقلت الضمة على الثانية فسكنت ؛ فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ واسم الفاعل مستح ؛ والجمع مستحيون .

(١) في نسخة «وروى ابن كثير» .

وسمين . قاله الجوهري : واختلف المتأولون في معنى يستحي في هذه الآية ؛ قيل : لا يخشى وزنه العبد ؛ وفي التزيل : ( وَتَحْتَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَى أَنْ تَحْشَاهُ ) بمعنى تستحي ؛ وقال غيره : لا يترك ؛ وقيل : لا يمتنع . وأصل الاستحياء : الاتقياض عن الشيء والامتناع منه خوفا من مواجهة التبع ؛ وهذا حال على الله تعالى . وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : جاءت أم سلم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحي من الحق ؛ المعنى لا يؤسر بأحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ( أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ) . معناه بين ، وأن مع الفعل في موضع نصب بتقدير حذف من . ( مَثَلًا ) ، منصوب بـ يضرب : ( بِمَوْضِعَةٍ ) . في نصبها أربعة أوجه :

الأول — تكون ما زائدة وبموضوعة بدلا من مثلا .

الثاني — تكون ما نكرة في موضع نصب على البديل من قوله : مثلا ؛ وبموضوعة نعت لما فوصفت ما بالجنس المنكر لإيهامها ؛ لأنها بمعنى قليل ؛ قاله الفراء ، والزجاج ، وتعلب .

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجازء المعنى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بين بموضوعة ؛ لحذفتين وأعربت بموضوعة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أي إلى ما فوقها وهذا قول الكسائي والفراء أيضا ؛ وأشد أبو العباس :

يا أحسن الناس قرنا إلى قدم . ولا جبال محب وأصل تصل  
أراد ما بين قرن فلما أسقط بين ، نصب .

الرابع — أن يكون يضرب بمعنى يعمل ، فتكون بموضوعة المفعول الثاني . وقرأ الضحاك ، وإبراهيم ابن أبي علي ، ورؤبة بن الصجاج : بموضوعة بالرفع وهي لغة تميم ؛ قال أبو الفتح : ووجه ذلك ، أن ما اسم بمثله الذي ، وبموضوعة رفع على إضمار للبدا ؛ التقدير : لا يستحي أن يضرب الذي هو بموضوعة مثلا ؛ خفف السائد على الموصول وهو مبتدأ ومثله قراءة بعضهم : ( تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ ) . أي على الذي هو أحسن ، وحكى سيويه : ما أنا بالذي قائل لك شيئا ؛ أي هو قائل . قال النحاس : والحذف في ما أفصح منه في الذي ، لأن الذي ، إجماله وجه واحد والاسم معه أطول . ويقال : إن معنى ضربت له مثلا ، مثلت له مثلا ؛ وهذه الألفية على ضرب واحد ، وعلى مثال

واحد، ونوع واحد؛ والضرب للتع . والبوضة : فبوضة ، من بض إذا قطع اللحم ، يقال : بضغ وبض بمعنى ، وقد بضغت تبعضاً أى جزأته فبعض ، والبموض : البق ، الواحدة بموض ، سميت بذلك لصغرها . قاله الجوهري ، وغيره .

قوله تعالى : (فَأَفْهَمُوا) . قد تقدم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل ما الأولى صلة زائدة ، فإثنية عطف عليها ، وقال الكسائي ، وأبو عبيدة ، وغيرهما : معنى فأفهمها - والله أعلم - ما دونها ، أى أنها فوقها فى الصغر . قال الكسائي : وهذا كقولك فى الكلام : أنراه قصيرا ؟ فيقول القائل : أوفوق ذلك ، أى هو أقصر مما ترى . وقال قتادة ، وابن جريج : المعنى فى الكبر ؛ والصغير فى (أنه) مانع على المثل ، أى أن المثل حق ، والحق خلاف الباطل ؛ والحق : واحد الحقوق ؛ والحقة بفتح الحاء أخص منه يقال : وهذه حقى ، أى حقى .

قوله تعالى : (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) . لغة بنى تميم وبنى عامر فى أمنا : أيا ، يدلون من إحدى المسلمين ياء كراهية التضعيف ؛ وعلى هذا ينشد بيت عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أيا إذا الشمس عارضت . فيضضجى وأيما بالمشى فيجصر

قوله تعالى : (فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا) . اختلف الصحويون فى « ماذا » ، قيل : هى بمثلة اسم واحد بمعنى أى شئ أراد الله ؛ فيكون فى موضع نصب بأراد . قال ابن كيسان : وهو الجيد . وقيل : ما ، اسم تام فى موضع رفع بالابتداء ؛ وما ، بمعنى الذى وهو خبر الابتداء ؛ ويكون التقدير : ما نرى أراده الله بهذا مثلا ، ومعنى كلامهم هذا ، الانكار بلفظ الاستفهام . ومثلا منصوب على القطع ، التقدير : أراد مثلا ؛ قاله تلمب . وقال ابن كيسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موضع الحال .

قوله تعالى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) قيل : هو من قول الكافرين ، أى ما مراد الله بهذا المثل الذى يفرق به الناس بين ضلالة وإلى هدى ؟ وقيل : بل هو خبر من الله عز وجل ، وهو أشبه ؛ لأنهم يزعمون بالهدى أنه من عنده ؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدي به كثيرا ؛ أى يوفق ويضل ، وعليه فيكون فيه رد على من تقدم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم ، فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعنى (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا) . التسمية هنا ، أى سمى ضالا ؛

كما يقال : فسدت ثلاثة ، بنى سميت فاسداً ، لأن الله تعالى لا يضل أحداً ، هذا طريقهم في الإضلال . وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل في اللغة ؛ لأنه يقال : ضلّه إذا ساء ضالاً ، ولا يقال : أضله إذا ساء ضالاً ، ولكن مناه ما ذكره المفسرون أهل التأويل من الحق أنه يضل به كثيراً من الناس مجازة للكفر . ولا خلاف أن قوله :

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) . أنه من قول الله تعالى ، والفاسيقين نصب بوقوع الفعل عليهم ، والتقدير : وما يضل به أحد إلا الفاسقين الذي سبق في علمه أنه لا يهديهم ، ولا يجوز أن نصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام . وقال توفى الكمال : قال قال عزيز فيا يابى رب عز وجل : إلهي تخلق خلقاً فضلت من تشاء ، وتهدي من تشاء ، قال قتيل : يا عزيز أعرض عن هذا ! وإلا محوتك من النبوة ، إني لا أسأل عما أضل وعم يسألون . والاضلال أصله : الملاك يقال منه : ضل المسك في اللبن ، إذا استهلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . وقد تقدم في القامحة . والفسق أصله في كلام العرب : الخروج عن الشيء ، يقال : فسقت الرطبة : إذا خرجت عن قشرها ، والقارة من جحرها ، والقويصة : القارة ، وفي الحديث : " خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الحية والقراب الأبقع والقارة والكلب المقور والمديّة " روى عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخرجه مسلم . وفي رواية " القرب " مكان الحية ، فأطلق صلى الله عليه وسلم عليها اسم الفسق لأذيتها ، على ما يأتي بيانه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . وفسق الرجل يفسق ويفسق أيضاً عن لأخفش فسقا وفسوا أي بخر . فاما قوله تعالى : ( فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ) . فمعناه خرج . وزعم ابن الأعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق . قال : وهذا عجب ، هو كلام عربي حكاه عنه ابن فارس ، والجمهور . قلت : قد ذكر أبو بكر بن الأثير في كتاب الزاهر له ما تكلم عن معنى الفسق ، قول الشاعر :

ينعن في نجد وغورا عاترا • فواسقا عن قصدم جوارا

والفسق : العاتم الفسق ؛ ويقال في النداء : يفسق ويأخيت ، يريد : ياها الفاسق ، وياها المجهت . والفسق في عرف الاستعمال الشرعي : الخروج من طاعة الله عز وجل ، قد يقع على من خرج بكفر ، وعلى من خرج بعبادته .

(١) أي بنى الثلاث من طاعة الله ومنه هذا المعنى حقيقة شرعية . (٢) مودعة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدِيَّتَيْهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْخَائِرُونَ ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدِيَّتَيْهِ ﴾ ، في موضع نصب على التثنية للفاسقين ، وإن شئت جعلته في موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف أي هم الذين ؛ وقد تقدم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ التقص : إفساد ما أبرت من بناء أو حبل أو عهد . والمناضة : ما يقص من حبل الشعر ؛ والمناضة في القول : أن تكلم بما تناقض معناه ؛ النقيضة في الشعر : ما يقص به ؛ والتقص : المقص . واختلف الناس في تعيين هذا العهد ؛ ف قيل : هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه ، وأمره إبراهيم بما أمرهم به من طاعته ، ونبيه إبراهيم عما نهاهم عنه عن معصيته في كتبه على السنة رسله ؛ وتقضهم ذلك ، ترك العمل به . وقيل : بل نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض ، وسائر الصنعة ، هو بمنزلة العهد ؛ وتقضهم ترك النظر في ذلك . وقيل : هو ما عهده إلى من أوتي الكتاب أن يبنوا نبوة محمد عليه السلام ، ولا يكتفوا أمره . فالآية على هذا في أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج : عهده جل وعز ، ما أخذه على النبيين ومن اتبعهم ألا يكفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ودليل ذلك : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴾ أي عهدي .

قلت : وظاهر ما قبل وما بعد يدل على أنها في الكفار ؛ فهذه خمسة أقوال ؛ والقول الثاني يجمعها .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَدِيَّتَيْهِ ﴾ الميثاق : العهد المؤكد باليمين ، مفعول من الوثاق والمعاهدة ، وهي الشقة في العقد والربط ونحوه ، والجمع المواثيق على الأصل لأن أصل ميثاق موناق ، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها ؛ والميثاق والميثاق أيضا ؛ وأشد ابن الأعرابي :  
جئ لا يحمل البحر إلا بإذنتنا \* ولا نسل الأنعام عهد الميثاق<sup>(١)</sup>

والموثق : الميثاق . والمواثقة : المعاهدة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّيْ وَاتَّحَمَ بِهِ ﴾ .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَيَقْطَعُونَ ) . القطع معروف ، والمصدر - في الرحم - القطعية ؛ يقال : قطع رحمه قطيعة فهو رجل قطع ، وقُطِعَ مثل حمزة ، وقطعت الحبل قطعا ، وقطعت الزهر قطوعا ، وقطعت الطير قُطوعا وقُطاعا إذا خرجت من بلد إلى بلد ، وأصاب الناس قطعة إذا قُلت مباحهم ، ورجل به قطع أي انهيار .

الخامسة - قوله : ( مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ) . ما ، في موضع نصب بيقطعون ، وإن ، إن شئت كانت بدلا من ما ، وإن شئت من الهاء في به وهو أحسن ؛ ويجوز أن يكون لتلا يوصل ، أي كراهة أن يوصل . واختلف ، ما الشيء الذي أمر يوصله ؟ فقيل : صلة الأرحام ؛ وقيل : أمر أن يوصل القول بالمثل ؛ فقلعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا ؛ وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ، فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم ؛ وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته في الأرض ، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده ، فهي عامة في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل ؛ هذا قول الجمهور . والرحم جزء من هذا .

السادسة - قوله تعالى : ( وَيُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ) . أي يبيدون غير الله تعالى ، ويجورون في الأعمال ، إذ هي بحسب شهواتهم ؛ وهذا غاية الفساد .

( أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ) . ابتداء وخبر ، وهم زائدة ؛ ويجوز أن تكون هم ابتداء ثان ، الخاسرون خبره ، والثاني وخبره خبر الأول كما تقدم . والخاسر : الذي نقص نفسه حفظها من الفلاح والفوز ؛ والخسيران : نقصان كان في ميزان أو غيره ؛ قال جرير :

إِنْ سَلِطَا فِي الْخَسَارَاتِ = أَوْلَادُ قَوْمٍ خَلَقُوا آفَئَةً

يعني بالخسار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم ؛ قال الجوهري : وخسرت الشيء بالفتح وأخسرت قصته ؛ والخسار والخسارة والخسرة : الضلال والهلاك ؛ فقيل للهالك : خاسر ، لأنه خسر نفسه وأهلكه يوم القيامة ومنع مثله من الجنة .

السابعة - في هذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتمامه وكل عهد جائز الزمه المرء نفسه ، فلا يحل له نقضه ، سواء أكان بين مسلم أم غيره لثم الله تعالى من نقض عهده ؛ وقد قال :



(أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) وقد قال لنبيه عليه السلام: (وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبِئْ بِاللَّهِمَّ عَلَى سَوَاءٍ)

فناه عن القدر، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد على ما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ) الآية . كيف ، سؤال عن الحال وهي اسم في موضع نصب بكفرون، وهي مبنيّة على الفتح، وكان سبيلها أن تكون ساكنة، لأنّ فيها معنى الاستفهام الذي معناه التعجب. فأشبهت الحروف، أو اختير لها الفتح لنفسه ؛ أي هؤلاء ممن يجب أن يتعجب منهم حين كفروا وقد ثبت عليهم الحق .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لم يثبتوا أمر عهد عليه السلام ولم يصدقوه فيما جاء به ؛ فقد أشركوا لأنهم لم يقرروا بأن القرآن من عند الله ؛ ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : كيف ، لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ، أي كيف تكفرون نعمة عليكم وقدرته هذا ! قال الواسطي : وتبهم بهذا غاية التوبيخ ، لأن الموت والجلاد لا ينازع صانعه من شيء ، وإما المنازعة من المياكل الروحية .

قوله تعالى: (وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا) . هذه الواو واو الحال، وقد مضى؛ قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ، ثم حذف قد؛ وقال الفراء : أَمْوَاتًا خبر كنتم .

(فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) . هذا وقف التمام ؛ كما قال أبو حاتم . ثم قال : (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) . واختلف أهل التأويل في ترتيب هاتين الموتين والحياتين . وكن من مorte وحياة للإنسان ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أي كنتم أَمْوَاتًا معدومين قبل أن تخلقوا فأحياكم أي خلقكم ، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يُمِيتُكم يوم القيامة . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية ، وهو الذي لا عهد للكفار عنه لإجرامهم بهما ؛ وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أَمْوَاتًا معدومين ، ثم للإجاء في الدنيا ، ثم الإمامة فيها قوى عليهم لزوم الإحياة الإبراهيمية فخلعهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكمة حياة الدنيا ؛ وقيل : لم يتدبريا كما لم يتدبر موت من أمانهم في الدنيا أم آباء في الدنيا . وقيل : كنتم أَمْوَاتًا أي نطفة في ظهركم ، ثم أخرجكم من بطن أمهاتكم ، ثم يميتكم موت الدنيا ، ثم يميتكم . وقيل : كنتم أَمْوَاتًا أي نطفة في أسلاف الرجال وأرواح النساء ،

ثم قلقكم من الأرحام فأحياكم، ثم يمتك بعد هذه الحياة، ثم يحيك في القبر لليلة، ثم يمتك في القبر، ثم يحيك حياة النسر إلى الحشر؛ وهي الحياة التي ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هذا التأويل هي ثلاث موات، وثلاث إحياءات؛ وكونهم موق في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم، غير كونهم نطفة في أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ فعلى هذا يحيى أربع موات، وأربع إحياءات . وقد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالماء، ثم أماتهم، فيكون على هذا خمس موات، وخمس إحياءات، وموتة سادسة للمصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار، لحديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال - بخطاياهم فأماهم الله إماتة حتى إذا كانوا في الشفاة بغى بهم ضبائر ضابرتوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أنقضوا عليهم فينبئون نبات الجنة تكون في حبل السيل " فقال رجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية . أخرجه سلم .

قلت - فقوله : " فأماهم الله " حقيقة في الموت لأنه أكده بالمصدر وذلك تكريما لهم . وقيل : يجوز أن يكون أماتهم، عبارة عن تعذيبهم عن الآمال بالنوم، ولا يكون ذلك موعلا للحقيقة، والأول أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا، وإنما هو على الحقيقة؛ ومثله : ( وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ) . على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتا بالجنول فأحياكم، بأن ذكرتم وشرقتم بهذا الدين والنبي الذي جاءكم، ثم يمتكم فيموت ذكركم، ثم يحيك البعث .

قوله تعالى : ( ثُمَّ إِلَهُ رُجُوعُونَ ) . أى إلى عذابهم مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة كما قال تعالى : ( كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ ) . فإعادتهم كابتدائهم، فهو رجوع مو ( رُجُوعُونَ ) ، قراءة الجماعة . ويحيى بن يسر وابن أبي عمير وابن جهم وابن مجاهد وابن محبوب، يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : ( هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ) . فيه عشر مسائل :

الأولى — خلق، معناه اخترع وأوجد بعد الدم؛ وقد يقال في الإنسان : خلق عند إنشائه<sup>١</sup> شينا؛ ومنه قول الشاعر :

من كان يخلق ما يقو • ل يخلق فيه قليله

وقد تقدم هذا المعنى . وقال ابن كيسان : خلق لكم، أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما في الأرض متم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهذا هو الصحيح على ما نيتي؛ ويحوز أن يكون عني به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانية — استدل من قال : إن أصل الأشياء التي ينفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلاً ؛

كقوله : ( وَخَرَّجَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ) . الآية ، حتى يقوم الدليل على الخطر ، وعقد هذا بأن قال : إن المأكول الشبيه خلقت مع إمكان ألا يتحقق فلم يتحقق عينا ؛

فلا بد لهذا من منفعة ، وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته ، فهي

واجبة إلينا ، ومنفعة إما في نيل لنتها أو في اجتنبها لتخبر بذلك ، أو في اعتبارنا بها ، ولا يحصل

شيء من تلك الأمور إلا بدوقها ؛ فلم أن تكون مباحة وهذا قاسد ، لأننا لا نسلم لزوم البعث من

خلقها إلا لمنفعة ، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة ، بل هو الموجب ، ولا نسلم

حصار المنفعة فيما ذكره ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالدوق ، بل قد يستدل على الطعوم

بأمور أخر، كما هو معروف عند الطبائعين ؛ ثم هو معارض بما يخاف أن تتكون سموما مهلكة ،

ومعارضون بشبهات أصحاب الخطر . وتوقف آخرون وقالوا : ما من فعل لا نترك منه خصا

ولا قبا إلا ويمكن أن يكون حسنا في نفسه ؛ ولا معين قبل ورود الشرع ، فنسب الوقف إلى

ورود الشرع . وهذه الأقاويل الثلاثة للمعتلة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابه وأكثر

المالكية والصيرفي في هذه المسئلة للقول بالوقف ؛ ومعناه عندهم أن لا حكم فيها في تلك الحال ،

وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء ، وأن العقل لا يحكم بوجوب ولا بغيره ، وإنما حظه تعرف

الأمور على ما هي عليه . قال ابن عطية : وحكى ابن فورك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يخل العقل

قط من البمع ، ولا نازلة إلا وفيها سمع ، أولا تلقى به ، أولا حال تستصحب ؛ قال : فينبني أن

يعتمد على هذا ، ويقف عن النظر في خطر وإباحة ووقفه

الثالثة - الصحيح في معنى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الاعتبار . يدل عليه ما قبله وما بعده من نصب البر : الإحياء ، والإماتة ، والخلق ، والاستواء إلى السماء وتسويتها ، أى الذى قدر على إحيائكم وخلقكم وخلق السموات والأرض ، لا تجمد منه القدرة على الإعادة .

ثاني : قيل : إن معنى لكم الاستمتاع ، أى لتتصنوا بجميع ذلك ؛ قلنا : المراد بالاستمتاع الاعتبار لا كذا ؛ فإن قيل : وأى اعتبار في الصواب والخيار ؛ قلنا : قد يتذكر الإنسان بعض ما يرى من المؤذيات ما أعد الله للكفار في النار من العقوبات ، فيكون سهوا للإيمان وترك المعاصي ؛ وذلك أعظم لأعتبار . قال ابن العربي : وليس في الإختيار بهذه القدرة من هذه الجملة ما يقتضى حظرا ولا إباحة ولا وقفا ؛ وإنما جاء ذكر هذه الآية في معرض الدلالة والتنبه ليستدل بها على وحدانيته . وتال أرباب للمعاني في قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ليتقوا على طاعته ، لا لتصرفوه في وجوه مصيبته . وقال أبو عثمان : وهب لك الكل وسخره لك لتستدل به على سعة جوده ، وتسكن إلى ما ضمن لك من جزيل عطائه في للمعاد ، ولا تستكبر كثير به على قليل عطاك ، فقد ابتسطك بعظم النعم قبل السئل وهو التوحيد .

الرابعة - روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عندي شيء ، ولكن اتبع عليّ فإذا جاء شيء قضيت » فقال له عمر : هذا أعطيت لذاك عنك فما كلفك الله ما لا تقدر ؟ فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قول عمر ؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله : « اتقي ولا تخش من ذى العرش إنفلا » .

فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرف السرور في وجهه لقول الأنصاري ؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بذلك أمرت » قال معاوية رضى الله عنه : غفوت الإقلال من سوء الظن بالله ، لأن الله تعالى خلق الأرض مبتأ فيها لولد آدم ؛ وقال في تزيده : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَبْتَأً ﴾ . فهذه الأشياء مسخرة للأدنى قلما لملكوته ورحمة عليه ؛ ليكون له عبادا كما خلقه عبدا ؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَبَا أَتَقَرَّبُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلُقُهُ ﴾ .

وقال : ( فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : « سبقت رحمي غضبي يا ابن آدم أفق أفق عليك بين الله ملائمتي لا يفرضها شيء الليل والنهار » .  
 وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملئان يتلآن فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » وكذا في المساء عند الغروب يتناديان أيضا ؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن استأثر صدره ، وعلم غنى ربه وكرمه ، أفق ولم يخف الإقلال ؛ وكذلك من مات شهوته عن الدنيا ، واجترأ باليسر من القوت المقيم لمهجته ، واقطعت مشيئته لنفسه ؛ فهذا يسلى من يسره وعسره ، ولا يخاف الإقلال ، وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة في الأشياء ؛ فاذنا على اليوم وله غدا مشيئة في شيء ، خاف ألا يصيب غدا ، فيضيق عليه الأمر في نفقة اليوم لخافة الإقلال . وروى مسلم عن أسماء بنت أبي بكر قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتخفي أو أتفحى أو أفق ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك » . وروى النسائي عن عائشة قالت : دخل علي سائل مرة ، وعندي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرت له بشيء ثم دعوت به فظفرت إليه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما تريدن ألا يدخل يديك شيء ولا يخرج إلا بملك » قلت : نعم ؛ قال : « مهلا يا عائشة لا تحصى فيحصى الله عليك » .

الخامسة - قوله تعالى : ( ثُمَّ أَسْرَى ) . ثم لقرئب الإخبار لا لقرئب الأمر في نفسه . والاستواء في اللغة : الارتفاع والعلو على الشيء ؛ قال الله تعالى : ( فَإِذَا أَسْرَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ ) وقال : ( لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ) ؛ وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء فيغاه ففسرة . وقد حلق النجم الخاني فاستوى

أي ارتفع وعلا ، واستوى الشمس على رأسه ، واستوى الطير على قمة رأسه ، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات ، والناس فيها وفيها شاكلها على ثلاثة أوجه ، قال بعضهم : يقرؤها وتؤمن بها ولا تفسرها ؛ وتذهب إليه كثير من الأئمة ؛ وهذا كما روى عن مالك رحمه الله : أن رجلا سأله عن قوله تعالى : ( لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ ) . قال مالك : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ؛ فأردك رجل سوء ؛ أن يقول : وقال بعضهم : يقرؤها

ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللفظ؛ وهذا قول المشبهة - وقال بعضهم : تقرأها وتناولها ونجس  
 حملها على ظاهرها . وقال الفراء في قوله عز وجل : ( ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ) قال :  
 الاستواء في كلام العرب على وجهين ، أحدهما : أن يستوى الرجل ويتبى شابه وقوته ؛ أو يستوى  
 من اعوجاج ؛ فهذان وجهان . ووجه ثالث أن يقول : كان مقبلا على يسافني ، وإلى سواء ؛  
 على معنى أقبل إلى وعلى . فهذا معنى قوله : ( ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ) والله أعلم . قال وقد قال  
 ابن عباس : ثم استوى إلى السماء : صعد ؛ وهذا كقولك : كان قاعدا فاستوى قائما ، وكان قائما  
 فاستوى قاعدا ؛ وكل ذلك في كلام العرب جائز . وقال البيهقي أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين :  
 قوله : ( ثُمَّ أَسْتَوَى ) بمعنى أقبل صحيح لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء ، والقصد هو الإرادة ،  
 وذلك جائز في صفات الله تعالى . ولقطة ثم ، تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن ابن عباس  
 قائما أخذه عن تفسير الكلبي ، والكلبي ضعيف . وقال سفيان بن عيينة وابن كيسان في قوله :  
 ( ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ) قصد إليها أي بخلقها واختراعها ؛ فهذا قول ؛ وقيل : على دون تكيف ولا تحديد  
 واختاره الطبري . ويدكر عن أبي العالية الرياحي في هذه الآية أنه يقال : استوى بمعنى أنه ارتفع .  
 قال البيهقي : ومراده من ذلك — والله أعلم — ارتفاع أمره وهو بخلاف الماء الذي وقع منه خلق  
 السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال ابن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى  
 استولى ؛ كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق \* من خير سيف ودم مهور

قال ابن عطية : وهذا إنما يحى في قوله تعالى : ( الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ) .

قلت : قد تقدم في قول الفراء على وإلى بمعنى ؛ وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في سورة  
 الأعراف إن شاء الله تعالى . والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والقلعة .

السادسة — يظهر من هذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء ؛ وكذلك في حم السجدة ،  
 وقال في التازعات : ( أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ السَّمَاءَ بَنَاهَا ) فوصف خلقها بتم قال : ( وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ  
 دَسَّاهَا ) . فكان السماء على هذا خلقت قبل الأرض ؛ وقال تعالى : ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ ) . وهذا قول قتادة : إن السماء خلقت أولا ؛ حكاه عنه الطبري . وقال بجماهد وغيره

من المفسرين : إنه تعالى أيس الماء الذي كان عرشه عليه ، فجعله أرضاً وثار منه دخان فارفع ، فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء ، ثم قصد أمره إلى السماء فتواحد سبع سموات ، ثم دعا الأرض بعد ذلك ، وكانت إذ خلقها غير مدحوة .

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى ، وهو أن الله تعالى خلق أولاً دخان السماء ، ثم خلق الأرض ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فساوها ، ثم دعا الأرض بعد ذلك .

وما يدل على أن السنان خلق أولاً قبل الأرض ، ما رواه السدي عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ؛ وعن مرة الحملي عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في قوله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء ؛ فلما أراد أن يخلق الخلق ؛ أخرج من الماء دخاناً فارفع فوق الماء ، فسا عليه ، فسا سماء ؛ ثم أيس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتحها فجعلها سبع أرضين في يومين ، في الأحد والاثنين ؛ فجعل الأرض على حوت ، والحوت هو النون الذي ذكره تبارك وتعالى في القرآن بقوله : ﴿ نَ وَالْقَلَمِ ﴾ والحوت في الماء على صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على الصخرة ، والصخرة في البحر ؛ وهي الصخرة التي ذكر لقمان : ليست في السماء ولا في الأرض ؛ فتحرك الحوت فاضطرب ؛ فزلزلت الأرض ؛ فأرسل عليها الجبال فقزت ؛ فالجبال تفخر على الأرض وذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ وخلق الجبال فيها ، وأقوات أهلها وشجرها ، وما ينبغي لها في يومين ، في الثناء والأربعاء ، وذلك حين يقول : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ قُرُونٌ يَأْتِي خَلْقَ الْأَرْضِ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَتْدَاناً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ تَحْتِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾ . يقول : من سأل فهكذا الأمر ؛ ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ وكان ذلك السنان من نفس الماء حين تنفس ؛ فجعلها سماء واحدة ، ثم فتحها فجعلها سبع سموات في يومين ، في الخميس والجمعة ؛ وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ، ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار والجبال البرية وما لا يعلم ؛ ثم زين السماء الدنيا بالكواكب ، فجعلها زينة وحفظاً تحفظ من

الشياطين؛ فلما فرغ من خلق ما أحب؛ استوى على العرش؛ قال: فذلك حين يقول: ﴿سَلَّمَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقول: ﴿كَانَتْ رَتْقًا مَتَّصَةً﴾ وذكر القصة في خلق آدم عليه السلام، على ما يأتي بيانه في هذه السورة إن شاء الله تعالى .

وروى وكيع عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: إن أول ما خلق الله عز وجل من شيء، أقلم قال له: أكتب فقال: يارب وما أكتب قال: أكتب القدر بقري بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة؛ قال: ثم خلق النون فدحا الأرض عليها فارتفع بخار الماء فخلق منه السموات واضطرب النون فادت الأرض فأنبت بالجمال فان الجبال فأنشجر على الأرض إلى يوم القيامة . ففى هذه الرواية، خلق الأرض قبل ارتفاع بخار الماء الذى هو الدخان؛ خلاف الرواية الأولى. والرواية الأولى عنه وعن غيره أولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَدَلًا ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ والله أعلم بما فعل؛ فقد اختلفت فيه الأقاويل وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار: أن إبليس تنفلت إلى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها، فأتى في قلبه، فقال: هل تدري ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر والنبات والناس والجمال؟ لو قضيتهم أقيمتهم عن ظهرك أجمع، قال: نعم لوثيا بفعل ذلك؛ فبعث الله دابة فدخلت في منخره؛ فخرج إلى الله منها فخرجت؛ قال كعب: والذي نفسى بيده إنه لينظر إليها بين يديه وتنتظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعة — أصل خلق الأشياء كلها من الماء لما رواه ابن ماجة في سننه، وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده عن أبي هريرة، قال قلت: يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عيني، أتبتى عن كل شيء؟ قال: «كل شيء خلق من الماء» قلت: أخبرت عن شيء إذا عملت به دخلت الجنة؛ قال: «أطعم الطعام وأفشى السلام وصل الأرحام وفرم العليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام» قال أبو حاتم قول أبي هريرة: أتبتى عن كل شيء، أراد به عن كل شيء خلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال: «كل شيء خلق من الماء» وإن لم يكن مخلوقا . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أول شيء خلقه الله أقلم وأمره فكعب كل شيء يكون» . وروى



ذلك أيضا عن عبادة بن الصامت مرفوعا . قال البيهقي : وإنما أراد الله وأله أعلم — أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش ، القلم ، وذلك بين في حديث عمران بن حصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الزقاني عن عمر بن حبيب المكي عن حيد بن نيس الأعرج عن طاوس قال : جاء رسل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله ، هم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ؛ قال الرجل : فم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدري ؛ قال : ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله ، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، قال : فأتى الرجل عبد الله بن عباس فسأله فقال : هم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ؛ قال الرجل : فم خلق هؤلاء ؟ فلا عبد الله بن عباس : ﴿ وَخَرَجْنَا مِنْ الْأَرْضِ جَمِيعًا مَنُةً ﴾ فقال الرجل : ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه ، أي من خلقه وإبداعه واستراعه . خلق الماء أولا ، أو الماء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جمعه أصلا لما خلق بعد ؛ فهو المبدع وهو الباري لا إله غيره ولا خالق سواه ، سبحانه جل وعز .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ . ذكر تعالى أن السموات سبع ، ولم يأت للأرض في التثنية عند صريح لا يجتنب التأويل إلا قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ وقد اختلف فيه ؛ فقيل : ومن الأرض مثلهن أي في العدد لأن الكيفية والصفة غنطة بالمشاهدة والأخبار ؛ فحين العدد . وقيل : ومن الأرض مثلهن أي في غلظتهن وما بينهما . وقيل : هي سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض ؛ قاله النابودي . والصحيح الأول ؛ وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أخذ شيئا من الأرض ظلما طوقه إلى سبع أرضين » وعن عائشة رضي الله عنها مثله إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبي هريرة : « لا يأخذ أحد شيئا من الأرض ينير حقه إلا طوقه الله إلى سبع أرضين [ يوم القيامة<sup>(١)</sup> ] » . وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال موسى عليه السلام يا رب علني شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إله إلا الله

قال موسى يارب كل عبادك يقول هذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئاً  
تخصني به قال يا موسى لو أن السموات السبع واطهرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله  
إلا الله في كفة مالت بين لا إله إلا الله « وروى الترمذی عن أبي هريرة قال : بينما نبي الله صلى الله  
عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم صحاب ؛ فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون  
ما هذا » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « هذا المنان هذه الروايا الأرض يسوقها الله الى قوم  
لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال :  
« فإني الرقيم سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال : « هل تدرون ما بينكم وبينها » قالوا :  
الله ورسوله أعلم ؛ قال : « بينكم وبينها خمسمائة عام » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك »  
قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « سماءين بعد ما بينهما خمسمائة سنة » ثم قال كذلك حتى مدّ سبع  
سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض ؛ ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك » قالوا : الله  
ورسوله أعلم ؛ قال : « إن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين » ثم قال : « هل  
تدرون ما الذي تحتم » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « إنها الأرض » ثم قال : « هل تدرون  
ما تحتم ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « إن تحتم أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة »  
حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ؛ ثم قال : « والذي نفس محمد بيده  
لو أنكم دليتم بجمل الى الأرض السفلى لبط على الله » ثم تراء : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ  
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ؛ قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية  
تدل على أنه أراد لبط على علم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه  
في كتابه ؛ قال هذا حديث غريب ، والحسن لم يسمع من أبي هريرة ؛ والآثار أن الأرضين سبع  
كثيرة ؛ وفيها ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضحا - واسمه مسلم - عن ابن عباس أنه قال :  
﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : سبع أرضين في كل أرض نبي كنيكم ،  
وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقي : إسناده هذا عن ابن عباس  
صحيح ، وهو شاهد بجملة لا أعلم لأبي الضحا عليه دليلة ؛ والله أعلم .

البقرة - قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . ابتداء وخبر؛ ماء، في موضع نصب ، (جميعاً) . عند سيو به نصب على الحال . (ثُمَّ اسْتَوَى) . أهل نجد يملون ليدلوا على أنه من ذوات الباء؛ وأهل الجواز يغمضون . (سَجَّ) . منصوب على البدل من الماء واليابس . أى فسّى سجع سموات ، ويعجز أن يكون مفعولاً على تقدير يسوى بينهما سجع سموات ؛ كما قال الله جل وعز : ﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ أى من قومه ؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : انتصب على الحال . (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) . ابتداء وخبر ، والأصل في هو تحريك الماء ، والإسكان استغفاف . والياء تكون واحدة مؤنثة ؛ مثل : عان ، وتذكيرها شاذ ؛ وتكون جمعا لمباواة في قول الأخفش ، وسماة في قول الزجاج ، وجمع الجمع سموات وسماعات ؛ بغاء سواهن إما على أن الياء جمع وإما على أنها مفرد اسم جنس . وسنى سواهن سوى سطوحهن بالإملاص ؛ وقيل : جعلهن سواء .

الباشرة - قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . أى بما خلق ، وهو خالق كل شيء ؛ فوجب أن يكون علماً بكل شيء ؛ وقد قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ فهو العالم والطيم بجميع المعلومات يعلم قديم أزلي واحد قائم بذاته ؛ ووافقتا المعتزلة على العالمية دون العلية . وقالت الجهمية : عالم يعلم قائم لا في محل تعالى الله عن قول أهل الزيغ والضلال ؛ والرد على هؤلاء في كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال : ﴿ أَنزَلْنَاهُ فِيهِ وَالْمَلَائِكَةَ يُسَبِّحُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ نَاعْلَمُوكُمْ أَنَّا أَنزَلْنَاهُ فِيهِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَلَقَّحْنَاهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَا تَحِثُّ مِنْ أَشْيٍ وَلَا تَفْعُ إِلَّا بِأَمْرِهِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَبَعَثْنَا مَقَابِلَ النَّبِيِّ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية ؛ واستدل على ثبوت علمه وسائر صفاته في هذه السورة عند قوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ إن شاء الله تعالى .

وقرأ الكسائي وقانون عن نافع بإسكان الماء من هو ، وهي ، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو همزة ، وكذلك نزل أبو عمرو لإدخال همزة ، وزاد أبو عون عن الحلواني عن قانون إسكان الماء من (أَنْ يُعْلَمَ) هو ، والهمزة بالتحريك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . فيه سبع عشرة مسطرة :  
 الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ ، إذ وإذا حرفا توقيت ، فإذا الثاني ، وإذا السطيل ، وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقال المبرد : إذا جاء إذ مع مستقبل كان

معناه ما ضياء نحو قوله : ( وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ) ( وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْتَمُ اللَّهُ عَلَيْهِ ) معناه إذ مكروا ،  
 وإذ قلت ؛ وإذا جاء إذ مع الماضي كان معناه مستقبلا كقوله تعالى : ( فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ )  
 ( فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ) و ( إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ) . وقال معمر بن النخعي أبو عبيدة : إذ  
 زائدة والتقدير : وقال ربك ؛ واستشهد بقوله الأسود بن يزر :  
 فإذا وفلك لا مهابه لتصكره . والدمر يعقب صالحا لفساد

وأكثر هذا القول الزجاج والنحاس وجع المفسرين . قال النحاس : وهنا خطأ لأن إذ اسم  
 وهي ظرف زمان ليس مما تراد ؛ وقال الزجاج : هنا اجترام من أبي عبيدة . ذكره الله عز وجل  
 خلق الناس وغيرهم ؛ فالتقدير وإبتداء خلقكم إذ قال فكان هذا من المحذوف الذي دل عليه  
 الكلام ؛ كما قال :

فإن النية من يمشيها . فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب ؛ ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدر تقديره وإذا قال ؛ وقيل : هو  
 مردود إلى قوله تعالى : ( اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ) فأنتم الذي خلقكم إذ قال ربك لللائكة ،  
 وقول الله تعالى وخطابه لللائكة متجوز قديم في الأزل بشرط وجودهم وفهمهم ؛ وعكنا الباب كله  
 زعماء الله تعالى ونواحيه ومخاطباته ؛ وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ؛ وهو الذي  
 ارتضاه أبو المعالي . وقد أثبتنا عليه في كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلي .  
 والرب : المالك والسيد والمصلح والمجاور ؛ وقد تقدم بيانه .

الثانية - قوله تعالى : ( لِلْمَلَائِكَةِ ) . الملائكة واحدها ملك ؛ قال ابن كيسان وفيه :  
 وزن ملك فصل من الملك ؛ وقال أبو عبيدة : هو مقفل من لال إذا أرسل ، والألوكه والملائكة  
 والملائكة : الرسالة ؛ قال ليد :

وفلام أرسلته أمه . بالوك فينكأ ما سال

وقال آخر :

أبلغ التماس عن مالكا . إنه قد طال حسبي واستطاري

ويقال : ألكنى أى أرسلنى ؛ فأصله على هذا مالك ، الممزة فاء الفعل تأنيدهم قلبوها إلى عينه فقالوا : ملاك : ثم سهلوه فقالوا : ملك . وقيل : أصله ملاك من ملك ملك ، نحو شمال من شمل ، فالممزة زائدة عن ابن كيسان أيضاً ؛ وقد تأتى فى الشعر على الأصل ؛ قال الشاعر :

قلبت لآنى ولكن لملاك • تتل من جز السماء يصوب

وقال النضر بن شميل : لا اشتقاق للآك عند العرب . والماء فى الملائكة : كيد لتأنيث الجمع ؛ وشبه الصلادة والصلادم : تحليل الشداد ، واحدها صلدم . وتقول : هى لبالفة ، كملامة ونسابة . وقال أرباب المعاني : خاطب الله الملائكة لا للشورة ولكن لاستخراج ما فهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتفديس ، ثم ردهم إلى قيمتهم ؛ فقال عز وجل : ( اتَّخِذُوا لَكُمْ ) .

الثالثة - قوله تعالى : ( إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ) . جاعل هنا بمعنى خالق ، ذكره الطبري عن أبى زروق ، ويقضى ذلك تمديداً إلى مفعول واحد وقد تقدم . والأرض ، قيل : إنها مكة . روى ابن سابط عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " دجيت الأرض من مكة " ولذلك سميت أم القرى ؛ قال : ولغير نوح وهود وصالح وشعب بين زمزم والركن والمقام . وخليفة ، يكون بمعنى فاعل أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض ، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما روى ؛ ويجوز أن يكون خليفة بمعنى مفعول أى خلف ؛ كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة ؛ والخلف بالتحريك من الصالحين ، وبسبكها من الطالحين ، هذا هو المعروف وسأيت له مزيد بيان فى الأعراف إن شاء الله . وخليفة بالفاء ، قراءة الجماعة إلا ما روى عن زيد بن على فإنه قرأ خليفة بالفتحة ؛ والمعنى بالخليفة هنا فى قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التاويل آدم عليه السلام ؛ وهو خليفة الله فى إنشائه أحكامه وأوامره لأنه أول رسول إلى الأرض ؛ كما فى حديث أبى ذر قال : قلت يا رسول الله أنبأ كان مرسلأ ؟ قال : " نعم " الحنيت . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده وكانوا أربعين ولدا فى عشرين طنا فى من بطن ذكر واتنى ، وتوالدهوا حتى كثروا ؛ كما قال الله تعالى : ( خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيهِمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ) . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم وتسلم الخمر ؛ وعاش تسعة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة ، وروى عن وهب بن منبة أنه عاش ألف سنة والله أعلم .

الراسية - هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة ، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روى عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومنعجه ، قال : إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك ، وإن الأمة متى أقاموا مجهم وجهلهم ، وتماصفوا فيما بينهم ، وبنوا الحق من أنفسهم ، وقسموا الثنم والقي ، والصدقات على أهلها ، فأقاموا الحدود على من وجبت عليه ، أبرأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك . ودليلنا قول الله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) . وقوله تعالى : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) . وقال : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ اسْتَوَيْنَاكُمْ وَاعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَدِّلَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) أي يحصل منهم خلفاء . إلى غير ذلك من الآي . وأجمت الصحابة على تحديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقفة بني ساعدة في الصين حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فذهبهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العسر لا تلين إلا لهذا الحق من قريش ، ورووا لهم الخبر في ذلك ، فرجسوا وأطاعوا قريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم لما ساعدت هذه المناظرة والمجادلة عليها وقال قائل : إنها ليست بواجبة لأن قريش ولا في غيرهم لما تنازعكم وجه ولا فائدة في أمر ليس بواجب . ثم إن الصديق رضي الله عنه لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر في الإمامة ، ولم يقل له أحد : هذا أمر غير واجب عليك ولا عليك ، فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا وإن السمع إنما ورد على جهة التأكيد لتفضية العقل ، فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرك من جهة السمع دون العقل . وهذا قاسد ، لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يقيح ولا يحسن : وإذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل روي الخامسة : إنما سلم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، فبعد ذلك هل يجب من جهة السمع على الإمام من جهة الرسول حتى لا يخطئ عليه وسلم ، أم من جهة اختيار أهل الحل والعقد له ، أم بكل خصال الأئمة فيه وديانته مع ذلك إلى بقية كآف فيه ؟

فالجواب أن يقال : اختلف الناس في هذا الباب ، فنعت الإمامة وغيرها إلى أن الطريق الذي يعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه . وعندنا النظر طريقتين إلى معرفة الإمام ؛ وإجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بنوه على أصلهم ، أن القياس والرأي والاجتهاد باطل لا يعرف به شيء أصلا ، وأبطالوا القياس أصلا وفرغوا ؛ ثم اختلفوا على ثلاث فرق ؛ فرقة تدعى النص على أبي بكر ، وفرقة تدعى النص على العباس ، وفرقة تدعى النص على علي بن أبي طالب رضى الله عنهم ؛ والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه ، هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعة إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعل ذلك لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله في غير معين ، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ؛ وإذا وجب العلم به لم يخل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلة العقول أو الخبر ، وليس في العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معين ، وكذلك ليس في الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معين ؛ لأن ذلك الخبر ، إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورة أو استدلالا ، أو يكون من أخبار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورة أو دلالة ، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلف يحد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لتلك المعين وأن ذلك من دين الله عليه ، كما أن كل مكلف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات ، وصوم رمضان ، وحج البيت ونحوها ؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة ؛ فبطلت هذه الدعوى ، وبطل أن يكون معلوما بخبر الآحاد لاستحالة وقوع العلم به ؛ وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى قول النص على الإمام بأي وجه كان وجب إثبات إمامة أبي بكر والعباس ؛ لأن لكل واحد منهما قوما يقولون النص صريحا في إمامته . وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص في وقت واحد على ما يأتي بيانه ، كذلك الواحد إذ ليس أحد الفرق أولى بالنص من الآخر ؛ وإذا بطل ثبوت النص لعلم الطريق الموصل إليه تحت الاختيار والاجتهاد ؛ فإن تصف متصف ، وادعى التواتر والعلم الضروري بالنص فيبقى أبى قائلوا على التواتر بغير نص دعواهم في النص على أبي بكر وأخبار في ذلك كثيرة تقوم أيضا من حيثها مقام النص ، ثم لا يشك في تصميم من عند الإمامية على تعيين النص ؛ وهم الخلق الكثير والجمع الغفير ؛ والعلم الضروري

لا يجمع على فيه من يخط عن معشار أعداد مخالفي الإمامية ؛ ولو جازر ذو الضروي في ذلك لماز  
أن ينكر طائفة بغداد والصين الأقصى وغيرها .

السابعة - في رد الأحدث التي احتج به الإمامية في النص على علي رضي الله عنه ، وأن الأمة  
كفرت بهذا النص وارتكت ، وخالفت أمر الرسول عتدا ؛ منها : قوله عليه السلام : " من كنت  
مولاه فلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " قالوا : والمولى في اللغة بمعنى أولي ؛ فلما قال :  
" فلي مولاه " بهاء التعقيب علم أن المراد بقوله مولى أنه أحق وأولى ؛ فوجب أن يكون أراد بذلك  
الإمامة وأنه مقرض الطاعة ؛ وقوله عليه السلام لعل : " أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه  
لا نبي بعدي " قالوا : ومنزلة هارون معروفة ، وهو أنه كان مشارك له في النبوة ولم يكن ذلك لعل  
وكان أخاه ولم يكن ذلك لعل ، وكان خليفة ؛ فلم أن المراد به الخلافة إلى غير ذلك مما احتجوا به  
على ما يأتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

والجواب عن الحديث الأول : أنه ليس بمتواتر ؛ وقد اختلف في صحته ، وقد طعن فيه أبو داود  
السجستاني وأبو حاتم الرازي واستدلوا على بطلانه بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " منزلة وجهية  
وغفار وأسلم موالى دون الناس كلهم ليس لهم مولى دون الله ورسوله " قالوا : فلو كان قد قال :  
" من كنت مولاه فلي مولاه " لكان أحد الخبرين كذبا .

جواب ثان - وهو أن الخبر وإن كان صحيحا رواه ثقة عن ثقة فليس فيه ما يدل على إمامته ،  
وإنما يدل على فضيلته ، وذلك أن المولى بمعنى الولي ، فيكون معنى الخبر من كنت وليه فعلى وليه ،  
قال الله تعالى : ( فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ) أي وليه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهره  
على كباطه ، وذلك فضيلة عظيمة لعل .

جواب ثالث - وهو أن هذا الخبر ورد على سبب ، وذلك أن أسامة وعلياً أختصما ، فقال  
علي لأسامة : أنت مولائي ، فقال : لست بمولاك ، بل أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
فذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : من كنت مولاه فلي مولاه .

جواب رابع - وهو أن علياً عليه السلام لما قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الإفك  
في عائشة رضي الله عنها : النساء سواها كبير ، شن ذلك عليها ، فوجد أهل الفتاوى جمالا فطشوا



عليه وأظهروا البراءة منه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا المقاتل رقا لقولهم، وتكتبنا لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطمع فيه؛ ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يفتضهم ليل عليه السلام. وأما الحديث الثاني فلا خلاف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد بمقتلة هارون من موسى الخليفة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام على ما يأتي من بيان وفاتهما في سورة المائدة؛ وما كان خليفة بعده وإنما كان خليفة يوشع بن نون؛ فلما أراد بقوله: «أنت مني بمقتلة هارون من موسى» الخلافة؛ فقال: أنت مني بمقتلة يوشع من موسى، فلما لم يقل هذا دل على أنه لم يرد هذا؛ وإنما أراد أني استخلفتك على أهل في حياتي وغيوبتي عن أهل؛ كما كان هارون خليفة موسى على قومه لما نرج إلى متجاة به. وقد قيل إن هذا الحديث نرج على سبب، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نرج إلى غزوة تبوك استخلف عليا عليه السلام في المدينة على أهله وقومه، فأرجف أهل التفاق وقالوا: إنما خلفه بغضا وقيل له، نخرج على ظعن بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال له: إن المنافقين قالوا كذا وكذا، فقال: «كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون» وقال: «أما ترضى أن تكون مني بمقتلة هارون من موسى» وإذا ثبت أنه أراد الاستخلاف على زعمهم فقد شارك عليا في هذه التفضيلة غيره لأن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف في كل غزاة غزاهما رجلا من أصحابه، منهم: آبن أم مكتوم، ومحمد بن مسلمة وغيرهما من أصحابه، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبي وقاص وهو خبر واحد. وروى في مقابلته لأبي بكر وعمر ما هو أولى منه، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له: ألا تنفذ أبا بكر وعمر، فقال: «إنهما لا غنى بي عنهما إني مثلتهما من الرأس بمقتلة السمح والبصر» وقال: «ها ويزري في أهل الأرض». وروى عنه عليه السلام أنه قال: «أبو بكر وعمر بمقتلة هارون من موسى» وهذا الخبر ورد ابتداء، وخبر على ورد على سبب، فوجب أن يكون أبو بكر أولى منه بالإمامة والله أعلم.

السابعة: واختلف فيما يكون به الإمام؛ فثلاث طرق، أخذها النص وقد تقدم اختلاف فيه؛ وقال به أيضا الحنابلة؛ وجماعة من أصحاب الحديث، والحنس البصري؛ وأبو بكر بن

أخت عبد الواحد وأصحابه، وطائفة من الخوارج؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على أبي بكر بالإشارة؛ وأبو بكر على عمر؛ فأنما نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصديق، أو على جماعة كما فعل عمر؛ وهو الطريق الثاني ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضي الله عنهم. الطريق الثالث: إجماع أهل الحل والعقد؛ وذلك أن الجماعة في مصر من أصحاب المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا استخلف، فأقام أهل ذلك المصير الذي هو حضرة الإمام وموضعه إماماً لأقربهم اجتمعوا عليه ورضوه فإن كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم السخول في طاعة ذلك الإمام؛ إن لم يكن معاً بالحق والفساد؛ لأنها دعوة محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحداً التخطف عنها لما في إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات الدين؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث لا يثقل عليهن قلب مؤمن إخلاص العمل لله ولزوم الجماعة ومناصرة ولاية الأمر فإن دعوة المسلمين من ورثهم محيطة».

الثامنة - فإن عقدوا واحد من أهل الحل والعقد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله خلافاً لبعض الناس حيث قال: لا تسعد إلا بجماعة من أهل الحل والعقد؛ وذلك أن عمر رضي الله عنه عقد البيعة لأبي بكر ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك؛ ولأنه عقد فوجب ألا يفترق إلى عدد يقدره كسائر العقود، قال الإمام أبو المصالي: من انتقلت له الإمامة بقصد واحد فقد لزمت ولا يجوز خلف من غير حدث وتبرأ منه؛ قال: وهذا مجمع عليه.

التاسعة - فإن قلب من له أهلية الإمامة وأخذها بالقهر والنبذة فقد قيل إن ذلك يكون طريقاً راسماً وقد سئل سهل بن عبد الله التستري: ما يجب علينا من غلب على بلادنا وهو إمام؟ قال: تبعه ووثق إليه ما يطالبك من حقه، ولا تنكر فضاله ولا تفر منه، وإن اختلفت على سر من أمر الدين لم تنفسه. وقال ابن خزيمة: ولو ثبت على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وإجماع له الناس تمت له البيعة، والله أعلم.

المستشرقين - واختلف في الشهادة على عقد الإمامة؛ فقال بعض أصحابنا: إنه لا يفترق إلى الشهود لأن الشهادة لا يثبت إلا بإجماع قاطع، وليس ههنا سبع قاطع يدل على إبطال الشهادة.

ومنها من قال : يغتفر إلى شهود؛ فن قال بهذا احتجاج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدى إلى أن يدعى كل مدعى أنه عقد له سرا ، ويؤدى إلى المرج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معينة ويكنى فيها شاهدان خلافا للجائى حيث قال باعتبار أربعة شهود وعقده ومعقوده ؛ لأن عمر حيث جعلها شورى في سنة دل على ذلك . ودليلا أنه لا خلاف بيننا وبينه أن شهادة الاثنين معتبرة وما زاد غنط في ولم يدل عليه الدليل فيجب ألا يعتبر .

الحاذية عشرة - في شرائط الإمام وهي أحد عشر :

الأول - أن يكون من صميم قريش لقوله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » وقد اختلف في هذا .

الثاني - أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاء المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث ، وهذا متفق عليه .

الثالث - أن يكون ذا خبرة ورأى حصيل بأمر الحرب وتدير الجيوش وسد الثغور وحماية البيضة وردع الأمة والانتقام من الظالم والأخذ بالظلم .

الرابع - أن يكون ممن لا تلحقه رقة في إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأنهار ، والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهم لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بد من أن يكون ذلك كله جمعا فيه ، ولأنه هو الذى يولى القضاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحص أمور خلقه وقضاة ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالما بذلك كله قيا به . والله أعلم .

الخامس - أن يكون جرا ، ولا خفاء بشرائط حرية الإمام وإسلامه وهو السادس .

السادس - أن يكون ذكرا ، سلم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما وإن اختلفوا في جواز كونها قاضية فيما يجوز شهادتها فيه .

السابع والباشر - أن يكون بالنا عاقلا ، ولا خلاف في ذلك .

الحادى عشر - أن يكون عدلا لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق ؛

ومع أن يكون من أفضلهم في العلم ، لقوله عليه السلام : « ألتكم شيئا لكم فأبظروا » يستشفون .

وفي التريل في وصف طالوت : ( إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكَ وَزَادَهُ قَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسَمِ ) . فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدل على القوة وسلامة الأعضاء ، وقرئله : ( اصْطَفَاهُ ) . معناه اختاره وهذا يدل على شرط النسب ؛ وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ ، ولا عالما بالنسب ، ولا أفرس الأمة ولا أنجبهم ، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش ؛ لأن الإجماع قد انمقد على إمامة أبي بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة - يجوز نصب المفضل مع وجود للفاضل خوف الفتنة واللا يستقيم أمر الأمة ؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسد الخلل واستخراج الحقوق وإقامة الحدود وحماية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها ؛ فإذا خيف بإقامة الأفضل المخرج والفساد وتعطيل الأمور التي لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عدوا ظاهرا في العدول عن التفاضل إلى المفضل ؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشورى بأن السنة فيهم فاضل ومفضل وقد أجاز المقد لكل واحد منهم إذا أدى المصلحة إلى ذلك واجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم ؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة - الإمام إذا نصب ثم فسق بعد انبرام المقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر في أمورهم إلى غير ذلك مما تضمن ذكره ؛ وما فيه من الفسق يفعله عن القيام بهذه الأمور والتهوض فيها ؛ فلو جوزنا أن يكون فاسقا أدى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى في الاستبداد إنما يميز أن يفقد للفاسق لأجل أنه يؤدي إلى إبطال ما أقيم له وكذلك هنا مثله . وقال آخرون : لا يخلع إلا بالكفر أو بترك الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شيء من الشريعة ؛ لقوله عليه السلام في حديث عبادة : « وألا تنازع الأمر أهله [قال] إلا أن زواكفرا بآماننا عندكم من الله فيه برهان » وفي حديث عوف بن مالك : « ولا ما أقاموا فيكم الصلاة » الحديث أخرجهما مسلم . ومن أم سلة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنه يستعمل عليكم

أمراء فتمنون ويتكرون فمن صكره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من وضى وتابع « قالوا : يا رسول الله ألا قاتلهم؟ قال : « لا ما صلوا » أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه ، أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد في نفسه نقصا يؤثر في الإمامة ، فأما إذا لم يجد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره؟ اختلف الناس فيه ، فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تنفع إمامته ، ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك ، والدليل على أن الإمام إذا عزل نفسه انزل قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : أقبلوني أقبِلُونِي ، وقول الصحابة : لا تقبلك ولا تستقبلك ، قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا فن ذا يؤخرنا ! رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا أفلا نرضاك ! فلم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه وقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله ، فلما أخرته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك ولأن الإمام ناظر للنسب<sup>(١)</sup> فيجب أن يكون حكمة حكم الحاكم ، والوكيل إذا عزل نفسه فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ولما اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من تاب عن ضربه في شيء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا انتقلت الإمامة بإتفاق أهل الحل والعقد أو بواحد على ما تقدم وجب على الناس كافة مهابته على السمع والطاعة وإقامة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن تأبى من البيعة لمذعرذر ، ومن تأبى بغير عذر جبر وفهر للإلتفات كلمة المسلمين ، وإذا بويع خليفتين فالخليفة الأول وقتل الآخر ، واختلف في قتله هل هو محسوس ، أو معنى فيكون عزله قتله وموته؟ والأول أظهر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع خليفتين فاقبلا الآخر منهما » رواه أبو سعيد الخدري أخرجه مسلم . وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : « ومن بايع إماما فأطاعه صفقة يده وتمره قلبه فليطعه إن استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنقه الآخر » رواه مسلم أيضا ، ومن حديث جريرة : « فاضربوه بالسيوف كلنا من كان لنا » وهذا أجل دليل على منع إقامة إمامين ، ولأن ذلك يؤدي إلى التباين والمخالفة والشقاق ويحدث

(١) في بعض النسخ : « فليطعن »

الفن وزوال العلم ، لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك على ما يأتي  
بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعة عشرة - لو نرج خاريجي على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده ، فإن  
كان الإمام قاسقا والخارجي يظهر العدل لم ينبغي للناس أن يسرعوا إلى نصرته الخارجي حتى يقين  
إسره فيما يظهر من العدل ، أو تنفق كلمة الجماعة على خلق الأول وذلك أن كل من طلب مثل هذا  
الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

الثامنة عشرة - فاما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبه واحد فلا يجوز إجماعا لما ذكرنا .  
قال الامام أبو المكارم : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين في طرفي العالم ، ثم قالوا :  
لو اتفق عقد الإمامة لشخصين نزل ذلك منزلة تزويج وليين امرأة واحدة من زوجين من غير أن  
يشتر أحدهما بقصد الآخر ، قال : والذي عدى فيه أن عقد الإمامة لشخصين في صقع واحد  
متناقض للخلط والالتباس غير جائز وقد حصل الإجماع عليه ، فاما إذا بعد المدى وتماثل بين الإمامين  
شروع أقوى فلا احتمال في ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوز ذلك  
في إقليمين متباعدين غاية التباعد فلا تسقط حقوق الناس وأحكامهم . وذهب الكرامية إلى جواز  
نصب إمامين من غير تمثيل ولزمهم إجازة ذلك في بلد واحد وصاروا إلى أن عليا ومعاوية كانا  
إمامين ، قالوا : وإذا كانا اثنين في بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه وأضبط  
لما يليه ولما جازية تبين في عصر واحد ولم يؤذ ذلك إلى إبطال النبوة كانت الإمامة أولى ،  
ولا يؤدي ذلك إلى إبطال الإمامة ، والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منه ، نقول : « فافتلوا  
الآخر منها » ولأن الأمة عليه ، وأما معاوية فلم يدع الإمامة لنفسه وإنما ادعى ولاية الشام بتولية  
من قبله من الأئمة ، وما يدل على هذا إجماع الأمة في عصرها على أن الإمام أحدهما ، ولا قال  
أحدهما : أي إمام وعكفي إمام ، فإن قالوا : العقل لا يحيل ذلك وليس في التسامح ما يمنع منه ،  
قلنا : أقوى السمع الإجماع وقد وجد من المنع .

قوله تعالى : ( قَالُوا أَتُحِبُّونَ قِيَامًا مَن يَفْعُدُ قِيَامًا ) . قد علمنا قطعا أن الملائكة لا تعلم إلا ما أُنزلت  
ولا تنسق بالقول وذلك عام في جميع الملائكة لأن قوله : ( لَا يَسْئَلُونَهُ الْقَوْلَ ) يخرج عن جهة

للملح لم، فكيف قالوا: (أَجْمَلُ فِيهَا مَن يُقْسِدُ فِيهَا) قيل: المعنى أنهم لما سموا لفظ خليفة  
 فهو أن في بني آدم من يقسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عموما الحكم  
 على الجميع بالمعصية، فيمن ألرب تعالى أن يقيم من يقسد ومن لا يقسد فقال طهيبا لقولهم:  
 (إِنِّي أَعْلَمُ) وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه. وقيل: إن الملائكة  
 قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم السماء، وذلك لأن الأرض كانت فيها الجن قبل  
 خلق آدم فأنسدوا وسفكوا السماء فيحث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة تقتلهم وألقاهم بالجار  
 وروى الجبال، فمن حيث قد دخله المرة بقاء قولهم: (أَجْمَلُ فِيهَا) على جهة الاستفهام المحض،  
 هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟ قاله أحمد بن يحيى ثلب. وقال ابن زيد  
 وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يصلون في الأرض ويسكنون  
 السماء، فقالوا لذلك هذه المقالة إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يصيه أو من عصيان  
 الله من يبدل خلقه في أرضه وينتم طية بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبر للقبولين جميعا،  
 الاستخلاف والعصيان. وقال قتادة: كان الله أعلمهم أنه إذا جعل في الأرض خلقا أنسدوا  
 وسفكوا السماء فقالوا حين قال: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) أحوال الذي أعلمهم أم غيره؟ وهذا  
 قول حسن، ورواه عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: (أَجْمَلُ فِيهَا مَن يُقْسِدُ فِيهَا)  
 قال: كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أنسدوا فيها وسفكوا السماء فذلك قالوا:  
 (أَجْمَلُ فِيهَا مَن يُقْسِدُ فِيهَا) وفي الكلام حذف على مذهبه، والمعنى إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً  
 فيصل كذا ويصل كذا، فقالوا: أجمل فيها الذي أعلمته أم غيره؟ والقول الآخر أيضا حسن  
 جدا لأن فيه استخراج العلم واستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء، وما يرون  
 القولين حسن فأنمله. وقد قيل: إن الله تعالى للملائكة بقوله: «كَيْفَ تَرْكِبُ عِبَادِي» على  
 ما ثبت في صحيح مسلم وغيره إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال: (أَجْمَلُ فِيهَا) وإظهار لما سبق  
 في مملوه إذ قال لهم: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ).

قوله : ( مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا ) . من ، في موضع نصب على المفعول بمجمل والمفعول الثاني يقوم مقامه فيها . يفسد على اللفظ ، ويمحور في غير القرآن يفسدون على المعنى ، وفي الترتيل : ( وَيَسْمَعُ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ ) على اللفظ ، ( وَيَسْمَعُ مَنْ يَسْمَعُونَ ) على المعنى . ويسفك عطف عليه ويمحور فيه الوجهان ، وروى أسيد عن الأعمش أنه قرأ : ( وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ) بالنصب يحمله جواب الاستفهام الواو كما قال :

ألم اك جارك وتكون يني . وينسك المسوقة والإخه

والسفك : الصب ، سفكت الدم أسفكه سفكا : صبته ، وكذلك الصبج جكاه ابن فارس والجوهري ، والسفك : السفاح وهو القادر على الكلام قال المهدوي : ولا ينصهل السفك إلا في الدم ، وقد يستعمل في تر الكلام ، يقال : سفك الكلام إذا شفه . وواحد الدماء دم ، محذوف اللام ، وقيل : أصله دى ، وقيل : دى ، ولا يكون اسم على حرفين إلا وقد حذف منه والمحذوف منه ياء وقد نطق به على الأصل قال الشاعر :

فلو أنا على حجر ذعينا . جرى الدمان بالحبس اليقين

قوله تعالى : ( وَمَنْ نَسِخْ بِحَدِّكَ ) . أى تحرك عما لا يليق بصفائك ، والنسخ في كلامهم التزيم من السوء على وجه التعظيم ، ومنه قول أشع بن مبلبة :

أقول لما جادى فخره . سبحانه من طمعة القاتير

أى براعة من طمعة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحانه فقال : « هو تزيم الله عز وجل عن كل سوء » . وهو مشتق من السبح وهو الجرى والتهاب ، قال الله تعالى : ( إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ) فليج جار في تزيم الله تعالى وتزيمته من السوء ، وقد تقدم الكلام في نحن ، ولا يجوز انظام الزمن في القول فلا يفتي ما كان . مسطحة : واختلف أهل القائل في تسييح الملاكمة ، فقال ابن مسعود وابن عباس : تسييحهم : صلاحهم ، ومنه قوله تعالى : ( فَارْكَأْهُ كَأَنَّمَا مِنَ الْمُسْبِغِينَ ) أى المصلين ، وقيل : تسييحهم رفع الصوت بالركاء لله المفضل ، واستشهد بقول جرير :

فبح الإله ويوه قلبك كلما . سبح المنيح وكبروا إلهلا

(١٣٦) في دعوان جرير : « شيعه ونحن عليها السبح الشيعي » أن السبح : رفع الأيدي بالثناء ، وعلى طاعتهم الاستعداد بعد البيت في تر جمه .



وقال قتادة : تسميهم سبحانه الله ، على عرفة في اللغة وهو الصحيح لما رواه أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أى الكلام أفضل ؟ قال : « ما أسخطى الله ملائكته [وإلهيائه] سبحانه الله وبجده » أخرجه مسلم ؛ وعن عبد الرحمن بن قريط : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به سمع نبيهما في السموات الملا ، سبحانه الملئ الأعلى سبحانه وتعالى ، ذكره البيهقي .

قوله تعالى : ( يَسْتَعِذُّكَ ) . أى وبجملتك تخطئ النسيح بالحمد ونصله به ؛ والحمد : الثناء وقد تستعظم ؛ ويعتدل أن يكون قولهم : يستعذك اعتراضا بين الكلامين كأنهم قالوا : ونحن نسبح وتقدس ثم اعتراضوا على جهة التسليم أى وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَقَدْ سَلَّمَ ) أى فطملك وبجملتك وتظهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملعونون ؛ قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى ظهر أنفاسك استناه مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : تقدس لك معناه فبصل ، والتقدیس : الصلاة ، قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقدیس والتسبيح ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده : « سبح قدوس رب الملائكة والروح » ورواه تائفة أخرجه مسلم ، وبناء قدس كيفما تصرف فإن معناه التطهير ، ومنه قوله تعالى : ( أَدْخِلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ) أى المطهرة ، وقال : ( أَلَيْكَ الْغَدَاةُ ) يعنى الطاهر ، ومنه : ( يَا أَيُّهَا الْمُقَدِّسِينَ طوبى ) ، ويبت المقدس سمي به لأنه المكان الذى يتقدس فيه من القنوب أى يتطهر ، ومنه قبل للسلطان : قدس لأنه يتوضأ فيه ويتطهر ، ومنه القنادوس وفى الحديث : « لا تقست أمة لا يؤخذ من ضعيفها لقربها » يريد لا تطهرها الله أخرجه ابن ماجه فى سننه ، فالقدس : الطهر من غير خلل ؛ وقال الشاعر <sup>(١)</sup> :

فأدر كنهه ياخذن بالأساق والنسا و كما شبرق اليلدان توب للمقديسي

أى المطهر ، فالصلاة طهرة للعبد من القنوب ، والمصل يدخلها على أكل الأحوال لكونها أفضل

الاعمال والله أعلم -

(١) زيادة من صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع الآستانة) . (٢) عز امرؤ قيس كان الإنسان مائة (عص)

قوله تعالى : ( **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ) . أعلم فيه تاويلان قيل : إنه فعل مستقبل ، وقيل : إنه اسم بمعنى فاعل ، كما يقال : الله أكبر بمعنى كبير ، وكما قال :

لمسرك ما أدري وإني لأرجل • على أننا تعدو للنسبة أول

فعل أنه فعل تكون ما في موضع نصب بأعلم ويجوز إدغام الميم في الميم ، وإن جعلته اسما بمعنى عالم تكون ما في موضع خفض بالإضافة ، قال ابن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النماء ، وإنما الخلاف في أفعل إذا سمي به وكان نكرة ، فسيو به واخليل لا يصرفاته ، والأخفش يصرفه ، قال المهلوي : يجوز أن تقدر التنوين في أعلم إنفاذته بمعنى عالم ، وتصب ما به فيكون مثل حواج بيت الله ، قال الجوهري : ونسوة حواج بيت الله بالإضافة إذا كن قد حججن ، وإن لم يكن حججن قلت : حواج بيت الله فتصب البيت لأنك تريد التنوين في حواج •

قوله : ( **مَا لَا تَعْلَمُونَ** ) . اختلف علماء التاويل في المراد بقوله تعالى : ( **مَا لَا تَعْلَمُونَ** ) . فقال ابن عباس : كان ليس - له الله - قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء وشرفه فاعتقد أن ذلك لازمة له ، فاستغف الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام ، وقالت الملائكة : ( **وَمَنْ نَسِجَ مِجْمَلِكُمْ وَقَدِّسَ لَكَ** ) وهي لا تعلم أن في نفس ليس خلاف ذلك ، فقال الله تعالى لهم : ( **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ) . وقال قتادة : لما قالت الملائكة أتجمل فيها وقد علم الله أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم : ( **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ) . قلت : ويعمل أن يكون المعنى **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** مما كان وما يكون وما هو كائن ، فهو عام . قوله تعالى : ( **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ) إلى قوله : ( **صَادِقِينَ** ) . فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ) . علم معناه عرف ، وتعليمه هنا إلهام عليه ضرورة ، ويعمل أن يكون بواسطة ملك وهو جبريل عليه السلام على ما يأتي ، وقرئ : ( **وَعَلَّمَ** ) غير مسمى الفاعل والأول أظهر **عَلَّمَ** على ما يأتي ، قال علماء الصوفية : عليها بتعليم الحق إياه وحفظها بحفظه عليه ونسأ ما عهد إليه لا يهاوكه فيه إلى حسه فقال : ( **وَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَدْسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا** ) . وقال ابن عطاء : لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها وتسميها وإعطائه لآدم عليه السلام يكنى **إِبْرَاهِيمَ** ، وقيل : **أَبَا جَبْدٍ** ، كنى بمحمد خاتم

الأنبياء صلوات الله عليهم قاه السهل؛ وقيل : كنيته في الجنة أبو محمد، وفي الأرض أبو البشر؛  
وأصله يهزبن لأنه أنزل إلا أنهم ليوا الثانية فإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت : أوادم  
في الجمع ولا ليس لما أصل في البناء معروف، جعلت التاليف عليها الواو عن الأخفش .

واختلف في اشتقاقه قبل هو مشتق من أدم الأرض وأديمها وهو وجهها فسمى بما خلق  
منه، قاله ابن جاس؛ وقيل : إنه مشتق من الأدمة وهي السمرة ، واختلفوا في الأدمة فرم  
الضمك أنها السمرة وزعم النضر أنها البياض؛ وأن آدم عليه السلام كان أبيض ، مأخوذ من قولهم :  
قاعة آدماء إذا كانت بيضاء، وعلى هذا الاشتقاق جمعه آدم وأوادم كجمع وأحامر ولا يتصرف بوجه؛  
وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون ويلزم قائلوه هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض؛ قال سعيد بن جبير : إنما سمي آدم لأنه خلق  
من أديم الأرض، وإنما سمي إنسانا لأنه نسي، ذكره ابن سعد في الطبقات . وروى السدي عن  
أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن جاس وعن مرة المصملي عن ابن مسعود في قصة خلق آدم  
عليه السلام قال : فبعت الله جبريل عليه السلام إلى الأرض لآتيه بطين منها ؛ فغالت الأرض :  
أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تهني؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عانت بك، فأعنتها؛  
فبعت مكاتيل فاعنتها منه فأعنتها، فرجع فقال كما قال جبريل؛ فبعت ملك الموت فاعنته، منه فقال :  
وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أفض أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد  
وأخذ من تربة حمراء وبضياء وسوداء فذلك نوح بنو آدم عتقين - ولذلك سمي آدم لأنه أخذ من أديم  
الأرض - فصعد به، فقال الله تعالى له : "إما رحمت الأرض حين تضرعت إليك" فقال : رأيت  
أمرك أوجب من قولها، فقال : "أنت تصلح لقبض أرواح ولله" قبل التراب حتى عاد طينا لازبا؛  
الازبب : هو الذي يلمص بمضه يعض ثم ترك حتى اتن فذلك حيث يقول : (من حملا مسنون)  
قال : من لم قال للآلة : (إن خالي بشر من طين) . "فَلَمَّا سَوَّيْتُهُ وَنَحَضْتُ فِيهِ مِنْ رَوْحِي قَعَمُوا  
لَهُ سَاعِدِينَ" فخلق الله بيده ليليكبر الحسن منه يقول : استكبر عما عملت يدي ولم استكبر أنا عنه !

في نسخة : "والت تهنى من أوتينى" . وفي تاريخ الطبري (ص ٨٧ ج ١) ثم أخذ طين أوروبا ؛  
فمنه من كبرياؤهم ؛

ثقله بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا متعلا  
 وأروه وكان أشدهم منه فزما إليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت السخاوت تكون له مصلصلة  
 فذلك حين يقول : ( مِنْ مَّصْلَالٍ كَالْفَخَّارِ ) ويقول : لأمر ما خلقت ! . ودخل من فيه وتخرج  
 من دبره ؛ فقال إليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكته ؛ وقال :  
 إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول : أرايت هذا الذي لم يروا من الخلاق يشبه أن فضل عليكم  
 وأمرتم بطاعته ما أتم فاعلون ؟ قالوا : نطيع أمر ربنا ؛ فأسر إليس في نفسه لئن قصَل مل فلا أطعمه  
 ولئن فضلت عليه لأهلكته ؛ فلما بلغ الحين الذي أريد أن يتنخ في الروح قال للملائكة : إذا تمخضت  
 فيه من روضي فاسجدوا له ؛ فلما تنخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس ؛ فقالت له الملائكة :  
 قل الحمد لله ؛ فقال : الحمد لله ؛ فقال الله له : رحمتك ربك ؛ فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار  
 الجنة فلما دخل في جوفه اشتبه الطعام فوثب قبل أن يتنخ الروح وجليه عجلا إلى ثمار الجنة فذلك  
 حين يقول : ( خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ ) ( فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْرَاهِيمَ ابْنُ آدَمَ )  
 مع الساجدين ؛ وذكر القصة . وروى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء  
 بنو آدم على قنبر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك السهل والحزن والحيث  
 والطيب » قال أبو موسى هذا حديث حسن صحيح . أديم : جمه آدم ؛ قال الشاعر :

الناس أخفاف وثقى في الشيم • وكلهم يحجمهم وجهه الأديم

فأدم مشتق من الأديم والأدم لأن الأدمة - والله أعلم - ويحتمل أن يكون منهما جمعا .  
 وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في خلق آدم في الأنعام وغيرها إن شاء الله تعالى . وأدم لا ينصرف ؛  
 قال أبو جعفر النحاس : آدم لا ينصرف في المعرفة بإجماع النحويين لأنه على أصل وهو معرفة  
 ولا يتيسر شيء من الصرف عند البصريين إلا لثنتين ؛ فإن نكرته ولم يكن نبتا لم يصرفه الخليل وسيبويه ؛  
 وصرفه الأخص سمي لأنه إنما تمتع من الصرف لأنه كان نبتا وهو على وزن النخل ؛ فإذا لم يكن نبتا  
 صرفه ؛ قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه لا يفرق بين التمتع وغيره لأنه هو ناك بعينه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا ﴾ . الأسماء هنا بمعنى العبارات فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمى كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع ، وقد يراد به التسمية ذاتها كقولك : أسد لامة أحرف ، وفي الأول يقال : الاسم هو المسمى بمعنى يراد به المسمى ؛ وفي الثاني لا يراد به المسمى ؛ وقد يجرى اسم في اللغة يجرى ذات العبارة وهو الأكثر من استعمالها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ على أشهر التأويلات ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، وَبِحَرِّهَا يَجْرَى النَّارُ يُقَالُ : ذَاتٌ وَفُسٌّ وَعَيْنٌ وَاسْمٌ بِمَعْنَى : وَعَلَى هَذَا حُلُّ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ( تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ) ( إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ تُسَمَّيُوهَا ) .

الثالثة — واختلف أهل التأويل في معنى الأسماء التي علمها آدم عليه السلام ، فقال ابن عباس وعكرمة وقادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيقها . وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علي قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآتية واسم السوط ، قال ابن عباس : وعلم آدم الأسماء كلها .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتي وهو الذي يقتضيه لفظ « كلها » اذ هو اسم موضوع للاحاطة والشموم ؛ وفي البخاري من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وَيَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسَمَّكَ مَلَائِكَتُهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ » . الحديث . قال ابن منداد : في هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة ترفيعا وإن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتخصيلا ؛ كذلك قال ابن عباس : علمه أسماء كل شيء حتى الجنة والمحب ؛ وروى شيان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه مالم يعلم الملائكة ، وسمى كل شيء باسمه وأُنحى منفعة كل شيء إلى حسنه ، قال النحاس : وهذا أحسن ما روي في هذا ؛ والمعنى علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها ، هذا كذا وهو يصلح لكنا . وقال الطبري : علمه أسماء الملائكة ودريته واختار هذا ورجحه قوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ . وقال ابن زيد : علمه أسماء ذريته كلهم . الربيع بن خثيم : أسماء الملائكة خاصة . القتيبي : أسماء ما خلق في الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأول أصح لما ذكرناه ولما نبينه آتيا إن شاء الله تعالى .

الراحة - واختلف المتأولون أيضا هل عرض على الملائكة الأشخاص الأسماء أو الأسماء دون الأشخاص ؟ فقال ابن مسعود وغيره : عرض الأشخاص لقوله تعالى : ﴿ عَرَضَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ أَنْبِئُوهُمْ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾ . وتقول العرب : عرضت الشيء ، فأعرض أي أظهرته فظهر ، ومنه : عرضت الشيء للرجل ، وفي الحديث : « إنه عرضهم أمثال الذرة » وقال ابن عباس وغيره : عرض الأسماء . وفي حرف ابن مسعود : عرضهم ، فأعاد على الأسماء دون الأشخاص لأن الملاء والتون أحصى بالوقت . وفي حرف أبي : عرضها . مجاهد : أصحاب الأسماء ، فمن قل في الأسماء إنها المسمايات فاستقام على قراءة أبي « عرضها » وتقول في قراءة من قرأ « عرضهم » إن لفظ الأسماء يدل على أشخاص فذلك ما عاين يقول : الأسماء عرضهم ، وقال في « هؤلاء » المراد بالاشارة إلى أشخاص الأسماء لكن وإن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسبب ذلك أسمائها . قال ابن عطية : والذي يظهر أن الله تعالى لم آدم الأسماء وعرضهم عليه مع تلك الأجسام بأشخاصهم ثم عرض تلك على الملائكة وسألم عن سمياتها التي قد تسلمها ، ثم إن آدم قال لهم : هذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا ، وقال المسعودي : وكان الأصح توجه العرض إلى المسمين ؛ ثم في زمن عرضهم قولان : أحدهما - أنه عرضهم بعد أن خلقهم . الثاني - أنه مؤدبهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم .

الخامسة - واختلف في أول من تكلم باللسان العربي ، فروى عن كعب الأحبار : أن أول من وضع الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها وتكلم بالإنسية كلها آدم عليه السلام ، وقوله غير كعب الأحبار . فإن قيل : قد روي عن كعب الأحبار من وجه حسن قل : أول من تكلم بالعربية جبريل عليه السلام وهو الذي ألقاه على لسان نوح عليه السلام وألقاه نوح على لسان ابنه سام ، رواه ثور ابن يزيد عن خلف بن مخلد بن مهران عن كعب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قل : « أول من نطق لسانه بالعربية المينة إسماعيل وهو ابن عشرين » وقد روى أيضا : أن أول من تكلم بالعربية يرب بن قحطان ، وقد روى غير ذلك .

قنا : الصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام والقرآن يشهد به ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ واللغات كلها أسماء فهي داخلة تحته وبهذا جاءت السنة ؛

قال صلى الله عليه وسلم : « وعلم آدم الأسماء كلها حتى القصصة والقصبة » وما ذكره يحتل أن يكون المراد به أول من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أول من تكلم من قبيلة بالعربية بدليل ما ذكرنا والله أعلم . وكذلك جبريل أول من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علمها الله آدم أو جبريل على ما تقدم والله أعلم .

قوله : ( هَؤُلَاءِ ) . لفظ مبنى على الكسر، وثلاثة تيم وبعض قيس وأسدي فيه القصر، قال الأضنى :

هؤلاء هم هؤلاء كلا أعطيت نملنا عنوة بمنال

ومن العرب من يقول : هَؤُلَاءِ؛ فيحذف الألف والمهزة .

السادسة — قوله تعالى : ( إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) . شرط والجواب محذوف تقديره إن كنتم صادقين أن يحى آدم يفسدون في الأرض فأجبتنى؛ قاله المبرد : ومعنى صادقين عالين ولذلك لم يسع للانكسار الاجتهاد وقالوا : سبحانك ! حكاية النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق في الإنباء لجار لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قتل له : ( كُنْتُمْ لِفَتَى ) فلم يشترط عليه الإصابة فقال ولم يصب ولم يصف؛ وهذا بين لا خفاء فيه . وحكى الطبري وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال : إن معنى ( إِنْ كُنْتُمْ ) إذ كنتم وقالوا : هذا خطأ . و ( أَتَيْنُونِي ) معناه أخبروني، والنبأ : الخبر، ومعناه النبي، بالهمز وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعة — قال بعض العلماء يخرج من هذا الأسر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون؛ وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنما هو على جهة التقرير والتوقيف؛ وسيأتي القول في تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا؟ — في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ) . فيه ثلاث مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ( سُبْحَانَكَ ) أى تزيها لك عن أن يعلم النيب أحد سواك، وهذا جوابهم عن قوله : ( أَتَيْنُونِي ) فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوا ما لا علم لهم به

كما يقوله الجهال منا؛ وما، في ما علمتنا بجني الذي أي إلا الذي علمتنا؛ ويجوز أن تكون مصدرية بجني إلا تعليمك إيانا .

الثانية - الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدري ، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ؛ لكن قد أخبر الصادق أن يموت العلماء يقبض العلم فيقبي ناس جهال يستفتون فيفتون برأهم فيضلون ويضلون ؛ وأما ما ورد من الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بندهم في معنى الآية فروي البستي في المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي البقاع شر ؟ قال : « لا أدري حتى أسأل جبريل » فسأل جبريل ، فقال : لا أدري حتى أسأل ميكائيل ؛ فغضب فقال : خير البقاع المساجد ، وشرها الأسواق . وقال الصديق لثينة : ارجعي حتى أسأل الناس . وكان علي يقول : وإبردها على الكبد ثلاث مررات ، قالوا : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يسئل الرجل عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابن عمر رجل عن مسألة فقال : لا أعلم لي بها ، فلما أدبر الرجل قال ابن عمر : نعم ما قال ابن عمر ، سئل عما لا يعلم فقال لا أعلم لي به ! وذكره البخاري في مسنده . وفي صحيح مسلم عن أبي عفيل يحيى بن المتوكل صاحب بيهة قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيم أن يسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم ولا فوج ، أو علم ولا خرج ! فقال له القاسم : وعم ذاك ؟ قال : لأنك ابن إمامي هدي ؛ أين أبي بكر وعمر ؟ قال : يقول له القاسم أتبيع من ذلك عند من غفل عن الله أن أقول بشير علم أو أؤخذ عن غير حق ؟ فسكت فساأجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت ابن عمر يقول : ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري حتى يكون أصلا في أبيهم ؛ فلذا يسئل أحدهم عما لا يدري قال : لا أدري . وذكر الميثم بن جبير قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وعشرين منها : لا أدري .

(١) في نسخة : «فتان» .

(٢) في نسخة : «مقل» .

(٣) في نسخة : «أيا مرة» .



قلت : ومثله كثير عن الصمامة والتابعين وقفهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم . قال ابن عبد البر : من بركة العلم وأدابه الانصاف فيه ، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم . وروى يونس بن عبيد الأعلى قال سمعت ابن وهب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف . قلت : هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فيه الفساد وكثر فيه الطغام ! وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسى القلب ويورث الضغن ؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . ابن هذا ما روى عن عمر رضى الله عنه وقد قال : لا تريدوا في مهود النساء على أرمين أوقية ولو كانت بنت ذى العصبية — يعنى يزيد بن الحصين الحارثي — فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال ؛ فقامت امرأة من صوب النساء طويلة فيها فطس فقالت : ما ذلك لك ! قال : ولم ؟ قالت : لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا يَتَمَنَّاهُمْ أَحَدُهُمْ قِتْظَارًا وَلَا تَأْخُذُوا بِهِنَّ شَيْئًا ﴾ فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وكيع عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي قال : سأل رجل علياً رضى الله عنه عن مسألة فقال فيها ؛ فقال الرجل : لوس كذلك يا أمير المؤمنين ؛ ولكن كما ركنا ؛ فقال علي : أصبت وأخطأت وفوق كل ذى علم . وذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ قال : لما رحلت إلى المشرق زلت القتيوان فاخذت على بكر بن حماد حديث مستد ، ثم رحلت إلى بغداد ولقيت الناس ؛ فلما انصرفت عدت إليه تمام حديث مستد فقرأت عليه فيه يوماً حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه قدم عليه قوم من مصر يجتأبى النار » فقال : إنما هو مجتأبى النار ؛ فقلت : إنما هو مجتأبى النار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق ؛ فقال لي : بدخولك العراق تمارضنا وتضجر علينا أر نحو هذا ! ثم قال لي : قم بنا إلى ذلك الشيخ — لشيخ كان في المسجد — فإن لنا بمن هذا علما ! فقمتا إليه فسالناه عن ذلك فقال : إنما هو مجتأبى النار كما قلت ؛ وهم قوم كانوا يلصقون الثياب مشقة جويهم أمامهم . والنار جمع نومة ؛ فقال بكر بن حماد : وأخذ بأفقه رغم أنى هلق وانصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاحسن :

إذا ما تحذت في مجلس ، تلمى حديثي إلى ما ملئت

ولم أعد تلمى إلى غيره . وكانت إذا ما تلمى سكت

الثالثة - قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ . سُبْحَانُ منصوب على المصدر عند الخليل وميويه ، يؤتى عن معنى نسبك تسبيحا ، وقال الكسائي : هو منصوب على أنه تداء مضاف . والعلم فيل للبالغة والتكثير في المعلومات في خلق الله تعالى . والحكيم معناه الحكماء وبينهما مزيد المبالغة ، وقيل : معناه المحكم ، ويحى الحكم<sup>(١)</sup> على هذا من صفات الفعل صرف عن مفعل الى فيل كما صرف عن مسمع الى سمع ومؤلم الى ألم قاله ابن الأثيري ؛ وقال قوم : الحكيم المانع من الفساد ، ومنه سميت حكمة الجمام لأنها تمنع القرمس من الجرى والقهاب في غير قصد ؛ قال جرير :

أبني حنيفة أحكوا سفهاءكم \* إني أخاف عليكم أن أغضبا

أي امنوهم من الفساد ؛ وقال زهير :

ألقاها الخيل مسكوبا دوارها \* قد أحكت حركات القد والأبقا

القد : الجلد . والأبق : القنب ؛ والعرب تقول : أحكم الشيء عن كذا وكذا يريدون منه ؛ والسورة المحكمة : المتنوعة من التفسير وكل التبديل وأن يلحق بها ما يخرج عنها ، ويزاد عليها ما ليس منها ؛ والمحكمة من هذا ، لأنها تمنع صاحبها من الجهل ؛ ويقال : أحكم الشيء إذا ألقته ومنعه من الخروج عما يريد فهو محكم وحكيم على التكثير .

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْذِرْهُمْ بِآسَاتِهِمْ﴾ . فيه خمس مسائل .

الأولى - قوله تعالى : ﴿أَنْذِرْهُمْ بِآسَاتِهِمْ﴾ أمره أن يبلّغهم بآسائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيها على فضله وعلو شأنه ، فكان أفضّل منهم بأن قدمه عليهم وأجمعهم له وجعلهم تلاميذه وأمرهم بأن يتعلموا منه فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن حصل سجودا له <sup>(٢)</sup> غنصا بالعلم .

الثانية - في هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله ؛ وفي الحديث : «وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم» ؛ أي تخضع وتتواضع ؛ وإنما فعل ذلك لأهل العلم خاصة من بين سائر عمال الله <sup>(٣)</sup>

(١) في نسخة : « الحكيم » .

(٢) في نسخة : « سجودا » .

(٣) في نسخة : « وعالمة » .

لأن الله تعالى أزهى ذلك في آدم عليه السلام فتأثرت بذلك الأدب ، فكما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتعلت إعظاما للعلم - أعده رضى منهم بالطالب له والشغل به . هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والرايين منهم ! جعلنا الله منهم وفيهم إنه ذو فضل عظيم .

الثالثة - اختلف العلماء في هذا الباب ، إما أفضل الملائكة أو بنو آدم ؟ على قولين ، فنذهب قوم الى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة ، وذهب آخرون الى أن الملائكة أفضل . احتج من فضل الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْقَوْنَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَسْتَلُونَ ﴾ ﴿ لَا يَمَسُّونَ اللَّهُ مَا لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا يَكُونُ لَهُمْ عِلًا قَدَسُوا رَبَّهُمْ هَؤُلَاءِ الَّتِي يُسَلِّمُونَ عَلَيْهَا لَا تَقْدِحُ الْغَلَامَةُ فِيهِمْ لِثِيَابِهِمْ هَؤُلَاءِ سَابِقَتِ الْأُمَّةَ إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ أَتَوْا لَا يَسْأَلُونَ عَنْ شَيْءٍ وَأُتُوا بِهِمْ لَا تَلَاحُظُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي ثِزَانٌ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ . وفي البخارى يقول الله عز وجل : « من ذكرني في ملاذ ذكرته في ملا خير منهم » وهذا نص . واحتج من فضل بنى آدم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ بالهمز من برا الله الخلق ، وقوله عليه السلام : « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم » الحديث أخرجه أبو داود ، وبما جاء في أحاديث من أن الله تعالى يباهى بأهل عرفات الملائكة ، ولا يباهى إلا بالأفضل ، والله أعلم . وقال بعض العلماء : ولا طريق الى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة ، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم ، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة ؛ وليس هاهنا شيء من ذلك ، خلافا للفسدية والتأذى أبى بكر رحمه الله حيث قالوا : الملائكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشيعة : إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فيقال لهم : السجود له لا يكون أفضل من الساجد ، ألا ترى أن الكعبة مسجود لها والانباء والتخلق يسجدون نحوها ، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة باعق الأمة ، ولا خلاف أن السجود لا يكون إلا لله تعالى لأن السجود عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله ، فإذا كان كذلك فكأن السجود الى حجة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد الباطن وهذا واضح وسيأتى له مزيد بيان في الآية بعد هذا .

الرامة - قوله تعالى: (إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه الله تعالى؛ فالتجيمون والكهان وغيرهم كذبة وسيأتي بيان هذا في الأنعام إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُبْلِغُهَا إِلَّا هُوَ) .  
الخامسة - قوله تعالى: (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ) أي من قولهم: (أَتَجْمَلُ فِيهَا مِنْ قَيْدُ فِيهَا) حكاه مكي والمأوردي؛ وقال الزمراوى: ما أبدوه هو بدارهم بالسجود لآدم .

(وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) . قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير: المراد ما كتمه إبليس في نفسه من الكبر والمصيبة؛ قال ابن عطية: وجله تكتمون للجماعة؛ والكلم واحد في هذا القول، على تجوز العرب واتساعها؛ كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم: أتم فعلتم كذا، أي منكم فاعله، وهذا مع قصد تنيف؛ ومنه قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَكَ يُدْرِكُهُمُ الْعِلْمُ فَهُمْ لَا يَخِفُونَ) وإنما ناداهم عيسى، وقيل الأفرع . وقالت طائفة: الإبداء والمكتموم، ذلك على معنى العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدي بن سميون: كما عند الحسن فسأله الحسن بن دينار ما الذي كتمت للملائكة؟ قال: إن الله جل وعز لا خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا وكأنهم دخلهم من ذلك شيء؛ قال: ثم أقبل بعضهم على بعض وأسروا ذلك بينهم، ما يحكم من هذا المخلوق! إن الله لم يخلق خلقا إلا كما أكرم عليه منه . وما في قوله: (مَا تُبْدُونَ) يجوز أن ينتصب بأعلم على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنصب به ما، فيكون مثل حواجيت الله، وقد تقدم .

قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) إلى قوله: (الْكَافِرِينَ) فيه عشر مسائل:  
الأولى - قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا) أي وإذ كره، وأما قول أبي عيسى: إن إذ زائدة فليس بجائز لأن إذ ظرف وقد تهدم؛ وقال: (قلنا) ولم يقل قلت لأن الجار العظيم يفرعن نفسه بفعل الجماعة تنفخا وإشادة بذكرو؛ والملائكة جمع ملك؛ وقد تهدم القول أيضا في آدم واشتقاقه فلا معنى لإعادته؛ وروى عن أبي جعفر بن التميمي أنه ضم تاء التانيث من الملائكة اتباعا لفهم الجيم في اسجدوا وقلبيبه الحمد لله .

الثانية - قوله تعالى: (اسْجُدُوا) . السجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع؛ قال الشاعر:

يجمع تفضل الباقى في خجراته . ترى الأكم فيها سجدا للواقف .

الأنكم : الجبال الصغار جعلها سجداً للحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها؛ وعن ساجدة  
أى فاترة عن النظر؛ وغايته وضع الوجه بالأرض؛ قال ابن فارس : سجد اذا تعاطى وكل ما سجد  
فقد ذل؛ والإسجد : إدامة النظر؛ قال أبو عمرو : وسجد اذا طأطأ رأسه؛ قال :

فصول أزميتها أصبحت • سجود النصارى لأخبارها

قال أبو عبيد : وأشدنى أعرابي من بنى أسد :

• قتل له أجد لليل فاجبدا •

بنى البعير إذا طأطأ رأسه؛ ودرهم الإسجد : درهم كانت عليها صور كانوا يسجدون لها؛ قال :

• وافى بها كدرهم الإسجد •

الثالثة — استدل من فضل آدم وبنيه بقوله تعالى لللائكة : ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ . قالوا : وذلك  
يدل على أنه كان أفضل منهم ؛ والجواب أن معنى اسجدوا لآدم اسجدوا لى مستقبلين وجه آدم  
وهو كقوله تعالى : ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ لِلرَّبِّ الْكَاشِمِ ﴾ أى عند دلوك الشمس؛ وكقوله : ﴿ وَفُتِحَتْ  
فِيهِ مِنْ رُوحِي قَعَمُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ . أى قعموا لى عند إتمام خلقه ومواجهتهم إياه ساجدين ؛  
وقد بينا أن المسجود له لا يكون أفضل من الساجد بدليل القيلة

فإن قيل : فإن لم يكن أفضل منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له ؟ قيل له : إن الملائكة لما  
استغفلوا بتسبيحهم وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليربهم استغناهم عنهم وعن عبادتهم . وقال  
بعضهم : عبروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به فأمروا بالسجود له تكريماً ؛ ويحتمل  
أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم : ﴿ أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفِيدُ فِيهَا ﴾ لما قال  
لهم : ﴿ إِنِّ بَالِغٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيقَةً ﴾ وكان علم منهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا ، فقال لهم : ﴿ إِنِّ  
خَاتَمُ بَشَرٍ مِنْ طِينٍ ﴾ . وباعله خليفة فإذا نفخت فيه من روحى قعموا له باسجدين ، والمعنى يكون  
ذلك حقوبة لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

الثانية فإن قيل : فقد استدل ابن عباس على فضل البشرى بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه  
وسلم : ﴿ لَنَمُوتَنَّ أَنْتُمْ لَتَنِ اسْكُرْتَهُمْ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ ﴾ . وأمنه من العذاب بقوله : ﴿ لَنُغْفِرَنَّكَ

الله ما نَحْنَم مِن ذَنبِكَ وَمَا نَأْسُ . وقال للملاك : ( وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ اِنِّى اِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْيَاكُفِّرْ بِهِ ) . قيل له : انما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بحياة نفسه سبحانه فلم يقل : لعمرى ؛ واقسم بالسماء والارض ولم يدل على انهما ارفع قدرا من العرش والجنات السبع ، واقسم بالجن والزينون ؛ واما قوله سبحانه : ( وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ اِنِّى اِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ) . فهو نظير قوله لنيه عليه السلام : ( لَنْ اَشْرَكَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ) . فليس فيه اِثْمٌ دَلَالَةٌ ، والله اعلم .

الرابعة - واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اخذهاهم على انه لم يكن السجود عبادة ؛ فقال الجمهور : كان هذا امرا للملائكة بوضع الجباه على الارض ، كالسجود المعتاد في الصلاة . لانه الظاهر من السجود في العرف والشرع ، وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم واطهارا لنفسه ، وطاعة لله تعالى ، وكان آدم كالقبيلة لناومنى لآدم : الى آدم ، كما يقال : صل للقبيلة : أى الى القبيلة . وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم : الذى هو وضع الجبهة على الارض ولكنه مبنى على اصل اللغة فهو من الثذل والافتقار أى اخضعوا لآدم واقروا له بالفضل فسجدوا : أى امتثلوا ما امروا به .

واختلف ايضا هل كان ذلك السجود تاما بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا الله تعالى ، أو كان جازما بعده الى زمان يقرب عليه السلام لقوله تعالى : ( وَرَفَعَ آيَاتِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَنُحِوْا لَهُ تَبَجُّدًا ) فكان آخر ما أباح من السجود للمخلوقين ؟ ولذى عليه الأكثر انه كان مباحا الى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أصحابه قالوا له حين سمعت له الشجرة والجبل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجبل الشارد ؛ فقال لهم : " لا ينبغي أن يسجد لأحد إلا لله رب العالمين " روى ابن ماجة في سننه والبيهقي في صحيحه عن واقد قال : لما تم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا " فقال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارتهم واساقطتهم ، فأردت أن أصل ذلك بك ؛ قال : " فلا تقل فإني لو أنزلت شيئا أن يسجد لى . لأخبرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤذي المرأة حتى يربها حتى تؤذي حتى لو سألها قسما وهو على قلب لم تقم " فقط البيهقي ، ومعنى القتب أن العرب يمزعهم وجود كبرى الولادة فيجعلون تسامعهم على القتب عند الولادة . وفي بعض طرق معاذ ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمساواة .

قلت : وهذا السجود المنهى عنه قد اتخذ جهال التصوفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستفشارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذ الحال برعته يسجد للأقدام بحمله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ؛ ضل معيهم وخاب عملهم ..

الخامسة - قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ . نصب على الاستثناء المتصل لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور . ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب وقائدة وغيرهم ؛ وهو اختيار الشيخ أبي الحسن ؛ ووجه الطبري وهو ظاهر الآية . قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة وكان من أولى الأجنحة الأربعة ثم ابليس بعد ؛ روى سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا . وحكى الماوردي عن قتادة : أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجنة . وقال سعيد بن جبير : إن الجن سيط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم ؛ وخلق سائر الملائكة من نور . وقال ابن زيد والحسن وقائدة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملكا ؛ وروى نحوه عن ابن عباس وقال : اسمه الحارث . وقال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين : كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقتلتهم الملائكة فسبوه صنيرا وتعبد مع الملائكة وخوطب ؛ وحكا الطبري عن ابن مسعود . والاستثناء على هذا منقطع مثل قوله تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ . وقوله : ﴿إِلَّا مَا ذَكَّرْتُمْ﴾ في أحد القولين ؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطش ولا جوع • إلا الرقاد والرقاد ممنوع

واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله جل ومن وصف الملائكة فقال : ﴿ لَا يَصْنُونَ اللَّهَ مَا أَسْرَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ والجن غير الملائكة ؛ أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق في علم الله بشقاؤه عدلا منه ، لا يستل عما يفعل ، وليس في خلقه من نار ولا في تركيب الشهوة حين غضب عليه ما ينافي أنه من الملائكة ، وقول من قال : إنه كان من جن الأرض فهي ؛ فقد روى في مقابله أن إبليس هو الذي قاتل الجن في الأرض مع جند من الملائكة ؛ حكا المهدوي وغيره . وحكى الثعلبي عن ابن عباس : أن إبليس كان من جن من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من

فأر السوم ، وخلقت الملائكة من نورا ، وكان اسمه بالسريانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، وكان من خزان الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض ؛ فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة ، فذلك الذي دعاه إلى الكفر فعصى الله فحسبه شيطانا رجيا ؛ فإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترحه ، وإن كانت خطيئته في معصية فارجه ؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كبرا . والملائكة قد نسوا جنايا استأثروا ؛ وفي التبريل : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبَاً ﴾ ، وقال الشاعر في ذكر سليمان عليه السلام :

وحضر من جن الملائك نسمة • قياسا لديه يعملون بلا أجر

وأيضا لما كان من خزان الجنة نسب إليها فاشتق اسمه من اسمها والله أعلم . وإبليس وزنه إفتيل مشتق من الإبلان وهو اليأس من رحمة الله تعالى ؛ فلم ينصرف لانه معرفة ولا نظير له في الاسماء فشبه بالأعجمية قاله أبو عبيد وغيره ؛ وقيل : هو أعجمي لا اشتقاق له فلم ينصرف للمعجمة والتصرف ، قاله الزجاج وغيره .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ أَبَى ﴾ معناه امتنع من فعل ما أمر به ، ومنه الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إنا قرأ ابن آدم السجدة [ فسجد ] <sup>(١)</sup> اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله - وفي رواية يا ويلتي - أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فل النار » ترجمه مسلم . يقال : أبى أبى إباء ، وهو حرف قادر جله على فعل يفعل ليس فيه حرف من حروف الحلق ؛ وقد قيل : إن الألف مضاربة لحروف الحلق ؛ قال الزجاج : سمعت إسماعيل بن إسحاق القناضي يقول : القول عندى أن الألف مضاربة لحروف الحلق ؛ قال التماس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحو غير هذا الحرف .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ الاستكبار : الاستعظام فكأنه كره السجود في حقه ، واستعظمه في حق آدم ، كان ترك السجود لآدم تسفها لأمرة الله وحكمته ، ومن هذا الكبر مير

(١) الآية من صحيح مسلم .

(٢) في سلم : « بأول » .



طه السلام بقوله : « لا يسئل الجنة من في قلبه مثقال حبة من بخر من كبر » في رواية ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغطت الناس » أنزجه مسلم ، ومعنى بطر الحق تسفيه وإطالة ، وغطت الناس الاحتقار لم والازدراء بهم ، وروى : « وغمص » بالصاد المهملة والمعنى واحد ، يقال : غمصه يغمصه غمصا وغمصا واعتمصه أى استصغره ولم يره شيئا ، وغمص فلان النعمة إذا لم يشكرها ، وغمصت عليه قولاً قاله أى عتبه عليه ، وقد صرح اللعين بهذا المعنى فقال : ( **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ) ( **لَا تُعْجِبُ لَنْ سَلَّطَ طِينًا** ) ( **لَمْ أَكُنْ لَأُعْجِبْ لِيُنْزِلْ خَلْقَهُ مِنْ مَصَالٍ مِنْ خَمْسِينَ مِائَةً** ) فكفروه الله بذلك ، فكل من سفه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حكمة حكمه ، وهذا ما لا خلاف فيه ، وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغني أن أول مصيبة كانت الحسد والكبر ، حسد إبليس آدم ، وشج آدم فيا كله من شجرة ، وقال قتادة : حسد إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارى وهذا طينى ، وكان بدء الذنوب الكبر ، ثم الحسد ، حتى أكل آدم من الشجرة ، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنة — قوله تعالى : ( **وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ) . قيل : كان هنا بمعنى صار ، ومنه قوله تعالى : ( **فَكَانَ مِنَ الْمُفْرِقِينَ** ) ، وقال الشاعر :

بتهام قصر والملى كأنها • قطا الحزن قد كانت فواخا يروضها

أى صارت ، وقال ابن توريك : كان هنا بمعنى صار خطأ تزده الأصول ، وقال جمهور المتأولين : المعنى أى كان في علم الله تعالى أنه سيكفر لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهذا صحيح لقوله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخارى : « وأما الأعمال بالانوار » وقيل : إن إبليس عبد الله تعالى ثمانين ألف سنة ، وأعطى الرياسة والخزانة والجنة على الاستدراج ، كما أعطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف السهم ، أو كما أعطى بلعام الاسم الأعظم على طرف لسانه . فكان في رياسته والكبر في نفسه ممكن . قال ابن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده ، فذلك قال : أنا خير منه ، ولذلك قال الله عز وجل : ( **مَا مَنَعَكَ أَنْ** )

سَجْدًا خَلَقْتُ يَسَدِي اسْتَكْبَرَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ) أى استكبرت ولا كبرك ، ولم أتكبر أنا حين خلقته يسدي والكبرلى ! فذلك قال : ( وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ) . وكان أصل خلقته من نار العزة ولذلك حلف بالعزة فقال : ( فَيَعِزُّكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ ) فالفزة أوردته الكبر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خلقت الملائكة من نور العزة ، وخلق إبليس من نار العزة .

الطائفة - قال علماؤنا - رحمة الله عليهم - : ومن أظهر الله على يديه من ليس بتبى كرامات وخوارق للمادات فليس ذلك دالا على ولايته خلافا لِمُضْ الصوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه وليّ إذ لو لم يكن وليا ما أظهر الله على يديه ما أظهره ؛ ودليلا أن العلم بأن الواحد منا وليّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكن أن قطع على أنه وليّ لله تعالى لأن الوليّ لله تعالى من علم الله تعالى أنه لا يوافق إلا بالإيمان ، ولما انفقتنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافق بالإيمان ، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافق بالإيمان ، لم أن ذلك ليس يدل على ولايته ؛ قالوا : ولا تمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن طاقته وحاجة عمله وضره معه ؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشعري وضره . ونهب الطبرى إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تهريج أشباهه من بنى آدم وهم اليهود الذين كفروا بحمد عليه السلام ، مع عليهم بنوه ، ومع قدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

الماشرة - واختلف هل كانت قبل إبليس كافرا أو لا ؟ قيل : لا ، وإن إبليس أول من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . واختلف أيضا هل كفر إبليس جهلا أو عتادا على قولين بين أهل السنة ، ولا خلاف أنه كان طالبا بالله تعالى قبل كفره ؛ فمن قال إنه كفر جهلا قال : إنه سلب العلم عند كفره ، ومن قال كفر عتادا قال : كفر ومعه علمه . قال ابن عطية : والكفر مع بقاء العلم مستبعد ، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء . قوله تعالى : ( وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ) إلى قوله : ( مِنَ الظَّالِمِينَ ) فيه ثلاث عشرة مسألة .

الاولى - قوله تعالى : (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ) لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجهم قال آدم اسكن أى لازم الإقامة واتخذها مسكنا وهو محل السكن؛ وسكن، إليه يسكن سكنا؛ والسكن : النار؛ قال الشاعر :

• قد قومت بسكن وأدهان •

والسكن : كل ما سكن إليه ؛ والسكن معروفة سمي به لانه يسكن حركة المذبح ؛ ومنه السكنى لغة تصرفه وحركته ؛ وسكان السفينة عروق لانه يسكنها عن الاضطراب .

الثانية - في قوله تعالى : (اسْكُنْ) تنبيه على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكا ولهذا قال بعض اللغويين : السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع ، فدخلوها في الجنة كان دخول سكنى لا دخول نواه .

قلت : وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء : إن من أسكن رجلا مسكنا أنه لا يملكه بالسكنى ، وأن له أن يخرج منه إذا اقتضت مدة الإسكان ؛ وكان النسي يقول : إذا قال الرجل دارى لك سكنى حتى تموت فهي له حياته وموته ، وإذا قال : دارى هذه سكنى حتى تموت فلها ترجع إلى صاحبها إذا مات . ونحو من السكنى الممرى إلا أن اللغويين في الممرى اتفقوا منه في السكنى ، وسيأتى الكلام في الممرى في هود ابن شاة الله تعالى . قال الحرابي : سمعت ابن الأعرابي يقول : لم يختلف العرب في أن هذه الأشياء على ملك أربابها ومنعها لمن جلس له الممرى والرقي والإفقار والإخيال والمنحة والبرية والسكنى والأطراق ؛ وهذا حجة مالك وأصحابه في أنه لا يملك شيء من المطايا إلا المنافع دون الرقاب ؛ وهو قول الليث بن سعد والقسيم بن محمد ، ويزيد بن قسيط .

الممرى هو أسكنك الرجل في دارك مدة بمرك أو عمره ومنه الرقي وهو أن يقول : إن مت قبل رجعت إلى ، وإن مت قبلك فهي لك ؛ وهي من المراقبة . والمراقبة مكان يقرب كل واحد منهما موت صاحبه ، وذلك اختلفوا في إجازتها ومنعها ، فأجازها أبو يوسف والشافعي وكأنها وصية عندهم ، ومنعها مالك والكوفيون لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدري هل يحصل له ، ويتحقق كل واحد منهما موت صاحبه ؛ وفي الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه في سننه ؛ الأول رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الممرى جازية لمن

أمرها والرقبي جائرة لمن أرقبها « ففى هذا الحديث التنسوية بين العمري والرقبي فى الحكم . الثانى رواه ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا رقبى لمن أرقب شيئا فهو له حياته ومماته » . قال : والرقبي أن يقول هو الآخر منى ومنك موتا ، فقوله : لا رقبى ، نهى يدل على المنع ، وقوله : « من أرقب شيئا فهو له » يدل على الجواز ، وأخرجهما أيضا النسائى ، وذكر عن ابن عباس قال : العمري والرقبي سواء . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العمري جائرة لمن أمرها والرقبي جائرة لمن أرقبها » فقد صحح الحديث ابن المنذر ، وهو حجة لمن قال : بأن العمري والرقبي سواء . وروى عن عليّ ، وبه قال الثوري وأحمد ، وأنها لا ترجع إلى الأول أبدا ، وبه قال إسحاق . وقال طلوس : « من أرقب شيئا فهو سبيل الميراث . والإفقار مأخوذ من فقار الظهر ، أفرقت ناقى : أفرقت فقارها لتركها ، وأفرقت الصيد إذا أمكنك من فقاره حتى تربيه . ومثله الإخبال ، يقال : أخبلت فلانا إذا أمرته ناقة يركبها أو فرسا يفرزو عليه ، قال زهير :  
هناك إن يُستخيلوا المسأل يُخيلوا • وإن يُسئلوا يُعطوا وإن يسروا يُغفلوا

والمنعة : العطية ، والمنعة : منعة اللين ، والمنعنة : الناقة أو الشاة يعطيا الرجل آخر يحلبها ثم يردها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العارية مؤداة والمنعة مودونة والدين مقضى والإعصم ظالم » رواه أبو أمامة ، أخرجه الترمذى ، والمارقطنى ، وغيرهما وهو صحيح . والإطراق : إغارة الضمل ، استطرق فلان فلانا فله ، إذا طلبه ليضرب فى إبله ، وأطرق الضمل الناقة بطرقا طروفا أى قما عليها ، وطروقة الضمل : أثناء ، يقال : ناقة طروقة الضمل لتي يلتفت أن يطرقها الضمل .

السائلة — قوله تعالى : ( أَنْتَ وَزَوْجُكَ ) . أنت ، تأكيد الضمير الذى فى الفعل ، ومثله فأنهب أنت وريك ، ولا يجوز أسكن وزوجك ، ولا أنهب وريك إلا فى ضرورة الشعر ، كما قال :  
قلت إذ أقبلت وزهر تهادى • كنتاج الملا تعصف رملًا

فزهر معطوف على المضمر فى أقبلت ولم يؤكد ذلك المضمر ، ويجوز فى غير القرآن على بعد  
ثم وزيد .

الرابعة — قوله تعالى : ( وَزَوْجُكَ ) . لغة القرآن زوج يتبرأه وقد تقدم القول فيه ، وقد جاء فى صحيح مسلم زوجة ، حدثنا عبد الله بن مسleme بن قنبل قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني

من أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه، فتر به رجل فدعاه بجاء فقال : « يا فلان هذه زوجتي فلانة » فقال : يا رسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يمرى من الإنسان بجرى الدم » . وزوج آدم عليه السلام هي حواء عليها السلام ، وهو أول من سمها بذلك حين خلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك ؛ ولو ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته ؛ فلما انتبه قيل : له من هذه ؟ قال : امرأة ؛ قيل : وما اسمها ؟ قال : حواء ؛ قيل : ولم سميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من حمى . روى أن الملائكة سالت عن ذلك لصجرب عليه ، وأنهم قالوا له : أحبها يا آدم ؟ قال : نعم ؛ قالوا لحواء : أنتي يا حواء ؟ قالت : لا ؛ وفي قلبها أضاف ما في قلبه من حبه ؛ قالوا : فلو صدقت امرأة في حبها لزوجها لصدقت حواء . وقال ابن مسعود ، وابن عباس : لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها ؛ فلما انتبه رآها فقال : من أنت ؟ قالت : امرأة خلقت من ضلحك لتسكن إلى ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجة لأنها خقت من أعوج وهو الضلع . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المرأة خلقت من ضلع — في رواية — وإن أعوج نبيء في الضلع أعلاه لن تستقيم لك على طريقة واحدة فإن استقيمت بها — تمتعت [بها] — وبها عرج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها » وقال الشاعر :

هي الضلع العوجة لست تقيمها • ألا أن تقوم الضلوع انكسارها

أتجمع ضعفاً واتسداً على الفتى • أليس عجباً ضعفها واتسداً

ومن هذا الباب استدلل العلماء على مبرأث النكاح المشكل إذا تساوت فيه علامات النساء والرجال من الحية والنسدى والمبال ببعض الأعضاء ، فإن قصصت أضراره عن أضرار المرأة أعطى نصيب رجل ؛ روى ذلك عن علي رضي الله عنه تلاقى حواء من أحد أضراره ، وسأق في المواريت بيان هذا إن شاء الله تعالى .

الطامة - قوله تعالى : ( الْجَنَّةُ ) . الجنة : البستان وقد تقدم القول فيها ولا انقضت لها نجس فيه المنزلة ، والقدرية ، من أنه لم يكن في جنة الخلد وإنما كان في جنة بأرض عدن ، واسدلوا على بدعهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليه ابليس ، فإن الله يقول : ( لَا تَلْقَوْا فِيهَا نَارًا ) . وقال : ( لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ وَلَا تَأْنِيًا ) . ( لَا يَلْقَا سَلَامًا سَلَامًا ) . ولا يخرج منها أهلها لقوله : ( وَمَا هُمْ مِنْهَا بِخَارِجِينَ ) . وأيضاً فإن جنة الخلد هي ذار القدس قدست عن الخطايا والمعاصي تطهرها لها ، وقد لقي فيها ابليس وكذب وأخرج منها آدم وحواه بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يحوز على آدم مع مكانه من الله ويكال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد والملك الذي لا يبلى ؟

الجواب : أن الله تعالى عرف الجنة بالآلف واللام ، ومن قال : أسأل الله الجنة لم يفهم منه في تمارف الخلق إلا طلب جنة الخلد ، ولا يستحيل في العقل دخول ابليس الجنة لتعذر آدم ، وقد لقي موسى آدم عليها السلام فقال له موسى : أنت أشقيت ذريتك وأخرجتهم من الجنة ، فأدخل الآلف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة ، فلم ينكر ذلك آدم ولو كانت غيرها ( رد على موسى فلما سكت آدم على ما قرره موسى سمع أن النار التي أخرجهم الله عز وجل منها بخلاف النار التي أخرجوا إليها : وأما ما احتجوا به من الآي فنلك إنما جملة الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة ، ولا يمنع أن تكون دار غلظ لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قضى عليه بالقضاء ، وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها ، وقد كان مقاتلها يد ابليس ثم أخرجته من بعد المعصية ، وقد دخلها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بها وأنها هي جنة الخلد حقاً ، وأما قولهم : إن الجنة ذار القدس وقد طهرها الله تعالى من الخطايا لجهل منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قسبها وتقدس شوقه فيها المعاصي والكفر والكذب ولم يكن قدسها مما يمنع فيها المعاصي فكذلك دار القدس : قال أبو الحسن ابن بطال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي انحط منها

أدّم به السلام فلا معنى لقول من خالفهم ، وقولهم : كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد ! فيعكبن عليهم ، ويقال : كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء ! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مسكة من عقل ، فكيف بآدم الذي هو أرحم الخلق عقلا على ما قال أبو امامة على ما يأتي .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ . قراءة الجمهور رغدا بفتح الراء ، وقرأ النخعي وابن وثاب بسكونها ، والرغد : العيش الدائم الذي لا عنه فيه ؛ قال :

بينما المرء تراه ناعما • يأمن الأحداث في عيش رغد

ويقال : رغد عيشهم ورغد بضم الراء وكسرهما ؛ وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا في رغد من العيش ؛ وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف . وحيثُ وحيثَ وحيثُ وحيثُ وحوتُ وحوتُ وحوتُ وحوتُ وكلها لغات ذكرها النحاس ، وغيره .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ . أي لا تقرباها با كل لأن الإباحة فيه وقعت ؛ قال ابن العربي : سمعت الشافعي في مجلس النظر يقول : إذا قيل لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تلبس بالفضل ، وإذا كان بضم الراء فإن معناه لا تدن منه ؛ وفي الصحيح : قرب الشيء يقرب قربا أي دنا ؛ وقربته بالكسر أقربه قربانا أي دوت منه ؛ وقربته أقرب قرابة - مثل كتبت أكتب كتابة - إذا سرت إلى الماء وبيتك وبيتته ليلة ؛ والاسم القريب . قال الأعمش : قلت لأعرابي ما القريب ؟ فقال : سير الليل لورد الغد . وقال ابن عطية قال بعض الحنابلة : إن الله تعالى لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضي الأكل وما يدمو إليه وهو القرب ؛ قال ابن عطية : وهذا مثال بين في سدة الذرائع ؛ وقال بعض أرباب المناسك قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ إشارة بالوقوف في الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكاة قمت لا يدموم لأن الخلد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا ينهى ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلْقَةً ﴾ فدل على خروجه منها .

الثامنة - قوله تعالى : ( هَذِهِ الشَّجَرَةُ ) . الاسم المبهم ينبت بما فيه الألف واللام لا غير ، كقولك : مررت بهذا الرجل وهذه المرأة وهذه الشجرة ؛ وقراً ابن مجيßen : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل لأن الهاء فى هذه بدل من ياء ، ولذلك انكسر ما قبلها ، وليس فى الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها وذلك لأن أصلها الياء .

والشجرة والشجرة والشيرة ثلاث لغات وقرئ الشجرة بكسر الشين ؛ والشجرة والشجرة ما كان على ساق من نبات الأرض ؛ وأرض شجيرة وشجرا أى كثيرة الأشجار ؛ وزاد شجير ولا يقال : واد أشجر ؛ وواحد الشجر أشجرة ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة ، شجرة وشجره ، وقصبة وقصبه ، وطرفة وطرفاه ، وحلقة وحلقاه ؛ وكان الأصمى يقول : فى واحد الحلقاء حلقة بكسر اللام مخالفة لأخواتها . وقال سيويه : الشجره واحد وجمع وكذلك القصباء والطرفاء والحلقاء . والمشجر موضع الأشجار ؛ وأرض مشجرة ، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجراً ؛ قاله الجوهري .

التاسعة - واختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نهى عنها فأكل منها ؛ فقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبیر ، وجعلة بن هبيرة : هى الكرم ولذلك حرمت علينا الخمر ؛ وقال ابن عباس أيضاً ، وأبو مالك ، وقنادة : هى السبللة ، والحلبة منها ككل البقر أحلى من العسل وألين من الزبد ؛ قاله وهب ابن منبه ؛ ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبيه ؛ وقال ابن جرير عن بعض الصحابة : هى شجرة التين كذا روى سعيد عن قتادة <sup>(١)</sup> ولتلك تعبى الرؤيا بالتعامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها ذكره السهيلي ؛ قال ابن عطية : وليس فى شىء من هذا التمين ما يعضده خبر وإنما الصواب أن يستقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة تخالف هو إليها وعصى فى الأكل منها ؛ وقال القشيري أبو نصر : وكان الإمام والذى رحمه الله يقول : يعلم على الحيلة أنها كانت شجرة الحنة .

العاشر - واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترب بالقرب وهو قوله تعالى : ( فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ) ؟ فقال قوم : أكلوا من غير أنى أنشبر إليها فلم يتأولوا التهى واقفا على جميع جنبها ، فإن إبليس غره بالظاهر ؛ قال ابن العربي : وبى أول معصية عصى الله بها على هذا القول ؛ قال :



وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنث . وتحقيق المذهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لا حنث فيه ، وقال مالك وأصحابه : إن اقتضى بساط اليمين نيتين المشار إليه لم يحنث بأكل جنسه ، وإن اقتضى بساط اليمين أو نيتها الجنس حمل عليه وحنث بأكل غيره ؛ وعليه حملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عيث له وأريد به جنسها لحمل القول على التفسير دون المعنى . وقد اختلف علماءنا في فرع من هذا وهو أنه إذا حلف ألا يأكل هذه الخطة فأكل خبزا منها على قولين ؛ قال في الكتاب يحنث لأنها مكتبة تؤكل ؛ وقال ابن القوز : لا شيء عليه لأنه لم يأكل حطاة إنما أكل خبزا فراعى الاسم والصفة ، ولو قال في يمينه : لا أكل من هذه الخطة لحنث بأكل الخبز الممول منها ، وفيما اشترى يمينها من طعام ، وفيما أثبت خلاف . وقال آخرون : تأولا النهي على التندب ؛ قال ابن العربي : وهذا وإن كان مسألة من أصول الفقه فقد سقط ذلك ما هنا لقوله : ( فَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ) قرن النهي بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : ( فَلَا يَجْرِمَنَّكَ مِنَ الْجِنَّةِ فَتْنَى ) . وقال ابن السب : إنما أكل آدم بعد أن سته حواء الخمر فسكر وكان في غير عقله ، وكذلك قال يزيد بن قسيط وكانا يحقان بأنه أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل ؛ قال ابن العربي : وهذا فاسد قلا وعقلا ، أما العقل فلم يصح بحال وقد وصف الله عز وجل نمر الجنة فقال : ( لَا فِيهَا غَوْلٌ ) وأما الفصل فلأن الإنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدى إلى الإخلال بالقرائن واقسام الجرائم .

قلت : قد استبط بعض العلماء نبوة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : ( قُلْنَا أَتَأْتُمُنَا بِتَابِعٍ ) فامر الله تعالى أن يأتي الملائكة بتابع ليس حنثهم من علم الله جل وعز . وقيل : أكلها تابعا ومن الممكن أنها نسي الوعيد ؛ قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه بذلك حتما وجزنا فقال : ( وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ أَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَزْمًا ) . لكن لما كان الإتياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة مغالطهم وعز ما يلزمهم من عدم تناسله عن تذكر النهي تخفيا صاربه طعنا أى مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بن آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وصمت في كفة ميزان ووضع علم آدم في كفة أخرى لرجحهم ؛ ومعد قال الله تعالى : ( وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَزْمًا ) .

قلت : قول أبي أمامة هذا عموم في جميع بني آدم . وقد يحتمل أن يخص من ذلك نبياً بعد صلى الله عليه وسلم فإنه كان أوفر الناس حِلماً وعقلاً . وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بني آدم من غير الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقول الأول أيضاً حسن ؛ فظناً أن المراد العيين وكان المراد الجنس ؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهباً وحريراً فقال : « هذان حرامان عليّ ذكورت أمي » . وقال في خبر آخر : « هذان مهلكان أمي » وإنما أراد الجنس لا العيين .

الحادية عشرة — يقال : إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس لإيهامها ، ما يأتي بيانه ، وإن أول كلامه كان معها لأنها وسواس الخدعة ، وهي أول فتنة دخلت على الرجال من النساء ؛ فقال : ما منعنا هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد ، لأنه علم منهما أنها كانتا يحبان الخلد ، فاتاهما من حيث أجهتا . « حبك الشيء يعنى ويصم » . فلما قالت حواء لآدم أنك عليهما وذكر العهد ؛ فالحل على حواء وألحت حواء على آدم إلى أن قالت : أنا أكل قبلك حتى إن أصابني شيء سلمت أنت ؛ فأكلت فلم يضرها ، فأتت آدم فقالت : كل فإني قد أكلت فلم يضرني ؛ فأكل فيسدت لهما سواتهما وحصلتا في حكم الذنب لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ فيجمعهما في التهيؤ ، فذلك لم يزل بها المقوية حتى وجد المنهى عنه منهما جميعاً ، وخفيت على آدم هذه المسئلة . ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجته أو أمته : إن دخلتِ البار فأتينا طالقاً أو حرماناً ، إن الطلاق والتحك لا يقع بدخول إحدهما . وقد اختلف ملأوا في ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال ابن القمام : لا طلاق ولا تمقان إلا باجتماعهما في الدخول حلاً على هذا الأصل وأخذاً بمقتضى مطلق النطق . وقاله سمعون . وقال ابن القاسم خيرة أئمة في تطلقان جميعاً وتمقان جميعاً بوجود الدخول من إحدهما لأن بعض الجنس حنت ؛ كما لو حلفت ألا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحث على كل واحد من إحدهما بل يأكل لفتنة منهما . وقال أشهب : تمتق وتطلق التي دخلت وحدها ؛ لأن دخول كل واحدة منهما شرط في طلاقها . وقال ابن القزويني : وهذا بعيد لأن بعض الشرط لا يكون شرطاً لإحدهما .

قلت : الصحيح الأول ، وإن النهي إذا كان مطلقا على فعلين لا يتحقق المخالفة إلا بهما ؛ لأنك إذا قلت : لا تدخلوا الدار فدخل أحدهما ما وجبت المخالفة منهما ؛ لأن قول الله تعالى : ( وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ) نهى لما ( تَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ) جوابه ، فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلوا ، فلا أكلت لم يصح شيئا لأن النهي عنه ما وجد كلاما . وخي هذا المعنى على آدم قطع ونسي هذا الحكم وهو معنى قوله تعالى : ( وَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَيَ ) . وقيل : نسي قوله : ( إِنَّ هَذَا مَدُونُكَ وَزَوْجُكَ فَلَا يَجُوزُ جَنَّاكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَشَقَى ) . والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف العلماء في هذا الباب هل وقع من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، صائر من الذنوب يؤخذون بها ويصابون عليها أم لا ، بعد اتقانهم هل منهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعا : عند القاضي أبي بكر وعند الأستاذ أبي بكر أن ذلك مقتضى دليل المجزئة ؛ وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل القل على أصولهم ؟ فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمكلمين والمعتزلة : تقع الصائر منهم ؛ خلافا للرافضة حيث قالوا : إنهم معصومون من جميع ذلك ؛ واحتجوا بما وقع من ذلك في الترتيل وثبت من تسلمهم من ذلك في الحديث ، وهذا ظاهر لا خفاء فيه . وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والثاني : إنهم معصومون من الصائر كلها كصمتهم من الكبائر أجمعها ؛ لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وأقوالهم وسيرهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينة ؛ فلو جوزنا عليهم الصائر لم يمكن الاتداء بهم ، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز بمقصد من التسمية والإبادة أو الخطر أو المصيبة ، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتنال أمر له مصيبة لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تارضا من الأصوليين . قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفواني : واختلفوا في الصائر ، والذي غلبه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم ، وصار بعضهم إلى تجريمها ، ولا أصل لهذه المقالة ، وقال بعض المتأخرين من ذهب إلى القول الأول : القائل ينبغي أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسيها إليهم وعلمهم عليها ، وأخبروا بها عن قومهم وسلموا منها واشفقوا منها وآثروا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يحسن التأويل جلتها ولست قفى ذلك آجادهما ، وكل ذلك إنما لا يردى بمصائبهم ؛ وإنما تلك الألفاظ التي رقت منهم عن جنبة الجنود على جهة الخطأ والتسليم أو تأويل دينا إلى ذلك فهي

بالنسبة إلى غيرهم حسنة وفي حقهم سيئة [بالنسبة] إلى مناصبهم وعلو أقدارهم ، إذ قد يؤخذ الوزير بما يناب عليه الناس ؛ فاشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . وقد أحسن الجليل حيث قال : حسنة الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم ، بل قد تلاقم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ تَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . الظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه ، والأرض المظلومة : التي لم تخفقط تم حفرت . قال النابغة :

وقفت فيها أصيلاً لأسألها • عيت بجواباً وما بالرج من أحد

إلا الأوارى ليأيا ما أيتها • والثرى كالحوض المظلومة الجلة

ويسمى ذلك التراب الظلم . قال الشاعر :

فأصبح في غيراء بعد إشاحة • حل العيش مردود عليها ظليها

وإذا غر البعير من غير داه به فقد ظلم ، ومث : " ظلامون للجزر " . وقال : سقانا ظليمة طيبة إذا سقام اللبن قبل إدراكه . وقد ظلم وطبعه إذا سقى منه قبل أن يروى ويخرج زيده . واللبن مظلوم وظليم . قال :

وقائلة ظلمت لكم مسقاني • وهل يخفى على البعير الظلم

ورجل ظليم : شديد الظلم . والظلم : الشرك . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَشْرَكْتَ بِظُلْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا يَتَّخِذُنَا ﴾ . حذف النون من كلاله أمر ، وحذفت الهزة لكثرة الاستعمال ، وسنناها شاذة . قال سيويه : من العرب من يقول أؤ كل فتم . يقال منه : أكلت الطعام كلا وما كلا ؛ والأكلة بالفتح : المرة الواحدة حتى تشبع ؛ والأكلة بالضم : اللقمة ؛ تقول : أكلت أكلة واحدة أي لقمة ، وهي القرصة أيضاً ؛ وهذا الشيء أكلة أي طعمة لك . والأكل أيضاً ما أكل . ويقال : فلان ذواكل إذا كان ذا حظ من الدنيا وورق واسع . ﴿ وَغَدَا ﴾ . غداً مصدر مخوف أي أكلا وُعداء قال ابن كيسان : ويحوز أن يكون معدوا في موضع الحال . وقال مجاهد : رغداً أي لإحساب

عليهم . والرغد في اللغة : الكثير الذي لا يتك . ويقال : أرغد القوم إذا وقفوا في خصب وسعة .  
وقد تقدم هذا المعنى . و ( حيث ) مبنية على الضم لأنها خالفت أعوانها الظروف في أنها لا تنصب  
فأثبتت قبل وبعد إذا أفردت فضمت ، قال الكسائي : لغة قيس وكافة الضم ، ولغة تميم الفتح ؛  
قال الكسائي : وينو أسد يخفضونها في موضع الخفض وينصبونها في موضع النصب ؛ قال الله  
تعالى : ( سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ) وتضم وتفتح . ( وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ ) الماء من  
هذه بدل من ياء الأصل لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم في العربية ماء تأنيث مكسورا  
ما قبلها إلا ماء هذه . ومن العرب من يقول : هاء هند ، ومنهم من يقول : هاء هند ؛ وحكى  
سيبويه : هذه هند يأسكان الماء . وحكى الكسائي عن العرب : ولا تقرأ هذى الشجرة . وعن  
شبل بن عباد قال : كان ابن كثير وابن عيمس لا يشنان الماء في هذه في جميع القرآن . وقراءة الجماعة  
ورغدا بفتح السين ؛ وروى عن ابن وثاب والنخعي أنهما سكا التين ؛ وحكى سلة عن القراء قال  
يقال : هذه فلت ، وهذى فلت ياء بعد التال ، وهذا فلت بكسر التال من غير الحاق ياء  
ولا هاء ، وهما فلت . قال هشام ويقال : تا فلت . وأشد :

خليل - لولا ساكن الدار لم أتم . بسا الدار إلا ما بر ابن سيل

قال ابن الأثيري : وتا بإسقاط ها بمزة ذى بإسقاط ها من هذى ، وبمزة ذه بإسقاط ها  
من هذه . وقد قال القراء : من قال حد قامت لا يسقط ها لأن الاسم لا يكون على ذال واحدة .  
( فَتَكُونُ ) . عطف على تقريرا فذلك حذف النون ؛ وزعم الحري أن القاء هي الناصبة . وكلاما بائرا .  
— قوله تعالى : ( فَازْلَمْنا الشَّيْطَانُ عَنَّا فَاتَّخِذْهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ) . فيه عشر مسائل :

الأول — قوله تعالى : ( فَازْلَمْنا الشَّيْطَانُ عَنَّا ) قرأ الجماعة فازلما بنيرانف ، من الزلة وهي  
الخطيئة أى استلما وأوقعا فيها ، وقرأ حزة : فازلما بالنف ، من النتيجة أى نعلما . يقال : أزله  
زوال . قال ابن كيسان : فازلما من الزوال أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءة ثلث بمعنى ، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى . يقال منه : أزله  
زول . ودل على هذا قوله تعالى : ( إِنَّمَا اسْتَزَلَّنا الشَّيْطَانُ بَيْنَ مَآكِنَا ) ؛ وقوله : ( قَوْمِمْ  
لَمْنا الشَّيْطَانُ ) . والوسوسة إما هي إغتيال في الزلل بالمعصية ؛ وليست للشيطان قدرة على زوال

أحد من مكان إلى مكان، [إنا قدرته] إدخاله في الزلزال، فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان بنفيه . وقيل : إنه معنى أولها من زل عن المكان إذا تحيى ، فيكون في المعنى كفرة حمزة من الزوال . قال أجمرو القيس :

يَزِلُّ السَّلامُ الخُفَّ عن صَوَّابِهِ • وَيُلَوِّي بِأَتُوبِ العَنَبِ لِلْمَثَلِ

وقال أيضا :

كُنْتُ يَزِلُّ اللَّبَدُ من حالٍ مثله • كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالنَّسَلِ

الثانية - قوله تعالى : ( فَانْزَجْنَاهُمَا يَمًا كَأَنَّهُ يَوْمَ ) . إذا جعل أزال من زال عن المكان قوله : ( فَانْزَجْنَاهُمَا ) تأكيد وبيان للزوال ، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة ، وليس كذلك ، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض ، لانهما خلقا منها ، وليكون آدم خليفة في الأرض . ولم يقصد إبليس - لعنه الله - إخراجها منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أبعد هو ، فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده ، بل ازداد سخنة عين وغيظ نفس وخيبة ظن . قال الله جل شأوه : ( ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ) فصار عليه السلام خليفة الله في أرضه بعد أن كان جارا له في داره ، فكم بين الخليفة والجار ! صلى الله عليه وسلم . ونسب ذلك إلى إبليس لأنه كان بسببه وأغوائه . ولا خلاف بين أهل التأويل وضمير أن إبليس كان متولئغوا آدم ، واختلف في الكيفية ، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء : أغواها مشافهة ، ودليل ذلك قوله تعالى : ( وَقَامَسَهُمَا إِلَى لَمَّا لَمِنَ النَّاجِيَيْنِ ) ، والمقاسمة ظاهرها المشافهة . وقال بعضهم ، وذكره عبد الرزاق من وهب بن منبه : دخل الجنة في ثم الحية وهي ذات أربع كالبعثة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن مرض نفسه على كثير من الحيوانات فلم يدخله إلا الحية ، فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فآخذ من الشجرة التي تنهى آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حواء فقال : انظري إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ! وأطيب طعمها ! وأحسن لونها ! فلم يزل يقولها حتى أخذتها حواء فاكلتها ، ثم أغوى آدم ، وقالت له حواء : كل فإني قد اكلت فلم يضرني . فآكل منها فبعث لما سواتهما وحسلا في حكم القتب ، فدخل آدم في جوف الشجرة فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال : أنا هنا يا رب ، فقال : ألا انزعج مني ؟ قال : أسمعني منك يا رب . قال : فبعثني إلى الأرض

التي خلقت منها؛ ولعنت الحية وودت قوائمها في جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم؛ ولذلك أمرنا بقتلها، على ما يأتي بيانه. وقيل لحواء: كما آدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتجلين وتبعين كرما تشرب به على الموت مرارا. زاد الطبري والنقاش: وتكون سفينة وقد كنت حليلة. وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعدما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووساوسه التي أعطاه الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». والله أعلم. وسأني في الأعراف أنه لما أكل بني عربا وطلب ما يستربه فتبادلت عنه الأشجار ويكتوه بالمصيبة، فرحمته شجرة اللين، فأخذ من ورقه فاستربه، فبلى بالمرى دون الشجر. والله أعلم. وقيل: إن الحكمة في إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا.

الثالثة — يذكر أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام في الجنة فغاثت بأن مكنت عدو الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلما أبطوا تأكلت العداوة وجعل رزقها التراب، وقيل لما: أنت مدفون بآدم وهم أعدائك وحيث لقيك منهم أحد شخ رأسك. روى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يخس يقتلن الحرم» فذكر الحية فيمن. وروى أن إبليس قال لما: أدخلني الجنة وأنت في نقي، فكان ابن عباس يقول: اغفروا ذمة إبليس. ورويت ساكنة بنت الجعد عن سرية بنت نهبان التتوية قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أقتلوا الحيات مصغرها وكبرها وأسودها وأيضا فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومن قتلته كان شهيدا». قال معاوية: وإنما كانت له فداء من النار لما شاركها إبليس وإغاثته على ضرر آدم وولده؛ فقلت كان من قتل حية نكأها قتل كلفرا. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجمع كافر وقاطن في النار أبدا». أخرجه مسلم وغيره.

الرابعة — روى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن أبي حنيفة بن عبد الله بن مسعود قال: «كأن النبي صلى الله عليه وسلم بنى قوت حية قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقتلوا» فبقتنا إلى حجر فدخلته؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ماتوا بسفينة وتار فأضرموها علينا نارا».

قال علي بن أبي طالب: وهذا الحديث يخص نبيه عليه السلام عن الملائكة وعن أن يذنب أحد سبب الله تعالى؛ قالوا: فلم يبق لهذا البدو حرة حيث نالته حتى أوصل إلى الملاك من حيثة قلب هذا.

فإن قيل : قد روى عن إبراهيم النخعي أنه كره أن تحرق القرب بالنار ، وقال : هو مشلة . قيل : يحتمل أن يكون لم يسله هذا الأمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمل على الأمر الذي جاء ألا تعذبوا بنذاب الله ؛ فكان على هذا سبيل العمل عنده .

فإن قيل : قد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار وقد أنزلت عليه : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا ﴾ فنحن نأخذها من فيه رطبة إذ خرجت علينا حية ، فقال : " اقلوها " ؛ فابتدرناها لقتلها فسبقتنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وقاما الله شرك كما وقاكم شرها " ؛ فلم يضرهم نارا ولا احتال في قتلها ، قيل له : يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركه أو لم يكن البحر بيئة ينفع بالنار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان . والله أعلم . وقوله : " وقاما الله شرك " أي ظلمكم إياها " كما وقاكم شرها " أي لسمها .

الخامسة - الأمر بقتل الحيات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المخوفة من الحيات ، فإكان منها محتق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله ؛ لقوله : " اقلوا الحيات واقلوا ذا الطنينين والأبر بنائهما يحفظان البصر وينسقان الحبل " ؛ لخصهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونسبه على ذلك بسبب عظم ضررهما . وما لم يتحقق ضرره ، فما كان منها في غير البيوت قتل أيضا لظاهر الأمر العام ولأن نوع الحيات غالبه الضرر ، فيستصحب ذلك فيه ، ولأنه كله مرقع بصورته وبما في النفوس من الشفرة عنه ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية " ؛ فشجع على قتلها . وقال فيما نرجحه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا : " اقلوا الحيات [ كلهن ] فمن خلف ثأرهن فليس مني " . والله أعلم .

السادسة - ما كان من الحيات في البيوت فلا يقتل حتى يؤذن ثلاثة أيام لقوله عليه السلام : " إن المدينة حيا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فأنفوه ثلاثة أيام " . وقد حل بعض العلماء هنا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجن بها ؛ قالوا : ولا تعلم هل أسلم من جن غير المدينة أحد أولا .

قال الشيخ رحمه الله : (١) قد علقنا أسودان على ظهره قال الأصبغ : أراد به السلقين اللذين على ظهره بنحو من يحرس القوم وما يلقان من الشاة (٢) الزيادة من الجامع الكبير .



قاله ابن نافع . وقال مالك : نهى عن قتل جنان البيوت في جميع البلاد ؛ وهو الصحيح ؛ لأن الله عز وجل قال : ( وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَافِلًا مِّنَ الْيَتِيمِ الَّذِينَ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ ) الآية . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أناي داعي الجن فنهبت معهم قرات عليهم القرآن" وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة ، الحديث ؛ وسيأتي بأكاله في سورة الجن إن شاء الله تعالى . وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يخرج عليه وينذر على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعة - روى الأئمة عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة أنه دخل حل أبي سعيد الخدري في بيته ، قال : فوجدته يصل ؛ فجلست أنتظر حتى يقضى صلاته ، فسمعت تحريكاً في حجاب بيت البيت ، فالتفت فإذا حية ، فوثقت لفتها ؛ فآشار إلى أن أجلس بجلست ؛ فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم ؛ قال : كان فيه قتي من حديث عهد بفرس ؛ قال : فتفرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق ؛ فكان ذلك القتي يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصناف التماس فخرج إلى أهله ؛ فاستأذنه يوماً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قريظة" ؛ فآخذ الرجل سلاحه ثم يرجع ؛ فإذا امرأته بين اليدين قائمة ، فأهوى إليها بالرجح ليطنها به وأصابته غيرة ؛ فقالت له : اكفف عليك رجلك وادخل البيت حتى تنظر ما ألقى أخرجني ؛ فدخل فإذا بحية عظيمة متعلوية على الفراش فأهوى إليها بالرجح فانتظمها به ، ثم خرج فركه في الدار فاضطربت عليه ؛ فأيدي لهما كان أسرع موتاً ، الحية أم النبي ؛ قال : فبينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له ، وقاله : أدع الله بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فقال : "استغفروا لأخيكم" ثم قال : "إن بالمدينة جماعة قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيطاناً فاذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان" . وفي طريق أخرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لهذه البيوت عوامراً فإذا رأيتم شيطاناً خرجوا عليها ثلاثة فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر" . وقال لم : "اتعبدوا

(١) جنان جمع جنان قريب من الجنات أكل البني يخرق لك التوبة لا يؤذي بكثر البيوت .

(٢) الزيادة من صحيح مسلم .

(٣) في صحيح مسلم : (وهناكم) .

فادفنوا صاحبكم" . قال علماءنا رحمته الله عليهم : لا يفهم من هذا الحديث أن هذا الحائض الذي قتلته هذا القتي كان مسلماً وأن الجن قتله به قصاصاً ؛ لأنه لو سلم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إما يكون في العمد المحض ؛ وهذا القتي لم يقصد قتل نفس مسلمة ؛ إذ لم يكن عنده علم من ذلك ؛ وإما قصد إلى قتل ما سوغ قتل نوعه شرعاً ؛ فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه . فالأولى أن يقال : إن كفار الجن أو فسقهم قتلوا القتي بمصاحبهم عدواً واستقاما . وقد ظلت سعد بن عبادة رضي الله عنه ؛ وذلك أنه وجد ميتاً في مفسله وقد أخضر جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول ولا يرون أحداً :

قد قتلنا سيد الخمر \* روج سعد بن عبادة

ورميناه بهميم \* من فلم نخط فؤاده

وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة جناً قد أسلموا" ليعين طريقاً يحصل به التحرز من قتل المسلم منهم ويتسلط به على قتل الكافر منهم . روى من وجوه أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ظلت جاثاً فأرقت في المنام أن قائلاً يقول لها : لقد قتلت مسلماً ؛ فقالت : لو كان مسلماً لم يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك ؛ فأصبحت فأمريت باثني عشر ألف درهم فحلفت في سبيل الله . وفي رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترية قصدت وأعصت رقاباً . وقال الزبيدي بن بشر : الحائض من الحيض التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قطعها هي التي تمشي ولا تتنوي ؛ وعن طهمة نحوه .

الثالثة - في صفة الإختار ؛ قال مالك : أحسب إلى أن يندروا ثلاثة أيام . وقال ميسرة بن ديار : وإن ظهر في اليوم مراراً ، ولا يقتصر على إتيانه ثلاث مرار في يوم واحد حتى يكون في ثلاثة أيام . وقيل : يكفي ثلاث مرار ؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثون ثلاثاً" ، وقوله : "مترجواً عليه ثلاثاً" ، ولأن ثلاثاً العدد المكون ، ونظير أن المراد ثلاث مرار . وقول مالك أولى ؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام" . وهو نص صحيح مقيد تلك المطلقات ؛ ويحمل ثلاثاً على إرادة ليلي الأيام الثلاث ، فظلت الليلة على عادة العرب في باب التاريخ عليها تطلب فيها التائيد . قال مالك : ويكفر في الإختار أن يقول : أخرج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبذلوا ولا تؤذينا . وذكر ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى

أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيا في مساكنكم تقولوا : أنشدكم بالهد الذي أخذ عليكم نوح عليه السلام ، وأنشدكم بالهد الذي أخذ عليكم سليمان عليه السلام ، وإذا رأيتم منهم شيا بعد تأكلوه .

قلت : وهذا يدل بظاهره أنه يكفى في الإذنب مرة واحدة ، والحديث يردّه . والله أعلم .  
وقد حكى ابن حبيب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يقول : " أنشدكن بالهد الذي أخذ عليكم سليمان عليه السلام ألا تؤذينا وألا تظهرن علينا " .

التاسعة — روى جبير بن نفير عن أبي ثعلبة الخشني — واسمه جزوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجن على ثلاثة أثلث فثلث لم أجنة يطرون في الهواء وثلث حيات وكلات وثلث يحلون ويظنون " . وروى أبو برداء — واسمه عويمر — قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الجن ثلاثة أثلث فثلث كلاب وحيات وخشاش الأرض وثلث ربيع هفافة وثلث كبنى آدم لم التراب وطعم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلث فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها إن هم إلا كلاب أبلاب بل هم أضل سبيلا وثلث أجسادهم كأجساد بني آدم وتلوهم قلوب الشياطين وثلث في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله " .

العاشرة — ما كلف من الحيوان أصله الأذنة فإنه يقتل ابتداء لأجل أذنه من غير خلاف كالحية والعقرب والفأر والوزغ وشبهه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بمنس فواسق يقتل في الحبل والحرم " وذكر الحديث ؛ فالحية أبدت جوفها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فكئها ولو كانت تبره ما تركها وضوان تدخل به ، وقال لها إبليس أنت في ذمتي ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال : " اقتطعوا وإن كنتم في الصلاة " يعني الحية والعقرب . والوزغة فصخت على ثامر إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فقتلت . وهذا من نوع ما يروى في الحية ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قتل وزغة فكأنما قتل كافرا " وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من قتل وزغة في أول خربة كتبت له مائة حسنة وفي الثانية دون ذلك وفي الثالثة دون ذلك " . وفي رواية أنه قال : " في أول خربة سبعون حسنة " . والفأرة أبدت جوفها بأن عمدت إلى خبال سقينة نوح عليه السلام فقتلتها .

وروى عبد الرحمن بن أبي نعيم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقتل الحرم الحية والمقرب والحداة والبعج المادي والكلب المقور والقويسقة». واستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذت قتيبة لتحرق البيت فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها. والفراب أبدى جوهره حيث بعثه نبي الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض، فترك أمره وأقبل على حيفة. هذا كله في معنى الحية؛ فذلك ذكرناه. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في التعليل في المائدة وغيرها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) . فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى: (وَقُلْنَا اهْبِطُوا) . حذف الألف من «اهبطوا» في اللفظ لأنها ألف وصل. وحذفت الألف من «قلنا» في اللفظ لسكونها وسكون الماء بعدها. وروى محمد بن مصفى عن أبي حنيفة ضم الياء في «اهبطوا» وهي لغة يقرؤها أنه غير متعة، والأكثر في غير المتصدي أن يأتي على يَفْعُل . ولخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان في قول ابن عباس؛ وقال الحسن: آدم وحواء والوسوسة؛ وقال مجاهد والحسن أيضا: بنو آدم وبنو إبليس. والمهبوط: القول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم ببرئيت من المند يحيل يقال له «بود» ومعه ريح الجنة فعاق بشجرها وأوديتها فامتلا ما هناك طيا؛ فمن ثم يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام. وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع، فأورث ولده الصلع. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا» الحديث؛ وأخرجه مسلم وسيأتي. وأهبطت حواء بكفة، وإبليس بالأبله، والحية بيسان، وقيل: ببجستان، وبجستان أكثر بلاد الله حيات ولولا الأريدة ما يأكلها ويفني كثيرا منها لأخليت ببجستان من أجل الحيات؛ ذكره أبو الحسن المصمودي.

الثانية - قوله تعالى: (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) . بضمك مبتدا، عدو خبره، والجملة في موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم. وحذفت الواو من «وبعضكم» لأن في الكلام عائدا؛ كما يقال: رأيتك الساء تطهر عليك. والعدو: خلاف الصديق، وهو من عاد إنا ظلم، وقتب مدوان؛ يبدو على

الناس . والمُنُون : الظلم الصراح ، وقيل : هو مأخوذ من المجاوزة ، من قَوَّك : لا يدوك هذا الأمر أى لا يتجاوزك ، وعده إذا جاوزه ؛ فسمى عدواً لمجاوزة الحد في مكروه صاحبه ، ومنه اندو بالقدم لمجاوزة الشيء ، والمعينان متقاربان ؛ فان من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : ( لَيْعُنْهُ ) على الإنسان نفسه ، وفيه بعد وإن كان محمياً معنى يدل عليه قوله عليه السلام : " إن العبد إذا أصبح يقول جوارحه لسانه : اتق الله فبنا ، فإك إن استعنت استعنا ، وإن أعوتجت أعوتجت " . فإن قيل : كيف قال عدو ولم يقل أعداء ، ففيه جوابان . أحدهما : أن بعضاً وكلّاً يغير عنهما بالواحد على اللفظ وعمل المعنى ، وذلك في القرآن قال الله تعالى : ( وَكُلُّهُمْ مَتَّيِّبٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْنَا ) على اللفظ . وقال تعالى : ( وَكُلُّهُمْ شَرٌّ ) على المعنى . والجواب الآخر : أن عدواً يفرد في موضع الجمع ؛ قال الله عز وجل : ( زُمْرٌ لَّكُمْ مَدُونٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ) بمعنى أعداءه ، وقال تعالى : ( يَحْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ طَلَبَهُمْ ) . وقال ابن فارس : المدون اسم جمع الواحد والاثني والثلاثة والتأنيث ، وقد جمع .

الثالثة — لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإحباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أحبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته ، وإنما أحبطه لما تأنيا وإما تليفاً للجنة . والصحيح في إحباطه وسكاه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك وهي تشرافه فيها ليكفهم ويمتنعهم ويرتب كل ذلك ثوابهم وعقابهم الأخرى . إذ الجنة والجنة ليست بدار تكليف ، فكانت تلك الأكلة سهب إحباطه من الجنة . وفيه أن يفعل ما يشاء . وقد قال : ( إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ) . وهذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة ؛ وقد تضمنت الإشارة إليها مع أنه خلق من الأرض . وإنما قلنا إنما أحبطه بعد أن تاب عليه لقوله تانية : ( فَكُلَا مِنْهُمَا ) . وسبأى .

الرابعة — قوله تعالى : ( وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ) . ابتداء ونبرأى موضع استقرار ، قال أبو الباقية وابن زيد ، وقال السدي : مستقر يعني القبور .

قلت : قول الله تعالى : ( جَعَلْ لَّكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا ) يتمثل للمعنى . والله أعلم .

الحامسة - قوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ . المتاع : ما يستمتع به من أكل ولبس وحياة وحديث وإنس وغير ذلك ؛ ومنه سميت متعة التكاثر لأنها تمتع به . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب لإردفته :

وقفتُ على قبر غريب بقفرة • متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارقٍ

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . اختلف المتأولون في الحين على أحوال ؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهذا قول من يقول : المستقر هو المقام في الدنيا ؛ وقيل : إلى قيام الساعة ؛ وهذا قول من يقول : المستقر هو في القبور ؛ وقال الربيع : إلى حين : إلى أجل . والحين : الوقت البعيد ؛ فينبذ تباعد من قولك الآن . قال خويلد :

كأن الرماذ عظيم القدير جفته • حين الشتاء كحوض المنهل اللقيف

لنف الحوض لنفا أى تهوّر من أسفله واتسع . وربما أدخلوا عليه لثاء . قال أبو وجرة :

الماعطون يمين ما من عاطف • والمطمعون زمان أين المطمع

والحين أيضا : المنة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ حَلَّ أَمْرٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ النَّفْسِ ﴾ . والحين :

قال الله تعالى : ﴿ أَوْ قَوْلَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ ﴾ . قال ابن عرفة : الحين : القطعة من الدهر كالساعة فافرقها . وقوله : ﴿ فَتَدْرَهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّىٰ يَبِينَ ﴾ أى حتى تفتى آجالهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ تَوَدَّىٰ أُكْلُهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ أى كل سنة ؛ وقيل : بل كل سنة أشهر ؛ وقيل : بل غدوة وعشيا . قال الأزهري : الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان ؛ كلها طالت أو قصرت ؛ والمعنى أنه يتنفع بها في كل وقت ولا ينقطع نعمها البتة . قال : والحين : يوم القيامة ؛ والحين : الغدوة والشية ؛ قال الله تعالى : ﴿ نَسْجَانِ أَفْهٍ حِينَ تُمْسَوْنَ وَبِغِينٍ تُصْبِحُونَ ﴾ . ويقال : عاملته عابئة ؛ من الحين ؛ وأحيث يملكك إذا أقيمت به حينا ؛ وسان حين كذا أى قرب . قالت بثينة :

وإن سلوى عن جميل لساعة • من الدهر ماحات ولا حان حينها

السابعة - لما اختلف أهل اللسان في الحين اختلف فيه أيضا علماءنا وغيرهم ؛ فقال الفراء :

الحين حيتان : حين لا يوقف على حده ، والحين الذى ذكر الله جل ثناؤه : ﴿ تَوَدَّىٰ أُكْلُهَا كُلَّ حِينٍ وَإِذْ رَجَعَا ﴾ سنة أشهر . قال ابن الرزقي : الحين القهول لا يتماق به حكم ؛ والحين المعلوم هو

الذى تشلق به الأحكام ويرتبط به التكليف؛ وأكثر المعلوم سنة . وما لك يرى في الأحكام والأيمان  
 أم النساء والأزمنة؛ والشافعي يرى الأقل؛ وأبو حنيفة توسط فقال : سنة أشهر . ولا معنى لقوله ؛  
 لأن المقدرات عنده لا تثبت قياساً ، وليس فيه نص عن صاحب التسمية ، وإنما المعول على المعنى  
 بمعرفة مقتضى اللفظ لغة . فمن نذر أن يصلي حياً فيحمل على دكمة عند الشافعي لأنه أقل النافلة ،  
 قياساً على ركعة الوتر . وقال مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان فيقدر الزمان بتقدير الفعل . وذكر  
 ابن خوْزَنَدَاد في أحكامه : أن من حلف ألا يكلم فلا حيا أو لا يفعل كذا حيا ، أن الحين سنة .  
 قاله : واقفوا في الأحكام أن من حلف ألا يفعل كذا حيا أو لا يكلم فلا حيا أن الزيادة على  
 سنة لم تدخل في بيته .

قلت : هذا الاتفاق إنما هو في المنع . قال مالك رحمه الله : من حلف ألا يفعل شيئا إلى حين  
 أو زمان أو دهر ، فذلك كله سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك في الدهر أن يكون سنة . وحكى  
 ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر سنة أشهر . وعن ابن عباس وأصحاب الرأي وعروة  
 وسعيد بن جبير وطاهر الشيبى وعبيدة في قوله تعالى : ( تَوَقَّى أَكْثَرَهَا كُلِّ حِينٍ يَإَيُّهَا رَبِّهِ ) أنه سنة  
 أشهر . وقال الأوزاعي وأبو عبيدة : الحين سنة أشهر ؛ وليس عند الشافعي في الحين وقت معلوم ، ولا الحين  
 غاية ؛ قد يكون الحين عند مدة الدنيا ؛ وقال : لا تحته أبدا ، والورع أن يقضيه قبل آقضاء يوم .  
 وقال أبو ثور وغيره : الحين والزمان على ما تحتمله اللغة ، يقال : قد جئت من حين ولمسه لم يحين  
 من نصف يوم . قال الكيال الطبري الشافعي . وبالجملة الحين له مصارف ؛ ولم ير الشافعي تعيين محل  
 من هذه المحال ؛ لأنه مجمل لم يوضع في اللغة لمعنى معين . وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ( إِلَى  
 حِينٍ ) فاعلمه بشارة إلى آدم عليه السلام ليبلغ أنه غير باق فيها ويشتمل إلى الجنة التي وعد بالرجوع  
 إليها ؛ وهي لغير آدم دلالة على المداخلة . والله أعلم .

قوله تعالى : ( فَخَلَقَ آدَمَ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ) . فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( فَخَلَقَ آدَمَ ) . خلق قيل منه فهم وفطن ؛ وقيل : قبل وأخذ ؛  
 وكاتب عليه السلام يتلقى الوحى أى يستقبله ويأخذه ويستفقه . قول : خرجنا تتلقى الجميع أى

تستقبلهم. وقيل: متى تلقى تلقن؛ وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقى من التلقن فى الأصل لأن أحد الحرفين إنما يقبل يله إذا تجانسا، مثل تلقى من تلقن، وتقبى من تقمص؛ ومثله تسرت من تسورت، وأملت من أملت وشبه ذلك؛ ولهذا لا يقال: تقبى من تقبل، ولاتلقى من تلقن؛ فاعلم - وحكى مكى - أنه ألهمها فانتفع بها - وقال الحسن: قبولها تعلمه لها وعمله بها.

الثانية - واختلف أهل التأويل فى الكلمات؛ فقال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبيرة والضحاك ومجاهد: هى قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وعن مجاهد أيضا: سبحانه اللهم لا إله إلا أنت ربى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم. وقالت طائفة: رأى مكتوبا على ساق العرش «مجد رسول الله» فشقق بذلك، فهى الكلمات. وقالت طائفة: المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء، وقيل: الندم والاستغفار والحزن. قال ابن عطية: هذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الاستغفار الممهود. وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب؛ فقال: يقول ما قاله أبواه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية؛ وقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾؛ وقال يونس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ وعن ابن عباس ووهب بن منبه: أن الكلمات «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوما وظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير العافرين، سبحانه اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوما وظلمت نفسى فاعلم أنك أنت التواب الرحيم». وقال محمد بن كعب: هى قوله: «لا إله إلا أنت سبحانه وبحمدك عملت سوما وظلمت نفسى فاعلم أنك أنت التواب الرحيم». وقال: لا إله إلا أنت سبحانه وبحمدك عملت سوما وظلمت نفسى فاعلم أنك أنت الغفور الرحيم. لا إله إلا أنت سبحانه وبحمدك عملت سوما وظلمت نفسى فاعلم أنك أرحم الراحمين». وقيل: الكلمات قوله حين عطف: «الحمد لله». والكلمات: جمع كلمة. والكلمة تقع على القليل والكثير. وقد تقدم.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿تَابَ عَلَيْهِ﴾. أى قبل توبته أو وقته للتوبة؛ وكان ذلك فى يوم عاشوراء فى يوم جمعة، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى. وتاب العبد: رجع إلى طاعة ربه. وعيد تواب: كثير الرجوع إلى الطاعة. وأصل التوبة الرجوع؛ يقال: تاب وتاب وتاب وأتاب: رجع.



الرابعة - إن قيل : لم قال عليه ولم يقل عليها وحوله مشاركة له في التنب بإجماع، وقد قل : **(وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)** و**(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا)**، فالجواب أن آدم عليه السلام لما حوطب في أول القصة بقوله : **(أَسْكُنْ)** خصه بالذكر في التلق، فذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضا فلأن المرأة حرة ومستورة فأراد الله الستر لها، ولذلك لم يذكرها في المصبة في قوله : **(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)**، وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تذكر، كما لم يذكر قتي موسى مع موسى في قوله : **(أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ)**، وقيل : إنه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليهما إذ أمرهما سواء، قاله الحسن وقيل : إنه مثل قوله تعالى : **(وَإِنَّا رَأَوْنَا ظِمَارًا أَوْ لَهْمًا اتَّقُوا اللَّهَ)** أي التجارة لأنها كانت مقصود القوم، وأعاد الضمير عليهما ولم يقل إليهما، والمعنى متقارب . وقال الشاعر :

وما نى بأمر كنت منه ووالدي • برشا ومن فرق العلوى رمانى

وفي التبريل : **(وَاللَّهُ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ)**، فحذف إيمانا واختصارا .

الخامسة - قوله تعالى : **(إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)** . وصف خصه سبحانه وتعالى بأنه التواب، وتكرر في القرآن مرفعا ومنكرا واسما وفعلًا . وقد يطلق على العبد أيضا تواب، قال الله تعالى : **(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)** . قال ابن العربي : ولعلنا في وصف الرب بأنه تواب ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنه يجوز في حق الرب سبحانه وتعالى فيدعى به كما في الكتاب والسنة ولا يتأول . وقال آخرون : هو وصف حقيق لله سبحانه وتعالى؛ وتوبة الله على العبد رجوعه من حال المصيبة إلى حال الطاعة . وقال آخرون : توبة الله على العبد بقوله توبته؛ وذلك بمحتل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسئ وإجراله الطاعات على جوارحه الظاهرة .

السادسة - لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى تائب : اسم فاعل من تاب بنسب لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه، أو نبيه عليه السلام، أو جماعة المسلمين، وإن كان في اللغة محتملا جائزا . هذا هو الصحيح في هذا الباب، كل ما يثاب في الكتاب فلا سبي في شرح أسماء الله الحسنى . قال الله تعالى : **(قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)** .

وقال : (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) . وإنا نقبل الله عز وجل : تواب ، لمبالغة القبول وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعة - اعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة ، لأن الله سبحانه وتعالى هو المفرد بخلق الأعمال ، خلافا للعتاة ومن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يفرغه . قال طائفة : وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله جل وعز ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الحبر أو الراهب فيعطيه شيئا ويحط عنه ذنوبه (أقرء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) .

الثامنة - قرأ ابن كثير : (فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ) ؛ والباقر بن رفيع آدم ونصب كلمات . والقرءان ترجمان إلى معنى لأن آدم إذا تلقى الكلمات فقد تفقته . وقيل : لما كانت الكلمات هي المقتضى لآدم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة ، وكان الأصل على هذه القراءات تفقت آدم من ربّه كلمات ؛ ولكن لما بعد ما بين المؤنث ونعله حسن حذف علامة التأنيث . وهذا أصل يجري في كل القرآن والكلام إذا جاء فصل المؤنث بنبر ملامه ؛ ومنه قولهم : حضر القاضي اليوم امرأة . وقيل : إن الكلمات لما لم تكن تانيضا حقيقيا حل على معنى الكلم فذكر . وقرأ الأعمش : (آدم من ربّه) مدحضا . وقرأ أبو نوح بن أبي عقرب : (أنّه) بفتح الميمزة ، على معنى لأنه ؛ وكسر الباقون على الاستثنا . وأدغم الماء في الماء أبو عمرو وعيسى وطلحة فها حكى أبو حاتم عنهم ؛ وقيل : لا يصوز ، لأن بينهما ولوا في اللفظ لا في الخط . قال النحاس : أجاز سيويه أن تحذف هذه الواو وأنشد :

له زيل كأنه صوت حاد . إذا طلب الموسيقى أو زير

فعل هذا يميز الإدغام . وهو رفع بالابتداء ، التواب خبره ، والجملة خبر إن . ويموز أن يكون هو توكيدا لله ، ويموز أن تكون تامة ، حل ما تختم .

وقال سعيد بن جبير : لما أحبط آدم إلى الأرض لم يكن فيها شيء غير النسر في البر ، والحوت في البحر ، فكان النسر ياتي إلى الحوت فيبت عنده ؛ فلما رأى النسر آدم قال : يا حوت ، لقد

أحيط اليرم إلى الأرض شيء يمشي على رجليه ويطش يديه فقال الموت : أنت كنت مادقا  
مالي منه في البحر ملجأ ، ولا لك في البر منه غلص !

قوله تعالى : ( قُلْنَا اهْبِطُوا ) . كرر الأمر على جهة التنليظ وتأكيده ؛ كما تقول لرجل : قم قم .  
وقيل : كرر الأمر لما علق بكل أمر منهما حكما غير حكم الآخر : فعلق بالأول العيلة ، والثاني  
إتيان الهدى . وقيل : الهبوط الأول من الجنة إلى السماء ، والثاني من السماء إلى الأرض ؛ وعلى  
هذا يكون فيه دليل على أن الجنة في السماء السابعة ، كما دل عليه حديث الإسراء على ما يأتي .  
( جميعا ) نصب على الحال . وقال وهب بن منبه : لما هبط آدم طيه السلام إلى الأرض ،  
قال إبليس للسياح : إن هذا عدو لكم فاهلكوه ؛ فاجتمعوا وولوا أمرهم إلى الكلب وقالوا :  
أنت أشجعنا وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحير في ذلك ؛ فقام جبريل عليه السلام  
وقال له : اسح يدك على رأس الكلب ففعل ؛ فلما رأت السياح أن الكلب ألق آدم تحرقوا ؛  
واسأمت الكلب فامته آدم ، فبقي معه ومع أولاده . وقال الترمذي الحكيم نحو هذا ؛ وإن آدم عليه  
السلام لما هبط إلى الأرض جاء إبليس إلى السياح فأشلام على آدم ليؤذوه ؛ وكان أشتمهم عليه  
الكلب ، فأمرت قواده ؛ فروى في الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعا  
فاطمأن إليه والله ، فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وموت قواده يفرح من الأديين ؛  
فلوروى بحدروى حاربا ثم يود ألقا لهم . فقيه شعبة من إبليس ، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام ؛  
فهو بشعبة إبليس ينبع ويبرز ويعلو على الآدي ، وبمسحة آدم مات قواده حتى ذل وأتقادوا لث به  
وبولده يحرسهم ، ولهنه على كل أحواله من موت قواده ؛ ولذلك شبه الله سبحانه وتعالى العلماء  
السوء بالكلب ، على ما يأتي بيانه في الأعراف إن شاء الله تعالى ؛ وتزلت عليه تلك المصا التي جعلها  
الله آية لموسى ، فكان يطرد بها السياح عن قومه .

قوله تعالى : ( فَلَمَّا يَأْتِيَكَ بِئْسَ الْهَدَى ) . اختلف في معنى قوله : ( هدى ) ، فقليل : كلب الله ،  
قاله السدي ؛ وقيل : التوفيق لله لهداية ؛ وقالت فرقة : الهدى : الرسل ، وهي إلى آدم من الملائكة ،  
وإلى نبيه من البشر ، كما جاء في حديث أبي ذر : وعمرته الأجرى . وفي قوله : ( بئس ) إشارة

إلى أن أنزل البادخانيّة تعالى ، خلافا للندرية وغيرهم ، كما تقدم . وقرا الجحدريّ هديّ ، وهو لغة هذيل ، يقولون : هديّ وعصى ونجى . وأشدّ البحرىون لأبى ذؤيب بنى بنه :  
سبقوا هوىً وأعقوا هواهم . فتخروا ولكل جنّ مصرع

قال النحاس : وعلة هذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سيل ياء الإضافة أن يكسر ما قبلها ؛ فلما لم يجوز أن تتحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت . وإثباتى قوله : ( إِيّا ) زائدة على إن التى للشرط ، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثانى فى قوله : ( قَن تَسِع ) . ومن فى موضع رفع بالابتداء ، وتبع فى موضع جزم بالشرط ؛ ( فَلَا خَوْفٌ ) جوابه . قال سيبويه : الشرط الثانى وجوابه هما جواب الأول ، وقال الكاسى : ( فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ) جواب الشرطين جميعا .

قوله تعالى : ( فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ) . الخوف هو الذعر ، ولا يكون إلا فى المستقبل . وخافنى فلان نخفته أى كنت أشدّ خوفا منه . والخوف : النقص ، ومنه قوله تعالى : ( أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ) . وقرا الزهرى والحسن وعيسى بن عمرو ابن أبى إسحاق ويعقوب : ( فَلَا خَوْفٌ ) بفتح القاء على التثنية ، والاختيار عند التحوين الرفع والتثنية على الابتداء ؛ لأن الثانى معرفة لا يكون فيه إلا الرفع ؛ لأن لا لا تعمل فى معرفة ، فاختاروا فى الأول الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون لا فى قولك : فلا خوف ، بمعنى ليس .

والحُزْن والحُزْن : ضد السرور ، ولا يكون إلا على ماض . وحزن الرجل ( بالكسر ) فهو حزين وحزين ، وأحزنه غيره وحزنه أيضا ، مثل أسلكه وسلّكه ؛ ومحزون بنى عليه . قال البرزى : حزنه لغة فريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . واحترن وتحزن بمعنى . والمعنى فى الآية فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما قطعهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين ، وإنما صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا ) أى أشركوا ، لقوله : ( وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ) . الصحبة : الاقتران بالنسب ، فى حالة ما . فى زمان ما ، فإن كانت الملازمة والمخلطة ههنا كمال الصحبة ؛ وههنا هي صحبة أهل النار . وبهذا القول يتفك الخلاف فى تسمية الصحابة رضى الله عنهم

إذ مراتبهم شبابه، على ما بينه في « برائة » ابن شاه الله ، وباقى ألقاظ الآية تقسم معناه والحمد لله .

قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا إِسْرَائِيلُ ) تلاءم مضاف ، علامة النصب فيه الياء وحذفت منه النون للإضافة، الواحد أب، والأصل فيه بئ، وقيل : بنو، فن قال : المحذوف منه واو احتج بقولم : البتة . وهذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا : الفتوة، وأصله الياء . وقال الزجاج : المحذوف منه عدى ياء كأنه من بيت . الأخفش اختار أن يكون المحذوف منه الواو لأن حذفها أكثر لفظها . ويقال : ابن من البتة ، والتصغير بئ . قال الفرار : يقال : يا بئ و يا بئ لثنان مثل يا أبت يا أبت وقرى بهما . وهو مشتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء ، والابن فرع الألب وهو موضوع عليه .

« إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . قال أبو الفرج الجوزي : وليس في الأتنياء من له آسمان غيره إلا نيتا عبد صلى الله عليه وسلم لأن له أسماء كثيرة . ذكره في كتاب « نفوس الآثار » ٤ .

قلت : وقد قيل في المسيح : إنه اسم علم لمسمى عليه السلام غير مشتق، وقد سماه روحا وكلمة، وكانوا يسمونه أبيل الأيلين؛ ذكره الجوهرى في الصحاح . وذكر البيهقي في دلائل النبوة من الخليل ابن أحمد : تحية من الأتنياء ذوو آسمين، عبد واحد نيتا صلى الله عليه وسلم، ومسمى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل، صلى الله عليهم وسلم

قلت : قد ذكرنا أن لمسمى أربعة أسماء، وأما نيتا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة بيانها في مواضعها .

وإسرائيل اسم أعجمي، ولذلك لم ينصرف؛ وهو في موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغات : إسرائيل وهي لغة القرآن ، وإسرائيل بمدة مهموزة مخلفة حكاهما شلبوذ عن وشر؛ وإسرائيل بمدة بعد الياء من غير مز وهي قراءة الأعشى وعيسى بن عمر، وقرا الحسن والزهرى بنير مز ولا مد، وإسرائيل بنير ياء همزة مكسورة؛ وإسرائيل همزة مفتوحة . ونعم يقولون : إسرائيل بالنون .

ومعنى إسرائيل عبد الله؛ قال ابن عباس : إسرائيل بالعبرانية هو عبد وإيل هو الله؛ وقيل : إسرائيل هو جعفر بن إيل هو الله؛ وقيل : إسرائيل من الله؛ فكان إسرائيل الذي شدة الله وأحسن خلقه؛ ذكره المهدوي .

وقال السبيل: سمى إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى؛ فسمى إسرائيل أي أسرى إلى الله وغو هذا؛ فيكون بعض الاسم عبرانياً وبعضه موافقاً للعرب . والله أعلم

قوله تعالى: ﴿ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْصَرْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ . الذكرا اسم مشترك؛ فالذكر بالقلب ضد النسيان، والذكر باللسان ضد الإنصات، وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذكرًا؛ واجمله منك على ذكر (بضم النال) أي لا تنسه . قال الكسائي: ما كان بالضمير فهو مضموم النال، وما كان باللسان فهو مكسور النال؛ وقال غيره: هما لتان، يقال: ذكر وذكُر، ومماهما واحد، والذكر (بفتح النال) خلاف الأُنثى . والذكر أيضا الشرف؛ ومنه قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ . قال ابن الأنباري: والمعنى في الآية أذكركم شكر نعمتي، وخفف الشكر اكتفاء بذكر النعمة . وقيل: إنه أراد الذكرا بالقلب وهو المطلوب أي لا تنفلوا عن نعمتي التي أنصرت عليكم ولا تناسوها؛ وهو حسن . والنعمة هنا اسم جنس فهي مفردة بمعنى الجمع؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَدُلُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ﴾ أي نعمه . ومنه طيمم أنا نعلم من آل فرعون، وجعل منهم أنبياء، وأزل عليهم الكتب واللقن والسلاوي، وفقر لهم من الحجر الماء، إلى ما استودعهم من التوراة التي فيها صفة عبد صلى الله عليه وسلم ونجمته ورسالاته؛ والنعم على الآباء نعم عمل الأبناء لأنهم يشرفون بشرف آبائهم .

تثنيه — قال أرباب المعاني: ربط سبحانه وتعالى بني إسرائيل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة عبد صلى الله عليه وسلم ودعاه إلى ذكره؛ فقال: ﴿ أَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾؛ ليكون نظرا للأمم من النعمة إلى المنعم، ونظرا أمة عبد صلى الله عليه وسلم من المنعم إلى النعمة .

قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقُوا يَهُودِي أُوفٍ بِهِدْمُكُمْ ﴾؛ أمر ويواجه . وقراء الزمري: ألقف (بفتح الواو) وشد الغلام للكتفين، واختلف في هذا العهد ما هو . فقال الحسن: هذه قوله: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾؛ وقوله: ﴿ وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا ﴾ . وقيل: هو قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ سَكْنَةً ﴾ . وقال الزجاج: أوفوا بهدي التي عهدت إليكم في التوراة من اتباع عبد صلى الله عليه وسلم، أوف بهدكم بما ضمت لكم على ذلك، إن أوفيتهم به فلكم الجنة . وقيل: أوفوا بهدي في أداء القرائض على السنة والإخلاص، أوف ببولما منكم وبجلائكم عليها . وقال بعضهم: أوفوا بهدي في العبادات، أوف بهدكم أي أوفواكم

إلى منازل الرعايات . وقيل : أوفوا بعهدي في حفظ آداب الطواهر ، أوف بعهديكم بترين سرائركم .  
وقيل : هو عام في جميع أذامه ونواحيه ووصاياه ؛ فيدخل في ذلك ذكر عهد صلى الله عليه وسلم  
الذي في التوراة وغيره ؛ هذا قول الجمهور من العلماء ، وهو الصحيح ، وعهده سبحانه وتعالى هو أن  
يدخلهم الجنة .

قلت : وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب متأ ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ، ﴿ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ . وهو كثير ، وفاوضهم بعهدي الله أمانة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له  
بل ذلك تفصيل منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَأْتِيَنَّكُمْ عَهْدُ الْبَنِي إِسْرَافِيلَ ﴾ أي خافون ، والرهب والرهب والرهب : الخوف . ويتضمن  
الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعد النون لأنها راس آية ؛ وقرا ابن أبي إسحاق : فارهبوني  
بالياء ، وكذا فاهتوني على الأصل . وإياي منصوب بإحتمار فعل ، وكذا الاختيار في الأمر والنهي  
والاستفهام ؛ التقدير وإياي ارهبوا فارهبوني . ويجوز في الكلام وأنا فارهبوني على الابتداء والخبر .  
وكون فارهبوني الخبر على تقدير الحذف ، المعنى وأنا ربكم فارهبوني .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي صدقوا ، بيني بالقرآن . ( مُصَدِّقًا ) حال من الضمير  
في أنزلت ، التقدير بما أنزلته مصدقا ؛ والمائل فيه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما والمائل فيه  
آمنوا ؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون مصدرية ، التقدير آمنوا بأنزالي لما معكم بيني  
من التوراة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ ﴾ . الضمير في به قيل : هو ما عدل على عهد صلى الله عليه  
وسلم ، قاله أبو العالية ؛ وقال ابن جريج : هو ما عدل على القرآن إذ تضمنه قوله : ﴿ بِمَا أَنزَلْتُ ﴾ ؛  
وقيل : على التوراة إذ تضمنها قوله : ﴿ لِمَا مَعَكُمْ ﴾

فإن قيل : كيف قال كافرين بل كافرين ، قيل : التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر . وزعم  
الأخفش والقراء أنه محمول على معنى القتل لأن للمنى أول من كفر به ؛ وحكي سيويه : هو  
أطرف الفتيان وأجله ، وكان ظاهر الكلام هو أطرف قتي وأجله . وقال : أول ، وقد كان قد كفر  
قبلهم كفار قريش ، فأنما مناه من أهل الكتاب ؛ إذ هم منظور إليهم في مثل هذا لأهم حجة مطلوبة

بهم علم . وأول عند سيبويه نصب على خبر كان . وهو لما لم ينطق منه بفعل . وهو على أفضل ، عيته وفاته وأو . وإنما لم ينطق منه بفعل لئلا يتل من جهتين السين والفاء . وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو من رآل إذا نجا ، فاصله أوأل ، خففت الهززة وأبدلت ولوا وأدغمت قبل أول ، كما تخفف همزة خيلشة . قال الجوهري : والجمع الأوائل والأوأل أيضا على القلب . وقال قوم : اصله وؤل جل قول ، فقلبت الواو الأولى همزة . وإنما لم يجمع على أوأل لاستعظام اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع . وقيل : هو أفضل من آل يؤول ، فاصله أوأل ؛ قلب بفاء أحفل مقلوبا من أفضل ، فسهل وأبدل وأدغم .

مسئلة - لا حجة في هذه الآية لمن يجمع القول بدليل الخطاب وهم الكوفيون ومن وافقهم ؛ لأن المقصود من الكلام التهي عن الكفر أولا وآخره ؛ وخص الأول بالذكر لأن التقدم فيه أغلظ ، فكان حكم للذكور والمسكوت عنه واحدا ؛ وهذا واضح .

قوله تعالى : ( وَلَا تَسْتَرْوْا بآيَاتِي ثُمَّ تَقِيلُوا ) . فيه أربع مسائل :

الأول - قوله تعالى : ( وَلَا تَسْتَرْوْا ) منطوق على قوله : ( وَلَا تَكُونُوا ) . نهاهم عن أن يكونوا أول من كفر ولا يأخذوا على آيات الله ثم آي على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رضى . وكان الأحرار يفعلون ذلك فنهوا عنه ؛ قاله قوم من أهل التأويل منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم ما كل يأكلونها على العلم كارتاب ، فنهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحرار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك . وفي كتبهم : يا بن آدم علم عتانا كما علمت عتانا أى باطلا بغير أجره ، قاله أبو العالبة . وقيل : المعنى ولا تستروا بأوامرى وتواهى وآياتي ثم تقيلوا ، يعنى الدنيا ويمتها والعيش الذى هو نزل لا خطر له ؛ فسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثم لأنهم جعلوه عوضا ، فاضطلق عليه ليم الثمن وإن لم يكن ثمنا . وقد تميم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنت حاولت ذنبا أو ظفرت به . فما أصبت بترك الحج من نين

قلت : وهذه الآية وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل فهم تناول من فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله ، أو امتنع من تعليم ماوجب عليه ، أو أذاه ما علمه وقد تعين عليه حتى



ياخذ عليه أجرا، فقد دخل في مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما ينتجى به وجهه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » . (يعنى ربحها) .

الثانية — وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم لهذه الآية وما كان في معناها؛ فنعى ذلك الزهري وأصحاب الرأي وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والإخلاص ، فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : ( وَلَا تَسْتَوُوا بِآثَارِي تَمَنَّا قَلِيلًا ) . وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « معلمو صيانتكم شراركم أفهم رحمة باليتيم وأغظهم على المسكين » . وروى أبو هريرة قال : قلت يا رسول الله ما تقول للمعلمين ؟ قال : « درهمهم حرام وثوبهم سحت وكلامهم رياء » . وروى عبيدة بن الصامت قال : علمت ناسا من أهل الصفقة للقرآن والكتابة ، فأهدى إلى رجل منهم قوسا ، فقلت : ليست بمال وأرى ضحا في سبيل الله ، فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن سرك أن تطلق بها طوقا من نار فأقبلها » . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء لقوله عليه السلام في حديث ابن عباس — حديث الرقية — « إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله » أخرجه البخاري ، وهو نص يرفع الخلاف ، فينبغي أن يقول عليه . وأما ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام فقاسد ، لأنه في مقابلة النص ؛ ثم إن بينهما فرقانا ، وهو أن الصلاة والصوم عادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لتعليم المعلم ، فتجوز الأجرة على محاولته التعليل كتعليم كتابة القرآن . قال ابن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة ، ويجوز أن يستأجر الرجل يكتب له لوحا أو شعرا أو غناء معلوما بأجر معلوم ، فيجوز الإجارة فيها موصية ويطلقها فيها موطاة .

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيل ، وشرع من قبلنا هل هو شرع لنا ؟ فيه خلاف ، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعين عليه التسليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فاما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك . وقد يتعين عليه إلا أنه ليس عنه ما ينفعه



أَبْنُ الْقَاسِمِ أَخَذَ الْأَجْرَةَ عَلَى تَعْلِيمِ الشَّرِّ وَالنَّحْوِ . وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ : لَا يَأْسُ بِالْإِجَارَةِ عَلَى تَعْلِيمِ الشَّرِّ وَالرِّسَائِلِ وَأَيَّامِ الْعَرَبِ ، وَيُكَرَّهُ مِنَ الشَّرِّ مَا فِيهِ الْخَرْ وَالْخُلْفُ وَالْهَبَاءُ . قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْمُخَنِّى : وَيَلْزَمُ عَلَى قَوْلِهِ أَنْ يُجِيزَ الْإِجَارَةَ عَلَى كِتَبِهِ وَيُجِيزُ بَيْعَ كِتَبِهِ . وَأَمَّا النَّهْيُ وَالنَّوْحُ فَمِنْ نَوْعٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

الرَّابِعَةُ — رَوَى الدَّارِمِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي مُسْتَدْرَأِهِ بِعُقُوبِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْكَيْتِ قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ وَهَبٍ الْمَدَنِيُّ قَالَ أَخْبَرَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ مَوْسَى قَالَ : مَرَّ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يَرِيدُ مَكَّةَ فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا ، فَقَالَ : هَلْ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ أَدْرَكَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالُوا لَهُ : أَبُو حَازِمٍ ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ : يَا أَبَا حَازِمٍ مَا هَذَا الْجَفَاءُ ؟ قَالَ أَبُو حَازِمٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَآيَ جَفَاءٍ رَأَيْتَ مَتَى ؟ قَالَ : أَتَأْتِي وَجْهَهُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَلَمْ تَأْتِي ؟ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعَيْنَكَ بِاللَّهِ أَنْ تَقُولَ مَا لَمْ يَكُنْ ، مَا عَرَفْتَنِي قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ وَلَا أَنَا رَأَيْتَكَ ! قَالَ : فَتَأَلَّفْتُ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ شِهَابِ الزُّهْرِيِّ فَقَالَ : أَصَابَ الشَّيْخَ وَأَخْطَأْتُ . قَالَ سُلَيْمَانُ : يَا أَبَا حَازِمٍ مَا لَنَا نَكَرَهُ الْمَوْتُ ؟ قَالَ : لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الْآخِرَةَ وَعَمَرُوا الدُّنْيَا فَفَكَّرْتُمْ أَنْ تَتَقَفَلُوا مِنَ الْعَمْرَانِ إِلَى الْخُرَابِ ؟ قَالَ : أَصَبْتَ يَا أَبَا حَازِمٍ ، فَكَيْفَ الْقُدُومُ غَدًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ؟ قَالَ : أَمَا الْمَسْرُورُ فَكَانَ النَّاسُ يَقْدُمُ عَلَى أَهْلِهِ ، وَأَمَّا الْمَسِيُّ فَكَالْآبِقَى يَقْدُمُ عَلَى مَوْلَاهُ . فَبَكَى سُلَيْمَانُ وَقَالَ : نَبِيتَ شَعْرِي مَا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ ؟ قَالَ : اصْرَعْ عَمَلَكَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ . قَالَ : وَآيَ مَكَانٍ أَجِدُهُ ؟ قَالَ : ( إِنَّ الْأَبْرَارَ لَنِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفَاجِرَ لَنِي جَحِيمٍ ) . قَالَ سُلَيْمَانُ : فَأَيْنَ رَحْمَةُ اللَّهِ يَا أَبَا حَازِمٍ ؟ قَالَ أَبُو حَازِمٍ : رَحْمَةُ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : يَا أَبَا حَازِمٍ فَأَيَّ عِبَادَةِ اللَّهِ أَكْرَمَ ؟ قَالَ : أَوَّلُهَا الْمَرْوَعَةُ وَالنَّهْيُ . قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : فَأَيَّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ أَبُو حَازِمٍ : أَدَاءُ الْفَرَائِضِ مَعَ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ . قَالَ سُلَيْمَانُ : فَأَيَّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ ؟ قَالَ : دُعَاءُ الْمُحْسِنِ إِلَيْهِ لِلْحَسَنِ . فَقَالَ : أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : لِلْسَائِلِ الْبَائِسِ ، وَجَهْدُ الْمُقِلِّ ، لَيْسَ فِيهَا مَنْ وَلَا أَدْنَى . قَالَ : فَأَيُّ الْقَوْلِ أَعْدَلُ ؟ قَالَ : قَوْلُ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ تَخَافُهُ أَوْ تَرْجُوهُ . قَالَ : فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْوَسُ ؟ قَالَ : رَجُلٌ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَدَلَّ النَّاسَ عَلَيْهَا . قَالَ : فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقُّ ؟ قَالَ : رَجُلٌ انْحَطَّ فِي هَوَى أَخِيهِ وَهُوَ ظَالِمٌ ، فَيَاغُ أَتْرَفَهُ بِذُنُوبِهِ غَيْرِهِ . قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : أَصَبْتَ ، فَمَا تَقُولُ فَيَا نَحْنُ فِيهِ ؟ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ تَعْنِي ؟ قَالَ لَهُ

سليان : لا ! ولكن نصيحة تقمها إلى ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عترة على غير مشورة من المسلمين ولا رضا لهم ، حتى قتلوا منهم مئة عظيمة ، فبعد ارتحلوا عنها فلوشمرت ما قالوه وما قيل لهم ! . فقال له رجل من جلسائه : بش ما قلت يا أبا حازم ! قال أبو حازم : كذبت ، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبنته للناس ولا يكتمونه ؛ قال له سليان : فكيف لنا أن نصلح ؟ قال : تدعون الصلف وتسمكون بالمرورة وتسمون بالسوية . قال له سليان : فكيف لنا بالمأخذ ؟ قال أبو حازم : تأخذ من حله وتضعه في أهله . قال له سليان : حل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا وتصيب منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف المات . قال له سليان : ارفع إلينا حوائجك ؛ قال : تحبني من النار وتكفي الجنة ؛ قال سليان : ليس ذاك إلى ؟ قال له أبو حازم : فإني إليك حاجة فريحا . قال : فأدع لي ؛ قال أبو حازم : اللهم إن كان سليان وليك فيسره خير الدنيا والآخرة ، وإن كان صدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى ؛ قال له سليان : قل ! قال أبو حازم : قد أوجرت وأكثرت إن كنت من أهله ، وإن لم تكن من أهله فإني أرى أن أرى عن قوس ليس لها وتر . قال له سليان : أوصني ؛ قال : سأوصيك وأؤبرز ، عظم ربك وزعمه أن يراك حيث نهأك ، أو يفقدك حيث أمرك . فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار وكتب [إليه] أن أنفقها ولك عندي مثلها كثير . قال : فرددتها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أئنيك بالله أن يكون سؤالك إياي حزلا أو ردى عليك بذلا ، وما أرضاها لك ، فكيف [أرضاها] لنفسي ! إن موسى بن عمران لما ورد له مدين وجد عليه رطه يسقون ، ووجد من دونهم جليتين تلودان [فألما] ، فقالا : لا نسق حتى يصدر الرطه وأبوتا شيخ كبير ؛ فسقى لهم ثم تولى إلى الظل فقال : رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير ؛ وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن ، فقال ربه ولم يبال الناس . فلم يظن الرطه ، وفطنت الجاريتان . فلما رجعا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله ؛ فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هذا رجل جائع ، فقال لإحدهما : ادعني

(١) الواردة من مسند الهادي .

(٢) بذلا أي : واجبا بك وصلا .

فادعيه . فلما آتته عظمته وغطت وجهها وقالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجرا سقيت لنا ؛ فشق على موسى حين ذكرت "أجر سقيت لنا" ولم يجد بدا من أن يتبعها لأنه كان بين الجبال بامحا مستوحشا . فلما تبعها هبت الريح فغطت تصفق ثيابها على ظهرها فتصفف له بحجرتها - وكانت ذات عجز - وجعل موسى يمرض مرة وبفض أخرى ؛ فلما عيل صبره ناداها : يا أمة الله كوني خلقي ، وأرى السميت بقوله . فلما دخل على شعب إذ هو بالمشاء مهيا ؛ فقال له شعيب : اجلس يا شاب فتش ؛ فقال له موسى عليه السلام : أعرد بالله ؛ فقال له شعيب : لم ! أما أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكنني أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت لها ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذبعا ؛ فقال له شعيب : لا يا شاب ، ولكننا عادي وعادة آباءى نقرى الضيف ونظم الطعام ؛ فجلس موسى فاكل . فإن كانت هذه المائة دينار عوضا لما حدثت فالتية والم لم الحزير في حال الاضطراب أهل من هذه ، وإن كان لحق في بيت المال فل فيها نظراء ، فإن ساويت بيننا ، وإلا فليس لي فيها حاجة .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكاتب والأبناء . أنظروا إلى هذا الإمام الفاضل والمجرب العالم كيف لم يأخذ على عمله عوضا ، ولا على وصيته بدلاء ، ولا على نصيحته صفدا ، بل بين الحق وصدخ ، ولم يلقه في ذلك خوف ولا فزع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يمتن أحدكم هبة أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان » . وفي التثليل : ( يَحْمِلُون فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَتَأَوُّنَ لَوْمَةً لَا يَمِينُ ) .

قوله تعالى : ( وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ) . قد تقدم معنى التقي . وقرئ فاتقوا بالياء ، وقد تقدم . وقال سهل بن عبد الله : قوله : ( وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ) قال : موضع علمي السابق فيكم : ( وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ) قال : موضع المكر والاستدراج لقول الله تعالى : ( سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ) ، وقوله : ( فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ) . فاستثنى نيا ولا صدقا .

قوله تعالى : ( وَلَا تَلْبِسْ بِالْحَقِّ الْبَاطِلَ ) . اللبس : الخلط . لبت على الأمر الباطل إذا مزجت بينه بمشكلة وحده باطله . قال الله تعالى : ( وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ مَا يَفْعَلُونَ ) . وفي الأمر كيسة (١) الصدق (بالعريكة) : البلاء . (٢) البارة طاعة غير راضية . وفي تفسير الجبر المجيد لأبي حيان عند قوله تعالى : ( وإذ يقول المنافقون ) ، وقال سهل : « هؤلاء قاريون موضع اليقين بمرئته ، وإذ يقولون موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .

أي، ليس بواضح، ومن هذا المعنى قول علي رضي الله عنه لما رث بين حويل: يا حار إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يُعرف بالباطل، أعرف الحق تعرف أهله. وقالت الخلفاء:

ترى الجليلي يقول الحق تحبه. ورشداً ومهيات فاقظ ما به اليأس  
صدّق مقامه وأحذر عداوته. وألبس عليه أموراً مثل ما لبسها

وقال المباح:

لما لبس الحرّ بالحنّ. فحين واستبدل زيفاً مني

روى سعيد عن قتادة في قوله: (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ)، يقول: لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علم أن دين الله الذي لا يقبل غيره ولا يميز إلا به الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله. والظاهر من قول عترة:

• وكيفية لبسها بكيفية •

أنه من هذا المعنى، ويحتمل أن يكون من اللباس. وقد قيل هذا في معنى الآية أي لا تلبسوا. ومنه ليس التوب، يقال: ليست التوب اليأس. ولباس الرجل زوجته، وزوجها لباسها.

قال الجعفي:

لما ما قضجني حتى جفعا • تلت عليه فكانت لبسا

وقال الأخطل:

وقد لبست لهذا الأمر أعصره • حتى تجل رأسي الشيب فاشتتلا  
واللبوس: كل ما يلبس من ثياب ودروع، قال الله تعالى: (وَعَلَّاهُ سَعَةَ لُبُوسٍ لَّكُمْ) •  
ولا لبست فلا حتى عرفت باطنه. وفي قلان ملبس أي مستمع. قال:

ألا إن بعد التمسك للبر، قوة • وبعد المشيب طولاً ومر ولبساً •  
وليس الكعبة والمرجع ما عليهما من لباس (يكسر اللام). قوله: (يَا بَاطِلُ) • الباطل في كلام العرب خلاف الحق، ومعناه الزائل. قال لبيد:

• ألا كل شيء ما خلا الله باطل •

ويُطْلُ الشئ، يُطْلُ بَطْلًا وَيُطْلُو وَيُطْلَانَا [ذهب ضياعا وخسرًا]، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بطلا أى هدرا؛ والباطل : الشيطان؛ والباطل : الشجاع، سمي بذلك لأنه يُطْلُ شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لم لم لوأء بأيدى ماجدٍ بطليل \* لا يقطع الخرق إلا طرْفُه ساعِي

والمرأة بطلّة . وقد بطل الرجل (بالضم) يُطْلُ بَطْلُوَةً وبَطْلَالَةً أى صار شجاعا . وطلّ الأجير بالفتح بَطْلَالَةً أى تمطّل فهو بَطَال . واختلف أهل التأويل في المراد بقوله : ( أَلْحَقَّ بِالْإِطَالِ ) . فروى عن ابن عباس وغيره : لا تخطوا ما عندكم من الحق في الكتاب بالباطل وهو التثيير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : عهد مبعوث ولكن إلى غيرنا؛ فأقروا عهد بيته حتى ويحدهم أنه يست اليهم باطل . وقال ابن زيد : المراد بالحق التوراة، والباطل ما بدلوا فيها من ذكر عهد عليه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقوله قتادة : وقد تقدم .

قلت : وقول ابن عباس أصوب؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . ولغة المستعان . قوله تعالى : ( وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ ) . يجوز أن يكون معطوفا على تلبسوا فيكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن، التقدير لا يكن منكم ليس الحق وكتمان أى وأن تكتموه . قال ابن عباس يسي كتبتهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم وهم يرفقونه . وقال محمد بن سيرين : نزل عصاة من ولد هارون يشرب لهما أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور الصدوق عليهم والفتنة ، وذلك العصاة هم حملة التوراة يومئذ، فأقاموا يشرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم وهم مؤمنون مصتقون بنبوته ، ففضي أولئك الآباء وهم مؤمنون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم فكفروا به وهم يرفقونه، وهو معنى قوله : ( فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ) .

قوله تعالى : ( وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ ) جملة في موضع الحال أى أن محمداً عليه السلام حق، فكفروا به كان كفر عناد . ولم يشهد تعالى لهم بعلم وإتقانهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تنطيط التنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الباطل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : ( أَنَا سَرُّونَ النَّاسِ بِالْبُيُوتِ ) الآية .

قوله تعالى : ( وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ) الآية ؛ فيه أربع وتلاوة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ) أمر معناه الوجوب ، ولا خلاف فيه ؛ وقد تقدم القول في معنى إقامة الصلاة واشتقاقها ، وفي جملة من أحكامها والمجده .

الثانية - قوله تعالى : ( وَأَتُوا الزَّكَاةَ ) أمر أيضا يقتضي الوجوب . والإيتاء : الإعطاء ؛ آتيته : أعطيته ؛ قال الله تعالى : ( لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَتَسُدَّ ) . وآتيته - بالعصر من غير مد - جته ، فإذا كان المعنى بمعنى الاستقبال مد ؛ ومنه الحديث : « ولأين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاخبره » ؛ وسأني .

الثالثة - الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد ؛ يقال : زكا الزرع والمال يزكو إذا كثر وزاد ؛ وربيل زكى أى زائده الخير . وسى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث يغوب البركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكى . ويقال : زرع زالك ؛ بين الزكاء ؛ وزكأت الناقة بولدها تركا به إذا رست به من بين رجلها ، وزكا الفرد إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شغفا . قال الشاعر :

كأنا خسا أو زكا من دون أربعة • لم يتقوا وجدود الناس تمنح

أى ترفع ؛ إعطيت الأرض ؛ طال نباتها ، نفسا الفرد وزكا الزوج .  
وقيل : أصلها إنشاء الجليل ؛ ومنه زكى القاضي الشاهد . فكان من يخرج الزكاة يحصل لنفسه إنشاء الجليل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير ؛ كما يقال : زكا فلان أى طهره من دنس الجمره والإفخال ، فكان الخارج من المال يطهره من ثمة الحق الذى جعل الله فيه الساكين . ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم سعى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس ؛ وقد قال تعالى : ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ) .

الرابعة - واختلف في المراد بالزكاة هنا ؛ فقيل : المراد بالزكاة المفروضة لمقاربتها بالصلاة ؛ وقيل : صدقة الفطر ؛ قاله مالك في سماع ابن القاسم .

قلت : فعل الأول - وهو قول أكثر العلماء - فالزكاة في الكتاب مجملة بيها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فروى الأئمة عن أبى سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس في حجب »



ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق ولا فيما دون خمس ذود صدقة ولا فيما دون خمس أواق صدقة ،  
وقال البخاري : « خمس أواق من الورق » . وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه  
وسلم قال : « فيما سقت الدماء والعيون أو كان عشرا العشر وما سقى بالفضح نصف العشر » . وسيأتي  
بيان هذا الباب في الأضام إن شاء الله تعالى ، ويأتي في برائة زكاة العين والماشية ، وبيان المال  
الذي لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ) . وأما زكاة الفطر فليس لها  
في الكتاب نص عليها إلا ما تأوله مالك هنا ؛ وقوله تعالى : ( قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ) . وذكر اسم ربه  
قبيل ( ) . والمفسرون يذكرون الكلام عليها في سورة الأعل ؛ ورأيت الكلام عليها في هذه السورة  
عند كلامنا على آي الصيام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر في رمضان ، الحديث .  
وسياقي ، فاضافها الى رمضان .

الخامسة — قوله تعالى : ( وَأَرْكَعُوا ) . الركوع في اللغة : الانحناء في الشخص . وكل منحن  
رُكْع . قال ليد :

أخبر أخبار القرون التي مضت • أديب كافي كلما قلت واضحك

قال ابن دريد : الركعة الحق في الأرض ، لغة يمانية . وقيل : الانحناء يركع الركوع والسجود .  
ويستعار أيضا في الاضطط في المترلة . قال :

ولا تُعَادِ الضعيف علك أن • تركع يوما والبحر قد رفته

السادسة — واختلف الناس في تخصيص الركوع بالذكر ؛ فقال قوم : جعل الركوع لما كان  
من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت : وهذا ليس مختصا بالركوع وحده ؛ فقد جعل الشرع القراءة في الصلاة والسجود عبارة  
عن الركعة بكاملها ؛ فقال : ( وَتُكْرِمُ الْفَجْرَ ) أي صلاة الفجر ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة » ؛ وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل :  
إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع . وقيل : لأنه كان يقل على  
القوم في الجاهلية ؛ حتى لقد قال بعض من أسلم للنبي صلى الله عليه وسلم : على ألا أشر إلا قاتما ؛  
فإن تأويله على ألا أركع ؛ فلما تمكن الإسلام من قلبه اطمانت بذلك نفسه وأمثل ما أمر به من  
الركوع .

الساجدة - الركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه ويمد ظهره وعتقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راکماً يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثاً ، وفك أدناه . روى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالكبير والقراءة بالحد فرب الملائكة وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه ولكن بين ذلك . وروى البخارى عن أبى حميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبر جعل يديه حذو منكبيه ، وإذا ركع أسكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره ، الحديث .

الثامنة - الركوع فرض قرأاً وسنة ، وكذلك السجود ؛ لقوله تعالى في أنزاله : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ . وزادت السنة الطمأنينة فهما والفصل بينهما . وقد تقدم القول في ذلك وبيننا صفة الركوع آخفاً . وأما السجود فقد جاء ميتاً من حديث أبى حميد الساعدى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكن جبهته وأفقه من الأرض ويحنى يديه عن جنبيه ووضع كعبه حذو منكبيه ؛ خرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعتدلوا في السجود ولا يسط أحدكم ذوائبه انبساط الكلب » . وعن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سجدت فضع كفك وأرفع مرفقك » . وعن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خذى بيديه - ببنى جنح حتى يرى وضع يديه من وراءه - وإذا قعد اطمأن على فخذه اليسرى .

الثامنة - واختلف العلماء فيمن وضع جبهته في السجود دون أفقه أو أفقه دون جبهته ؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأفقه ؛ وبه قال الثوري وأحمد ، وهو قول الحصى . قال أحمد : لا يحرثه السجود على أحدهما دون الآخر ؛ وبه قال أبو حنيفة<sup>(١)</sup> وابن أبى شيبة . قال إسماعيل : إن سجد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبى لى كلهم أمر بالسجود على الأثب . وقالت طائفة : يحزى أن يسجد على جبهته دون أفقه ؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وابن سيرين والحسن البصرى ؛ وبه قال الشافعى وأبو ثور ومقبوب ومحمد . قال ابن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع

أفنه أو وضع أفنه ولم يضع جبهته قد أساء وصلاحه تامة ؛ هذا قول الثعالبي . قال ابن المنذر :  
ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح في السجود وضع الجبهة والأفخ ، لحديث أبي حنيفة ، وقد تقدم . وروى  
البخاري عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم  
الجبهة - وأشار بيده على أفنه - ولابدين والركبتين وأطراف القدمين ولا تكف الثياب ولا الشعر » .  
وهذا كله بيان لجبل الصلاة ، فصحت القول به . والله أعلم . وروى عن مالك : أنه يجوز أن يسجد  
على جبهته دون أفنه ، كقول عطية والشافعي . وللتأخر عندنا قوله الأول ولا يجوز أن يسجد على  
لم يسجد على جبهته .

المباشرة - ويكفي السجود على كبر الجبهة ؛ وإن كان طائفة أو طائفتين مثل الثياب التي تستر  
الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضل مباشرة الأرض لو ما يسجد عليه . فإن كان هناك ما يؤذيه  
أزاله قبل دخوله في الصلاة ، فقد لم يفعل فليمسحه مسحة واحدة . وروى عن مسلم عن عبيد بن  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الرجل يسوي الثراب حيث يسجد قال : « إن كنت فاعلا  
فواحدة ، وروى عن أنس بن مالك قال : كان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شدة الحر ؛  
فلما لم يستطع أحدا أن يتمكن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحللية عشرة - لما قال تعالى : ( أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا ) قال بعض علماء وغيرهم : يكتفي  
منهما ما يسمى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام ، ولم يستقرطوا الطلانية في ذلك ؛ فأسدوا بأهل الاسم  
في ذلك ، وكانهم لم يسموا الأصلية الثابتة في إنشاء الصلاة . قال ابن عبد البر : ولا يجوز ركوع  
ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ولا جلوس بين السجدة حتى يستدل راكعا وواقفا وساجدا  
وبالسا ؛ وهو الصحيح في الأثر ؛ وعليه جمهور العلماء وأهل النظر ؛ وهي رواية ابن وهب وأبي مصعب  
عن مالك . ونقل الشافعي أبو بكر بن العربي : وقد تكررت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجود  
التفصيل واستقوط الطلانية ؛ وهو زعم عظيم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعليها ؛

فان كان لابن القاسم عذر أن كان لم يطلع عليها ، فما لكم أنتم وقد انتهى العلم اليكُم وقاتل المجبة به عليكم ! روى النسائي والدارقطني وعلي بن عبد العزيز ورافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصل ، فلما قضى الصلاة جاء فصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرجع فصل فإني لم تصل » وجعل الرجل يصل وجعلنا نرمق صلاته لا ندري ما يعيب منها ؛ فلما جاء فصل على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « عليك أرجع فصل فإني لم تصل » قال همام : فلا ندري أمره بذلك مرتين أو ثلاثا ؛ فقال له الرجل : ما ألوت ، فلا أدري ما هبت علي من صلاتي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لا تم صلاة أحدكم حتى يُسبِّحَ الوضوء كما أمره الله فينبِّل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجله إلى الكعبين ثم يكبر الله تعالى ويُنِي عليه ثم يقرأ أم القرآن وما أذن له فيه ويستتر ثم يكبر فيركع فيضع كفيه على ركبتيه حتى تظلمن مفاصله ويستتر ثم يقول سمع الله من حمده ويستوي قائما حتى يقم صلبه ويأخذ كل عظم مأخذه ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه — قال همام : وربما قال : — جبهته من الأرض حتى تظلمن مفاصله ويستتر ثم يكبر فيستوي قاعدا على مقعده ويقم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ، ثم قال : — لا تم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك » . ومثله حديث أبي هريرة نَحْجِهَ مسلم ، وقد تَخَلَّمَ .

قلت : فهذا بيان الصلاة الجملة في الكتاب بتعليم النبي عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخل بما فرض عليه الرحمن ، ولم يتأمل ما بلغه عن نبيه عليه السلام كان من جملة من دخل في قوله تعالى : ( تَخَلَّفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ) ، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى . روى البخاري عن زيد بن وهب قال : رأى حذيفة رجلا لا يتم الركوع ولا السجود ، فقال : ما صليت ولو مت لمت على غير الفطرة التي فطر الله عليها عبدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ( مَعَ الرَّاٰكِبِينَ ) . مع تقتضي المية والجمعة ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالسران ؛ إن الأمر بالصلاة أولا لم يقتض شهود الجماعة ، فأمرهم بقوله : مع شهود

الجماعة . وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة هل قولين ؛ فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة ، ويجب على من أتمن التخلف عنها من غير مذرٍ المقبولة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضاً على الكفاية . قال ابن عبد البر : هذا قول صحيح ؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجامعات . فأما قامت الجماعة في المسجد فصلاة المفرد في بيته جائزة ، لقوله عليه السلام : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد سبع وعشرين درجة » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءاً » . وقال داود : الصلاة في الجماعة فرض على كل أحد في خاصته كالجمعة ؛ واحتج بقوله عليه السلام : « لا صلاة لجوار المسجد إلا في المسجد » أخرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق ؛ وهو قول عطاء بن أبي رباح وأحمد بن حنبل وأبي ثور وغيرهم . وقال الشافعي : لا أرتخص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من مذرٍ ، حكاه ابن المنذر . وروى مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل أعمى فقال : يا رسول الله ، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فيصلي في بيته ؛ فرخص له ؛ فلما ولى دعاه فقال : « [هل] تسمع النداء بالصلاة » قال نعم ؛ قال : « فأجب » ، وقال أبو داود في هذا الحديث : « لا أجد لك رخصة » . أخرجه من حديث ابن أم مكتوم ؛ وذكر أنه هو كان السائل . وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سمع النداء فلم يسمع من إتيانه عذر » . قالوا : وما العذر ؟ قال : « خوف أو مرض سلم تعجيل منه الصلاة التي صلى » . قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه منزه المبدئ . والصحيح أنه موقوف على ابن عباس : « من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له » . على أن قاسم بن أصبغ ذكره في كتابه فقال : حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي قال حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر » وحسبك بهذا الإسناد حجة . ومنزه المبدئ روى عنه أبو إسحاق . وقال ابن مبرد : ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق

معلوم الثفاق . وقال عليه السلام : « بيننا وبين المنافقين شهود التمة والصبح لا يستطيعونهما » .  
قال ابن المنذر : ولقد روينا عن غير واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : « من  
سمع النداء فلم يجب من غير عذر فلا صلاة له » ؛ منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعري . وروى  
أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد هممت أن أمر فتيتي  
فيجمعوا حزما من حطب ثم آتى قوما يصلون في بيوتهم ليست لهم علة فأحرقها عليهم » . هذا  
ما احتج به من أوجب الصلاة في الجماعة فرضاً ، وهي ظاهرة في الوجوب . وكلها الجمهور على  
تأكيد أمر شهود الصلوات في الجماعة ؛ بدليل حديث ابن عمر وأبي هريرة ؛ وحملوا قول الصحابة  
وما جاء في الحديث من أنه لا صلاة له على الكمال والفضل ؛ وكذلك قوله عليه السلام لأن أم مكتوم :  
« فأجب » على التنب . وقوله عليه السلام : « لقد هممت » لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه هم  
ولم يفعل ؛ وإنما غرضه نخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلفون عن الجماعة والجمعة .  
يبين هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبد الله قال : « من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء  
الصلوات حيث ينادي بهن ، فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى ، وإنهن من سنن  
الهدى . ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم .  
ولو تركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم لضلّتم . وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى  
مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه  
بها سيئة . ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق . ولقد كان الرجل يؤتى به ينادي بين  
الرجلين حتى يقام في الصف » . فبين رضي الله عنه في حديثه أن الاجتماع سنة من سنن الهدى وتركه  
ضلال ؛ ولهذا قال القاضي أبو الفضل عباس : اختلف في التماثل على ترك ظاهر السنن : هل يقابل  
عليها أولاً ، والصحيح قائلهم ؛ لأن في التماثل عليها إيمانها .

قلت : فعل هذا إذا أقيمت السنة وظهرت ، جازت صلاة المفرد وصحت . روى مسلم عن  
أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته  
في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توجها فحسن الوضوء ثم أتى  
المسجد لا يتيزر إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يخط خطوة إلا أرفع له بها درجة وخط عنه بها

خطبة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحية والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون اللهم ارحمه اللهم اغفر له اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يخلت فيه . قيل لأبي هريرة : ما يحدث؟ قال : يفسو أو يضطو .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء في هذا الفضل المضاف للجماعة، هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت، أو إنما يكون ذلك الفضل للجماعة التي تكون في المسجد، لما يلزم ذلك من أفضل تختص بالمساجد كما جاء في الحديث؟ قولان؛ والأول أظهر لأن الجماعة هو الوصف الذي علق عليه الحكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخلط إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمكث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — واختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك . لا ، وقال ابن حبيب نعم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاة مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كثرت فهو أحب إلى الله » . رواه ابن أبي كعب أخرجه أبو داود، وفي إسناده لين .

الخامسة عشرة — واختلفوا أيضا فيمن صلى في جماعة هل يعيد صلاته تلك في جماعة أخرى؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعي وأصحابهم : إنما يعيد الصلاة في جماعة مع الإمام من صلى وحده في بيته وأهله أو في غيره، وأما من صلى في جماعة وإن قلت فإنه لا يعيد في جماعة أكثر منها ولا أقل . وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وداود بن علي : جائز لمن صلى في جماعة ووجد جماعة أخرى في تلك الصلاة أن يعيدها معهم إن شاء ، لأنها نافذة وسنة . وروى ذلك عن حنيفة بن الجمان وأبي موسى الأشعري وأسن بن مالك وصلة بن زافر والشعبي والنعني؛ وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

احتج مالك بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تُصَلِّي صلاةً في يوم مرتين » ومنهم من يقول : لا تصلوا . رواه سليمان بن يسار عن ابن عمر . وأتفق أحمد وأصحابه على أن معنى هذا الحديث أن يصلي الإنسان القريضة ، ثم يقوم فيصليها ثانية ينوي بها للقرض مرة أخرى؛ فأما إذا صلاها مع

الإمام على أنها سنة وتطوع فليس بإعادة الصلاة؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة في جماعة: «إنها لكم نافلة». من حديث أبي ذر وغيره.

السابعة عشرة - روى مسلم عن أبي مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَوْمُ الْقَوْمِ أَفْرُؤُمْ لِكَلْبِ اللَّهِ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَهُمْ بِالسَّنةِ فَإِنْ كَانُوا فِي السَّنةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هَجْرَةً فَإِنْ كَانُوا فِي الْهَجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْبًا وَلَا يُؤْتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَةٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ» وفي رواية «سِنًا» مكان «سَلًا». وأخرجه أبو داود قال: قال شعبه: فقلت لاسماعيل ما تكره؟ قال: فراشه. وأخرجه الترمذي وقال: حديث أبي مسعود حديث حسن صحيح والسبل عليه عند أهل العلم.

قالوا: أحق الناس بالإمامة أفرؤم لكاتب الله وأعلمهم بالسنة. وقالوا: صاحب المنزل أحق بالإمامة. وقال بعضهم: إذا أذن صاحب المنزل لتيره فلا بأس أن يصلي به؛ وكرهه بعضهم وقالوا: السنة أن يصلي صاحب البيت. قال ابن المنذر: روي عن الأشعث بن قيس أنه قدم غلاما وقال: إنا أقدم القرآن. ومن قال: يوم القوم أفرؤم ابن سيرين والثوري وإسحاق وأصحاب الرأي. قال ابن المنذر: بهذا قول لأنه موافق السنة. وقال مالك: يتقدم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة، وإن لسن حقا. وقال الأوزاعي: يؤتمهم أتهمهم؛ وكذلك قال الشافعي وأبو نوح إذا كان يقرأ القرآن؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بما ينويه من الحوادث في الصلاة؛ وتناولوا الحديث بأن الأئمة من الصحابة كان الأئمة؛ لأنهم كانوا يتفقهون في القرآن؛ وقد كان من عرفهم الغالب أسميتهم الفقهاء بالقرءاء؛ واستدلوا بتقدم النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه إيا بكر لقضاه وعلوه. وقال إسحاق: إنما قسسه النبي صلى الله عليه وسلم ليدل على أنه الخليفة بعده. ذكره أبو عمر في التمهيد. وروى أبو بكر البرزالي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا سافرتم فليؤمكم أفرؤكم وإن كان أصغركم وأنا أنكم فهو أميركم». قال: لا نعلمه يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا ابن رواحة أبي هريرة بهذا الإسناد.

قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارا. ثبت في صحيح البخاري عن عمر بن سلمة قال: كما جله عمر الناس وكانوا يربوا الركان قبلهم ما الناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يوم أن الله



أرسله ، أوصى إليه كذا ! أوصى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقرض من صدري ؛ وكانت العرب تقوم بإسلامها فيقولون : اتركوه وقومهم ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بدر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قوى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتم والله من عند نبي الله حقا ، قال : صلوا صلاة كذا في حين كذا ، وصلاة كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرأتا ، فنظروا فلم يكن أحد أكثر مني قرأتا لما كنت أتلو من الركن تقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين ، وكنت على بركة إذا سمعت قلعت مني ، فقالت امرأة من الحنابلة : ألا تنظرون ما آتت قارئكم ! فاشتروا قطمورا لى قيصا ، فأقرحت بشيء فرجى بذلك القيص . ومن أجل إمامة الصبي غير البالغ الحسن البصري وإسحاق بن راهوية ، واختاره ابن المنذر لذا عقل الصلاة وقام بها لدخوله في جملة قوله صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم » ولم يستثن ، ولحديث عمرو بن سلمة . وقال الشافعي في أحد قوله : يؤم في سائر الصلوات ولا يؤم في يوم الجمعة ؛ وقد كان قبل يقول : ومن أجزأت إمامة في المكتوبة أجزأت إمامة في الأعياد ، غير أنى أكره فيها إمامة غير الوالى . وقال الأوزاعي : لا يؤم السلام في الصلاة المكتوبة حتى يحتمل ، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شيء ، فإنه يؤمهم السلام المراتب . وقال الزهري : إن اضطروا إليه أهمهم . ومنع ذلك جملة مالك والثوري وأصحاب الرأي .

السابعة عشرة - الانتماء بكل إمام بالغ مسلم حر على استقامة جائز من غير خلاف ، إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحق في أم القرآن لما ينحل بالمعنى : مثل أن يكسر الكاف من ( يَاكَ سُبُّ ) ويضم التاء في ( أَتَمَّت ) . ومنهم من رأى تحريق الطاء من الضاد ؛ وإن لم يفرق بينهما لا تصح إمامته لأن معانيها يختلف . ومنهم من رخص في ذلك كله إذا كان جاهلا بالقرآن وأما مثله . ولا يجوز الانتماء بأمرأة ولا خشي مشكل ولا كافر ولا جنون ولا أوى ، ولا يكون واحد من هؤلاء إماما بحال من الأحوال عند أكثر العلماء ، على ما يأتي ذكره ، إلا الأئمة لثله . قال صلواته : لا تصح إمامة الأئمة الذى لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعي .

(١) في الأصول : « ألا تتلووا ... » بحذف القون ، ولا معنى له . وفي نسخة الإمام أحمد بن حنبل ( ج ٥ ص ٧١ ) طبع جبر ، فقالت امرأة : « صلوا آت قارئكم » .

وإن أم أميا مثله صحت صلاتهم عندنا وعند الشافعي . وقال أبو حنيفة : إذا صلى الأبي يقوم بقعوده  
ويقوم أمين فصلاتهم كلهم فاسدة . وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تأمة ،  
وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة لأن كلا يؤدى فرضه وذلك مثل المقيم يصلى بالمظهرين بالماء ،  
والمصل قاعدا يصلى يقوم قيام صلاتهم بجزءة في قول من خالفنا لأن كلا يؤدى فرض نفسه .

قلت : وقد يمتنع لهذا القول بقوله عليه السلام : « ألا ينظر المصل [إذا صلى] كيف يصلى  
فإنما يصلى لنفسه » أخرجه مسلم . وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام والله أعلم .  
وكان عطاء بن أبي رباح يقول : إذا كانت امرأته غائبة ، كبره وقرأ هي فإذا فرضت من القراءة  
كبر وركع وسجد وعى خلقه صلى . وروى هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشل والأقطع . انصبي والعبد إذا كان  
كل واحد منهم تاما بالصلاة . وقال ابن وهب : لا أرى أن يؤم الأقطع والأشل لأنه منقطع  
عن درجة الكل . وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الأصح ، لأنه عضو  
لا يمنع فقهه فرضا من فرض الصلاة بخلاف الإمامة التي مع فقهه كالماء . وقد روى أنس  
أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل ابن أم مكتوم يوم النخس وهو أعمى . وهو الأصح والأقطع  
والأشل وإنهم يقرأون بغير قراءة الله أعلم . وقد روى عن مالك بن مالك أنه قال في الأعمى :  
وما حاشهم إليه ! وكان ابن عباس وعثمان بن مالك يؤمان كلاهما أعمى وطبعا عامة العلماء .

التاسعة عشرة — واستخفوا في إمامة ولد الزنا فقال مالك : أكره أن يكون إماما راتبا . وكره  
ذلك ابن عمر بن عبد العزيز . وكان عطاء بن أبي رباح يقول : له أن يؤم إذا كان مرضيا . وهو قول  
الحسن البصري والزهري والشافعي وسفيان الثوري والأوزاعي وأحمد وإسحاق . ويجزئ الصلاة  
خلقهم عند أصحاب الرأي . ويكره أصب إليهم . وقال الشافعي : أكره أن ينصب إماما راتبا من  
لا يعرف أبوه . ومن صل خلقه أجزأه . وقال عيسى بن دينار : لا أقول يقول مالك في إمامة ولد  
الزنا وليس عليه من نصب أبويه شيء ونحوه قال ابن عبد الحكم إذا كان في نفسه أهلا للإمامة .  
قال ابن المنذر : يؤم لمخوله في جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرهم » وقال

أبو هريرة : ليس في شيء من الآثار الواردة في شرط الإمامة ما يدل على صراحة نسب ، وإنما فيها الدلالة على التتبع والتفرقة وتصلح في الدين .

'ألفية عشرين - وأما البعد ، فروى البخاري عن ابن عمر قال : لما قدم المهاجرون الأنثرون العصبية - موضع قبته - قبل مقدم النور صلى الله عليه وسلم ، كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة وكان أكثرهم قرأنا ، وعنه قال : كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأنثرين وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد قبته : فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعاصم بن ربيعة ، وكانت طائفة يؤمها عبدعازكوان من المصحف ، قال ابن المنذر : وأم أبو سعيد مولى أبي أسيد - وهو عبد - فقرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم حذيفة وأبو مسعود .

ورخص في إمامة البعد ، النخعي والشيبي والحسن البصري والحمك والثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي ؛ وكره ذلك أبو جازر . وقال مالك : لا يؤمهم إلا أن يكون البعد قارئا ومن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أحرار . يكون في عيد أو جمعة فإن البعد لا يؤمهم فيها ، ويجزئ عند الأوزاعي إن صلوا وراءه . قال ابن المنذر : البعد داخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يوم تقوم أقدوم » .

الحادية والعشرون - وأما المرأة فروى البخاري عن أبي بكر قال : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : « لن يفتح قوم ولوا أمرهم امرأة » . وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن خالد عن أم ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها في بيتها ، قال : وجعل لها مؤذنا يؤذن لها وأمرها أن ترقم أهل دارها ، قال عبد الرحمن : فانا رأيت مؤذنها شيئا كبيرا . قال ابن المنذر : والشافعي يوجب الإعادة على من صلى من الرجال خلف المرأة ، وقال أبو نؤر : لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المزني .

قلت : وقال علي بن أبي طالب : لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى ابن أبي عمير جواز إمامتها للنساء . وأما الحنفي المشكك ، فقال الشافعي : لا يؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال ، وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانية والعشرون — الكافر المخالف للشرع كاليهودي والنصراني يؤم المسلمين وهم لأهل بيتهم يكفرون، وكان الشافعي وأحمد يقولان . لا يجزئهم ويميلون . وقال مالك وأصحابه لأنه ليس من أهل القرية . وقال الأزناقي : ينافي . وقال أبو ثور والمزني : لا إعادة على من صلى خلفه ولا يكون بصلاته مسلماً عند الشافعي وأبي ثور . وقال أحمد : يجر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخاري عن الحسن : صلّ وعليه بدعته . وقال أحمد : لا يصل خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواء . وقال مالك : ويصل خلف أئمة الجور، ولا يصل خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . قال ابن المنذر : كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة، ولا يجوز تقديم من هذه صفته .

الرابعة والعشرون — وأما الفاسق يجوارحه كالزاني وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال ابن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعد أبداً إلا أن يكون الوالي الذي تؤدي إليه الطاعة، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : « لا تؤمن امرأة رجلاً ولا يؤمن أعرابي مهاجراً ولا يؤمن فاجر برأ إلا أن يكون ذا سلطان » . قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب ، والأكثر يضعف على بن زيد . وروى الدارقطني عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن سركم أن تركو صلاتكم تقدموا خياركم » . في إسناده أبو الوليد خالد بن اسماعيل الخزرجي وهو ضعيف قاله الدارقطني ؛ وقال فيه أبو أحمد بن طي : كذب يضع الحديث على تيمات المسلمين ؛ وحديثه هذا يرويه عن ابن جريح عن عطاء عن أبي هريرة . وذكر الدارقطني عن سلام ابن سليمان عن عمر بن محمد بن واسع عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وفد فيكم وبين الله » . قال الدارقطني : عمر هذا هو عند عمر بن يزيد قاضي المدائن ، وسلام بن سليمان أيضاً مدائني ليس بالقوي قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون - روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما جعل الإمام يؤتم به فلا تخفقوا عليه فأنما كبر فكبروا وإنما ركع فأركعوا وإنما قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا لك الحمد وإنما سجد فأسجدوا وإنما صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعون » . وقد اختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام طمعا على قولين ، أحدهما : أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو في أكثرها ، وهو قول أهل الظاهر . وروى عن ابن عمر ذكر سفيان قال حدثنا ابن طلبة عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الورد الأنصاري قال : صليت إلى جنب ابن عمر فقلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلم الإمام أخذ ابن عمر يدي قلواني ويدي ، فقلت : هالك ! قال : من أنت ؟ قلت : فلان ابن فلان ، قال : أنت من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصل ؟ قلت : أو ما أبقى إلى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله وإنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن علي فممن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد : لم يعتد بذلك ولم يحزه . وقال أكثر الفقهاء : من فعل ذلك فقد أساء ولم يعتد صلاته لأن الأصل في صلاة الجماعة والاتمام فيها بالأئمة ، سنة حسنة ، فمن خالفها بعد أن أدى فرض صلاته بظاهرها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها وإن أسقط بعض سببها لأنه لو شاء أن يتفرد فصل قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه ، وليس ما فعل في تركه الجماعة .

قالوا : ومن دخل في صلاة الإمام فركع ركوعه وسجد سجوده ولم يكن في ركعة وإمامه في أخرى فقد اقتدى وإن كان يرفع قبله ويخفض قبله لأنه يركوعه يركع ويسجد يسجد ويرفع وهو في ذلك تبع له إلا أنه متى في فعله ذلك خلافة سنة المأموم المتبع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور يعني على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام لأنه الإتيان الحسي والشرعي بمقتضى وليس الأمر هكذا عند أكثرهم ، والصحيح في الأمر والنظر القول الأول ، فإن الإمام إنما يجعل يؤتم به ويقتدى به - بإقتفائه - وبما قوله تعالى : ( إني جاعل لك للناس إماماً ) أي وأتخذك لهم على ما أتخذني ، وهذا حقيقة الإمام لغة وشرعاً ، فمن خالف الإمام لم يتبعه ، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كبر فكبروا » الحديث ، فأي بالسهة التي توجب التعقيب وهو الذي عن الله مراده ، ثم أوردت رفع أو ركع قبل ومبدأ

شديدا فقال : « أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار أو صورة صورة حمار » . أخرجه الموطأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنما ناصيته بيد شيطان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » . يعني مردودا . فمن تعدد خلاف إمامه علما بأنه مأمور باتباعه منهى عن مخالفته فقد استخف بصلاته وخالف أمر ربه ، فواجب أن لا تجزى عنه صلاته تلك والله أعلم .

السادسة والعشرون - فإن رفع رأسه ساعيا قبل الإمام فقال مالك رحمه الله : السنة فيمن سهى ففعل ذلك في ركوع أو في سجود أن يرجع راکما أو ساجدا وينظر الإمام ، وذلك خطأ من فعله لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه » . قال ابن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عمدا لقوله : وذلك خطأ من فعله . لأن الساعي الإثم عنه موضوع .

السابعة والعشرون - وهذا اختلاف إنما هو فيما عدا تسمية الإحرام والسلام ، أما السلام فقد تقدم القول فيه ، وأما تسمية الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام ، إلا ما روى عن الشافعي في أحد قولييه أنه إن كبر قبل إمامه تسمية الإحرام أجزأت عنه لحديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى الصلاة فلما كبر أنصرف وأومأ إليهم ، أي كما أتم ؛ ثم خرج ثم جاء ورأسه قطر فصلى بهم ؛ فلما أنصرف قال : « إني كنت جنباً فنسيت أن أغتسل » . ومن حديث أنس فكبر وكبرنا معه ؛ وسبق بيان هذا عند قوله تعالى : ( وَلَا جُنُبٌ ) في النساء إن شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون - روى مسلم عن أبي مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسبح ما كنا في الصلاة ويقول : « استوتوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليليني منكم أولو الأحلام والنبي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ؛ قال ابن مسعود : فأتهم اليوم أشد اختلافا . زاد من حديث عبد الله : « وأياكم وهشات الأضواء » . قوله : « استوتوا » أمر بتسوية الصفوف وخاصة الصف الأول وهو الذي يلي الإمام على ما يأتي بيانه في سورة الحجر إن شاء الله تعالى ؛ وهناك يأتي الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والمشرون — واختلف العلماء في كيفية الجلوس في الصلاة لاختلاف الآثار في ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : يقضي المصلئ بألتيه إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثني رجله اليسرى ؛ لما رواه في موطأه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجله اليمنى وثني رجله اليسرى وجلس على وركه الأيسر ولم يجلس على قدمه ، ثم قال : أراى هذا عبد الله ابن عمر وحدثنى أن أباه كان يفعل ذلك .

قلت : وهذا المعنى قد جاء في صحيح مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائما ، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالسا ، وكان يقول في كل ركعتين التحية وكان يفرش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى ، وكان ينهى عن عقبة الشيطان ، وينهى أن يفتش الرجل ذراعيه اقتراش السج ، وكان يحتم الصلاة بالتدليع .

قلت : ولهذا الحديث — والله أعلم — قال ابن عمر : إنما سنة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثني اليسرى . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حقه : ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى لحديث وائل بن حجر ؛ وكذلك قال الشافعي وأحمد وإسحاق في الجلوس الوسطى . وقالوا في الآخرة من الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء كقول مالك لحديث أبي حنيد الساعدي ، رواه البخاري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم إذا كبر جعل يديه حذو منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره ، فإذا رفع استوى حتى يعود كل فمار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه مفرش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجله للقبلة ، وإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى وتنصب الأخرى ، وإذا جلس في الركعة الآخرة تقدم رجله اليسرى وتنصب اليمنى وقعد على مقدمته . وقال الطبري : إن فعل هذا فمن ، كل ذلك قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبي مريم عن علي بن عبد الرحمن المماوي أنه قال رأى عبد الله بن عمر وأنا أمبث بالخصياء في الصلاة ؛ فلما انصرف نهاني فقال : اصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ، قلت : وكيف ، تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟

قال : كان إذا جلس في الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه كلها وأبصر بأصبعه اليمنى إلى الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : حكمنا كذا بضع . قال أبو عبد الله : وما وصفه ابن عمر من وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه . ذلك كلها إلا السابعة ؛ فإنه يشير بها ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفرجة الأصابع ؛ قال ذلك . سنة في الجلوس في الصلاة مجمع عليه ، لا خلاف أعلمه بين العلماء فيها . وحديثنا ؛ إلا أنهم اختلفوا في تحريك أصبعه السابعة ؛ فهم من رأى تحريكها ، ومنهم من لم يرد ؛ وكل ذلك مروى في الآثار الصالح المعتبرة . أبو عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وجميع مباح والحد . يروى سفيان ابن عيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبي مريم يعني ما رواه مالك وزاد فيه ، قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدثنا عن مسلم ثم لقيناه فسمعت منه وزادني فيه ، قال : هي مذهب الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بأصبعه ويقول هكذا .

قلت : روى أبو داود حديث ابن الزبير أنه عليه السلام كان يشير بأصبعه أنادما ولا يحركها ، وإلى هذا ذهب بعض العراقيين . فنع من تحريكها . وبعض علمائنا رأوا أن مدحا إشارة إلى الوحد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها إلا أنهم اختلفوا في المبالاة بالتحريك على قولين ، تأولوا من والآله بأن قال : إن ذلك يذكر بمبالاة الحضور في الصلاة . وإنما مقصده ومدفعة الشيطان على ما روى . غبان . ومن لم يرد ، رأى تحريكها عند الانتفاظ بكلتي الشهادة ، وتأول في الحركة كأنها تعلق بتلك المبالاة بالوحد والله أعلم .

الحادية والثلاثون — واختلفوا في جلوس المرأة في الصلاة ؛ فقال مالك : هي كالرجل ، ولا تحلقه فيما بعد الإحرام إلا في اللباس والجهر . وقال الثوري : تسدل المرأة جلبها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النخعي . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يتوصل لها . وهو قول الشعبي : فهد كيف يسر لها . وقال الشافعي : تجلس بأستر ما يكون لها .

الثانية والثلاثون — روى مسلم عن طلوس قال : قلنا لا ينس في الإضواء على القسامين ، فقال : هي آتية ؛ قلنا له : إنا نراه جفاء بالرجل ؛ فقال ابن عباس : [بن عباس] من سب عليك عرو ، فإنه عليه (١) الزيادة من صحيح مسلم .



وسلم . وقد اختلف العلماء في صفة الإقماء ما هو ؛ فقال أبو عبيد : الإقماء : جلوس الرجل على ألبته ناصبا فغذيه منبل إقماء الكلب . والسمع . قال ابن عبيد البر : وهذا إقماء جماع عليه لا يختلف العلماء فيه . وهذا تسمية أهل اللغة وطلاقة من أجل الفقه . وقال أبو عبيد : وهذا لأهل الحديث فانهم يقولون الإقماء على من عمل الشيء على عبادة من الناس . ومن قال القاضي بها من لا لا يشبهه عبيدى في تأويل الإقماء الذى قاله ابن عباس . انه من الصيغة جثا . فبنيته الفقهاء من وضع الأئمة على القولين . ومن السجدة . وان كان جلا . فلهذا لا يخفى . ومن غلظت من الصيغة . انفس عبيدك التمس . وهذا ما لم يسم به من صفة عن جلاله . من كونه على ظهره . فقال القاضي : وقد روى ابن جماعة من التمس والصيغة . انهم كانوا يقولونه . ولم يقل بذلك تابعي فقهوا . الا بصاروا يسمى إقماء . وذكر عبد الرزاق عن معمر بن ابن طاووس عن أبيه أنه رأى ابن عمر وابن عباس وابن الزبير يقولون بين

[illegible][illegible]

عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت؟ ذكر التفكير كما وضع رأسه وكما خفضه ،  
 وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه ، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال ابن عبد البر :  
 وهذا إسناد مني صحيح ، وأصل للشهور بالمدينة القليلة الواحدة وهو عمل قد توارثه أهل  
 المدينة كابرا عن كابر وقد يصح فيه الاحتجاج بالعمل في كل بلد لأنه لا يخفى لوفوه في كل يوم  
 مرارا ، وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بقليتين متواترت عندهم أيضا ، وكل  
 ما جرى هذا المجرى فهو اختلاف في المباح كالآذان ، وكذلك لا يرى من عالم بالجفر ولا بالعرفان  
 ولا بالشام ولا بصمر إنكار القليلة الواحدة ولا إنكار القليتين بل ذلك عندهم معروف ومحدث  
 القليلة الواحدة رواه سعد بن أبي وقاص وثابتة وآتى إلا أنها مطولة لا يصحها أهل العلم  
 بالحديث .

الرابعة والخمسون - روى القارظي عن ابن مسعود أنه قال : من السنة أن يقرأ التشهد . واختار  
 مالك تشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو : التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصالحات لله ،  
 السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله  
 إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . واختار الشافعي وأصحابه والليث بن سعد تشهد ابن عباس :  
 قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ التشهد كما يقرأ السورة من القرآن ، فكان يقول :  
 " التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا  
 وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . واختار الثوري والكوفيون  
 وأكثر أهل الحديث تشهد ابن مسعود الذي رواه مسلم أيضا قال : كما تقول في الصلاة خلف  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله السلام على نبيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 ذات يوم : " إن الله هو السلام قلنا قد أخذتم في الصلاة تليق التحيات والصلوات والطيبات  
 السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - قلنا قلنا أصابت  
 كل عبد [ <sup>(١)</sup> ] صالح في السماء والأرض - أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله  
 ثم يخرج من الصلاة ما شاءه . وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحمد بن حنبل بالأندلس يخاره

ويقال اليه . وروى عن أبي موسى الأشعري مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ابن مسعود . وهذا كله اختلاف في مباح ليس شيء منه على الوجوب . والحمد لله وحده ؛ فهذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمنها قوله جل وعز : ( وَأَوْكُوا مَعَ الرَّائِيَيْنِ ) . وسأيت القول في القيام في الصلاة عند قوله تعالى : ( وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ) . وإتي هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة ، وإتي في آل عمران حكم صلاة المريض غير الإمام ، وإتي في النساء في صلاة الخوف حكم المفترض خلع المتنفل ، وإتي في سورة مريم حكم الإمام يصل أرفع من المأموم إلى غير ذلك من الأوقات والأماكن والمساجد ؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : ( وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ) . وقد تقدم في أول السورة بجلستن أحكامها والحمد لله على ذلك .

قوله تعالى : ( أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ ) الآية ؛ فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ ) . هذا استفهام معناه التبنيغ ، والمراد في قول أهل التأويل عنفاء اليهود . قال ابن عباس : كان يهود الملبسة يقول الرجل منهم لصهره ولدى قرابته ولبن يتيه وبينه رضاع من المسلمين : اثبت على الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل . - يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم - فإن أمره حق ؛ فكأنوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه . وعن ابن عباس أيضا ؛ كان الأحيار يأمرون مقلقيهم واتباعهم باتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها في مجدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آبن جريج : كان الأحيار يحضون على طاعة الله وكانوا هم يوافقون الماضى . وقالت فرقة : كانوا يحضون على الصدقة ويحذون . والمعنى مقارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أطلب اليك الناس بمقتضى المعاني وأتم تخالفون عن ظواهر رسومها !

الثانية - في شدة عذاب من هذه صفة . روى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( دليمة أنسى في كرب <sup>(١)</sup> على ناس تعرض شفاههم بمقارض من نار فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء أعطيتهم من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر ويضنون

(١) كذا في نسخة الإمام أحمد بن حنبل (٤/٣٠٠) وفي نسخة أبي داود (١٤٦) وفي الأصول :

أنهم وهم يتلون الكتاب أفلا يقولون . . . وروى أبو أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم يجرؤون قصيم في نار جهنم فيقال لهم من أنتم فيقولون نحن الذين كنا أمر الناس بالخير ونسى أنفسنا » .

قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين لأن في سنده التصيب بن جعفر وكان الإمام أحمد يستضعفه ، وكذلك ابن معين يرويه عن أبي غالب عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي ، وأبو غالب هو — فيا حكي يحيى بن معين — حرور القرشي مولى خالد بن عبد الله بن أسيد ، وقيل : مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضري ، كان يختلف إلى الشام في تجارته . قال يحيى بن معين : هو صالح الحديث فقد رواه مسلم في صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب<sup>(١)</sup> بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى] فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم [تكن] أمر بالمعروف وتنبى عن المنكر فيقول على قد كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية » .

التصيب يضم القاف : المني وجمعه أقصاب . والأفتاب : الأضواء ، وأحدها قيب . ومعنى فتندلق فتخرج بسرعة . وروينا فتعلق .

قلت : فقد بدل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كلف عالما بالمعروف والمنكر ويوجب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه ، وإتب ذلك ، لأنه كالمتبين بمرعات الله تعالى ، ومستخف بأحكامه ، وهو ممن لا يتفح بعلمه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » . أخرجه ابن ماجه في سننه .

الثالثة — اعلم وقدك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا فتم الله تعالى في كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها ، ويمنهم به توبيخا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : ( **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ** ) الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

أمر الناس بالبر ولا يعملون بها ، وتوبيخهم به توبيخا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة .

وإنهم لم يكونوا يصرون بها .

وقال أبو الناهية :

وصفت التي حتى كأنك ذوتني • وريح الخطايا بن ثيابك تسلم

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لا تسه عن خلق وتأتي مثله • عر عليك إذا فلت عظيم  
وابدأ بنفسك فانها عن غيا • فان انتهت عنه فانت حكيم  
فهاك قبل إن وعظت ويقتدى • بالقول منك وينفع التعليم

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان المجبري الزاهد فخرج وقد علم موضعه الذي

كان يقعد عليه للتذكير فسكت حتى طال سكوته ؛ فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس ، ترى أن  
تقول في سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تقي بأمر الناس بالثقي • طيب يداوي والطيب مريض

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرائعة — قال إبراهيم النخعي : إني لأكره القصص لثلاث آيات ؛ قوله تعالى : ( أَنَا نُرِيكَ )  
النَّاسَ بِالْبَرِّ ( الآية ) وقوله : ( لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ) ، وقوله : ( وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ )  
إِلَى مَا أَهْلِكُمْ عَنْهُ ( ١ ) . وقال سلم بن عمرو :

ما أفجع التهديد من واعظ • يرهع الناس ولا يرهع

لو كان في تهديد صادق • أخفى وأسى بيته المسجد

إن رفض الدنيا فإياه • يستمع الناس ويسترقع

والرزق مقسوم على من ترى • يناله الأبيض والأسود

وقال الحسن لمخزوم بن عبد الله : عظ أصحابك ؛ فقال : إني أخاف أن أقول ما لا أفعل ؛

قال : يرحمك الله ! وأينا يفعل ما يقول ! وبود الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد بمخروفي

( ١ ) . كذا في الأصول ، والصحيح إذا لا آيات مجازة ؛ وهو ابن أبي عمير بن عمرو الخراساني ؛ راجع الأبيات ( ج ٤ ، ص ٧٦ )

طبع دار الكتب المصرية . . . . .

( ٢ ) . كذا في الألفان . وفي الأصول : . . . . .

ولم يته عن منكر . وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر . قال مالك : وصدق ، من ذا الذي ليس فيه شيء ؟

الخامسة - قوله تعالى ( وبالبر ) البر هنا الطاعة والعمل الصالح ، والبر : الصديق . والبر : ولد التملب . والبر : سوق النعم ، ومنه قولهم : « لا يعرف هرا من بر » أى لا يعرف دعاء النعم من سونها . فهو مشترك ، وقال الشاعر :

لا هم رب إن بكراً دونكا • يبرك الناس ويغفرونكا

أراد بقوله : يبرك الناس أى يطيعوك . وقال : إن البر التفاد في قوله : أكون مكان البر منه ودونه • وأجمل ما لدونه وأوامره

والبرضم الباه معروف ، ويشتقها الإجلال والمظيم ، ومنه ولد برو بار أى يعظم والإيدي ويكرهما .

السادسة - قوله تعالى : ( وَتَسْأَلُونَ أَنَسْأَلُكُمْ ) أى تتركون . والنسيان بكسر النون يكون بمعنى الترك . وهو المراد هنا فى قوله تعالى : ( تَسْأَلُونَ أَنَسْأَلُكُمْ ) وقوله : ( فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ) . وقوله : ( وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ) . ويكون خلاف الذكر والحفظ ، ومنه الحديث : « نسي آدم فسبب ذريته » وسياق ، يقال : رجل نسيان يفتح النون كثير النسيان للشيء . وقد نسيت الشيء نسياناً ، ولا تقل نسياناً بالتحريك لأن النسيان إما هو تثنية نسا : الفرق . وأنس : جمع فس جمع قلة . وأنس : الروح ، يقال : خرجت منه ، قال أبو نوحاش :

نجا سالم وأنس منه بشدة • ولم ينبج إلا جن سيف ومردا

أى يجن سيف ومرد . ومن الليل على أن أنس الروح قوله تعالى : ( أَنَسْأَلُكُمْ ) ( أَنَسْأَلُكُمْ ) يريد الأرواح ، فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى . وذلك بين فى قول بلال

(١) فمسة : «طه» .

(٢) كما فى البر المعلى لأن شدة . «بكراء» بالراء . وفى تصحى التوكان : « إن يكزوا » .

(٣) كما فى الأصول بالسكان مادة «بر» . وفى فتح القاموس :

« يكون مكان البر من دعاه » .

التي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن شهاب : أخذ بنفسى يارسول الله الذي أخذ بنفسك . وقوله عليه السلام في حديث زيد بن أسلم : « إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لرحها إلينا في حين غير هذا » . رواها مالك ؛ وهو أولى ما يقال به . والنفس أيضا الباطنة ؛ يقال : سالت نفسه ؛ قال الشاعر :

تسيل على حد السيوف نفوسا . وليست على غير النظبات تسيل

وقال إبراهيم النخعي : ما ليس له نفس سائلة فانه لا يفيض الماء إذا مات فيه . والنفس أيضا الجسد ؛ قال الشاعر :

نبت أن بنى حمم أدخلوا . أبايتهم تلمور نفس المنذر

والتلمور أيضا : الدم .

السابعة — قوله تعالى : ( وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ) . توبخ عظيم لمن فهم . وتتلون : تقرأون . الكتاب : التوراة . وكذا من فعل ففهم كل من مثلهم . وأصل التلاوة الاتباع ، ولذلك استعمل في القراءة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض في حروفه حتى يأتي على نسقه ؛ يقال : تلوته إذا تبعته تلاوا ، وتلوت القرآن تلاوة . وتلوت الرجل تلاوا إذا خذلته . والثنية والثلاوة ( بضم التاء ) : البقية ؛ يقال : تلئت لي من حق تلاوة وتلية أى بقيت ؛ وأتليت : أبقيت . وتلئت حتى إذا تبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تل الرجل إذا كان يأنحرم .

الثامنة — قوله تعالى : ( أَفَلَا تَتَّقُونَ ) . أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواصلة هذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع ؛ ومنه عقل البعير لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للبدية لأنه يمنع ولو المقتول عن قتل الجاني . ومنه اعتقال البطن واللسان . ومنه يقال الحصن : معقل . والعقل : هيض الجهول . والعقل : ثوب أحمر تتخذ نساء العرب نقش به الموداج ؛ قال علقمة :

عقلا ورقا تكاد الطير تحفظه . كأنه من دم الأجواف مدموم

المدموم (باللهملة) : الأحمر ، وهو المراد هنا . والمدموم المثلث شحما من البعير وغيره .

وقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه طولاً ؛ وما كان نقشه مستديراً فهو الرقم . وقال الزجاج : العقل من عمل بما أوجب الله عليه ، من لم يعمل فهو باهل .





قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ الآية . فيه ثمان مسائل :

الأولى -- قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ ، الصبر : الحبس في اللغة ، وقيل فلان صبرا أي أمسك وسبر ، حتى أتلف ، وصبرت نسي على الشيء : حبستها ، والمصبرة التي نهي عنها في الحديث هي المحبوسة على الموت ومعنى المجتنة ، وقال عترة :  
فَصَبْرٌ عَارِفَةٌ لِّلْمَوْتِ • تَرْمُو إِذَا نَقَسَ الْجَبَانَ تَطْلُعُ

الثانية -- أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة في كتابه فقال : ﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ . يقال : فلان صابر عن المعاصي . وإذا صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة ، هذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر ، إنما قال : صابر على كذا ، فإذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرناه ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَوْنِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

الثالثة -- قوله تعالى : ﴿ وَالصَّلَاةِ ﴾ . خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها . وكان عليه السلام إذا سَرَّبه أمر فزع إلى الصلاة ومنه ما روى أن عبد الله بن عباس نهي له أخوه قثم . - . وقيل بنت له -- وهو في سفر فاسترجع وقال : عورة سهرها الله ، ومثوثة كفهاها الله ، وأجر ساقه الله . ثم تحيى عن الطريق وصلى ثم انصرف إلى راحته وهو يقرأ : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ . فالصلاة على هذا التأويل هي الشرعية . وقال قوم : هي الدعاء على عرفها في اللغة ، فتكون الآية على هذا التأويل شبهة لقوله تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ . لأن الثبات هو الصبر ، والذكر هو الدعاء . وقول ثالث ، قال مجاهد : الصبر في هذه الآية الصوم ، ومنه قيل لرمضان : شهر الصبر ، بقاء الصوم والصلاة على هذا القول في الآية تناسبا في أن الصيام يمنع من الشهوات ويذهب في الدنيا ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتخفف وتقرأ فيها القرآن الفنى يذكر الآخرة . الله أعلم .

الرابعة -- الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمها عن شهواتها ومنعها من تطاوعها ، وهو من أخلاق الأتقياء والصالحين . قال مجي بن إيمان : الصبر ألا تنهى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضى بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك . وقال الشعبي : قال علي رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . قال الطبري : وصدق علي رضي الله عنه . وذلك أن

الإيمان معرفة القلب وإقرار باللسان وعمل بالحوارج؛ فمن لم يصبر على العمل بموارحه لم يستحق الإيمان بالإخلاص؛ فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذي لا تمام له إلا به.

الخامسة - وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًا فقال: ﴿ مَنْ جَاءَ بِحَسَنَةٍ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا ﴾. وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ الآية. وجعل اجر الصابرين بغير حساب ومدح أهله فقال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. وقال: ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾. وقد قيل: إن المراد بالصابرين في قوله: ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ ﴾. أي الصائمون، لقوله تعالى في صحيح السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم: « الصيام لي وأنا أجزى به » فلم يذكر ثوابًا مقدرًا كما لم يذكره في الصبر. والله أعلم.

السادسة - من فضل الصبر وصف الله تعالى نفسه به كما في حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ليس أحد أوليس شيء أصبر على أذى سمعه، من الله تعالى إنهم ليدعون له ولما وإنه ليخبرهم ويرزقهم ». أخرجه البخاري. قال عليًا: وصفه الله تعالى بالصبر إنما هو بمعنى الحلم، ومعنى وصفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد في التبريل وإنما ورد في حديث أبي موسى، وتأوله أهل السنة على تأويل الحلم. قاله ابن فورك وغيره. وجاء في أحكامه الصبور للبالغة في الحلم عن عصاه.

السابعة - قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا لِكَيْدَرٍ ﴾. اختلف المتأولون في عود الضمير من قوله: ﴿ وَإِنَّمَا ﴾ فقيل: على الصلاة، وأما خاصة، لأنها تكبر على النفوس ما لا يكبر الصوم. والصبر هنا هو الصبر على الشهوات، فالصبر على الشهوات هو الصبر على الشهوة؛ فليس من منع شهوة واحدة أو شهوتين كن منع جميع الشهوات؛ فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب، ثم ينسبط سائر الشهوات من الكلام والمشي والنظر إلى غير ذلك من ملاقة الخلق، فيتسل تلك الأشياء عما منع، والمصلح يمنع من جميع ذلك، بخوارجه كلها مفسدة بالصلاة عن جميع الشهوات. وإذا كان ذلك كانت الصلاة أصعب على النفس ومكابستها أشد فقلبك قال: ﴿ وَإِنَّمَا لِكَيْدَرٍ ﴾. وقيل: عليهما، ولكنه كفي عن الأغلب وهو الصلاة كقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَمُتُونَ الذَّهَبَ وَالنِّصَّةَ وَلَا يَتَّقُونَهَا ﴾.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ ) . وقوله : ( وَإِنَّا رَآؤُا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا مُّغْوًى فَلَمْ نُدَبِّرْ لَهَا ذِكْرًا ) . فرد الكفاية إلى الغصة لأنها الأغلب والأعم ، وإلى التجارة لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لما كان داخلا في الصلاة أعاد عليها كما قال : ( وَأَنَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ) . ولم يقل : يرضوهما ، لأن رضى الرسول داخل في رضى الله جل وعزه ، ومنه قول الشاعر :

إن شريح الشباب والشعر الأمد • سودا لم يماص كان جنتونا

ولم يقل يماصيا ، رد إلى الشباب لأن الشعر داخل فيه ؛ وقيل : رد الكفاية إلى كل واحد منهما لكن حذف اختصارا ، قال الله تعالى : ( وَجَعَلْنَا بَيْنَ صَرِيمٍ وَأَمَةٍ آيَةً ) ولم يقل آيتين ، ومنه قول الشاعر :

فن يك أسى بالمدينة رحله • فإني وقيار بها لتسرب

وقال آخر :

لكل هم من الموموم سمه • والصبح والمسي لافلاح معه

أرد لغريبان ، لا فلاح مبهما . وقيل : على العبادة التي يتضمنها بالمسي ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر وهي الاستمانة التي يقتضيها قوله : ( وَأَسْتَعِينُوا ) . وقيل : على إجابة عهد عليه السلام ، لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة ، لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها ، وكبرة ، منته تبيته شاقة ، خبر إن ويجوز في غير القرآن وإنه لكيرة إلا على الغاشقين ، فإنها خفيفة عليهم . قال أرباب المعاني : إلا على من أيد في الأزل بخصائص الاجتهاد والهدى .

الثانية — قوله تعالى : ( عَلَى الْغَاشِقِينَ ) . الغاشقون جمع غاشق وهو المتواضع . والغشوع : هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الغشوع في القلب وهو الخلو فغض البصر في الصلاة . قال الزجاج : الغاشق الذي يرى أثر القتل والغشوع عليه تخشوع العار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

وما دك كعمل العن لأيا آيته • ونؤيما يكتم الحوض أتم خلت

(١) قوسان بن ثابت .

(٢) هو ضابط البرجى ، كافى السنن مادة (تبر) . والكمال لغو (ج ١ من ١٨١) طبع أوروبا .

(٣) هو الأصغر بن قريش السهمي ، البانمادة (سا) .

ويمكن شئ لا يندى له . وخشعت الأصوات أي سكنت . وخشعت نراشي صغره إنفا  
التي يصلق أزبا . وخشع يصره إذا غصه . والخشعة : قطعة من الأرض رخوة ، وفي الحديث :  
« كانت خشعة على الماء ثم دحيت بعد » . وبلعة خاشعة : نغرة لا تغزل بها . قال سفيان  
الثوري : سألت الأنعمش عن الخشوع فقال : يا ثوري ، أنت تريد أن تكون إماما للناس  
ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع ، قال : أعيش ! تريد أن تكون إماما  
لناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشخشة وليس الخشوع بتطاول الرأس ! لكن  
الخشوع أن ترى الشريف والفقير في الحق سواء ، وتخضع له في كل فرض أقضض عليك . ونظر  
عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على  
ما في القلب . وقال علي بن أبي طالب : الخشوع في القلب ، وأن تلين كفيك لله المسلم ،  
والا تلقت في صلاتك . وسأني هذا المعنى مجزئا عند قوله تعالى : ( قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ مِمَّ  
فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ) . فمن أظهر الناس خشوعا فوق ما في قلبه فأما أظهر فافاقا على تقاض . قال  
سبل بن جندب الله : لا يكون خاشعا حتى تخضع كل شعرة على جسده ، لقول الله تبارك وتعالى :  
( تَخْشِعَتِ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ) .

قلت : هذا هو الخشوع الصمود ، لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك  
صاحبه دفعه قراء مطرقا متادبا متبالا . وقد كان السلف يمتهدون في ستر ما يظهر من ذلك ،  
وأما المذموم فتكلفه والتباكي ويطاعة الرأس كما يفعله الجهال لبروا سين البر والإجلال ، وذلك  
خدع من الشيطان ، وتحويل من نفس الإنسان . وروى الحسن أن رجلا تخضع عند عمر بن الخطاب  
كأنه يحازن ، فذكره عمر ، أو قال ليكنه . وكان عمر رضي الله عنه إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ،  
وإذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا ، وخاشعا حقا . وروى ابن أبي عمير عن مجاهد قال :  
الخاشعون هم المؤمنون حقا .

قوله تعالى : ( الَّذِينَ يَخْشَوْنَ ) : الذين في موضع خفض على التثنية الخاشعين ، ويجوز الرفع على  
التطوع . والفقن حاشي قول اليهودي يعنى اليقين ، وروى قوله تعالى : ( إِنْ طَلَبْتُمْ إِلَى يَدِ اللَّهِ حِسابَهُ )  
وقوله : ( وَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُونَ ) : قال كريب بن الصفة :

(١) الذين في يدها من الأمانة (عشر) : « كانت الكعبة خشعة على الماء فصبحت فيها الأرض »

قلت لم ظنوا بالتي مدح • سرائهم في العارسي للمسرد

وقال أبو دؤاد :

رب هم فريحتهم بشريم • وضرب كشتها بظنون

وقد قيل : إن الظن في الآية يصح أن يكون على بابه ويضم في الكلام بظنهم ، فكأنهم يتوقعون لقاء مذبذب ذكره المهدوي والساودي . قال ابن عطية : وهذا يحسف . وزعم القراء أن الظن قد يقع بمعنى الكذب . ولا يعرف ذلك البصريون . وأصل الظن وقاعدته : الشك مع ميل إلى أحد معتقديه ، وقد يقع موقع اليقين ، كما في هذه الآية وغيرها ، لكنه لا يقع فيما قد خرج إلى الحس ، لا تقول العرب في رجل مرقى حاضر : أظن هذا إنسانا . وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد ، كهذه الآية والشعر ، وكقوله تعالى : ( فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا ) وقد يحكى اليقين بمعنى الظن وقد تقدم بيانه أول السورة . وتقول : سئوت به ظنا ، وأسأت به الظن . يدخلون الألف إذا جاءوا بالالف واللام . ومعنى ( مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ) جزاء ربهم ؛ وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد ، مثل طافه الله . ( وَأَنَّهُمْ ) ينتج الحزمة عطف على الأول ، ويجوز وإثم بكسرها على القطع . ( إِلَيْهِ ) أي إلى ربهم . وقيل إلى جزائه ( وَأَيُّسُونَ ) إقرار بالثبوت والجزاء والعرض على الملك الأعلى .

قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا إِسْرَائِيلُ أَذْكُرُوا بَيْنِي إِلَهِی أَنَّمْتُ عَلَيْكُمْ ) تقدم . ( وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ) بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لم وليست لغيرهم .

قوله تعالى : ( وَأَتَوْا يَوْمَآ ) أمر معناه الوعيد ، وقد مضى الكلام في التقوى . ( يَوْمَآ ) يريد عذابه وهوله وهو يوم القيامة . وانتصب على المفعول بالاقواء ويجوز في غير القرآن يوم لا تجزى على الإضافة . وفي الكلام حذف بين التحوين فيه اختلاف ؛ قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيه يقين عن نفس شيئا ثم حذف فيه ؛ كما قال :

• ويوما شهدناه سلبا وعامرا •

أي ؛ شهدناه فيه . وقال الكسائي : هذا خطأ لا يجوز حذف فيه ولكن التقدير وأتوا يوما لا تجزى نفس ثم حذف الماء . وإنما يجوز حذف الماء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها ؛ قال : لا يجوز

أن تقول: هذا رجلا قصدت، ولا رأيت رجلا أرغب، وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه، قال:  
ولو جاز ذلك لحز الذي تكلمت زيد بمعنى تكلمت فيه زيد. وقال القراء: يجوز أن تحذف الماء  
وفيه. وحكى المهدي: أن الوجهين جائزان عند سيويه والأخفش والزجاج. ومعنى: ( لا تجزى  
نفس عن قيس شيئا ) . أى لا تأخذ نفس بجنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا، تقول: جزى عنى  
هذا الأمر مجزى، كما تقول: قضى عنى. واجترأت بالنسبة اجترأت إذا اكتفيت به، قال الشاعر:

بأن السدر في الأقوام عذر • طاب الحر يحرز بالكرع

أى يكفى بها. وفى حديث عمر: «إنا أجريت الماء على الماء جزى عنك». يريد إذا صببت  
الماء على البول فى الأرض يجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع، وتشعب  
النساء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس. وفى صحيح الحديث عن أبى بردة بن نيار فى الأضحية:  
«ولا تجزى [جذعة] من أحد بملك، أى لن تقضى، فعلى لا تجزى لا تقضى ولا تقضى ولا تقضى، أى لم يكن  
عليها شيء، فإن كان فانها تجزى وتقضى وتقضى، بغير اختيارها، من حسنتها ما طلبها من المحقوق؛  
كما فى حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كانت عنده مظلة لأخيه من  
عرسه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر  
مظلمته وإن لم يكن له حسنت أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه». ترجمه البخارى. ومثله  
حديثه الآخر فى المناس وقدر ذكرته فى الذكر حرجه مسلم. وقرى تجزى بضم التاء والمضمر.  
ويقال: جزى وأجزى بمعنى واحد، وقد فرق بينهما قوم فقالوا: جزى بمعنى قضى وكانا: وأجزا  
بمعنى أغنى وكفى. أجزأت الشيء يجزئ أى كفاى، قال الشاعر:

وأجزأت أمر العالمين ولم يكن • لا يجزى إلا كامل وابن كامل

الثالثة - قوله تعالى: ( وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَقَاةٌ ) : الشقاة مأخوذة من الشق وهو الانشقاق،  
تقول: كان وتوافقت شقا، والشقاة منه؛ لأنك تقسم ملك شريكك إلى ملكك. والشقيع:  
صاحب الشقة وصاحب الشقاة. وثاقه شاق إذا أجمع لها حمل وولد يبعها، تقول منه:  
شقيعت الثاقه شقا، وثاقه شقوع وهو الذى يجمع بين حبلين فى حبة واحدة. واستشقيت إلى أفلان:

سألته أن يشفع لي إليه؛ وتشفعت إليه في ثلاث نفساني فيه؛ فالشفاعة إذا ضم غيرك إلى جارك  
ووسيلتك؛ فهي على التحقيق إظهار لمقابلة الشفيع عند المشفع وإيصال منفعته للشفوع .

الرابعة - منعب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وغلطوا المؤمنين من المنزبين  
الذين دخلوا النار في المذاب . والأخبار مظهرة بأن من كان من العصاة المنزبين الموحدين من  
أم النبيين هم الذين تالم شفاعة الشافعين من الملائكة والبريين والشهداء والصالحين؛ وقد تمسك  
القاضي عليهم في الرد بشيئين؛ أحدهما : الأخبار الكثيرة التي توارت في المعنى . والثاني : الإجماع  
من السلف على تلقي هذه الأخبار بالقبول ولم يد من أحد منهم في عصر من الأعصار نكير؛  
فتظهر دوايتها وإطاعتهم على صحتها وقبولها لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وضاد دين  
المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله :  
( مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاجٍ وَلَا شَفِيعٌ بَاطِلٌ ) . قالوا : وأصحاب الكفار ظالمون . وقال : ( مَنْ يَسْتَلِ  
سُوءًا يَجْزِهِ ) ( وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ) . قلنا : ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم، والعموم  
لا صيغة له؛ فلا تم هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس، وإنما المراد بها الكافرون دون  
المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك . وأيضا فإن الله تعالى أخرج شفاعة لأقوام وقطاعا من  
أقوام؛ فقال في صفه الكافرين : ( فَاسْتَعْمُوهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ) وقال : ( وَلَا يَسْقُوْنَ إِلَّا لِيَن  
أَرْتَقَى ) وقال : ( وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ) . فلهذا بهذه الجملة أن الشفاعة  
إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله : ( وَأَعْتَوْا يَوْمًا لَا تُجْزَى  
نَفْسٌ مِنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ) . النفس الكافرة لا كل نفس . ونحن وإن قلنا بعموم  
المذاب لكل ظالم عاص، فلا نقول : إنهم يحللون فيها بدليل الأخبار التي رويتها، وبدليل قوله :  
( وَيَقُولُ يَوْمَ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَسْمَعْ ) . وقوله : ( إِنَّهُ لَا يَرَى مِنْ دُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ) .  
فإن قالوا : فقد قال تعالى : ( وَلَا يَسْقُوْنَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَقَى ) . والناقض غير مترفعي . قلنا :  
لم يقل الله : لا يرتفعي، وإنما قال : ( لِمَنْ أَرْتَقَى ) . ومن ارتضاء الله الشفاعة هم المرشدون؛ بدليل  
قوله : ( لَا يَكُونُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ) . وهذا الذي قيل للتي حصل لها عطف

وسلم : ما عهد الله مع خلقه ؟ قال : « أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا » . وقال المفسرون : إلا من قال : لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتضى هو الثابت الذي اتخذه عند الله عهدا بالإجابة إليه بديل أول الملائكة استغفروا لهم ، وقال : ( فَأَغْفِرْ لَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ) . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هي لأهل التوبة دون أهل الكفار . قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة ، فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : ( فَأَغْفِرْ لَّذِينَ تَابُوا ) . أي من الشرك ( وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ) . أي سبيل المؤمنين ، سألو الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم ، كما قال تعالى : ( وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ) .

فإن قالوا : جميع الأمة يرغبون في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلو كانت لأهل الكفار خاصة بطل سؤالهم . قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب إلى الله في أن تتأله ، لاعتقاده أنه خير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما اقترض عليه ؛ بل كل واحد مستغفر على نفسه بالنقص فهو تلك يخاف العقاب ويرجو النجاة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يغفر أحد إلا برحمة الله تعالى » - قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال - : « ولا أنا إلا أن يتخلى الله برحمته » .

الخامسة - قوله تعالى : ( وَلَا يُقْبَلُ ) . قرأ ابن كثير وأبو عمرو « يقبل » ، لأنه ، لأن الشفاعة مؤتة . وقرأ الباقون بإياه على التذكير لأنها بمعنى الشفع . وقال الأخفش : حسن التذكير ، لأنك قد فوتت ، كما تخلف في قوله : ( فَتَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ) .

السادسة - قوله تعالى : ( وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا مَدَدٌ ) . أي فداء . والمدل بفتح العين : الفداء ، وبكسرهما ، المثل ، يقال : مدد ومديل الذي يماثل في الوزن والقدر ، ويقال : مدد الشيء هو الذي يساويه قيمة وقدرًا وإن لم يكن من جنسه ، والمدل بالكسر هو الذي يساوي الشيء من جنسه وفي جريمة . وحكى الطبري أن من العرب من يكسر العين من معنى الفدية . فأما واحد الأمدال فالكسر لا غير . قوله تعالى : ( وَلَا تَمُوتُنَّ صَرْدًا ) أي صافون ، والصرفة اللون ، والاصفار : الأصوف ، ومنه قوله : ( مَن أَصْفَرَىٰ إِلَى اللَّهِ ) . أي من يصفى نصرته إلى نصرته ، واستغفر الرجل : استغفر ، واليصرف : الإبانة ، يقال : يصرف أرض رخي فلان أيها ، قال الشافعي : « ما تعلقنا » .



إذا دخل الشهر الحرام فودعى • بلاد تنجى وانتصرى أرض عاصم  
والنصر : المطر؛ يقال : نصرت الأرض : مطرت . والنصر : العطاء، قال :  
إني وأسطار سيطرن سطرًا • لقائل يانصر صرا نهرًا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا، أن بنى إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه  
وسيشفع لنا إبائنا . فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا ينفع فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فدية .  
وإنما خص الشفاعة والتفدية والنصر بالذكر لأنها هي المعاني التي اعتادها سو آدم في الدنيا ؛ فإن  
الواقع في البقرة لا يقتضئ إلا بأن يشفع له أو ينصر أو يشتدى .

قوله تعالى : ( وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ) الآية ؛ فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ( وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ) . إذ في موضع نصب عطف على :  
( أَذْكَرُوا نَعْمَتي ) . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم أي أذكروا نعمتي بالجحاشكم  
من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم ؛ والخطاب للموجودين والمراد من سلف من الآباء ؛ كما قال : ( إِنَّمَا مَا  
طَعْنَى أَلْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْحَمَارِيَةِ ) . أي حملنا آبائكم . وقيل : إنما قال نجيناكم لأن نجاة الآباء كانت  
سببا لنجاة هؤلاء الموجودين ؛ ومعنى نجيناكم ألقيناكم على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها . هذا  
هو الأصل ؛ ثم سمي كل فائر ناجيا . فالناجى من خرج من ضيق إلى سعة . وقرئ : ( وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ )  
على التوحيد .

الثانية — قوله تعالى : ( مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ) . آل فرعون : قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك  
آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملته في عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسبيا له  
أو لم يكن . ولم يكن على دينه وملته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان سبيه وقريسه ؛ خلافا  
للمرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة والحسن والحسين فقط . دليلنا  
قوله تعالى : ( وَأَعْرِضْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ) ( أَيْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ) . أي آل دينه ،  
إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عصبية ؛ ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن  
ولا موحّد فإنه ليس من آل محمد وإن كان قريبا له ؛ ولاجل هذا يقال : إن أباهب وأباهج  
ليسا من آله ولا من أهله ؛ وإن كان بينهما وبين النبي صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ ولاجل هذا قال

الله تعالى في ابن نوح : ( إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ) وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يجازا غير مرة يقول : " [ألا] إن آل أبي - بنى فلانا - ليسوا [بآل] بأولياء إنما ولي الله وصالح المؤمنين " وقالت طائفة : آل محمد أزواجه وذريته خاصة ، لحديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف تعمل عليك ؟ قال : " قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد " رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم ، والآل : الأتباع ؛ والأول أصح لما ذكرناه ، ولحديث عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه قوم يصدقهم قال : " اللهم صل عليهم " فإياه أبي صدقته فقال : " اللهم صل على آل أبي أوفى " .

الثالثة - اختلف النعمة هل يضاف الآل إلى البهتان أولا؟ فقال الكاشي : إنما يقال : آل فلان وآل فلانة ولا يقال في البهتان : هو من آل حمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال في الرئيس الأعظم نحو : آل عبد صبل الله عليه وسلم وآل فرعون لأنه رئيسهم في الضلالة . قال : وقد سمعته في البهتان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

الرابعة - واختلف النعمة أيضا هل يضاف الآل إلى المضر أولا؟ فنع من ذلك الثعالب والزبيدي والكاشي ، فلا يقال إلا : اللهم صل على عبد وآل عبد ، ولا يقال : وآله . والصواب أن يقال : أهله . ونعت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال ؛ منهم ابن السيد وهو الصواب ، لأن السماع الصحيح يفضله ، فانه قد جاء في قول عبد المطلب :

لا م إن البد يم • بنج رحله فامنع حلاك (٢)

وأصر على : آل الصلي • ب • وطببه اليوم أكث •

وقال تميم : أنا فارس الحاسي حقيقة والذي • وآلى • ك • محي حقيقة آلكا

الحقيقة (فانين) : ما يحى على الإنسان أن يحبه أى يحب عليه حابه .

الخامسة — واختلقوا أيضا في أصل آل، فقال النحاس : أصله أهل ثم أبدل من الماء الفاء، فإن صفته رددته إلى أصله فقلت : أهل . وقال المهدوي : أصله أول؛ وقيل : أهل؛ فقلت الماء همزة ثم أبدلت الهمزة الفاء . وجمعه آلون وتصغيره أويل فها حكى اللكائي . وحكى غيره أهيل وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كيسان : إذا جمعت ألا قلت : آلون؛ فإن جمعت ألا الذي هو السراب؛ قلت : آوال؛ مثل : مال وأموال .

السادسة — قوله تعالى : ( فرعون ) . فرعون، قيل : إنه اسم ذلك الملك بينه . وقيل : إنه اسم كل ملك من ملوك المماليقة؛ مثل كسرى للفرس، وقصر للروم، والنجاشي الحبشة؛ وإن اسم فرعون موسى قاييس في قول أهل الكتاب . وقال وهب : اسمه الوليد بن مصعب بن الريان، ويكنى أبا مرة وهو من بني علقم بن لاوذ ابن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلي : وكل من ولي القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيا من أهل أصطخر . قال المسعودي : لا يعرف لفرعون تفسير بالبرية . قال الجوهري : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر؛ وكل غات فرعون؛ والمائة : القراصة؛ وقد تفرعن وهو ذو فرعة : أى دعاه وسكر . وفي الحديث : « اخنفت فرعون هذه الأمة » . وفرعون في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لمجمته .

السابعة — قوله تعالى : ( يسْـَـؤُونَكَ ) . قيل : ممناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يولونكم؛ يقال : سامه خلة خفف إذا أولاه إياه؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :  
إذا ما الملك سام الناس خفا . أينما أنت تزل لنصف نينا

وقيل : يذيعون تعذيبك؛ والسوم : الدوام؛ ومنه سائمة التمر لمداومتها الرعى؛ قال الأخفش : وهو في موضع رفع على الابتداء وإن شئت كان في موضع نصب على الحال أى سائمين لكم .  
الثانية — قوله تعالى : ( سَوْءَ الْمَذَابِ ) . مفعول ثان يسْـَـؤُونَكَ، ومعناه أشد العذاب؛ ويجوز أن يكون بمعنى سوء المذهب؛ وقد يجوز أن يكون متا بمعنى سوما سيطا؛ فربى إن فرعون جسل بن إسرائيل خنعا توجولا وصفتهم في أعماله؛ فصفى يتون؛ ووصف يمزونون وفرعون .

(١) الذى في قبره لا يبان . هذه الجملة سائمة وهي حكاية تال ناشئة ويحتمل أن تكون في موضع نصب على الحال .

وصنف يخدمون. وكان قومه جنداً ملوكاً ومن لم يكن منهم في عمل من هذه الأعمال ضربت عليه الجزية فنلك سوء العذاب .

الثامنة - قوله تعالى : ( وَيَذَّبُونَ أَبْنَاءَهُمْ ) . يَذَّبُونَ بغير واو على البدل من قوله : ( يَسُوءُونَكُمْ ) ؛ كما قال - أنشدته سيويه - :

مَنْ تَأْتَا تَأْلِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا • تَجِدُ حَطَبًا جَرَلًا وَنَارًا تَأْجِمَا -

قال الفراء وغيره : يَذَّبُونَ بغير واو على التفسير لقوله : ( يَسُوءُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ) ؛ كما تقول : أَنَاتِي الْقَوْمَ زَيْدٌ وَعَمْرُو • فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى الْوَاوِ فِي زَيْدٍ • وَنَطْلُهُ : ( وَمَنْ يَفْضَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا • يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ ) . وفي سورة إبراهيم : ( وَيَذَّبُونَ ) بِالْوَاوِ لِأَنَّ الْمَعْنَى يَذَّبُونَكَ بِالذَّبِّ وَغَيْرِ الذَّبِّ . فقوله : ( وَيَذَّبُونَ أَبْنَاءَهُمْ ) ؛ جنس آخر من العذاب لا يخص لها قبله . والله أعلم . قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة البقرة والواو قد تزداد ؛ كما قال :

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَأَتَمَّى •

أَي قَدْ أَتَمَّى . وقال آخر :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرَمِ وَابْنِ الْمَهْمِ • وَلَيْتَ الْكَيْتِيَّةَ فِي الْمَزْدَحِ

أَرَادَ إِلَى الْمَلِكِ الْقَرَمِ ابْنَ الْمَهْمِ لَيْتَ الْكَيْتِيَّةَ ؛ وَهُوَ كَثِيرٌ .

الناشرة - قوله تعالى : ( وَيَذَّبُونَ ) قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقراء ابن عيصم يَذَّبُونَ بفتح الباء . والذَّبُّ : الشَّقُّ ؛ وَالذَّبُّجُ : الْمَنْبُوحُ . وَالذَّبَّاجُ : تَشَقُّقُ فِي أَصُولِ الْأَصَابِعِ . وَذَبَّحَ النَّحْلُ : بَزَلَهُ أَيْ كَشَفَهُ . وَصَدَّ النَّبَاجُ : أَحَدُ النَّحْوَةِ . وَالْمَنَابِجُ : الْحَارِيبُ . وَالْمَنَابِجُ جَمْعُ مَنَبْجٍ وَهُوَ إِذَا جَاءَ السَّبِيلُ نَقَذَ فِي الْأَرْضِ فَكَانَ كَالشَّيْرِ وَنَحْوَهُ سَمِيَ مَنَبْجًا ؛ فَكَانَ فِرْعَوْنُ يَذَّبُ الْأَطْفَالَ وَيَسْقِي الْبَنَاتَ ؛ وَصَبَّغَهُمْ بِسَمِّ النِّبَاءِ بِالْمَالِكِ . وَقَالَتْ طَالِقَةُ : يَذَّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ بِمَنْعِ الرِّجَالِ ، وَصَمَّوْا أَبْنَاءَهُمْ لَمَّا كَانُوا كَذَلِكَ ؛ وَاسْتَدْلَ هَذَا الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : ( سَمَّيْنَاهُمْ ) . وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ لِأَنَّهُ الْأَوَّلُ وَبِهِ أَهْلٌ .

الحادية عشرة - نسب الله تعالى الفضل إلى آل فرعون ؛ وهم إنما كانوا يعطون بأمرة وسلطانه ؛ لتوليم ذلك بأقسامهم . ولعل أن الناشر مأخوذ بضمه . قال الطبري : وَيَحْتَمِلُ أَنْ مِنْ أَمْرِهِ ظَالِمٌ يَقْتُلُ أَحَدَ قَتْلِهِ الْمَأْمُورَ فَهِيَ الْمَأْخُودُ بِهِ .

قلت : وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال ؛ يقتلن جميعا ، هذا بأمره ، والمأمور بمباشرة . هكذا قال النخعي ، وقاله الشافعي - ومالك في تفصيلهما . قال الشافعي : إذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظلمنا كان عليه وعلى الإمام القود كقتلن معا ، وإن أكرمه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلمنا كان على الإمام القود ، وفي المأمور قولان ؛ أحدهما أن عليه القود ؛ والآخر لا قود عليه وعليه نصف الدية . حكاه ابن المنذر . وقال عساؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن يلزمه طاعة الأمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبد ، فالقود في ذلك لازم لهما ، أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيقتل المباشر وحده دون الأمر ، وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلم بعض صبيانته ، أو الصانع بعض متعلبيه إذا كان محتما ؛ فإن كان غير عتلم فالقتل على الأمر ، وعلى عاقلة الصبي نصف الدية . وقال ابن نافع : لا يقتل السيد إذا أمر عبده - وإن كان أعجميا - بقتل إنسان .

قال ابن حبيب : ويقول ابن القاسم أقول : إن القتل طههما . فاما أمر من لا خوف على المأمور في مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يقتل المأمور دون الأمر ، ويصرب الأمر ويحبس . وقال أحمد في السيد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يقتل السيد . وروى هذا القول عن علي بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهما . وقال علي : ويستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويحبس العبد ويضرب ويؤذب . وقال الثوري : يمور السيد . وقال الحكم وحّداد : يقتل العبد . وقال قتادة : يقتلن جميعا . وقال الشافعي : إن كان العبد نصيبا يعقل ، قتل العبد وعوقب السيد ؛ وإن كان العبد أعجميا قتل السيد القود . وقال سليمان بن موسى : لا يقتل الأمر ولكن تقطع يده ثم يعاقب ويحبس - وهو القول الثاني - ويقتل المأمور بالمباشرة ؛ كذلك قال عطاء والحكم وحّداد والشافعي وأحمد وإسحاق في الرجل يأمر الرجل بقتل الرجل ؛ وذكره ابن المنذر . وقال زُفر : لا يقتل واحد منهما - وهو القول الثالث - حكاه أبو المال في البرهان ؛ ورأى أن الأمر والمباشر ليس واحد منهما مستقلا في القود ؛ فذلك لا يقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الطائفة عشرة يسبقها الجهموز ( يَجْمُوزُ ) بالتشديد على المبالغة . وقرأ ابن عيصم ( يَجْمُوزُونَ ) بالتخفيف . والأول أرجح إذ التبع يتكرر . وكان فرعون على ما روى قد رأى في منامه نارا ؛ فخرط

من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر؛ فأولت له رؤياه : أن مولودا من بني إسرائيل ينشأ فيكون حراب ملكا على يديه . وقبل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ( وَفِي ذَلِكُمْ ) . إشارة الى جملة الامر إذ هو خبر فهو كنفرد حاضر أى وفي فعلهم ذلك بكم بلاء : أى امتحان واختبار . وبلاء : نعمة ؛ ومنه قوله تعالى : ( وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنٌ ) . قال أبو الهيثم : البلاء يكون حسنا ويكون سيئا ، وأصله المحنة ؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجليل ليمتحن شكره ، ويبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره ؛ فقبل الحسن بلاء ، واللى بلاء ؛ حكاه المروى . وقال قوم : الإشارة بذلك الى النتيجة فيكون البلاء على هذا فى الخير أى تحتكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة الى الذبح ونحوه ، والبلاء هنا فى الشر ؛ والمعنى وفى الذبح مكروه وامتحان . وقال ابن كيسان : ويقال فى الخير : أبلاه الله وبلاءه ، وأنشد :

جزى الله بالإحسان ما قلا بكم . وأبلاها خير البلاء الذى يبتلى

بجمع بين اللتين ؛ والأكثر فى التفسير آيته ، وفى الشر ببلوته ، وفى الاختبار ابتليته وبلوته ، قاله النحاس .

قوله تعالى : ( وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ فَاُتِمِمْنَا ) . إذ فى موضع نصب . وفرقا : فلقنا ؛ فكان كل فرق كالطود العظيم أى الجبل . وأصل الفرق الفصل ؛ ومنه فرق الشعر ؛ ومنه فرق الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل ؛ ومنه : ( فَالْفَارِقَاتِ فَرَقَتَا ) يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل ؛ ومنه : ( يَوْمَ الْفُرْقَانِ ) يعنى يوم بدر كان فيه فرق بين الحق والباطل ؛ ومنه : ( وَفَرَّقْنَا فَرَقَانًا ) أى فصلناه واحكناه . وقرأ الزهرى : فرقا بتشديد اللام أى جعلناه فرقا . ومعنى بكم أى لكم ، فالباء بمعنى اللام . وقيل : الباء فى مكاتها أى فرقا البحر يدخلكم إياه أى صاروا بين المائمين ، فصار الفرق بينهم ؛ وهذا أولى بيده فافهم .

قوله تعالى : ( الْبَحْرَيْنِ ) : البحر معروف سمي بذلك لاسنانه . ويقال : قرين بحر إذا كان واسع البحرى أكبر كبحره ؛ ومنه : ذاك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى من دون فرس أبى طلحة : " وإن وجدناه ليحرا " . والبحر : الماء الملح . ويقال : بحر الماء ؛ ملح ؛ قال صيب :

وقد عاد ماء الأرض بحسرا فزادني . إلى مَرَضَى أَنْ أبحر المَشْرَبُ العَذْبُ .  
والْبَيْعَةُ : البلدة ؛ يقال : هذه بعرتنا أي بعلتنا . قاله الأيوبي . واليَحْرُ : السلال يصيب  
الإنسان . ويقولون : لقيته حَمْرَةً بِحَمْرَةٍ أي بارزا مكشوبا . وفي الخبر عن كعب الأحبار قال :  
إن لله ملكا يقال له : صدنا فيل ، البحار كلها في قفرة إلهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور بن يزيد عن  
خالد بن معدان عن كعب .

قوله : ( فَأَنجِيَاكُمْ ) أي أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نجا ، ممدود ؛ ونجاة ،  
مفعول . والصدق منجاة . وأنجيت غيري ونجيت . وقرئ ييسا ( وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ ) . ( فَأَنجِيَاكُمْ ) .  
قوله : ( وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ) . يقال : غرق في الماء غرقا فهو غريق وغارق أيضا ؛  
ومنه قول أبي النجم :

• من بين مقتول وطاف غريق •

وأغرقه غيره وغرقه فهو مغرق وغريق . وطم مغرق بالفضة أي محل . والتفريق : القتل ؛  
قال الأعمش :

• ألا ليت قيسا غرقته القوابل •

وفذلك أن القابلة كانت تغرق المولود في ماء الليل عام القحط ، ذكرها كان أو أتي حتى يموت .  
ثم جعل كل قتل تبرقا ، ومنه قول ذي الرمة :

لَنَا غَرَقَتْ أَرْضُهَا نَحْيَ بَكْرَةٍ • بَيْتَاهَا لَمْ تُصْبِحْ رَمِيًّا سَلَوِيًّا

والأراضي : الحبال . والبكرة : الناقة الفضية . وثمنا : بطنها الثاني ؛ وإنما لم تعطف هل  
ولمعا لما لحقها من القتب .

القول في اختلاف العلماء في كيفية إنجاء بني إسرائيل

في ذكر الطبري أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسري من مصر إلى إسرائيل فامرهم موسى  
أن يسلموا إلى البحر والناح من القبط ، وأحل الله ذلك لبني إسرائيل ؛ فسري بهم موسى من أول

(١) فخرجت إلى البحر . (٢) فخرجت إلى البحر . (٣) فخرجت إلى البحر .

(٤) فخرجت إلى البحر . (٥) فخرجت إلى البحر . (٦) فخرجت إلى البحر .

(٧) فخرجت إلى البحر . (٨) فخرجت إلى البحر . (٩) فخرجت إلى البحر .

الليل؛ فأعلم فرعون فقال: لا يتعمهم أحد حتى تصبح الديكة؛ فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأما الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا في الذنن وخرجوا في الاتباع مشرقين؛ كما قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾. وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه. وكانت عتة بنى إسرائيل نيفا على ستمائة ألف. وكانت عتة فرعون ألف ألف ومائتي ألف. وقيل: إن فرعون أتبعه في ألف ألف حصان سوى الإبلات. وقيل: دخل إسرائيل - وهو يقوب عليه السلام - مصر في ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده فأبى الله عددهم وبارك في ذريته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء. وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة قال حدثنا شيبان بن سوار عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى بني إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشأه فذبحت؛ ثم قال: لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع لي ستمائة ألف من القبط؛ قال: فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر؛ فقال له: افرق؛ فقال له البحر: لقد استكبرت يا موسى! وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك! قال: ومع موسى رجل على حصان له؛ قال: فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يا نبي الله؟ فقال: ما أمرت إلا بهذا الوجه. قال: فأعلم فرسه فسبح نرجح. فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كذبت ولا كُذِّبت؛ ثم اتحم الثانية فسبح به حتى خرج؛ فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ فقال: ما أمرت إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كذبت ولا كُذِّبت؛ قال: فأوحى الله إليه: ﴿إِنْ أَشْرِبَ بِمَصْلِكَ الْبَحْرَ﴾ فضر به موسى بمصاه؛ ﴿فَأَتَقَاتَى فَمَا كَانَ كُلُّ فَرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ﴾. فكان فيه اثنا عشر فرقا؛ اثني عشر سبطا؛ لكل سبط طريق يرقعون؛ وذلك أن أطوار الماء صار فيها طبقاتا وشبائيك يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغمرهم قسم؛ ويذكر أن البحر هو بحر القلزم. وأن الرجل الذي كان مع موسى على الفرس هو فله يوشع بن نون. وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن أغرق لموسى إذا مضى بك؛ فبات البحر تلك الليلة مضطربا؛ فحين أصبح ضرب البحر وكناه أبا خالد. وذكره ابن أبي شيبة أيضا. وقد أكثر المفسرون في تفسير هذا المعنى؛ وما ذكرناه كاف وسياق في سورة يونس والشعر له زيادة بيان إن شاء الله تعالى.



**فصل** — ذكر الله تعالى الإنجيل والإغراق ، ولم يذكر اليوم الذي كان ذلك فيه ، فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا اليوم الذي تصومون فقالوا هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكرا ففتحنا نصومه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتحنا أحق وأولى بموسى منكم فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه . وأخرجه البخاري أيضا عن ابن عباس ؛ وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " أتم أحق بموسى منهم فصوموا " .

**مسئلة** — ظاهر هذه الأحاديث يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه اقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبر به اليهود ، وليس كذلك لما رويته عائشة رضي الله عنها قالت : كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه في الجاهلية ؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه ؛ فلما فرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه . أخرجه البخاري ومسلم .

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنما صامته بإخبار اليهود لما لأشهم كانوا يسمعون منهم ، لأشهم كانوا عتدهم أهل لم ، فصامه النبي عليه السلام كذلك في الجاهلية أي بمكة ؛ فلما قدم المدينة ووجد اليهود يصومونه قال : " نحن أحق وأولى بموسى منكم " فصامه اتباعا لموسى . وأمر بصيامه أي أوجبه وأكد أمره ، حتى كانوا يصومونه الصغار . قلنا هذه شبهة من قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان متعبا بشرية موسى ؛ وليس كذلك على ما يأتي بيانه في الإنعام عند قوله تعالى : ( فبهذا هم آمنون ) .

**مسئلة** — اختلف في يوم عاشوراء ؛ هل هو التاسع من المحرم أو العاشر ؟ فنذهب الثاني إلى أنه التاسع ؛ لحديث الحكم بن الأعرج قال : أتيت إلى ابن عباس رضي الله عنهما وهو متروك رداءه في زمزم ، قلت له : أخبرني عن صوم عاشوراء ؛ فقال : إنا رأيت هلال المحرم فأعبدنا وأصبح يوم التاسع صائما . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه ؟ قال : نعم . أخرجه مسلم .

وذهب سعيد بن المسيب والحسن البصري ومالك وجاعة من السلف إلى أنه العاشر. وذكر الترمذي حديث الحكم ولم يصفه بصحة ولا حسن. ثم أرفقه أنبأنا ثنية أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن بن ابن عباس قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر. قال أبو عيسى: حديث ابن عباس حديث حسن صحيح. قال الترمذي: وروى عن ابن عباس أنه قال: صوموا التاسع والعاشر وشالوا اليهود. وبهذا الحديث يقول الثاقلاني وأحمد بن حنبل وإسحاق. قال غيره: قول ابن عباس للسائل: فاعدد وأصبح يوم التاسع صائما. ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسع مضافا إلى العاشر. قالوا: فصيام اليومين جمع بين الأحاديث. وقول ابن عباس للحكم لما قال له: هكنا كان عهد صلى الله عليه وسلم بصومه؟ قال: نعم. معناه أن لو عاش؛ وإلا فما كان النبي صلى الله عليه وسلم صام التاسع قط. بينه ما ترجمه ابن ماجه في سننه ومسلم في صحيحه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لئن بقيت إلى قابل لأصومن اليوم التاسع".

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "صيام يوم عاشوراء أحسنب على الله أن يكفر السنة التي قبله". أخرجه مسلم والترمذي. وقال: لا أعلم في شيء من الروايات أنه قال: "صيام يوم عاشوراء كفارة سنة" إلا في حديث أبي قتادة.

قوله تعالى: (وَأَن تَنْظُرُوا) <sup>بصورتهم</sup> جملة في موضع الحال. ومعناه بأبصاركم؛ فيقال: إن آل فرعون طفقوا على الماء فنظروا إليهم يفرقون، وإلى أنفسهم ينحون ففى هذا أعظم المنية. وقد قيل: إنهم انزعجوا لهم حتى رأوهم. فهذه منة بعد منية. وقيل: المعنى وأنتم تنظرون أى ببصائركم للاعباء؛ لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار. وقيل: المعنى وأنتم بحال من ينظرون نظر؛ كما تقول: هذا الأمر منك برأى وسمع أى بحال تراه وتسمعه إن شئت. وهذا القول والأقول أشبه بأحوال بني إسرائيل؛ لأنهم لما كانوا في عدم الاضطرار فيما صلوا من بني إسرائيل بعد خروجهم من البحر؛ وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وعرض عليهم عدوهم قالوا: يا موسى إن قلوبنا لا تطمئن، إن فرعون قد غرق؛ حتى أمر الله البحر فقلطه فنظروا إليه.

(١) أبو عيسى: كتاب الأعلام الترمذي.

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن قيس بن خبابة بن إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان  
ليوت ابدا ! قال : ثم بعد أن سمع الله تكذيبهم بآية عليه السلام ، رى به على ساحل البحر كأنه نور  
أحمر يراماه بنو إسرائيل ، فلما اطمانوا وبشوا من طريق البحر إلى مدائن فرعون حتى تقفوا كنوزهم  
وغرقوا في النعمة ، ولما قوما يمكنون على أصنام لهم ، قالوا : يلحوسى أجل لنا لما كما لم الله ؛  
حتى زجرهم موسى وقال : أعير الله أنبياءكم لما وهو فضلكم على الملئين ؛ أى على زمانه . ثم أمرهم  
أن يسيروا إلى الأرض المقدسة التي كانت مساكن آبائهم ويظهروا من لوط فرعون . وكانت  
الأرض المقدسة في أيدي الجاهلين قد دخلوا عليها فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أريد  
أن نجعلنا حجة لمجاورين ! فلما أتت ركبتنا في يد فرعون كان خيرا لنا . قال : ( يَقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ  
الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ) إلى قوله : ( قَاعِنُون ) حتى دعا عليهم وسامهم فاسقين ، فبقوا في آية  
أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فبق طعم بالسلوى وبالتمر . على ما يأتي بيانه . ثم صار موسى إلى  
طور سيناء ليبيِّنهم بالثبوت ؛ فاتخذوا السبل — على ما يأتي بيانه — ثم قيل لهم : قد وصلتم إلى بيت  
المقدس فادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة . على ما يأتي . وكان موسى عليه السلام شديد الحياء  
متبرأ ؛ فقالوا : إنه كذب . فلما أقبل وضع على الحجر ثوبه ؛ فلما التجرب ثوبه إلى مجلس بنو إسرائيل ،  
وموسى على أثره صريحا وهو يقول : يا مجرب ثوبى ! فذاك قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا  
كَالْفِيلِ أَذْوَا مُوسَى قِرَاءَةً لِقَوْلِهِمْ قَالُوا ) . على ما يأتي بيانه . ثم لما مات هارون قالوا له : أنت  
قتلت هارون وحسنه ؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وطارون ميت عليه — وسبأ في المسئلة —  
ثم سأله أن يسلوا آية في قبول قربانهم ؛ فجعلت نار تحيى من السياه فتقبل قربانهم ؛ ثم سأله  
أن يبين له كثرات ذنوبه في الدنيا ؛ فكان من اقتب ذنبا أصبح على يابه مكتوب : « عملت كذا »  
وكثارت قطع عضو من أعضائه ؛ تسميه له ؛ ومن أصابه بول لم يظهر حتى يخرجه ويذبل جلده ؛  
من يذنه ؛ ثم بقوا القراءات واقتروا على الله وكتبوا بأنبيائهم واشتروا به عرضا ؛ ثم صار أمرهم إلى أن  
تسلوا أنبيائهم ورسولهم . فنهت مسائلهم مع ربيهم وسيرتهم في دينهم وسوء أخلاقهم . وسبأ بيان

كل فصل من هذه الفصول مستوفى في موضعه إن شاء الله تعالى .

وقال الطبري : وفي أخبار القرآن على لسان محمد عليه السلام بهذه المعاني التي لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا في حق بني إسرائيل دليل واضح عند بني إسرائيل قائم عليهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ( وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ) . فيه ست مسائل .

الأولى - قوله تعالى : ( وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ) . قرأ أبو عمرو « وعدنا » بنغير ألف واختاره أبو عبيد ورجحه ، وأكرر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر فاما الله جل وعز فإمسا هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هذا وجدنا القرآن كقولوه عز وجل : ( وَوَعَدُكُمْ وَعْدَ الْخُلُقِيِّ ) ، وقوله : ( وَإِذْ يَسُدُّكُمْ اللَّهُ أَحْدَى الْطَائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ ) . قال مكي : وأيضا فإن ظاهر اللفظ فيه وعد من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى ؛ فوجب حمله على الواحد لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده ؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ وبه قرأ قتادة وابن أبي إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عدينا « وعدنا » بنغير ألف ، لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يعد صاحبه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع . قال مكي : المواعدة أصلها من اثنين ، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب ؛ قالوا : طارقت النمل ، ودأوت الطيل ، وماقت اللص . والفعل من واحد ؛ فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كعني وعدنا ؛ فنكون القراءتان بمعنى واحد . والاختيار واعدنا بالألف لأنه بمعنى وعدنا في أحد معنييه ، ولأنه لا بد لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فصحح المفاعلة . قال النحاس : وقراءة واعدنا بالألف أجود وأحسن . وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحزرة والكسائي ؛ وليس قوله عز وجل : ( وَوَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ) . من هذا في شيء ، لأن واعدنا موسى إنما هو من باب الموائمة ؛ وليس هذا من الوعد والوعد في شيء ، وإنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعذك موضع كذا . والصحیح في هذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : واعدنا ما هنا بالألف جيد ، لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة ؛ فمن الله جل وعز وعد ، ومن موسى قبول وإتباع يجري مجرى المواعدة . قال ابن عطية : ورجح أبو عبيدة وعدنا . وليس بصحيح ، لأن قبول موسى لوعده الله والتزامه وارتقا به يشبه الموائمة .

الثانية - قوله تعالى : ( **مُوسَى** ) موسى اسم أعجمي لا ينصرف للمجزة والتعريف .  
والقبط على ما يروى يقولون لاه : مو ، والشجر : شا . فلما وجد موسى في التابوت عند  
ماء وشجر ، سمي موسى . قال السدي : لما خافت عليه أمه جلسته في التابوت وألقت في اليم -  
كما أوحى الله إليها فآلته في اليم - بين أشجار عند بيت فرعون ، فخرج جوارى آسية امرأة  
فرعون ينشلن فوجدته فسما باسم المكان . وذكر القاسم وغيره : أن اسم الذي انقلطه صابرة .  
قال ابن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن بصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب إسرائيل الله  
ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثة - قوله تعالى : ( **أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** ) أربعين نصب على المفعول الثاني ، وفي الكلام  
حذف ، قال الأخفش : التقدير وإذا واعدنا موسى تمام أربعين ليلة ، كما قال : ( **وَأَسْفِلَ الثَّغِيرَاتِ** )  
والأربعون كلها داخله في المباد .

والأربعون في قول أكثر المفسرين ذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، وكان ذلك بعد أن جاوز  
البحر ، وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ، فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بني إسرائيل ،  
وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة ، فصعدوا فيما ذكر المفسرون عشرين يوماً وعشرين  
ليلة ، وقالوا : قد أخلفنا مواعده . فالتفتوا العجل ، وقال لهم السامري : هذا الحكم وإله موسى .  
فاطمأنوا إلى قوله . ونهاهم هارون وقال : ( **يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّقِعُوا وَأَطِيعُوا** )  
أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . فلم ينبس هارون . ولم يلمه .  
في ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً فيما روى في الخبر . ونهات في عبادته سايرهم وهم أكثر  
من ألف ، فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال ، ألقي الألواح فرفع من جلستها ستة  
أجزاء وبقي جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون ، وأحرق العجل وذراه في البحر ، فشرى  
من مائه حياً للعجل ، فظهرت على شفاههم صفرة وورمت بطونهم ، فتابوا ولم تقبل توبتهم دون  
أن يقبلوا أنفسهم ، فذلك قوله تعالى : ( **قُتِلُوا إِلَى بَارِيكَ فَأَقْبَلُوا أَنفُسَهُمْ** ) . فقاموا بالإنذار

(١) كما في بعض نسخ الأصول ، وفي بعضها : « ما » بالسكون المهمة . وفي القاموس وشرحه وادخله ( وما الشجر ) .  
كما في سائر النسخ ، وقال ابن الجوزي : هو بالثين المجيزة .

والسيف بعضهم إلى بعض من لدن طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى؛ فقتل بعضهم بعضاً لا يشل  
والد عن ولده ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحد؛ كل من استقبله صربه  
بالسيف وضربه الآخر بمثله؛ حتى عَجَّ موسى إلى الله صارحاً يارباًه قد فئت بنو إسرائيل! فرحمهم  
الله وولد عليهم بفضلهم؛ فقبل توبة من تبي وجعل من قتل في الشهادة؛ على ما يأتي.

الرابعة - إن قيل: لم خص الليالي بالذكور الأيام؟ قيل له: لأن الليلة أسبق من  
اليوم فهي قبله في الزمة؛ ولذلك وقع بها التاريخ؛ فالليالي أول الشهور والأيام تبع لها.

الخامسة - قال النقاش: في هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم لأنه لو ذكر الأيام لأمكن  
أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام وأصل  
أربعين يوماً لياليها. قال ابن عطية: سمعت أبي يقول: سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ  
أبا الفضل الجوهري رحمه الله يخط الناس في الخلوة بالله والدنو منه في الصلاة ونحوها، وأن ذلك  
يشغل عن كل طعام وشراب. ويقول: أين حال موسى في القرب من الله! ووصل ثمانين من الدهر  
من قوله حين سار تحضر لفتاه في بعض يوم: (أَيُّا غَلَبَتَا) . قلت: وبهذا استدلل مسلمة  
الصوفية على الوصال، وأن أفضله أربعون يوماً. وسيأتي للكلام في الوصال في آي الصيام من  
هذه السورة إن شاء الله تعالى؛ ويأتي في الأعراف زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى:  
(وَأَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً) . ويأتي لقصة العجل بيان في كنيته وخواره هناك وفي طه إن  
شاء الله تعالى.

السادسة - قوله تعالى: (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ السَّيْلَ مِنْ بَيْنِهِ) . أي اتخذتموه لها من بعد موسى .  
وأصل اتخذتم اتخذتم من الأخذ ووزنه أفضلتم، سهلت المعزة الثانية لانتاع هزئين بقاء، اتخذتم  
فاضطربت الباء في التصريف جاءت ألفاً في اتخذ، ولواوا في موثقتهم؛ فقلت بحرف جلد ثابت من  
جلس ما بعدها ومعى اتاء وأدغمت؛ ثم اجعلت ألف الوصل لالتقاء وقد شغلت عنها إذا كان معنى  
الكلام التقرير؛ كقوله تعالى: (فَلِاتَّخَذْتُمْ عِندَ أَنْعَامِهِمْ) . فاشتغلت عن الالف الوصل بالالف

التقرير؛ قال الشاعر:

(١) هزذالفة

اَسْتَعَدَّتْ الرُّكْبَ عَنْ اَشْيَاعِهِمْ خَيْرًا . اَمْ رَاجِعَ الْقَلْبُ مِنْ اطْرَافِهِ طَرِبُ .  
وعنوه في القصران : ( اَطْلَعَ الْقَيْبَ ) . ( اَصْطَلَقَ الْبَيَاتَ ) . ( اَسْتَكْبَرَتْ اَمْ كُنْتُ ) . منهب  
اى على القارى ان اتخذتم ، من تحذ لان من اخذ . ( وَاَنْتُمْ ظَالِمُونَ ) . جملة في موضع الحال .  
وقد تقدم معنى الظلم . والحمد لله .

قوله تعالى : ( ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَدِّ ذَٰلِكَ ) الآية . فيه اربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ ) . العفو : عفا الله جل وعز عن خلقه ، وقد يكون  
بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف التفران فانه لا يكون معه عقوبة البتة ؛ وكل من استحق عقوبة فترك  
له فقد عفى عنه . فالعفو : عمو الذنب اى عمونا ذنوبكم ونجاوزنا عنكم ، ماخوذ من فواك : عفت  
الريح الاثر اى اذهبته . وعفا الشيء : كثر . فهو من الأضداد ؛ ومه قوله تعالى : ( حَتَّىٰ عَفَا ) .

الثانية — قوله تعالى : ( مِنْ بَدِّ ذَٰلِكَ ) . اى من بعد عبادتكم العجل . وسمى العجل عجلا  
لاستعجالهم عبادته . والله اعلم . والعجل : ولد البقرة . والعجول منه ، والجمع العجايل ، والاشقي  
عجيلة . عن ابي الجراح .

الثالثة — قوله تعالى : ( لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) . كي تشكرون عفو الله عنكم . وقد تقدم معنى لعل .  
واما الشكر فهو في اللغة الظهور من قوله : دابة شكور ؛ انا ظهر عليها من السم من فوق ما تعطى من  
العلف . وحقيقته الثناء على الإنسان بمعرف يوليكم . كما تقدم في القامحة . قال الجوهرى : الشكر  
الثناء على المحسن بما اولاه من المعروف ؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ وباللام أفصح . والشكران :  
خلاف الكفران . وتشكرت له مثل شكرت له . وروى الترمذى وأبو داود عن ابي هريرة عن النبي  
صلى الله عليه وسلم قال : " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " . قال الخطابي : <sup>(١)</sup> هذا الكلام يتناول  
على معنيين ، أحدهما : أن من كان من طبعه كفران فسمه الناس وزك الشكر لمعرفهم كان من عادته  
كفران ثم الله عز وجل وزك الشكر له . والوجه الآخر : أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على  
إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه ويكفر بمعروفهم ، لا اتصال أحد الأمرين بالآخر .

(١) الخطابي هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البصري ، كان قتها أدبيا عفاة ، قال ابن جرير : وكان من  
وكانت بمدينة بستان خلكان

الراحة - في عبارات العلماء في معنى الشكر . قال سهل بن عبد الله : الشكر : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للعصية في السر والعلانية . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف في تقصير الشكر لهم ؛ ولعلك قل تعالى : ﴿ اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ . قال داود : كيف أشكرك يا رب ، والشكر نعمة منك ! قال : الآن قد عرفتني وشكرتي ؛ إذ قد عرفت أن الشكر ثمن نعمة . قال : يا رب فارني أخفى نعمك علي . قال : يا داود تنفس ! تنفس داود . فقال الله تعالى : من يعصني هذه النعمة الليل والنهار . وقال موسى عليه السلام : كيف أشكر وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يحازي بها عمل كله ! فأوحى الله إليه يا موسى الآن شكرني . وقال الحنيد : حقيقة الشكر ، العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدي السرى السقطي الب و أنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ قلت : ألا يعصى الله بنعمة . فقال لي : أغني أن يكون حظك من الله لسانك . قال الحنيد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السرى لي . وقال الشيل : الشكر : التواضع والحفاظة على الحسنات ، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبار الأرض والسماوات . وقال ذو النون المصري أبو القيس : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولتذكرك بالمكافأة ، ولن دونك بالإحسان والإفضال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ . إذ ، اسم للوقت الماضي . وإذا ، اسم للوقت المستقبل . وآتينا : أعطينا . وقد تقدم جميع هذا . والكتاب : التوراة بإجماع من المتأولين . واختلف في الفرقان ؛ فقال النزاه وتطرب : المعنى آتينا موسى التوراة ، وعينا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هذا خطأ في الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المطوف على الشيء مثله ، وعلى هذا القول يكون للمطوف على الشيء خلافة . وأما المعنى فقد قال تعالى : ﴿ وَاقْدُرَ آتَيْنَا مُوسَى وَمَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ . قال أبو إسحاق الزجاج : يكون الفرقان هو الكلب أعيد ذكره باسمين تأكيداً . وحكي عن النزاه : ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup> :

فَقَدَحْتُ الْأَدِيمَ لِرَاعِيهِ . وَهِيَ تَوْفَا كُنْيَا وَمِيَا

(١) جرطي بن زيد .

(٢) في الأصول : « رقت » . والصور من اللان مادة « من » .



وقال آخر: <sup>(١)</sup>

ألا حينئذ نعد وأرضها نعد • وهند أتى من دونها التأي والبعد

ففسق البعد على التأي، والمين على الكذب، لاختلاف اللفظين تأكيداً، ومنه قول عنترة:

حيث من طلل تقادم عهده • أقوى وأقصر بمسد أم الميسم

قال الناس: وهذا إنما يمي في الشعر. وأحسن ما قيل في هذا قول مجاهد: فرقان الحق

والباطل أي الذي علمه إياه. وقال ابن زيد: الفرقان: إغراق البحر له حتى صار فرقاً لعبهوا.

وقيل: الفرقان: القرج من الكرب لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط؛ ومنه قوله تعالى: (إِنْ تَسْأَلُوا

آلَهُ يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا). أي فرجاً ومخرجاً. وقيل: إنه الحجة والبيان. قاله ابن بحر. وقيل: الواو

صلة، والمعنى آيتنا موسى الكتاب الفرقان، والواو قد تزايد في النعت؛ كقولهم: فلان حسن

وطويل؛ وأنشد:

إلى الملك القرم وابن الهمام • وليث الكتيبة في المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة؛ ودليل هذا التأويل قوله عز وجل: (ثُمَّ آتَيْنَا

مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ). أي بين الحرام والحلال والكفر

والإيمان والوعد والوعيد وغير ذلك. وقيل: الفرقان: الفرق بينهم وبين قوم فرعون؛ أي حواء هؤلاء

وغرق أولئك. ونظيره: (يَوْمَ الْفُرْقَانِ). قيل: يعني به يوم بدر؛ نصر الله فيه عبداً صلي الله عليه

وسلم وأصحابه، وأهلك أبا جهل وأصحابه. (الْمَلِكُ يُنَادِيهِمْ). لكن تنادوا من الضلالة. وقد تقدم.

قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ). أي قوله: (هُوَ الثَّوَابُ

الرَّحِيمُ). قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ). القوم: الجماعة الرجال دون النساء؛ قال الله

تعالى: (لَا يَسْمَعْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) ثم قال: (وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ). وقال زهير:

وما أدري وسوف إخلل أدري • أقوم آل حصن أم نساء

(١) من الخطبة

(٢) في آيات القرآن قوله: (لَا يَسْمَعْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) قاله ابن جرير وغيره؛ والبرهان

وقال تعالى : ( ولولا إذ قال القوم : ) أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء ، قال الله تعالى : ( إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ) . وكذا كل نبي مرسل إلى النساء والرجال جميعا . قوله تعالى : ( يَا قَوْمِ ) . منادى مضاف . وحذفت الياء في قوم ، لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها ، وهي بحرف التثنية مخففة كما تخفف التثنية من المفرد . ويعوز في غير القرآن إثباتها ساكنة ، فنقول : يا قومي ، لأنها اسم وهي في موضع خفض . وإن شئت فصحتها وإن شئت الحقت معها هاء ، قلت : يا قومية . وإن شئت أبطلت منها ألفا لأنها أخف ؛ قلت : يا قوماء ، وإن شئت قلت : يا قوم ، بمعنى ليس القوم . وإن جعلتهم نكرة تعبت وتوت . وواحد القوم امرؤ على غير لفظ . وهول : قوم وأقوام ، وأقوام : جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عبدة السبل ، وكانت عائلته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

قوله تعالى : ( إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ) . استثنى الجميع القليل من الكثير ، والكثير قسوس . وقد يوضع الجميع الكثير موضع جمع حقيقة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : ( عِلَّةٌ قُرُونٌ ) . وقال : ( وَمِمَّا تَشْتَبِي الْأَنْفُسُ ) . ويقال لكل من ضل فلا يعود عليه ضرره : ( إِنَّمَا آسَأْتُ إِلَىٰ قَبْلِكَ ) . وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . ثم قال تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ) . قال بعض أرباب اللسان : عجل كل إنسان نفسه ؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبده كما عجل في التبريل . والجدد هـ . قوله تعالى : ( قُتِبُوا إِلَىٰ يَارَبِّكُمْ ) . لما قال لهم : قُتِبُوا إِلَىٰ يَرْبِّكُمْ . قالوا : كيف ؟ قال : ( فَاتَّقُوا أَنْفُسَكُمْ ) . قال أرباب النحو الخ : قالوا بالاطاعات وكفوها عن التبريرات . والصحيح أنه قل على الحقيقة هنا . واقتل : أهلك المركة . وكانت الخمر : كثرت تشبهت بالدم . قال سبحانه في عباده : قُتِبُوا بِمَعْنَى مَنَعَهُ مِنَ اللَّهِ . ثم قال تعالى : ( قُتِبُوا عَلَىٰ عِدَّةٍ أَلَدَةٍ دُونَ عِدَّتِهِمْ مِنَ الْعَمَلِ ) . وكانت قُتِبُوا عَلَىٰ لِمَا رَأَى الْقَلِيلُ . وأوصوا على أنه لم يضر كل واحد من عبدة القليل بل عمل همه كده . قال الزمخشري : لما قيل لهم : ( قُتِبُوا إِلَىٰ يَارَبِّكُمْ فَاتَّقُوا أَنْفُسَكُمْ ) . قالوا أصلي وقول بعضهم معاً ؛ حتى قيل لهم : كفوا . فكان ذلك شبهة لتبريل وتوبة على . على ما ذهبتم . وقال بعض المفسرين : لو سل الله عليهم خلاصاً لمكاناً ذلك . وقيل : وقت الذين عبدوا الصل معاً ؛ وذلك لأنهم لم يبدوا منهم إلا ما لا يبرح .

فقتلوه . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا إذ لم يبدا العجل [ مع ] من عبد العجل  
 وروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم يحبون فقال : ملعون من حل جوفه أو مد طرفه إلى قاتله  
 أو آتاه يد أو ريل . فاحل أحد منهم جوفه حتى قتل منهم ؛ يعني من قتل ؛ وأقبل الرجل  
 يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يبدا العجل بقتل أنفسهم —  
 على القول الأول — لأنهم لم يمتروا المتكرحين عِدْء ؛ وإنما اعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا  
 من عبده . وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يتر عوقب الجميع . روى جرير قال : قال  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع لا يفترون  
 إلا أعظم الله عقابهم » . أخرجه ابن ماجه في سننه . وسيأتي الكلام في هذا المعنى إن شاء الله  
 تعالى . فلما استحق نعيم القتل وبلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم . قاله ابن عباس وعلى رضي الله  
 عنهما . وإنما رافع عنهم القتل لأنهم أعطوا اليهود في قتل أنفسهم . فأنتم الله على هذه  
 الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة . وقرأ قتادة : فاقبلوا أنفسكم . من الإقالة أي  
 استقبلوها من العتة بالقتل . قوله تعالى : ( بَارِكُمْ ) . البارئ : الخالق ؛ وبينهما فرق وذلك  
 أن البارئ هو المبدع المحدث . والخالق هو المقدر الناقل من حال إلى حال . والبرية : الخلق ؛  
 وهي فيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تهزم . وقرأ أبو عمرو « بَارِكُمْ » بسكون المعزة — ويشعر  
 ويشعركم ويأمركم — واختلف النحاة في هذا ؛ فمنهم من يسكن الضمة والكسرة في الوصل ؛ وذلك  
 في الشعر . وقال أبو العباس المبرد : لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب  
 في كلام ولا شعر . وقراءة أبي عمرو لحن . قال النحاس وغيره : وقد أجاز ذلك النحويون القدماء  
 الأئمة ؛ وأتبعوا :

إِذَا أَعْرَجِينَ قَتَلَ صَاحِبُ قَوْمٍ • بِالْقَوْلِ أَشْدَلَ مِنَ الْقَوْلِ

وَقَالَ أَمْرُ الْفَتَنِ

فَالْيَوْمِ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْيٍ • إِنَّمَا مَرِيءُ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ

وَقَالَ أَحْمَدُ

قَالَ تَلَوْتُ أَسْرَفًا مَوْجِدًا •

وقال الآخر :

رُحْتُ فِي رَجْلِكَ مَا فِيهَا • وَقَدْ بَدَأَ هُنَا مِنَ التَّعْرِ

فمن أنكر التسكين في حرف الإعراب فحججه أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب .  
قال أبو علي : وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها مع توالي الحركات . وأصل برأ  
من تبرأ الشيء من الشيء ، وهو انفصاله منه . فالخلق قد فصلوا من المدم إلى الوجود ، ومنه برأت  
من المرض برأ بالفتح . كما يقول أهل الجواز . وغيرهم يقول : يرث من المرض برأ بالضم ؛ ويرث  
منك ومن الديون والعيوب براءة ؛ ومنه المبالاة للراءة ؛ وقد بارأ شريكه وأمراهه . فوله تعالى :  
( قَاتَبَ عَلَيْهِمْ ) . في الكلام حذف تقديره ففعلتم قاتب عليكم أى فتجاوز عنكم أى على الباقين منكم .  
( إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُّ الرَّحِيمُ ) . يهتد منه . والحمد لله .

قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ) . الآية . فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ) مطوف - بأمرى نداء مفرد. لن تؤمن لك أى نصلة فك حتى  
 رى الله جهره . قيل : هم السجون الذين اختارهم موسى ، وذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى  
 قالوا له بعد ذلك : (لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ) . والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله  
 عليهم نارا من السماء فأحرقهم ، ثم دعا موسى ربه فأحياهم ، كما قال تعالى : (ثُمَّ بَنَيْنَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ  
 مَوْتِهِمْ) . وسنأتى قصة السجين فى الأعراف إن شاء الله تعالى . قال ابن قورك : يحتمل أن  
 تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : (أَرَأَيْتَ أَفَّ جَهْرَةً) . وليس ذلك  
 من مقدور موسى طه السلام .

وقد اختلف في جواز رؤية الله تعالى، فأكثر المتبعة على إنكارها في الدنيا والآخرة. وأهل السنة والسلف على جوازها فيهما، ووقعها في الآخرة. فصل هنا لم يطلبوا من الرؤية عمالاً، وقد سلمها موسى عليه السلام. وسيأتي الكلام في الرؤية في الأضواء والأعراف إن شاء الله تعالى.

الثانية - قوله تعالى (جَهَنَّمَ) . مصدر في موضع الحال ومعناه علانية . وقيل : علناً . قاله ابن عباس . وأصل الجهر الظهور ؛ ومنه الجهر بالقراءة إذا هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصي :

المظاهرة بها . ورأيت الأمير جهارا وجهرة أى غير مستر بشئ . وقرأ ابن عباس جهرة بفتح  
 الهاء . وهما لثنتان مثل : زهرة وزهرة . وفي الجهر وجهان ؛ أحدهما : أنه صفة لخطابهم لموسى  
 أنهم جهروا به وأعلنوا ؛ فيكون في الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير وإذ قلم جهرة يا موسى . الثاني :  
 أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعيانا ؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه  
 ولا تأخير . وأكد بالجهر فرق بين رؤية الميأن ورؤية المنام .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَتَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ ﴾ . قد تقدم في أول السورة معنى الصاعقة . وقرأ  
 عمر وعثمان وعليّ والصمقة وهى قراءة ابن محيصن في جميع القرآن . ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة في موضع  
 الحال . ويقال : كيف يموتون وهم ينظرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دُور آل فلان تراهى  
 أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : والمعنى وأنتم تعلمون . وقيل : تنظرون أى إلى حالكم وما نزل بكم  
 من الموت وآثار الصمقة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَشَاءُ كَمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ . أى أحييتكم . قال قتادة : ماتوا  
 وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستيقاظ أجسامهم . قال النحاس : وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من  
 قریش ، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا ، والمعنى لعلكم تشكرون ما فعل بكم من البعث بعد  
 الموت . وقيل : ماتوا موت همدٍ يعتبر به الغير ؛ ثم أرسلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل :  
 بل أصله إثارة الشئ من محله ؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها أى حركتها ؛ قال امرؤ القيس :

وَتَيْنَانِ صَدَقَ قَدْ بَعَثَ بِسَحْرَةٍ ۝ قَامَا وَجَمِيعَا بَيْنَ عَائِثٍ وَتُسْوَانِ

وقال عنترة :

وَصَحَابَةُ نَسَمِ الْأَنْوَفِ بِمَتْنِهِمْ ۝ لَيْلًا وَقَدْ مَالَ الصَّكْرَى بَطْلَاهَا

وقال بعضهم : يشاءكم من بعد موتكم : علمناكم بعد جهلكم .

قائ : والأول أصح ، لأن الأصل الحقيقة وكان موت عقوبة ؛ ومثله قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرِ  
 إِلَى الَّذِينَ تَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَكْرَفُ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ . على ما يأتى .

الخامسة — قال الماوردى : واختلف في بقاء تكليف من أعيد بعث موته ومعاينة الأحوال

المضطرة إلى المعرفة على قولين ؛ أحدهما : بقاء تكليفهم لئلا يخالوا عاقل من تبعه . الثاني : سقوط  
 تكليفهم مشبها بالاستبلال دون الإضطراب .

قلت : والأول أصح ، فإن بني إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء سائطا عليهم ، والنار محيطة بهم ؛  
وذلك مما اضطهرهم إلى الإيمان . وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . وعال أن يكونوا  
غير مكلفين . والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ) . الآية : فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ) أى جملاه عليكم كالظلة . والغمام جمع غمامة  
كسحابة وسحاب . قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمام وهو السحاب لأنها تهم السماء  
أى تسترها ؛ وكل معنى فهو مفهوم ؛ ومنه المضموم على عقله . وغَمَّ الهلال إذا غطاه الغيم . والثين  
مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إِنَّهُ يُنَاقِى عَلَى قَلْبِي " . قال صاحب العين : غين عليه : غطى عليه .  
والثين : شجر مثقف . وقال السدى : الغمام : السحاب الأبيض . وفعل هذا بهم ليقيم حر الشمس  
نهارا ، ويخيل في آخره ليستضيئوا بالقر ليلًا . وذكر المفسرون أن هذا جرى في آية بين مصر والشام  
لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتلهم ، وقالوا لموسى : ( فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ) . ففوقوا  
في ذلك التخصيص أربعين سنة يذهبون في حمة فراعخ أو ستة . روى أنهم كانوا يمشون النهار كله  
ويقولون ليت فيصيحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذا كانوا باجمعهم في آية قالوا لموسى : من لنا  
بالطعام ! فأثر الله عليهم المن والسوى . قالوا : من لنا من حر الشمس ! فظلل عليهم الغمام . قالوا :  
فم نستصح ! فضرب لهم عمود نور في وسط عظمهم . وذكر مكى : عمود من نار . قالوا : من لنا  
بالماء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ؛ إلا ليل لم ثوب ولا يخلق  
ولا يدن ؛ وأن تموج صغارها حسب نحو الصبيان . والله أعلم .

الثانية — قوله تعالى : ( وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ) . أختطف في المن ما هو بينه  
على أحوال . <sup>(١)</sup> تقول : بالترجيح — يتشدد الزلاء ويسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطرغيجين  
بالطاء . وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمطة سلوة . وقيل : صل . وقيل : شراب حلو .

والسَّلْوَى <sup>(٢)</sup> القمح ؛ أى موضع يكن . وفى حديث كعب : أنه الله يارك في الشام ونحوه بالفتن من نخس الأربعة إلى رطل ،

ويجوز ما مضى به وكثير من نواحيه . القابوس ونهاية ابن الأثير .

(٢) الترجيح : طل يقع من السماء ، وهو كذا شبه بالصل جامد متحجب . عن مخرجات ابن الجبار .

وقيل : خبز الرقاق، عن وهب بن منبه . وقيل : اللق مصلوب من جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : «لكأنة من اللق الذي أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين» ، في رواية «من اللق الذي أنزل الله على موسى» . رواه مسلم . قال طبراني : وهذا الحديث يدل على أن الكأنة مما أنزل الله على بني إسرائيل أي ما خلقه الله لهم في آفئه . قال أبو عبيد : إنما شبهها باللق لأنها لا تموت ولا تؤنة فيها ينذر ولا سقى ولا علاج ، فهي منه أي من جنس من بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف . روى أنه كان يترك عليهم من طلع الفجر إلى طلع الشمس كالشج ، فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه فإن أكثرته شيطان فله إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يفتخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ، لأن يوم السبت يوم عبادة وما كان يترك عليهم يوم السبت شيء .

الثالثة — لما نصح عليه السلام على أن ما لكأنة شفاطين ، قال بعض أهل العلم بالطب : أما تريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، وأما تريد ذلك فتركة مع غيرها . وتجب أبو هريرة رضى الله عنه إلى استعمالها بماء في جميع مرض العين . وهذا كما استعمل أبو وجبة السيل في جميع الأمراض كلها حتى في الكحل . على ما يأتي بيانه في سورة البقل إن شاء الله تعالى . وقال أهل اللغة : الكأنة واحد، وكأنة ثلثان ، وأكثر ثلاثة ، فلما زادوا قالوا : كأنة ، بالاء على عكس شجرة وشجر . واللق ، اسم جنس لا واحد له من لفظه ، مثل الخمر والخمر . قاله الأخفش .

الرابعة — قوله تعالى : ( والسوى ) . اختلف في السوى قليل : هو السبأى بمعنى . قاله الضحاك . قال ابن عطية : السوى : طير يلجأ إلى الماء ، وقد ناطق المذلل قال :  
وإنهما يأنف جهدا لا تحما . أذن من السوى إذا ما تهورا  
عن السوى السيل .

قلت : ما أتاهم من الإجماع لا يصح ، وقد قال المذبح أحد علماء اللغة والضمير : إنه السيل ، واستدل بيت المذلل وذكر أنه كذا بكه كأنة ، سمى به لأنه يسيل به ، ومنه بيت السيل :  
والسوى

(١) هو خط بن زهير . (٢) هو قتيب بن عمار السدي ويكنى أبا نعيم . كان من أصحاب أبي بكر بن أحمد .  
لبنه سبعة عشر وتسعين مائة . (٣) بين السوانة من قبيلة يثرب كما ويستخرجها بيت القيس :  
سبع مائة

لو اشرب السلوان ما سليت \* ما في قتي حنك وإن غيبت

وقال الجوهري : والسلوى السلى ، وذكريت للمثلى :

\* الذمن السلوى إذا ما تشورها .

ولم يذكر غلطا . والسُلوانة ( بالضم ) : خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا ، قال :

شربت على سُلوانة ماء مُرَّنة \* فلا ويغدي العيش يائي ما أسلو

ولم ذلك الماء السُلوان . وقال بعضهم : السلوان : دواء يُسقاء الحزين فيسلو ، والأطباء يسمونه المنفج ، قال : سلت وسلوت لفتان . وهو في سلوة من العيش أى في رقد . عن أبي زيد .

الخامسة - واختف في السلوى هل هو جمع أو مفرد ؟ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه ، مثل الخمر والشر ، وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته ، كما قالوا : <sup>(١)</sup> دفل الواحد والمبايع ، وسماني وشكاني في الواحد والمبيع . وقال الخليل : واحده سلوة ، وأنشد :

وإني لصروني لذكراك سلوة \* كما انتفض السلوة من بل القطر

وقال الكسائي : السلوى : واحدة ، وجمعه سلاوى .

السادسة - السلوى عطف على المن ولم يظهر فيه الإعراب لأنه مقصور ووجب هذا في المقصور كله ، لأنه لا يخلو من أن يكون في آخره ألف ، قال الخليل : والألف حرف هوائى لا مستقره ، فأنشبه الحركة فاستحالت حركته . وقال الفراء : لو حركت الألف صارت همزة .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ كَلُوا ﴾ . فيه حذف تقديره وقتلا : كَلُوا ، لحذف اختصارا للدلالة على الظاهر عليه . والطيات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ . يقدّر قبله فمضوا ولم يقابلوا النعم بالشكر . ( ولكن كانوا الظالمين بظلمهم ) . لمقاتلتهم النعم بالمبايع .

(١) الفلّ ( كركى ) : شجر مر أخضر حين المطر يكون في الأودية .

(٢) الشكاسى ( كركى ) : من ذق النبات ، وهي دققة الميدان مغيرة بخضراء ، والخس يتداول بها .



قوله تعالى : ( وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ) . الآية . فيه تسع مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ( وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ) . حذفنا الألف من قلنا لتكونها وسكون الدال بدلعا ؛ والألف التي يتبناها قبل الدال ألف وصل لأنه من يدخل .

الثانية — قوله تعالى : ( هَذِهِ الْقَرْيَةُ ) . أى المدينة ؛ سميت بذلك لأنها تنحوت أى اجتمعت ؛ ومنه قرئت الماء فى الحوض أى جمته ؛ واسم ذلك الماء قرى بكسر القاف ومقصود . وكذلك ما قرى به الضيف . قاله الجوهري . والمقراة للحوض . والقرى لجبل الماء . والقرى للظهير ؛ ومنه قوله :

• لاحق بطن جبرى ممين •

والمقارى : الجفان الكبار ؛ قال :

• عظام المقارى ضيفهم لا يفرع •

وواحد المقارى مقراة ؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقرية — بكسر القاف — لغة اليمن ؛ واختلف فى تسميتها ؛ فقال الجمهور : هى بيت المقدس . وقيل : أريحا من بيت المقدس . قال عمر بن شبة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . ابن كيسان : الشام . الضحاك : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر . وهذه نعمة أخرى وهى أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم آفة .

الثالثة — قوله تعالى : ( فَكُلُوا ) . إباحة . ورغدا : كثيرا واسما ؛ وهو نعت لمصدر محذوف أى أكل رغدا ؛ ويعوز أن يكون فى موضع الحال على ما تقدم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الثلثة فقلنا قال : رغدا .

الرابعة — قوله تعالى : ( وَادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَمِعِينَ ) . الباب جمع أبواب ؛ وقد قالوا : أبوية للازدواج ؛ قال الشاعر :

جاءك أخيرة ولأج أبوية • يخط بالبر من الجنة واليا •

ولو أقرده لم يجز ؛ وشبهه قوله عليه السلام : « مرحبا بالقوم — أو بالوفد — غير خزايا ولا ندامى » وسبب هذا أنهم لم يأتوا بها متبوعة ؛ كما قالوا : أصناف مصبغة . وهذا شئ من بانك أى يصلح لك . وقد هتم معنى السجود فلا معنى لإمامته . والحمد لله .

والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة، عن عاهد وغيره . وقيل : باب القبة التي كان يصل إليها موسى ويؤتي إسرائيل . وتبعنا ، قال ابن عباس : متحين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لآل بيت متعينة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ . عطف على ادخلوا . وقولوا حطة بالرفع ، قراءة الجمهور ؛ على إضمار مبتدأ أي مسئلتنا حطة أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقمرت حطة بالنصب ، على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة . قال النحاس : جاء الحديث عن ابن عباس أنه قيل لم : قولوا لا إله إلا الله . وفي حديث آخر أنه قيل لم : قولوا مغفرة . تفسير للنصب أي قولوا شيئا يحط ذنوبكم ؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع وهو أولى في اللغة ؛ لما حكى عن العرب في معنى بطل ، قال أحمد بن يحيى : يقال بطلته أي فبرته ولم أزل عنه ، وأبدلته أزلت عنه وتبرصته ؛ كما قال :  
عزل الأمير للأمير المبتدل .

وقال الله عز وجل : ﴿ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتِ بِمُصْرِكٍ قَبْرٍ هَذَا أَوْبَلُهُ ﴾ ، ولحديث ابن مسعود قالوا : حطبة ، تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : حطة بمعنى حط ذنوبنا ، أمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم . وقال ابن جبير : معناه الاستغفار . أبان بن تغلب : التوبة . قال الشاعر :

فاز بالحطة التي جسد الله . هـ بها ذنب عيده مغفورا

وقال ابن فارس في المعجم : حطة ، كلمة أمر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطت أوزارهم . وقاله الجمهور أيضا في الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تبدوا بهذا اللفظ بعينه وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قيل لئن إسرائيل ادخلوا الباب محبداً وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم [ فيقولوا ] فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شجرة " . وأخرجه البخاري وقال : " فدخلوا وقالوا حطة حبة في شجرة " . في غير الصحيحين : حطة حطية في شجرة . وقيل : قالوا حطاً بمعناها . وهي لفظة عبرانية ، تفسرها : حطية حرام حكاها ابن قتية ؛

وحكاه المروى عن السدى ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أسرم الله به فمضوا وتمردوا واستنزوا  
فماقيم الله بالجزوهو العذاب . قال ابن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . وروى أن  
الباب جعل قصيرا ليدخلوه ركبا فدخلوه متوزكين على أسطحهم . والله أعلم .

السادة — استدلل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة  
لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها ؛ فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ، لزم الله تعالى  
من بقل ما أسره بقوله ؛ وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى ، ولا يجوز تبديلها  
بما يخرج عنه .

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى ؛ فحكى عن مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم أنه يجوز  
للعالم بمواقع الخطاب البصير آحاد كلماته قل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بجماله ، وهو  
قول الجمهور . ومنع ذلك جمع كثير من العلماء منهم ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة .  
وقال مجاهد : أقص من الحديث إن شئت ولا تزيد فيه . وكان مالك بن أنس يشدد في حديث  
رسول الله صلى الله عليه وسلم في التاء والياء ويحرم هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون  
إبدال اللفظ ولا تغييره حتى أنهم يسمعون ملحونا ويسلمون ذلك ولا يشعرون به . وروى أبو حنيفة عن  
قيس بن عباد قال قال عمر بن الخطاب : من سمع حديثا فحدث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه  
عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم ؛ وكذا الخلاف في التقديم والتأخير والزيادة والنقصان ؛ فإن منهم  
من يمتد بالمعنى ولا يمتد باللفظ ، ومنهم من يشدد في ذلك ولا يفارق اللفظ ؛ وذلك هو الأحوط  
في الدين والآتي والأول ؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛  
وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضي الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتصلة بالفاظ مختلفة  
وإنما ذلك إلا أنهم كانوا يصفون عنها المعنى الثاني ولم يترمو التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى  
عن واثلة بن الأسقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه اليكم ؛ حسيكم  
المعنى ؛ وقال قتادة عن زبارة بن أوفى : لقيت عتبة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فاختلقوا  
دعوى في اللفظ واجتمعوا في المعنى . وكان النخعي والحسين والشامي وجمهورهم الله يأتون بالحديث على  
المعاني وقال الحسن : إن أضيف المعنى أجزأك . وقال سفيان الثوري رحمه الله : إذا قلت لكم

إني أحذركم كما سمعت فلا تصدقوني، إنما هو للمنى . وقال وكيع رحمه الله : إن لم يكن المنى واسعا فقد هلك الناس . واتفق العلماء على جواز نقل الشرع للمعجم بلسانهم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمنى . وقد فعل الله ذلك في كتابه فياقص من أنباء ما قد سلف ؛ نقص قصصا ذكر بعضها في مواضع بالفاظ مختلفة والمنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربي وهو مخالف لما في التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء، ولزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلا يجوز بالعربية أولى . احتج بهذا المنى الحسن والشافعي وهو الصحيح في الباب .

فإن قيل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : "نضر الله أمرا سمع مقالتي فبلغها كما سمعها" . وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه في دعاء صلاه : آمنت بكاتبك الذي أرسلت ونيك الذي أرسلت ؛ فقال الرجل : ورسولك الذي أرسلت ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "وذلك الذي أرسلت" . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوغ لمن حمله السماء مخالفة اللفظ ؛ وقال : "فأذاها كما سمعها" . قيل لهم : أما قوله "فأذاها كما سمعها" . فالمراد حكمها لا لفظها، لأن اللفظ غير ممتد به . ويدل ذلك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : "فقرَّب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه" . ثم أن هذا الحديث بينه قد نقل بالفاظ مختلفة والمنى واحد . وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبي صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بالفاظ مختلفة ؛ وذلك أول دليل على الجواز . وأما رده عليه السلام الرجل من قوله : رسولك إلى قوله ونيك ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل تمت من هذين التمتين موضع . ألا ترى أن أسم الرسول يقع على الكافة ، وأسم النبي لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ؛ وإنما فضل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعا النبوة والرسالة ؛ فلما قال : ونيك ؛ بناء بالمت الأمدح ثم قيده بالرسالة بقوله : الذي أرسلت . وأيضا فإن نقله من قوله : ورسولك إلى قوله ونيك ؛ ليجمع بين النبوة والرسالة ؛ ومستقيم في الكلام أن يقول : هذا رسول فلان الذي أرسله . وهذا قيل زيد الذي نقله ؛ لأنك تجتري بقولك : رسول فلان، وقيل فلان نحن إعادة المرسل والقائل إذ كنت لا أكنت لا أكنت إلا للمنى الأول ؛ وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول جليلته الذي أرسله إلى عمرو، وهذا قيل زيد الذي نقله بالأمن أو بوقعة كذا والله ولي التوفيق .

فإن قيل : إذا جاز للزأى الأول تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للشأنى تغيير ألفاظ الأول ؛ ويؤدى ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لبقة التورق وخفائها . قيل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا ؛ فإن عدمت لم يجوز . قال ابن العربي : الخلاف في هذه المسألة إنما يتصور بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساوهم في معرفة اللغة الجلية النقية ؛ وأما من بعدهم فلا تشك في أن ذلك لا يجوز ؛ إذ الطباع قد تغيرت ، والفهوم قد تباينت ، والوائد قد اختلفت ؛ وهذا هو الحق . والله أعلم . قال بعض علمائنا : لقد تعاجم ابن العربي رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم ؛ ولهذا لم يفصل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل ؛ نعم لو قال : إن المطابقة في زمنه أبعد كان أقرب . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى ﴿ تَغْيِرْ لَكُمْ خُطَابًا كَمِ ۚ ۖ ﴾ . قراءة نافع بإياء مع ضمها . وابن عامر بالياء مع ضمها وهي قراءة مجاهد . وقراها الباقون بالنون مع نصبها وهي أيئنا ؛ لأن قبلها ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا ۖ ﴾ . بغوى تنفر على الاخبار عن الله تعالى ، والتقدير وقتلوا ادخلوا الباب سجدا تنفروا ، ولأن بعده ﴿ وَتَزَيَّدُوا ۖ ﴾ بالنون . وخطاياكم ، اتباعا للسواد وأنه على باب . ووجه من قرأ بالياء أنه أنت لتأنيث لفظ الخطايا ، لأنها جمع خطيئة على التكثير . ووجه القراءة بإياء أنه ذكر لما حال بين المؤنث وبين فعله ؛ على ما تقدم في قوله : ﴿ قُلْنَا آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ ۖ ﴾ . وحسن الإياء والتاء وإن كان قبله إخبار عن الله تعالى في قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ۖ ﴾ لأنه قد علم أن ذنوب الخطاطين لا يغفرها إلا الله تعالى ؛ فاستغنى عن النون ورد الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنة — واختلف في أصل خطايا جمع خطيئة الممزة ؛ فقال الخليل : الأصل في خطايا أن يقول : خطائي ؛ ثم قلب قليل : خطائي همزة بعدها ياء ؛ ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطايا ؛ فلما اجتمعت ألفتان بينهما همزة والممزة من جنس الألف صرت كألف جمعت بين ثلاث ألفات ؛ فأبدلت من الممزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيويه فذهب أن الأصل مثل خطائين ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتا في مدائن فتقول : خطائي ؛ ولا تجتمع همزتان في كلمة ؛ فأبدلت من الثانية ياء فقلت : خطائي ؛ ثم عملت كما عملت في الأول . وقال الفراء : خطايا جمع

خطية بلا همز؛ كما تقول : هدية وهذايا . قال القراء : ولو جمعت خطية مهموزة لقلت : خطايا . وقال الكسائي : لو جمعناها مهموزة أذغمت الهمزة في الهمزة؛ كما قلت : دواب .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَسَيَرِدُ الْمُتَحِينَ ﴾ . أى زبدتم إحسانا على الإحسان المتقدم عنكم ؛ وهو اسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحح عقد نوحه ، وأحسن سياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شره . وفى حديث جبريل عليه السلام : " ما الإحسان قال أن تمد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت " . وذكر الحديث خرجه مسلم .  
قوله تعالى : ﴿ قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ . فيه أربع مسائل .

الأولى - قوله تعالى : ﴿ قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ . الذين في موضع رفع أى قبيل الظالمون سهم قولاً غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حطة ؛ فقالوا : حطة على ما تقدم ، فزادوا جرأاً في الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا ؛ تمرىفا أن الزيادة في الدين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر؛ هذا في تمييز كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب ؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود ! هذا والقول أخص من العمل فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ قَبِلَ ﴾ . حتم معنى بَدَل وأبَدل ؛ وفروى ﴿ عَنِ رَبِّنا أَنْ يَبْدِلنا ﴾ . على الوجهين . قال الجوهري : وأبدلت الشيء بغيره . وأبدله الله من الخوف أمناً . وتبدل الشيء أيضاً تميّره ؛ وإن لم يات تبدل . واستبدل الشيء بغيره . وتبدله به إذا أخذه مكانه . والمبادلة : التبادل . والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه . آخر . قال ابن دريد : الواحد بديل . والبديل : البذل . وبذل الشيء : غيره ؛ يقال : بَدَّلْ وبَدَّلْ لفتان ؛ مثل : شَبَّ وشَبَّه ، ومَثَل ومَثَل ، ونَكَلَ ونَكَلَ . قال أبو عبيد : لم يسمع في قَبَل وفَعَلَ غير هذه الأربعة الأحرف . والبذل : وجع يكون في اليدين والرجلين ؛ وقد بَدَّل بالكسر بَدَّل بَدَلًا .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فَأَتَرْتَنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ . كرر لفظ ظلموا ولم يضممه تنظيماً للأمر . والتكرار يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعمله بعد تمام الكلام كما في هذه الآية ؛ وقوله :

(١) في الأصل : «أيرميدة» . والتصويب عن السان وصاح الجوهري .

( قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ) . ثم قال بعد : ( قَوْلُ لَمْ يَكُنْ أَيْدِيهِمْ ) .

ولم يقل : مما كتبوا . وكرر الواصل تليظاً لعلهم ؛ ومنه قول الحسناء :

تمزقني الدهر نهباً وحرّاً<sup>(١)</sup> وأوجعتني الدهر قوماً وعزّاً

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوابه وصغرياتهما .

والضرب الثاني : محيى نكر الظاهر في موضع المضمر قبل أنت يتم الكلام ؛ كقوله تعالى :

( الْحَاقَّةُ مَا آخِئَةٌ ) . ( الْقَارِعَةُ مَا آخِرَةٌ ) . كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم

الحاققة ما هي ! والقارعة ما هي ! ومثله : ( فَأَحْطَابُ الْعَيْنَةِ مَا أَحْطَابُ الْعَيْنَةِ ) . وَأَحْطَابُ الشَّامَةِ

مَا أَحْطَابُ الشَّامَةِ . كره أصحاب اليمية تفخيلاً لما ينيلهم من جزيل الثواب . وكرر لفظ الشامة

لما يتألم من الليم الغلاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليت الغراب ضلّةً ينصب دليلاً • كان الغراب مقطّع الأوداج

وقد جمع عدى بن زيد للمعين فقال :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء • تنص الموت ذا النقي والفقير

فكرر لفظ الموت ثلاثاً وهو من الضرب الأول ؛ ومنه قول الآخر :

ألا حينها هد وأرض بها هد • وهند أنى من دونها النأى والبعد

فكرر ذكر محبوبته ثلاثاً تفخيلاً لها .

الرامة - قوله تعالى ( رِجْزاً ) . قراءة الجماعة رجزاً بكسر الراء . وأبن محيصن بضم الراء . والرجز :

المذاب ، بالزى ، وبالسين ، والتن والقدَر ؛ ومنه قوله تعالى : ( فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ) .

أى تنأى الى نتهيم ؛ قاله الكسافى . وقال الفراء : الرجز هو الرجز . قال أبو عبيد : كما يقال :

السُدُغ والأزْدَغ . وكذا رجز ورجز بمعنى . قال الفراء : وذكر بعضهم أن الرجز ( بالضم ) : اسم

صنم كانوا يعبدونه ؛ وقرئ بذلك في قوله تعالى : ( وَالرَّيْزَ قَاهِرَةً ) . والريز ( بفتح الراء والجيم ) :

نوع من الشعر ؛ وأنكر الخليل أن يكون شعراً . وهو مشتق من الريز وهو داء يصيب الإبل في أعجازها :

فإذا تارت أرتشت أنفادها . ( بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ) أى يفسقهم ، والفسق : الخروج . وقد تقدم . وقال ابن وثاب والنخعي : يفسقون بكسر السين .

قوله تعالى : ( وَإِذْ أَسْنَقَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ) الى قوله : ( مُقْسِدِينَ ) . فيه ثمان مسائل .

الأولى - قوله تعالى : ( وَإِذْ أَسْنَقَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ) . كسرت الذال لالتقاء الساكنين . والسين سين السؤال مثل : استعلم واستخبر واستنصر ونحو ذلك . أى طلب وسأل السنى لقومه . والعرب تقول : سقىته وأسقىته لثان بمعنى : قال :

سقى قومي بنى مجد وأسقى . ثميراً والقبائل من هلال

وقيل : سقىته من سقى الشفة ، وأسقىته ذلك على الماء .

الثانية - الاستسقاء إما يكون عند عدم الماء وجبس القطر ، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ بإظهار العبودية والفقر والسكنة والذلة مع التوبة النصوح . وقد استسقى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تفرج الى المصلى متواضعا متذلا متخشعا . متزلا متضرعا ، وحسبك به ؛ فكيف بنا ولا توبة مما إلا المنادى ، ومخالفة رب العباد ؛ فأنى نسق ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر " ولم يمتعوا زكاة أموالهم إلا امتنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا " . الحديث وسياق بكاله إن شاء الله .

الثالثة - سنة الاستسقاء الخروج الى المصلى على الصفة التى ذكرنا ، والخطبة والصلاة ؛ وهذا قال جمهور العلماء . وذهب أبو حنيفة الى أنه ليس من سنته صلاة ولا خروج ، وإنما هو دعاء لا غير . واحتج بحديث أنس الصحيح ، أخرجه البخارى ومسلم . ولا حجة له فيه ؛ فإن ذلك كان دعاء تجلت لإجابته فاكفى به عما سواه ، ولم يقصد بذلك بيان سنة ؛ ولما قصد البيان بين بفعله حسب ما رواه عبد الله بن زيد المازنى قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المصلى فاستسقى وحول رداءه ثم صلى ركعتين . - رواه مسلم . وسياق من أحكام الاستسقاء زيادة فى سورة هود إن شاء الله .



الرابعة - قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ . العصا : معروف وهو اسم مقصور مؤنث والله متعبد عنه واو قال (١) :

• على عصويها سايرى مشيرى •

والجمع عُصَيٌّ وَعِصَى وهو فصول ، وإنما كسرت العين لما بعدها من الكسرة ؛ وعصى أيضا مثله ؛ مثل : زَمَنَ وَأَزْمَنِي . وفي المثل : « العصا من العَصَبَةِ » . أى بعض الأمر من بعض . وقولهم : « ألقى عصاه » أى أقام وترك الأسفار ؛ وهو مثل ؛ قال :

فألق عصاها واستغزها النوى • كما فسز عينا بالإياب المسافر

وفي التنزيل : ﴿ وَمَا تَلَكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ . وهناك يأتي الكلام في منافعها إن شاء الله تعالى . قال القزوه : أزل لمن سمع بالعراق هذه عصاى . وقد يجر بالمصا عن الاجتماع والافتراق ؛ ومنه يقال في الحوارج : قد شقوا عصا المسلمين أى أجتاعهم واشتلتهم . وانتقت العصا أى وقع الخلاف ؛ قال الشاعر :

إذا كانت المنياء وانتقت العصا • فحسبك والضحاك سيف مهند

أى يكفينك ويكنى الضحاك . وقولهم : لا ترفع عصاك عن أهلِكَ ؛ يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف ، وقياس جمعه فى أدنى السد أحجار ، وفى الكثير حجار وحجارة ؛ والحجارة نادر ، وهو كفولا . جَلَّ وِجَالَةً ، وَذَكَرُوا كَرَةً ؛ كذا قال ابن فارس والجوهري .

قلت : وفى القرآن ( فَبِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ) . ( وَإِنَّ مِنَ الْجَحَاةِ ) . ( قُلْ كُونُوا حِجَارَةً ) . ( تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ ) . ( وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ) . فكيف يكون نادرا إلا أن يراد أنه نادر فى القياس كثير فى الاستعمال فصيح ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾ . فى الكلام حذف تقديره فاضرب فانفجر . وقد كان تعالى قادرا على تضجير الماء وفاق الحجر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه

(١) هو ذوالرقة . ومولود البيت :

• بقتل بنسج النكيت كانه •

للعباد في وصولهم الى المراتب ؛ وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في الماد . والانفجار : الانشقاق ؛  
ومنه انشق الفجر . وانفجر الماء انفجارا : انفتح . والفتحة : موضع شجر الماء . والانجاس  
أضيق من الانفجار ؛ لأنه يكون انجاسا ثم يصير انفجارا . وقيل : انجس وتنجس وتنجرت وفتق ؛  
بمعنى واحد ، حكاية المروى وغيره .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ أَفَنُفِثَ عَيْنَا ﴾ . اثنا في موضع رفع بانفجرت ، وعلامة الرفع  
فيها الألف . وأعريت دون نظائرها لأن التثنية معربة أبدا لصحة معناها . عينا ، نصب على اليان .  
وقرأ بجاهد وطلمة ويعيسى عشرة بكسر الشين . وهي لغة بني تميم ؛ وهذا من لغتهم نادو ؛ لأن سيلهم  
التخفيف . ولغة أهل الحجاز عشرة ؛ وسيلهم التثنية . قال جهمه النخاس . والعين من الأسماء  
المشتركة ؛ يقال : عين الماء ، وعين الإنسان ، وعين الركة<sup>(١)</sup> ، وعين الشمس . والعين : سحابة تقبل  
من ناحية القبلة . والعين : مطر يدوم خمسا أو ستة لا يقطع . ويبد قليل العين أى قليل الناس .  
وما بها عين محركة الياء . والعين : الثقب في الزادة . والعين من الماء مشبهة بالعين من الحيوان ،  
لخروج الماء منها تكروج السمع من عين الحيوان . وقيل : لما كان عين الحيوان أشرف ما فيه  
شبهت به عين الماء لأنها أشرف ما في الأرض .

السادسة : لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجرا ؛  
فيل : مرتعا طوريا من الطور على قدر رأس الشاة يلقى في كسر جوالق ويرحل به ؛ فاذا نزلوا وضع  
في وسط علمتهم . وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يحذونه في كل مرحلة في منزله من  
الرحلة الأولى . وهذا أعظم في الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطلق له اسم الحجر ؛ ليضرب موسى  
أى حجر شاء . وهذا ألطف في الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجرا بعينه بيته لموسى  
عليه السلام ، ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جبير : هو الحجر الذى وضع عليه موسى  
توبه لما اغتسل ، وفر شوبه حتى برأه الله مما رماه به قومه . قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان  
حجرا منفصلا مرتعا تطلد من كل جهة ثلاث عيون ، إذا ضرب به موسى ؛ وإذا استسقوا عن الماء  
ورحلوا جفت العيون .

(١) عين الركة : قرة في قدمها عند الساق ، ولكل ركة عينا ؛ على التشبيه بقرة العين الخامسة .

قلت : ما أوتي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من نبع الماء وأعجابه من يده وبين أصابعه أعظم في المعجزة ؛ فإننا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار أثناء الليل وأثناء النهار ؛ ومعجزة نبينا عليه السلام لم تكن لنبي قبله صلى الله عليه وسلم ؛ يخرج الماء من بين لحم ودم ! . . . روى الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كاع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجد ماء فأبى بنور فادخل يده فيه ؛ ففقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ويقول : « من على الطهور » . قال الأنعمش غدتني سالم بن أبي الجعد قال قلت بلابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال ألفا وخمسمائة . لفظ النسائي . .

السابعة : قوله تعالى ( قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ) . يعنى أن لكل سبط منهم عينا قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمشرب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأبساط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ، وهم ذرية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليه السلام ؛ وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يمتدحها . قال عطاء : كان الحجر أربعة أوجه يخرج من كل وجه ثلاثة أعين ؛ لكل سبط عين لا يغفلهم سواهم . وبلغنا أنه كانت في كل سبط خمسون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أقلام يسل .

الثامنة : قوله تعالى : ( كُلُوا وَاشْرَبُوا ) . في الكلام حذف تقديره وقلنا لهم : كلوا اللبن والسوى ، واشربوا الماء المنفجر من الحجر المفصل . ولا تحترقوا أى تمعدوا . والعيث : شدة القساد . نهم من ذلك ؛ يقال : عَيْتَ يَتَى عَيْبًا ، وعَتَا يَتَو عُتْوًا ، وعَتَتْ بَيْتٌ عَيْبًا وَعُيُوتًا وَمَعَانًا ؛ والأوّل لغة القرآن . ويقال : عَتَّ يَتَّ في المضاعف : أقصد ؛ ومنه التَّو وهي السوسة التي تلحق الصوف . ومفسدين ، حال ؛ وتكرر المعنى تأكيدًا لاختلاف اللفظ . وفي هذه الكلمات إباحة التيم وتصداها ، والتقدم في المعامى والتهنى عنها .

قوله تعالى : ( وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ) . كان هذا القول مبهم في التبع حين ملأوا اللبن والسوى ، وتذكروا جيشهم الأول مصر . قال الحسن : كانوا ثمانى أهل كرات

(١) الثور (إناثه المتانة) : إنا من عمر أوجارة كالإبادة وقد يتوأساه .

وإبصال وأنداس، فترعوا إلى عكرهم عكر السوء، واشتأقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم ؛  
 قسأوا : لن نصبر على طعام واحد . وكنوا عن اللذات والسهل بطعام واحد وهما اثنان لأهم كانوا  
 يأكلون أحدهما بالآخر فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيل : لتكرارهما في كل يوم غذاء ، بما تقول  
 لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة : هو على أمر واحد، للملازمة لذلك . وقيل : المعنى لن نصبر  
 على الفنى فيكون جميعنا أغنياء فلا بقدر سمنا على الاستعانة ببعض ؛ لاستنفاد كل واحد منا بنفسه ،  
 وكذلك كانوا ! فهم أول من اتخذ الصيد والحلم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَ طَعَامٍ ﴾ . الطعام يطلق على ما يطعم ويشرب ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ  
 فَإِنَّهُ يَتَنَبَّأُ ﴾ . وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ . أى ما شربوا ،  
 من الخمر على ما أتى بيانه . وإن كان السوى الحسل - كما حكى المؤرخ - فهو مشروب أيضا . وربما  
 خص بالطعام البر والتمر كما في حديث أبي سعيد الخدري قال : كنا نخرج صدقة الفطر على عهد رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم صاعا من طعام أو صاعا من شعير الحديث . والعرف جار بأن القائل : ذهب  
 إلى سوق الطعام ، فليس يفهم منه إلا موضع يبيع فيه دون غيره مما يؤكل أو يشرب . والطعم ( بالفتح ) :  
 هو ما يؤذيه الذوق ؛ يقال : طعمه مر . والطعم أيضا ما يشهى منه ؛ يقال : ليس له طعم ، وما فلان  
 مذى طعم إذا كان عتا . والطعم ( بالهمز ) : الطعام ؛ قال أبو نوح :

أردت بجماع البطن لو نملينه • وأوتر غيرة من عيالك بالطعم  
 وأغنى الماء القراح فاشهى • إذا أراد أسمى للزنج ذا طعم

أراد بالأول الطعام ، والثانى ما يشهى منه . وقد طعم يطعم فهو طاعم إذا أكل وذاق ؛  
 ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ يَتَنَبَّأُ ﴾ . أى من لم يذقه . وقال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا ﴾ .  
 أى اكلم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمزم : "إنها طعام طعم وشفاء سقم"  
 واستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن يحذنه . وفي الحديث : "إذا استطعمكم الإمام فاطمموه"  
 يقول : إذا استطعم فاطمحو عليه . وفلان ما يطعم النوم إلا قاتما ؛ وقال :

تَبَآءًا بِوَجْهِ صَنَرِ الْخَلْدِ • دَمَا تَنْظُمُ التَّوَمِ الْإِصْبَآءَا<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ( فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ ) . لغة بني عامر قاذع بكسر العين لانتفاء الساكنين ؛ يمحرون للمتل بحرى الصحيح ولا يراعون المخذوف . ويخرج ، مجزوم على معنى سلّه . وقل له : أخرج يخرج . وقيل : هو على معنى السماء على تقدير حذف اللام ، وضعفه الزجاج . ومن ، في قوله : مما ، زائدة في قول الأخفش ؛ وغير زائدة في قول سيويه ، لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا يُخرج فأراد أن يحمل ما مفعولا . والأولى أن يكون المفعول محذوفاً دل عليه سائر الكلام ؛ التقدير يخرج لنا مما تنبت الأرض ما كولا . <sup>(٢)</sup> في الأول على هذا التبعيض ، والثانية للتخصيص . ومن قبلها ، بدل من ما بإعادة الحرف . وقتائها ، عطف عليه ؛ وكذا ما يسده فاعله . والبقول : معروف وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ما له ساق . والقتاء أيضا معروف ، وقد تضم قافه وهى قرأمة يحيى بن وثّاب وطلعة بن مصرف ، لنتان والكسر أكثر . وقيل في جمع قتاء : قتّاني ؛ مثل غلباء وعلّاني ؛ إلا أن قتاء من ذوات الواو ؛ يقول : أَقَاتَتْ الْقَوْمَ أَى أَطْعَمَتْهُمْ ذَلِكَ . [ وَوَقَاتَتْ الْقَيْدَ سَكَنْتَ ظِلَانِيَا بِالسَّاءِ ؛ قال الجعدي :

خُورَ طِينَا قَلْبِهِمْ فَنَدِيمَا • وَفَقَتْهُمَا عَنَّا إِذَا حَمِيَا غَلَا

وَقَاتَتْ الرَّجُلَ إِذَا كَسَرْتَهُ عَنكَ بِقَوْلِ أَوْغِيهِ ، وَسَكَنْتَ غَضِبَهُ . وعدا حتى أَقَاتَا أَى أَعَا وَأَنْهَرَا . وَأَقَاتَا الْحُرَّ أَى سَكَنَ وَقَرَّ ، وَمِنْ أَمَثَلِهِمْ فِي السَّبِيرِ مِنَ الْبَرِّ قَوْلُهُمْ : « إِنْ الرِّيشَةَ تَفَقَّتْ النَّصَبَ » . وأصله أن رجلا كان غضب على قوم وكان مع غضبه جائعا فسقوه ريشة فسكن غضبه وكف عنهم .

(١) كذا في نسخ الأصل . وبوجه (فتح وسكون) : موضع بين مكة والبحيرة . والذى في كتب اللغة وسامح البهتان :

فَمَا بَطَلَةُ صَرِ الْخَلْدِ • دَلَا تَنْظُمُ الْمَاءِ الْإِصْبَآءَا

وفيه : فَمَا بَطَلُ صَرِ الْخَلْدِ • غَدَاةً قَوْنَا فَنَكَاوَا نَصَا

فَاتِيهَا بَشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ . وخبطه (فتح وسكون) : موضع أعلى المدينة : قال صاحب اللسان بعد البيت المستشهد به : « يقول : هى صالحة لا تفسده ؛ قال : وذلك لأن قتاء لا ترد الماء ولا تفسده .

(٢) مصرف : كسحت . (٣) الكلام الموضوع بين هذين التوسمين قوله المؤلف من صاحب اللغة على أنه في هذه المادة ، والواقع أنه من مادة « قاء » . بإبقاء لا بإقاف .

الزينة : اللبن المحلوب على الحامض لِيَحْتَرَّ . رَتَات اللَّبَنَ رَأً إِذَا حَلَبْتَهُ عَلَى حَامِضٍ تَحْتَرُّ ، وَالْأَسْمُ الزَّيْنَةُ . وَارْتَا اللَّبَنُ حَتَرًا ] . وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُيَسَّرٍ حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ كُبَيْرٍ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَتْ أُمِّي تَجَالِيَنِي لِلسَّعَةِ تَرِيدُ أَنْ تَدْخُلَنِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا اسْتَغَامَ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى أَكَلْتُ الْفَتَاءَ بِالرُّطْبِ فَسَمِنَتْ كَأَحْسَنِ سَمْنَةٍ . وَهَذَا اسْتَدَّ صَحِيحٌ .

قوله تعالى : ﴿ وَفُؤْمَهَا ﴾ . اخْتَفَ فِي الْقَوْمِ ، قَلِيلٌ : هُوَ الْقَوْمُ ، لِأَنَّهُ الْمَشَاكِلُ لِلْبَصْلِ ، رَوَاهُ جَوْيِرٌ عَنْ الضَّحَّاكِ . وَالتَّاءُ تَبْدَلُ مِنَ الْفَاءِ ، كَمَا قَالُوا : مَغَافِرٌ وَمَغَايِرٌ ، وَجَدَتْ وَجَدَفٌ لِلْقَبْرِ . وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ تَوَمَّهَا بِالتَّاءِ الْمَثَلَةَ ، وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ ، وَقَالَ أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ : كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ إِذْ ذَاكَ ظَاهِرَةً . • فِيهَا الْفَرَادِيسُ وَالْقُومَانُ وَالْبَصْلُ الْفَرَادِيسُ وَاحِدُهَا فَرْدِيسٌ ، وَكَرَّمُ مَفْرَدِيسٌ أَيْ مَعْرَشٌ .

وقال حسان :

وَأَتَمَّ أَنْسَ لَنَامِ الْأَصُولِ • طَعَامُكَ الْقَوْمِ وَالْحَوْقُلِ

يعنى النِّومَ والبَصْلُ ، وَهُوَ قَوْلُ الْكِسَائِيِّ وَالنَّضَرِيِّ شَبِيلٌ . وَقِيلَ : الْقَوْمُ : الْخَطَّةُ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَأَكْثَرَ الْمُفْسِّرِينَ ؛ وَاخْتَارَهُ النَّحَّاسُ : قَالَ : وَهُوَ أَوَّلُ ، وَمَنْ قَالَ بِهِ أَعْلَى ، وَأَسَانِيدُهُ مَجْمُوحٌ ، وَلَيْسَ جَوْيِرٌ بِنَظِيرٍ لِوَاتِهِ ؛ وَإِنْ كَانَ الْكِسَائِيُّ وَالْقَزَّازُ قَدْ اخْتَارَا الْقَوْلَ الْأَوَّلَ ، لِإِبْدَالِ الْعَرَبِ الْفَاءَ مِنَ التَّاءِ ، وَالْإِبْدَالُ لَا يَقَاسُ عَلَيْهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ . وَأَنْشَدَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ الْقَوْمِ ، وَأَنَّهُ الْخَطَّةُ ، قَوْلَ أَحِيَّةَ بْنِ الْجَلَّاحِ :

فَدَكَنْتُ أَغْنَى النَّاسِ شَخْمًا وَاجِدًا • وَرَدَ الْمَدِينَةَ عَنْ زُرْعَةِ قَوْمٍ

وقال أبو إسحاق الزجاج : وَكَيْفَ يَطْلُبُ الْقَوْمَ طَعَامًا لَا يُرْفِيهِ ؟ وَالرُّبُوعُ أَصْلُ الْفَنَاءِ . وَقَالَ

الْبُحَّارِيُّ أَبُو نَصْرٍ : الْقَوْمُ : الْخَطَّةُ ، وَأَنْشَدَ الْأَخْفَشُ .

فَدَكَنْتُ أَحْيَيْ كَأَغْنَى وَاجِدًا • نَزَلَ الْمَدِينَةَ عَنْ زُرْعَةِ قَوْمٍ

(١) الحافيز : قِيلَ : تَمَحَّجٌ وَمِيلٌ مِنْ شَجَرِ الْعَرِطِ وَأَمْعَةٌ لَيْسَتْ بِطَبِيعَةٍ .

(٢) كَذَا فِي بَعْضِ نَسَخِ الْأَصْلِ وَتَرَجَّ الْقَامِرُ . وَفِي الْبَعْضِ الْآخَرُ وَاللَّسَانُ : « وَاحِدَةٌ » بِالْهَاءِ .

وقال ابن دريد : القومة : السئلة ؛ وأند :

وقال ربيهم لما اتانا . بكفهم قومة أو قومتان

والهاء في كفه غير مشبعة . وقال مضمم : القوم : الجنس ، لغة شامية . وباءه فائي ، مغير عن قوى ، لأنهم قد يغيرون في النسب ؛ كما قالوا : سهل ودعيرى . ويقال : قوموا لنا أى اختيروا . قال الفراء : هي لغة قديمة . وقال عطاء ، وقتادة : القوم : كل حب يُختار .

مسئلة — اختلف العلماء في أكل البصل والنوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول ؛ فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ، للأحاديث الثابتة في ذلك . وذهب طائفة من أهل الظاهر القائلين بجوب الصلاة في الجماعة فرضا إلى المنع ، وقالوا : كلما منع من إثبات الفروض والقيام به فإمام عمله والتشاغل به . واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها خبيثة ؛ وأنه عز وجل قد وصف نبيه عليه السلام بأنه يحزم الخباث . ومن الحجة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بقدر فيه خيضر من بقل فوجد لها ريحا . قال : فأخبرنا فيها من البقل ؛ فقال قريبها إلى بعض أصحابه كان معه ؛ فلما رآه أكره أكلها ، قال : " كل فإني أأبى من لا تأبى " . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بين في الخصوص له والإباحة لنفيه . وفي صحيح مسلم أيضا عن أبي أيوب أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل على أبي أيوب ، فصنع النبي صلى الله عليه وسلم طعاما فيه قوم ؛ فلما رآه إليه سأل عن موضع أصابع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل له : لم يأكل . ففزع وصعد إليه فقال : أكره هو ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا ولكني أكرهه " . قال : فإني أكره ما تكره أكرهه . قال : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يؤتى . يعني يأتيه الوحى . فهذا نص على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أكلوا التوم زمن خيبر وضحها " أيها الناس إنه ليس لي تحريم ما أحل الله ولكنها شجرة أكره وريحها " . فهذه الأحاديث تبشر بأن الحكم خاص به ، إذ هو المخصوص بمناجاة الملك ، لكن قد علمنا هذا الحكم في حديث جابر بما يقتضى التسوية بينه وبين غيره في هذا الحكم حيث قال : " من أكل من هذه البقلة التوم " . وقال مرة : " من أكل البصل والتوم والكراث فلا يقربن مسجدا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم " وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في حديث فيه طول : أيها الناس ، إنكم تأكلون شجرتين لا أراهما

إلا خيبتين ، هذا البصل والثوم ، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ وجد ويحهما من الرجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع ، فن أكلهما فليمتها طيبا . خرجه منم .  
قوله تعالى : ﴿ وَعَدَيْسَهَا وَبَصَلَهَا ﴾ . القدس معروف . والقدمة : بقة تخرج للإنسان ، وربما قتلت . وعدس : زجر البغال ؛ قال :

عدس ما لِعِبَادِ طَيْبِكَ إِيمَارَةٌ • تَجَوَّيْتُ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيسِي  
والقدس : شدة الوطء ، والكدح أيضا ؛ يقال : عدسه . وعدس في الأرض : ذهب فيها .  
وعدت إلى الميتة أى سارت ؛ قال الكُتَيْب :

أُكْفِيهَا هَوْلَ الظَّلَامِ وَلَمْ أَزَلْ • أَخَا اللَّيْلِ مَعْدُوسًا إِلَى وَعَادِيَا

أى يسار إلى بالليل . وعدس : لنسة في حدس ؛ قاله الجوهري . ويؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث علي أنه قال : "عليكم بالقدس فإنه مبارك مقدس وإنه يرقى القلب ويكثر النعمة فإنه بارك فيه سمون نيسا أحرم عيسى بن مريم" . ذكره الطبري وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت : ويوما بلحم ، ويوما ببدس . قال الحلي : والبدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام في مدينته لا يخلو منه لكان فيه كفاية ؛ وهو مما يخفف البدن فيخف للعبادة ، ولا تتور منه الشهوات كما تتور من اللحم . والحنطة من جملة الحبوب وهي القوم على الصحيح ؛ والشعر قريب منها وكان طعام أهل المدينة ؛ كما كان القدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام ؛ فصار لكل واحد من الحيتين بأحد النبيين عليهما السلام . فضيلة - وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشبع هو وأهله من خير ثلاثة أيام متتابعة منذ قدم المدينة إلى أن توفاه الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ . الاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ؛ ومنه البذل . وقد تقدم . وأدنى ، مأخوذ عند الزواج من الفتى أى القرب في التهمة من قولهم : توب مقارب أى قليل الثمن . وقال علي بن سليمان : هو مهموز من الدنى البين الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفف همزه . وقيل : هو مأخوذ من الدون أى الأخط ؛ فاصله أدون ،



أُثْمِلَ قَلْبَ بَقَاءِ أَنْفَعِ ، وَحَوَّلَ الرُّوَادِفَاتِ لَطَرَفَهَا ، وَفَرَّقَ فِي الشَّوَادِدِ أَدْنَى . وَمَعْنَى آيَةِ اسْتَبْدَلُونَ  
الْبَقْلَ وَالْقَتَاءَ وَالْفُومَ وَالْمَدَسَ وَالْبَصَلَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مِنَ الْمَلْحِ وَالسَّلَوَى الَّذِي هُوَ خَيْرٌ :

وَاخْتَلَفَ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي تَوْجِبُ فَضْلَ الْمَلْحِ وَالسَّلَوَى عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي طَلَبُوهُ وَهِيَ خَمْسٌ ، الْأَوَّلُ :  
أَنَّ الْبَقْلَ لِمَا كَانَتْ لَا خَطَرًا لَهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَلْحِ وَالسَّلَوَى كَمَا أَنْفَضَ ، قَالَهُ الرِّجَالُ . الثَّانِي : لِمَا  
كَانَ الْمَلْحُ وَالسَّلَوَى طَعَامًا مِنَ اللَّهِ بِهِ عَلَيْهِمْ وَأَمْرُهُمْ بِأَكْلِهِ وَكَانَ فِي اسْتِدْمَاعِ أَمْرِ اللَّهِ وَشُكْرِ نِعْمَتِهِ  
أَجْرًا وَذِكْرُ الْآخِرَةِ ، وَالَّذِي طَلَبُوهُ عَارٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ ، كَانَ أَدْنَى فِي هَذَا الْوَجْهِ . الثَّلَاثُ : لِمَا  
كَانَ مَا مِنْ بِهِ عَلَيْهِمْ أَطْيَبَ وَأَلَذَّ مِنَ الَّذِي سَأَلُوهُ ، كَانَ مَا سَأَلُوهُ أَدْنَى مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لَا عَالِيَهُ .  
الرَّابِعُ : لِمَا كَانَ مَا أُعْطُوا لَا كَثْفَةً فِيهِ وَلَا تَعَبَ ، وَالَّذِي طَلَبُوهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالْحَرْثِ وَالزَّرْعَةِ وَالتَّعَبِ ،  
كَانَ أَدْنَى : الْخَامِسُ : لِمَا كَانَ مَا يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ لِأَمْرِيَّةٍ فِي حِلِّهِ وَخُلُوصِهِ لَتَرْوَاهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ،  
وَالْحُبُوبِ وَالْأَرْضِ يَتَخَلَّلُهَا الْيُبُوعُ وَالتَّصَوُّبُ ، وَتَدَخَّلُهَا الشُّبُهَةُ ، كَانَتْ أَدْنَى مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

مسألة — فِي هَذِهِ آيَةِ دَلِيلٍ عَلَى جَوَازِ أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ وَالْمَطَامِ الْمُسْتَلْتَاتِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِبُ الْحَلْوَى وَاللَّسْلَ ، وَيُشْرَبُ الْمَاءُ الْبَارِدَ الْعَذْبَ . وَسَيَأْتِي هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمَائِدَةِ  
وَالنَّحْلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَتَوْفَى .

قوله تعالى : ﴿ أَهَيَّأُوا مِصْرًا ﴾ . تَهَيَّأَ مَعْنَى الْمَهَيَّأُ ، وَهَذَا أَمْرٌ مِمَّنَّاهُ التَّحْيِيزَ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :  
﴿ قُلْ كُونُوا حِجَابًا أَوْ حَيْدًا ﴾ . لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي آيَةِ هَذَا عَقُوبَةً لِمَنْ . وَقِيلَ : إِنَّهُمْ أُعْطُوا مَا طَلَبُوهُ .  
وَمِصْرًا ، بِالتَّوْنِينِ مَثَرًا قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ وَهُوَ خَطُّ الْمَصْحُفِ . قَالَ مجاهد وغيره : فَمِنْ صَرْفِهَا أَرَادَ  
مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ غَيْرِ مَعِينٍ . وَرَوَى عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَهَيَّأُوا مِصْرًا ﴾ . قَالَ :  
مِصْرًا مِنْ هَذِهِ الْأَمْصَارِ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : عَنِ صَرْفِهَا أَيْضًا أَرَادَ مِصْرَ فِرْعَوْنَ يَسِينَا . اسْتَدَلَّ  
الْأَوَّلُونَ بِمَا اقْتَضَاهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ مِنْ أَمْرِهِمْ دُخُولَ الْقَرْيَةِ ، وَبِمَا تَطَاهَرَتْ بِهِ الرَّوَايَةُ أَنَّهُمْ سَكَنُوا  
النَّامَ بِدَلَالَةِ آيَةِ . وَاسْتَدَلَّ الْآخَرُونَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ أَنَّ اللَّهَ أَوْرَثَ بَنِي إِسْرَائِيلَ دِيَارَ آلِ فِرْعَوْنَ  
وَأَنْبَارَهُمْ ، وَأَجَازُوا صَرْفَهَا . قَالَ الْأَخْفَشُ وَالْكِسَائِيُّ : لَخَفَتْهَا وَشَبَّهَهَا بِهَيْدٍ وَدَعْدٍ ؛ وَأَشَدُّ :

لَمْ تَلَفَّ بِفَضْلِ مَقْرَمِهَا \* تَعَدُّ وَلَمْ تُنْقِ دَعْدٌ فِي اللَّيْلِ

بجمع بين الفتين . وسيويه والخليل والفره لا يعبرون هنا ؛ لأنك لو سميت امرأة يزيد لم تصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فنصرف . وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وطاحة : مصر ، بترك الصرف . وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب وقراءة ابن مسعود . وقالوا : هي مصر فرعون . قال أشهب قال لي مالك : هي عندى مصر قريبك مسكن فرعون ؛ ذكره ابن عطية . والمصر أصله في اللغة الحد . ومصر الدار : حدودها . قال ابن فارس ويقال : إن أهل حمير يكتبون في شروطهم "أشترى فلان الدار بمصورها" أى حدودها ، قال عدى :

وجاعل الشمس مصراً لا خفاء به • بين النهار وبين الليل قد فصلّا

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ . ماء ، نصب بإن . وقرأ ابن وثاب والنخعي يأتكم بكسر السين ؛ قال : سألت وملت بغير همز ، وهو من ذوات الواو بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ النَّفْلُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ . أى ألزموها وقضى عليهم بهما . مأخوذ من ضرب القباب ؛ قال الفرزدق في جرير :

ضربت عليك النكبوْتُ بنسجها • وفقى عليك به الكلب المُنْتَلُ

وضرب الحاكم على البدأى حل وألزم . والنفل : الثل والصنار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودى وإن كان غنياً طالباً من رضى الفقر وخضوعه ومهاتته . وقيل : النفل فرض الجزية ؛ عن الحسن وقاعدة . والمسكنة : الخضوع ؛ وهى مأخوذة من السكون أى قلل الفقر حركته ؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : النفل : الصنار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضحاك بن مريم عن ابن عباس وضربت عليهم النفل والمسكنة قال : هم أصحاب القبالات <sup>(١)</sup> .

قوله تلى : ﴿ وَبَوَّأْ ﴾ : أى أهلبوا ورجعوا أى ألزمهم ذلك ؛ ومنه قوله عليه السلام فى دعائه ومتاجاته : "بَوَّأَ بِنَمْسِكَ عَلَى" أى أقرّبها وألزمها نفسى . وأصله فى اللغة الرجوع ؛ يقال : بَاءَ بَكُنَّا أى رجع به . وباء الى المباءة — وهى المنزل — أى رجع . والبواء : الرجوع بالقود . وهم فى هذا الأمر بواء أى سواه ؛ يرجعون فيه الى معنى واحد ؛ وقيل الشاعر :

ألا تنسبى عنا ملوكاً ونسبى • عاريتنا لا يئأأ التّم بالتم

(١) فى كتاب تفسير ابن كثير : « ..... القبالات بينى الجزية » .

أى لا يريح الدم بالم في القود؛ وقال :

فأبوا بالثَّهابِ وبالسيِّبِ • وأبنا بالنلوك مصعدينا

أى رجسوا ورجسنا . وقد تقدم معنى التَّنْضِبِ في الفاتحة .

قوله تعالى : ( ذَلِكَ ) . ذلك ، تحليل . ( يَنْتَهَمُ كَانُوا يَكْفُرُونَ ) . أى يكذبون بآيات الله أى بكتابه ومعجزات أنبيائه . ( وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ) . معطوف على يكفرون . وروى عن الحسن <sup>يُقْتَلُونَ</sup> ، وعنه أيضا كالجماعة . وقرا فاعث التبيين بالهمز حيث وقع في القرآن إلا في موضعين ، في سورة الاحزاب : ( إِنَّ وَصِيَّتَ نَفْسًا لِّئَلَّا يُدْرِكَ ) . ( وَلَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا ) . فإنه قرأ بلا مد ولا همز . وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وترك الهمز في جميع ذلك الباقون . فاما من همز فهو عنده من أنبا إذا أخبر ؛ واسم فاعله مني . ويصح نبي ، أنباء ، وقد جاء في جميع نبي نباء ، قال العباس بن مرداس السُّلَميَّ يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

يا حاتم النبأ إنك مُرْسَلٌ • بالحق كلُّ هدى السبيل هداكا

هذا معنى قراءة الهمز . واختلف القائلون بترك الهمز ؛ ففهم من اشتق اشتقاق من همز ، ثم سهل الهمز . ومنهم من قال : هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر . قالني من النبوة وهي الارتفاع ؛ فترتلة النبي رفيعة . والنبي بترك الهمز أيضا الطريق ، فسعى الرسول نبيا لاختداء الخلق به كالطريق ؛ قال الشاعر :

لأصبح رمتما دقاق الحمى • مكان النبي من الكنايب

رمت النبي : كسرته ؛ يقال : رمته ورمته بالناء والناء جيا . والرم أيضا المرتوم أى المكسور . والكنايب : اسم جبل . فالأنبياء لنا كالسبل في الأرض . ويرى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا نبي الله ؛ وهمز . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لست بنبي الله — وهمز — ولكنني نبي الله » ولم همز . قال أبو علي : ضعف سند هذا الحديث ؛ وما يقوى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشد الملاح :

• يا حاتم النبأ ... • ولم يؤت في ذلك إنكار .

(١) البيت من حقة عمرو بن كلثوم الغنوي ، ولا شاهد فيه ، إلا الرواية فيه : « قايروا ... وأبنا ... رعدة » « أب » مرادة ذاء . وإن كان معنى المادتين واحدا . (٢) هو اوس بن جبر ؛ يرى نقالة بن كلفة الأمدى .

قوله تعالى : ﴿ يَغْيِرَ الْخَلْقَ ﴾ . تعظيم للشنة والذنب الذي أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به . قيل له : ليس كذلك ؛ وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق ؛ فكان هذا تعظيماً للشنة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق ، ولكن يقتل على الحق فصرح بقوله : ﴿ يَغْيِرَ الْخَلْقَ ﴾ عن شنة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبي قط بشيء ؛ ويجب قتله .  
فإن قيل : كيف جاز أن يُغَيَّرَ بين الكافرين وقتل الأنبياء ؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم ؛ كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بمغذلان لهم . قال ابن عباس والحسن : لم يقتل نبي قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكل من أمر بقتال أُصر .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا ﴾ . ذلك ، رد على الأول وتأكيد للإشارة إليه . والباء في بما باء السبب . قال الأخفش : أى بمعصيتهم . والعصيان : خلاف الطاعة . وأعصيت التواة إذا اشتدت . والاعتداء : تجاوز الحد في كل شيء ؛ وعُرف في الظلم والمعاصي .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ الآية . فيه ثمان مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . أى صنفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال سفيان المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا في ظاهر أمرهم ؛ فذلك قرتهم باليهود والنصارى والصابئين ثم بين حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانية ... قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ . معناه صاروا يهوداً ؛ نسبوا إلى يهودا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام ، فقلبت العرب النبال دلالاً لأن الأعجمية إذا عُرِيت غُيرت عن لفظها . وقيل : سموا بذلك لتوابعهم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والمهاد : التائب ؛ قال الشاعر :

هَيَّا أَمْرُؤُماً مِنْ حُبِّهِ هَائِدٌ

أى تائب ؛ وفي الترتيل : ﴿ إِنَّا هَدَانَا إِلَيْكَ ﴾ . أى تبنا . وهاد القوم يهودون هوداً وهجادة إذا تابوا . وقال ابن عرفة : هدا إليك أى سكتاً إلى أمرك . والمودة : السكن والموادة ؛ قال : ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ . وقرأ أبو السكك هادواً ، بفتح الهاء .

(١) هذا في كتاب الجبر لأبي حيان - وفي بعض نسخ الأصل : « ابن الهك » - وفي بعضها : « أبو الهالك » - بالعين واللام .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿وَالنَّصَارَى﴾ ، جمع ، واحده نصراني . وقيل : - راب إسقاط الياء ، وهذا قول سيويه . والأشئ نصرانة كتبت - «نصانته» وهو نكرة يمتزج بالألف واللام ؛ قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

صنعت كما صد عما لا يحل له • ساقى نصارى قبيل الفصح صوام  
فوصفه بالكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نصري ؛ ككهرى ومهاري ؛ وأند سيويه شاهدا على قوله :

نصراه إذا دار الشا متحف • ويضيئ لده وهو نصران شامس  
وأنشد :

فكلتاها تحزت وأتجد رأسها • كما انجذت نصرانة لم تحيف<sup>(٢)</sup>

يقال أجد : إذا زال . ولكن لا يستعمل نصران ونصرانة إلا بياء النسب . لأنهم قالوا : رجل نصراني وامرأة نصرانية . ونصره : جعله نصرانياً ؛ وفي الحديث : «فأبواه يهودانه وينصرانه» . وقال عليه السلام : «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحد ؛ وقياسه النصرانيون . ثم قيل : سُموا بذلك لقربة تسمى «ناصر» كان يترطب عيسى عليه السلام فنسب إليها ، قيل : عيسى للنصرة ؛ فلذا نسب أصحابه إليه قيل : النصاري . فله ابن عباس وقناة . وقال الجوهري : ونصران قربة بالشام ينسب إليها النصاري . ويقال : ناصرة . وقيل : سُموا بذلك لنصرة بعضهم بضياء قال الشاعر :

لما رأيت نبطاً أنصاراً • شمرت عن ركني الإزاراً

• كنت لم من النصاري جوا •

وقيل : سُموا بذلك لقوله : ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ .

(١) هو القزويني . يصف ناقة عرض عليها المذبح .

(٢) في نسخ الأصل : «الصح» . بالياء ، والصواب من كلام سيويه : «فصح» : غطر النصاري ، وهو عديم .

(٣) البيت لأبي الحسن الخفائي ، يصف ناقين طائفاً ورسما من الإبياء ، فتب رأس الناقة برأس النصرانية إذا طافا

في سلاتها . شرح القاموس واللسان .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَالصَّابِغِينَ ) جمع صابغ . وقيل : صابغ ؛ ولذلك اختلفوا في همزه وهمزة الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صباغ النجوم إذا طلعت . وصباغ تينة السلام إذا خرجت ومن لم يهز جعله من صبا يصبو إذا مال . فالصباغ في التينة من خرج أو مال من دين إلى دين ، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم : قد صبا . فالصباغون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامسة - لا خلاف في أن اليهود والنصارى أهل كلب ، ولأجل كلبهم جاز نكاح نسائهم وأكل طعامهم - على ما يأتي بيانه في المائدة - وضرب الجزية عليهم . على ما يأتي في سورة براءة إن شاء الله . واختلف في الصابغين ، فقال السدي : هم فرقة من أهل الكلب . وقال إسحاق ابن رآهويه . قال ابن المنذر : وقال إسحاق لا بأس بذباغ الصابغين ، لأنهم طائفة من أهل الكلب . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذباغهم ونكاح نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يشبه دينهم دين النصارى ، إلا أن قبلتهم نحو مذهب الجنوب ؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وابن أبي نجیح : هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل ذباغهم . ابن عباس : ولا تنكح نسائهم . وقال الحسن أيضا وقائدة : هم قوم يبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة وقروم الزبور ويصلون الجنس ؛ رأيهم زياد بن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين صرف أنهم يبدون الملائكة . والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض علمائنا أنهم موحدون معتقدون تأثير النجوم وأنها فعالة . وبهذا أتى أبو سعيد الإصطخري القادر بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادسة - قوله تعالى : ( مَنْ آمَنَ ) . أي صدق . ومن ، في قوله : ( مَنْ آمَنَ ) . في موضع نصب بدل من الذين . والقاء ، في قوله : ( فَلَهُمْ ) . داخلة بسبب الإيهام الذي في مَنْ . ولم أجرم ، ابتداء وخبر في موضع خبره ، ويحسن أن يكون في موضع رفع بالابتداء ، ومعناها الشرط . وآمن ، في موضع جزم بالشرط . والقاء الجواب . ولم أجرم ، خبر من ، والجملة كلها خبر إنك والماند على الذين محذوف ؛ تقديره من آمن منهم بالله . وفي الإيمان بالله واليوم الآخر اندراج الإيمان بالرسول والكتب والبعث .

السابعة - إن قال قائل : لم جمع الضمير في قوله تعالى : ( لِمَ أَجِزْتُمْ ) . وآمن لفظ مقرد ليس بجمع ، وإنما كان يستقيم لو قال : له أجره ؟ فالجواب أن من يقع على الواحد والثنية والجمع ، بفائز أن يرجع الضمير مفردا ومثنى وجموعا ، قال الله تعالى : ( وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ) . على المعنى . وقال : ( وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ) . على اللفظ ؛ وقال الشاعر :

لَمَّا بَسَطَى عَنكَ إِن عَرَضْنَا • وَقَوْلَانَا عَوِجَى عَلَى مَنْ تَحَقُّوْا

وقال الفرزدق :

تَسْأَلُ لِمَنْ لَمَحَدَتِي لَا تَحْتَوِي • نَكُنْ مَثَلٌ مَّنْ يَذُبُّ بِصَطْحَانِ .

فعمل على المعنى ، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب ويختلف . وقال تعالى : ( وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ) . فعمل على اللفظ . ثم قال : ( خَالِدِينَ ) . فعمل على المعنى ، ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيها . وإذا جرى ما بعد من على اللفظ بفائز أن يخالف به بعد على المعنى كما في هذه الآية . وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجوز أن يخالف به بعد على اللفظ ، لأن الإيباس يدخل في الكلام . وقد سعى الكلام في قوله تعالى : ( فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ) . والحمد لله .  
الثالثة - روى عن ابن عباس أن قوله : ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ) . الآية ؛ منسوخ بقوله تعالى : ( وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ) الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة . وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبى عليه السلام .

قوله تعالى : ( وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ) . هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : ( وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ) . قال أبو عبيد : المعنى زعمناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شيء قلته فربيت به فقد تتقته . وقيل : تتقاه رفعا . قال ابن الأعرابي : الثالث : الرابع . والثاني : الباسط . والثالث : الفائق . وأمرأة نازق ومثلق : كثيرة الولد . وقال السبى : أخذ ذلك من تتق السقاء وهو قفصه حتى تمتلئ الزبد منه . قال : قوله : ( وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ) . قلح من أصله . واختلف في الطور ؛ فقيل : الطور اسم للجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وأزل عليه فيه التوراة دون غيره . وواه ابن جرير عن ابن عباس . وروى الضحاك عنه أن الطور ما أثبت من الجبال خاصة دون ما لم يثبت . وقال مجاهد وقناة :

أى جبل كان؛ إلا أن مجاهدا قال : هو اسم لكل جبل بالسريانية . وقاله أبو الملية . وقد مضى الكلام هل وقع في القرآن ألفاظ مفردة غير معربة من غير كلام العرب في مقدمة الكتاب . واتخذ الله . وزعم البكرى أنه سُمي بطور بن إسماعيل عليه السلام والله تعالى أعلم .

### القول في سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليه السلام لما جاء بنى إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة؛ قال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا : لا ! إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك . فصُحِّقوا ثم أُخْبِرُوا . فقال لهم : خذوها . فقالوا : لا ! فأمر الله الملائكة فاقلمت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله ؛ وكذلك كان عسكرهم ، فجعل عليهم مثل الظلة ، وأوتوا يمر من خلفهم ، ونار من قبيل وجوههم . وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل . فسجدوا توبة لله ، وأخذوا التوراة بالميثاق . قال الطبري عن بعض العلماء : لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان مجودهم على شق لأشهم كانوا يرقبون الجبل خوفا ؛ فلما رجعهم الله قالوا : لا بحجة أفضل من حجة قبلها الله ورحم بها عباده ، فأمرُوا مجودهم على شق واحد . قال ابن عطية : والذي لا يصح سواء أن الله تعالى اخترع وقت مجودهم الإيمان ، لا أنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة بذلك . قوله تعالى : ( خُذُوا ) . أى نَقَلْنَا خِذُوا ، خَفَفَ . ( مَا آتَيْنَاكُمْ ) . أعطيناكم . ( بِقُوَّةٍ ) . أى بمجد واجتهاد . قاله ابن عباس وقتادة والسدي . وقيل : ببينة وإخلاص . مجاهد : القوة العمل بما فيه . وقيل : بقوة بكثرة درس . ( وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ ) . أى تدبروه واحدة فقلوا له امره ووعيده ، ولا تسوه ولا تضيعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكتاب ، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فان ذلك نبت لما على ما قاله الشعي وابن عيينة . ونسباني قولها عند قوله تعالى : ( تَبَدَّدَ قَرْنٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ) . وقد روى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من شر الناس رجلا تاسقا يقرأ القرآن لا يرجع إلى شيء منه » . فينبى صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بينا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه . فما لزم إذا من قبلنا وأخذ



عليهم لازم لنا وواجب علينا . قال الله تعالى : ( وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ) . فأمرنا باتباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك كما تركت اليهود والنصارى ؛ وبقيت اشخاص الكتب والمصاحف لا تغيب شيئا لقلبة الجهل وطلب الرئاسة واتباع الأهواء . روى الترمذى عن جبير بن نفير عن أبي الترداء قال : كما مع النبي صلى الله عليه وسلم فشحص بيصره إلى السماء ثم قال : « هذا أو أن يجلس فيه العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء » . فقال زياد بن ليكدة الأنصارى : كيف يجلس منا وقد قرأنا القرآن ؟ فواته لنقرانه ولقرنه نساءنا وأبنائنا . فقال : « نيكئك أنك يا زياد إن كنت لأفكك من فقهاء المدينة هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فإنا نتقى عنهم » . وذكر الحديث . وسأى ونحرجه الناس من حيث جبير بن نفير أيضا عن عوف ابن مالك الأشجعي من طريق صحيحة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لزياد : « نيكئك أنك زياد هذه التوراة عند اليهود والنصارى » . وفي الموطأ عن عبد الله بن مسعود قال لإنسان : إنك في زمان كثير قضاؤه ، قليل قراؤه تحفظ فيه حدود القرآن وتضيق حروفه ، قليل من يسأل ، كثير من يعطى ، يطيلون الصلاة ويقصرون الخطبة ، يذنون فيه أعمالهم قبل أهوائهم . وسأى على الناس زمان قليل قضاؤه ، كثير قراؤه ، تحفظ فيه حروف القرآن ، وتضيق حدوده ؛ كثير من يسأل ، قليل من يعطى ، يطيلون فيه الخطبة ، وقصرون الصلاة ، يذنون فيه أهوائهم قبل أعمالهم . وهذه تصوص تدل على ما ذكرنا . وقد قال يحيى : سألت ابن نافع عن قوله : يذنون أهوائهم قبل أعمالهم . قال : يقول يقيمون أهوائهم ويتركون العمل بالذى افترض عليهم . وتقدم القول في معنى قوله : ( لَمَلِكُمْ تَتَّقُونَ ) . فلا معنى لإعادته . وقوله : ( ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ) . تولى ، تفل وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم ؛ ثم استعمل في الإعراض عن الأوامر والآيات والمعتقدات أنساء ومجازا . وقوله : ( مِنْ بَيْدِ ذِكِّ ) . أى من بعد البرهان ؛ وهو أخذ الميثاق ورضخ الجبل . وقوله : ( فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ) . فضل ، مرفوع بالابتداء عند سيوريه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره ، لأن المربوب استغنت عن إظهاره إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأن ، فإذا جاءوا بها لم يحذفوا الخبر والتقدير فلولا فضل الله تبارككم . ( وَرَحْمَتِهِ ) . عطف على فضل أى لطفه وإمهاله . ( لَكُنْتُمْ ) جواب لولا . ( مِنَ الْغَالِيِينَ ) خبر كنتم . والخبران : التقصان . وقد تهتم . وقيل : فضله قبول

التوبة، ورحمة الغفور . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال : نسل ما لم يجب . قال ابن فارس في المعجم الفضل : الزيادة والخير ، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ) الآية . فيه سبع مسائل : الأولى - قوله تعالى : ( وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ ) . علمتم ، معناه عرقتهم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجهة إلى ذات المسمى . والعلم متوجه إلى أحوال المسمى ، فإذا قلت : عرفت زيدا ، فالمراد شخصه . وإذا قلت : علمت زيدا ، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعل الأول ينسب الفعل إلى مفعول واحد وهو قول سيويه : علمتم بمعنى عرقتهم . وعلى الثاني إلى مفعولين . وحكى الأخفش ولقد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفي التبريل : ( لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ) . كل هذا بمعنى المعرفة فأعلم . ( الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ) صلة الذين . والاعتداء : التجاوز وقد تقدم .

الثانية - روى النسائي عن صفوان بن صالح قال قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي . فقال له صاحبه : لا تقل نبي لو سمعك ! فإن له أربعة أعين ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألاه عن سبع آيات يثبت ، فقال لهم : " لا تسركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنا ولا تفتنوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تمشوا براء إلى سلطان ولا تفسحوا ولا تأكلوا الربا ولا تحفوا المحصنة ولا تولوا يوم للزحف وعليكم خاصة يهود ألا تعدوا في السبت " . فقبلوا بيده ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبي . قال " فما يمنعكم أن تبعوني " . قالوا : إن داود دعا بالآزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن نقتل يهود . ونخبره الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وسبقنا لفظه في سورة سبحان إن شاء الله تعالى .

الثالثة - ( فِي السَّبْتِ ) . معناه في يوم السبت ، ويحتمل أن يريد في حكم السبت . والأول قول الحسن وأتهم أخذوا فيه الحيطان على جهة الاستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذون الربيل منهم خيطا ويضع فيه وعقة وألقاما في ذنب الحوت ، وفي الطرف الآخر من الخيط ويد وتركه كذلك إلى الأحد ، ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع لا يبل

(١) في البحر المحيد : « حزمة » أي سبلان لحاء . حجر تخذ من لحاء الجبل .

حتى كثر صيد الحوت ومشي به في الأسواق؛ وأعلن الصفة بصيده . فقامت فرقة قهت وجاهرت  
بالهوى واعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا لا نساكنكم ؛ فغضبوا القرية يجلدوا ؛ فاصبح الناهون  
فات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إن الناس لنا ؛ فلو على الجدار فنظروا  
فإنهم قردة ؛ ففتحوا الأبواب ودخلوا عليهم فصرقت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس  
أنسابهم من القرودة ؛ فخطت القردة تأتي نسيبها من الإنس فشم ثيابه وتبكي ؛ فيقول : ألم تهكم !  
فقول برأسها : نعم . قال فتادة : صار الشبان قرودة ، والشيوخ خنازير ؛ فأنجا إلا الذين نهبوا وهلك  
سائرهم . وساقى في الأعراف قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أجمع من قول من قال :  
إنهم لم يفرقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسبت مأخوذ من السبت وهو القطع ؛ فقيل : إن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقها .  
وقيل : هو مأخوذ من السبوت الذي هو الراحة والدعة .

ومختلف العلماء في المسوخ هل ينسل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه  
القرودة منهم . واختاره القاضي أبو بكر بن العربي . وقال الجمهور : المسوخ لا ينسل ، وإن القرودة  
والخنازير وغيرها كانت قبل ذلك ؛ والذين منحهم الله قد هلكوا ولم يبق لهم نسل ، لأنه قد أصابهم  
السخط والعذاب ، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال ابن عباس : لم يمض سخط  
فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال ابن عطية : وروى عن النبي صلى الله عليه  
وسلم وثبت أن المسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما احتج به ابن العربي وغيره على صحة القول  
الأول من قوله صلى الله عليه وسلم : " قُضِيَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَدْرِي مَا فَعَلَتْ وَلَا أَرَاهَا  
إِلَّا النَّارَ إِلَّا تَرَوْنَهَا إِذَا وَضَعَ لَهَا الْبَانُ الْإِثْلَ لَمْ تَشْرِبْهُ وَإِذَا وَضَعَ لَهَا الْبَانُ الشَّاءَ شَرِبْتَهُ " . رواه  
أبو هريرة أخرجه مسلم . وبحديث الضب رواه مسلم أيضا عن أبي سعيد وجابر ، قال جابر : أتى  
النبي صلى الله عليه وسلم بضب فابى أن يأكل منه ؛ وقال : " لا أدرى لعله من القرون التي  
سخت " . فنأفل على ما يأتي . قال ابن العربي : وفي البخاري عن عمرو بن ميمون أنه قال :  
رايت في الجاهلية فرقة قد زنت فزجوها فزجتها معهم . ثبت في بعض نسخ البخاري وسقط

في بعضها، وثبت في نص الحديث « قد زنت » وسقط هذا اللفظ عند بعضهم . قال ابن العربي :  
 فان قيل وكأن البهائم بقيت فيهم تعاليم الشرائع حتى ورتوها خلفا عن سلف الى زمان عمرو ، قلنا :  
 نعم كذلك كان ، لأن اليهود غيروا الزَّيم فأراد الله أن يقيمهم في مسوخهم حتى يكون أبلغ في الهجة  
 على ما أنكره من ذلك وغيره حتى تشهد عليهم كتبهم وأخبارهم ومسوخهم ، حتى يعلموا أن الله  
 يعلم ما يسرون وما يعلنون ، ويحصى ما يتدلون وما ينثرون ، وبقية عليهم الهجة من حيث لا يشعرون ،  
 وينصرت به عليه السلام وهم لا ينصرون .

قلت : هذا كلامه في الأحكام ولا هجة في شيء منه . فاما ذكره من قصة عمرو فذكر الحيدري  
 في جمع الصحيحين حكى أبو مسعود التمشقي أن لمسور بن ميمون الأودي في الصحيحين حكاية  
 من رواية حصين عنه قال : رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة فرجوها فرجتها معهم .  
 كما حكى أبو مسعود ولم يذكر في أي موضع أخرجه البخاري من كتابه ؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه  
 في بعض النسخ لا في كلها ؛ فذكر في كتاب أيام الجاهلية . وليس في رواية التميمي عن الثوري أصلا  
 شيء من هذا الخبر في القردة ؛ ولعلها من المصححات في كتاب البخاري . والذي قال البخاري في التاريخ  
 الكبير : قال لي نعيم بن حماد أخبرنا هشيم عن أبي بلع وحُصين عن عمرو بن ميمون قال : رأيت  
 في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة فرجوها فرجتها معهم . وليس فيه قد زنت ، فإن صححت هذه  
 الرواية فاما أخرجه البخاري دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يزال بظنه الذي ظنه  
 في الجاهلية . وذكر أبو عمر في الاستيعاب ، عمرو بن ميمون « وأن كنيته أبو عبد الله معدود في كبار  
 التابعين من الكوفيين ، وهو الذي رأى الزَّيم في الجاهلية من القردة ان صح ذلك ، لأن رواته  
 مجهولون ، وقد ذكر البخاري عن نعيم عن هشيم عن حصين عن عمرو بن ميمون الأودي مختصرا  
 قال : رأيت في الجاهلية قردة زنت فرجوها - بنى القردة - فرجتها معهم . ورواه حماد بن  
 التوام عن حصين كما رواه هشيم مختصرا . وأما القصة بطولها فانها تدور على عبد الملك بن مسلم عن  
 عيسى بن حطان ؛ وليس من يمتنع بهما ؛ وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنا الى غير مكلف ،  
 وإقامة الحنود في البهائم ، ولوحح لكانوا من الجن لأن العبادات في الإنس والجن دون غيرهما .  
 وأما قوله عليه السلام في حديث أبي هريرة : « ولا أراها إلا الفار » . وفي الصَّب : « لا أدرى

لعله من القرون التي مسخت . وما كان مثله فإما كان ظنا وخوفاً لأن يكون الضب والفار وغيرهما  
 مسخ ، وكان هذا حسماً منه صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه أن الله لم يجعل للمسح تسلاً ؛  
 فلما أوحى إليه بذلك زال عنه ذلك التخوف ، وعلم أن الضب والفار ليسا مما مسخ ، وعند ذلك أخبرنا  
 بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير هي مما مسخ ؟ فقال : « إن الله لم يهلك قوماً  
 أو يذهب قوماً فيجعل لهم تسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك » . وهذا نص صريح رواه  
 عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم في كتاب القدر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرة وعلى  
 مائته ولم ينكره فدل على صحة ما ذكرنا وبالله توفيقنا . وروى عن مجاهد في تفسيره هذه الآية أنه  
 إنما مسخت قلوبهم فقط ، وردت أفهامهم كأفهام القردة . لم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم .  
 والله أعلم .

قوله تعالى : ( فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ) . قردة ، خبر كان . ( خَاسِيَةً ) نعت وإن شئت جعلته  
 خبراً ثانياً لكان ، أو حالا من الضمير في كونا . ومعناه مبعدين ؛ يقال : خاساه نقساً . وخسئ  
 وانحسا أى أبعدته بعيد . وقوله تعالى : ( يَتَغَلَّبُ إِلَيْكَ أَبْصَرُ خَيْلٍ ) . أى مبعدا . وقوله :  
 ( أَحْشَوْا فِيهَا ) . أى تباعدوا تباعد سقط . قال الكاسي : خسا الرجل خسوماً ، وخسائه خسا .  
 ويكون الخلسى بمعنى الصاغر الضعيف ، يقال : قس الرجل قسا ، وقامه صار قيباً وهو الصاغر القليل .  
 وإقامه : صغره ونفثه ، فهو قىء على فعل .

قوله تعالى : ( جَعَلْنَاهَا نَكَالًا ) . نصب على المفعول الثاني . وفي النجول نكالا أقاويل ؛ قيل :  
 العقوبة . وقيل : القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمة التي مسخت . وقيل :  
 الحيات ؛ وفيه بعد . والنكال : الزجر والعقاب . والنكل والنكال : القيود . وسُميت القيود أنكالا  
 لأنها ينكل بها أى يمنع ؛ ويقال بهام التحيل : نكل ونكل ، لأن الهابة تمنع به . ونكل عن الأمر  
 ينكل ، ونكل ينكل إذا امتنع . والنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تنكل من ورائهم أى تجنبهم .  
 وقال الأزهرى : النكال العقوبة . ابن دويد : والمنكل : الشيء الذى ينكل بالإنسان ؛ قال :  
 • ولرم على أفتانهم ينكل •

(١) هذه الكلمة مرفوعة في بعض نسخ الأصل ؛ وما بين الله لا تؤيده ، والله تعالى أعلم بالصواب .

(لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا) . قال ابن عباس والسدي : لما بين يدي المسخة ، ما قبلها من ذنوب القوم وما خلفها لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب . قال الضراء : جعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ولما يعمل بعدها ليتأثروا بالمسح بذنوبهم . قال ابن عطية : وهذا قول جيد ، والضميران للمقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس : لمن حضر معهم ولبن يأتي بعدهم . واختاره الثعالب ، قال : وهو أشبه بالمعنى ، والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا لما بين يديها وما خلفها من التوبة . وقال قتادة : لما بين يديها من ذنوبهم ، وما خلفها من صيد الحيات .

قوله تعالى : (وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) . عطف على نكال ، وهذا مفعلة من الإخطاط والالتطير . والوعظ : التخويف . والعظة الاسم . قال الخليل : الوعظ التذكير بالخير مما يرق له القلب . قال الماوردي : وخص المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفزعهم بها عن الكافرين الماعدين . قال ابن عطية : واللفظ بع كل متق من كل أمة . وقال الزجاج : وموعظة للثقلين ، لأمة محمد صلى الله عليه وسلم إن يتكفروا من حرم الله جل وعز ما نهىهم عنه فيصيرهم ما لم يطلب أصحاب السبت في انتهاكوا حرم الله في سبهم .

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا بُقْعًا) . فيه أربع مسائل . الأولى - قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ) . حكى عن أبي عمرو أنه قرأ يأمركم بالسكون ، وسقط الفسحة من الراء لتقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هذا الآن الراء ، حرف الإعراب . وإنما الصحيح عن أبي عمرو أنه كان يمتثل الحركة . (أَنْ تَتَّخِذُوا) . في موضع نصب بيامركم أي بأن تتخذوا . (بُقْعًا) . نصب بتتخذوا . وقد تقدم معنى البقعة فلا معنى لإعادته .

الثانية - قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا بُقْعًا) . مقدم في التلاوة ، وقوله : (قُلْتُمْ قَسًا) . مقدم في المعنى على جميع ما ابتداء به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : (قُلْتُمْ) في التوراة مقننا ، والأمر بالذبح مؤثرا . ويجوز أن يكون ترتيبها على حسب تلاوتها ؛ فكان الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر التتل ، فأمروا أن يضروه ببعضها ؛ ويكون واذا قتلتم مقننا في المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا ، لأن الواو لا توجب

التريب ، ونظيره في التريل في قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه في قوله : ( حَتَّىٰ إِنَّا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا اجْعَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ) إلى قوله : ( إِلَّا قَلِيلٌ ) . فذكر إهلاك من هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : ( وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِيدًا وَثَرَاءً ) . فذكر الركوب متأخرا في الخطاب ، ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قِيمًا ) . وقدره أنزل على عبده الكتاب قِيمًا ولم يجعل له عوجًا ، ومثله في القرآن كثير .

الثالثة — لا خلاف بين العلماء أن الذبح أولى في النعم ، والضرأولى في الإبل ، والتخدير في البقر . وقيل : الذبح أولى لأنه الذي ذكره الله ، وقرب النحر من المذبح . قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا حرم أكل ما نحر مما يذبح ، أو ذبح مما ينحر . وكره مالك ذلك . وقد يكره المرء الشيء ولا يحرمه . وسياق في سورة المائدة أحكام الذبح والناجح وشرائطهما عند قوله تعالى : ( أَلَا مَا ذَكَّيْتُمْ ) مستوفى إن شاء الله تعالى . قال الماوردي : وإنما أمرنا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها ، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه ، ولعلم بإجابتهم ما كان في قلوبهم من عبادة . وهذا المعنى علة في ذبح البقرة ، وليس بعلّة في جواب السائل ، ولكن المعنى فيه أن يحيا القتل يقتل حي ، فيكون أظهر لقدومه في اختراع الأشياء من أضرادها .

الرابعة — قوله تعالى : ( بَقَرَةً ) . البقرة اسم للأنثى ، والثور اسم للذكر ، مثل ثاقه وجمل ، وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر ، والأنثى والذكر سواء ، وأصله من برك : بقر يطه أي شقه ، فالبقرة تنشق الأرض بالحرث وتسير ، وبه البقر لأبي جعفر محمد بن علي زين العابدين ، لأنه بقر العلم وعرف أصله : أي شقه . والبقرة : ثوب يشق فتلقه المرأة في عقبها من غير كمين . وفي حديث ابن عباس في شأن المحدث "بقر الأرض" . قال تميم : بقر نظرو موضع الماء ، فرأى الماء تحت الأرض . قال الأزهري : البقر اسم للجنس وجمعه بقر . ابن عرفة : يقال بقر وبقر وبقر ويقور . وقرا عكرمة وابن عسر "إن البقر" . والثور : واحد الثيران . والثور : السيد من الرجال . والثور : القطعة من الأقط . والثور : الثعلب . وثور : جبل . وثور : قبيلة من العرب .

(١) ذ لسان العرب : فأما بقر وبقر ويقور وبقر وبقر فأما البقر .

وفي الحديث : " وقت البشاء ما لم ينف ثور الشفق " يعني انتشاره ؛ يقال : ثار ثور ثورا وثورانا إذا انتشر في الأثر . وفي الحديث : " من أراد العلم فليثور القرآن " . قال شمر : ثور القرآن قراءته ومناقشة العلماء به .

قوله تعالى : ( قَالُوا اتَّخَذْنَا مُرُوءًا ) . هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم : إن الله يأمركم أن تعبدوا بقرة . وذلك أنهم وجدوا قتيلا بين أظهرهم ؛ قيل : اسمه عاميل ، واشتبه أمر قاتله عليهم ، ووقع بينهم خلاف ؛ فقالوا : قتل رسول الله بين أظهرنا ؛ فاتوه وسأله اليمان - وذلك قبل نزول القسامة في التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله - فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة ، فلما سمعوا ذلك من موسى وليس في ظاهره جواب عما سأله عنه ، واحتكوا فيه عنده ، قالوا : اتخذنا مرؤا ؟ والمزء : اللب والسخرية ؛ وقد تقدم . وقرأ الجحدري اتخذنا بالياء أي قال ذلك بعضهم لبعض ؛ فأجابهم موسى عليه السلام بقوله : ( أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ) . لأن الخروج عن جواب السائل المستند إلى المزؤ جهل . فاستاذمته عليه السلام ، لأنها صفة تنفي عن الأنبياء . والجهل : بقيض السلم . فاستاذم من الجهل كما جهلوا في قولهم : اتخذنا مرؤا لمن يخبرهم عن الله تعالى ؛ وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله . ولا يصح إيمان من قال لشيء قد ظهرت معجزته ، وقال : إن الله يأمرك بكذا . اتخذنا مرؤا ؛ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبي صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة حفظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبي صلى الله عليه وسلم في قصة غاثم حين : إن هذه لقسمه ما أريد بها وجه الله . وكذا قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفي هذا كله أدل دليل على قبح الجهول وأنه مفسد للدين .

قوله تعالى : ( مُرُوءًا ) . مفعول ثان ، ويحوز تخفيف المزة يجعلها بين الواو والمزة . ويجعلها حفص ولوا مفتوحة ، لأنها حمزة مفتوحة قبلها حمزة فهي تجرى على البذل ؛ كقوله : السهاه ولا يجوز حذف الضمة من الواو كما تحذف من عضد فتقول : مُرُوءا كما قرأ أهل الكوفة ؛ وكذلك ( ولم يكن له كفوا أحد ) . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموه فيه لثتان ، التخفيف والتثقل ؛ نحو العسر والعسر والمزء . ومثله ما كان من الجمع على قُل



كُتِبَ وَكُتِبَ، وَرُسِلَ وَرُسِلَ، وَعُورُنَ وَعُورُنَ . وأما قوله تعالى : ( وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُنًّا ) .  
فليس مثل حزنه وكفه، لأنه على فعل من الأصل . على ما يأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

مسئلة : في الآية دليل على منع الاستنزاه بدين الله ، ودين المسلمين ، ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك  
جهل وصاحبه مستحق للعوبد . وليس المزاح من الاستنزاه بسبيل ؛ ألا ترى أن النبي صلى الله عليه  
وسلم كان يمزح والائمة بعده . قال ابن خزيمة متناد : وقد بلغنا أن رجلا خدم إلى عبيد الله بن  
الحسن وهو قاضي الكوفة فزاحه عبيد الله فقال : جئتك هذه من صوف نسيجة أم من صوف كيش ؟  
فقال له : لا تجهل أيها القاضي ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلا ! فلا طبع هذه  
الآية ؛ فأعرض عنه عبيد الله لأنه جاهلا لا يعرف المزاح من الاستنزاه ، وليس أحدهما من  
الآخر بسبيل .

قوله تعالى : ( قَالُوا أَرْعَىٰ لَنَا رَبِّكَ ) . هذا سميت منهم وقعة طواعية ؛ ولو استلوا الأمر  
وذبحوا أي بقرة كانت لحصل المقصود ، لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . قاله ابن عباس  
وأبو العالية وغيرهما . ويحذف روى الحسن البصري عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقعة بن مامر  
أدع وقد خدم . ( ويمن ) . مجزوم على جواب الأمر . ( مامر ) . ابتداء وخبر . وماهية الشيء :  
حقيقته وذاته التي هو عليها .

قوله تعالى : ( قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ظَآئِرُ وَلَا يَذْكُرُونَ مِنْ ذَلِكَ ) . في هذا دليل  
على جواز النسخ قبل وقت الفعل ، لأنه لما أمر بقرة ، اقتضى أي بقرة كانت ؛ فلما زاد في الصفة  
نسخ الحكم الأول بغيره ؛ كما لو قال : في ثلاثين من الإبل بنت نحاس . ثم نسخه بأبنة يكون أوجهة .  
وكذلك ما هنا لما عين الصفة صار ذلك نسخا للحكم المتقدم . والمقارض : المسنة . وقد قرئت  
تخريض فروضا أي أسفت ؛ ويقال للشيء القديم : قارض ؛ قال الرازي :

شَيْبَ أَصْدَانِي فَرَأَيْتُ أَيْضُ . تَحَامِلُ فِيهَا رَجُلٌ قُسْرُ

يَسَى هَرَمَاءُ وَقَالَ آخِرُ .

لمرك قد أعطيت جارك قارضا . تساق إليه ما تقوم على رجل

أى قديمة؛ وقال آخر :

يَا رَبِّ ذِي ضِغْنٍ عَلَى فَارِضٍ • لَهُ قُرُوءٌ صَكَّرُوهُ الْحَائِضُ

أى قديم . ولا فارض ، رفع على الصفة لبقرة . ولا بكر ، عطف . وقيل : لا فارض خبر مبتدأ مضمر؛ أى لا هى فارض ، وكذا لا ذلول ، وكذلك لا نسق الحوث ، وكذلك سامة ، فاعلمه . وقيل : الفارض التى قد ولدت بطونا كثيرة ، فينزع جوفها لذلك ، لأن معنى الفارض فى اللغة الواسع . قاله بعض المتأخرين . والبكر : الصغيرة التى لم تحمل . وحكى الفتي أنهما التى ولدت . والبكر : الأثقل من الأولاد؛ قال :

يَا بَكْرَ بَكْرَيْنِ وَيَا غَلَبَ الْكَبَدِ • أَصْبَحْتَ بَنَى كَدْرَاعٍ مِنْ عَصَدٍ

والبكر أيضا فى إثنائهما وبكى آدم : ما لم يمتعه الفحل ، وهى مكسورة الباء . وفتحها ، الفتى من الإبل . والنَّوَان : النصف التى قد ولدت بطنا أو طين ؛ وهى أقوى ما تكون من الثبر وأحسنه بخلاف الخليل ، قال الشاعر يصف فرسا :

كُنْتُ بَيْعَ الْوَرَنِ لِمَنْ فَارِضٍ • وَلَا يَنْوَانُ ذَاتَ لَوْنٍ مُحْصِفٍ

فرس أخضف إذا ارتفع البقي من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهد : النوان من البقر هى التى قد ولدت مرة بعد مرة . وحكاها أهل اللغة . ويقال : إن النوان النحلة الطويلة . وهى فيما زعموا لغة يمانية . وحرب عوان : إذا كان قبلها حرب بكر ، قال زهير :

إِذَا لَقِيتُ حَرْبَ عَوَانٍ مُبْصِرَةً • ضُرُوسُ ثَوْرِ النَّاسِ أُنْيَابُهَا عُصْلُ

أى لا هى صغيرة ولا هى مسنة أى هى عوان ، وجمها عون بضم العين وسكون الواو ؛ وسمع عون بضم الواو كُرْسُل . وقد تقدم . وحكى الفراء من النوان ، عَوْنٌ تمويها .

قوله تعالى : ( فَاقْتُلُوا مَا كُفَرُوا ) . تجديد للأمر وتأكيده وتوبيه على تزايد التفت ، فأتروا ؛ وهذا يدل على أنه مقتضى الأمر الوجوب كما قوله الفقهاء ، وهو الصحيح ، على ما هو مذكور فى أصول الفقه ، وعلى أن الأمر على الفور ؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استعصم حين لم يأتوا إلى فعل ما أسروا به فقال : ( فَذَبَحُوهُمْ وَمَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ ) . وقيل : لا ، بل على التراخي لاجئ إلى مقتهم على التأخير والمراجعة فى الخطاب . قاله ابن خزيمة متناد .

قوله تعالى : ( قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَا ) . ماء ، استفهام مبتدأ . ولوننا ، الخبر .  
ويجوز نصب لوننا بيبين ، وتكون ما زائدة . واللون واحد الألوان ، وهو هيئة كالسود والابيض  
والحمرة . واللون : النوع . وفلان متلون إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحدة ، قال :

كل يوم تتلون . غير هذا بك أجل

ولون البشر تلونا إذا بدا فيه أثر التنجس . واللون : البقل ، وهو ضرب من النخل . قال  
الأخفش : هو جماعة واحد لينة . قوله : ( صفراء ) . جمهور المفسرين أنها صفراء اللون من الصفرة  
المروقة . قال مكى عن بعضهم : حتى القرن والظلف . وقال الحسن وأبن جبير : كانت صفراء  
القرن والظلف قط . وعن الحسن أيضا صفراء ، معناه سوداء ، قال الشاعر :

تلك خبي منه وتلك بكاي . هن صفر أولادها كثر يرب

قلت : والأول أصح لأنه الظاهر ، وهذا شاذ لا يستعمل مجازا إلا في الإبل ، قال الله تعالى :  
( كَانَتْ بِحَالَةٍ صَفْرًا ) . وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة . ولو أراد السواد لما أكد  
بالفُرع ، وذلك نعت مختص بالصفرة وليس بوصف السواد بذلك ، تقول العرب : أسود حالك  
وحلوك وحلوك ودجوبى وغيره . وأحمر قاني . وأبيض ناصع . وثيق وثاق وثيق . وأخضر  
ناصر . وأصفر فاقع ، هكذا هي قلة اللفظة عن العرب . قال الكسائي : يقال قفع لونها بقفع فقوم  
إذا خلت صفرة . والإنقاع : سوء الحال . وفواقع الدهر : بوائقه . وقفع بأصابعه إذا صوت ؛  
ومنه حديث ابن عباس : سبى عن التفقيع في الصلاة . وهي القرعة ، وهي غمز الأصابع حتى تنقبض ،  
ولم ينصرف صفراء من معرفة ولا نكرة ، لأن فيها ألف التانيث وهي ملازمة تخالفت الماء ، لأن  
ما فيه الهاء ينصرف في النكرة ، كفاطمة وعائشة .

قوله تعالى : ( قَاتِلُوا لُونًا ) . يريد خالصا لونها لا لون فيها سوى لون جلدها . ( نسر  
الناظرين ) . قال وهب : كان شعاع الشمس يخرج من جلدها ، ولهذا قال ابن عباس : الصفرة  
نسر النفس . وحض على ليس التمال الصفر حكاه عنه النقاش . وقال علي بن أبي طالب رضي الله  
عنه : من ليس نعل جلد أصفر قل همه ، لأن الله تعالى يقول : ( صفراء قاتل لونها نسر الناظرين )

(١) التفقيع من الأمور يكون لجمال الإنسان من لسان العرب .

حكاه عنه الثعلبي . ونهى ابن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود؛ لأنها ثيابهم . ومعنى  
تَسْرِعُجِبُ . وقال أبو العالية : معناه في سمنها ومنظرها فهي ذات وصفين والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلِيًّا ﴾ . سألوا سؤالا رابعا ، ولم يتناولوا الأمر بعد البيان ، وذكر  
البقرة لأنه بمعنى الجمع ، ولذلك قال : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلِيًّا ﴾ فذكره للفظ تذكير البقر . قال  
قطرب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر . وقال الأصبغى : الباقر جمع باقرة ، قال : ويجمع بقر على  
باقورة . حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرا الحسن ، فبا ذكر النحاس ،  
والأعرج ، فبا ذكر الثعلبي ، إن البقر تشابه ، بالهاء وشذ الشين ، جملة فعلا مستقبلا وأنته . والأصل  
تشابه ، ثم ادغم التاء في الشين . وقرا مجاهد تشبه كقراءتهما إلا أنه بغير الف . وفي مصحف أبي  
تسابت يشديد الشين . قال أبو حاتم : وهو غلط لأن التاء في هذا الباب لا تدغم إلا في المضارعة .  
وقرا يحيى بن بصر إن الباقر تشابه ، جملة فعلا مستقبلا وذكر البقر وادغم . ويجوز إن البقر تشابه  
بخفض الشين وضم اللام . وحكاها الثعلبي عن الحسن . النحاس : ولا يجوز تشابه بخفض الشين  
والياء ، وإنما جازى اللام لأن الأصل تشابه لحذفت لاجتماع التائين . والبقر والباقر واليقور والبقير  
لغات بمعنى ، والحرب تذكرو وتتشبه وإلى ذلك ترجع معاني القراءات في تشابه . وقيل : إنما  
قالوا : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلِيًّا ﴾ لأن وجوه البقر تشابه ، ومنه حديث حذيفة بن اليمان عن النبي  
صلى الله عليه وسلم أنه ذكر فمنا كقطع الليل تأتي كوجوه البقر . يريد أنها يشبه بعضها بعضا .  
وجوه البقر تشابه ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه عليا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ . استثناء منهم ، وفي استثنائهم في هذا السؤال  
الأنبياء إجابة ما واقعا ، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم  
أنه قال : « لو ما استنوا ما اعتدوا إليها أبدا » . وتفسير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله . فقدم  
على ذكر الاستثناء اعتنا به . وشاء ، في موضع جزم بالشرط ، وجوابه عند سيومه الجملة إن وما عملت  
فيه . وعند أبي العباس اللزوم محذوف .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ ﴾ . قرا الجمهور لا ذلول بالرفع على الصفة لبقرة .  
قال الأخفش : لا ذلول منه ولا يجوز نصبه . وقرا أبو عبد الرحمن السلمي لا ذلول بالنصب على

التي وانظر مضمرة - ويجوز لا هي ذلول ، لا هي نسق الحشر ، هي مسلمة . ومعنى لا ذلول لم يذلها العمل ؛ يقال : بقرة مذلة بئس الذل بكسر القال . ورجل ذليل بين القتل بمصم الذال أى هي بقرة صعبة غير رخصة لم تذل بالعمل .

قوله تعالى : ﴿ يُبْرِ الْأَرْضَ ﴾ - تير ، في موضع رفع على الصفة للبقرة أى هي بقرة لا ذلول مثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحشية ، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تير الأرض ولا تسقى الحشر أى لا تبسقى بها تسقى الزرع ولا يسقى عليها . والوقف ها هنا حسن . وقال قوم : تير فعل مستأنف ، والمعنى إيجاب الحشر لها ، وأنها كانت تحترق ولا تسقى . والوقف على هذا التأويل لا ذلول . والقول الأول أصح لوجهين ، أحدهما ما ذكره النحاس عن علي بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون تير مستأنفا لأن سده ولا تسقى الحشر ، فلو كان مستأنفا لما جمع بين الواو ولا . الثاني : أنها لو كانت تير الأرض لكانت الإشارة قد ذلتها ، والله تعالى قد نهي عنها الذل بقوله : ﴿ لَا ذُلُّ ﴾ .

قلت : ويحتمل أن تكون تير الأرض في غير العمل مرحا ونشاطا ، كما قال أمروء القيس :  
يُجِلُّ وَيُدْرِي تَرَبَهُ وَيُثِيرُهُ • إِثَارَةُ تَبَلِّكِ الْمَوَاجِرِ يُحْيِي

فعل هذا يكون تير مستأنفا ، ولا تسقى مطوف عليه تأمله . وإثارة الأرض : تحريكها ويحثها ، ومنه الحديث : « أثيروا القرآن فانه علم الأولين والآخرين » . وفي رواية أخرى : « من أراد العلم فليثور القرآن » . وقد تقدم . وفي التبريل : ﴿ وَأَثَرُوا الْأَرْضَ ﴾ . أى قلبوها للزراعة . والحشر : ملأه وزرع . وسبأى .

مسئلة - في هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضبط بالصفة وحصر بها جاز السلم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعي والليث والشافعي . وكذلك كل ما ي ضبط بالصفة ، لو صف الله تعالى البقرة في كتابه وصفا يقوم مقام التحين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصف المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها » . إنجسه مسلم ، لمجد صلى الله عليه وسلم الصيغة تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلى الله عليه وسلم دية الخطأ في ذقة من أوجها عليه فيأكل أجل ولم يحلها على الحلل . وهو يرد قول الكوفيين أي حنيفة وأصحابه والتبوي والجنس بن صالح

حيث قالوا : لا يجوز اليلّم في الحيوان . وروى عن ابن مسعود وحذيفة وعبد الرحمن بن سمرّة ،  
لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشى وحركة وكل ذلك يزيد في ثمنه ويرفع من قيمته .  
وسأى حكم السلم وشروطه في آية السورة في آية الدين ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( مُسَلَّمٌ ) . أى هى مسلمة ، ويجوز أن يكون وصفاً أى إنها بقرة مسلمة من  
المرج وسائر البواب . قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مسلمة من العمل لئى الله العمل عنها .  
وقال الحسن : معنى سلمية القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعالى : ( لَا شَيْءَ فِيهَا ) . أى ليس فيها لون يخالف معظم لونها ، هى صفراء كلها لا يبايض  
فيها ولا حمرة ولا سواد ، كما قال : ( قَائِعٌ لَوْنُهَا ) . وأصل شية وشية حذفت الواو كما حذفت  
من بشى ، والأصل يوشى ، ونظيره الزئنة والسيدة والصلّة . والشية مأخوذة من وشى الثوب إذا نسج  
على لوتين غنفلين . وتور موشى : في وجهه وقوائمه سواد . قال ابن عرفة : الشية اللون . ولا يقال  
لمن ثم : وأش حتى يغير الكلام ويؤنه فيجعله ضرباً ويزين منه ما شاء . والوشى : الكثرة .  
ووشى بنو قنلان : كثروا . ويقال : فرس ألقى ، وكبش أخرج ، وتيس أرق ، وغراب أبقع ،  
ونور أشبه . كل ذلك بمعنى البقعة ، هكذا تنص أهل اللغة .

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شددوا فشدد الله عليهم ، ودين الله يسر ، والتعبق في سؤال  
الأنبياء وغيرهم من السماء مذموم ، نسأل الله العافية . وروى في قصص هذه البقرة روايات  
تلخيصها : أن رجلاً من بني إسرائيل ولد له ابن ، وكانت له عجلة فارسلها في غيضة وقال : اللهم  
إني استودعتك هذه العجلة لهذا العصى . ومات الرجل فلما كبر العصى قالت له أمه ، وكان برأياً :  
إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب غنّها ، فذهب فلما رآته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنها -  
وكانت ستوحشة - فجعل يهردها نحو أمه . فلقبه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الأصفة التي  
أمرها بها فساموه فاشتط عليهم . وكان قيمتها على ما روى عن عكرمة ثلاثة دنانير فأتوا به موسى  
عليه السلام وقالوا : إن هذا اشتط علينا ، فقال لهم : أرضوه في ملكه ، فاشترهوا منه بوزنها مرة .  
قالة عبيدة . السدى : بوزنها عشرين دراهم . وقيل : بثلث مئتي دينار . وقد كرمي أن هذه البقرة  
نزلت من السماء ولم تكن تلبس بقر الأرض . قاله أعلم .

قوله تعالى : ( قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ) . أى بَيَّنْتَ الْحَقَّ . قَالَ قَتَادَةُ . وَحَكَى الْأَخْفَشُ : قَالُوا الْآنَ . فَطَعْنَا الْوَصْلَ ؛ كَمَا يُقَالُ : بِاللَّهِ . وَحَكَى وَجْهًا آخَرَ قَالُوا الْآنَ . بِأَيَّاتِ الْوَاوِ . نَفْظُهُ قِرَاءَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَبَى عَمْرٍو عَدَا الْأَوَّلَ . وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ قَالُوا الْآنَ بِالْمُزَمَزَةِ . وَقِرَاءَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالُوا لَا نَ . بِتَخْفِيفِ الْمُزَمَزَةِ مَعَ حَذْفِ الْوَاوِ لِاتِّفَاءِ السَّاكِنِينَ . قَالَ الزَّجَّاجُ : الْآنَ مَبْنِي عَلَى الْفَتْحِ لِخِلَافَتِهِ سَائِرِ مَا فِيهِ الْأَكْفُفُ وَاللَّامُ ، لِأَنَّ الْأَكْفُفَ وَاللَّامَ دَخَلَا لِمَعْرِعِهِ ؛ فَقَوْلُ : أَنْتَ إِلَى الْآنَ هُنَا ، فَلَمُنَى إِلَى هَذَا الْوَقْتِ ، فَبَيَّنْتَ كَمَا جِئَ هَذَا . وَتَحْتَ النَّوْنِ لِاتِّفَاءِ السَّاكِنِينَ . وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا بَيْنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ .

قوله تعالى : ( وَمَا كَانُوا بِمَعْلُومٍ ) . أَجَازَ سَبِيحُوه كَمَا أَنَّ فِعْلَ تَقْسِيمِهَا بِسَى . وَقَدْ تَقَدَّمَ أَوَّلُ السُّورَةِ . وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ تَطْيِيطِهِمْ فِي ذُبْحِهَا وَقَوْلُهُ مِبَادِرَتِهِمْ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ كَسْبٍ : لِمَلَأَ ثَمَنُهَا . وَقِيلَ : خَوْفًا مِنَ الْفَضِيحَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي مَعْرِفَةِ الْقَاتِلِ مِنْهُمْ . قَالَهُ وَهْبُ بْنُ مَنِه .

قوله تعالى : ( وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ) . هَذَا الْكَلَامُ مُقَدَّمٌ عَلَى أَوَّلِ الْقِصَّةِ ، التَّغْدِيرُ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ؛ قَالَ مُوسَى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ بِكُنَا . وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ( اتَّخَذُ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قِيًّا ) . أَيْ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قِيًّا وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ وَقَدْ بَيَّنَّا أَوَّلَ الْقِصَّةِ . وَفِي سَبَبِ قَتْلِهِ قَوْلَانِ ؛ أَحَدُهُمَا لِابْنَةِ لَهُ حَسَنَاءُ أَحَبَّ أَنْ يَتَرُوجَهَا ابْنُ عَمِّهَا فَفَعَلَهُ ؛ وَحَمَلَهُ مِنْ قَرِينَتِهِ إِلَى قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَاتَّقَاهُ هُنَاكَ . وَقِيلَ : أَتَقَاهُ بَيْنَ قَرِينَتَيْنِ . الثَّانِي قَتْلَهُ طَلَبًا لِمِرْيَاتِهِ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ فَقِيرًا وَادَّعى قَتْلَهُ عَلَى بَعْضِ الْأَسْبَاطِ . قَالَ عُرْبَةُ : كَانَ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ مَسْجِدٌ لَهُ اثْنَا عَشَرَ بَابًا لِكُلِّ بَابٍ قَوْمٌ يَدْخُلُونَ مِنْهُ ؛ فَوُجِدُوا قَتِيلًا فِي سَبَطٍ مِنَ الْأَسْبَاطِ فَادَّعى هَؤُلَاءُ عَلَى هَؤُلَاءَ ، وَادَّعى هَؤُلَاءُ عَلَى هَؤُلَاءَ ؛ ثُمَّ اتَّوَا مُوسَى يَخْتَصِمُونَ إِلَيْهِ فَقَالَ : ( إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ) الْآيَةُ . وَمَعْنَى اقَارَاتِهِمْ ؛ اسْتَخْلَفْتُمْ وَتَسَارَعْتُمْ . قَالَهُ بِجَاهِدٍ . وَاصْلَهُ تَدَارَاتِهِمْ ثُمَّ ادَّعَتْ النَّاهُ فِي الْمَالِ ، وَلَا يَجُوزُ الْإِسْتِدَاءُ بِالْمَدْعَى لِأَنَّهُ سَاكِنٌ فَرِيدٌ أَلْفُ الْوَصْلِ . ( وَأَنَّهُ مُخْرَجٌ ) . ابْتِدَاءً وَخَبَرٌ . ( مَا كُنْتُمْ ) . فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ بِمُخْرَجٍ ؛ وَيَجُوزُ حَذْفُ الْتَوَيْنِ عَلَى الْإِضَافَةِ . ( تَكْتُمُونَ ) . جَمْلَةٌ فِي مَوْضِعٍ خَبَرَ كَانَ ، وَالْمَعْنَى مَحْذُوفٌ ؛ التَّغْدِيرُ تَكْتُمُونَهُ .

وعلى القول بأنه قتل طلباً لميراث لم يرث قاتل عمداً من حيث ذنبه عبيد الثاني . قال ابن عباس : قتل هذا الرجل عمه ليرثه . قال ابن عطية : ويقتله ماء شرعاً . وحكى مالك رحمه الله في موطنه أن قصة أحيمة بن الخلاح في عمه حتى كانت سبب ألا يرث قاتل ؛ ثم ثبت ذلك الإسلام كما ثبت كثيراً من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يرث قاتل العمد من البنية ولا من المال . ولا يرث من البنية في قول مالك والأوزاعي وأبي ثور والشافعي لأنه لا يثبت على أنه قتل ليرثه . وأخذ مالك . وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعي في قول له آخر : لا يرث قاتل عمداً ولا خطأ شيئاً من المال ولا من البنية . وهو قول شريح ومالك والشافعي والشافعي . ورواه الشعبي عن عمرو بن زريق قالوا : لا يرث القاتل عمداً ولا خطأ شيئاً . وروى عن مجاهد القولان جميعاً . وقالت طائفة من المصريين : يرث قاتل الخطأ من البنية ومن المال جميعاً . حكاه أبو عمر . وقول مالك اسم على ما يأتي بيانه في آية اللوليت إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( قَتَلُوا نَفْسَهُمْ بِحَيْثُ ) . قيل : بالسان لأنه آلة الكلام . وقيل : بسبب القتل إذ فيه يركب خلق الإنسان . وقيل : بالقتل . وقيل : بمنع من عظامها ؛ والمقتطوع به عضو من أعضائها ؛ فلما ضرب به حتى وأخبر بقائه ثم عاد ميتاً كما كان .

مسألة - استدل مالك رحمه الله في رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول بالقسامة بقول القاتل : دى عند فلان ، أو فلان قتلني . ومنه الشافعي وجهور العلماء قالوا : وهو الصحيح ، لأن قول القاتل : دى عند فلان ، أو فلان قتلني ، خير بحمل المصدق والكتب . ولا خلاف أن دم المدعى عليه معصوم ممنوع بإباحتهم لإباحتهم ، ولا يقين مع الاحتمال ، يبطل اعتبار قول القاتل دى عند فلان . وأما قيل بن إسرائيل فكانت معجزة وأخبر تعالى أنه عبيد ، وذلك يتضمن الإخبار بقائه خيراً جزاً لا يدخله احتمال فاقترنا . قال ابن العربي : المعجزة إنما كانت في إحيائه فلما صار حياً كان كلامه ككلام الناس كاهم في القبيل والولد ، وهذا فن دقيق من العلم لم يخطئ له إلا مالك . وليس في القرآن أنه لنا أسير يجب صدقه ظله أسير بالقسامة معه . واستبعد ذلك البصري والشافعي وجهاً من العلماء فقالوا : كيف يقبل قوله في الدم وهو لا يقبل قوله في دمه .



مسئلة - اختطف العلماء في الحكم بالقسامة فروى عن سالم وأبي قلابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عتيبة التوقف في الحكم بها . وإليه مال البخاري لأنه أتى بتحديث القسامة في غير موضعه . وقال الجمهور : الحكم بالقسامة ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلفوا في كيفية الحكم بها ، فقالت طائفة : يبدأ فيها المدعون بالإيمان فإن حققوا استحقوا ، وإن نكلوا حلف المدعى عليهم خمسين يمينا وبرئوا . وهذا قول أهل المدينة والليث والشافعي وأحمد وأبي ثور . وهو مقتضى حديث حويصة ومجصة خريجه الأئمة مالك وغيره . وذهبت طائفة إلى أنه يبدأ بالإيمان المدعى عليهم فيحلفون ويربون . وروى هذا عن عمر بن الخطاب والشعبي والنخعي ، وبه قال الثوري والكوفيون ، واحتجوا بحديث شعبة بن عبيد عن بشر بن يسار ، وفيه يبدأ بالإيمان المدعى عليهم وهم اليهود ، وبما رواه أبو داود عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود وبدأ بهم : « أتحلف منكم تحون رجلا » . فأبوا فقال للأنصار : « استحقوا » فقالوا : تحلف على النبي يا رسول الله ! بغلها رسول الله صلى الله عليه وسلم دية على يهود ، لأنه وجد بين أظهرهم . ويقول عليه السلام : « ولكن إيمان على المدعى عليه » . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به في الدعاوى التي نبه الشارع على حكمة بقوله عليه السلام : « لو سئل الناس بدعواهم لأدعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن إيمان على المدعى عليه » . رد عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن حبيب بن عبد بن تلبية اليهود وهم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائي وقال : ولم يتابع سعيد على هذه الرواية فيما أعلم ، وقد استدل حديث بشير عن سهل أن النبي صلى الله عليه وسلم بدأ المدعين ، يحيى ابن سعيد وأبى عينة وحمام بن زيد وعبد الوهاب الثقفي وعيسى بن حماد وبشر بن المفضل ، فيؤلاه سبعة وإن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ وهو أصح من حديث سعيد بن عبيد . قال أبو محمد الأصيلي : فلا يجوز أن يتراض بغير واحد على خبر جماعة مع أن سعيد بن عبيد قال في حديثه : فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة من إبل الصدقة والصدقة لا تملى في الذبائح ولا يصلح بها عن غير أهلها . وحديث أبي داود مرسل فلا تراض به الأحاديث الصريحة المتصلة ، وأجابوا عن التسك بالأصل بأن هذا الحكم صل بنفسه لحزمة الفداء . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل اليمين على المدعى وإيمان على المدعى عليه ، والحكم بظاهر ذلك يجب إلا أن ينص

الله في كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم حكما في شيء من الأشياء فيستثنى من جملة هذا الخبر . فما دل عليه الكتاب إلزام القاتل حد المقتول ، إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صنق ماري به المقتول . ونخص من روى زوجه بأن أسقط عنه الحد إذا شهد أربع شهادات . وما خصه السنة حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالقسامة . وقد روى ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «الينة على من أذنى وإيمين على من أنكر إلا في القسامة» . تحريمه البارطقي . وقد احتج مالك لهذه المسئلة في موطنه بما فيه كفاية فأماه هناك .

مسئلة — واختلفوا أيضا في وجوب القسود بالقسامة ، فأوجب طائفة القود بها . وهو قول مالك والليث وأحمد وأبي ثور ، لقوله عليه السلام لمويصة ومحيصة وعبد الرحمن : «اتخلفون وتنتهقون دم صاحبكم» . وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقسامة من بني نضر بن مالك . قال البارطقي : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده صحيحة ، وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصح حديث عمرو بن شعيب ويخرج به . وقال البخاري : رأيت علي بن المديني وأحمد بن حنبل والحيمدي وإسحاق بن راهويه يحتجون به ؛ قاله البارطقي في البين . وقالت طائفة : لا تؤد بالقسامة ، وإنما توجب الذية . روى هذا عن عمرو بن عباس ؛ وهو قول النخعي والحسن وإليه ذهب الثوري والكوفيون والشافعي وإسحاق ، واحتجوا بما رواه مالك عن ابن أبي ليل عن عبد الله عن سهل بن أبي حنمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله لأتصار : «إما أن يدوا صاحبكم وإما يؤذوا بحسب» . قالوا : وهذا يدل على الذية لا على القود ، قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : «وتنتهقون دم صاحبكم» ذية دم قتلكم . لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم ؛ ومن استحق ذية صاحبه فقد استحق دمه ؛ لأن الذية قد تؤخذ في العمد فيكون ذلك استحقاقا للدم .

مسئلة — الموجب للقسامة القوُّ ولا بد منه ، والقوُّ : إمارة تطلب على الظن صدق مدعى القتل كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل ، أو يرى المقتول يتشط في دمه ، والمتمم نحوه . أو قربه عليه آثار القتل . وقد اختلف في القوُّ والقول به ؛ فقال مالك : هو قول المقتول دى عدد فلان ، والشاهد العدل لو شئ . كذا في رواية ابن القاسم عنه . وروى أشهب عن مالك أنه يقسم

مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى ابن وهب أن شهادة النساء لوث . وذكر محمد عن ابن القاسم أن شهادة المراتين لوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضي أبو بكر بن العربي : اختلف في اللوث اختلافا كثيرا ، مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحب إلى . قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبد الحكم . وروى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب إذا قال : دى عند فلان ومات كانت القسمة . وبه قال مالك والليث بن سعد . واحتج مالك بتبيل بن إسرائيل أنه قال : قتل فلان . وقال الشافعي : اللوث الشاهد العدل ، أو يأتي بيته وإن لم يكونوا عدولا . وأوجب الثوري والكوفيون القسمة بوجود القاتل فقط ، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ؛ قالوا : إذا وجد قاتل في محلة قوم وبه أثر ، حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عقله عليهم ؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شيء إلا أن تقوم اليثة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أجمع عليه عندنا ، وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم ، ولا سلف لهم فيه ، وهو مخالف للقرآن والسنة ، ولأن فيه إلزام العاقلة مالا ينبغي ثبوت عليهم ولا إقرار منهم . وذهب مالك والشافعي إلى أن القاتل إذا وجد في محلة قوم أنه هدر ، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا ؛ لأن القاتل قد يقتل ثم يلقي على باب قوم ليطغوا به ؛ فلا يؤخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التي شرطوها في وجوب القسمة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مسئلة — قال القاسم بن مسعدة : قلت للشافعي لا يقول مالك القسمة إلا باللوث ، فلم أورد حديث القسمة ولا لوث فيه ؟ قال الشافعي : أنزل مالك المدواة التي كانت بينهم وبين اليهود بمثلة اللوث ، وأنزل اللوث أو قول الملبت بمثلة المدواة . قال ابن أبي زيد : وأصل هذا في قصة بني إسرائيل حين أحيا الله الذي ضرب بعض البقرة فقال : قتل فلان ؛ وإن المدواة لوث . قال الشافعي : ولا نرى قول المقتول لو تآكلت لحمه . قال الشافعي : إذا كان بين قوم وقوم مدواة ظاهرة كالمدواة التي كانت بين الأنصار واليهود ، ووجد قاتل في أحد الفريقين ولا يتألفهم فغيرهم وجبت القسمة فيه .

مسئلة - واختلوا في القتل يوجد في الحلة التي أكرها أربابها ؛ قال أصحاب الرأي : هو على أهل الحلة وليس على السكان شيء ، فان باعوا دورهم ثم وجد قتل فالدية على المشتري وليس على السكان شيء ، وإن كان أرباب الدور غيبا وقد أكرها دورهم بالقسامة والدية على أرباب الدور الغيب وليس على السكان الذي وجد القتل بين أظهرهم شيء . ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدية على السكان في الدور . وحكى هذا القول عن ابن أبي ليلى واحتج بأن أهل خير كانوا عمالا سكانا يعملون فوجد القتل فيهم . قال الثوري : ونحن قول هو على أصحاب الأصل يعني أهل الدور . وقال أحد : القول قول ابن أبي ليلى في القسامة لا في الدية . وقال الشافعي : وذلك كله سواء ، ولا عقل ولا قود إلاينة قوم ، أو ما يوجب القسامة فيقسم الأولياء . قال ابن المنذر : وهذا أصح .

مسئلة - ولا يحلف في القسامة أقل من خمسين يمينا ، لقوله عليه السلام في حديث حُوصَة وَحُصَيْمَة : « يقسم خمسون منكم على رجل منهم » . فإن كان المستحقون خمسين حلف بكل واحد منهم يمينا واحدة ، فإن كانوا أقل من ذلك أو نكل منهم من لا يجوز غفوه زدت الأيمان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف في العمد أقل من اثنين من الرجال ، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء . يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأولياء من المصيبة خمسين يمينا . هذا مذهب مالك والليث والثوري والأوزاعي وأحمد وداود . وروى مطرّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدعى عليه أحد ويحلف هم أنفسهم كما لو كانوا واحدا فأكثر خمسين يمينا يبرئون بها أنفسهم . وهو قول الشافعي . قال الشافعي : لا يقسم إلا وارث كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له الملك لنفسه أو من جعل الله له الملك من الورثة ؛ والورثة يقسمون على قدر موارثهم . وبه قال أبو ثور واختاره ابن المنذر وهو الصحيح ، لأن من لم يدع عليه لم يكن له سب يتوجه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يدع عليه برئ . وقال مالك : في الخطأ يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء فهما كلت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحائلف مبرأته ، ومن نكل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب مبرأته . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد روى عنه أنه لا يرى في الخطأ قسامة .

وتقيم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور في كتب الفقه والخلاف ، وفيما ذكرنا كتابه والله الموفق .

مسألة - في قصة البقرة هذه دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا ، وقال به طوائف من المتكلمين ، وقوم من الفقهاء ، واختاره الكرجي ونص عليه ابن بكير القاضي من علمائنا ، وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : هو الذي تقتضيه أصول مالك ومنازعه في كتبه ، وإليه ميل الشافعي ، وقد قال الله : ( فَيَهْدِلُمْ أَقْدِمَهُ ) على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لُغَتَهُ لِقَوْمٍ يُعْلَمُونَ ) . أي كما أحيا هذا بعد موته كذلك يبيح كل من مات . فالكتاب في موضع نصب لأنه نصت لمصدر عنف . ( وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ) . أي علاماته وقدرته . ( لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ) كي تعلموا . وقد تقدم . أي تمتعون من عصيانه . وعظمت نفسي عن كنا : أي منتهيا منه . والمعاقل : الحصون .

قوله تعالى : ( ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ) . القسوة : الصلابة والشدّة والبس . وهي عبارة عن خلوها من الإجابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما : المراد قلوب جميع بني إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القليل لأنهم حين حيي وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله وقالوا : كذب . بعد ما رأوا هذه الآية العظمى فلم يكونوا قط أعمى قلبا ، ولا أشد تكديبا لنبيهم ، منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذي عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكفروا الكلام بنير ذكرا أنه فإن كثرة الكلام بنير ذكرا أنه قسوة القلب للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي " . وفي سند البراز عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جود العين وقسوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " .

قوله تعالى : ( قَبِيحَ كَالِجَبَّارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ) . أو ، قيل : هي بمعنى الواو كما قال : ( أَيُّهَا لَوْ كَفَرُوا ) . ( عُدُوًّا لَوْ تَدْرَأُ ) . وقال الشاعر :

• قال الخليلانة أو كانت له قدرا •

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى يل كقولہ تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ .  
المعنى يل يزيدون . وقال الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس فى روثق الضحى • وصورتها أو أنت فى السين ألمح  
أى بل أنت . وقيل : معناها الإيهام على المخاطب ، ومنه قوله أبى الأسود البزلى :

أحب محمدا جاشديدا • وعباسا وحمة أو عليا  
فإن يك جهم رشدا أصبه • ولست بتخطئ إن كان غيا

ولم يشك أبى الأسود أن جهم رشد ظاهر وإنما قصد الإيهام . وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك :  
شككت ! قال : كلا ؛ ثم استشهد بقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .  
وقال : أو كان شاكاً من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير أى شبهوها بالمجارة تصيبوا أو بأشد من  
المجارة تصيبوا ؛ وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وتعلم الفقه أو الحديث . وقيل :  
بل هى على بابها من الشك ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم  
أى كالمجارة أو أشد من المجارة ؟ وقد قيل هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ .  
وقالت فرقة : إنما أراد الله تعالى أن فيهم من قلبه كالخجر ، وفيهم من قلبه أشد من الحجر . فالمعنى  
هم فرقان .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَشَدُّ ﴾ . أشد مرفوع بالمطف على موضع الكاف فى قوله : ﴿ كَالْمِجَارَةِ ﴾ .  
لأن المعنى فهى مثل المجارة أو أشد ؛ ويجوز أو أشد بالفتح عطف على المحارة . و ﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب  
على التمييز . وقرأ أبو حيوة قساوة والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّ مِنَ الْمِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنِّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُوقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَمَّا ﴾ .  
قد تقدم معنى الانفجار . ويشق أصله يشقق أدغمت التاء فى الشين ؛ وهذه عبارة عن الميون  
التي لم تنظم حتى تكون أنهارا ، أو عن المجارة التي تشقق وإن لم يخرج ماء مفسح . وقرأ ابن مسرف  
يشقق بالنون ، وقرأ لَمَّا يَتَفَجَّرُ ، لَمَّا يَشْقُوقُ ، بتشديد الميم فى الموضعين . وهى قراءة غير متبعة ،  
وقرأ مالك بن دينار يتفجر بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : مذر المجارة ولم يفسد شق بنى آدم .  
قال أبو نعيم : يجوز لَمَّا يَتَفَجَّرُ بالناء ، ولا يجوز لَمَّا يَشْقُوقُ بالناء لأنه إذا قال يتفجر أشبه بتأنيث

الأنهار؛ وهذا لا يكون في تشقق . قال النحاس : يجوز ما أنكره على المعنى ، لأن المعنى وإن  
 منها المجارة لتشقق؛ وأما يتقق فمحصول على لفظ ما . والشق واحد الشقوق؛ فهو في الأصل مصدر  
 تقول : بيد فلان ورجليه شقوق، ولا تقل : شقاق؛ إنما الشقاق دله يكون بالدواب، وهو تشقق  
 يصيب أرساغها وربما ارتفع إلى وظيفها . عن يعقوب . والشق : الصبح . وباء، في قوله : ﴿لَمَّا  
 يَتَجَرَّجُونَ﴾ . في موضع نصب لأنها اسم إن، واللام للتأكيد . منه على لفظ ما، ويجوز منها على المعنى؛  
 وكذلك ﴿وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَتَقَوُّنَ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ﴾ . وقرا قتادة وإن في الموصفين خففة من  
 التثنية .

قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَتَقَوُّنَ خَشْيَةَ اللَّهِ﴾ . يقول : إن من المجارة ما هو أضع من  
 قلوبكم لخروج الماء منها وتردّها . قال مجاهد : ما تردى حجر من رأس جبل، ولا تفجر نهر من حجر،  
 ولا يخرج منه ماء إلا من خشية الله؛ تزل بذلك القرآن . ومثله عن ابن جريح . وقال بعض المتكلمين  
 في قوله : ﴿وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَتَقَوُّنَ خَشْيَةَ اللَّهِ﴾ : البرد المهابط من السحاب . وقيل : لفظة  
 المبطوط مجاز؛ وذلك أن المجارة لما كانت القلوب تمتلئ بحلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع  
 الناظر إليها كما قالت العرب : ناقة تاجرة : أى تبعث من راحا على شرائها . وحكى الطبري عن فرقة  
 أن انخسبة للجماعة مستمارة كما استعيرت الإرادة للجمادى في قوله : ﴿رُبُّدُّ أَنْ يَقْضَى﴾ . وكما قال  
 زيد الجبل :

لما أتى حبر الزير تواضعت • سواد المدينة والجبال الخشع

وذكر ابن بحر أن الضمير في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ مِنْهَا﴾ راجع إلى القلوب لا إلى المجارة أى من  
 القلوب لما ينحصر من خشية الله .

قلت : كل ما قبل يحتمله اللفظ، والأوّل صحيح فإنه لا يتعقّب أن يعطى بعض الجملادات المعرفة  
 فيمقل، كالذى روى عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب،  
 فلما انحزل عنه حتى . وثبت عنه أنه قال : «إن همرا كان يسلم على في الجاهلية إلى لأعرافه الآن» .

وكما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قل لى شير لعبط لآلى أخلف أن يقتلوك على ظهركم ، فيعذبني الله » . فناداه جبراء إلى يا رسول الله . وفي التبريل : ( إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ) الآية . وقال : ( لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَائِشًا مُّتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ) . يعنى تنفلا وخضوعا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى [سورة] سبحان ؛ إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( وَمَا أَفْعَلُ بِقَائِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) . بنافل فى موضع نصب على لغة أهل الججاز ، وعلى لغة تميم فى موضع رفع . والباء توكيد . ( عَمَّا تَعْمَلُونَ ) . أى عن عملكم حتى لا ينادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيا عليكم . ( فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ) . ولا يحتاج ما الى عائد إلا أن يحلها بمعنى الذى فيحذف للعائد لطول الاسم أى عن الذى تعملونه . وقرأ ابن كثير يعملون بالياء ؛ والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام .

قوله تعالى : ( أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ) الى قوله : ( وَهُمْ يَكْفُرُونَ ) . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ) . هذا استفهام فيه معنى الإنكار ، كأنه يأمرهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود ، أى إن كفروا فلهم سابقة فى ذلك . والخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للئلف والحوار الذى كان بينهم . وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، عن ابن عباس ، أى لا تحزن على تكذيبهم اياك ، وأخبره عن أهل السوء الذين مضوا ، وأن فى موضع نصب ، أى فى أن يؤمنوا ؛ نصب بأن ؛ ولأنك حذفته منه التو .

يقال : طمِع فى طعاما وطعامية مخفف فهو طعيم ، على وزن قيل . وأطعمه فيه غيره . ويقال فى التنجب : طمِع الرجل بضم الميم ، أى صار كثير الطمع . والطمع : رزق الجند ؛ يقال : أمر لم الأمير بالطعامهم ، أى بأرزاقهم . وامرأة مطاع ؛ طمِع ولا تمكُن .



الثانية - قوله تعالى : ( وَقَدْ كَانَ قَرِيْبٌ مِنْهُمْ ) . القريب اسم جمع لا واحده من لفظ ، وجمعه في أدنى السدد أفرقة ، وفي الكثير أفرقاء . ( يَسْمَعُونَ ) . في موضع نصب خبر كان ، ويجوز أن يكون الخبر منهم ، ويكون يسمعون نعتا لقريب ؛ وفيه بعد ( كَلَامَ اللَّهِ ) قراءة الجماعة ، وقراء الأعمش كَلَّمَ الله على جمع كلمة . قال سيبويه : وأعلم أن ناسا من ربيعة يقولون منهم بكسر الميم إثباتا لكسرة اللام ، ولم يكن المسكن حاجزا حصينا عندهم . ( كَلَامَ اللَّهِ ) . مفعول يسمعون . والمراد السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام ، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره ، وحزنوا القول في إخبارهم لقومهم . هنا قول الريح وابن اسحاق ، وفي هذا القول ضعف ؛ ومن قال : إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ وأذهب بفضيلة موسى واختصاصه بالكلم . وقد قال السدي وغيره : لم يطيعوا سماعه ، واختلطت أذنهم ورجعوا

أن يكون موسى يسمع ويخبرهم ، فلما فرغوا وخرجوا بذلك طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيهم موسى عليه السلام ؛ كما قال تعالى : ( وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ )

فإن قيل : فقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن قوم موسى سألوا موسى أن يسأل ربه أن يسمعهم كلامه فسمعوا صوتا كصوت الشجر<sup>(١)</sup> " إني أنا الله لا إله إلا أنا الحي القيوم أخرجكم من مصر بيد ربيعة وذراع شديدة " .

قلت : هذا حديث باطل لا يصح ، رواه ابن مروان عن الكلبي وكلامه ضعيف لا يخرج به ؛ وإنما الكلام شيء يخص به موسى من بين جميع ولد آدم ، فإن كان نتم قومه أيضا حتى اسمهم كلامه فما فضل موسى عليهم ؛ وقد قال وفيه الحق : ( إِنْ أَصْطَفَيْتَ عَلَى النَّاسِ رِيسَالَيْنِ وَبِكَلَامِي ) . وهذا واضح .

الثالثة - واختلف الناس بماذا عرف موسى كلام الله ولم يكن سمع قبل ذلك خطابه؛ ففهم من قال: إنه سمع كلاما ليس بمجروف وأصوات، وليس فيه قطع ولا نفس؛ فيعتقد علم أن ذلك ليس هو كلام البشر وإنما هو كلام رب العالمين. وقال آخرون: إنه لما سمع كلاما لا من جهة؛ وكلام البشر يسمع من جهة من الجهات الست، علم أنه ليس من كلام البشر. وقيل: إنه صار جسده كله مسامع حتى سمع بذلك الكلام؛ فلم أنه كلام الله. وقيل: إن المعجزة دلت على أن ما سمعه هو كلام الله، وذلك أنه قيل له: ألقى عصاك، فألقاها فصارت ثيابا؛ فكان ذلك علامة له على صدق الحال، وأن الذي يقول له: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾. هو الله جل وعز. وقيل: إنه قد كان أضمر في نفسه شيئا لا يقف عليه إلا علام الغيوب فأخبره الله تعالى في خطابه بذلك الضمير؛ فلم أن الذي يخاطبه هو الله جل وعز. وسيأتي في سورة القصص بيان معنى قوله تعالى: ﴿يُودِيْنَ شَايِلِي الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾. إن شاء الله تعالى.

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعْرِضُكُمْ ﴾ . قال مجاهد والسدى : هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما اتباعا لأهوائهم . ﴿ بَيْنَ يَدَيْ مَا عَقِلُوا ﴾ . أى عرفوه وعلموه ، وهذا توخي لم أى أن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أناعيل سوء وعناد ، فهؤلاء على ذلك السنن فكيف ظعنون في إيمانهم !

ودل هذا الكلام أيضا على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد من الرشد ، لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينه ذلك عن عتاده .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا﴾ . هذا في المتقين؛ وأصل لقوا، لقوا  
قد تقدم . ﴿وَإِذَا خَلَا بِمَعْشُرٍ إِلَى بَعْضٍ﴾ . الآية في اليهود، وذلك أن ناسهم آمنوا

ثم اتقوا؛ فكانوا يحذثون المؤمنين من العرب بما عذب به آبائهم ، فقالت لهم اليهود : **( اَلْعَدُوَّةُ بَيْنَهُمْ يَآ فَرِحَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ )** . أى حكم الله عليكم من العذاب ليقولوا نحن أكرم على الله منكم . عن ابن عباس والسدى ، وقيل : إن علياً لما نازل قُرَيْظَةَ يوم خيبر سمع سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف إليه ، وقال يا رسول الله : لا تبلغ إليهم وعرض له ؛ فقال : أظنك سمعت شتى منهم لو راووني لكفؤوا عن ذلك ؛ ونهض إليهم فلما راوه أسكوا ؛ فقال لهم : نقضتم العهد يا أخوة القردة والخنازير ، أنزلكم الله وأنزل بكم نقضته ! فقالوا : ما كنت جاهلاً بأحد فلا تجهل علينا ، من حدثك بهذا ؟ ما نخرج هذا الخبر إلا من عندنا ؛ روى هذا المعنى عن مجاهد .

قوله تعالى : **( وَإِنَّا خَلَأْ )** . الأصل في خلا ، خَلَوْتُ لَبْتُ الْوَأَوَّلَا لِحَرْكَمَا وَانْفِتَاحَ مَا قَبْلَهَا ؛ وَتَقَدَّمَ مَعْنَى خَلَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ . ومعنى فتح : حكم . والفتح عند العرب : القضاء والحكم ؛ ومنه قوله تعالى : **( رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ )** . أى الحاكمين . والفتح : التناضى بلغة اليمن ؛ يقال : بنى وبينك الفتح . قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم . والفتح : النصر ؛ ومنه قوله : **( يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا )** . وقوله : **( إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ )** . ويكون بمعنى الفرق بين الشقيين .

قوله تعالى : **( لِيُجَاهِدُكُمْ )** . نصب يلام كي ، وإن شئت بإضمار أن ، وعلامة النصب حذف النون . قال يونس : واس من العرب يفتحون لام كي . قال الأخفش : لأن الفتح الأصل . قال خلف الأحمر : هي لغة بني الصير . ومعنى ليجاهدكم ليعيروكم ويقولوا نحن أكرم على الله منكم . وقيل : المعنى ليحتجوا عليكم بقولكم ؛ يقولون كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه . وقيل : إن الرجل من اليهود كان يلقي حديثه من المسلمين فيقول له : تمسك بدين محمد فإنه نبي حقا . **( عِنْدَ رَبِّكُمْ )** . قيل في الآخرة كما قال : **( ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ )**

تَحْيِصُونَ) . وقيل : عند ذكر ربهم . وقيل : عند بمعنى في أى ليحكمكم به في ربكم ؛  
فيكونوا الحق به منكم لظهور الحجية عليكم . روى عن الحسن . والحجة الكلام المستقيم على الإطلاق ؛  
ومن ذلك حجة الطريق . وما جئت فلا فجيته أى ظلمته بالحجة ؛ ومنه الحديث : "نفع  
آدم موسى" . (أَلَّا تَعْلَمُونَ) . قيل : هو من قول الأخبار الاتباع . وقيل : هو خطاب  
من الله تعالى المؤمنين على أن لا تعلمون الله بنى إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال ؛ ثم وبخهم  
توحياتى فقال : (أَلَّا يَسْمَعُونَ) الآية . فهو استفهام معناه التوبيخ والتفريع . وقرأ  
الجمهور يسمعون بالياء ؛ وابن محيصن بالناء ؛ خطابا للمؤمنين . والذى أسروهم كفروهم ؛ والذي  
أظهروه الجحد به .

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ إِلَّا أَصْوَاهُ) . فيه أربع مسائل :  
الأولى - قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ) . أى من اليهود . وقيل : من اليهود والمنافقين  
أُمِّيُونَ ، أى من لا يكتب ولا يقرأ ؛ وأصلهم أُمِّيٌّ منسوب إلى الأُمّة الأُمِّيّة التى هى على أصل  
ولا دلت أمهاتها لم تسلم الكتابة ولا قراعتها ؛ ومنه قوله عليه السلام : "إنا أمة أميّة لا نكتب  
ولا نحسب الحساب" . وقيل : قيل لم أميون لأنهم لم يصنفوا بأم الكتاب . عن  
ابن عباس . وقال أبو عبيدة : إنما قيل لم أميون لقول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا إلى  
لم الكتاب ؛ فكانه قال : ومنهم أهل الكتاب لا يسمعون . عكرمة والضحاك : هم نصارى  
العرب . وقيل : هم قوم من أهل الكتاب رفع عليهم فنوب ارتكبوها فصاروا أُمِّيِينَ . عن  
رضي الله عنه : هم الجورس .

قلت : والقول الأول أظهر ؛ والله أعلم .

الثانية - قوله تعالى : (لَا يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ إِلَّا أَمَانًا) . إلا ههنا بمعنى لكن ؛ فهو  
استثناء مقطوع كقوله تعالى : (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ) . وقال الثانية :

حلفت يميناً غير ذى مشيئة • ولا علم إلا حسن ظن بصاحب  
وقرأ أبو جعفر وشية والأعرج إلا أمانى خفيفة الياء؛ حذفوا إحدى الياءين استخفافاً •  
قال أبو حاتم : كل ما جاء من هذا النحو واحده مشددة فك فيه التشديد والتخفيف؛ مثل  
أنا فى وأمانى وأمانى ونحوه • وقال الأخفش : هذا كما يقال فى جمع مفتاح : مفاتيح ومفاح  
ومى ياء الجمع • قال النحاس : الحذف فى الممثل أكثر؛ كما قال الشاعر :

ومل يرجع التسليم أويكشف العسى • ثلاث الأمانى والرسمو البلاغ  
والأمانى جمع أمانة ومى الثلاثة ؛ وأصلها أُنُوِيَّة على وزن أفعولة فادغمت الواو فى الياء  
فانكسرت التون من أجل الياء فصارت أمانة؛ ومنه قوله تعالى : ( إِنْ أَرَادْنَا نُنَزِّلَ السَّيِّدَانِ )  
فى أُنَيْنِي • أى إذا علا إلى الشيطان فى تلاوته • وقال كعب بن مالك :

نننى كلب الله أول إليه • وكثره لأنى حيام المقادير

وقال آخر :

نننى كلب الله أتر إليه • ننى داود الزبور على رسل

والأمانى أيضاً الأكلذيب؛ ومنه قول عثمان رضى الله عنه : ما تميت منذ أسلت • أى  
ما كذبت • وقول بعض العرب لا بن دأب وهو يموت : أهدأ شئ رويته أم شئ تميتته؟  
أى انتصته • وبهذا المعنى فسر ابن عباس وعلمه أمانى فى الآية • والأمانى أيضاً ما يمناه  
الإنسان ويستسيه • قال قتادة : إلا أمانى يعنى أنهم يمتنون على الله ما ليس لهم • وقيل :  
الأمانى المقدرات؛ يقال : منى له أى قدره • قاله الجوهري ، وحكاه ابن عمر وأشد قول الشاعر :

لا تأسن وإن أسيت فى حرم • حتى تلاق ما يمتنى لك الماني

أى يقتدر لك المقدر •

الثالثة - قوله تعالى : ( وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ) . إن بمعنى ما النافية ؛ كما قال تعالى  
 ( إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ) : ويظنون ، يكذبون ويحدثون ، لأنه لا علم لهم بصحة  
 ما يتلون وإنما هم مقلدون لأخبارهم فيما يقرءون به .

قال أبو بكر الانباري : وقد حدثنا أحمد ابن يحيى النحوي أن العرب تجعل الظن علما  
 وشكا وكذبا ، وقال : إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظن يقين ،  
 وإذا اعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك فالظن شك ، وإذا زادت براهين الشك على براهين  
 اليقين فالظن كذب . قال الله عز وجل : ( وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ) . أراد إلا يكذبون .

الرامة - قال علماؤنا رحمة الله عليهم : نعت الله تعالى أخبارهم بأنهم يبدلون ويغرفون  
 فقال وقوله الحق : ( قَوْلٍ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ ) الآية . وذلك أنه لما درس  
 الأمر فيهم ، وساعت رعية علمائهم ، وأقبلوا على الدنيا حرصا وطمعا ، طلبوا أشياء تصرف وجوه  
 الناس اليهم ، فأحدثوا في شريعتهم وبدلوها ، وألحقوا ذلك بالثورة ، وقالوا لفسادهم : هذا من  
 عند الله ؛ ليقبلوها منهم فتأكد رئاستهم وبنالوا به حطام الدنيا وأوساخها ؛ وكان مما أحدثوا  
 فيه أن قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل . وهم العرب ؛ أي ما أخذنا من أموالهم فهو حل لنا .  
 وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : لا يضرب ذنب فتنة أحبارنا وأبنائنا . تعالى الله عن ذلك .  
 وإنما كان في الثورة " يا أخباري ويا أبناء رسل " فغفروهم وكتبوا " يا أحبابي ويا أبنائي " فآثرل  
 الله تكذيبهم : ( وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ) .  
 فقالت : لن يعذبنا الله ، وإن عذبنا فاربعين يوما مقدار أيام العجل . فآثرل الله تعالى :  
 ( وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَنْأَنَا مَعْدُودَةٌ قُلْ أَتَعَذَّبُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ) . قال ابن مقسم : معنى  
 توحيدا بدليل قوله تعالى : ( إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ) يعني لا إله إلا الله ( لَنْ يُخْلِفَ  
 اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ هَوَّلَوْكُمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) . ثم أكلهم فقال : ( بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً  
 وَأَسَاطَتْ فِي خَيْطِئِهِ قَافِلَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٠﴾ . فَيَنْ تَعَالَى أَنْ الْخُلُودَ فِي النَّارِ وَالْجَنَّةِ إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ  
الكفر والإيمان لا بما قالوه .

قوله تعالى : ﴿ قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿ قَوْلُ ﴾ (١) . اختلف في الويل ما هو ؛ فروى عثمان بن عفان عن النبي  
صلى الله عليه وسلم أنه جبل من نار . وروى أبو سعيد الخدري أن الويل واد في جهنم بين  
جليلين يهوى فيه الهاوى أربعين خرقاً . وروى سفيان وعطاء بن يسار : أن الويل في هذه  
الآية واد يمرى بفناء جهنم من صديد أهل النار . وقيل : صهرج في جهنم . وحكى  
الزهراوى عن آخرين : أنه باب من أبواب جهنم .

وعن ابن عباس : الويل المشقة من العذاب .

وقال الخليل : الويل شقة الحز . الأصمى : الويل تضعج . والوج زحم . سيويه :  
ويل لمن وقع في الملكة ، ووج زجر لمن أشرف على الملكة . ابن حرفة : الويل الحزن ؛  
يقال : ويل الرجل إذا دعا بالويل ؛ وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكره ؛ ومنه قوله :  
﴿ قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ . وقيل : أصله الملكة ، وكل من وقع في ملكة دعا  
بالويل ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا مَا لَنَا هَذَا الْكِتَابِ ﴾ . وهى الويل والويله ، وهما الملكة  
والجمع الويلات ؛ قال :

• له الويل إن أمسى ولا أم هانم •

وقال أيضاً :

• فقالت لك الويلات إنك مرجلي •

وارضع ويل بالابتداء ، وجاز الابتداء به وإن كان تكراراً لأن فيه معنى الدعاء . قال  
الأخفش : ويجوز التصب على إضمار فعل أى ألزمهم الله ويلاً . وقال التراء : الأصل  
في الويل وى أى حزن ؛ كما تقول : وى لفلان أى حزن له ؛ فوصلته العرب باللام وقصروها

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط : لوح في صخر الويل شيء من رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول المسيح  
إليه . تكلمت العرب في تلويها وترها بقول الويل قبل أن يحمي القرآن ولم تكتبه على شيء من هذه التفسير وإنما  
مدله ما قرره به أهل اللغة .

منه فأعربوها . والأحسن فيه إذا فصل عن الإضافة الرفع ، لأنه يقتضى الوقوع ؛ ويصح  
النصب على معنى الدعاء كما ذكرنا .

قال الخليل : ولم يسمع على بناءه إلا ووح وويس وويه وويك وويب ؛ وكله يتقارب  
في المعنى . وقد فرق بينها قوم ؛ وهى مصادر لم تنطق العرب منها بفعل . قال الجرى :  
ومما ينصب انتصاب المصادر ويله وعوله ويوحه وويسه ، فإنا أدخلت اللام رفعت  
قلت : ويل له وويح له .

الثانية - قوله تعالى : ( الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ) . الكتابة معروفة .

وأول من كتب بالقلم وخط به إدريس عليه السلام جاء ذلك في حديث أبي ذر نزيه  
الآجري وغيره . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أعطى الخط فصار وراثته في ولده .

الثالثة - قوله تعالى ( بِأَيْدِيهِمْ ) . تأكيد ؛ فإنه قد علم أن الكتب لا يكون إلا باليد  
فهو مثل قوله : ( وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ) . وقوله : ( يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ) . وقيل : فائدة  
بأيديهم بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم ، فإن من تولى الفعل أشد موافقة ممن لم يتوله وإن  
كان رأيا له . وقال ابن السراج : بأيديهم كناية عن أنه من تلقائهم دون أن يتل عليهم وإن  
لم تكن حقيقة من كتب أيديهم .

الرابعة - في هذه الآية والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع ؛  
فكل من بدل وغير أو ابتدع في دين ما ليس منه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هذا  
الوعيد الشديد ، والذئاب الأكل ؛ وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته لما قد علم  
ما يكون في آخر الزمان قال : « ألا إني من قبلكم من أهل الكتاب اقرءوا على اثنين وسبعين  
ملة وإن هذه الأمة مستقرقة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » الحديث  
وسباني . فحذرهم أن يحدثوا من بعدهم أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله أو سنته أو سنة  
أصحابه فيضلوا به الناس ؛ وقد وقع ما حذره وشاع ، وكثر ذراع ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الخامسة - قوله تعالى : ( لَنَشْرَبَنَّهُ نَمَّا قَلِيلًا ) . وصف الله تعالى ما يأخذونه بالقلة  
إما لقلته وعدم ثباته ، وإما لكونه حراما ، لأن الحرام لا يركب فيه ، ولا يربو عند الله . قال



ابن إسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلهم ربة أسمر، بملوه آدم سبطا طويلا وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبي صلى الله عليه وسلم الذي يبعث في آخر الزمان ليس يشبه نعت هذا . وكانت للأخبار والعلماء رئاسة ومكاسب ؛ غافوا إن ينو أن تذهب ما كلهم ورثتهم ؛ فمن ثم غيروا .

ثم قال تعالى : ( قَوْلٌ لَّهِمَّ مِمَّا كُنْتُمْ آيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهِمَّ مِمَّا يَكْسِبُونَ ) . قيل من الماكل . وقيل من المعاصي . وكرر الويل تليظا لعلهم .

قوله تعالى : ( وَقَالُوا لَنْ نَحْمِلَهُنَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ) الآية . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَقَالُوا ) . يعنى اليهود . ( لَنْ نَحْمِلَهُنَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ) . اختلف في سبب نزولها ؛ قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود : « من أهل النار » . قالوا : نحن ثم تحققتنا أتم . فقال : « كذبتهم فقد علمتم أنا لا نختلفكم » . فنزلت هذه الآية . قاله ابن زيد . وقال عكرمة عن ابن عباس : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ويهود يقول : إنما هذه الدنيا سبعة آلاف وإنما يذهب الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة ، وإنما هي سبعة أيام . فانزل الله الآية ، وهذا قول مجاهد . وقالت طائفة : قالت اليهود إن في التوراة أن جهنم مسيرة أربعين سنة وأنهم يقطعون في كل يوم سنة حتى يكلوها وتذهب جهنم . ورواه الضحاك عن ابن عباس . وعن ابن عباس : زعم اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوبا أن ما بين طرق جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن يتبها إلى شجرة الزقوم . قالوا : إنما نذهب حتى نتبى إلى شجرة الزقوم فنذهب جهنم وتهلك . وعن ابن عباس أيضا وقادة : أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوما عند عبادتهم المعول ؛ فأكذبهم الله كما عظم .

الثانية — في هذه الآية رد على أبي خنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه السلام : « دعي الصلاة أيام أفرائك » . في أن مدة الحيض ما يسمى أيام الحيض ، وأظها ثلاثة وأكثرها

عشرة . قالوا : لأن ما دون الثلاثة يسمى يوما ويومين ، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوما ولا يقال فيه أيام ، وإنما يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة ؛ قال الله تعالى : ( فَيَمِيزُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ) . ( تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ) . ( سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَنِيَّةٍ أَيَّامٍ ) .

فيقال لهم : فقد قال الله تعالى في الصوم : ( أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ) . يعني جميع الشهر ؛ وقال : ( لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ) . يعني أربعين يوما ؛ وأيضا فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يرد به تحديد العدد ، بل يقال : أيام مشيك وسفرك وإقامتك ، وإن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد ؛ ولعله أراد ما كان معتادا لها ، والمادة ست أو سبع ؛ فخرج الكلام عليه ، والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : ( قُلْ أَتُحَدِّثُكُمْ ) . تقدم القول في اتخاذ فلا معنى لإعادته . ( عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ) . أي أسلفتم عملا صالحا فأنتم وأطعتم فتستوجبون بذلك الخروج من النار ؛ أو هل عرفتكم ذلك بوجه الذي عهده إليكم ! ( قُلْ يُخْلِفُ اللَّهُ عَهْدَهُ ) قولان . ( أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَمْلِكُونَ ) . توبيخ .

قوله تعالى : ( بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خِطْبَتُهُ ) . فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( بَلَى ) . أي ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيويه : ليس بل ونعم اسمين ، وإنما ما حرفان مثل بل وغيره ؛ وهى رد لقولهم : لن تمسنا النار . وقال الكوفيون : أصلها بل التي للإضراب عن الأول ، زيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها ، وضمت الياء معنى الإيجاب . فبل تدل على رد الجحد ، والياء تدل على الإيجاب لما يسد . قالوا : ولو قال قائل : ألم تأخذ دينارا ؟ فقلت : نعم ؛ لكان المعنى لا لم آخذ ؛ لأنك حققت النفي وما بعده . فإذا قلت : بل ؛ صار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك على شيء ؛ فقال الآخر : نعم ؛ كان ذلك تصديقا ؛ لأن لا شيء له عليه ؛ ولو قال : بل كان ردًا لقوله ؛ وتقديره بل لى عليك ؛ وفى التثنية : ( أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ) . ولو قالوا نعم لكفروا .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ سَيِّئَةٌ ۖ ﴾ . السيئة الشرك . قال ابن جرير : قلت لخطأ من كسب سيئة ، قال : الشرك ، وعلا ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ۖ ﴾ . وكذا قال الحسن وقادة . قالا : والخطيئة الكبيرة .

الثالثة - لما قال تعالى : ﴿ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ . دل على أن المعلق على شرطين لا يتم بأفعلهما ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْأَمُوا ۖ ﴾ . وقوله عليه السلام لسفيان بن عبد الله الثقفي وقد قال له : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » . رواه مسلم . وقد مضى القول في هذا المعنى وما للمعلم فيه ، عند قوله تعالى لآدم وحوا : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۖ ﴾ . وفرا نافع خطيبته بالجمع . الباقرن بالأفراد ، والمعنى الكثرة مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدُورُوا نِجْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ۖ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾ . الآية . فيه عشر مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾ . تقدم الكلام في بيان هذه الألفاظ . واختلف في الميثاق هنا ، فقال مكِّي : هو الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالنزع . وقيل : هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على السنة أنبيائهم وهو قوله : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ ﴾ . وعبادة الله إثبات توحيده ، وتصديق رسله ، والعمل بما أنزل في كتبه .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ۖ ﴾ . قال سيويي : لا تعبدون متعلق بقسم ، والمعنى وإذا استلغتم بالله لا تعبدون ، وأجازه المبرد والكسائي والقرطبي . وقرأ أبي وابن مسعود لا تعبدوا على النهي ، ولهذا وصل الكلام بالأمر فقال : ﴿ وَقُولُوا ۖ وَفَعَلُوا ۖ وَأَقْبُوا ۖ ﴾ . وقيل : هو في موضع الحال أي أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين . فانه تطرب والمبرد أيضا . وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير وحزرة والكسائي يعبدون بالياء من أسفل . وقال القرطبي والزجاج وجماعة : المعنى أخذنا ميثاقهم ألا يعبدوا إلا الله ، وإن يحسنوا للوالدين ،

وإن لا يسفكوا الدماء؛ ثم حذفت أن وإلباء فارتفع الفعل لزوالها كقوله تعالى : ﴿ تَتَجَنَّبُ عَنْهُ اللَّهُ تَأْمُرُونَ ﴾ . قال المبرد : هذا خطأ لأن كل ما أضمر في العربية يعمل عمله مظهرا  
نعول : وبالله قطعت أي رب الله .

قلت : ليس هذا بخطأ بل هما وجهان صحيحان وعليهما أنشد سيويه :  
ألا أنهكذا الزاجري أحضر الوغي \* وأن أحضر اللذات هل أنت غليد  
بالنصب والرفع فالنصب على إضمار أن والرفع على حذفها .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ . أي وأمرناهم بالوالدين إحسانا ،  
وقرن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد ، لأن النشأة الأولى من عند الله ، والنشأة  
الثاني وهو التربية من جهة الوالدين ، ولهذا قرن تعالى الشكر لها بشكره فقال : ﴿ إِنِ اشْكُرْ لِي  
وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ . والإحسان إلى الوالدين ، معاشرتهما بالمعروف ، والتواضع لهما ، وابتثال أمرهما ،  
والدعاء بالمغفرة لهما بعد معاصيها ، وصلة أهل وذمهما . على ما يأتي بيانه مفصلا في الإسراء  
إن شاء الله تعالى .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَذِي الْقُرْبَى ﴾ . عطف ذم القربى على الوالدين ؛ والقربى  
بمعنى القرابة وهو مصدر كالرحمى والعقبى ، أي وأمرناهم بالإحسان إلى القرابات بصلة  
أرحامهم . وسيأتي بيان هذا مفصلا في سورة القتال إن شاء الله تعالى .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ . اليتامى عطف أيضا وهو جمع يقيم مثل نداد  
جمع نديم . واليتم في بني آدم بفقد الأب ، وفي البهائم بفقد الأم . وحكى الماوردي أن اليتيم  
يقال في بني آدم في فقد الأم ؛ والأول المعروف . وأصله الانفراد ؛ يقال : صبي يقيم أي  
منفرد من أبيه . ويقيم يقيم أي ليس قبله ولا بعده شيء من الشعر . وقوة يتيمة ليس لها  
نظير . وقيل : أصله الإبطاء فسمى به اليتيم لأن البر يبطئ عنه ؛ ويقال : يقيم يقيم يقيم مثل  
عظم يعظم . ويقيم يقيم يقيم يقيم مثل سمع يسمع . ذكر الوجهين القراء . وقد أئتم الله .

ويدل هذا على الزافة باليتم والحض على كفالته وحفظ ماله . على ما يأتي بيانه في النساء . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة » . وأشار مالك بالنيابة والوسطى ؛ ورواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وخرج الإمام الحافظ أبو محمد عبد النبي بن سعيد من حديث الحسن بن دينار أبي سعيد البصري وهو الحسن بن واصل<sup>(١)</sup> قال حدثنا الأسود بن عبد الرحمن عن مصابن عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما قد يتيم مع قوم على قصصهم فيقرب قصصهم الشيطان » . وخرج أيضا من حديث حسين بن قيس وهو أبو علي الزحجي عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ضم يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرايه حتى يفنيه الله عز وجل غفرت له ذنوبه البتة إلا أن يعمل عملا لا ينفر ومن أذهب الله كرمه فصره واحسب غفرت له ذنوبه » قالوا : وما كرمته ؟ قال : « عيائه ومن كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يرن أو يمتن غفرت له ذنوبه البتة إلا أن يعمل عملا لا ينفر » فناداه رجل من الأعراب مني هاجر فقال : يا رسول الله أفأؤتيتن ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو « اثنتين » . فكان ابن عباس إذا حدث هذا الحديث : قال هذا والله من غرائب الحديث وغروره .

السادسة — السابعة من الأصابع هي التي تلي الإبهام وكانت في الجاهلية تدعى بالسبابة لأنهم كانوا يسيئون بها ؛ فلما جاء الله بالإسلام كبروا هذا الاسم فسموها المشيرة لأنهم كانوا يشيرون بها إلى الله في التوحيد . وتسمى أيضا بالسبابة جاء تسميتها بذلك في حديث وائل بن حجر وغيره ؛ ولكن اللغة سارت بما كانت تعرفه في الجاهلية فقلت . وروى عن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى ، ثم البصر أقصر من الوسطى . روى زيد بن هارون قال : أخبرنا عبد الله بن مقسم الطائفي قال حدثني عتي سارة بنت مقسم أنها سمعت ممونة بنت كزدم قالت : خرجت في حجة<sup>(٢)</sup> (١) لأنه روي دينار . (٢) الرحمة ، فتح آراء العلماء المهملين وفيه مرحلة . نسبة إلى رجة مالك بن طرق قرب حلب . (٣) كزدم ، على وزن جعفر .

حجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحته وسأله أبى عن أشياء؛ فلقد رأيتنى أتعجب وأنا جارية من طول أصبعه التى تلى الإبهام على سائر أصابعه. فقوله عليه السلام : « أنا وهو كهاينين فى الجنة » . وقوله فى الحديث الآخر : « أحشر أنا وأبو بكر وعمر يوم القيامة هكذا » . وأشار بأصبعه الثلاث فأنما أراد ذكر المنازل والإشراف على الخلق فقال : نحشر هكذا ، ونحن مشرفون ، وكذا كافل اليتيم تكون منزله رقيقة . فمن لم يبرف شأن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم حل تأويل الحديث على الاتصاف والاقتراب بعضهم من بعض فى محل القرية ؛ وهذا معنى بعيد ، لأن منازل الرسل والنبين والصدقيين والشهداء والصالحين مراتب متباينة ويتنازل مختلفة .

السابعة - قوله تعالى : ( وَالْمَسَاكِينَ ) . المساكين عطف أيضا أى وأمرناهم بالإحسان إلى المساكين ؛ وهم الذين أسكتهم الحاجة وأذلتهم . وهذا يتضمن الحسنى على الصدقة والمؤازاة وتحقق أحوال المساكين والضعفاء . روى مسلم عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الساعى على الأرملة والمساكين كالجاهد فى سبيل الله - وأحبه قال - وكافته لا يفتر وكالصائم لا يفتر » . قال ابن المنذر : وكان طاوس يرى السعى على الأخوات أفضل من الجهاد فى سبيل الله .

الثامنة - قوله تعالى : ( وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ) . حسنا نصب على المصدر على المعنى لأن المعنى ليحسن قولكم . وقيل : التقدير وقولوا للناس قولنا حسن ؛ فهو مصدر لا على المعنى . وقرا : جزء والكسائي حسنا ففتح الحاء والسين . قال الأخفش : هما بمعنى واحد ؛ مثل البخل والبذل ، والرشد والرشد . وحكى الأخفش : حسنى بمعنى تزين على فعل . قال النحاس : وهذا لا يجوز فى البرية ، لا يقال من هذا شيء إلا بالأنثى واللام نحو القضى والكبرى والحسنى ، هذا قول سيويه . وقرا عيسى بن عمر حسنا بضمين مثل الحلم . قال ابن عباس : المعنى قولوا لهم لا إله إلا الله ومروهم بها . ابن جريج : قولوا للناس صدقا

(١) كتاب فى نسخ صحيح مسلم . والحق فى نسخ الأصل : لا يفتر من صلاة ... الخ .

في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ولا تتبرأوا عنه . سعيان التورى : مروههم بالمعروف وانهموم  
عن المنكر . أبو المالبية : قولوا لهم الطيب من القول ؛ وجازوهم بأحسن ما يجيبون أن يجازوا  
به . وهذا كله حض على مكارم الأخلاق ؛ فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لنا ووجهه  
منبسطا طلقا مع البر والفاخر والسنى والمبتدع ، من غير مداهة ، ومن غير أن يتكلم معه بكلام  
يظن أنه يرضى منعه ؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون : ﴿ قُولَا لَهُ قَوْلًا لَبَنًا ﴾ . فالتقابل  
ليس بأفضل من موسى وهرون ؛ والفاخر ليس بأخبت من مروع . وقد أمرها الله تعالى باللين  
معه . وقال طلحة بن عمر : قلت لعطاء إنك رجل يجمع حديدك فاس دوو أهواء مختلفة ،  
وأنا رجل في حدة فأقول لحسم بعض القول التلظ ؛ فقال : لا تفعل ، يقول الله تعالى :  
﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ . فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحبي . وروى عن  
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة : " لا تكوني خائفة فإن الفحش لو كان رجلا لكان  
رجل سوء " . وقيل أراد بالناس مجازا صلى الله عليه وسلم كقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ  
عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . فكانه قال : قولوا للنبي صلى الله عليه وسلم حسنا . وحكى  
المهدوى عن قتادة أن قوله : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ . منسوح بآية السيف . وحكاه  
أبو نصر عبد الرحمن<sup>(١)</sup> عن ابن عباس . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الابتداء ثم  
نسختها آية السيف . قال ابن عطية : وهذا يدل على أن هذه الأمة خوطبت بمثل هذا اللفظ  
في صدر الإسلام ؛ وأما إلخير عن بني إسرائيل وما أسروا به فلا نسخ فيه والله أعلم .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ . تقدم القول فيه . والخطاب  
لبنى إسرائيل . قال ابن عطية : وزكاهم هي التي كانوا يضمونها فقتل الشارعل ما يتقبل ،  
ولا تتل على ما لم يتقبل ولم تكن كزكاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : وهذا يحتاج الى حل كما ثبت ذلك في التناثم . وقد روى عن ابن عباس أنه  
قال : الزكاة التي أسروا بها طاعة الله والإخلاص .

(١) في بعض نسخ الأصل : « عبد الرحمن » .

المباشرة - قوله تعالى : ﴿ تَمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ . الخطاب لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأسند إليهم تولى أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السيل ، في إعراضهم عن الحق مثلهم ، كما قال : « شَيْئَانِ عَرَفْنَاهَا مِنْ أَنْزَمَ » ( إِلَّا قَلِيلًا ) . أبو عبد الله ابن سلام وأصحابه . وفليلا نصب على الاستثناء ؛ والمستثنى عند سيويه منصوب لأنه مشبه بالفعل . وقال محمد بن يزيد : هو مفعول على الحقيقة ؛ المعنى استثنيت قليلا . ﴿ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ . ابتداء وخبر ؛ والإعراض والتولى بمعنى واحد تخالف بينهما في اللفظ . وقيل : التولى بالجسم ، والإعراض بالقلب . قال المهدوي : وأنتم معرضون حال ؛ لأن التولى فيه دلالة على الإعراض .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتِفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ فيه مستثنان :

الأولى - قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ . تقدم القول فيه . ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ . المراد بنو إسرائيل ؛ ودخل فيه بالمعنى من بعدم . لا تسفكون مثل لا تبدون في الإعراب . وقرا طلحة بن مصرف وشعيب بن أبي حمزة بضم القاء وهي لغة ؛ وأبو نيك تُسْفِكُونَ بضم التاء وتشديد القاء وفتح السين . والسفك : الصب . وقد تقدم . ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ ﴾ . معطوف . ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ . النفس مأخوذة من الفاسدة ؛ نفس الإنسان أشرف ما فيه . والدار : المنزل الذي فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال . وقال الخليل : كل موضع حله قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية . وقيل : سميت دارا لدورها على سكانها كما سمي الحائط حائطا لإحاطته على ما يحويه . و ﴿ أَقْرَبْتُمْ ﴾ . من الإقرار أي بهذا الميثاق الذي أخذ عليكم وعلى أولادكم . ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ . من الشهادة أي شهداء بقلوبكم على هذا . وقيل : الشهادة بمعنى الحضور أي تحضرون سفك دمائكم وإخراج أنفسكم من دياركم .

الثانية - فإن قيل : وهل يسفك أحد دمه ويخرج نفسه من داره ؟ قيل له : لما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحد وكانوا في الأئمة كالشخص الواحد جعل قتل بعضهم بعضا وإخراج بعضهم بعضا قتلًا لأنفسهم وقيا لها . وقيل : المراد القصاص أي لا يقتل



أحد فيقتل فصباحاً فكانه سَفَك دمه، وكذلك لا يزني ولا يرتد فإن ذلك يبيع الدم، ولا يُفْسَد فيُنْتَفَى، فيكون قد أخرج نفسه من دياره . وهذا تأويل فيه شبه وإن كان صحيح المعنى .

وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً ألا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفقه ولا يسترقه ولا يدعه يسرق إلى غير ذلك من الطاعات .

قلت : وهذا كله عزم علينا وقد وقع ذلك كله بالفتن فيما فانا لله وإنا إليه راجعون . وفي الترتيل ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُدِّيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ . وسيأتي . قال ابن خوز منداد : وقد يجوز أن يراد به الظاهر، ولا يقتل الإنسان نفسه ولا يخرج من داره سفهاً كما تقتل الهند انفسها، ويقتل الإنسان نفسه من جهد وبلاء يصيبه، أو يهيم في الصحراء ولا يأوى البيوت جهلاً في ديارته وسفهاً في حمله؛ فهو عموم في جميع ذلك؛ وقد روى أن عثمان بن مظعون بايع في عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمزوا أن يلبسوا المسوح، وأن يهيموا في الصحراء ولا يأووا البيوت، ولا يأكلوا اللحم ولا يشربوا النساء؛ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يحده فقال لاهراًته: «ما حديث بلغني عن عثمان» وكهت أن تقضى سرزوجه وأن تكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقالت : يا رسول الله، إن كان قد بلغك شيء فهو كما بلغك؛ فقال : «قولي لعثمان أخلاف لستى أم علي غير متى إني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأغشى النساء وآوى البيوت وأكل اللحم فن رغب عن ستي فلاس مني» فرجع عثمان وأصحابه عما كانوا عليه .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ . أنتم في موضع رفع بالابتداء؛ ولا يرب لأنه مصر وضمت التاء من أنتم لأنها كانت مفتوحة إذا خاطبت واحداً مذكراً، ومكسورة إذا خاطبت واحدة مؤنثة فلما شئت أو جمعت لم يبق إلا الضمة . ﴿هَؤُلَاءِ﴾ قال القتيبي : التقدير يا هؤولاء . قال النحاس : هذا خطأ على قول سيويه ولا يجوز هذا أقبل . وقال الزجاج : هؤولاء بمعنى الذين . ﴿تَقْتُلُونَ﴾ داخل في الصلة أي ثم أنتم الذين تقتلون . وقيل : هؤولاء رفع بالابتداء، وأنتم خبر مقدم، وتقتلون حال من أولاء . وقيل : هؤولاء نصب بإسhtar أغنى . وقرأ الزهري

تَقْتُلُونَ بَعْضَ النَّاسِ مَشْدَدًا ، وكذلك ( فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ) . وهذه الآية خطاب للواجبين لا يشمل ردة إلى الأسلاف . نزلت في بني قينقاع وقريظة والنضير من اليهود ، وكانت بنو قينقاع أعداء قريظة ، وكانت الأوس حلفاء بني قينقاع ، والخزرج حلفاء بني قريظة ، والنضير والأوس والخزرج إخوان ، وقريظة والنضير أيضا إخوان ثم اختلفوا فكانوا يقتلون ثم يرتفع الحرب فيفدون أسراهم ، فبصرهم الله بذلك فقال : ( وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَغَادَوْهُمْ ) . قوله تعالى : ( تَظَاهَرُونَ ) . معنى تظاهرون تتعاونون ، مشتق من الظاهر لأن بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظهير ، ومنه قول الشاعر :

تظاهروا أساءه بيت تجمعت . على واحد لا زلت قرن واحد <sup>(١)</sup>

والإيم : الفعل الذي يستحق عليه صاحبه الدم . والمدوان : الإنفاط في الظلم والتجاوز فيه . وقرا أهل المدينة وأهل مكة تظاهرون بالتشديد ، يدعون الناس في الظاء لقربها منها ؛ والأصل تتظاهرون . وقرا الكوفيون تظاهرون مخففا حذفوا التاء الثانية لدلالة الأولى عليها ؛ وكذا : ( وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ) . وقرا قادة تظهرون عليهم ، وكله راجع إلى معنى التعاون ؛ ومنه : ( وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ) . وقوله : ( وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ) . فاعلمه . قوله تعالى : ( وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَغَادَوْهُمْ ) . فيه ست مسائل :

الأولى - قوله : ( وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى ) . شرط وجوابه تغادوهم . وأسارى نصب على الحال : قال أبو عبيد : وكان أبو عمرو يقول : ما صار في أيديهم فهم الأسارى ، وما جاء مستأسرا فهم الأسرى . ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو ؛ وإنما هو كما تقول : سكرارى وسكرى . وقراءة الجماعة أسارى ، ما عدى حمزة فإنه قرأ أسرى على فعل جمع أسير بمعنى مأسور والباب في تكسيره إذا كان كذلك فعل كما تقول : قتل وقيل ، وجرح وجرحى . قال أبو حاتم : ولا يجوز أسارى . وقال الزجاج : يقال أسارى كما يقال سكرارى ، وفعل هو الأصل وفعل

(١) كذا في بعض نسخ الأصل . وفي البعض الآخر : « ... أساءه قوم ... الخ » . وقد رويت رواية البيت في تفسير الشوكاني هكذا :  
تظاهروا من كل أوب وروية ... الخ .

داخلة عليها . وحكى عن محمد بن يزيد قال : يقال أسير وأسرى وأسارى ؛ وقرى بهما . وقيل :  
أسارى يفتح المعزة وليست بالعالية .

الثانية - الأسير مشتق من الإسار وهو القيد الذى يشده به المحمل فسمى أسيرا لأنه  
يشده وثاقه ؛ والعرب تقول : قد أسرقته أى شده ؛ ثم سمي كل أخيد أسيرا وإن لم يؤسر ،  
وقال الأعشى :

وقيدنى الشعر فى بيته • كما قيد الأسرات الحمارا

أى أنا فى بيته ، يريد بذلك بلوغه النهاية فيه . فأتا الأسر فى قوله عن جبل : ( وَشَدَّنا  
أَسْرَهُمْ ) . فهو الخلق . وأسرة الرجل : رهطه لأنه يتقوى بهم .

الثالثة - قرأ نافع وحزمة والكسائى تفادوهم . والباقون تفدوهم من الفداء . والفداء  
طلب الفدية من الأسير الذى فى أيديهم . قال الجوهري : الفداء إذا كسرت أوله يد وقصر ،  
وإذا فتح فهو مقصور ؛ يقال : قم فدى لك أبى . ومن العرب من يكرس فداءه بالتؤين  
إذا جاور لام الجر خاصة ؛ فنقول : فداء لك لأنه نكرة يريدون به معنى الدماء ؛ وأفسد  
الأصمعى للتأينة :

مَهْلًا فِدَاءَ لَكَ الْأَقْوَامُ كُلَّهُمْ • وما أَفْسَرُ من مال ومن وليد

ويقال : فداء وفاداه إذا أعطى فداءه فأقده . وفداه بنفسه . وفداه فدية إذا قال جعلت  
فدما لك . وتقادوا أى فدى بعضهم بعضا . والفدية والفدى والفداء كله بمعنى واحد . وفاديت  
نفسى إذا ألقيتها بمد أن دفعت شيئا بمعنى فديت ؛ ومنه قول العباس لنتى صلى الله عليه وسلم :  
فاديت نفسى وفاديت عقيل . وهما فعلان يتعديان الى مفعولين الثانى منهما بحرف الجر ؛  
تقول : فديت نفسى بلى وفاديت بلى ؛ قال الشاعر :

فدى نادى أسيرك إن قوى • وقومك ما أرى لم اجتمعا

الرابعة - قوله : ( وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ) . هو مبتدأ وهو كناية عن الإخراج ،  
ومحرم خبره ؛ وإخراجهم بقل من هو وإن شئت كان كناية عن الحديث والقصة ، والجملة  
التي بعده خبره أى والأمر محرم عليكم إخراجهم ؛ وإخراجهم مبتدأ ثانى ومحرم خبره والجملة

خبر عن هو ؛ وفي محرم ضمير مالم يسم فاعله يعود على الإخراج ؛ ويجوز أن يكون محرم مبتدأ ، وإخراجه مفعول مالم يسم فاعله يسد مسد خبر محرم ، والجملة خبر عن هو . وزعم الفراء أن هو عماد ؛ وهذا عند البصريين خطأ لا معنى له ، لأن الهمزة لا يكون في أول الكلام . ويقرأ وهو يسكون الماء لتقل الضمة ؛ كما قال الشاعر :

فَهُوَ لَا تَتَى رَيْبُهُ • مَالَهُ لَا عُدَّ مِنْ قَرِهِ

وكذلك إن جئت باللام وهم ؛ وقد تقدم . قال علماؤنا : كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أسرارهم ؛ فأعرضوا عن كل ما أسروا به إلا الفداء ؛ فوجبه الله على ذلك توبيخاً يلى فقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ يَمِيزُ الْيَتَامَى ﴾ . وهو التوراة ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِمِيزِ ﴾ .

قلت : ولعمري لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضها على بعض أليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ، حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال علماؤنا : فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم واحد . قال ابن خزيمة مشدداً : تضمنت الآية وجوب فك الأسرى ، وبذلك وردت الآثار من النبي صلى الله عليه وسلم أنه فك الأسارى وأمر بفكهم ، وجرى بذلك عمل المسلمين واتخذ به الإجماع . ويجب فك الأسارى من بيت المال ، فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسلمين ؛ ومن قام به منهم أسقط الفرض عن الباقي . وسبأى .

الخامسة - قوله : ﴿ قَاتِلُوا مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . ابتداء بخبر . والخزى : الخوان . قال الجوهرى : ونزى بالكسر يخزى خزياً إذا خالده . وهان . قال ابن السكيت : وقع في بلية وأخزاه الله . ونزى أيضاً يخزى خزاية إذا استخيا فهو خزيان . وقوم خزيا وأسرته خزيا .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا أَنتَ بِمُتَابِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . يردون بإياه قراءة الباقية ، وقرأ الحسن تردون بإثاء على الخطاب . ﴿ إِلَى أَشَدِّ

الْكَتَابِ وَمَا آتَاهُ مَائِلٌ مَّا تَلَوْنَ . - حتم القول فيه ، وكذلك : ( أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا ) .  
الآية ، فلا معنى للإعادة . ويوم ، منصوب يردون .

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ) . يعنى التوراة . ( وَفَقَّيْنَا ) . أى أنبأنا .  
والثغفية : الإتياع والإرداف مأخوذ من إتياع التفاف وهو مؤخر السبق ، تقول : استغفبه اذا  
جث من خلفه ؛ ومنه سميت قافية الشعر لأنها لتلوسائر الكلام . والثغفية : التفاف ؛ ومنه  
الحديث : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » . والقفي والقفاوة : ما يذخر من اللبن  
وغیره لمن تريد إكرامه . وقفت الرجل : فذفته بغيره ؛ وفلان يفوق أى تهته ؛ وفوقى  
أى خيق . قال ابن دريد : كأنه من الأضداد . قال العلاء : وهذه الآية مثل قوله تعالى :  
( ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا ثَمًّا ) . وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بآيات التوراة والأمر بلزومها  
الى عيسى عليه السلام . ويقال : رسل ورسل لنتان ؛ الأولى لنة الحجاز ، والثانية لنة تميم ؛  
وسواء كان مضافاً أو غير مضاف ؛ وكان أبو عمرو يخفف إذا أضاف الى حرفين ، ويشقل إذا  
أضاف الى حرف واحد .

قوله تعالى : ( وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ ) . أى الإنج والذلالات ؛ وهى التى ذكرها  
الله فى آل عمران والمائدة . قاله ابن عباس . ( وَأَيَّدْنَاهُ ) أى قويناه . وقرأ مجاهد وابن محيصن  
آيَّدناه بالمد ، وهما لنتان . ( رُوحُ الْقُدُسِ ) . روى أبو مالك وأبو صالح عن ابن عباس ،  
ومعمر بن قنادة قالاً : جبريل عليه السلام ؛ وقال حسان :

وجبريل رسول الله فينا • وروح القدس ليس به خفاء

قال النحاس : وسمى جبريل روحاً وأضيف الى القدس لأنه كان يتكلم باسم الله عز وجل  
له روحاً من غير ولادة والله ولده ؛ وكذلك سمي عيسى روحاً لهذا . وروى غالب بن عبد الله  
عن مجاهد قال : القدس هو الله عز وجل ؛ وكذا قال الحسن : القدس الله ، وروحه جبريل .  
وروى أبو زوق عن الضمك عن ابن عباس : ( رُوحُ الْقُدُسِ ) . قال : هو الاسم الذى  
كان يسمي به عيسى الموق . وقوله سعيد بن جبير وعبد بن عمير . وهو اسم الله الأعظم .

وقيل : المراد الإنجيل ؛ سماه روحا سماه الله القرآن روحا ؛ في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ  
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ . والأول أظهر والله تعالى أعلم . والقدس : الطهارة . وقد  
تقدم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَجِدْكُمْ رَسُولٌ مَّا لَا يَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ ﴾ . أى بما لا يوافقها ويلائمها ؛ وحذفت الهاء لطول الاسم أى بما لا تنوّه : ﴿ أَتُكْبِرُكُمْ ﴾ . عن إيجابته احتقاراً للرسل ، واستبعاداً للرسالة . وأصل الهوى الميل الى الشيء ؛ وجميع أهواء كما جاء فى التنزيل ، ولا يجمع أهوية ؛ على أنهم قد قالوا فى ندى أنديّة ؛ قال الشاعر :

في ليلة من جمادى ذات أندية \* لا ينصر الكلب في ظلماتها الطنبا

قال الجوهري : وهو شاذ . وسبى الموى هوى لأنه هوى يصاحبه الى النار؛ ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا فيما ليس بمحق وفيما لا خيره فيه؛ وهذه الآية من ذلك؛ وقد يستعمل في الحق ومنه قول عمر رضي الله عنه في أسارى بدر : فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . وقالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم في صحيح الحديث : والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك . أخرجهما مسلم .

قوله تعالى : ﴿ قَفَرًا كَذَّبُوا ﴾ . منصوب بـ كذبتم وكذا ﴿ وَفَرِحُوا مَقْتُلُونَ ﴾ . فكان من كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام ، ومن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام على ما يأتي بيانه في سبمان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَتَلَوْا قُلُوبُنَا نَقْفُ ﴾ . بسكون اللام جمع أغلف أى عليها أغطية ؛ وهو مثل قوله : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَيْكَةِ يَمَسُّنَا ﴾ . أى فى أوعية . قال مجاهد : غلف عليها هشوة . وقال عكرمة : عليها طابع . وحكى أهل اللغة غلفت السيف جعلت له غلافاً ؛ فقلب أغلف أى مستور عن النهم والتمييز . وقرأ ابن عباس والأعرج وابن عيصن غلف بضم اللام ؛ قال ابن عباس أى قلوبنا ممثلة علماً لاحتياج إلى علم جد الله عليه وسلم ولا غيره . وقيل : هو جمع غلاف مثل نمار ونجر أى قلوبنا أوعية للعلم فالها لا تفهم منك وقد وعينا علماً

كثيراً . وقيل : المعنى فكيف يعزب عنها علم محمد صلى الله عليه وسلم . فردَّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ . ثم بين أن السب في نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لعنوا بما تقدم من كفرهم واجترائهم ؛ وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه . وأصل اللعن في كلام العرب الطرد والإبعاد . ويقال للذنب : لعين ، وللرجل الطريد : لعين ؛ وقال الشياخ :  
ذَعَرْتُ بِهِ التَّطَا وَغَيَّتْ عَنْهُ . مقام الذنب كالرجل اللعين

ووجه الكلام مقام الذنب اللعين كالرجل فاللعن أبعدهم الله من رحته . وقيل : من توفيقه وهدايته . وقيل : من كل خير ، وهذا عام . ﴿ قَلِيلًا ﴾ ، تمت لمصدر عنفون تقديره فأما قليلًا ﴿ مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . وقال معمر : لا يؤمنون إلا قليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره ؛ ويكون قليلًا منصوب بترج حرف الصفة وما صلة أى قليلًا يؤمنون . قال الواقدي : معناه لا يؤمنون قليلًا ولا كثيرًا ؛ كما تقول : ما أقل ما فعل كذا أى لا يفعله البتة . وقال الكسائي : تقول العرب مررنا بأرض قل ما تبث الكرات والبصل أى لا تبث شيئًا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جِئْتُمْ ﴾ . بنى اليهود . ﴿ كِتَابٌ ﴾ . بنى القرآن . ﴿ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ . تمت لكتاب ؛ ويجوز في غير القرآن نصبه على الحال ؛ وكذلك هو في مصحف أبي بالنصب فيما روى . ﴿ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ . بنى التوراة والإنجيل يخبرهم بما فيها . ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِتُونَ ﴾ . أى يستصرون . والاستفتاح الاستنصار ؛ استنصحت : استصرت ؛ وفي الحديث كافة النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح بصالح المهاجرين أى يستصمر بدعائهم وصلاتهم . ومنه ﴿ نَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ . والنصر : فتح شيء منقذ ؛ فهو يرجع إلى قولهم : ففتحت الباب . وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنا نصر الله هذه الأمة بضعفائها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم » . وروى النسائي أيضًا عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ابنوف الضعيف فإنكم إنما تصرون وتزقون بضعفائكم » . قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما اتقوا هزمت يهود ، فلدت يهود هذا الدعاء وقالوا : إنا نياك بحق النبي الأكرم

الذي وعشنا أن نجزيه لنا في آخر الزمان إلا تنصرتا عليهم . قال : فكأنوا إذا التفتوا دعوا بهذا الدماء فهزموا عطفان ، قلنا يست النبي صلى الله عليه وسلم كفروا فأنزل الله تعالى : ( وَتَأْتِيَانِ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ) . أى بك يا محمد إلى قوله : ( تَعْلَمُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ) . قوله : ( وَلَمَّا جَاءَهُمْ ) . جواب لما التفتا وما بعدها في قوله : ( قَلْبًا جَدَّهُمْ مَا عَرَفُوا ) في قول القراء ؛ وجواب لما الثانية كفروا . وقال الأخفش سعيد : وجوابه وجواب لما محذوف لعلم السامع . وقال الزجاج . وقال المبرد : جواب لما في قوله : ( كَفَرُوا ) وأعيدت لما الثانية لطول الكلام . ويغيد ذلك تقريراً للذهب وتأكيده .

قوله تعالى : ( يَتَّبِعُوا أَشْقَرًا ) . بش في كلام العرب مستوفية الذم كما أن نم مستوفية للذم ؛ وفي كل واحدة منهما أربع لغات يَتَّبِعُ يَتَّبِعُ يَتَّبِعُ يَتَّبِعُ . يَتَّبِعُ يَتَّبِعُ يَتَّبِعُ . ومنعجب سبويه إلى أن (ما) فاعلة بشيء ، ولا تدخل إلا على أسماء الأجناس والكرات ، وكذا نم ؛ فنقول : نم الرجل زيد ، ونم رجلا زيد ؛ فإذا كان معها اسم بغير ألف ولام فهو نصب أبدا ؛ فإذا كان فيه ألف ولام فهو رفع أبدا ؛ ونصب رجلا على التمييز . وفي نم مضمحل على شريطة التفسير ؛ وزيد مرفوع على وجهين ؛ على خبر ابتداء محذوف كأنه قيل : من المندوح ؟ قلت : هو زيد ، والآخر على الابتداء وما قبله خبره ؛ وأجاز أبو علي أن تليها ما موصولة وغير موصولة من حيث كانت سببة تقع على الكثرة ولا تخص واحدا بعينه ، والتقدير عند سبويه بش الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا ؛ فإن يكفروا في موضوع رفع بالابتداء وخبره فيما قبله كقولك : بش الرجل زيد ؛ و (ما) على هذا القول موصولة . وقال الأخفش : ما في موضع نصب على التمييز كقولك : بش رجلا زيد فالتقدير بش شيئا أن يكفروا . فاشتروا به أنفسهم على هذا القول صفة ما . وقال القراء : بشا بجمله شيء واحد ركب كجدا . وفي هذا القول اعتراض لأنه يحق نيل بلا فعل . وقال الكلبي : ما واشتروا بمثلة اسم واحد قائم بنفسه ؛ والتقدير بش اشتراهم أن يكفروا . وهذا مردود ؛ فإن نم وبش لا يدخلان على اسم معين مرفوع ؛ والشراء قد تعرف بإضافته إلى الضمير . قال النحاس : وأمين هذه الأقوال قول الأخفش



وسيوه . قال القرطبي والكاشي : أن يكفروا إن شئت كانت أن في موضع خفض ردا على  
إساءة في به . قال الفراء : أي اشترؤا أنفسهم بأن يكفروا بما أنزل الله . فاشترى بمعنى باع  
وبمعنى ابتاع ، والمعنى بشئ الذي اختاروا لأنفسهم حيث استبدلوا الباطل بالحق والكفر  
بالإيمان .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّةٌ ﴾ . معناه حسدا ؛ قاله قتادة والسدي . وهو مفعول من أجله ،  
وهو على الحقيقة مصدر ، وهو مأخوذ من قولهم : قد بنى الجرح إذا فسد . وقيل : أصله  
الطلب ولذلك سميت الزانية بقية . ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ ﴾ . في موضع نصب أي لأن ينزل أي  
لأجل أنزل الله الفضل على نبيه صلى الله عليه وسلم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويقوب وابن  
محيسن أن ينزل مخففا ، وكذلك سارما في القرآن إلا ﴿ وَمَا نُنَزِّلُ ﴾ . في الحجر . وفي الأنعام  
﴿ عَلَى أَنْ يُنَزَّلَ آيَةٌ ﴾ .

قوله : ﴿ فَاتُّوا ﴾ . أي رجعوا ؛ وأكثر ما يقال في الشروقة تعدم . ﴿ وَنَضِبَ عَلَى  
غَضَبٍ ﴾ . تعدم معنى غضب الله ؛ وهو عقابه ؛ فقيل : النضب الأول لبيادتهم العجل ،  
والثاني لكفرهم بحمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس . وقال عكرمة : لأنهم كفروا  
بميسى ثم كفروا بحمد ؛ يعني اليهود . وروى سعيد عن قتادة : الأول لكفرهم بالإنجيل ،  
والثاني لكفرهم بالقرآن . وقال قوم : المراد التأييد وشدة الخال عليهم ، لأنه أراد غضبين  
مملئين بمصيبين . و ﴿ مُؤَيَّنٌ ﴾ ، مأخوذ من الموان وهو ما اقتضى الخلود في النار دائما  
بخلاف خلود العصاة من المسلمين ، فإن ذلك تمحيص لم وتطهير ، كرحم الزاني وقطع السارق ،  
على ما يأتي بيانه في سورة النساء من حديث أبي سعيد الخدري إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ . يعني القرآن . ﴿ قَالُوا تَزِينُ بِمَا أَنْزَلَ  
عَلَيْنَا ﴾ . أي نصديق بما أنزل علينا يعني التوراة . ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَأَتْ ﴾ . أي بما سواه .  
عن الفراء ، وقتادة ؛ بما بعده ؛ وهو قول أبي عبيدة والمعنى واحد . قال الجوهري : وراء بمعنى  
خلف ، وقد تكون بمعنى قدام وفي من الأشتاد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَأَيْتُمْ مَلِكٌ ﴾

أى أمامهم؛ وتصغيرها ورثته بالهاء وهى شاة . وأتصب وراءه على الطرف . قال الأخفش :  
يقال لقيه من وراءه؛ قرفسه على الناية إذا كان غير مضاف، تجعله اسما، وهو غير ممكن  
كقولك : من قبل ومن بعد؛ وأنشد :

إذا أنا لم أومن عليك ولم يكن • لتأؤك إلا من وراء وراءه

قلت : ومنه قول إبراهيم عليه السلام فى حديث الشفاعة : "إنما كنت خيلا من وراء  
وراء" . والوراء : ولد الولد أيضا .

قوله تعالى : ( وَهُوَ الْحَقُّ ) . ابتداء وخبر . ( مُصَدِّقًا ) . حال مؤكدة عند سيويه .  
( لِمَا مَعَهُمْ ) . ما فى موضع خفض باللام، ومعهم صلتها، ومعهم نصب بالاستقرار؛ ومن  
أسكن جملة حرفا .

قوله تعالى : ( قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ) . رد من الله تعالى عليهم فى قولهم  
إنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيب منه لم وتوبيخ؛ المعنى فكيف قتلتم وقد نهيتم عن ذلك؛  
فانطلب لمن حضر محمدا صلى الله عليه وسلم والمراد أسلافهم؛ وإنما توجه الخطاب لأنهم  
لأنهم كانوا يقولون أولئك الذين قتلوا؛ كما قال : ( وَلَوْ كَانُوا يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أَتَوْا بِتِلْكَ  
مَآ آخِذُوهُمْ أُولَئِكَ ) . فإذا تولوهم فهم بمنزلتهم . وقيل : لأنهم رضوا فعلهم فنسب ذلك  
إليهم؛ وجاء تقتلون بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضى لما ارتفع الاشكال بقوله : ( مِنْ قَبْلُ ) .  
وإذا لم يشكلكم بما أنزل أى الماضى بمعنى المستقبل، والمستقبل بمعنى الماضى؛  
قال الخطيب :

شهد الخطيئة يوم يلقى ربه • أن الوليد أحق بالمعذر

شهد بمعنى يشهد . ( إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ) . أى إن كنتم متقين الإيمان فلم رضىتم بقتل  
الأنبياء ؟ وقيل : إن ، بمعنى ماء وأصل لم ، لما، حذفت الألف فرقا بين الاستفهام والخبر؛  
ولا يبنى أن يوقف عليه لأنه إن وقف عليه بلا هاء كان لحنا، وإن وقف عليه بالمهمل زيد  
فى السواد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ . اللام لام القسم . والبيّنات قوله تعالى :  
 ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ . وهي العصا ، والسنون ، واليد ، والدم ، والبطونان ،  
 والجراد ، والقمل ، والضفادع ، وفلق البحر . وقيل : البيّنات التوراة لما فيها من الدلالات .  
 قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ . توبيخ ، وثم ، أبلغ من الواو في التقرير أى بعد النظر  
 في الآيات والإتيان بها اتخذتم ؛ وهذا يدل على أنهم إنما فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر  
 في الآيات ؛ وذلك أعظم لحرمهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ قُوَّةً وَاسْمَعُوا ﴾ .  
 تقدم الكلام في هذا . ومعنى اسمعوا أطيعوا ، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط وإنما  
 المراد اعملوا ما سمعتم والتموه ؛ ومنه قولهم : سمع الله لمن حمده ؛ أى قبل وأجاب . وقال :  
 دعوت الله حبيتي خفت ألا . يكون الله يسمع ما أقول  
 أى يقبل ؛ وقال الرازي :

والسمع والطاعة والتسليم • خير وأعنى لى تسمي

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ . اختلف هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقا ،  
 أو يكونوا فعلوا فعلا قام مقام القول فيكون مجازا ؛ كما قال :  
 امتلا الخوض وقال قطني • مهلا رويدا قد ملأت بطني

وهذا احتجاج عليهم في قولهم : ﴿ تَزَيَّنُّ بِنَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ . أى حب العجل . والمعنى جعلت قلوبهم  
 تشربه ؛ وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم ؛ وفي الحديث : « تعرض  
 الفتن غل القلوب كعرض الحصيد عودا عودا فأما قلب أشربنا نكت فيه نكتة سواه » .  
 الحديث أخرجه مسلم ؛ وقال : أشرب قلبه حب كذا ؛ قال زهير :  
 فصحت عنها بعد حب داخل • والحب يشربه فؤادك داء

وإنما عبر عن حب العليل بالشرب دون الأكل لأن شرب الماء يتنقل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها ، والطعام مجاور لها غير متنقل فيها . وقد زاد على هذا المعنى أحد التامنين فقال في زوجته عثمة ، وكان عتب عليها في بعض الأمور فطلقها ، وكان عيا لها :

تنگل حب عثمة في قوادی \* فبادیه مع الخاقی یسر

تغافل حیث لم يبلغ شراب • ولا حزن ولم يبلغ سرور

أكاد إذا ذكرت العهد منها \* أطير لو أن إنسانا يطير

وقال السدي وابن جرير : إن موسى عليه السلام برد العجل وذواه في الماء؛ وقال لني اسرائيل : اشربوا من ذلك الماء؛ فشرّب جميعهم ، فن كان يحب العجل خربت برادة الذهب على شفتيه . وروى أنه ما شرّبه أحد الا حتى ؛ حكاه القشيري .

قلت : أما تدرّيته في البحر فقد دل عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَقْبِفَنَّ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ .  
وأما شرب الماء وظهور البراءة على الشفاء فبيده قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمَبِلَ ﴾ .  
ولله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَسْمَايَا أَمْرٌ كَيْدِ إِيْمَانِكُمْ ﴾ . أى إيمانكم الذين زعمتم في قولكم : نؤمن بما أنزل علينا . وقيل : إن هذا الكلام خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمر أن يؤمنهم أى قل لهم يا محمد : نفس هذه الأشياء التى فعلتم وأمركم بها إيمانكم . وقد مضى الكلام فى سماء .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ الْآلِئِينَ فَمَتَّوْا أَلْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾: لما ادعت اليهود دعوى باطلة حاكم الله عز وجل عنهم في كتابه ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَنْ نَسْأَلَ لَكَ الْبَأْسَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ . وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ . وقالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ . اكذبهم الله عز وجل وإلهم الحق فقال: قل يا محمد إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، يعني الجنة فماتوا الموت ابن كنتم صادقين في أقوالكم ، لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت

أحب إليه من الحياة في الدنيا، لما يصير إليه من نعم الجنة، ويحول عنه من أذى الدنيا، فأحبوا  
عن تمتي ذلك قرعاً من الله، لتصبح أعمالهم ومعتقداتهم لكفرهم في قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ؛  
وحرصهم على الدنيا ؛ ولهذا قال خبراً عنهم بقوله الحق : ﴿ وَلَنْ يَتَخَوَّهُ أَحَدٌ بِمَا قَدَّمْتَ إِلَيْهِمْ ﴾ .  
تحقيقاً لكذبهم ؛ وأيضاً لو تمنوا الموت لما تواروا ؛ كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
« لو أن اليهود تمنوا الموت لما تواروا ورأوا مقامهم من النار » . وقيل : إن الله صرفهم عن إظهار  
التنبي وقصرهم على الإمساك ليجعل ذلك آية لئيه صلى الله عليه وسلم ؛ فهذه ثلاثة أوجه  
في تركهم التنبي . وحكي عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَسَمُوا الْمَوْتَ ﴾ . أن المراد ادعوا  
بالموت على أكذب الفريقين منا ومنكم ، فادعوا ، لعلهم يكتهم .

فإن قيل : فالتنبي يكون بالسان تارة ، وبالقلب أخرى ؛ فمن أين علم أنهم لم يتنوه بقلوبهم ؟  
قيل له : نطق القرآن بذلك بقوله : ﴿ وَلَنْ يَتَخَوَّهُ ﴾ . ولو تمنوه بقلوبهم لأظهرهم بالسهم  
رداً على النبي صلى الله عليه وسلم وإطلالاً لجهته ؛ وهذا بين . قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً ﴾ . نصب  
على خبر كان ، وإن شئت كان حالاً ، ويكون عند الله في موضع الخبر . ﴿ أَبَدًا ﴾ ، ظرف  
زمان يقع على القليل والكثير ؛ كالحين والوقت ، وهو هنا من أول العمر إلى الموت . وما ،  
في قوله : بما ، بمعنى الذي ، والباء محذوف ؛ والتقدير قدمته ؛ وتكون مصدرية ولا تحتاج  
إلى عائذ . وأيديهم في موضع رفع ، حذفت الضمة من الياء لثقلها مع الكسرة ؛ وإن كانت  
في موضع نصب حركتها لأن النصب خفيف ، ويجوز إسكانها في الشمر . ﴿ وَأَنَّهُ عَلِيمٌ  
بِالظَّالِمِينَ ﴾ . ابتداء وخبر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ ﴾ . يعني اليهود . ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ .  
قيل : المعنى وأحرص ؛ وخفف من الذين أشركوا لمعتقدهم بذنوبهم وألا خير لهم عند الله ؛  
ومشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ولا علم لهم من الآخرة ؛ ألا ترى قول شاعرهم :  
تتمتع من الدنيا فإنك فان • من الفسوات والنساء الحسان

والضمير في أحدهم يعود في هذا القول على اليهود . وقيل : إن الكلام تم في حياة :  
ثم استؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين ، قيل : هم المحرس وذلك بين في ادعياتهم  
للماطس بلبنتهم بما معناه " عش ألف سنة " : وخص الألف بالذكر لأنها نهاية القعد  
في الحساب . وذهب الحسن إلى أن الذين أشركوا مشركو العرب ؛ خصوا بذلك لأنهم  
لا يؤمنون بالبعث ، فهم يمتنون طول العمر . وأصل سنة سنة . وقيل : سنة .  
وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى ولجنهم وطائفة من المشركين أحرص الناس  
على حياة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ أَهْلَهُمُ تُوبَةً يَوْمَ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ . أصل يود يودد أدغمت لتلاصيح  
بين حرفين من جنس واحد متحركين ؛ وقلبت حركة الدال على الواو ، ويسدل ذلك على أنه  
يفعل . وحكى الكاشي وددت . فيجوز على هذا يود بكسر الواو ؛ ومعنى يود يتقى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ النَّارِ أَنْ يُعْمَرَ ﴾ : اختلف النحاة في هو ؛ فقيل :  
هو ضمير الأحد المتقدم التقدير ما أحدهم بمزحزحه ؛ وخبر الابتداء في المجرور . أن يعمر ،  
فاعل بمزحزح . وقالت فرقة : هو ضمير التعمير ، والتقدير وما التعمير بمزحزحه ، والخبر  
في المجرور . أن يعمر بدل من التعمير على هذا القول . وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت :  
إن هو عماد .

قلت : وفيه بعد ، فإن حق المهاد أن يكون بين شيئين متلازمين مثل قوله : ﴿ إِنْ كَانَ  
هَذَا هُوَ الْحَقُّ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ . ونحو ذلك . وقيل : ما ، غاملة  
جمازية ، وهو ، اسمها ، والخبر في مزحزحه . وقالت طائفة : هو ، ضمير الأمر والشأن . ابن  
عطية : وفيه بعد ، فإن المحفوظ عن النحاة أن يفسر بجمله سالمة من حرف جر . وقوله :  
﴿ يُمَزَّحَزَّحُ ﴾ . الزحزة : الإبعاد والتنجية ؛ يقال : زحزحه أى أباعده فترزح أى تنحى  
وتباعد ، يكون لازما ومتديا ؛ قال الشاعر في المتعدي :

يا قابض الروح من نفس اذا احتضرت \* وغافر الذنب زحزحني عن النار

وَأَنشُدْ ذُو الرِّمَّةِ :

يَا قَابُضَ الرُّوحِ عَنْ جَسْمِ عَصَى زَمْنَا • وَغَافِرَ الذَّنْبِ زَحْنِي عَنِ النَّارِ  
وَقَالَ أَتُحَرِّفُ اللَّزَامَ :

خَلِيلُ مَا بَالُ الدَّبِيِّ لَا يَتَزَجَّحُ • وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصَّبِيحِ لَا يَتَوَضَّحُ

وروى النسائي عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صام يوما في سبيل الله زحج الله وجهه عن النار سبعين خريفا » . وقوله : ( وَأَبَاهُ يَصِيرُ بِمَا يَعْمَلُونَ ) . أى بما يعمل هؤلاء الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ؛ ومن قرأ بالثناء فالتقدير عنده قل لم يا محمد : الله بصير بما تعملون . وقال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى علم بحفريات الأمور . والبصير فى كلام العرب : العالم بالشيء الخبير به . ومنه قولهم : فلان بصير بالطلب ، وبصير بالفتح ، وبصير بملافة الرجال ؛ قال :

فَإِنْ تَسْأَلُونِ بِالنِّسَاءِ فَأَنَّى • بِصِيرٍ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طِيبِ

قال الخطابي : البصير العالم ، والبصير المبصر . وقيل : وصف تعالى نفسه بأنه بصير على معنى جاعل الأشياء المبصرة ذوات إصبار أى مدركة للبصرات بما خلق لها من الآلة للمدركة والقوة ؛ فانه بصير بعباده أى جاعل عباده مبصرين .

قوله تعالى : ( قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ) الآية . سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي ، فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ قال : « جبريل » . قالوا : ذاك الذى يقتل بالحرب وبالفثال ، ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذى يقتل بالفطر والرحمة تابعناك ؛ فانزل الله الآية الى قوله : ( لِّلْكَافِرِينَ ) أخرجه الترمذى .

قوله : ( فَإِنَّهُ تَزَلَّهُ عَلَى قَلْبِكَ ) . الضمير فى إنه يشمل معنيين ، الأول فإن الله نزل جبريل على قلبك . الثاني فإن جبريل يقتل بالفرقان على قلبك . وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقى المعارف . ودلت الآية على شرف جبريل عليه السلام ودم حماده .

وقوله : ( يَا ذَا الْقُرْآنِ ) . أى بإرادته وتعلية . ( مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ) . معنى التوراة .  
( وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ ) . تقدم معناه والمحدثه .

قوله تعالى : ( مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّاللهِ ) . شرط ، وجوابه ( فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ) .  
وهذا وعيد وفتح لمادى جبريل عليه السلام ، وإعلام أن عداوة البعض تقتضى عداوة الله  
لهم . وعداوة العبد لله هى معصيته ، واجتناب طاعته ، ومصاداة أوليائه . وعداوة الله للعبد  
تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه .

فإن قيل : لم خص الله جبريل وميكائيل بالذكر وإن كان ذكر الملائكة قد عهما ؟  
قيل له : خصهما بالذكر تزييفا لما ؛ كما قال : ( فَيَسْمَا فَاِكْهَةً وَنَحْلٌ وَرُمَّانٌ ) . وقيل : خصا  
لأن اليهود ذكروهما ، وزلت الآية بسببهما ؛ فذكرهما واجب لئلا يقول اليهود : انا لم نناد  
الله وجميع ملائكته ؛ فنص الله تعالى عليهما لإبطال ما يتاولونه من التخصيص . ولما لم  
السان في جبريل وميكائيل عليهما السلام لفات ؛ فاما التى في جبريل فمشر :

الأول - جبريل ، وهى لغة أهل الخيلاج ؛ قال حسان بن ثابت :

• وجبريل رسول الله فينا •

الثانية - جبريل ، بفتح الجيم وهى قراءة الحسن وابن كثير ؛ وروى عن ابن كثير  
أنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقرأ جبريل وميكائيل فلا أزال أقرؤهما  
أبدا كذلك .

الثالثة - جبرئيل ، بياء بعد الميمزة مثال جبرئيل كما قرأ أهل الكوفة ؛ وأنشدوا :

شهدنا قسا غلق لنا من كتيبة • مدى النهر إلا جبرئيل أمامها

هذه لغة تميم وقيس .

الرابعة - جبرائل على وزن جبرعل مقصور وهى قراءة أبى بكر عن طهم .

الخامسة - مثلها وهى قراءة يحيى بن عيسى إلا أنه شدد اللام .

السادسة - جبرائيل بالفت بعد الراء ثم همزة ؛ وبها قرأ عكرمة .



السابعة - مثلها: إلا أن بعد الهمزة ياء .

الثامنة - جبريل بياءين بغير همزة ؛ وبها قرأ الأعمش ويحيى بن يعمر أيضا .

التاسعة - جبرين بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون .

الساخرة - جبرين بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة وهي لغة بني أسد .

قال الطبري : ولم يقرأ بها . قال النحاس وذكر قراءة ابن كثير : لا يعرف في كلام العرب قَلِيلٌ ؛ وفيه فَمَلِيلٌ نحو دُحَلِيزٍ وقَطْمِيرٍ وبرطِيلٍ ؛ وليس ينكر أن يكون في كلام المعجم ما ليس له نظير في كلام العرب ، ولا ينكر أن يكثر تغييره ، كما قالوا : إبراهيم وإبرهم وإبراهام . قال غيره : جبريل اسم أعجمي عربيته العرب . فلها فيه هذه اللغات ولذلك لم ينصرف .

قلت : قد تقدم في أول الكتاب أن الصحيح في هذه الألفاظ عربية نزل بها جبريل ببيان عربي مبين . قال النحاس : ويجمع جبريل على التكسير جباريل .

وأما اللغات التي في ميكايل فست :

الأولى - ميكايل قراءة نافع ، وميكايل بياء بعد الهمزة قراءة حمزة . ميكا لغة أهل الحجاز وهي قراءة أبي عمرو وحفص عن عاصم ؛ وروى عن ابن كثير الثلاثة أوجه ؛ قال كعب بن مالك :

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد • فيه مع النصر ميكايل وجبريل

وقال آخر :

عبدوا الصليب وكذبوا بحمد • ويجبرئيل وكذبوا ميكا

الرابعة - ميكايل مثل ميكايل ؛ وهي قراءة ابن محيصن .

الخامسة - ميكايل بياءين ؛ وهي قراءة الأعمش باختلاف .

السادسة - ميكايل كما يقال إسرائيل همزة مفتوحة ، وهو اسم أعجمي فقلنا لم ينصرف . وذكر ابن عباس أن جبر وميكا واسراف هي كلها بالأعجمية بمعنى عبد ومملوك ، وإيل اسم الله تعالى ؛ ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع لصبي سيامة : هذا كلام لم يخرج من •

إله؛ وفي الخبريل : (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً) . في أحد التأويلين وسباني . قال  
المأوردي : إن جبريل وميكائيل اسمان؛ أحدهما عبد الله، والآخر عبيد الله؛ لأن إيل هو  
الله تعالى، وجبر هو عبد، وميكاهو عبيد، فكان جبريل عبد الله، هذا قول ابن عباس وليس  
له في المفسرين مخالف .

قلت : وزاد بعض المفسرين وإسرافيل : عبد الرحمن . قال النحاس : ومن تأول الحديث  
جبر، عبد، وإله الله يجب عليه أن يقول : هذا جبرائيل ورايت جبرائيل ومررت بجبرائيل؛ وهذا  
لا يقال؛ فوجب أن يكون معنى الحديث أنه مسمى بهذا . قال غيره . ولو كان كما قالوا لكان  
مصرفاً، فترك الصرف يدل على أنه اسم واحد مفرد ليس بمضاف . وروى عبد الفتى الحافظ  
من حديث أنثت بن خليفة - وهو قتيل العامري وهو أبو حسان - عن جسة بنت  
دجاجة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم رب جبريل  
وميكائيل وإسرافيل أعوذ بك من حر النار وعذاب القبر" .

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) الآية : قال ابن عباس رضي الله عنهما :  
هنا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد جشنا بشيء نعرفه،  
وما أنزل عليك من آية بينه فتبينك يا ؟ فانزل الله هذه الآية، فذكره الطبري .

وقوله تعالى : (أَوْ كَمَا ظَاهَرُوا عَيْنًا) . الواو واو المطف، دخلت عليها الف الإستهام  
كما دخل على الفاء في قوله : (أَفْهَمُوا الْجَاهِلِيَّةَ) . (أَفْهَمَتْ نَسِيجُ الثَّمَرِ) . (أَفْهَمُوا  
وَدُورَهُ) . وعلى ثم كقولهم : (أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ) . هنا قول سيبويه . وقال الأخفش : الواو  
زائدة . وينصب للكسائي أنها أوز، حركت الواو منها تسبيلا . وقرأها قوم أوز، ساكنة الواو  
فتحى بمعنى بل؛ كما يقول القائل : لأخبريك؛ فيقول الحبيب : أو يكفى الله . قال ابن حلبة :  
وغير هذا كله تكلف؛ والصحيح قول سيبويه . كذا، نصب على الظرف؛ والمنهى في الآية

مالك بن الصيف<sup>(١)</sup> ويقال فيه ابن الصيت، كان قد قال : والله ما أخذ علينا عهد في كتابنا أن تؤمن بجمد ولا ميثاق؛ فزلت الآية . وقيل : إن اليهود عاهدوا لن نخرج عهد لنؤمن به ولنكون معه على مشركي العرب ؛ فلما بحث كفروا به . وقال عطاء : هي اليهود التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود فتقضوها كفعل قريظة والتضير؛ دليله قوله تعالى : **( الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ )** .

قوله تعالى : **( نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ )** . التبد : الطرح والإلقاء ؛ ومنه التبدد والتبذؤ، قال أبو الأسود :

وخبرني من كنت أرسلت انما . أخذت كتابي مصرضا بشمالكا  
نظرت الى عنوانه فتبذته . كنبذك فعلا أخلفت من نالكا

آخر :

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا . نبذوا كتابك واستحلوا المحرم  
وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به ؛ تقول العرب : اجعل هذا خلف  
ظهرك ، ودبراً منك ، وتحت قدمك . أي أتركه وأعرض عنه ؛ قال الله تعالى : **( وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ظَهَرَكُمْ مِنْهُ )** . وأنشد الفراء :

تيم بن زيد لا تكون حاجتي . بظهر فلا يبا على جوابها

**( بَلْ أَكْثَرُهُمْ )** . ابتداء . **( لَا يُؤْمِنُونَ )** . فعل مستقبل في موضع الخبر .

قوله تعالى : **( وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ )** . نصت لرسول ، ويموز نصبه  
على الحال . **( نَبَذَ فَرِيقٌ )** . جواب لما . **( مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ )** . نصب  
بنبذ ؛ والمراد التوراة لأن كفرهم بالنبي وتكذيبهم له نبذ لها . قال السدي : نبذوا التوراة  
وأخذوا بكتاب آصف ، وسحرة هاروت وماروت . وقيل : يموز أن يعنى به القرآن . قال

(١) في بعض نسخ الأصل : « الصيف » بالصاد المهملة .

(٢) في لسان العرب في مادة ظهر تيم بن تيس .

الشعي : هو من أبيهم بقرهونه ؛ ولكن نبذوا المنزل به : وقال سفيان بن عيينة : أدرجوه في الحرير والديباغ ، وحلوه بالذهب والفضة ، ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه ، فذلك البند . وقد تقدم بيانه سنوي . ( كُتِبَتْ لَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ ) . تنبيه من لا يعلم إذ فعلوا فعل الجاهل ؛ فيجىء من اللفظ أنهم كفروا على علم .

قوله تعالى : ( وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ) إلى قوله : ( مِنْ خَلْقٍ ) . فيه أربع وعشرون مسألة :

الأول - قوله تعالى : ( وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ) . هذا إخبار من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهم اتبعوا السحر أيضا ، وهم اليهود . وقال السدي : عارضت اليهود عجا صلى الله عليه وسلم بالثورة فاختفت الثروة والقرآن فنبذوا الثروة وأخذوا بكل آصف وسحر هاروت وماروت . وقال محمد بن اسحاق : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان في المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود كان نيا ! والله ما كان إلا سحرا ؛ فأنزل الله عز وجل : ( وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ) . أي ألفت إلى بني آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر واستسفار الطير والشياطين كان سحرا . وقال الكلبي : كتبت الشياطين السحر والترغيبات على لسان آصف كاتب سليمان ، ودفنوه تحت مصلاه حين أترع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان ؛ فلما مات استخرجوه وقالوا للناس : إنما ملككم بهذا قتلوه ؛ فأما علماء بني إسرائيل فقالوا : ماذا الله أن يكون هذا علم سليمان ؛ ولما السفة فقالوا : هذا علم سليمان وأقبلوا على تعليمه ورفضوا كتبت أنبيائهم حتى بعث الله عجا صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله عز وجل على نبيه عنده سليمان وأظهر زمامته مما رى به فقال : ( وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ) . قال عطاء : تسلا قرا من التلاوة . وقال ابن عباس : تسلا قمع ، كما تقول : جاء القوم بتلو بعضهم بعضا . وقال الطبري : اتبعوا بمعنى فضلوا .

قلت : لأن من أتبع شيئا وجهه أمامه فقد فضله على غيره ، ومعنى تتلوا يعنى تلت فهو بمعنى المضى ؛ قال الشاعر :

وإذا صررت بقبيره فاعقد به • كرم المبيان وكل طرف مساج

واضح جواب فسر به بملها • فلقد يكون أنا دم وذبايح

أى فقد كان . وما ، نفعل باتبوا أى اتبعوا ما تقولونه الشياطين على سليمان وعلته .  
وقيل : ما ، أى ؛ وليس بشئ ، لا فى نظام الكلام ولا فى صحته ؛ قاله ابن العربى . ( على ملك  
سليمان ) . أى على شرعه ونبوته . قال الزجاج : المعنى على عهد ملك سليمان . وقيل : المعنى  
فى ملك سليمان ؛ يعنى فى قصصه وصفاته وأخباره . وقال القراء : تصلح على وفى فى مثل  
هذا الموضع ؛ وقال على ، ولم يقل بعد لقوله تعالى : ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ  
إِلَّا إِذَا تَمَنَّيْنَا أَنْ نَبْعَثَ ) . أى فى تلاوته . وقد ختم معنى الشيطان واشتقاقه  
فلا معنى لإعادته . والشياطين هنا قيل : هم شياطين الجن ؛ وهو المفهوم من هذا الاسم .  
وقيل : المراد شياطين الإنس المتمردون فى الضلال ؛ كقول جرير :

أيام يدعوى الشيطان من غزلى • وكن يهوى إذ كنت شبيطانا

الثانية - قوله تعالى : ( وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ ) . توبة من الله لسليمان ؛ ولم يتقدم فى الآية  
أن أحدا نسب إلى الكفر ولكن اليهود نسبته إلى السحر ؛ ولما كان السحر كفرا صاروا  
يمتدونه من نسبه إلى الكفر ؛ ثم قال : ( وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ) . فأنبت كفرهم بتعليم  
السحر . ويعلمون ، فى موضع نصب على الحال ؛ ويجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر  
ثان . وقرأ الكوفيون سوى عامم ولكن الشياطين بتحقيق لكن ، ورفع النون من الشياطين ؛  
وكذلك فى الأخفال ولكن الله رعى ؛ ووافقهم ابن عامر . والباقيون بالتشديد والنصب . ولكن  
كلمة لها معنيان حتى الخبر الماضى ، وإثبات الخبر المستقبل ؛ وهى مبينة من ثلاث كلمات :  
لا ، ان . لافى ، والكاف خطاب ، وأن إثبات وتحقيق ؛ فدعيت الميزة استغلا وهى  
تقبل وتحقق ؛ فإذا نقلت نصبت كأن التحيلة ، وإذا خففت رفعت بها كما ترفع بأن التحيفة .

الثالثة - السحر قيل : أصله التحويه بالحيل والتخايل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني؛ فيخيل للسحور أنها بخلاف ما هي به؛ كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيرا حقيقيا يظن أنه ما يرى من الاتجار والجبال مائة معه . وقيل : هو مشتق من سحرت الصبي إذا خدعته وكذلك إذا غلبته ؛ والتسحير مثله ؛ قال لبيد :

فإن تسالبا فسيم نحن فالتنا • عصافير من هذا الأثم المسحر

آخر :

أرانا موضعين لأمر غيب • ونسحر بالطعام والشراب  
عصافير وذباب ودود • وأجرا من مجلعة الذئاب

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ . يقال : المسحر الذي خلق ذا سحر؛ ويقال من الملعون أى ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب . وقيل : أصله الخفاء؛ فإن الساحر يفعله في خفية . وقيل : أصله الصرف؛ يقال : ما سحرك عن كذا : أى ما صرفك عنه ؛ فالسحر مصروف عن جهته . وقيل : أصله الاستمالة؛ وكل من استمالك فقد سحرك . وقيل في قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَحْسَبُ قَوْمٌ مِّنْ سَحُورُونَ ﴾ . أى سحرنا فأزكنا بالتخيل عن معرفتنا . وقال الجوهري : السحر الأخذ؛ وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر؛ وقد سحر سحر سحر . والساحر : العالم، وسحره أيضا بمعنى خدعه . وقد ذكرناه . وقال مسعود : كان يسمى السحر في الجاهلية المضه . والمضه عند العرب : شدة البهت وتحويه الكذب؛ قال الشاعر :

أعوذ بربي من النافذ • مات من مضه الماض المضه

الرابعة - واختلف هل له حقيقة أولا؛ فذكر الغزنوي الحنفى في عيون المعاني له : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعي وسوسة وأمراض؛ قال : وعندنا أصله طلسم بني عند تأثير خصائص الكواكب كتأثير الشمس في زئبق عصى فرعون، أو تعظيم الشياطين لبسها ما عسر .

(١) في بعض نسخ الأصل : « وقال ابن مسعود » .

قلت : وعندنا أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء على ما يأتي ؛ ثم من السحر ما يكون بجملة اليد كالشعوذة ؛ والشعوذة : البريد خلفه يسيره . قال ابن فارس في المعجم : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهي خفة في الدين وأخذة كالسحر ؛ ومنه ما يكون كلاما يحفظ ، ورق من أسماء الله تعالى . وقد يكون من عهود الشياطين ؛ ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

الخامسة — سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم الفصاحة في الكلام واللسانة فيه سحرا ؛ فقال : « إن من البيان لسحرا » . أخرجه مالك ؛ وذلك لأن فيه تعويذ الباطل حتى يترجم السامع أنه حق ؛ فعلى هذا يكون قوله عليه السلام . « إن من البيان لسحرا » . نخرج نخرج الدم للبلاغة والفصاحة إذ شبهها بالسحر . وقيل : نخرج نخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان . قاله جماعة من أهل العلم ؛ والأقول أصح ، والدليل عليه قوله عليه السلام : « فقل بعضكم أن يكون الحق يمجى من بعض » . وقوله : « إن أنفكم إلى التزلزلون المتضيقون » . الثثرة : كثرة الكلام وتزديده ؛ يقال : ثثر الرجل فهو ثثار متهذر . والمتضيق نحو . قال ابن دريد . فلان يتفريق في كلامه إذا توسع فيه وتنطع ؛ قال : وأصله التفريق وهو الامتلاء ؛ كأنه ملأ به فمه .

قلت : وبهذا المعنى الذي ذكرناه فسره عامر الشعبي راوى الحديث وصعصعة بن صوحان قالا : أما قوله عليه السلام : « إن من البيان لسحرا » . فالرجل يكون عليه الحق وهو الحق بالجميع من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه ؛ وإنما يمدح العلماء بالبلاغة واللسانة ما لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب ، وتصوير الباطل في صورة الحق . وهذا بين ، والحمد لله .

السادسة — من السحر ما يكون كفرا من فاعله مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم من حيثة بيمة وقطع مسافة شهر في ليلة والطيران في الهواء ؛ فكل من فعل هذا ليوم الناس أنه حق فذلك كفر منه . قال أبو نصر عبد الرحمن القشيري قال أبو عمرو : من زعم

أن الساحر ينقلب الحيوان من صورة الى صورة، فيجعل الإنسان حماراً أو نحوه ويقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها، فهذا يرى قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء يدعى مثل آياتهم ومعجزاتهم، ولا يتبها مع هذا علم صحة النبوة إذ قد يحصل مثلها بالحيلة. وأما من زعم أن السحر خدع ومخاريق وتوهمات وتخيلات فلم يجب على أصله قتل الساحر إلا أن يقتل بفعله أحداً فيقتل به.

السابعة - ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة. وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخيل وإيهام لكون الشيء على ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة؛ كما قال تعالى: **(يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ يَحْزِمُهُمْ أَنْهَا تَسْمَى)**. ولم يقل تسمى على الحقيقة، ولكن قال يخيل إليه. وقال أيضاً: **(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ)**. وهذا لا حجة فيه، لأننا لا ننكر أن يكون للتخيل وغيره من جملة السحر لكن ثبت وراء ذلك أمور جاوزها العقل وورد بها السمع، فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليله، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليله ولا أخبر تعالى أنهم يأمونه الناس فدل على أن له حقيقة؛ وقوله تعالى في قصة سمرة فرعون: **(وَجَاءُوا لِيُخْرِ عَظِيمٍ)**. وسورة العلق؛ مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر ليد بن الأعصم وهو مما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى من يهود بنى زريق يقال له ليد بن الأعصم؛ الحديث. وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما حل السحر: «إن الله شفاني». والشفاء؛ إنما يكون برفع العلة وزوال المرض، فدل على أن له حقا وحقيقة؛ فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه. وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين يتعقد بهم الإجماع ولا عبرة مع اتفاقهم بمقالة المعتزلة ومخالفتهم لأهل الحق. ولقد شاع السحر وذاع في سباني الزمان وتكلم الناس فيه ولم يد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله. وروى سفيان عن أبي الأعرور عن عكرمة عن ابن عباس قال: علم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها: «الفرما». فمن كذب به فهو كافر، مكذب لله ورسوله، منكر لما علم مشاهدة وعيانا.



الثامنة - قال علماؤنا: لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات بما ليس في مقدور  
البشر من مرض وتفرق وزوال عقل وتوحيج عضو إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة  
كونه من مقدرات البشر؛ قالوا: ولا يبعد في السحر أن يستند جسم الساحر حتى يتوكل  
في الكوكنات والخلوات والانتصاب على رأس قصبه، والجرى على خيط مستند، والطيران  
في الهواء والمشى على الماء، وركوب كلب وضير ذلك؛ ومع ذلك فلا يكون السحر موجبا لذلك  
ولا علة لوقوعه ولا سببا مولدا، ولا يكون الساحر مستقلا به؛ وإنما يخلق الله تعالى هذه  
الأمياء ويحدثها عند وجود السحر؛ كما يخلق الشج عند الأكل، والرى عند شرب الماء.  
وروى سفيان عن عمار الدهمي أن ساحرا كان عند الوليد بن عقبة يشى على الجبل، ويدخل  
في است الحمار ويخرج من فيه؛ فاشتغل له جندب على السيف فقتله جندب - هذا هو  
جندب بن كعب الأزدي ويقال الجليل - وهو الذي قال في حقه النبي صلى الله عليه وسلم:  
« يكون في أمي رجل يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحق والباطل ».  
فكانوا يرونه جندبا هذا قاتل الساحر. قال علي بن المديني: روى عنه حارثة بن مضرب.

التاسعة - أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمل  
والضفادع وفاق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وانطلاق المعجنى وأمثال ذلك من عظيم  
آيات الرسل عليهم السلام. فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة  
الساحر. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: وإنما متنا ذلك بالإجماع ولولاه أجزأه.

الشارحة - في الفرق بين السحر والمعجزة؛ قال علماؤنا: السحر يوجد من الساحر وغيره،  
وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد؛ والمعجزة لا يمكن الله أحدا  
أن يأتي بمثلها وبما رخصتها؛ ثم الساحر لم يدع النبوة فلهذا يصدر منه تمييز عن المعجزة؛ فإن  
المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوة والتعدي بها كما تقدم في مقدمة الكتيب.

الحادية عشرة - وأختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذي قد ذهب مالك إلى أن  
المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرا يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته؛ لأنه أمر يستتر

كلاهما واثنان ، ولأن الله تعالى سعى السحر كفرا بقوله : ( وَمَا يُدْعِيَنَّ مِنْ آمِنَةٍ حَتَّى يَقُولَ لِأَمْسِئَةٍ قَتْلًا تَكْفُرًا ) . وهو قول أحمد بن حنبل وابن ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة . وروى قتيل السحر عن عمرو بن عثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن أسد وعن سبعة من التابعين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « حد الساحر ضربه بالسيف » خرج الترمذي وليس بالقوي ؛ أقرد به إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم ، ورواه ابن عيينة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن مرسلًا ، ومنهم من جعله عن الحسن عن جندب . قال ابن المنذر : وقد روي عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت يهرتها وجعلت فيها قرق الرقاب . قال ابن المنذر : وإذا أقر الرجل أنه يهر بكلام يكون كفرا وجب قتله إن لم يقب ، وكذلك لو ثبت به عليه بينة ووصفت البينة كلاما يكون كفرا ، وإن كان الكلام الذي ذكر أنه يهر به ليس بكفر لم يجز قتله ، فإن كان أحدث في السحر جناية تجوز قصاص اقتصاص منه إن كان عدل ذلك وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك . قال ابن المنذر : وإذا اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في السطة وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسنة ؛ وقد يجوز أن يكون السحر الذي أمر من أمرهم يقتل الساحر محرما يكون كفرا فيكون ذلك موافقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن تكون عائشة رضي الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن محرما كفرا ؛ فإن احتج بحديث جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « حد الساحر ضربه بالسيف » . فخرج لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذي يكون محرما كفرا فيكون ذلك موافقا للأخبار التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث » :

قلت : هذا صحيح ، ودماء المسلمين محظورة لا تسباح إلا بيمين ولا بيمين مع الاختلاف . والله تعالى أعلم . وقال بعض العلماء : إن قتل أهل الصلحة لأيم السحر إلا مع الكفر والاستكبار لم ينظم الشيطان الساحر إذا دل على الكفر على هذا التقدير والله تعالى أعلم . وروى عن الشافعي : لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول تصدقت القتل ، وإن قال

لم أتمد، لم يقتل، وكانت فيه الدية كقتل الخطأ، وإن أضر به أُنْبِ على قدر الضرر . قال ابن العربي : وهذا ما طل من وجهين؛ أحدهما أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف بعظم به غير الله تعالى ، وتقسب إليه المقادير والكائنات . الثاني أن الله سبحانه قد صرح في كتابه بأنه كفر فقال : ( وَمَا كَفَرْنَا بِهِ ) يقول السحر ( وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ) . به وبشبهه ، وهاوت وماروت يقولان : ( إِنَّمَا نَحْنُ قَتْلُ قَتْلُ تَكْفُرٍ ) . وهذا تأكيد لليان . احتج أصحاب مالك بأنه لا تقبل توبته ، لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزندق ، وإنما يستتاب من أظهر الكفر مرثدا . قال مالك : فإن جاء الساحر أو الزنديق تابعا قبل أن يشهد عليهما قبلت توبتهما ؛ واجبة لذلك قوله تعالى : ( فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا ) . فدل أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول السذاب فكذلك هذان .

الثانية عشرة — وأما ساحر الذمة فقتل : يقتل . وقال مالك : لا يقتل ، إلا أن يقتل بسحره ويضمن ما جنى ، ويقتل إن جاء منه ما لم يعاهد عليه . وقال ابن خزيمة : فأما إذا كان ذميا فقد اختلقت الرواية عن مالك ، فقال مرة : يستتاب وتوبته الإسلام . وقال مرة : يقتل وإن أسلم . وأما الحرابي فلا يقتل إذا تاب ؛ وكذلك قال مالك في ذمى سب النبي صلى الله عليه وسلم : يستتاب وتوبته الإسلام . وقال مرة : يقتل ولا يستتاب كالمسلم . وقال مالك أيضا في الذمى إذا سحر : يعاقب ؛ إلا أن يكون قتل بسحره ، أو أحدث حدثا فيؤخذ منه بقدره . وقال غيره : يقتل ، لأنه قد قضى العهد . ولا يرث الساحر ورثته ، لأنه كافر إلا أن يكون سحره لا يسمى كفرا . وقال مالك في المرأة تعقد زوجها عن نفسها أو عن غيرها : تنكح ولا تقتل .

الثالثة عشرة — واخطفوا هل يسئل الساحر هل السحر عن المسحور ، فأجازه سعيد ابن المسيب على ما ذكره البخاري ، وإليه مال الثوري وكراهه الحسن البصري . وقال الشافعي : لا بأس بالفتنة . قال ابن بطال : وفي كتاب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ووقات من سحر

أخصر يفقه بين جبرين ثم يضربه بالساء ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسو منه ثلاث حصوات  
ويقتل ، فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

الرابعة عشرة - أنكر معظم المعتزلة الشياطين والجن ؛ ودل إنكارهم على قلة مبالايتهم  
وركاكة دياناتهم ، وليس في إلتباسهم مستحيل عقل ، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على  
إلتباسهم ، وحتى على اللبيب المعتصم بحبل الله أن يشك ما قضى العقل بجوازه ، ونص الشرع على  
شبهته ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ . وقال : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ  
يُفَوِّصُونَ لَهُ ﴾ . إلى غير ذلك من الآي ، وسورة الحق تنص بذلك ، وقال عليه السلام :  
« إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » . وقد أنكر هذا الخبر كثير من الناس ، وأحاطوا  
روحين في جسد ، والعقل لا يحيل سلوكهم في الإنس إذ كانت أجسامهم رقيقة بسيطة على  
ما يقوله بعض الناس بل أكثرهم ولو كانوا مختلفا لصح ذلك أيضا منهم ، كما يصح دخول  
الطعام والشراب في الفراغ من الجسم ، وكذلك الدينان قد تكون في ابن آدم وهي أحياء .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ . ما ، قى ؛ والواو للعطف  
على قوله : ﴿ وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ ﴾ . وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ؛  
فنى الله ذلك . وفي الكلام تهديد وتأخير ، التقدير ، وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين  
ولكن الشياطين كفروا يملكون الناس السحريابل هاروت وماروت ؛ فهاروت وماروت  
بدل من الشياطين في قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ . هذا أولى ما حملت عليه الآية  
من التأويل ، وأصح ما قيل فيها ، ولا يلتفت إلى سواه ؛ فالسحر من استخراج الشياطين للطاقة  
جوهريهم ، ودقة أفهامهم ، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة في حال طمئن ، قال  
الله تعالى : ﴿ وَمِنَ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ . وقال الشاعر :

أعوذ بربي من النافثات ت ... ..

السادسة عشرة - إن قال قائل : كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدل إنما يكون  
على حد البدل منه ؛ فالجواب من وجوه ثلاثة ؛ الأول : أن الاثنين قد يطلق عليهما اسم

الجمع ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِإِخْوَتِهِ السُّدُسُ ﴾ . ولا يحجبها عن الثلث الى  
السدس إلا اثنان من الإخوة فصاعدا على ما يأتي بيانه في التساء . الثاني : أنها لما كانت  
الرأس في التعليم نص عليهما دون اتباعهما ؛ كما قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ﴾ . الثالث :  
إنما خصا بالذكر من بينهم لقرودهما ؛ كما قال تعالى : ﴿ فِيهِمَا نَارٌ كِهْةٌ وَنَحْلٌ وَرُءَانٌ ﴾ . وقوله :  
﴿ وَجِبْرِيلُ وَمِيكَالُ ﴾ . وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب ، فقد نص بالذكر على بعض  
أشخاص العموم إما لشرفه وإما لفضله ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ  
وَهَذَا آيٌ ﴾ . وقوله : ﴿ وَجِبْرِيلُ وَمِيكَالُ ﴾ . وإما لطيفه كقوله : ﴿ نَارٌ كِهْةٌ وَنَحْلٌ وَرُءَانٌ ﴾ .  
وإما لأكثريته ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « جعلت لي الأرض مسجدا وترينها طهورا » ؛  
وإما لتمرد وعتوه كما في هذه الآية ، والله تعالى أعلم . وقد قيل : إن ما ، عطف على السحر  
وهي مفعولة ؛ فعلى هذا يكون ما بمعنى الذي ، ويكون السحر متروك على الملكين فتنة للناس  
وامتحانا ، وفيه أن يمتحن عباده بما شاء ؛ كما امتحن نهر طالوت ، ولهذا يقول الملكان : إنما نحن  
فتنة ، أى عنة من الله . نخبرك أن عمل الساحر كفر فإن أطلعتا نجوت ، وإن عصبتا هلكت .  
وقد روى عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكتب الأخبار والسدى والكلبي ما معناه  
أنه لما كثرت الفساد من أولاد آدم عليه السلام — وذلك في زمن إدريس عليه السلام — عبرتهم  
الملائكة ؛ فقال الله تعالى : أما إنكم لو كنتم مكانهم وركبت فيكم ما ركبت فيهم لعمركم مثل  
أعمالهم ؛ فقالوا : سبحانك ! ما كان ينبغي لنا ذلك ؛ قال : فاختاروا ملكين من خياركم ؛  
فاختاروا هاروت وماروت فأتتهما الى الأرض فركب فيهما الشهوة فأمر بهما شهر حتى  
فتنا باسرة اسمها بالبطية "بيسخت" وبالفارسية "باهيل" وبالعربية "الزهرمة" اختصمت  
اليهما وراوداهما عن نفسها فابت إلا أن يدخلها دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التي حرم  
الله ؛ فأجاباهما وشربا الخمر وألما بهما فقرأهما رجل قتلتهما ، وسألهما عن الاسم الذي يصعدان به  
الى السماء فعلماهما فتكلمت به فمرجت فسخت كوكبا . وقال سالم عن عبد الله أخذني كعب الخليل  
أنهما لم يستكلا يومهما حتى عملا بما حرم الله عليهما . وفي غير هذا الحديث : غيبرا بن عذاب

الدنيا وعذاب الآخرة فاختاروا عذاب الدنيا ؛ فهما يمدحان ببايل في سرب من الأرض .  
 قيل : بابل العراق . وقيل : بابل نهاوند . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : "بابل نهاوند" إذا  
 رأى الزهرة وسبيلا سبهما وشتمهما ؛ ويقول : إن سبيلا كان عشارا باليمن يظلم الناس ، وإن  
 الزهرة كانت صاحبة هاروت وماروت .

قنا : هذا كله ضيف وبيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصح منه شيء ؛ فإنه قول نفسه  
 الأصول في الملائكة الذين هم أماء الله على وجهه ، وسفرائه إلى رسله ( لَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ مَا أَسْرَمُوا  
 وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) . ( بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ يَتَمَسَّكُونَ ) .  
 ( يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ) . وأما العقل فلا يتكره وقوع المصيبة من الملائكة  
 ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ، ويخاف فيهم الشبهات ؛ إذ في قدرة الله تعالى كل موهوم ؛  
 ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائر لا يدرك إلا بالسمع  
 ولم يصح ؛ وما يدل على عدم صحة أن الله تعالى خلق التجموع وهذه الكواكب حين خلق  
 السماء ؛ ففى الخبر : "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوائر زحل والمشتري وطاراد  
 والزهرة والشمس والقمر" . وهذا معنى قول الله تعالى : ( وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) .  
 فثبت بهذا أن الزهرة وسبيلا قد كانا قبل خلق آدم ؛ ثم أن قول الملائكة : ما كان ينبغي لنا  
 عورة ، معناه لا تقدر على قتنا ؛ وهذا كفر نموذج بالله من ومن نسبته إلى الملائكة الكرام صلوات  
 الله عليهم أجمعين ؛ وقد ترفاهم وهم المترفون عن كل ما ذكره ونقله القسرون . سبحان ربك  
 رب العزة عما يصفون .

السابعة عشرة — قرأ ابن عباس وابن أبيزى والضحاك والحسن . المكيين بكسر اللام .  
 قال ابن أبيزى : هما داود وسليمان . ثناء على هذا القول أيضا ثافية ؛ وضعف هذا القول  
 ابن العربي . وقال الحسن : هما عليان كانا ببايل ملكيين ؛ ثناء على هذا القول مفعولة غير ثافية .  
 الثامنة عشرة — قوله تعالى : ( يَسَائِلُ ) . بابل ، لا ينصرف للتأنيث والتعريف  
 والنجم ، وهي قطر من الأرض ؛ قيل : العراق وما والاها . وقال ابن مسعود لأهل الكوفة :

أثم بين الحيرة وبابل : وقال قلعة : هي من نصيبين إلى رأس العين . وقال قوم : هي بالمغرب . وقال ابن عطية : وهذا ضعيف . وقال قوم : هو جبل تهاؤند ؛ فله تعالى أعلم . واخطف في تسميته يابل ؛ فقيل : سمي بذلك لتبليل الألسن بها حين سقط صرح نمرود . وقيل : سمي به لأن الله تملك لما أراد أن يخلف بين السنة بن آدم بعث ريحا فحشرتهم من الآفاق إلى بابل ؛ فبذل الله ألسنتهم بها ؛ ثم فزقهم تلك الريح في البلاد . والبلبة : القفر ؛ قال مسدد الخليل . وقال أبو عمر بن عبد البر : من أخيرا قيل في البلبة وأحسه ما رواه طبري بن أبي هند عن يثيب بن أحر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام لما حط إلى أسفل الجودي أبقى قرية وسماها ثمانين ؛ فأصبح ذات يوم وقد تبللت ألسنتهم من ثمانين لغة ؛ إسماعا اللسان للري ؛ وكان لا يفهم بعضهم عن بعض .

الثامنة عشرة - روى عبد الله بن بشر الساذني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتوا الدنيا فوالقني غنى يدها إنها لأخمر من حاروت وماروت » . قال علماؤنا : إنما كانت الدنيا أخمر منها لأنها تسحرك بغيرها ، وتكسك فتنها ، فتدعوك إلى التلصص عليها ، والتنافس فيها ، والجلب لها واللح ، حتى تنزق بينك وبين طاعة الله تعالى ، وتفرق بينك وبين رؤية الحق ووطئه . قالوا الدنيا أخمر منها ، تأخذ بقلبك عن الله ، وعن القيام بحقوقه ، وعن وعده ووعيده . وصر الله الدنيا عبتها وتغذك بشهواتها وتملك بآمانيتها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حبك الشيء يمس ويضم » .

الوفية عشرين - قوله تعالى : ( حَارُوتَ وَمَارُوتَ ) . لا ينصرف حاروت ، لأنه أعجمي مرفة ، وكذا ماروت ؛ ويجمع حواريت ومارويت ؛ مثل طواغيت ؛ ويقال : حواروة وحوار ، وماروة وسوار ، وظه جالوت وظلوت . قاطم . وقد تقدم حل مما يمكن لو غيرهما ؟ خلاف . قال الزجاج : وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : أي والذي أنزل على الملكين ، وإن الملكين يملكان الناس تليق إتيانهم من السحر لا تليق دعاء إليهم . قال الزجاج : وهذا القول الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر . وسماه الله تعالى الملكين على التثنية

فيقولان لم : لا تفعلوا كذا ، ولا تتحلوا بكذا لتفروا بين المرء وزوجه . والذي أنزل عليهما هو النبي ، كأنه قولا للناس : لا تفعلوا كذا ؛ فَيَعْلَمَانِ معنى يُعْلَمَانِ ؛ كما قال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا نَبِيَّ آدَمَ ﴾ . أي أكرمنا .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ . من زائدة للتوكيد ، والتقدير وما يعلمان أحدا . ﴿ حَتَّى يَقُولَا ﴾ . نصب بحتى فلذلك حذف منه النون ؛ ولغة هذيل وتقريب عني بالعين غير المعجمة . والضمير في يعلمان فاروت وماروت . وفي يعلمان قولان ؛ أحدهما : أنه على باب من التعليم . الثاني : أنه من الإعلام لا من التعليم ؛ فَيَعْلَمَانِ بمعنى يُعْلَمَانِ وقد جاء في كلام العرب تعلم بمعنى اعلم . ذكره ابن الأعرابي وابن الأنباري ؛ قال كعب ابن مالك :

تعلم رسول الله أنك مدركي • وإن وعيدا منك كالأخذ باليد

وقال القطامي :

تعلم أن بعد النى رشدا • وأن لذلك النى آقشعا

وقال زهير :

تعلّمها<sup>(١)</sup> لعمري الله ذا قسما • فاقدر بذررك وانظر أين تستك

وقال آخر :

تعلم أنه لا طير إلا • على مطير وهو النور

﴿ إِنَّمَا تَحْنُقُ فِتْنَةً ﴾ . لما أنبا ففتنهما كانت الدنيا أسمر منهما حين كنبت فتنها . ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ . قالت فرقة بتعليم السحر . وقالت فرقة باستعماله . وحكي المهدوي أنه استهزا لانهما إنما يقولانه لمن تحققا ضلاله .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ . قال سيويه : التقدير فهم يتعلمون ؛ قال : ومثله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . وقيل : هو مطوف على موضع ما يعلمان ، لأن

(١) في لسان العرب في مادة شك : تعلما لعمري الله ذا قسما • واقدر بذررك وانظر أين تستك



قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ ﴾ . وإن دخلت عليه ما النافية فقصته الإيجاب في التعليل . وقال الفراء :  
 هي مردودة على قوله : ﴿ يُعَلِّمَانِ النَّاسَ السَّحَرَ ﴾ فيعلمون ؛ ويكون فيعلمون متصلة بقوله :  
 ﴿ إِنَّمَا تَنحَنُ قَتْلَهُ ﴾ فيأتون فيعلمون . قال السدي : كانا يقولان لمن جاءهما : إنما نحن فتنة  
 فلا تكفروا ؛ فإن أبي أن يرجع قال له : أنت هذا الرباد قبل فيه ؛ فإذا بال فيه خرج منه نور  
 يسقط الى السماء ، وهو الإيمان ؛ ثم يخرج منه دخان أسود فيدخل في أذنيه ، وهو الكفر ؛  
 فإذا أخبرهما بما رآه من ذلك علماه ما يفرق بين المرء وزوجه . وذهبت طائفة من العلماء الى  
 أن الساحر ليس يقدر على أكثر مما أخبر الله عنه من التفرقة ، لأن الله ذكر ذلك في مرض  
 اللذم للسحر والغاية في تعليمه ؛ فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره . وقالت طائفة :  
 ذلك يخرج على الأغلب ؛ ولا ينكر أن الساحر له تأثير في القلوب ؛ بالحب والبغض وبالقاء  
 الشرور حتى يفرق الساحرين المرء وزوجه ، ويحول بين المرء وقلبه ؛ وذلك بإدخال الآلام  
 وعظيم الأسقام ؛ وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره مماندة . وقد تقدم هذا والحمد لله .

الثالثة والعشرون - قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .  
 ما هم ، إشارة الى السحرة . وقيل : الى اليهود . وقيل : الى الشياطين . ( يَضَارِّينَ بِهِ ) .  
 أى بالسحر . ( مِنْ أَحَدٍ ) أى أحداً ؛ ومن زائدة . ( إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ) . أى بإرادته وقضائه  
 لا بإمره ، لأنه تعالى لا يأمر بالمشيئة ويقضى على الخلق بها . وقال الزجاج : إلا بإذن الله ،  
 إلا يعلم الله . قال النحاس : وقول أبي إسحق إلا بإذن الله ، إلا يعلم الله غلط ؛ لأنه إنما يقال  
 في العلم إذن ، وقد أذنت إذا . ولكن لما لم يعمل فيما بينهم وبينه ، وظلوا يفعلونه كان كأنه  
 أباحه مجازاً .

الرابعة والعشرون - قوله تعالى : ﴿ وَيَتْلَمَعُونَ مَا فِيهِمْ ﴾ . يريد في الآخرة وإن  
 أخذوا بها فعما قليلا في الدنيا . وقيل : يضرهم في الدنيا ، لأن ضرر السحر والتفريق يعود  
 على الساحر في الدنيا إذا شر عليه ؛ لأنه يؤدب ويؤجر ، ويلحقه شؤم السحر . وبقى الآي  
 بين لتقدم مآثيها . ( وَلَقَدْ عَلِمُوا ) . لام توكيد . ( لَمَّا أَشْتَرَاهُ ) لام عينية ، وهي

للتوكيد أيضا . وموضع من رفع بالابتداء لأنه لا يعمل ما قبل اللام فيها بعدها . ومن ، بمعنى  
الذى . وقال الفراء : نهي للجزاء . وقال الزجاج : ليس هذا بموضع شرط ؛ ومن ، بمعنى  
الذى كما قول : لقد علمت لمن جاءك ماله عقل . ( مِنْ خَلْقٍ ) . من زائدة ، والتقدير  
ماله في الآخرة خلق ؛ ولا تزداد في الواجب ، هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : تكون  
زائدة في الواجب ، واستدلوا بقوله تعالى : ( يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ) . والخلاق : النصيب .  
قوله مجاهد . قال الزجاج : وكذلك هو عند أهل اللغة ، إلا أنه لا يكاد يستعمل إلا للنصيب  
من الخير . وسئل عن قوله تعالى : ( وَلَقَدْ مَلِئُوا مِآنَ شَرِّهِ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ) .  
فاخبر أنهم قد علموا ، ثم قال : ( وَلَيْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ) . فاخبر أنهم  
لا يعلمون ، فالجواب هو قول قطرب والأخفش : أن يكون الذين يعلمون الشياطين ، ولا يعلمون  
شروا أنفسهم أى باعوها هم الإنس الذين لا يعلمون . قال الزجاج وقال علي بن سليمان :  
الأجود عندي أن يكون ( وَلَقَدْ مَلِئُوا ) للذين لأنهم أولى بأن يعلموا . وقال عطاء بن  
يقل : الزيدان قاموا . وقال الزجاج : الذين علموا علماء اليهود ؛ ولكن قيل : لو كانوا  
يعلمون أى فدخلوا في عمل من يقال له : لست يعلم ؛ لأنهم تركوا العمل بعلمهم واسترشدوا  
من الذين عملوا بالسحر .

قوله تعالى : ( وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَوْا ) . أى آتوا السحر ، ( لَمَثُوبَةٌ ) . المثوبة .  
الثواب ؛ وهى جواب ولو أنهم آمنوا ، عند قوم . وقال الأخفش سعيد : ليس للوهنا  
جواب في اللفظ ولكن في المعنى ؛ والمعنى لا يخيبوا . وموضع أن ، من قوله : ( وَلَوْ أَنَّهُمْ ) .  
موضع رفع أى لو وقع إيمانهم ؛ لأن لو لا يلبس إلا العمل ظاهرا أو مضمرا ؛ لأنها بمنزلة حرف  
الشرط إذ كان لا بد له من جواب ؛ وأن يليه فعل . قال محمد بن يزيد : وإنما لم يحذف لأن  
سبيل حروف المجازاة كلها أن تطلب الماضى إلى معنى المستقبل ، فلما لم يكن هذا في لو لم  
يجز أن يحذف بها .

قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ) . فيه محسن

سائل .

الأول — قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ) الآية . ذكر شيئا آخر من جهالات اليهود؛ والمقصود نهي المسلمين عن مثل ذلك . حقيقة راعنا في اللغة أراعنا ولزقنا ، لأن المفاعلة من أتين ، فتكون من رعاك الله أى احفظنا ونحفظك ، وأراقنا ولزقنا . ويميز أن يكون من أراعنا سمك أى تفرغ سمك لكلامنا ، وفي المخاطبة بهذا جفاء فأمر المؤمنين أن يتخيروا من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أرقها . قال ابن عباس : كان السامعون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : راعنا ، على جهة الطلب . والرغبة من المראה أى التفت اليها ، وكان هذا لسان اليهود سباً أى اسم لا سمعت ، فاعتنموها وقالوا : كنا نسبه سرا فالآن نسبه جهرا ، فكأنوا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم ويضعكون فيما بينهم ، فسموها سعد بن معاذ وكان يعرف لفتحهم فقال لليهود : عليكم لعنة الله ! لأن سمعتها من رجل منكم يقولوا للنبي صلى الله عليه وسلم لأضرين عنقه ، فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فزلت الآية ونهوا عنها فلا تقتدى بها اليهود في اللفظ ، وتقصد المعنى الفاسد .

الثانية — في هذه الآية دليلان أحدهما على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والتفض ، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض وذلك يوجب الحد عندنا خلافا لأبي حنيفة والثاني وأصحهما حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة . وسيأتى في النور بيان هذا إن شاء الله تعالى .

الدليل الثاني — التمسك بسد الفرائض وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية عنه ، وقد دل على هذا الأصل الكتاب والسنة . والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع ، أما الكتاب فهذه الآية ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك ، وهى سب بلنتهم فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ لأنه ذريعة للسب . وقوله تعالى : ( وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ) . فنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك . وقوله تعالى : ( وَأَسْأَلُهُمُ عَنِ الْغَرِيِّ أَيُّهَا كَانَتْ سَاحِرَةٌ أَلْبَحِرُ ) الآية . لحرم عليهم تبارك وتعالى الصيد

في يوم السبت؛ فكانت الحيتان تأتي يوم السبت شرعا أي ظاهرة؛ فسجدوا عليها يوم السبت  
واخذوها يوم الأحد وكان السد ذريعة للاصطياد؛ فمسخهم الله قردة وخنازير؛ وذكر الله  
لنا ذلك في معنى التحذير عن ذلك؛ وقوله تعالى لأدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ .  
وقد تقدم . وأما السنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة، منها حديث عائشة رضي الله عنها أن  
أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهن ذكرتا كنيسة رأياها بالحيشة فيها تصاور؛ رسول الله صلى  
الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح  
فأتى بنا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله» . أخرجه  
البخاري ومسلم . قال علماؤنا: يفعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا  
أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم؛ فبعضهم بذلك  
أزمان ثم أنهم خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم ووسوس لهم الشيطان أن إباءكم  
وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصور فبعضهم لحذر النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك؛  
وشدّد التكبير والوعيد على من فعل ذلك؛ وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك؛ فقال: «أشدت غضب  
الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم ومصلحتهم مسجدا» . وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثنا  
يعبد» . وروى مسلم عن الثمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:  
«الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه  
ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه» فنع من الإقدام  
على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات . وذلك سدا للذريعة . وقال صلى الله عليه وسلم:  
«لا يبلغ البعد أن يكون من المتيين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به البأس» . وقال  
صلى الله عليه وسلم: «إن من الكبر أن تمش الرجل والديه» قالوا يا رسول الله: وهل يشتم  
الرجل والديه؟ قال: «نعم يسيب أبا الرجل فيسيب إياه ويسيب أمه فيسيب أمه» فجعل  
التعريض لسب الآباء كسب الآباء . وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا تبايعتم بالبيعة وأخذتم  
أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى

دينكم . قال أبو عبيد المروى : العينة هو أن يبيع الرجل من رجل سلعة بئني معلوم إلى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به . قال : فإن اشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بئني معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بئني أكثر مما اشتراها إلى أجل مسمى ثم باعها المشتري من البائع الأول بالقدر بأقل من الثمن فهذه أيضا عينة وهي أهون من الأولى ، وهو حائر عند مصهم ، وسُميت عينة لحصول التقدير لصاحب العينة ؛ وذلك لأن العين هو المال الحاضر والمشتري إنما يشتريها ليعمها بعين حاضر يصل إليه من موره . وروى ابن وهب عن مالك ، أن أم ولد لزيد بن الأرقم ذكرت لعائشة رضي الله عنها أنها باعت من زيد عبدا بثمانية إلى المطاء ثم ابتاعته منه بستائة هذا ؛ فقالت عائشة : بشئ ما شئت ، وبشئ ما أشتيت ! أظني ريذا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم ينب ؛ ومثل هذا لا يقال بالرأي لأن إبطال الأعمال لا يتوصل إلى معرفتها إلا بالوحى ؛ فثبت أنه مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعوا الربا والرصة . ونهى ابن عباس رضي الله عنهما عن دراهم بدرهم بينهما جريرة .

قلت : فهذه هي الأدلة التي لنا على سبب الدرائم وعليه بنى المالكية كتاب الآجال وغيره من المسائل في البيوع وغيرها . وليس عند الشافعية كتاب الآجال لأن ذلك عندهم عقود مختلفة مستقلة ، قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر لا على الظنون . والمالكية جعلوا السلعة عملة ليتوصل بها إلى دراهم بأكثر منها . وهذا هو الربا بعينه فاعلمه .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ . نهى يقتضى التحريم على ما تقدم . وقرأ الحسن وراعنا متونة . وقال . أى هجرنا من القول وهو مصدر ونصبه بالقول ، أى لا تقولوا رعونة . وقرأ زرين حيش والشمس وراعونا ؛ يقال لما تراء من الجبل : رعن ؛ والجبل أروعن . وجيش أروعن أى متفرق ؛ وكذا رجل أروعن أى متفرق الجميع ليس عقله مجتمع ؛ عن النحاس . وقال ابن فارس : رعن الرجل يرعن دعنا فهو أروعن أى أروع ؛ والمرأة رعاء . وسُميت البصرة رعاء لأنها تشبه برعن الجبل . قال ابن دويد ذلك وأفتد للفرزدق :

لولا ابن عتبة عمسرو والرجاء له . ما كانت البصرة الرعاء لى وطنها

الزامة - قوله تعالى : ( وَفُؤُوا أَنْظَرَا ) . أمروا أن ينظروا على الله عليه وسلم  
بالإجلال ، والمعنى أقبل علينا وأنظر إلينا ، خذف حرف التعدية كما قال :

ظاهرات الجلال والحسن ينظر . ن كما ينظر الأراك النظار

أي إل الأراك . وقال مجاهد : المعنى فهمنا وبين لنا . وقيل : المعنى انتظروا وتأن بنا ؛ قال :

فإنك إن تنظروني ساعة . من الدهر يفتني لدى أم جندب

والظاهر استدعاء نظر العين المقترون بتدوير الحال ؛ وهذا هو معنى راعنا فقبلت اللفظة  
لثومين وزال تعلق اليهود ، وقرأ الأعمش وغيره أنظروا بقطع الألف وكسر الظاء بمعنى أخرنا  
وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقى منك ؛ قال الشاعر :

أبا هند فلا تهمل علينا . وأنظرونا نخشعك اليقينا

السلامة - قوله تعالى : ( وَأَسْمُوا ) . لما نهى وأمر جل وعز ، حض على الصبح  
التي في ضمة الطاعة ، وأعلم أن لمن خلف أمره فكفر مذابا إليهما .

قوله تعالى : ( مَا يَوْذُ ) : أي ما يتخى . وقد تقدم . ( الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
وَلَا الْمُشْرِكِينَ ) . معطوف على أهل ؛ ويجوز ولا المشركون بقطعه على الذين قاله للنحاس .  
( أَنْ يَتَقَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ ) . من زائدة ، خير اسم ما لم يسم فاعله . وأن في موضع نصب ،  
أي بأن يتقل . ( وَأَلَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ) . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :  
يختص برحمته أي بنوته خص بها محبا صلى الله عليه وسلم . وقال قوم : الرحمة القرآن .  
وقيل : الرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منح الله بها عباده قديما وحديثا ؛  
يقال : رحم يرحم إذا رفق . والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى ؛ قاله ابن فارس . ورحمة الله لعباده :  
إنعامه عليهم وغفره لهم . ( وَأَلَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ) . ذو بمعنى صاحب .

قوله تعالى : ( مَا تَنْفَخُ مِنْ لَآلٍ أَوْ تَنْفِخُهَا نَأْتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ يُلْغَمُ ) . فيه خمس عشر

الأولى - قوله تعالى : ( مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيَهَا ) . تنسها ، عطف على تنسخ ، وحذفت الياء للجزم . ومن قرأ نساها حذفت الضمة من الهمزة للجزم وسياق معناه . نأت ، جواب الشرط ؛ وهي آية عظمى في الاجكام ، وسببها أن اليهود لما حصدوا المسلمين في التوجه الى الكعبة ، وطلعتوا في الإسلام بذلك ، وقالوا : إن هما يامر أصحابه بشئ ثم ينهاهم عنه ، فما كان هذا القرآن إلا من جهته ، ولهذا يناقض بعضه بعضا ؛ فانزل الله : ( وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ) . وانزل : ( مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ ) .

الثانية - معرفة هذا الباب أكيدة ، وفائدته عظيمة ، لا تستغنى عن معرفته العلماء ، ولا ينكره إلا الجهلة الأغنياء ، لما يترتب عليه في النوازل من الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام . روى أبو اليخترى قال : دخل على رضى الله عنه المسجد فإذا رجل يخوف الناس ؛ فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل يُدَكِّرُ الناس ؛ فقال : ليس برجل يُدَكِّرُ الناس ! لكنه يقول : أنا فلان ابن فلان فاعرفنى ، فأرسل اليه فقال : أعرف الناس من المنسوخ ! فقال : لا ؛ قال : فأخرج من مسجدنا فلا تُدَكِّرُ فيه . وفي رواية أخرى أعلمت الناس بالمنسوخ ؛ قال : لا ؛ قال : هلكت وأهلك . ومثله عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الثالثة - النسخ في كلام العرب على وجهين :

أحدهما : النقل ؛ كقول كعب من آخر ، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا ، أعني من اللوح المحفوظ وأُنزل إلى بيت العزة في سماء الدنيا ؛ وهنا لا مدخل له في هذه الآية ؛ ومنه قوله تعالى : ( إِنَّا نَكْتُبُكَ تَنَسِيْحًا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) . أى نأمره بفسخه وإبائه .

الثانى : الإبطال والإزالة ، وهو المقصود هنا ، وهو منقسم في اللغة على ضربين :

أحدهما : إبطال الشئ وزواله ، وإقامة آخر مقامه ؛ ومنه نسخت الشمس الظل إذا أنهت وحلت محله ؛ وهو معنى قوله تعالى : ( مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيَهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ) . وفي صحيح مسلم : " لم تكن نبوة قط إلا تأنخت " . أى تحوّل من حال الى حال ، يعنى أمر بالأمة . قال ابن فارس : النسخ نسخ الكتاب . والنسخ أن يزول أمر أو كلف من قبل بعمل به

ثم يفسحه بطلت فيه ؛ كآية تحمل بأمر لم يفسخ بأمرى ؛ وكل شيء خلف شيئا فقد انتسخه ؛ يقال : انتسخت الشمس الظل ، وانتسب الشاب ؛ وتناخ الوردة ؛ أن يموت ووردة بدورته وأصل المبات قام لم يفسح ، وكذلك تناخ الأرومة والقرون .

الثاني : قوله الذي عهد لنبيهم الرخلة ؛ كقولهم : فبحث الرخ الأثر من هذا الشيء فيه تعالى : ( يَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلِيهِ السُّنَنُ ) أي يزله فلا يزل ولا يثبت في المصحف بده .  
وقد مر أبو عبد الله أن هذا النسخ الثاني : قد كان يزل على النبي صلى الله عليه وسلم السورة فرفع فلا يزل ولا يكتب .

قلت : ومنه ما روى عن أبي بن كعب وعائشة رضي الله عنهما أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول ؛ على ما يلقى منها طائفة من الله تعالى . وبما يدل على هذا ما ذكر أبو بكر الأنباري حدثنا أبي حدثنا نصر بن داود حدثنا أبو عبيد حدثنا عبد الله ابن صالح عن الليث عن يونس وعفيل عن ابن شهاب قال حدثني أبو الجملة بن سهل بن حنيف في مجلس سعيد بن المسيب أن رجلا قام من الليل ليقرا سورة من القرآن فلم يقدر على شيء منها ، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها ، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها ؛ فشدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أسدس : قت الليلة يا رسول الله لأقرأ سورة من القرآن فلم أقدر على شيء منها ؛ فقام الآخر فقال : وأما والله كذلك يا رسول الله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها مما نسخ البقرة » . وفي إحدى الروايات : وسعيد بن المسيب يسمع ما يحدث به أبو امامة فلا ينكره .

الرابطة - أنكرت طوائف من المسلمين للإسلام المتأخرين جوارحه ؛ وهم محجوبون بإجماع السلف السابق على وقوعه في التسمية . وأنكره أيضا طوائف من اليهود ؛ وهم محجوبون بما جاء في توراتهم بزعمهم أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة : إنى جعلت كل فاعية ما كنالك وقربك وأطقت فاك لكم ، كنيات المشب ما خلا الدم فلا تأكلوه . ثم قد حرم على موسى وعلى بني إسرائيل كنها من الحيوان ؛ وبما



كان آدم عليه السلام يزوج الأخ من الأخت؛ وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره؛ وبأن إبراهيم الخليل أمر بذبح ابنه ثم قال له: لا تفجع؛ وبأن موسى أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم؛ وبأن نؤنه غير متعبد بها قبل يثمه؛ ثم تعبد بها بعد ذلك، إلى غير ذلك؛ وليس هذا من باب البداء بل هو من قتل العباد من عبادة إلى عبادة، وحكم إلى حكم، لضرب من المصلحة، إظهاراً لحكته وكإل مملكته. ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية؛ وإنما كان يلزم البداء لولم يكن علماً بمآل الأمور؛ وأما العالم بذلك فأنما يتقبل خطاباته بحسب يتقبل المصالح؛ كالطبيب المراعى أحوال المريض؛ فوإى ذلك فى خلقته بمشيئته وإرادته، لا إله إلا هو. فخطابه يتقبل، وعلمه وإرادته لا تتغير؛ فإن ذلك محال فى جهة الله تعالى.

وجعل اليهود النسخ والبداء شيئاً واحداً؛ ولذلك لم يجوزوه فضلاً. قال النحاس: والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العباد من شىء إلى شىء قد كان حلالاً فيحرم، وأركان حراماً فيحل. وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه كفوك: امض إلى فلان اليوم؛ ثم تقول: لا تمض إليه؛ فيبدولك العدول عن القول الأول؛ وهذا يلحق البشر لقصانهم؛ وكذلك إن قلت: ازرع كذا فى هذه السنة؛ ثم قلت: لا تفعل؛ فهذا البداء.

الخامسة — أعلم أن النسخ على الحقيقة هو الله تعالى؛ ويسمى الخطاب الشرعى ناسخاً بمجرد إذ به يقع النسخ؛ كما قد يتميز يسمى المحكوم فيه ناسخاً فيقال: صوم رمضان ناسخ لصوم عاشوراء؛ بالنسخ هو الزوال، والمنسوخ عنه هو المتعبد بالعبادة المزالة، وهو المكلف. السادسة — اختلفت عبارات أئمتنا فى حد النسخ؛ فالذى عليه الحنابلة من أهل السنة أنه إزالة ما قد استقر من الحكم الشرعى بخطاب وارد متراجهاً؛ هكذا حده القاضي عبد الوهاب، والقاضى أبو بكر وزاد: لولاه لكان السابق ثابتاً بخاتماً على معنى النسخ القنوى؛ إذ هو معنى الرفع والإزالة، وتعمراً من الحكم العقل، وذكر الخطاب ليم وجوه الدلالة من النص، والظاهر، والمفهوم، وغيرها؛ وليخرج القياس والإجماع؛ إذ لا يتصور النسخ فيما ولا بهما؛

وقيد بالترتبي، لأنه لو اتصل به لكان بيانا لغاية الحكم لا نسخا، أو يكون آخر الكلام يرفع  
أوله، كقولك : قم، لا تهم .

السابعة - المنسوخ عند آتينا أهل السنة هو الحكم الثابت نفسه لا مثله، كما نقوله  
المعتلة بأنه الخطأ البطل على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدم زائل . والذي  
فأنهم إلى ذلك يذهبهم في أن الأوامر مرادة، وأن الحسن صفة تسمية الحسن، ومراد الله  
حسن . وهذا قد أبطله علمائنا في كتبهم .

الثامنة - اختلف علمائنا في الأخبار هل يدخلها النسخ، فالجمهور على أن النسخ إنما  
هو مختص بالأوامر والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى .  
وقيل : إن الخبر إذا تضمن حكما شرعيا، جاز نسخه؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ  
وَالْأَعْنَابِ تَجِيءُونَ مِنْهُ سَكْرًا ﴾ . وهناك يأتي القول فيه إن شاء الله تعالى .

التاسعة - التخصيص من الموم يوم أنه نسخ وليس به، لأن المخصص لم يتأوله  
الموم قط، ولو ثبت تناول الموم لشيء، قائم أخرج ذلك الشيء من الموم لكان نسخا  
لا تخصيصا . والمتقدمون يطلقون على التخصيص نسخا توسعا وبجازا .

العاشرة - أعلم أنه قد يرد في الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والاستغراق؛ ويرد تهيدا  
في مواضع آخر فيرفع ذلك الإطلاق؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ  
أُجِيبُ دَعْوَةَ السَّائِعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . فهذا الحكم ظاهره خبر عن إجابة كل داع على كل حال؛  
لكن قد جاء ما يفيد في موضع آخر؛ كقوله : ﴿ فَيَكْثِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾ . فقد  
يظن من لا بصيرة عنده أن هذا من باب النسخ في الأخبار وليس كذلك بل هو من باب  
الإطلاق والتقييد . وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان في موضعها إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة - قال علمائنا رحمهم الله تعالى : جائز نسخ الأهل إلى الأخف؛ كنسخ  
الثبوت لعشرة بالثبوت لأشهر . ويجوز نسخ الأخف إلى الأهل؛ كنسخ يوم عاشوراء  
والإيام المدودة بربضان . على ما يأتي بيانه في آية الصيام . وينسخ المثل بمثله تقلا وخفة،

كالقبلة، وينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى، وينسخ القرآن بالقرآن، والسنة بالمعارة؛ وهذه المعارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي، وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد .

وحقائق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة وذلك موجود في قوله عليه السلام : « لا وصية لوارث » . وهو ظاهر مسائل مالك . وأبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي؛ والأول أصح بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء؛ وأيضاً فإن الجدل ساقط في حد الزنا عن التيب الذي يرجح ، ولا يسقط لذلك إلا السنة ، فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا بين .

والخلاف أيضاً على أن السنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود في القبلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى؛ وفي قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ . فإن رجوعهم إنما كان يصلح النبي صلى الله عليه وسلم لقريش .

والخلاف على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً ؛ واختلفوا هل وقع شرعاً ؟ فذهب أبو المالكي وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباء، على ما يأتي بيانه . وأبى ذلك قوم . ولا يصح نسخ نص بقياس، إذ من شرط القياس ألا يخالف نصاً .

وهذا كله في مدة النبي صلى الله عليه وسلم، وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمة أنه لا نسخ ؛ ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به إذ انقاده بعد انقطاع الوحي؛ فإذا وجدت إجماعاً يخالف نصاً فيعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا تعلمه نحن، وأن ذلك النص المخالف متروك العمل به ، وأن مقتضاه نسخ وبقي يقرأ ويروى؛ كما أنبأ عنه السنة في القرآن تلى . فأما هذا فانه نفيس . ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة؛ ومثله صدقة النجوى ، وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم ، وقد تنسخ التلاوة والحكم معاً ومنه قول الصديق رضي الله عنه : كما نقرأ لا نرغبوا عن آياتكم فانه كفر، ومثله كثير . والذي عليه الخلاف أن من لم يسلنه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول، كما يأتي بيانه في تحويل القبلة .

والخلق على جواز نسخ الحكم قبل ضله وهو موجود في قصة النسيح، وفي فرض تحمين صلاة قبل فعلها بنسخ، على ما يأتي بيانه في الإسراء والصافات، إن شاء الله تعالى .

الثانية عشرة - لمعرفة النسخ طرق، منها : أن يكون في اللفظ ما يدل عليه، كقوله عليه السلام : « كنت نيتكم عن زيارة القبور فزورها ونيتكم عن الأثرية إلا في ظروف الأدم فاشربوا في كل وعاء غير ألا تشربوا مسكرا ونحوه » . ومنها : أن يذكر الراوي التاريخ، مثل أن يقول : سمعت عام الخندق، وكان المنسوخ معلوما قبله . أو يقول : نسخ حكم كذا بكذا . ومنها : أن تجمع الأمة على حكم أنه منسوخ، وأن تأخذه مقدم . وهذا الباب مبسوط في أصول الفقه نهبا منه على ما فيه لمن اقتصر كفاية، والله الموفق للهداية .

الثالثة عشرة - قرأ الجمهور ما نسخ بفتح النون من نسخ وهو الظاهر المستعمل على معنى ما نزع من حكم آية ونسخ تلاوتها كما تقدم . ويحتمل أن يكون المعنى ما نزع من حكم آية وتلاوتها على ما ذكرنا . وقرأ ابن عاصم نسخ بضم النون من أنسخ الكتاب على معنى وجدته منسوخا . قال أبو حاتم : هو غلط . وقال الفارسي أبو علي : ليست لغة، لأنه لا يقال : نسخ وأنسخ بمعنى، إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخا، كما تقول : أحدثت الزيل وأجملته بمعنى وجدته محمدا وبغيا . قال أبو علي : وليس نجده منسوخا إلا بأن نفعه كفتق القراءتان في المعنى وإن اختلفتا في اللفظ . وقيل : ما نسخ، ما نجمل لك نسخة، يقال : نسخت الكتاب إذا كتبته، وأنسخته غيري إذا جعلت نسخة له . قال مكي : ولا يجوز أن تكون الحزمة للعدى، لأن المعنى يتغير، ويصير المعنى ما تنسخك من آية يا محمد، وإنساخه إياها إنزالها عليه، فيصير المعنى ما نزل عليك من آية أو نفيها نأت بغير منها أو ملها، فيؤول المعنى إلى أن كل آية أزلت أتى بغير منها، فيصير القرآن كله منسوخا وهذا لا يمكن، لأنه لم ينسخ إلا اليسير من القرآن . فلما امتنع أن يكون أفسل وفعل بمعنى، إذ لم يسمع، وامتنع أن تكون الحزمة للعدى لفساد المعنى، لم يبق ممكن إلا أن يكون من باب أحدثه وأجملته إذا وجدته محمدا أو بغيا .

الرابعة عشرة - قوله تعالى: ﴿ أَوْ تُنْسِيَا ۖ ﴾ . قرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح النون والسين والمهمز ، وبه قرأ عمرو بن عباس وعطاء ومجاهد وأبي بن كعب وعبيد بن عمير والنخعي وابن محيص ، من التأخير ، أى يؤخر نسخ لفظها أى تركه فى أحكام الكتاب فلا يكون . وهذا قول عطاء . وقال غير عطاء بمعنى أو نساها ويؤخرها عن النسخ الى وقت معلوم ، من قولهم : ناست هذا الأمر إذا أخرته ، ومن ذلك قولهم : بئس لنا إذا أخرته . قال ابن فارس : ويقولون نسا الله فى أجلك ، وأنا الله أجلك ؛ وقد أنسا القوم إذا تأخروا وتباعدوا ، ونسأهم إذا أخرتهم . فالمنى يؤخر تروها أو نسخها على ما ذكرنا . وقيل : نفحها عنكم حتى لا تقرأ ولا تذكر . وقرأ الباقون نسخا بضم النون من النسيان الذى بمعنى الترك أى تركها فلا ينسى ولا تنسخها . قاله ابن عباس والسدى ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۖ ﴾ . أى تركوا محبته وتركهم فى المذهب . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال أبو عبيد : سمعت أبا نعيم القاسرى يقول : قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم فى المأم بقرأة أبى عمرو فلم يغير على إلا حرفين ؛ قال : قرأت عليه " أرنا " فقال : أرنا ، فقال أبو عبيد : وأحب للحرف الآخر أو نساها فقال : أو نسها . وحكى الأزهري نسخا تأمر بتركها ؛ يقال : أنسيته الشيء أى أمرت بتركه ؛ ونسيته تركه ، قال الشاعر :

إِنْ عَلَى حُفْبَةٍ أَفْسِيهَا • لَسْتُ بِنَاسِيهَا وَلَا نَفْسِيهَا

أى ولا أمر بتركها . وقال الزجاج : إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك ؛ لا يقال : أنسى بمعنى ترك ، وما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أو نسها قال : تركها لا ينقل ، فلا يصح . ولعل ابن عباس قال : تركها فلم يضبط . والذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى أو نسها نسي لكم تركها ؛ من نسى إذا ترك ثم تعدي . قال أبو على وغيره : ذلك متجه لأنه بمعنى نسيتم تركها . وقيل : من النسيان على باب الذى هو عدم الذكر ، على معنى أو نسكها يا محمد فلا تذكرها ؛ قل بالهمزة فتعنى الفعل الى مفعولين وهما النبي والماء لكن اسم النبي محذوف .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ( نَأْتِي خَيْرَ مِنْهَا ) . لفظة خير هنا صفة تفضيل ، والمعنى يأتبع لكم أيها الناس في عاجل ، إن كانت الناحية أخف ، وفي أجل ، إن كانت أثقل ، وبمثلها ، إن كانت مستوية . وقال مالك : محكمة مكان منسوخة . وقيل : ليس المراد بأخير التفضيل لأن كلام الله لا يتفاضل ؛ وإنما هو مثل قوله : ( مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ) . أي فله منها خير أي تقع وأجر ، لا الخير الذي هو بمعنى الأفضل ، ويدل على القول الأول قوله : ( أَوْ يَتْلَاهَا ) .

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَعْلَمْ ) . جزم بلم ، وحروف الاستفهام لا تغير عمل العامل ؛ ونصحت أن ، لأنها في موضع نصب . ( لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) . أي بالإيجاد والاختراع ، والملك والسلطان ، وتنفذ الأمر والإرادة ، وأرضع ملك بالابتداء ، والخبر له ، والجملة خبر أن ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ لقوله : ( وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ) . وقيل : المعنى قل لهم يا محمد ألم تعلموا أن الله سلطان السموات والأرض وما لكم من دونه من ولي ؛ من وليت أمر فلان : أي قت به ؛ ومنه ولي العهد : أي القيم بما عهد إليه من أمر المسلمين . ومعنى من دون الله ؛ سوى الله وبعد الله كما قال أمية بن أبي الصلت :

يا نفس مالك دون الله من ولى • وما على حدثان الدهر من باقى

وقراءة الجماعة ولا نصير بالنقص عطف على ولى ؛ ويجوز ولا نصير بالرفع عطف على الموضع ؛ لأن المعنى مالك من دون الله ولى ولا نصير .

قوله تعالى : ( أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَى مِنْ قَبْلُ ) . هذه أم المقطعة التي بمعنى بل أي بل أنريدون ، ومعنى الكلام التوبيخ . ( أَنْ تَسْأَلُوا ) ، في موضع نصب بتريدون . ( كَمَا سَأَلُوا ) ، الكاف في موضع نصب نعت لمصدر أى سؤالاً كما . وموسى ، في موضع رفع على ما لم يسم فاعله . من قبل سؤالهم إياه أن يرهم الله جهرة ، وسألوهم بما أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً . عن ابن عباس ومجاهد : سألوهم أن يعمل لهم الصفا ذهباً . وقرأ الحسن

كما سئل ، وهذا على لغة من قال : سلت أسل ؛ ويجوز أن يكون على بدل الحمزة ياء ما كتبه على غير قياس فانكسرت السين قبلها ، قال النحاس : بدل الحمزة ببد . والسواء من كل شيء : الوسط . قاله أبو عبيدة معمر بن المثنى ؛ ومنه قوله : ( فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ) . وحكى عيسى ابن عمر قال : ما زلت أكتب حتى أقطع سواي ؛ وأنشد قول حسان بن رؤس رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا وبع أصحاب النبي ورهطه • بعد الغيب في سواء الملحد

وقيل : السواء القصد ؛ عن القراء . أى ذهب عن قصد الطريق وصمت أى طريق طاعة الله عز وجل . وعن ابن عباس أيضا أن سبب نزول هذه الآية أن رافع بن خزيمة ووهب ابن زيد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : اتنا نكتب من السنة نقرؤه ، وبقر لنا الأنهار نتبعك . قوله تعالى : ( وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ) . فيه مستثنان :

الأول - وذ ، نقي . وقد تقدم . كفارا ، مفعول ثان يردونكم - ( مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ) قيل : هو متعلق بـ وذ . وقيل : بحسدا ؛ فالوقف على قوله : ( كُفَّارًا ) . وحسدا ، مفعول له أى وذوا ذلك الحسد ، أو مصدر دل ما قبله على الفعل ، ومعنى من عند أنفسهم أى من تلقائهم من غير أن يحذوهم في كتاب ولا أمروا به ؛ ولقطة الحسد تعطى هذا ، بقاء من عند أنفسهم تأكيد وإلزام ؛ كما قال تعالى : ( يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ) . ( يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ) . ( وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ) . والآية في اليهود .

الثانية - الحسد نوعان : ممدوم ومجود ؛ فالممدوم أن تحب زوال نعمة الله عن أخيك المسلم ، وسواء تمتعت مع ذلك أن تعود إليك أولا ؛ وهذا النوع الذى ذمّه الله تعالى في كتابه بقوله : ( أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ) . وإنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق سبحانه ، وأنه أنهم على من لا يستحق . وأما المجود فهو ما جاء في صحيح الحديث من قوله عليه السلام : " لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآتاه

النار ورجل آناه الله مالا فهو ينفقه آناه الليل وآناه النهار . وهذا الحديث معناه الضبطة ، وكذلك ترجم عليه البخارى باب الإغباط فى العلم والحكمة . وحقيقتها : أن نثق أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره ؛ وقد يجوز أن يسمى هذا منافسة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لِمَنِ الْحَقُّ ﴾ . أى من بعد ما تبين الحق لم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الذى جاء به .

قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾ . فيه مستلطان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا ﴾ . والأصل اعفوا حذف الضمة لثقلها ، ثم حذف الواو لاتقاء الساكنين ؛ والعمفو : ترك المؤاخاة بالذنب . والصفح : إزالة أثره من النفس ؛ صفحت عن فلان إذا عرضت عن ذنبه ؛ وقد ضربت عنه صفحا إذا عرضت عنه وتركته ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَتَضْرِبُ عَنْكُمْ اللَّهُ كَرْهًا ﴾ .

الثانية — هذه الآية مفسوخة بقوله : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . الى قوله : ﴿ صَاحِرُونَ ﴾ . عن ابن عباس . وقيل : النسخ لما ﴿ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ . قال أبو عبيدة : كل آية فيها ترك للقتال فهي مكية مفسوخة بالقتال .

قال ابن عطية : وحكه بأن هذه الآية مكية ضعيف ، لأن معاتلت اليهود إنما كانت بالمدينة .

قلت : وهو الصحيح ؛ روى البخارى ومسلم عن إسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فذكية وإسامة وراءه ، يود سعد بن عبادته فى بنى الحارث ابن الخزرج قبل واقعة بدر ؛ فسارا حتى مرا يجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول — وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي — فلذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبيدة الأوثان واليهود ؛ وفى المسلمين عبد الله بن رواحة ؛ فلما غشيت المجلس عجاوبة الهابة تهرأ بن أبي



أَنَّهُ بَدَأَهُ وَقَالَ : لَا تَبْتَغُوا عَلَيَّ ! فَسَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ثُمَّ وَقَفَ . فَقَالَ  
 فَدَعَلِمَ إِلَى اللَّهِ تَسَالُماً وَفَرَّاهُمْ الْفَرَانَ ، فَقَطَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلَيْمٍ : أَيَا الْمَرْءَ ،  
 لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا ! فَلَا تَوَلَّاهُ بِهِ فِي جِلْدَةٍ ، فَمِنْ جِلْدَةٍ فَاتَّصَمَ عَلَيْهِ . قَالَ  
 عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ : عَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَخَشَا فِي جِلْدَةٍ فَانْحَبَ ذَلِكَ . فَاسْتَبَ الْمُشْرِكُونَ  
 وَالْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَانُوا يَقْطُرُونَ ، ثُمَّ يَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْفَعِهِمْ  
 حَتَّى سَكَنُوا ، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَبَابَةَ فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَدِّ بْنِ حَبَابَةَ ،  
 فَقَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَمْ نَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حَبَابٍ — يَمِيدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
 أَبِي — قَالَ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ : أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ ، لَيْسَ أَنْتَ وَأَنْتِ ، أَعَفَّ عَنْهُ وَأَصْفَحَ ، فَوَاللَّهِ  
 أَزَلَّ عَلَيْكَ الْكَتَابَ بِالْحَقِّ لَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَزَلَّ عَلَيْكَ ، وَاقْدِرْ اسْتَطْلَعَ أَهْلَ هَذِهِ  
 الْبِصِيرَةِ عَلَى أَنْ يَتَوَجَّهُ وَيَصْبِرُوا بِالْمَصَابَةِ ، فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرْقَ ،  
 فَتَفَكَّرَ فَسَلَّمَ مَا رَأَيْتَ ، فَخَافَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَفْقَهُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكَتَابِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى  
 الْإِذْيِ ، قَالَ اللَّهُ عَنْ وَجَلٍ : ( وَلَقَسْنَا مِنْ آفَافِهِ الْأَنْفِ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا  
 أَذَى كَثِيرًا ) . وَقَالَ : ( وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ) . فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 يَتَأَوَّلُ فِي النَّفْسِ مِنْهُمْ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ حَتَّى أَذِنَ لَهُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا خَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ بَدَأَ يَقْتُلُ اللَّهُ بِهَا مَنْ قَتَلَ مِنْ صُنَادِيدِ الْكُفَّارِ وَسَادَاتِ قُرَيْشٍ ، فَقَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى  
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ ثَاقِبِينَ مَنصُورِينَ ، مَعَهُمْ أَسَارَى مِنْ صُنَادِيدِ الْكُفَّارِ وَسَادَاتِ قُرَيْشٍ ،  
 قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلَيْمٍ وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عُبَيْدَةُ الْأَوْثَانِ : هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ  
 فَأَيَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَاسْلُبُوا .

قوله تعالى : ( حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ) . يَتَنَزَّلُ قِرْطَافَ وَجِلَاءَ بَنِي النَّضِيرِ . ( إِنَّ اللَّهَ  
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ) . تَعْدَمُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى .

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ . جاء في الحديث « إن العبد إذا مات قال الناس ما خلف وقالت الملائكة ما قدم » . وخرج البخاري والنسائي عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله » . قالوا : يا رسول الله ، ما من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس من أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله ما لثك ما قدمت ومال وارثك ما أخرت » . لعظ النساء . ولفظ البخاري قال عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله » قالوا : يا رسول الله ، ما من أحد إلا ماله أحب إليه ، قال : « فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » . وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مر ببيع الزرقاء فقال : السلام عليكم أهل القبور ، أخبار ما عندنا ، فإن نساءكم قد تزوجن ، ودوركم قد سكنت ، وأموالكم قد قسمت ؛ فاجابه هاتف : يا بن الخطاب ، أخبار ما عندنا أن ما قدمناه وجدناه ، وما أنفقناه فقد ربحناه ، وما خلفناه فقد خسرناه . ولقد أحس القائل :  
قدم لنفسك قبل موتك . صالحا \* واعمل فليس إلى الخلود سبيل

وقال آخر :

قدم لنفسك توبة مرجوة \* قبل الممات وقبل حبس الأكسن

وقال آخر :

ولدتك إذ ولدتك أمك يا كيا \* والقوم حولك يضحكون مسرورا

فاعمل ليوم تكون فيه إذا بكوا \* في يوم موتك ضاحكا مسرورا

وقال آخر :

سابق إلى الخير وبإدبه \* فإنما خلقك ما تعلم

وقدم الخير فكل امرئ \* على الذي قدمه يقدم

سوا حنين من هناك قول أبي العتاهية :

اسعد بمالك في حياتك إنما \* يبقى وراءك مفلح أو مفسد

وإذا تركت لنفسك لم ينقذ • وأخو الصلاح قلبه يريد  
 وإن استطعت فكنت لضحك وارثا • لمن المورث نفسه لمستد  
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِيَنَّكَ يَاسِرٌ﴾ • تقدم •

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ • المعنى وقالت  
 اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا • وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان  
 نصرانيا • وأجاز القراء أن يكون هودا بمعنى يهوديا حذف منه الزائدة، وأن يكون جمع هائد •  
 وقال الأخفش مسعيد : إلا من كان، جعل كان واحدا على لفظ من، ثم قال هودا بجمع؛  
 لأن معنى من جمع • ويجوز تلك أمانهم • وتقدم الكلام في هذا والحمد لله •

قوله تعالى : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ • أصل هاتوا هاتوا حذف الضمة لثقلها ثم حذفت  
 الياء لالتقاء الساكنين يقال في الواحد المذكر : هات، مثل : رام • وفي المؤنث : هاتي،  
 مثل : رامي • والبرهان : الدليل الذي يوقع اليقين، وجمعه براهين، مثل : قربان وقرايين،  
 وسُلطان وسلاطين • قال الطبري : طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر ويرد على من  
 ينفيه • ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ • يعني في إيمانكم وفي قولكم تدخلون الجنة أي يبتوا ما قلتم  
 ببرهان، ثم قال تعالى : ﴿يَلَى﴾ • رذا عليهم، وتمكنيا لم أي ليس كما تقولون • وقيل : إن  
 على محمولة على المعنى، كأنه قيل أما يدخل الجنة أحد ؟ فقيل : بلى، ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ  
 وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ • ومعنى أسلم أسلم وخضع • وقيل : أخضع عمله • وخص الوجه بالذكر  
 لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس، وفيه يظهر العز والذل • والعرب  
 تحب الوجه عن جملة الشيء • ويصح أن يكون الوجه في هذه الآية المقصد (وهو محسن)؛  
 جملة في موضع الحال، وعاد الضمير في وجهه، وله، على لفظ من، وكذلك أجرة، وعاد في طبعهم  
 على المعنى، وكذلك في يمزنون وقد تقدم •

قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ • الآية • معناه ادعى كل  
 فريق منهم أن صاحبه ليس على شيء، وأنه أحق برحمة الله منه • ﴿وَمَنْ يَتْلُكُ الْكِتَابَ﴾ •

يعني التوراة والإنجيل، والجملة في موضع الخلل؛ والمراد بالذين لا يعلمون في قول الجمهور: كفار العرب؛ لأنهم لا تكتب لهم. وقال عطاء: المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى. الربيع بن أنس: المعنى كذلك قالت اليهود قبل النصارى. ابن عباس: قدم أهل نجران على النبي صلى الله عليه وسلم فأتهم أحبار يهود؛ فتنازعوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقالت كل فرقة منهم للآخرى: لستم على شيء. فقرئت الآية.

قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسِعَىٰ فِي نَجْوَاهَا) .

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ) . رفع بالابتداء، وأظلم خبره؛ والمعنى لا أحد أظلم. وأن، في موضع نصب على البدل من مساجد، ويجوز أن يكون التقدير كراهية أن يذكر، ثم حذف، ويجوز أن يكون التقدير من أن يذكر فيها؛ وحرف الحذف يحذف مع أن لطول الكلام. وأراد بالمساجد هنا بيت المقدس ومحلبيه. وقيل: الكعبة، وجمعت لأنها قبلة المساجد، أو للتعظيم. وقيل: المراد سائر المساجد؛ والواحد مسجد بكسر الجيم، ومن العرب من يقول: مسجد بفتحها، قال القراء: كلما كان على قمل يفعل؛ مثل: دخل يدخل، فالفعل منه بالفتح اسم كان أو مصدرًا، ولا يقع فيه الفرق مثل: دخل يدخل مدخلا، وهذا مدخله إلا أحرفا من الأسماء الزموا كسر العين؛ من ذلك: المسجد والمطلع والمغرب والمشرق والمسيط والمفرق والمخير والمسيك والمريق (من رقق رقق) والمثيت والمثيك (من نكس نكس) بفعلوا الكسر علامة للاسم، وربما فتحه بعض العرب في الاسم. والمسجد (بالفتح): جبهة الرسل حيث يصيبه ثقب السجود. والأزاب السبعة مساجد. قاله الجوهري.

الثانية - واختطف الناس في المراد بهذه الآية، وفيمن نزلت، فذكر المفسرون أنها نزلت في بنت نصر، لأنه كانت أعرب بيت المقدس. وقال ابن عباس وغيره: نزلت في النصارى. والمعنى كيف تقعون أيها النصارى أنكم من أهل الجنة لا وقد حرمت بيت المقدس، ومنثم للمصلين من الصلاة فيه. ومعنى الآية على هذا التعجب من قتل النصارى

بيت المقدس مع تعظيمهم له ، وإنما فعلوا ما فعلوا علوة لليهود . روى سعيد عن قتادة قال : أولئك أعداء الله النصارى ، حملهم بغض اليهود على أن أتوا بخت نصر البالي<sup>(١)</sup> الجوسى على تخريب بيت المقدس . وروى أن هذا التخريب بى الى زمن عمر رضى الله عنه . وقيل : نزلت في المشركين إذ منعوا المصلين ، والنبي صلى الله عليه وسلم ، وصنّوهم عن المسجد الحرام ، عام الحاربية . وقيل : المراد من منع من كل مسجد الى يوم القيامة وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع ، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف ، والله تعالى أعلم .

الثالثة - خراب المساجد قد يكون حقيقيا كتخريب بخت نصر ، أو النصارى بيت المقدس على ما ذكر : أنهم غزوا بنى اسرائيل مع بعض ملوكهم - قيل : اسمه بطوس بن<sup>(٢)</sup> اسياسانوس الرومى فيا ذكر الفزوى - فقتلوا وسبوا ، وحرقوا التوأمة ، وقذفوا في بيت المقدس العذرة وخبروه .

ويكون مجازا كنع المشركين المسلمين حين صنّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ؛ وعلى الجملة تعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شاتم الاسلام فيها خراب لما .

الرابعة - قال علماءنا : ولهذا قلنا لا يجوز منع المرأة من الحج اذا كانت صرورة ، سواء كان لما يحرم أو لم يكن . ولا تمنع أيضا من الصلاة في المساجد ما لم يخف عليها الفتنة ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » . ولذلك قلنا : لا يجوز نقض المسجد ولا يعمروا تعطيله وإن خربت المحلة ، ولا يمنع من بناء المساجد إلا أن يقصدوا الشقاق والخلاف ، بأن يبنوا مسجدا الى جنب مسجد أو قرية ، يريدون بذلك تفرق أهل المسجد الأول ونجابه ، واختلاف الكلمة ، فإن المسجد الثانى ينقض ويمنع من بناءه ، ولذلك قلنا : لا يجوز أن يكون في مصر جامعان ، ولا مسجد واحد إيمان ، ولا يصلى في مسجد

(١) في نسخة من الأصل « بطوس » ، بالهاء وفي نسخة بطوسه بالياء والنون المجهبة .

(٢) في بعض الأصول : « أسانوس » .

جماعتان. ومباني لهذا مريد بيان في سورة برادة إن شاء الله تعالى، وفي التور حكم المساجد وبنائها بحول الله تعالى. وقلت الآية أيضا على تعظيم أمر الصلاة، وأنها لما كانت أقدس الأعمال وأعظمها أجرا كان منها أعظم إثمًا.

الخامسة - كل موضع يمكن أن يعبد الله فيه ويسجد له يسمى مسجداً، قال صلى الله عليه وسلم: « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ». أخرجه الأئمة، واجمعت الأمة على أن البقعة إذا عينت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربها وصارت عامة لجميع المسلمين، فلو بني ريل في داره مسجداً وحجزه على الناس واخص به نفسه لبق على ملكه ولم يخرج إلى حد السجدة، ولو أباحه للناس كلهم كانت حكمه حكم سائر المساجد العامة ونخرج عن اختصاص الأملاك.

السادسة - قوله تعالى: (أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ). أولئك، مبتدأ وما بعده خبره، خائفين، حال. يعني إذا استولى عليها المسلمون وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها، فإن دخولها فعل خوف من إخراج المسلمين لهم، وتأديبهم على دخولها، وفي هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد بحال على ما يأتي بيانه في برادة إن شاء الله تعالى. ومن جعل الآية في التصاري، وروى أنه مر زمان بعد بناء عمر بيت المقدس في الإسلام لا يدخله نصرائي إلا أوجع ضرباً بعد أن كان متعبد بهم. ومن جلسها في قبرش قال: كذلك فودى بأمر النبي صلى الله عليه وسلم: ألا لا يبيع بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وقيل: هو خبر، ويقصوده الأمر أي جاهدوهم واستاصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد للحرام الاغتاضا، كقوله: (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ). فإنه نهي ورد بلفظ الخبر.

السابعة - قوله تعالى: (لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ). قيل: القتل المحرقة، والجزية للذي. عن قتادة. السدي: الخزي لم في الدنيا قيام المهدي، وقبح عمورية ورومية وقسطنطينية.

وغير ذلك من مذهبهم ، على ما ذكرنا في كتاب التذكرة . ومن جعلها في قريش جعل الخزي عليهم في الفتح ، والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافرا .

قوله تعالى : ( وَفِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قَائِنًا تُولَوْنَ ثُمَّ وَجْهُ اللَّهِ ) . فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَفِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ) . المشرق : موضع الشروق . والمغرب : موضع الغروب ؛ أى هما له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والاختراع ؛ كما عظم . وخصهما بالذكر والإضافة إليه تشريفاً نحو بيت الله ، وثابة الله ، ولأن سبب الآية اقتضى ذلك على ما يأتي .

الثانية - قوله تعالى : ( قَائِنًا تُولَوْنَ ) . شرط ، ولذلك حذف التو ، وابن المأملة ، وما زائدة ، والجواب : ( ثُمَّ وَجْهُ اللَّهِ ) . وقرأ الحسن تولوا ، بفتح التاء واللام ، والأصل تولوا ، وثم ، في موضع نصب على الظرف ومعناها البعد ؛ إلا أنها مبذية على الفتح غير معرفة لأنها مبهمة ، تكون بمنزلة هناك البعد ، فإن أردت القرب قلت : هنا .

الثالثة - اختلف العلماء في المعنى الذي نزلت فيه ( قَائِنًا تُولَوْنَ ) . على خمسة أقوال .

فقال عبد الله بن عامر بن ربيعة : نزلت في من صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة . أخرجه الترمذي عنه عن أبيه قال : كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر في ليلة مظلمة فلم يدر أين القبلة ؛ فوصل كل واحد منا على حاله ؛ فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ( قَائِنًا تُولَوْنَ ثُمَّ وَجْهُ اللَّهِ ) . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بذلك ، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان ؛ وأشعث بن سعيد أبو الربيع يضعف في الحديث ؛ وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا . قالوا : إذا صلى في النيم لغير القبلة ثم استبان له بعد ذلك أنه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة ؛ وبه يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق .

قلت : وهو قول أبي حنيفة ومالك ، غير أن مالكا قال : تستحب له الإعادة في الوقت ، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدى فرضه على ما أمر ؛ والكمال يستدرك في الوقت استدلالا بالسنة فيمن صلى وحده ثم أدرك تلك الصلاة في وقتها في جماعة ، أنه يهد معهم ؛ ولا يصيد في الوقت استحبابا إلا من استدبر القبلة أو شرق أو غرب جدا مجتهدا ، وأما من تيامن أو تيسر قليلا مجتهدا فلا إعادة عليه في وقت ولا غيره . وقال المنيرة والشافعي : لا يميز به ؛ لأن القبلة شرط من شروط الصلاة . وما قاله مالك أصح ؛ لأن جهة القبلة تبيح الضرورة تركها في المسافة ، وتبيحها أيضا الرخصة حالة السفر . وقال ابن عمر : نزلت في المسافر فينقل حينما توجهت به راحته . أخرجه مسلم عنه ؛ قال : كانت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحته حيث كان وجهه . قال : وفيه نزلت : ﴿ فَأَيُّ بَنَاتِ تَوَلَّوْا ثُمَّ وَهَجَ اللَّهُ ﴾ . ولا خلاف بين العلماء في جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث ، وما كان مثله . ولا يجوز لأحد أن يدع القبلة حامدا بوجهه من الوجوه إلا في شدة الخوف على ما يأتي . واختلف قول مالك في المريض يصل على محله بفترة قال : لا يصل على ظهر البعير فريضة وإن اشتد مرضه . قال سحنون : فإن فعل أعاد . حكاه الباقى . ومروته قال : إن كان ممن لا يسلي بالأرض إلا إيماء فليصل على البعير سد أن يوقف له ويستقبل القبلة فجمعوا على أنه لا يجوز لأحد صحيح أو سقيم فريضة إلا بالأرض إلا في الخوف الشديد خاصة ؛ على ما يأتي بيانه .

واختلف الفقهاء في المسافر سفره لا تقصر في مثله الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه والثوري : لا يتطوع على الراحلة إلا في سفر تقصر في مثله الصلاة ؛ قالوا : لأن الأسفار التي حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتطوع فيها كانت مما تقصر فيه الصلاة . وقال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما والحسن بن حنبل والليث بن سعد وداود بن علي : يجوز التطوع على



الراحلة خارج المذبح في كل سفر، وسوله كان مما قصر فيه الصلاة أولا؛ لأن الآثار ليس فيها تخصيص سفر من سفر، فكل سفر جائز ذلك فيه، إلا أن يخص شيء من الأسفار بما يجب التسليم له . وقال أبو يوسف : يصل في المصر على الدابة بالإيماء ؛ لحديث يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك أنه صلى على سحار في أزقة المدينة يومئذ إيماء . وقال الطبري : يجوز لكل راكب وماش حائرا كان أو مسافرا أن يتقل على دابته وراحته وعلى رجليه [ بالإيماء ] . وحكى عن بعض أصحاب الشافعي أن مذهبهم جواز التنفل على الدابة في الحضر والسفر . وقال الأعمش : قيل لأحمد بن حنبل الصلاة على الدابة في الحضر؟ فقال : أما في السفر فقد سمعت ، وما سمعت في الحضر . قال ابن القاسم : من تنفل في محلة تنفل جالسا قيامه تربع ، يركع واضعا يديه على ركبتيه ثم يرفع رأسه . وقال قتادة : نزلت في النجاشي ، وذلك أنه لما مات دعا النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الصلاة عليه خارج المدينة ، فقالوا : كيف نصل على رجل مات ؟ وهو يصل لنبرقلتنا — وكان النجاشي ملك الحبشة ، واسمه أحمدة وهو بالريية عطية — يصل إلى بيت المقدس حتى مات ، وقد صرقت القبلة إلى الكعبة فنزلت الآية ، وترأى فيه : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ . فكان هذا عنرا للنجاشي ؛ وكانت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليه بإصحابه ستة تسع من الهجرة . وقد استدل بهذا من أجل الصلاة على الغائب ، وقد كنت يبغداد في مجلس الإمام نضر الإسلام فيدخل عليه الرجل من خراسان فيقول له : كيف حال فلان ؟ فيقول له : مات ؛ فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم يقول : لعل قومونا فلا يصل لكم ؛ فيقوم فيصلي عليه بناء ، وذلك بعد ستة أشهر من المدة ، ويته وبين بلده ستة أشهر .

والأصل عندم في ذلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم على النجاشي . وقال علماؤنا رحمة الله عليهم : النبي صلى الله عليه وسلم يملك مخصوص ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أن الأرض دحيت له جنوبا وشمالا حتى رأى نفس النجاشي كما دحيت له شمالا وجنوبا حتى رأى المسجد

الأقصى . قال الخفاف : وأى قائمة في رؤيته ! وإنما القائمة في لحوق بركته . الثاني : أن النجاشي لم يكن له هناك ولي من المؤمنين يقوم بالصلاة عليه . قال الخفاف : وهذا حال عادة ! ملك على دين لا يكون له اتباع والتأويل بالمحال محال . الثالث : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما أراد بالصلاة على النجاشي إدخال الرحمة عليه واستلاف بقية الملوك بعده إذا رأوا الاهتمام به حيا وميتا . قال الخفاف : بركة ألدعاء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم على النجاشي أنه علم أن النجاشي ومن آمن معه ليس عندهم من سنة الصلاة على الميت أثر ، فلم أنهم سيدفونونه بنذر صلاة فإجر إلى الصلاة عليه .

قلت : والتأويل الأول حسن ؛ لأنه إذا رآه فـ صلى على غائب وإنما صلى على مرئي حاضر ، والنائب ما لا يرى . والله تعالى أعلم .

القول الرابع : قال ابن زيد : كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المقدس وقالوا : ما اعتنى الابناء فلما حوّل إلى الكعبة قالت اليهود : ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، فنزلت : ﴿ وَفِيهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ . فوجه النظم على هذا القول : أن اليهود لما أنكروا أمر القبلة بين الله تعالى أن له أن يتبدع عباده بما شاء ، فإن شاء أمرهم بالتوجه إلى بيت المقدس ، وإن شاء أمرهم بالتوجه إلى الكعبة ، فعل لا حجة عليه ، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .

القول الخامس : أن الآية منسوخة بقوله : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ . ذكره ابن عباس ، فكانه كان يجوز في الابتداء أن يصلى المرء كيف شاء ثم نسخ ذلك . وقال قتادة : النسخ قوله تعالى : ﴿ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ . أى تلقاء . حكاية أبو عيسى الترمذى . ●

وقول سادس : روى عن مجاهد والضحاك أنها عمكة المعنى ، أينا كنتم من شرق وغرب فتم وجه الله الذى أمرنا باستقباله وهو الكعبة . وعن مجاهد أيضا وابن جبريل نزلت : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ . قالوا : إلى أين ؟ فنزلت : ﴿ فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا قَوْمَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ . وعن

ابن عمر والنخعي : أينما تولوا في أسفاركم ومنصرفاتكم قم وجه الله . وقيل : هي متصلة بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ . الآية ؛ فالمنع أن بلاد الله أيها المؤمنون تسمعكم ، فلا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله أن تولوا وجوهكم نحو قبلة الله ، أينما كنتم من أرضه . وقيل : نزلت حين صد النبي صلى الله عليه وسلم عن البيت عام الحديبية ؛ فاعتم المسلمون لذلك . فهذه عشرة أقوال .

ومن جعلها مفسوخة فلا اعتراض عليه من جهة كونها خيرا ؛ لأنها محتملة لمعنى الأمر ، بمنحصر أن يكون معنى ﴿ قَائِمًا تَوَلَّوْا قَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ ، ولوا وجوهكم نحو وجه الله . وهذه الآية هي التي تلا سعيد بن جبير رحمه الله لما أمر المجاج بذبجه إلى الأرض .

الرابعة - اختلف الناس في تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى في الترتان والسنة ؛ فقال الحذاق : ذلك راجع إلى الوجود ، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام ، اذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد ، وأجلها قدرا . وقال ابن قورك : قد تذكر صفة الشيء والمراد بها الموصوف توسما ؛ كما يقول القائل : رأيت علم فلان اليوم ، ونظرت إلى علمه ؛ وإنما يريد بذلك رأيت العالم ونظرت إلى العالم ؛ كذلك إذا ذكر الوجه هنا والمراد من له الوجه ؛ أي الوجود ؛ وعلى هذا تناول قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُطِيعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ ﴾ . لأن المراد به : الله الذي له الوجه ؛ وكذلك قوله : ﴿ إِلَّا أَصْبَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ . أي الذي له الوجه . قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه عز وجل ؛ كما قال : ﴿ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ . وقال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجه العقول من صفات القديم تعالى . قال ابن عطية : وضعف أبو المعالي هذا القول ، وكذلك هو ضعيف ؛ وإنما المراد وجوده . وقيل : المراد بالوجه هنا الجهة التي وجهنا إليها وهي القبلة . وقيل : الوجه المقصد ؛ كما قال الشاعر :

استغفر الله ذنبا لست محصيه • رب العباد إليه الوجه والمعمل

وقيل : المعنى قم رضا الله وثوابه ؛ كما قال : ﴿ إِنَّمَا تُطِيعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ ﴾ . أي لرضائه طلب ثوابه ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من بنى مسجدا يتبنى به وجه الله بنى الله له

مثله في الجنة » . وقوله : « بماء يوم القيامة يصحف غنمة فتصب بين يدي الله تعالى فيقول عز وجل الملائكة ألقوا هذا وأقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك يا ربنا ما رأينا إلا حيرا وهو أعلم فيقول إن هذا كان لغير وجهي ولا أقبل من العمل إلا ما ابتغى به وجهي » . أي : خالصا لي ؛ خريجه البارقطني . وقيل : المراد قم الله . والوجه صلة ؛ وهو كقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ . قاله الكلبي والسي . ونحوه قول المعتزلة .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَالِمٌ ﴾ . أي يوسع على عباده في دينهم ، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم . وقيل : واسع بمعنى أنه يسع عليه كل شيء ؛ كما قال : ﴿ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ . وقال القراء : الواسع الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ . وقيل : واسع المغفرة أي لا يتعاطفه ذنب . وقيل : متفضل على العباد ، وغنى عن أعمالهم ؛ يقال : فلان يسع ما يسئل أي لا يخل ؛ قال الله تعالى : ﴿ لِيُثَبِّتَ دُوسَعَةَ مِنْ مَّعْنَةٍ ﴾ . أي ليثق النبي بما أعطاه . وقد أتينا عليه في الكتاب « الأسنى » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ . هذا إخبار عن النصارى في قولهم : المسيح ابن الله . وقيل : عن اليهود في قولهم : عزير ابن الله . وقيل : عن كفرة العرب في قولهم : الملائكة بنات الله . وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهمية الكفار في مريم والأئبياء .

الثانية - خرج البهاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى كَذَبَنِي ابْنُ آدَمَ ولم يكن له ذك وشتمني ولم يكن له ذك ، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أندر أن أعيده كما كان . وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولدا » .

الثالثة - سبحان منصوب على المصدر ومعناه التبرئة والتثنية والمحاشاة من قولهم : اتخذ الله ولدا ؛ بل هو الله تعالى واحد في ذاته ، أحد في صفاته ، لم يلد فيحتاج إلى صاحبة ،

أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء، ولم يولد فيكون مسبوقاً؛ بل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

( بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) . ما، رفع بالابتداء والخبر في المجرور؛ أى كل ذلك له ملك بالإيجاد والاستراع . والبقايل بأنه آخذ ولها داخل في جملة السموات والأرض . وقد تقدم أن معنى سبحانه الله براءة الله من السوء .

الرابعة - لا يكون الولد إلا من جنس الوالد، فكيف يكون للحق سبحانه أن يخذولها من مخلوقاته وهو لا يشبهه شيء؛ وقد قال : ( إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ) . كما قال هنا : ( بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) . فالولدية تقتضى الجنسية والمحدث، والقدم يقتضى الوحداية والثبوت ؛ فهو سبحانه القديم الأزلى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . ثم قال : إن البنية تنافى الزنى والعبودية؛ على ما أتى بيانه في سورة صريم، إن شاء الله تعالى . فكيف يكون ولد عدا هذا محال، وما أتى إلى المحال محال .

الخامسة - قوله تعالى : ( كُلُّ لَهُ قَائِنُونَ ) . ابتداء وخبر، والتقدير كلهم، ثم حذف الماء والميم . قاتنون أى مطيعون وخاضعون ؛ فالمخلوقات كلها تقف لله أى تخضع وتطيع . والجندات فتوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم ؛ فالتقوت : الطاعة . والتقوت : السكوت ؛ ومنه قول زيد ابن أرقم : كما تتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه الى جنبه حتى زلت : ( وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِعِينَ ) . فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام . والقنوت : الصلاة ؛ قال الشاعر :

قاتنا لله ينلو كنبه • وعمل عمد من الناس اعترل

وقال السدى وغيره في قوله : ( كُلُّ لَهُ قَائِنُونَ ) . أى يوم القيامة . الحسن : كل قائم بالشهادة أنه عبده . والقنوت في اللغة أصله القيام ؛ ومنه الحديث « أفضل الصلاة طول القنوت » قاله الزجاج . فالخلق قاتنون أى قائمون بالعبودية إما إقراراً، وإما أن يكون على

خلاف ذلك ؛ فآثر الصبغة بين عليهم . وقيل : أصله الطاعة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْقَائِنِينَ وَالْقَائِنَاتِ ﴾ وسأني لهذا مزيد بيان عند قوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يَدْعُ السَّمَوَاتِ ﴾ . فصيل للبالغة ، وارفع على خبر ابتداء محذوف ، واسم الفاعل مبدع ؛ كصير من مبصر . أبدعت الشيء لا عن مثال ؛ فالفعل عز وجل يدع السموات والأرض أى منشئهما وموجدتهما ومبدعهما ومختبرهما على غير حد ولا مثال . وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له : مبدع ؛ ومنه أصحاب البدع . وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فصل أو مقال إمام ؛ وفي البخارى "وتمت البدعة هذه" . يعنى قيام رمضان .

الثانية - كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أو لا . فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحض رسوله عليه ، فهى في حيز المدح . وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف ، فهذا فعله من الأفعال المحمودة ؛ وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه ؛ ريعضد هذا قول عمر رضى الله عنه : نعمت البدعة هذه [ أى صلاة التراويح في جماعة ] ؛ لما كانت من أفعال الخير ودخالة في حيز المدح ، وهى وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها ، ولا جمع الناس عليها ؛ فمحافظة عمر رضى الله عنه عليها ، وجمع الناس لها ، وندبهم إليها ، بدعة لكنها بدعة محمودة . وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسوله فهى في حيز الذم والإنكار ؛ قال معناه الخطابي وغيره .

قلت : وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته : «وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» . يريد ما لم يوافق كتابا أو سنة أو عمل الصعابة رضى الله عنهم ، وقد بين هذا بقوله : «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها

من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء . « هذا إشارة إلى ما ابتدع من قبيح وحسن ، وهو أصل هذا الباب وبالله العصمة والتوفيق .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَإِنَّا قَعْنَىٰ أَمْرًا نَّأْتِيَا بِقَوْلٍ لَّهٗ لُكْنٌ فَيَكُونُ ) . أى إذا أراد إحكامه وإتمامه - كما سبق في علمه - قال له : كن . قال ابن عرفة : قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ؛ ومنه سمي القاضي لأنه إذا حكم فقد فرغ مما بين الخصمين . وقال الأزهرى : قضى في اللغة على وجهه ، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتماحه ؛ قال أبو ذؤيب :  
وعليها مسرودتان قضاهما • داود أوصع السوانج تبع

وقال الشافى في عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها • بوائقي في أحكامها لم تنق

قال علماءنا : قضى لفظ مشترك يكون بمعنى الخلق ؛ قال الله تعالى : ( فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ) . أى خلقهن . ويكون بمعنى الإعلام ؛ قال الله تعالى : ( وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكُتَابِ ) أى أعلمنا . ويكون بمعنى الأمر ؛ كقوله تعالى : ( وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَهُهُ ) . ويكون بمعنى الإلزام ولمضاء الأحكام ؛ ومنه سمي الحاكم قاضيا . ويكون بمعنى توفية الحق ؛ قال الله تعالى : ( فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ) . ويكون بمعنى الإرافة ؛ كقوله تعالى : ( فَإِنَّا قَعْنَىٰ أَمْرًا نَّأْتِيَا بِقَوْلٍ لَّهٗ لُكْنٌ فَيَكُونُ ) أى إذا أراد خلق شيء . قال ابن عطية : قضى ، معناه قدر ؛ وقد يعى ؛ بمعنى أمضى ؛ ونتجه في هذه الآية المعنيين على مذهب أهل السنة قدر في الأزل وأمضى فيه . وعلى منذهب المترلة أمضى عند الخلق والإيجاد .

الرابعة - قوله تعالى : ( أَمْرًا ) . الأمر واحد الأمور ، وليس بمصدر أمر يأمر . قال علماءنا : والأمر في القرآن ينصرف على أربعة عشر وجها :

الأول - الدين ؛ قال الله تعالى : ( حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ) . يعنى دين

الاسلام .

الثاني - القول ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ ، يعني قولنا ، وقوله : ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ ، يعني قولهم .

الثالث - العذاب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ ، يعني لما وجب العذاب بأهل النار .

الرابع - عيسى عليه السلام ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّا فَضَيْتُ أَمْرًا ﴾ ، يعني يسي وكان في علمه أن يكون من غير أب .

الخامس - القتل بيد ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ ، يعني القتل بيد ، وقوله : ﴿ لَيَقْبِضَنَّ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَقْضًى ﴾ ، يعني قتل كفار مكة .

السادس - فتح مكة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ، يعني فتح مكة .

السابع - قتل قريظة وجلاء بن النضير ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَاعْتَصُوا وَأَصْغُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

الثامن - القيامة ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ .

التاسع - القضاء ؛ قال الله تعالى : ﴿ يُدِيرُ الْأَمْرَ ﴾ ، يعني القضاء .

العاشر - الوحي ؛ قال الله تعالى : ﴿ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ، بقول : يرسل الوحي من السماء إلى الأرض ، وقوله : ﴿ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِهِنَّ ﴾ ، يعني الوحي .

الحادي عشر - أمر الخلق ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ ، يعني أمور الخلائق .

الثاني عشر - النصر ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، يعني النصر . ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ ، يعني النصر .

الثالث عشر - التنب ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ ، أي جزاء ذنبها .



الرابع عشر - الشأن والقمل؛ قال الله تعالى : ( وَمَا أَكْثَرُ فِرْعَوْنَ رَيْسًا ) . أى فعله وشانه، وقال : ( فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ) . أى فعله وقوله .

الخامسة - قوله ( كُنْ ) . قيل : الكلف من كيتوه ، والتون من نوره ؛ وهى المراد بقوله عليه السلام : « أحوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » . وروى : « بكلمة الله التامة » . على الأفراد . فالج لما كانت هذه الكلمة فى الأمور كلها ، فلذا قال لكل أمر : كن ، ولكل شئ : كن ، فهى كلمات ؛ يدل على هذا ما روى عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن الله تعالى : « عطائى كلام وعطائى كلام » . خريه الترمذى فى حديث فيه طول . والكلمة على الأفراد بمعنى الكلمات أيضا لكن لما غزقت الكلمة الواحدة فى الأمور فى الأوقات صارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة . وانما قيل : تامة ؛ لأن أقل الكلام عند أهل اللغة على ثلاثة أحرف ، حرف مبتدأ ، وحرف تحشى به الكلمة ، وحرف يسكت عليه . وإنما كان على حرفين فهو منقطع مقصود ، كيد ودم وقرم ؛ وانما قص لعله ، فهى من الآدميين من المفروصات لأنها على حرفين ، ولأنها كلمة مقبولة بالأدوات ؛ ومن ربنا تبارك وتعالى تامة لأنها بغير الأدوات تطال عن شبه المخلوقين .

السادسة - قوله تعالى : ( يَكُونُ ) قرئ برفع التون على الاستئناف . قال سيبويه : فهو يكون ، أو فاعله يكون . وقال غيره : هو معطوف على يقول . فعلى الأول كأننا بعد الأمر ، وإن كان معدوما ، فإنه بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم على ما يأتى بيانه . وعلى الثانى كأننا مع الأمر ؛ واختاره الطبرى وقال : أمره لشيء يمكن لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه ؛ فلا يكون الشيء مأمورا بالوجود إلا وهو موجود بالأمر ، ولا موجود إلا وهو مأمور بالوجود ؛ قال : ونظيره قيام الناس من قبورهم لا يتقدم دعاء الله ولا يتأخر عنه ؛ كما قال : ( ثُمَّ إِنَّا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ) . وضف ابن عطية هذا القول وقال : هو خطأ من جهة المعنى ؛ لأنه يقتضى أن القول من جهة التكوين والوجود .

وتلخيص المتقد في هذه الآية : أن الله عز وجل لم يزل أمرا للمعلومات بشرط وجودها ، فنادرا مع تأخر المقدورات ، عالما مع تأخر المعلومات . فكل ما في الآية يقتضي الاستقبال فهو يحسب بالأمورات ؛ إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن . وكل ما يسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم فهو قديم لم يزل . والمعنى الذي تقتضيه عبارة كن ، هو قديم قائم بالذات .

قال أبو الحسن الماوردي : فإن قيل : فأي حال يقول له كن فيكون ؟ في حال علمه ، أم في حال وجوده ؟ فإن كان في حال عدمه استحال أن يأمر إلا مأمورا ؛ كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من أمر . وإن كان في حال وجوده فذلك حال لا يجوز أن يأمر فيها بالوجود والحضور ؛ لأنه موجود حادث . قيل عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة :

أحدها - أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره في خلقه الموجود ؛ كما أمر في بني إسرائيل أن يكونوا قردة خاسئين ؛ ولا يكون هذا واردا في إيجاد المعلومات .

الثاني - أن الله عز وجل عالم بما هو كائن قبل كونه ؛ فكانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة بعلمه قبل كونها متشابهة للتي هي موجودة ؛ فإذن يقول لما : كن ؛ ويأمرها بالخروج من حال عدم إلى حال الوجود ؛ لتصوير جميعها له ولعلمه بها في حال عدم .

الثالث - أن ذلك خبر من الله تعالى عام عن جميع ما يحدته ويكونه إذا أراد خلقه وإنشاءه كان ، ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله ، وإنما هو قضاء يريد . فمير عنه بالقول ، وإن لم يكن قولاً ؛ كقول أبي العجم :

• قد قالت الاتساع للبطن الحق •

ولا قول هناك ، وإنما أراد أن الظاهر قد لحق بالباطن ، وكقول عمرو بن حمزة الدوسي :  
فأصبحت مثل النسر طارت فراخه • إذا رام تطيارا يقال له قس  
وكما قال الآخر :

قالت جناحه لساقه الحق • ونجيا لحكما أن يمزقا

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . قال ابن عباس : هم اليهود . مجاهد :  
 السامري . وروى محمد الطبري : لأنهم المذكورون في الآية أولا . وقال الربيع والسدي وقناة :  
 مشركو العرب . ونولا بمعنى هلا تحضيض ؛ كما قال الأشعر . ابن زبلة :

تمنون سقر النبي أفضل مجدكم • بنى ضوطرى لولا الصمى المنما

ولست هذه لولا التي تعطي منع الشيء لوجود غيره ؛ والفروق بينهما عند علماء اللسان  
 أن لولا بمعنى التحضيض لا يليها إلا الفعل مظهرا أو مقدرا . والتي للامتناع عليها الابتداء ،  
 وجرحت المادة بحذف النحر . ومعنى الكلام هل لا يكلمنا الله بقوة يمدصل الله عليه وسلم فنعلم  
 أنه نبي فؤمن به ، رأينا بآية تكون علامة على نبوته . والآية : الدلالة والعلامة ؛ وقد تقدم .  
 و ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يسمون كفار العرب ،  
 أو الأمم السابقة في قول من جعل الذين لا يسمون اليهود والنصارى ، أو اليهود في قول من  
 جعل الذين لا يسمون النصارى . ﴿ تَسَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ . قيل : في الصبوت والاقتراف وترك  
 الإيمان . قال الفراء . تساهت في اتفاقهم على الكفر . ﴿ قَدْ يَتَنَبَّأُوا بِالْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .  
 تقدم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا ﴾ . نصب على الحال . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ . عطف  
 عليه . وقد تقدم معناهما . ﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ . قال مقاتل : إن النبي صلى  
 الله عليه وسلم قال : « لو أنزل الله باسمه باليهود لآمنوا » فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ  
 أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ . بضع تسئل ، وهي قراءة الجمهور ، ويكون في موضع الحال وسطفه على  
 بشيرا ونذيرا . المعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير مسئول . وقال سعيد الأخرش :  
 ولا تسئل بفتح التاء وضم اللام ؛ وتكون في موضع الحال عطفا على بشيرا ونذيرا . المعنى  
 إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير سائل عنهم ؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إظهارهم بنبي عن  
 سؤاله عنهم . هنا معنى غير سائل ، ومعنى غير مسئول لا يكون مؤاخذا بكفر من كفروا بعد  
 التبشير والإنذار . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

ذات يوم : « ليت شعري ما فعل أبوي » . فترت هذه الآية ؛ وهذا على قراءة من قرأ  
ولا تسئل جزأ على النهي ، وهي قراءة نافع وحده . وفيه وجهان :  
أحدهما - أنه نهى عن السؤال عن عمى وكفر من الأحياء ؛ لأنه قد يتسبب حاله  
فيقتل عن الكفر إلى الإيمان ، وعن المصيبة إلى الطاعة .

والثاني - وهو الأظهر ، أنه نهى عن السؤال عن مات على كفره ومصيبته ، نعطيا  
لحاله وتقليظا لشأنه ، وهذا كما يقال : لا تسئل عن فلان : أى قد بلغ فوق ماتحسب . وقرأ ابن  
مسعود ولن تسئل . وقرأ ابن مسعود : ومعناها موافق لقراءة الجمهور . فإى أن يكون  
مسئولا عنهم . وقيل : إنما سأل أى أبويه أحدث موتا ؟ فترت . وقد ذكرنا فى كتاب  
التذكرة أن الله تعالى أجاله أباه وأمه وألنا به ، وذكرنا قوله عليه السلام للرجل : « إن أبى  
وأباك فى النار » . وبيننا ذلك والمجد لله .

قوله تعالى : ( وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ بَيْتَهُمْ ) . فيه مستلطان :  
الأولى - قوله تعالى : ( وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ بَيْتَهُمْ ) .  
المنى ليس غرضهم يا محمد بما يقرحون من الآيات أن يؤمنوا ، بل لو أنيتهم بكل ما يسئلون لم  
يرضوا عنك ، وإنما يرضهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم . يقال : رضى يرضى رضاً  
ورضاً ورضواناً ومرضاة ؛ وهو من ذوات الواو ؛ ويقال فى التثنية : رضوان ، وحكى الكسائى  
رضيان . وحكى رضاء ممدود وكأنه مصدر راضى يراضى مرضاة ورضاء . وتبع ، منصوب  
بأن ولكنها لا تظهر مع حتى . قاله الخليل ؛ وذلك أن حتى خافضة للاسم ، كقوله : ( حَتَّى  
مَطْلَعِ أَفْعَجٍ ) . وما يعمل فى الاسم لا يعمل فى الفعل البتة . وما ينخفض اسماً لا ينصب شيئاً .  
وقال النحاس : تبع ، منصوب بحتى ، وحتى يدل من أن . والملة : اسم لما شرع الله لعباده  
فى كتبه على ألسنة رسله ، فكانت الملة والشرعة سواء . فأما الذين فقد فرق بينه وبين الملة  
والشرعة ؛ فإن الملة والشرعة ما دعا الله عباده إلى فعله ، والذين ما فعله العباد عن  
أمره .

الثانية - تحسب هذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي ودาวود وأحمد ابن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة؛ لقوله تعالى : ﴿ مِلَّتُهُمْ ﴾ . فوجد الملة؛ وبقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، وكقوله عليه السلام : « لا يرث المسلم الكافر » .  
 وذهب مالك وأحمد في الرواية الأخرى إلى أن الكفر ملل، فلا يرث اليهودي النصراني، ولا برناب الموصي؛ أخذا بظاهر قوله عليه السلام : « لا يتوارث أهل ملتين » وأما قوله تعالى : ﴿ مِلَّتُهُمْ ﴾ . فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة في اللفظ بليل إضافتها إلى ضمير الكثرة، كما تقول : أخذت عن طلبة أهل المدينة - مثلاً - منهم ، وسمعت عنهم حديثهم ؛ معنى علومهم وأحاديثهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ ﴾ . المعنى ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذي يضعه في قلب من يشاء، هو الهدى الحقيقي، لا ما يدعيه هؤلاء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ . الأهواء؛ جمع هوى كما تقول : جل وأجمل، وما كانت مختصة بجمعت . ولو جل على أفراد الملة لقال : هوام ؛ وفي هذا الخطاب وجهان : أحدهما - أنه للرسول لتوجيه الخطاب إليه . والثاني - أنه للرسول والمراد به الله ؛ وعلى الأول يكون فيه تأديب لأمته ، إذ منزلتهم دون منزلته . وسبب الآية أنهم كانوا يستولون المسالمة والهدنة ، ويعدون النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام ؛ فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يفتح ملتهم ، وأمره بجهادهم .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَلَيْمٍ ﴾ . مثل أحمد بن حنبل عن يقول : القرآن مخلوق ؛ فقال : كافر ؛ فقيل : بم كفرته ؟ فقال : بآيات من كتاب الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلَيْمٍ ﴾ . والقرآن من علم الله ؛ فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ ﴾ . قال قتادة : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذا التأويل القرآن . وقال ابن زيد : هم من أسلم من بني إسرائيل

والكلب على هذا التأويل التوبة؛ والآية تم . والذين، رفع بالابتداء . آتيناهم، صلته . يتلونه، خبر الابتداء، وإن شئت كان الخبر (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) .

واختلف في معنى (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) . فقيل : يقيمونه حتى اتباعه، باتباع الأمر والنهي؛ فيتلونون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بما تضمنه . قاله عكرمة . قال عكرمة : أما سمعت قول الله تعالى : (وَأَقْرَبَ إِذَا تَلَّهَا) . أى اتباعها؛ وهو معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما . وقال الشاعر :

• قد جعلت دلوى تستلنى •

وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) . قال : يقيمونه حتى اتباعه . في إسناده غير واحد من المجتهدين فيما ذكر الخطيب أبو بكر بن أحمد ، إلا أن معناه صحيح . وقال أبو موسى بن حري الأشعري : من يقع القرآن يهبط به على رياض الجنة . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مروا بآية عذاب استعانوا منها . وقد روى هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم : كان إذا مر بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تمؤذ . وقال الحسن : هم الذين يعملون بحكاه ، ويؤمنون بمشابهه ، ويكون ما أشكل عليهم إلى طاله . وقيل : يقرءونه حتى قراءته .

قلت : وهذا فيه بعد ، إلا أن يكون المعنى يرتلون الفاظه ، ويفهمون معانيه ؛ فإن تَمَّ المعاني يَكُونُ الاتِّباع لمن وفق .

قوله تعالى : (وَإِذْ أَسْبَلِ إِبرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاهِمَةٍ) . الآية . فيه عشرون مسألة : الأولى - لما جرى ذكر الكعبة والقيلة اتصل فلك بذكر إبراهيم عليه السلام ، وأنه الذي بنى البيت ؛ فكان من حق اليهود - وهم من نسل إبراهيم - ألا يرفضوا عن دينه . والابتلاء : الامتحان والاختبار . ومعناه أمر وتعبد . وإبراهيم ، تفسيره بالسريانية فيما ذكر الباسمودي ، والمزينة فيما ذكر ابن عطية : أب رحيم . قال السهيلي : وكثيرا ما يقع الاتفاق بين

لمسرى يأتى والعربى أو يقرابه فى اللفظ ؛ ألا ترى أن إبراهيم صمته . أب وحم ب الرحمة بالأطفال ؛ ولتلك جمل هو وسارة زوجته كفلين لأطفال الله . ومن يهتدون صغاراً الى يوم القيامة .

قلت : وما يدل على هذا ما أخرجه البخارى من حديث ابن عباس عن سمرة ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى فى الروضة إبراهيم عليه السلام . وحوله أولاد الناس . وقد أتينا عليه فى كتاب التذكرة والمحدثه .

وابراهيم هذا ، هو ابن تارخ بن ناخور فى قول بعض المفسرين . وفى التوريل : **( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَذَرَ )** . وكذلك فى صحيح البخارى ؛ وفى بعض ذلك على ما أتى فى الأنعام بيانه إن شاء الله تعالى . وكان له أربع بنين : إسماعيل . إسحاق وممدان على ما ذكره السجلى . وقسم على الفاضل للاهتمام ؛ إذ كون الرب - - - - - وسالى مبتلياً معلوم ، وكون الضمير المفعول فى العربية متصلاً بالفاعل موجب تقديم المفعول ، فإعجابى الكلام على هذا الإهتمام ، فاعلمه . وقراءة العامة إبراهيم بالنصب . وبه ، يرفع على ما ذكرنا . وروى عن جابر بن زيد أنه قرأ على العكس ، وزعم أن ابن عباس أقرأه كذلك . والمعنى دعا إبراهيم ربه وسأل ؛ وفيه بعد ؛ لأجل الباء فى قوله : **( يَكَلِّمَاتِ )** .

الثانية - - - قوله تعالى : **( يَكَلِّمَاتِ )** . الكلمات جمع كلمة . ترجع حقيقتها الى كلام البارئ تعالى ، لكنه عبر بها عن الوظائف التى كلفها إبراهيم عليه السلام ؛ ولما كان تكليفها بالكلام سميت به كما سمي عيسى كلمة ؛ لأنه صدر عن كلمه وهى كن . وتسمية النى بمقتضى أحد قسمى الجواز . قاله ابن العربى .

الثالثة - - - واختلف العلماء فى المراد بالكلمات على أقوال : أحدها - - - شرائع الإسلام ، وهى ثلاثون سهماً : عشر منها فى سورة براءة **( الثَّائِيُونَ الْغَائِبُونَ )** الى آخرها ، وعشر فى الأعراب . **( إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ )** الى آخرها ، وعشر فى المؤمنين . **( قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ )** . الى قوله تعالى : **( عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافَتُونَ )** . وقوله فى سأل سائل . **( زِلَا الْمُتَّصِلِينَ )** . الى

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما بئله الله أحداً من فناء ما كلفها إلا إبراهيم عليه السلام ، ابتلى بالإسلام فآمنه ؛ فكتب الله البراءة ، فقال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ . وقال بعضهم : بالأمر والنهي ، وقال بعضهم : بذبح ابنه ، وقال بعضهم : بإنهاء الرسالة ؛ والمعنى متقارب . وقال مجاهد : في قوله تعالى : إني مبتليك بأمر ، قال : تجبلي للناس إنما ؟ قال : نعم ؛ قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين ؛ قال : تجعل البيت مثابة للناس ؟ قال : نعم ؛ وأنثى ؟ قال : نعم ؛ قال : وتبرئنا بمناسكا وتنتوب علينا ؟ قال : نعم ؛ قال : وترزق أهله من الثمرات ؟ قال : نعم . وعلى هذا القول فآله تعالى هو الذي أتم ؛ وأصح من هذا ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن ابن طلوس عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ . قال : آتاه الله بالطهارة ، نعم في الرأس ، ونعم في الجسد : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الشعر . وفي الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق البانة ، والاختتان ، وتصف الإبط ، وغسل مكان الفائط والبول بالماء ؛ وعلى هذا القول فالذي أتم هو إبراهيم ، وهو ظاهر القرآن . وروى مطر عن أبي الجلد أنها عشر أيضاً ، إلا أنه جعل موضع الفرق غسل البراجم ، وموضع الاستنجاء الاستعداد ، وقال قتادة : هي مناسك الحج خاصة . الحسن : هي انحلال الست : الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والمهجرة ، والختان . وقال أبو إسحاق الزجاج : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم عليه السلام .

قلت : وفي الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إبراهيم عليه السلام أول من اجتنى ، وأول من ضاف الضيف ، وأول من استنجد ، وأول من قلم الأظفار ، وأول من قص الشارب ، وأول من شاب ؛ فلما رأى النبي قال : ما هذا ؟ قال : وقار . قال : يارب ، زدني وقاراً . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه قال : أول من خطب على المنابر إبراهيم خليل الله . قال غيره : وأول من رد التريد ،



وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأول من استجى بالماء، وأول من لبس السراويل . وروى معاذ بن جبل قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أئمة المبرقة اتخذوا أبي إبراهيم وإن اتخذ العصا قد اتخذها أبي إبراهيم » .

قلت : وهذه أحكام يجب بيانها والتوقف عليها والكلام فيها .

فأقول ذلك « المختار » وما جاء فيه . وهي :

الرابعة — أجمع العلماء على أن إبراهيم عليه السلام أول من اختن ، واختن في السن الذي اختن فيه ، قى الموطن عن أبي هريرة موقفا : « وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » . ومثل هذا لا يكون رأيا ، وقد رواه الأوزاعي مرفوعا عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اختن إبراهيم عليه السلام وهو ابن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة » . وذكره أبو عمرو . روى مسندا مرفوعا من غير رواية يحيى من وجوه : « أنه اختن حين بلغ ثمانين سنة واختن بقدم » . كذا في صحيح مسلم وغيره « ابن ثمانين سنة » ، وهو المحفوظ في حديث ابن عجلان ، وسلي الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال عكرمة : اختن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة ، ولم يطف بالبيت بعد على ملة إبراهيم الاختون . حكى قال عكرمة . وقال للمسيب بن رافع ذكره المروزي : والقدم يروى مشددا ومخففا . قال أبو الزناد : القدم (مشددا) : موضع ، انتهى .

الخامسة — واختن العلماء في المختار ، بجمهورهم على أن ذلك من مؤكدات السن ، ومن فطرة الإسلام التي لا يبع تركها في الرجال . وقالت طائفة : ذلك فرض ؛ لقوله تعالى : ( أَنْ أُتْبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ) . قال قتادة : هو الاختن ؛ وإليه مال بعض المالكيين ، وهو قول الشافعي . وأبي عبد الله ابن شريح<sup>(١)</sup> على وجوبه بالإجماع على تحريم النظر إلى السورة ، وقال : لولا أن المختار فرض لما أبيح النظر إليها من المختون . وأجيب عن هذا بأن مثل

(١) في بعض نسخ الأصل « ابن شريح » .

هذا يباح لمصلحة الجسم . كنظر الطبيب ، والطب ليس بواجب إجماعاً ، على ما يأتي في التعليل  
بيانه إن شاء الله تعالى . وقد احتج بعض أصحابنا بما رواه الحجاج بن أرطاة عن أبي الميخ  
عن أبيه عن شذاد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الختان سنة للرجال  
مكرمة للنساء » . والحجاج ليس ممن يحتاج به .

قلت : أعلى ما يحتاج به في هذا الباب حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :  
« الفطرة خمس الاختان » . الحديث ، وسيأتي . وروى أبو داود عن أم عطية أن أمراًة  
كانت تحتن النساء بالمدينة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تهكي فإن ذلك أحطى  
للراة وأحب للبعل » . قال أبو داود : هذا الحديث ضعيف راويه مجهول . وفي رواية  
ذكرها رزين : « ولا تهكي فإنه أنور للوجه وأحطى عند الرجل » .

السادسة — فإن ولد الصبي غتخوا فقد كفى مؤنة الختان . قال الميموني قال لي أحد :  
إن ههنا رجلاً ولده ولد غتخون ، فأغم ذلك غماً شديداً ، فقلت له : إذا كان الله قد كفلك  
المؤنة فما غمك بهذا !

السابعة — قال أبو الفرج الجوزي حدثت عن كعب الأبحار قال : جلق من الأنبياء  
ثلاثة عشر غتخين : آدم وشيث وإدريس ونوح وسام ولوط ويوسف وموسى وشعيب  
وسليمان ويحيى وعيسى والنبي صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن حبيب الهاشمي :  
هم أربعة عشر : آدم وشيث ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ويوسف وموسى وسليمان  
وذكريا وعيسى وحفظة بن صفوان — نبي أصحاب الرس — ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم  
أجمعين .

قلت : اختلفت الروايات في النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر أبو نعيم الحافظ في « كتاب  
الخلية » بإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد غتخوا . وأسند أبو عمر في التمهيد حديثاً أحمد  
ابن محمد بن أحمد حديثاً محمد بن عيسى حديثاً يحيى بن أيوب بن زياد البغلي حديثاً محمد بن  
أبي السري السقلاني حديثاً الوليد بن مسلم عن شعيب عن عطاء الخراساني عن معركة عن

ابن عباس : أن عبد المطلب حتن النبي صلى الله عليه وسلم يوم سابعه ، وجعل له مادية وثمناه «مهندا» قال أبو عمر : هذا حديث مسند غريب ؛ قال يحيى بن أيوب : طلبت هذا الحديث فلم أجده عند أحد من أهل الحديث ممن لقيته إلا عند ابن أبي السرى . قال أبو عمر : وقد قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم ولد مخنوقا .

الثامنة — واختص متى يختن الصبي ؛ فثبت في الأخبار عن جماعة من العلماء أنهم قالوا : حتن إبراهيم إسماعيل ثلاث عشرة سنة ، وحن ابنه إسحاق لسبعة أيام . وروى عن فاطمة أنها كانت تختن ولدها يوم السابع ؛ وأنكر ذلك مالك وقال : ذلك من عمل اليهود . ذكره عنه ابن وهب . وقال الليث بن سعد : يختن الصبي مابين سبع سنين إلى عشر ؛ ونحوه روى ابن وهب عن مالك .

وقال أحد : لم أسمع في ذلك شيئا . وفي البخاري عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس ، مثل من أنت حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أنا يومئذ مخنون ؛ قال : وكانوا لا يختنون الرجل حتى يدرك أو يقارب الاحتلام .

واستحب العلماء في الرجل الكبير يسم أن يختن ؛ وكان عطاء يقول : لا يتم إسلامه حتى يختن ، وإن بلغ ثمانين سنة .

وروى عن الحسن أنه كان يرخص للشيخ الذي يسم ألا يختن ، ولا يرى به بأسا ولا بشهادته وذبيحته ، وجهه وصلاه ؛ قال ابن عبد البر : وعامة أهل العلم على هذا . وحديث بريدة في حج الأخلف لا يثبت . وروى عن ابن عباس وجابر بن زيد وعكرمة : أن الأخلف لا تؤكل ذبيحته ولا تجوز شهادته .

التاسعة — قوله : وأوّل من أمتدّ ، فالاستعداد استعمال الحديد في حلق العانة . روت أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا طلى وليّ عاتته يديه . وروى ابن عباس أن رجلا طلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ إلى عاتته قال له : اخرج عني ؛ ثم طلى عاتته يديه . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتوّز ، وكان إذا كثرت الشوارب على

عائته حلقه . قال ابن خزيمة : وهذا يدل على أن الأكثر من ضلّه كان الحق ؛ وإنما  
تؤثر نادرا ليصبح الجمع بين الحديثين .

المسألة - في تقليم الأظفار ؛ وتقليم الأظفار : قصها ؛ والقلامة ما يزال منها . وقال  
مالك : أحب للنساء من قص الأظفار وحلق العانة مثل ما هو للرجل . وذكره الخوارزمي <sup>(١)</sup>  
مسكين ويحتمل عن ابن القاسم . وذكر الترمذي الحكيم في " نوادر الأصول " له - الأصل التاسع  
والعشرون - حدثنا عمر بن أبز عن عمر قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي عن عمر بن بلال  
الفرزاني قال سمعت عبد الله بن بشر المازني يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قصوا  
أظفاركم وادفئوا قلاماتكم وقصوا براجمكم ونظفوا لسانكم من الطعام وتسندوا ولا تدخلوا على  
خبرائكم » . ثم تكلم عليه فأحسن ؛ قال الترمذي : فاما قص الأظفار فمن أجل أنه ينجس  
ويجش ويضر ، وهو مجتمع الوسخ ، فربما أجنب ولا يصل الماء إلى البشرة من داخل الوسخ  
فلا يزال جنيا ، ومن أجنب في موضع إبرة من جسده بعد غسل غير مفسول ، فهو جنب  
على حاله حتى يتم الغسل جسده كله ، فذلك تنبيه إلى قص الأظفار . والأظفار جمع الأظفر ،  
والأظفار جمع الظفر . وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سها في صلاته فقال : « وما لي  
لا أؤيم <sup>(٢)</sup> ورفع أحدكم <sup>(٣)</sup> يمين ظفروه وأعلمته ويستطلي أحدكم عن خبر السماء وفي أظفاره الجنابة  
والنفث » . وذكر هذا الخبر أبو الحسن علي بن محمد الطبري المعروف باليكافي في " أحكام  
القرآن " له عن سليمان بن فرج أبي وأصل قال : أتيت أبا أيوب رضي الله عنه فصاحته فرأى  
في أظفاري طولا فقال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن خبر السماء فقال :  
« يحيى أحدكم يستل عن خبر السماء وأظفاره كأظفار الطير حتى يجتمع فيها الوسخ والنفث » .  
وأما قوله : « ادفئوا قلاماتكم » . فإن جسد المؤمن ذو حرمة ، فما سقط منه وزال عنه ، لحظه  
من الحرمة قائم ، فيحرق عليه أن يدفنه كما أنه لو مات دفن ، فإذا مات بعضه فكذلك أيضا قام

(١) في نسخة من الأصل : « على جسده » .

(٢) في نسخة من الأصل : « ما هو على الرجال » .

(٣) الرق : الروح التي بين الأضمة والظفر .

حرمته بدفته؛ كي لا يتفرق ولا يقع في النار أو في مزابل قفرة . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفن دمه حيث احتجم، حتى لا تبحث عنه الكلاب، حدثنا بذلك أبي رحمه الله تعالى قال : حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا هنيذ بن القاسم بن عبد الرحمن بن ماعز قال سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير يقول : إن أباة حدثني أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم فلما فرغ قال : « يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد » . فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمد إلى الدم فشربه، فلما رجع قال : « يا عبد الله ما صنعت به » . قال : جعلته في أخفى مكان ظننت أنه خافيا عن الناس، قال : « لملك شربته » . قال : نعم؛ قال : « لم شربت الدم ويل لك من الناس » . حدثني أبي قال حدثنا مالك بن سليمان المروزي قال حدثنا داود بن عبد الرحمن عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان : الشعر، والظفر، والدم، والحليضة، والسن، والقلقة، والبشيمة. وأما قوله : « تقوا إبراهيم » . فالإبراهيم تلك النضون من المفاصل، وهي مجتمع الدون (واحدتها برجمة) وهو ظهر عفة كل مفصل؛ فظهر المقدة يسمى برجمة، وما بين المقدين يسمى راجبة (وجمعها رواجب) وذلك مما يلي ظهرها، وهي قصبة الأصبع، فكل أصبع برجتان وثلاث رواجب إلا الإبهام فإن لها برجة وراجلتين؛ فأمر بتنقيته ثلاثا يدرن فتبقى فيه الجناية، ويحول الترن بين الماء والبشرة . وأما قوله : « نظفوا لائكم » . فالثلة واحدة، والثلاث جماعة، وهي الحمة فوق الأسنان ودون الأسنان، وهي منابتها . والعمور : الحمة القليلة بين السنين (واحدتها عمرة) فأمر بتنظيفها ثلاثا تبقى فيها ضرر الطعام فتتغير عليه النكهة وتنتكر الرائحة، ويتأذى الملكان؛ لأنه طريق القرآن، ومقعد الملكين عند نايه، وروى في الخبر في قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » . قال : عند نايه . حدثنا بذلك محمد بن علي الشافعي قال : سمعت أبي يذكر ذلك عن سفيان بن عيينة؛ وجاد ما قال، وذلك أن اللفظ هو عمل الشفتين بلفظ الكلام على لسانه إلى البراز؛ وقوله : « (لَدَيْهِ) » . أي عنده، والد والعند في لسانهم السائرة بمعنى

واحد، وكذلك قوله : ( لَبَنٌ ) فالنون زائدة، فكان الآية تبيء أن الرقب عتيد عند ملفظ الكلام وهو التاب . وأما قوله : « تسنوا » وهو السواك مأخوذ من السن، أي نظفوا السن . وقوله : « لا تدخلوا على قرايجنا » فالمحفوظ عندي « فلا دخلنا » وسميت الجارود يذكر عن النضر قال : الأتلع : الذي قد اصفرت أسنانه حتى بخرت من باطنها ، ولا أعرف النضر واليخر الذي يمد له راحة متكة لبشرته ، يقال : رجل أيجر ، ورجل يجر . حدثنا الجارود قال حدثنا جرير عن منصور عن أبي علي عن أبي جعفر بن تمام بن العباس عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استاكوا ما لكم تدخلون على قلعنا » .

الحادية عشرة - في قص الثاروب، وهو الأخذ منه حتى يبدو طرف الشفة وهو الاطار، ولا يحزه فيمثل نفسه، قاله مالك . وذكر ابن عبد الحكم عنه قال : وأرى أن يؤذ من حلق شاربه . وذكر أشهب عنه أنه قال في حلق الثاروب : هذه بدعة، وأرى أن يوجع ضربا من فعله . قال ابن خزيمة متعبا قال مالك : أرى أن يوجع من حلقه ضربا . كأنه يراه يمثلا بنفسه، وكذلك ينفخ الشعر، وتقصيره أولى عنده من حلقه . وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان ذالة وكان أصحابه من بين وافر الشعر أو مقصر، وإنما حلق وحلقوا في النسك، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقص أظافره وشاربه قبل أن يخرج إلى الجمعة . وقال الطحاوي : لم نجد عن الشافعي في هذا شيئا منصوفا، وأصحابه الذين رأيتهم : المزني والربيع كانا يحفیان شواربهما، ويدل ذلك أنهما أخذنا ذلك عن الشافعي رحمه الله تعالى؛ قال : وأما أبو حنيفة وزفر وأبو يوسف ومحمد فكان مذهبهم في شعر الرأس والثاروب أن الإحفاء أفضل من التقصير . وذكر ابن خزيمة متعبا عن الشافعي أن مذهب في حلق الثاروب كذهب أبي حنيفة سواء . وقال أبو بكر الأثرم : رأيت أحمد بن حنبل يعني شاربه شديدا، وسمعت سئل عن السنة في إحفاء الثاروب فقال : يعني كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « احفوا الشوارب » فقال أبو عمر : إنما في هذا الباب أصلان : أحدهما - أحفوا ، وهو لفظ يختص التأويل . والثاني - قص الثاروب، وهو مفسر والمفسر يقضي على المجمل، وهو عمل أهل المدينة، وهو

أولى ما قيل به في هذا الباب . روى الترمذى عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من شارب ويقول : «إن إبراهيم خليل الرحمن كان يفعل» . قال : هذا حديث حسن غريب ، وخرج مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «الفطرة خمس الاختتان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط» . وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خالقوا المشركين احفوا الشوارب وأوفوا بالتي» . والأعاجم يقصون لحامهم ، ويوفرون شواربهم أو يوفرونها معا ، وذلك عكس الجمال والنظافة . ذكر زر بن عبيد بن نافع أن ابن عمر كان يعني شارب حتى ينظر إلى الجلد يأخذ هذين ، يعني ما بين الشارب والحية . وفي البخارى : وكان ابن عمر يأخذ من طول لحية مازاد على القبضة إذا حج أو أحر . وروى الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من عرضها وطولها . قال : هذا حديث غريب .

الثانية عشرة — وأما الإبط فسنه الخف ، كما أن سنة العانة الحلق ، فلو عكس جاز لحصول النظافة ، والأول أولى ، لأنه التيسر المتاد .

الثالثة عشرة — وفرق الشعر تقريقه في المفرق ، وفي صفته صلى الله عليه وسلم : إن افترقت عقيبته فرق ؛ يقال : فرقت الشعر أفرقه فرقا ، يقول : إن أفرقت شعر رأسه فرقه في مفرقه ، فإن لم ينفرق تركه وفره واحدة . خرج النسائي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمدل شعره ، وكان المشركون يفرقون شعورهم ، وكان يجب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشئ ، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، أخرجه البخارى ومسلم عن أنس . قال التميمي عياض : مدل الشعر إرساله ، والمراد به هنا هند الطلاء إرساله على الجبين ، واتخاذ كالكفمة ، والفرق في الشعر سنة ، لأنه الذي رجع إليه النبي صلى الله عليه وسلم . وقد روى أن عمر بن عبد العزيز كان إذا انصرف من الجمعة أقام على باب المسجد خروبا يحزون ناصية كل من لم يفرق شعره . وقد قيل : إن الفرق كان من سنة إبراهيم عليه السلام .

الرابعة عشرة - وأما الشيب فنور ويكره تنغه، ففي النسائي وأبي داود من حديث عمر ابن شيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولا تنفوا الشيب ما من مسلم شيب شيئا في الإسلام إلا كانت له نورا يوم القيامة وكتب الله له حسنة وحط عنه خطيئته » .

قلت : وكما يكره تنغه كذلك يكره تغييره بالسواد ، فأما تغييره بغير السواد بخائر ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في حق أبي خنافة - وقد جرى به وليته كالنعامه بياضا - : « غيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد » . ولقد أحسن من قال :

يسود أعلها ويبيض أصلها \* فلا خير في الأعلى إذا فسد الأصل

وقال آخر :

يا خاضب الشيب بالحناء يستره \* سل المليك له سترا من النار

الخامسة عشرة - وأما التريد فهو أركى الطعام وأكثره بركة ، وهو طعام العرب ، وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالفضل على سائر الطعام فقال : « فضل عائشة على النساء كفضل التريد على سائر الطعام » . في صحيح البستي عن أسماء بنت أبي بكر أنها كانت إذا تردت غطته شيئا حتى يذهب فوره وتقول : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه أعظم للبركة » .

السادسة عشرة - قلت : وهذا كله في معنى ما ذكره عبد الرزاق عن ابن عباس ، وما قاله سعيد بن المسيب وغيره . ويأتي ذكر المضمضة والاستنشاق والمواك في سورة النساء ، وحكم الاستنجاء في براءة ، وحكم الضيافة في هود ، إن شاء الله تعالى . ونخرج مسلم عن أنس قال : « وقت لنا في قصر الشارب وتعلم الأطفال ونشف الإبط وحلق العانة ألا يترك أكثر من أربعين يوما وليلة . قال عماؤنا : هذا تحديد في أكثر المسئلة ، والمستحب تنقذ ذلك من الجمعة إلى الجمعة وهذا الحديث يرويه جعفر بن سليمان . قال العقيلي : في حديثه نظر . وقال



أبو عمر فيه : ليس بحجة؛ لسوء حفظه وكثرة غلطه . وهذا الحديث ليس بالقوى من جهة النقل، ولكنه قد قال به قوم، وأكثرهم على ألا توقيت في ذلك . وبالله التوفيق .

السابعة عشرة - قوله تعالى : ( قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ) . الإمام : القدوة ؛ ومنه قيل لخطيب البناء : إمام، وللطريق : إمام؛ لأنه يؤم فيه السالك أى يقصده فالمنى جاعلك للناس إماما يأتون بك في هذه الخصال ، ويقتدى بك الصالحون . بفعله الله تعالى إماما لأهل طاعته ؛ فكذلك اجتمعت الأئمة على الدعوى فيه - والله تعالى أعلم - أنه كان حقيقا .

الثامنة عشرة - قوله تعالى : ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ) . دماء على جهة الرغبة إلى الله تعالى أى ومن ذريتي يارب جاعل . وقيل : هذا منه على جهة الاستفهام عنهم أى : ومن ذريتي يارب ماذا يكون ؟ فأخبره الله تعالى أن منهم عاصيا وظالما لا يستحق الإمامة . قال ابن عباس : سأل إبراهيم عليه السلام أن يحصن من ذريته إماما؛ فأعلمه الله أن في ذريته من يعصى فقال : ( لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ) .

التاسعة عشرة - قوله تعالى : ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ) . أصل ذرية ؛ فُلَيْسَةٌ مِنَ الذَّرِّ؛ لأن الله تعالى أخرج الخلق من صلب آدم عليه السلام كالذر حين أنشدهم على أنفسهم . وقيل : هو مأخوذ من ذرا الله الخلق يذروهم ذرا خلفهم؛ ومنه الذرية، وهى نسل الثقلين؛ إلا أن العرب تركت همزا، والجمع الذراري . وقرا زيد بن ثابت ذرية بكرى الذال، وذرية بفتحها . قال ابن جني أبو الفتح هُنا : يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ : أحدها - ذرا ، والثاني - ذرر، والثالث - ذرو ، والرابع ذرى؛ فأما الحمزة فن ذرا الله الخلق، وأما ذور فن لفظ الذر ومنه، وذلك لما ذرر في النجر : أن الخلق كان كالذر . وأما الواو والياء، فن ذروت الحب وذريته يقالان جميعا ، وذلك قوله سبحانه وتعالى : ( فَأَصْبَحَ هَبْثًا تَذُرُّهُ الرِّيَّاحُ ) . وهذا اللفظ وخفته ، وتلك حال الذر أيضا . قال الجوهري : ذرت الريح التراب وضربه تذرؤه وتذويه ذَرَوْا وَذَرَيَا أى نسفته؛ ومنه قولهم : ذرى الناس المنطة؛

وأدريت الشيء، إنما ألقته كإفلاك الحب للزرع . وطعته فأخذناه من ظهوره أبنته أي الله .  
وقال الخليل : إنما سماه ذرية ؛ لأن الله تعالى ذولاً على الأرض كما ذرأ الزرع البذر .  
وقيل : أصل ذرية ، ذُرُورَةٌ ، لكن لما كثرت التخصيف أبطل من إحدى الهمزات ياء ، فصارت  
ذُرُوءٌ ، ثم أدرجت الواو في الياء فصارت ذُرَّةً . والمراد بالذرية هنا الأبناء خاصة ، وقد  
تطلق على الآباء والأبناء ، ومنه قوله تعالى : ( وَإِلَهُكُمْ أَنَا فَخُذُوا ذُرِّيَّتَكُمْ ) . بنى التسم .  
البرية عشرين - قوله تعالى : ( لَا يَتَّبِعُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ) . اخطف في المراد بالعهدة ،  
فروى أبو صالح عن ابن عباس أنه النبوة ، وقوله السدى . يجعله : الإمامة . فائدة : الإيمان .  
عطاء : الرحمة . التمسك : دين الله تعالى . وقيل : عهده أمره . ويطلق العهد على الأمر ،  
قال الله تعالى : ( إِنَّ لَكَ عِهْدَ آيَاتِنَا ) . أي أمره . وقال : ( أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا آدَمُ ) . بنى  
الم أقدم إليكم الأمر به ، وإنما كان عهد الله هو إقامته بقوله : ( لَا يَتَّبِعُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ )  
أي لا يجوز أن يكونوا يحمل من يحمل منهم أبصر الله ، ولا يقيمون عليها . على ما يأتي بيانه  
إن شاء الله تعالى . وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى : ( لَا يَتَّبِعُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ) .  
قال : لا يتبع عهد الله في الآخرة الظالمين ، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم قاتل به ، وأكل  
وطش وأبصر . قال الزجاج : وهذا قول حسن أي لا يتبع أمانى الظالمين ، أي : لا أو منهم من  
عذابي . وقال سعيد بن جبير : الظالم هنا المشرك . وقرأ ابن مسعود بطلحة بن مصرف  
( لَا يَتَّبِعُ عَهْدِي الظَّالِمُونَ ) . يرفع الظالمون ، الباقون بالصعب . وأسكن حمزة وحفص  
وابن محيصن الياء في عهدي ، وقصها الباقون .

الحادية والعشرون - استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل  
العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك ، وهو الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم  
الأنبياء بما الأمر أهله ، على ما تقدم من القول فيه . فأما أهل الفسوق والبلوى والظلم فليسوا  
بأهل ؛ لقوله تعالى : ( لَا يَتَّبِعُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ) . ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي

رضى الله عنهم، وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الجحاج، وأخرج أهل المدينة بنى أمية وقاموا عليهم، فكانت الحرة التي أوقفها لهم عقبة بن مسلم .

والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ؛ لأن في تنازعه والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، وإزاحة السماء وإطلاق أيدي السفهاء ، وشن الفارات على المسلمين ، والفساد في الأرض . والأول مذهب طائفة من المعتزلة ، وهو مذهب الخوارج قائله .

الثانية والعشرون — قال ابن خوزيمنداد : وكل من كان ظالماً لم يكن نبياً ولا خليفة ولا حاكماً ولا معنياً ، ولا إمام صلاة ، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة ، ولا تقبل شهادته في الأحكام ، غير أنه لا ينزل بفسقه حتى يزيله أهل الحل والعقد . وما تقدم من أحكامه موافقاً للصواب ماض غير منقوض . وقد نص مالك على هذا في الخوارج والبيعة أن أحكامهم لا تنقض إذا أصابوا بها وجهها من الاجتهاد ، ولم يفرقوا الإجماع ، أو يخالفوا النصوص . وإنما قلنا ذلك لإجماع الصحابة ، وذلك أن الخوارج قد خرجوا في أيامهم ولم ينزل أن الأئمة تبعوا أحكامهم ، ولا تقضوا شيئاً منها ، ولا أعادوا أخذ الزكاة ولا إقامة الحدود التي أخذوا وأقاموا ، فدل على أنهم إذا أصابوا وجه الاجتهاد لم يتعرض لأحكامهم .

الثالثة والعشرون — قال ابن خوزيمنداد : وأما أخذ الأرزاق من الأئمة الظالة فلذلك ثلاثة أحوال : إن كان جميع ما في أيديهم مأخوذاً على موجب الشريعة بغنائهم ، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الجحاج وغيره . وإن كان غنطاً حلالاً وظلماً كما في أيدي الأمراء اليوم فالورع تركه ، ويموز للحتاج أخذه ، وهو كمن في يده مال مسروق ، ومال جيد حلال قد وكله فيه زبيل بخاء اللص يتصدق به على إنسان فيجوز أن تؤخذ منه الصدقة ، وإن كان قد يجوز أن يكون اللص يتصدق ببعض ما سرق ، إذا لم يكن شئ معروف به ، وكذلك لو باع أو اشتري كان النقيض صحيحاً . لازماً — وإن كان الورع التترع عنه — وذلك أن الأموال لا تحرم بأعيانها وإنما تحرم بمجراتها ، وإن كانت ما في أيديهم ظلماً صراماً فلا يجوز أن

يؤخذ من أيديهم ، ولو كان ما في أيديهم من المال مقصوبا غير أنه لا يعرف له صاحب ولا مطالب ، فهو كما لو وجد في أيدي اللصوص وقطاع الطريق ، ويجعل في بيت المال وينظر طالبه بقدر الاجتهاد ، فإذا لم يعرف صرفه الإمام في مصالح المسلمين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّتَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْثًا ﴾ . فيه مستلطان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا ﴾ . بمعنى صيرنا لتعديده الى مفعوليّه ، وقد تقدّم .  
 ﴿ آيَاتٍ ﴾ . بمعنى الكعبة . ﴿ مَّتَابَةً ﴾ . أى مرجعاً ، يقال : تاب يثوب متاباً ومتاباً وتُؤَبّاً وثوباناً . فلنسابة مصدر وصف به ويراد به الموضع الذى يتاب اليه أى يرجع اليه ؛ وقال ورقة بن نوفل في الكعبة :

متاباً لأفناء القبائل كلها \* تحبّ اليها اليمعات النوامل

وقرأ الأعمش متابات على الجمع ؛ ويحتمل أن يكون من التواب أى يتابون هناك . وقال مجاهد : لا يقضى أحد منه وطراً ، قال الشاعر :

جعل البيت مثاباً لهم \* ليس منه الدهر يقضون الوطر

والأصل مَتَوَبَةٌ ، قلبت حركة الواو على الشاء ، فقلبت الواو ألفاً اتباعاً لنسب يثوب ، وآتصب على المفعول الثانى ، ودخلت الهاء للبالغة لكثرة من يثوب أى يرجع ؛ لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطراً ، فهى كنسابة وعلامة ، قاله الأخفش . وقال غيره : هى هاء تانيث المصدر وليست للبالغة .

إن قيل : ليس كل من جاء يعود إليه ؛ قيل : ليس يخص من ورد عليه ، وإنما المعنى لا يخلو من الجملة ، ولا يعدم قاصداً من الناس ، والله تعالى أعلم .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَأَمْثًا ﴾ : استدل به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والشارق اذا لجأ اليه ، وعصّدوا ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ . قال : آمنوا من دخل البيت . والصحيح إقامة الحدود في الحرم ، بأن ذلك من المنسوخ ؛ لأن الاتحاق حاصل أنه لا يقتل في البيت ، ويقتل خارج البيت ؛

وإنما الخلاف هل يقتل في الحرم، أم لا؟ والحرم لا يقع عليه اسم البيت حقيقة . وقد أجمعوا أنه لو قتل في الحرم قتل به، ولو أتى حثا أقيد منه فيه، ولو حارب فيه حارب وقيل مكانه . وقال أبو حنيفة : من لجأ إلى الحرم لا يقتل فيه ولا يتابع ، ولا يزال يضيق عليه حتى يموت أو يخرج ؛ فحنن تقتله بالسيف ، وهو يقتله بالجوع والصد ، فأى قتل أشد من هذا ، وفي قوله : ﴿ وَأَمَّا ﴾ تأكيد للأمر باستقبال الكعبة ، أى ليس في بيت المقدس هذه الفضيلة ، ولا يحج إليه الناس ، ومن استعاض بالحرم أمن من أن ينار عليه . وضائق بيان هذا في المسألة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأول — قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا ﴾ . قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عن اتخذه من مبنى إبراهيم ، وهو معطوف على جعلنا ، أى جعلنا البيت مثابة واتخذوه مصلى . وقيل : هو معطوف على تقدير إذ ، كأنه قال : وإذا جعلنا البيت مثابة وإذا اتخذوا ، فعل الأول الكلام جملة واحدة ، وعلى الثاني جعلنا . وقرأ جمهور القراء ﴿ وَاتَّخِذُوا ﴾ بكسر الخاء على جهة الأمر ، قطعوه من الأول وجعلوه معطوفا جملة على جملة . قال المهدوي : ويحوز أن يكون معطوفا على ﴿ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ كأنه قال ذلك لليهود ، أو على مبنى إذ جعلنا البيت ؛ لأن معاناهمذكروا إذ جعلنا ، أو على معنى قوله : ﴿ مَثَابَةً ﴾ لأن معناه ثوبا .

الثانية — روى ابن عمر قال قال عمر : وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أسارى بدر . أخرجه مسلم وغيره . ونزجه البخاري عن أنس ، قال قال عمر : وافقت الله في ثلاث . أو وافقي ربي في ثلاث . الحديث . وأخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده فقال : حدثنا حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد عن أنس بن مالك قال قال عمر : وافقت ربي في أربع ؛ قلت : يا رسول الله ، لو صليت خلف المقام ، قرئت هذه الآية : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . وقلت : يا رسول الله ، لو ضربت على نساءك الحجاب ، فإنه يدخل عليهن البر والفاجر ، فأنزل الله : ﴿ وَإِنَّا سَالِّمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْتَغْنِيْنَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ .

ونزلت هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ . فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ، فزلت : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . ودخلت على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : لئنهن أوليكن الله بأزواج خير منكن ، فزلت الآية : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ﴾ .

قلت : ليس في هذه الرواية ذكر للأسارى فتكون موافقة عمر في خمس .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ مَقَامٍ ﴾ . المقام في اللغة : موضع القدمين . قال النحاس :

مقام ، من قام يقوم مصدرا واسما للوضع ، ومقام من أقام ، فاما قول زهير :

وفيه مقامات حسان وجوههم<sup>(١)</sup> وأندية يتأهبها القول والفعل

فمعناه فيهم أهل مقامات . واختلف في تعيين المقام على أقوال ، أحسبها : أنه الحجر الذي

تعرفه الناس اليوم الذي يصلون عنده ركعتي طواف القدوم . وهذا قول جابر بن عبد الله وابن

عباس وقادة وغيرهم . وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبي صلى الله عليه وسلم

لما رأى البيت استلم الركن فمرل ثلاثا ، ومشي أربعاً ، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم قرا : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . فصل ركعتين قرا فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . و﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا

الكَافِرُونَ ﴾ . وهذا يدل على أن ركعتي الطواف وغيرهما من الصلوات [لأهل مكة أفضل و]

يدل من وجه على أن الطواف للغرباء أفضل . على ما يأتي . وفي البخاري : أنه الحجر الذي

ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يتاولها إياه في بناء البيت ،

وغرقت فسماء فيه . قال أنس : رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه ، غير أنه

أنهبه مسح الناس بأيديهم . حكاة القشيري . وقال السدي : المقام : الحجر الذي وضته

زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه . وعن ابن عباس أيضا

ومجاهد وعطاء أن المقام : الحج كله . وعن عطاء : عرفة ومزدلفة والحجاء . وقاله الشعبي .

النخعي : الحرم كله مقام إبراهيم . وقاله مجاهد .

(١) في نسخ الأصل : « وجوهها » - والتسوية من اللسان .

(٢) زيادة في نسخة السليق وقد أخذت في زيادتها على ما ورد في المائة الثالثة من نسخة ١٠٩ من هذا الجزء .

قلت : والصحيح في المقام القول الأول ، حسب ما ثبت في الصحيح . ونخرج أبو نعيم من حديث محمد بن سُوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل بين الركن والمقام ، أو الباب والمقام وهو يدعو ويقول : اللهم اغفر لفلان ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما هذا » فقال : رجل استودعني أن أدعوه في هذا المقام ؛ فقال : « أرجع فقد غفر لصاحبك » قال أبو نعيم : حدثنا أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم القاضي قال حدثنا محمد بن عاصم بن يحيى الكاتب قال حدثنا عبد الرحمن بن القاسم القطان الكوفي قال حدثنا الحارث بن عمران الجعفي عن محمد بن سُوقة فذكره . قال أبو نعيم : كذا رواه عبد الرحمن عن الحارث عن محمد بن جابر وإنما يعرف من حديث الحارث عن محمد عن عكرمة عن ابن عباس . ومعنى مصلى ، مدعى يدعى فيه . قاله مجاهد . وقيل : موضع صلاة يصل عنده . قاله قتادة . وقيل : قبله يقف الإمام عندها . قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالنَّكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى ﴿ وَعَهْدَنَا ﴾ . قيل : معناه أمرنا . وقيل : أوجبنا . ﴿ أَنَّ طَهَّرَا ﴾ . أن ، في موضع نصب على تقدير حذف الخافض . وقال سيبويه : أن بمعنى أى مفسرة فلا موضع لها من الإعراب . وقال الكوفيون : تكون بمعنى القول . وطهرا ، قيل معناه : من الأوثان . عن مجاهد والزهرى . وقال عبيد بن عمير ، وسعيد بن جبير : من الآفات والرب . وقيل : من الكفار . قال السدى : إتياء وأساء على طهارة ونية طهارة ؛ فيجئ مثل قوله : ﴿ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ . وقال يمان : بخره وخطاه . ﴿ بَيْتِي ﴾ . أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ، وهى إتياءة مخلوق إلى خالق ، وعملوك إلى مالك . وقرأ الحسن وأبو إسحاق وأهل المدينة وهشام وحمص : ﴿ بَيْتِي ﴾ بفتح الباء . والآخرون بإسكانها .

الثانية - قوله تعالى : (لَطَّافِينَ) . ظاهره الذين يطوفون به ؛ وهو قول عطاء .  
وقال سعيد بن جبير : معناه للفرباء الطائرين على مكة ؛ وفيه بعد . (وَأَلْسَانِي) المقيمين  
من بلدي وغريب . عن عطاء . وكذلك قوله : (لَطَّافِينَ) . والمكوف في اللغة : الزوم  
والإقبال على الشيء كما قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

عَكَفَ النَّيْطُ يَلْبِغُونَ الْقَتْرَاجَ<sup>(٢)</sup> .

وقال مجاهد : الماكفون ، المجاورون . أين عباس : المصلون . وثيل : الجالسون بنير  
طواف ، والمعنى متقارب . (وَأَرْكُوعِ السُّجُودِ) . أى المصلون عند الكعبة . وخس الركوع  
والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصل إلى الله تعالى . وقد تقدم معنى الركوع  
والسجود لغة والمجد لله .

الثالثة - لما قال تعالى : (أَنْ أَظْهَرَ بَيْنِي) . دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى ؛ فيكون  
حكمها حكمه في التطهير والنظافة . وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها ، أولكونها  
أعظم حرمة . والأول أظهر ، والله أعلم . وفي التزيل : (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) . وهناك  
يأتى حكم المساجد إن شاء الله تعالى .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجل في المسجد فقال :  
ما هذا ! أتدرى أين أنت ؟ وقال حذيفة قال النبي صلى الله عليه وسلم : وإن الله أوحى إلى  
يا أبا المنذرين يا أبا المرسلين أنذر قومك ألا يدخلوا بيتا من بيوتى إلا بقلوب سليمة وألسنة  
صانقة وأيد قتيمة وفروج ظاهرة وألا يدخلوا بيتا من بيوتى ما دام لأحد عندهم مظلمة فإني  
ألمته مادام قائما بين يدي حتى يرد تلك الظلمة إلى أهلها فأكون سمع الله الذى يسمع به وبصره  
الذى يصر به ويكون من أوليائى وأصقيائى ويكون جارى مع للتين والصدقين والشهداء  
والصالحين .

(١) هو العجاج ، يصف قروا . ويصير البيت :

• نون يكثر به إذا نجما •

(٢) القترية والقترج : رضى السم إذا أخذ بعضهم يديهم وهم يرضون . - السان .



الرابعة - استدلل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والغفل داخل البيت . قال الشافعي رحمه الله : إن صلى في نجسها مستقبلاً حافظاً من حيطانها فصلاته جائزة ، وإن صلى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة ، وكذلك من صلى على ظهرها ؛ لأنه لم يستقبل منها شيئاً . وقال مالك : لا يصل فيه الفرض ولا السنن ، ويصل فيه الطلوع ؛ غير أنه إن صلى فيه الفرض أعاد في الوقت . وقال أصبغ : يبيد أبدياً .

قلت : وهو الصحيح ؛ لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه ؛ فلما خرج ركع قَبْلَ الكعبة ركعتين وقال : « هذه القبلة » وهذا نص .

فإن قيل : فقد روى البخاري عن ابن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة الحبشي البيت فأغلقوا عليهم الباب ، فلما فُتِحوا كنت أول من ولج فقلت بلالاً فسأله : هل صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، بين العمودين البائنين . وأخرجه مسلم . وفيه قال : جعل عمودين عن يساره وعموداً عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه ؛ وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلى معنى دعا ، كما قال أسامة ، ويحتمل أن يكون صلى الصلاة العرفية ، وإذا احتمل هذا وهذا سقط الاحتجاج به .

فإن قيل : يستدرك روى ابن المنذر وغيره عن أسامة قال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم صوراً في الكعبة فكشفت آتيه ماء في الغلو يصرب به تلك الصور . وخرجه أبو داود الطيالسي قال : حدثنا ابن أبي ذئب عن عبد الرحمن بن مهران قال حدثنا عمير مولى ابن عباس عن أسامة بن زيد قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكعبة ورأى صوراً قال : قدما بدلوا من ماء فاتيته به فجعل يحوها ويقول : « قاتل الله قوما يصوّرون ما لا يخفون » . فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم صلى في حالة مضى أسامة في طلب الماء فتشاهد

بلال مالم يشاهده أسامة، فكان من أثبت أولى من قى، وقد قال أسامة نفسه : فآخذ الناس بقول بلال وتركوا قولى . وقد روى مجاهد عن عبد الله بن صفوان قال قالت لعمر بن الخطاب : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل الكعبة ؟ قال : صلى ركعتين .

قلنا : هذا محمول على النافلة ؛ ولا نعلم خلافا بين العلماء فى صحة النافلة فى الكعبة ، وأما الفرض فلا ؛ لأن الله تعالى عين الإجهة بقوله تعالى : ﴿ قُولُوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ على ما يأتى بيانه . وقوله صلى الله عليه وسلم لما نرج : « هذه القبلة » فبينما كما عينها الله تعالى ، ولو كان الفرض يصح داخلها لما قال : « هذه القبلة » وهذا يصح الجمع بين الأحاديث ، وهو أولى من إسقاط بعضها ، فلا تناقض . والحمد لله .

الخامسة — واختلفوا أيضا فى الصلاة على ظهرها ؛ فقال الشافعى ما ذكرنا . وقال مالك : من صلى على ظهر الكعبة أعاد فى الوقت . وقد روى عن بنى أصحاب مالك : يعيد أبدا . وقال أبو حنيفة : من صلى على ظهر الكعبة فلا شيء عليه .

السادسة — واختلفوا أيضا أيا أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به ؟ فقال مالك : الطواف لأهل الأعمار أفضل ، والصلاة لأهل مكة أفضل . وذكر عن ابن عباس وعطاء ومجاهد . والجمهور أن الصلاة أفضل . وفى الخبر : « لولا رجال خشع وشيوخ رقع وأطفال رضع وبهائم رقع لصيننا عليكم العذاب صبا » . ذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب — فى كتاب السابق واللاحق — عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا فيكم رجال خشع وبهائم رقع وصبيان رضع لصب العذاب على المذنبين صبا » . لم يذكر فيه « وشيوخ رقع » وفى حديث أبى ذر « الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل » . ترجمه الاجرى . والأخبار فى فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ بَلِّغْ آمَنًا ﴾ . يعني مكة ، فدعا لبثزيتة وغيرهم بالأمن ورفض العيش ، فروى أنه لما دعا بهذا المعناه أمر الله تعالى جبريل فاقطع الطائف من الشام طواف بها حول البيت أسبوعا - فسميت الطائف لذلك - ثم أزيلت تهامة ، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء ولا نبات ، فبارك الله فيها حولها كالطائف وغيرها ، وأثبت فيها أنواع الثمار على ما يأتي بيانه في سورة إبراهيم إن شاء الله تعالى .

الثانية - اخطف العلماء في مكة ، هل صارت حراما بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك على قولين :

(أحدهما) أنها لم تزل حراما من الجباية المسلطين ، ومن الخسوف والزلزل ، وسائر المثلثات التي تحمل بالبلاء ، وجعل في النفوس المتمردة من تعظيمها والحماية لها ما صار به أهلها متميزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى ، ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيد ما شوهه من أمر الصيد فيها : فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا ينجح الكلب الصيد ولا ينفر منه حتى إذا خرجا من الحرم عدا الكلب عليه وعاد إلى الغور والمرب .

وإنما سأل إبراهيم ربه أن يجعلها آمنا من القحط والجذب والقارات ، وأن يرزق أهله من الثمرات ، لا على ما ظنه بعض الناس : أنه المنع من سفك الدم في حق من لزمه القتل ، فإن ذلك بعيد كونه مقصودا لإبراهيم صلى الله عليه وسلم حتى يقال : طلب من الله أن يكون في شرعه تحريم قتل من التجأ إلى الحرم ، هذا بعيد جدا .

(الثاني) أن مكة كانت حلالا قبل دعوات إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد ، وأن بدوته صارت حراما آمنا كما صارت المدينة بتحريم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنا بعد أن كانت حلالا .

استحج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بخمرة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو

حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يفسد بشوكه ولا ينقر صيده ولا يتطخ لقطة إلا من عرفها ولا يتحل حلاله <sup>(١)</sup> فقال العباس : إلا الإذخر فإنه لقيتهم وليوتهم <sup>(٢)</sup> قال : « إلا الإذخر » . ونحوه حديث أبي شريح أخرجهما مسلم وغيره .

وفي صحيح مسلم أيضا عن عبد الله بن زيد ابن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإلى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإني دعوت في صاعها ومثعا مثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة » . قال ابن عطية : ولا تعارض بين الحديثين ؛ لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه ، وكون الحرمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بزمان . والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها وإظهاره ذلك بعد الدثور ، وكان القول الأول من النبي صلى الله عليه وسلم ثاني يوم الفتح إخبارا بتعظيم حرمة مكة على المؤمنين ، بإسناد التحريم إلى الله تعالى ، وذكر إبراهيم عند تحريم المدينة هو أيضا مثالا لنفسه ، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضا من قبل الله تعالى ومن نافذ قضائه وسابق علمه . وقال الطبري : كانت مكة حراما ولم يتعبد الله الخلق بفلك حتى سأل إبراهيم ، فحرمها .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ ) . تهتم معنى الرزق . والتمرات جمع ثمرة وقد تهتم . من آمن ، بدل من أهل ، بدل البعض من الكل . والإيمان : التصديق . وقد تهتم . ( قَالَ وَمَنْ كَفَرَ ) . من ، في قوله : ( وَمَنْ كَفَرَ ) في موضع نصب . والتقدير وازرق من كفر ، ويجوز أن يكون في موضع رفع بالابتداء ، وهي شرط والتعريف ( فَالْمُتَّقِينَ ) وهو الجواب .

واختلف هل هذا القول من الله أو من إبراهيم ؟ فقال أبي بن كعب وابن إسحاق وغيرهم : هو من الله تعالى ، وقرعوا فأنتم بهم الممزة وقع الميم وتشدید التاء ، ( ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ) يقطع الأكتف وضم الواو ، وكذلك القراء السبعة خلا ابن عامر فإنه سكن الميم وخفف التاء . وحكى أبو إسحاق والزمج أن في قراءة أبي : فنتمته قليلا ثم تضطره ، بالتوهم . وقال ابن <sup>(١)</sup> (١) مثل : اثبات الربط الرقيق ما دام وطيا . واعتلاق : قلعه . (٢) في لسان العرب لجوعتا وقبوعتا .

عباس وبجاهد وقادة : هذا القول من إبراهيم عليه السلام ، وقرعوا ( فأمته ) ففتح الممزة وسكون الميم ، ( ثم أضطره ) بوصل الألف وفتح الراء . فكان إبراهيم عليه السلام دعا للمؤمنين وعلى الكافرين ، وعليه فيكون الضمير في " قال " لإبراهيم ، وأعيد " قال " لطول الكلام . أو لخروجه من الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين . والفاصل في قال على قراءة الجماعة اسم الله تعالى واختاره النحاس ، وجعل القراءة بفتح الممزة وسكون الميم ووصل الألف شاذة ، قال : ونسق الكلام والتفسير جميعا يدلان على غيرها . أما نسق الكلام فإن الله تعالى أخبر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : ( رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ) . ثم جاء بقوله عز وجل : ( وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ) . ولم يفصل بينه وقال ، ثم قال بعد : ( قَالَ وَمَنْ كَفَرَ ) . فكان هذا جوابا من الله ، ولم يقل بعد : قال إبراهيم . وأما التفسير فقد صح عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب ، وهذا لفظ ابن عباس : دعا إبراهيم عليه السلام لمن آمن دون الناس خاصة ، فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر كما يرزق من آمن ، وأنه يمتعه قليلا ثم يضطره إلى عذاب النار . قال أبو جعفر : وقال الله عز وجل : ( كَلَّا يُدْهِمُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ) . وقال جل شأؤه : ( وَأَمَّ سَنَتُهُمْ ) . قال أبو إسحاق : إنما علم إبراهيم عليه السلام أن في ذريته كفارا نقص المؤمنين لأن الله تعالى قال : ( لَا يَتْلُو عَهْدِي الظَّالِمِينَ ) .

قوله تعالى : ( وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ) . القواعد : أساسه ، في قول أبي عبيدة والقراء . وقال الكسائي : هي الجدران . والمعروف أنها الأساس . وفي الحديث : " إن البيت لما هدم أخرجت منه حجارة عظام " . فقال ابن الزبير : هذه القواعد التي رفعها إبراهيم . وقيل : إن القواعد كانت قد اندرست فأطلع الله إبراهيم عليها . ابن عباس : وضع البيت على أركان راما قبل أن يخلق البيت بالقي عام ثم دُخِيت الأرض من تحته . والقواعد وأحدها قاعدة . والقواعد من النساء واحدها قاعد .

واختلف الناس فيمن بنى البيت أولاً وأسه : فقيل : الملائكة . روى عن جعفر بن محمد قال : سئل أبي وأنا حاضر عن بدء خلق البيت ، فقال : إن الله عز وجل لما قال : **(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيقَةً)** . قالت الملائكة : **(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُقِيدُ فِيهَا وَبِفِكَ الْأَمْثَاءُ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)** . فغضب عليهم فنادوا بعرشه وطاقوا حوله سبعة أطواف يسترضون ربهم حتى رضى الله عنهم وقال لهم : ابنوا لى بيتا فى الأرض يستودع به من سخطت عليه من بنى آدم ، ويطوف حوله كما طقم حول عرشى فأرضى عنه كما رضيت عنكم ، فبنوا هذا البيت .

وذكر عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وابن المسيب وغيرهما : أن الله عز وجل أوحى إلى آدم : إذا هبطت آبن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف برشى الذى فى السماء . قال عطاء : فزعم الناس أنه بناء من خمسة أجيال : من حراء ، ومن طور سيناء ، ومن لبنان ، ومن الجودي ، ومن طور ريتاء ، وكان ريفسه من حراء . قال الخليل : والارض هنا الأساس المستدير باليت من الصخر ؛ ومنه يقال لما حول المدينة : ريفى . وذكر الماوردى عن عطاء عن آبن عباس قال : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له : يا آدم ، انحب فأبن لى بيتا وطف به ، واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ؛ فأقبل آدم يتخطا وطويت له الأرض ، وقبضت له المفازة ؛ فلا يقع قدمه على شىء من الأرض إلا صار عمراتا حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام ، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجانبه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السابعة السفلى ، وفتفت إليه الملائكة بالصخر ، فاطبق الصخرة منها ثلاثون رجلا ، وأنه بناء من خمسة أجيال كما ذكرنا . وقد روى فى بعض الأخبار : أنه أهبط لآدم عليه السلام خيمة من خيام الجنة ، ففريت فى موضع الكعبة ليسكن إليها ويطوف حولها ، فلم تزل باقية حتى قبض الله آدم ثم رفعت . وهذا من طريق وهب آبن منبه . وفى رواية : أنه أهبط معه بيت فكان يطوف به المؤمنون من ولده ، وكذلك إلى زمان الفرق ثم رفعه الله فصار فى السماء ، وهو الذى يدعى البيت المعمور . روى هذا عن قتادة ذكره الخليل فى كتاب «منهاج الدين» له ،

وقال: يجوز أن يكون معنى ما قال قتادة من أنه أبطع مع آدم بيت أى أبطع معه مقدار البيت المعمور طولاً وعرضاً وسكناً، ثم قيل له: ابن بقدره، ويجوز أن يكون بحاله، فكان حياله موضع الكعبة، فبناها فيه. وأما الخيمة فقد يجوز أن تكون أنزلت وضربت في موضع الكعبة فلما أمر ببنائها فيها كانت حول الكعبة طمانينة لقلب آدم صلى الله عليه وسلم ما عاش ثم رقت، فتشقق هذه الأخبار؛ فهذا بناء آدم عليه السلام، ثم بناء إبراهيم صلى الله عليه وسلم. وقال ابن جريج: وقال ناس: أرسل الله صحابة فيها رأس؛ فقال الرأس: يا إبراهيم، إن ربك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة، فجعل ينظر إليها ويحيط قدرها؛ ثم قال الرأس: إنه قد ضلت؛ فخرق فأبرز عن أساس ثابت في الأرض. وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه: أن الله تعالى لما أمر إبراهيم بملأء البيت خرج من الشام وسعه أبنته إسماعيل وأمه هاجر، وبثت معه السكينة<sup>(١)</sup> لها لسان تتكلم به، يندومعها إبراهيم إذا ضلت، وروح معها إذا راحت حتى انتهت به إلى مكة؛ فقالت لإبراهيم: ابن على موضعى الأساس؛ فرفع البيت هو وإسماعيل حتى أتته إلى موضع الركن؛ فقال لابنته: يا بختى، أبغى حجراً أجعله علماً للناس؛ فجاءه بحجر فلم يرضه؛ وقال: أبغى غيره؛ فذهب يلتمس فجاءه وقد أتى بالركن فوضعه موضعه؛ فقال: يا أبة، من جعلك بهذا الحجر؟ فقال: من لم يكلنى إليك، ابن عباس: صاح أبو قيس<sup>(٢)</sup>: يا إبراهيم، يا خليل الرحمن، إنك لك عندى وديعة نفذها؛ فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنة كان آدم قد نزل به من الجنة؛ فلما رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت جاءت صحابة مربعة فيها رأس فتادت: أن أرضاً على تربيى. فهذا بناء إبراهيم عليه السلام. وروى أن إبراهيم وإسماعيل لما قروا من بناء البيت أعطاهما الله الخليل جزاء من رفع قواعد البيت. روى الترمذى الحكيم حدثنا عمرو بن أبى عمر حدثني نعيم بن حماد حدثنا عبد الوهاب بن همام أخو عبد الرزاق عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال: كانت أنبل وحشاً كاسائر الوحوش، فلما أذن الله لإبراهيم وإسماعيل برفع

(١) السكينة: دمع يخرج، أى سرية المرء. نهاية ابن الأثير.

(٢) أبو قيس: اسم رجل الخزرجى من مكة.

القواعد قال انفسنا برك اسمع : "إني سطيعا كثيرا ادخرته لك" ثم أوصى إلى إسماعيل أن اخرج إلى أجياد فادع بآتيك الكثير، فخرج إلى أجياد - وكانت وطنا - ولا يدري ما الدماء ولا الكثير، فاعلمه؛ فلم يبق فرس بأرض العرب إلا جاءته فأمكنته من نواصيا، وذالها له؛ فأركبها وأعطاها فأنها ميامين، وهي ميراث أبيكم إسماعيل؛ فأنما سمي الفرس عربيا لأن إسماعيل أمر بالدماء وإياه أتى. وروى عبد المنعم بن إدريس عن وهب بن منبه قال : أول من بنى البيت بالطين والحجارة شيث عليه السلام، وأما بنيان قريش له فمشهور، وخبر الحية في ذلك مذكور، وكانت تمنعهم من هدمه إلى أن اجتمعت قريش عند المقام فسجوا إلى الله تعالى وقالوا : ربنا، لم ترع! أردنا تشريف بيتك وتزيينه، فإن كنت ترضى بذلك وإلا فلا بدالك فاضل، فسمعوا خواتم من السماء - وانلوات : حفيف جناح الطير الضخم - فإذا هو بطائر أعظم من النسور، أسود الظهر أبيض البطن والرجلين؛ فنزل على حاليه في قفا الحية؛ ثم انطلق بها تجر ذنبا أعظم من كذا وكذا حتى انطلق بها نحو أجياد. فهذه قريش وجعلوا ينهبونها بحجارة الوادي تحملها قريش على رقابها، فرفضوها في السماء عشرين ذراعا، فيها انتهى صلى الله عليه وسلم يحمل حجارة من أجياد وعليه بكرة فضاعت عليه الفكرة فذهب يرفع الفكرة على عاتقه، فمرى عورته من صغر الفكرة؛ فنودى : يا محمد، نمر عورتك؛ فلم ير عريانا بعد. وكان بين بنيان الكعبة وبين ما أنزل عليه خمس سنين، وبين خروجه وبينائها خمس عشرة سنة. ذكره عبد الرزاق عن معمر عن عبد الله بن عثمان عن أبي الطفيل. وذكر عن معمر عن الزهري : حتى إذا بنوها وبنوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن، أي التباثل على رفضه؟ حتى شجر بينهم؛ فقالوا : تمالوا نحم أول من يطلع علينا من هذه السكة، فاصطلحوا على ذلك؛ فأطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام عليه وشاح نمر، فحكوه فأمر بالركن فوضع في قوب، ثم أمر سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب، ثم ارتقى هو فرفقوا إليه الركن؛ فكان هو يضمه صلى الله عليه وسلم.



قال ابن إسحاق : وحلت أن قريشا وجدوا في الزكن كتابا بالسريانية فلم يدر ما هو ، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فلذا فيه : « أنا الله فوبكتك خلقها يوم خلقت السموات والأرض وصورت الشمس والقمر ، وحفظتها بسبعة أملاك حفناء ، لا تزول حتى يزول أخشابها . مبارك لأهلها في الماء واللبن » . وعن أبي جعفر محمد بن علي قال : كان باب الكعبة على عهد العالليق وبرهم وإبراهيم عليه السلام بالأرض حتى بنى قريش . فخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجدر أمن البيت هو ؟ قال : « نعم » قلت : فلم لم يدخلوه [ في البيت ] ؟ قال : « لأن قومك قصرت بهم الثقة » . قلت : فما شأن بابهم هذا ؟ قال : « فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاموا ويمنعوا من شاموا ولولا أن قومك حديث عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر في البيت وأن الزق باب الأرض » . وخرج عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : حدثني خالي ( يعني عائشة ) رضي الله عنها قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بشرك لهدمت الكعبة فأزقتها بالأرض وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة » . وعن عروة عن عائشة قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا حداثة [ عهد ] قومك بالكفر لهدمت الكعبة وجعلتها على أساس إبراهيم فإن قريشا حين بنت الكعبة استقصرت وجعلت لها خلقا » . وفي البخاري قال هشام بن عروة : يعني بابا . وفي البخاري أيضا : « جعلت لها خلفين » يعني بابين . فهذا بناء قريش . ثم لما غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير وهت الكعبة من حرقهم ، هدمها ابن الزبير وبنائها على ما أخبرته عائشة وزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى أسفاً نظرت الناس إليه ، فبنى عليه البناء . وكان طول الكعبة ثمانين عشرة ذراعاً .

(١) الأعمش : البيلان الملقبان بمكة ، وما : أبو ريس . والآحر :

(٢) الجدر ( بفتح الجيم واسكان الدال ) : حجر الكعبة ( بكسر اللام ) .

(٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

فلما زاد فيه أنقصه، فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل لها باين أحدها يُدخل منه،  
والآخر يُخرج منه . كما في صحيح مسلم ، والفاظ الحديث تختلف . وذكر سفيان عن  
داود بن شاپور عن مجاهد قال : لما أراد ابن الزبير أن يهدم للكعبة وينه<sup>(١)</sup> قال للناس  
احدوا ؛ قال : فأبوا أن يهدموا وخافوا أن يترل عليهم العذاب . قال مجاهد : فخرجنا إلى بني  
فاقتنا بها ثلاثا ننظر العذاب . قال : وأرتقي ابن الزبير على جدار الكعبة هو بنفسه ؛ فلما رأوا  
أنه لم يصبه شيء اجتمعوا على ذلك . قال : فهدموا . فلما بناها جعل لها باين ؛ بابا يدخلون  
منه ، وبابا يخرجون منه ، وزاد فيه مما على الحجر ستة أذرع ، وزاد في طولها تسعة أذرع .  
قال مسلم في حديثه : فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره  
بذلك ، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسس نظر إليه المدول من أهل مكة . فكتب  
إليه عبد الملك : إنا لستنا من تطيع ابن الزبير في شيء ؛ أما ما زاد في طوله فأقره ، وأما ما زاد  
فيه من الحجر فرتنه إلى بناءه ، وسد الباب الذي فضه ؛ ففقدناه وأعادناه إلى بناءه . في رواية  
قال عبد الملك : ما كنت أظن أبا حبيب ( يعني ابن الزبير ) سمع من عائشة ما كان  
يزعم أنه سمعه منها . قال الحارث بن عبد الله : بلى ، أنا سمعته منها . قال : سمعتها تقول ماذا ؟  
قال : قالت قل رسول الله صلى الله عليه وسلم : <sup>(٢)</sup> « إن قومك استقصروا من بيلان البيت  
ولولا حداثة عهدكم بالشرك أعدت ما تركوا منه فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهاهي  
لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع » . في أخرى : قال عبد الملك : لو كنت سمعته  
قبل أن أهدمه لتركته على ما بناه ابن الزبير . فهذا ما جاء في بناء الكعبة من الآثار .

وروي أن الرشيد ذكر لملك بن أنس أنه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة ، وأن  
يرده على بناء ابن الزبير لما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأمثله ابن الزبير ؛ فقال له  
« لك : فاشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تجعل هذا البيت ملعبا للوك ، لا يشاء أحد منهم

(١) كما في نسخ الأصل . ولعل تدكير التفسير على معنى البيت .

(٢) قوله : إنا لستنا ... الخ ؛ يعني إنا نريد بما أوتيه بما اعتداه من هدم الكعبة . ( عن شرح الترمذي ) .

(٣) كما في صحيح مسلم . وفي نسخ الأصل : « فله » .

لأحصى البيت وبناءه فتذهب هيئة من صدور الناس . وذكر الواقدي حدثنا معمر عن  
 همام بن منبه سمع أبا هريرة يقول : نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سب أسعد الحميري ،  
 وهو تبع ، وهو أول من كسا البيت ، وهو تبع الآخر . قال ابن إسحاق : كانت تكسى القباطي  
 ثم كسيت البرد ، وأقل من كساها القمياج الجلاج .

قال العلماء : ولا ينبغي أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء ، فإنه مهذى إليها ، ولا ينقص  
 منها شيء . روى عن سعيد بن جبير أنه كان يكره أن يؤخذ من طيب الكعبة يستشفى به .  
 وكان إذا رأى الخادم تأخذ منه قفصا قفصة لا يالو أن يوجسها . وقال عطاء . كان أحدنا  
 إذا أراد أن يستشفى به جلد بطيب من عنده فشح به المجرثم أخذه .

قوله تعالى : ( رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ) . المعنى : ويقولان ربنا ؛ غنظ . وكذلك هي في قراءة  
 ابن عبد الله بن مسعود : ( وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ وَيَقُولَانِ رَبَّنَا  
 تَقَبَّلْ مِنَّا ) .

وتفسير إسماعيل : إسمع يا الله ؛ لأن إيل بالسريانية هو الله ؛ وقد تقدم . فقيل : إن إبراهيم  
 لما دعا ربه قال : إسمع يا إيل ؛ فلما أجابه ربه ورزقه الولد سماه بما دعاه . ذكره الملوودي .  
 قوله تعالى : ( إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ) اسمان من أسماء الله تعالى قد أثبتا عليهما  
 في الكتاب " الأنسي في شرح أسماء الله الحسنى " .

قوله تعالى : ( رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ) أى صيرنا . ومسلمين مفعول ثان . سالا  
 التثنية والدوام . والإسلام في هذا الموضع الإيمان والأعمال جميعا ؛ ومنه قوله تعالى :  
 ( إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَامُ ) . ففى هذا دليل لمن قال : إن الإيمان والإسلام شيء واحد ؛  
 وعضدوا هذا بقوله تعالى في الآية الأخرى : ( فَاتَّبِعْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالُوا بَلَى  
 فِيهَا غَيْرُ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ) . وقرأ ابن عباس وعوف الأعرابي ( مُسْلِمِينَ ) على الجمع .

قوله تعالى : ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ ) أى ومن ذرئنا فاجعل . يقال : إنه لم يدع نبى إلا لنفسه ولأخته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأخته لهذه الأمة . ومن ، فى قوله : ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا ) التبيين ؛ لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين . وحكى الطبرى أنه أراد بقوله ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا ) العرب خاصة . قال السبيل : وذريتهما العرب ؛ لأنهم بنو نبت بن إسماعيل ، أو بنو تين بن إسماعيل ، ويقال : قيدر بن نبت بن إسماعيل . أو تين ، على أحد القولين . قال ابن عطية : وهذا ضعيف . لأن دعوه ظهرت فى العرب وفيمن آمن من غيرهم . والأمة : الجماعة هنا . وتكون واحدا إذا كان يقتضى به فى الخبر ؛ ومنه قوله تعالى : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ) . وقال صلى الله عليه وسلم فى زيد بن عمرو بن نفيل : « يعث أمة وحده » لأنه لم يشرك فى دينه غيره ، والله أعلم . وقد يطلق لفظ الأمة على غير هذا المعنى ؛ ومنه قوله تعالى : ( إِنَّا وَهَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ) أى على دين وملة ؛ ومنه قوله تعالى : ( إِنَّ هَـؤُلَاءِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ) . وقد تكون بمعنى الحين والزمان ؛ ومنه قوله تعالى : ( وَأَدَّ كَرْبَدًا أُمَّةً ) أى بعد حين وزمان . ويقال : هذه أمة زيد أى أم زيد . والأمة أيضا : القامة ؛ يقال : فلان حسن الأمة أى حسن القامة ؛ قال :

وإن مصالوة الأكرية . من حسن الوجه طوال الأمم

وقيل : الأمة الشجة التى تبلغ أم السماخ ؛ يقال : رجل مأموم وأيم .

قوله تعالى : ( وَأَبْرَأَنَا مَنَاسِكَ ) . أرتا من رؤية البصر ، فتصدى إلى مفعولين ؛ وقيل : من رؤية القلب . ويلزم قائله أن يتصدى الفعل منه إلى ثلاثة مفعولين . قال ابن عطية :

(١) كما ورد كلام السبيل فى بعض الأصول . ورد فى بعضها الآخر هكذا : « قال السبيل : وذريتهما العرب ، لأنهم بنو نبت بن إسماعيل أو بنو تين بن إسماعيل ، ويقال : قيدر بن نبت بن إسماعيل . أما الثانية فنبت . وأما الثالثة فنقيدر بن نبت بن إسماعيل أو تين ، على أحد القولين الخ » .  
(٢) فى سيرة ابن هشام ( ج ١ ص ٤ طبع لندون ) : « ثابت » وقد ذكر أولاد إسماعيل الاثنى عشر ولم يذكرهم باسم « تين » .

وينفصل بأنه يوجد معنى بالهمزة من رؤية القلب إلى مفعولين ككثير المعنى؛ قال حطاطي  
 ابن يعفر أخو الأسود بن يعفر :

أَرِنِي جَوَادًا مَاتَ هَرُلاً لَاتِي \* أَرَى مَا تَرَى أَوْ يَخِيلَا مُخْلَا

وقرأ عمر بن عبد العزيز وقناة وابن كثير وابن جنيح والسدي وروح عن يعقوب ورويس  
 والسوسي (أَرْنَا) يسكون الراء في القرآن؛ واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو عمرو باختلاس كسرة  
 الراء ، والباثون بكسرهما؛ واختاره أبو عبيد . وأصله أَرْنَا بالهمز . فن قرأ بالكون قال :  
 ذهب الهمزة وذهبت حركتها وبقيت الراء ساكنة على حالها؛ واستدل بقول الشاعر :

أَرْنَا إِدَاوَةَ عَبْدِ اللَّهِ نَمْلُوهَا \* مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ ظَمَوْهَا

ومن كسر فإنه قل حركة الهمزة المحذوفة إلى الراء . وأبو عمرو طلب الخفة . وعن شجاع  
 ابن أبي نصر وكان أميناً صادقا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فذاكره أشياء  
 من حروف أبي عمرو فلم يرد عليه إلا حرفين ، هـ ، والآخر ( مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَخْهَا )  
 مهموزا .

قوله تعالى : ( مَنَاسِكًا ) . يقال : إن أصل المنسك في اللغة النسل؛ يقال منه : نسك  
 ثوبه إذا غسله . وهو في الشرع اسم للعبادة؛ يقال : وجب عليك إذا كان ما بدا .

وآختلف العلماء في المراد بالمناسك هنا ، فقيل : مناسك الحج ومعامله . قاله قتادة والسدي .  
 وقال مجاهد وعطاء وابن جريح : المناسك المذابح أي مواضع الذبح . وقيل : جميع المنعبدات .  
 وكل ما يتعبد به إلى الله تعالى يقال له مَنَسْكٌ وَمَنَسِكٌ . والمناسك : العايد . قال النحاس :  
 يقال نَسَكٌ يَنَسُكُ ، فكان يجب على هذا أن يقال : مَنَسْكُ ، إلا أنه ليس في كلام العرب مَفْعَلٌ .

(١) قال أبو حيان : « ... يعني أنه قد استعمل في اللسان العربي متعديا إلى اثنين ووجه هزلة الغزل كما استعمل  
 متعديا إلى اثنين غير الهزلة » .

(٢) ويرى «لعل» ، ولأن معنى لعل -

(٣) ورد هذا الاسم عزرا في نسخ الأصل . والنصوب عن طبقات الفراء وتهذيب التهذيب -

وعن زهير بن محمد قال : لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام قال : أي رب ، قد فرغت فأرانا ما سكا ، فبعث الله تعالى إليه جبريل فحج به ، حتى إذا رجع من عرفة وجاء يوم الترحم عرض له إبليس ، فقال له : أحسبه ، خصبه بسبع حصيات ، ثم التذثم اليوم الثالث ، ثم علا نيرا فقال : يا عبد الله ، أحيوا ، فسمع دعوه من بين الأجر من في قلبه متقال ذرة من إلهن ، فقال : ليك . اللهم ليك ؟ قال : ولم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون نصاعدا ، لو لا ذلك لأهلك الأرض ومن عليها . وأول من أجاب أهل اليمن . وعن أبي يعقوب قال : لما فرغ إبراهيم من البيت جاءه جبريل عليه السلام فأراه الطواف بالبيت - قال : وأحسبه قال : والصفاء والمروة - ثم انطلقا إلى المقبة فعرض لها الشيطان ، فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات ، فرمى وكبر ، وقال لإبراهيم : إرم وكبر ، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان . ثم انطلقا إلى الجرة الوسطى ، فعرض لها الشيطان ، فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات ، وقال : ارم وكبر ، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان . ثم أتيا الجرة القصوى فعرض لها الشيطان ، فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات وقال : ارم وكبر ، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان . ثم أتى به جمعا فقال : ها هنا جميع الناس الصلوات . ثم أتى به عرفات فقال : عرفت ؟ فقال نعم ، فن تم سمي عرفات . وروى أنه قال له : عرفت ، عرفت ، عرفت ؟ أي مني والجمع وهذا ، فقال نعم ، فسمى ذلك المكلف عرفات . وعن خُصيف بن عبد الرحمن أن مجاهدا حدثه قال : لما قال إبراهيم عليه السلام : ( وَأَرَأَيْتُمْ مَا كُنَّا ) . أرى الصفاء والمروة ، وهما من شعائر الله بنص القرآن ، ثم نرجع به جبريل ، فلما مر بمقبة إذا إبليس عليها ، فقال له جبريل : كبر وأرمه ، فارتفع إبليس إلى الوسطى ، فقال جبريل : كبر وأرمه ، ثم في الجرة القصوى كذلك . ثم انطلق به إلى المَشْرِع الحرام ،

(١) نير أعظم جبل مكة ينهار مرة .

(٢) جمع (بضع فسكون) : المزدقة .

ثم أتى به عرفة فقال له : عرفت ما أريدك ؟ قال نعم ، فسميت عرفات لذلك ؛ قال :  
فأذن في الناس بالحج ، قال : كيف أقول ؟ قال قل : يا أيها الناس ، أجيئوا ربكم ثلاث مرار ،  
فعل ؛ فقالوا : ليك . اللهم ليك . قال : فمن أجاب يومئذ فهو حجاج . وفي رواية أخرى أنه  
حين نادى استدار فدعا في كل وجه ، فلبى الناس من كل مشرق ومغرب ، وتطأطأت الجبال  
حتى يمد صوته . وقال محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه من بناء  
البيت الحرام ، جاءه جبريل عليه السلام فقال له : طف به سبعا ؛ فطاف به سبعا هو  
وإسماعيل عليهما السلام ، يستلمان الأركان كلها في كل طواف ؛ فلما أكلا سبعا صبيا خلف  
المقام ركعتين . قال : فقام جبريل فأراه المناسك كلها : الصفا والمروة ومنى والمزدلفة ، قال :  
فلما دخل منى وهبط من العقبة تحلل له إبليس ؛ فذكر نحوه ما تقدم . قال ابن إسحاق :  
ولبني أن آدم عليه السلام كان يستلم الأركان كلها قبل إبراهيم عليه السلام . وقال : حج  
إسحاق وسارة من الشام ، وكان إبراهيم عليه السلام يحجه كل سنة على البراق ؛ وحجته بعد  
ذلك الأنبياء والأئمة . وروى محمد بن سابط عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كان  
النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق مكة فتعبد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا ؛ فمات بها  
نوح وهود وصالح ، وقبورهم بين زمزم والمجهر " . وذكر ابن وهب أن شيبا مات بمكة هو  
ومن معه من المؤمنين ، فقبورهم في غربي مكة بين دار الندوة وبين بني سهم . وقال ابن  
عباس : في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما ، قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام ؛  
فقبر إسماعيل في المجهر ، وقبر شعيب مقابل المجهر الأسود . وقال عبد الله بن حمزة السلولي :  
ما بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيًا جاءوا متجاءين فقبروا هناك صلوات  
الله عليهم أجمعين .

قوله تعالى : ( وَتَبَّ عَلَيْهِمَا ) . اختلف في معنى قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :  
( وَتَبَّ عَلَيْهِمَا ) وهم أنبياء موصومون ، قتالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام ، لا أنهما كانا  
لما ذنب .

قلت : وهذا حسن ، وأحسن منه أنهما لما عرفا المناسك وبنا البيت ، أرادا أن يتينا للناس ويرفاهم أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان الاتصال من الذنوب وطلب التوبة . وقيل : المعنى : وتب على القامة ما : وقد مضى الكلام في عصمة الأنبياء عليهم السلام في قصة آدم عليه السلام ، وتقدم القول في معنى قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْتَغْ فِئْهُمُ رُسُلًا مِنْهُمْ ﴾ . يعنى عما صلى الله عليه وسلم . وفي قراءة أبي : ﴿ وَابْتَغْ فِي آخِرِهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ ﴾ . وقد روى خالد بن معدان أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ، قال : « نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى » . ورسولا أى مرسل ، وهو فعول من الرسالة . قال ابن الأنباري : يشبه أن يكون أصله من قولهم : ناقة مرسلٌ ورسلٌ إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق . ويقال للجماعة المهمة المرسله رسلٌ ، وجمعه أرسال . ويقال : جاء القوم أرسالا أى بعضهم أربعض ، ومنه يقال للبن رسلٌ ، لأنه يرسل من الضرع .

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ . الكتاب القرآن . والحكمة المعرفة بالدين ، والفقه في التأويل ، والفهم الذى هو منحة ونور من الله تعالى . قاله مالك ، رواه عنه ابن وهب ، وقاله ابن زيد . وقال قتادة : الحكمة السنة وبيان الشرائع . وقيل : الحكمة القضاء خاصة ، والمعنى متقارب . ونسب التعليم الى النبي صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطى الأمور التى ينظر فيها ، ويعلم طريق النظر بما يلقى إليه الله من وجه . ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أى يطهرهم من وضو الشرك ، عن ابن جرير وغيره . والزكاة التطهير ، وقد تقدم . وقيل : إن الآيات تلاوة ظاهر الألفاظ ، والكتاب معانى الألفاظ ، والحكمة الحكم ، وهو مراد الله بالخطاب من مطلق ومقيد ومفسر ومجمل وعموم وخصوص ، وهو معنى ما تقدم . والله تعالى أعلم . ﴿ وَالْعَزِيزُ ﴾ معناه المنيع الذى لا ينال ولا يغال . وقال ابن كيسان : معناه الذى لا يعجزه شيء ، دليله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .



الكسائي : العزيز الغالب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَزَّزْنِي فِي الْجُطَّابِ ﴾ . رفي المثل : « من عزَّزَهْ أَى من غلب سلب . وقيل : العزيز الذى لا مثل له . يسائه ( ليس كَيْلَيْهِ شَيْءٌ ) . وقد زدنا هنا المعنى بيانا فى اسمه العزيز فى كُتُب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » وقد تقدّم معنى الحكيم ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغُبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ الآية . من استفهام فى موضع رفع بالابتداء . ويرغب صلة من . إلا من سفه نفسه فى موضع الخبر . وهو تفرع وتوبيخ وقع فيه معنى النفي ، أى وما يرغب ، قاله النحاس . والمعنى : يزهد فيها وينأى بنفسه عنها ، أى عن الملة ومى الدين والشرع . إلا من سفه نفسه ، قال قتادة : وهم اليهود والنصارى ، رغبوا عن ملة إبراهيم واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله تعالى . قال الزجاج : سفه بمعنى جهل ، أى جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها . وقال أبو عبيدة : المعنى أهلك نفسه . وحكى ثعلب والمبرد أن سَفِهَ بكسر القاء يتعدى كسفه بفتح القاء وشدحا . وحكى عن أبي الخطاب ويونس أنها لغة . وقال الأخفش : سفه هسه أى فعل بها من السفه ما صار به سفيا . وعنه أيضا هى لغة بمعنى سَفِهَ ، حكاه المهدوى ، والأول ذكره الساوردى . فأنما سَفِهَ بضم القاء فلا يتعدى ، قاله المبرد و ثعلب . وحكى الكسائي عن الأخفش (١) أن المعنى جهل فى نفسه ، فحذفت « فى » فأنتصب . قال الأخفش : ومنه عقدة النكاح<sup>(٢)</sup> ، أى على عقدة النكاح . وهذا يجري على مذهب سيويو فى حكاية من قولهم : ضرب فلان الظهر والبطن ، أى فى الظهر والبطن . الفراء : هو تميز . قال ابن بحر : معناه جهل تسعوماتها من الدلالات والآيات الدالة على أن لها صانعا ليس كمثل شىء ، فيعلم به توحيد الحق وقدرته . قلت : وهذا معنى قول الزجاج : يفكر فى نفسه من يدين يبطش بها ، ورجلين يمشى عليهما ، وعين يصير بها ، وأذن يسمع بها ، ولسان ينطق به ، وأضراس تهت له عند غناه عن الرضاع وحاجته الى الغذاء ليطحن بها الطعام ، ومعدة أعقدت لطبخ الغذاء ، وكبد يصعد إليها صفوة ، وعروق ومغاريض تغذ فيها الى الأطراف ، وأسماء يرسل إليها تحمل الغذاء ويرز

(١) أى فى قوله تعالى : ( ولا تمزوا عقدة النكاح ) .

من أسفل البدن ، فيستدل بهذا على أن له خالقاً قادراً عليهما حكماً . وهذا معنى قوله تعالى :  
 ﴿ وَفِي آيَاتِكُمْ آفَافٌ لِّتُبَيَّنَ رُوحُ ﴾ . أشار إلى هذا الخطأ بوجه الله تعالى . وسيأتي له مزيد بيان  
 في سورة « والنار » إن شاء الله تعالى .

وقد استدلل بهذه الآية من قال : إن شريعة إبراهيم شريعة لنا إلا ما نسخ منها ؛ وهذا  
 كقوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ أَنْ آتَيْنَا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . وسيأتي بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي اختاره للرسالة لخطئه صافياً من  
 الأذناس . والأصل في اصطفيائه اصغنياء ، أبطلت التاء طاء لتشابهها مع الصاد في الإطباق .  
 واللفظ مشتق من الصفوة ؛ ومعناه تغيير الأسمى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . الصالح في الآخرة هو الفائز . ثم قيل :  
 كيف جاز تقديم ﴿ فِي الْآخِرَةِ ﴾ وهو داخل في الصلة ؟ قال النحاس : فالجواب أنه ليس  
 التقدير إنه لمن الصالحين في الآخرة فتكون الصلة قد تحققت ؛ ولأهل العربية فيه ثلاثة  
 أقوال : منها أن يكون المعنى وإنه صالح في الآخرة ثم حذفت . وقيل : في الآخرة متعلق  
 بمصدر محذوف أي صلاحه في الآخرة . والقول الثالث : أن الصالحين ليس بمعنى الذين  
 صلحوا ، ولكنه اسم قائم بنفسه ؛ كما يقال الرجل والفلان .

قلت : وقول رابع أن المعنى وإنه في عمل الآخرة لمن الصالحين ؛ فالكلام على حذف  
 مضاف . وقال الحسن بن الفضل : في الكلام تقديم وتأخير ، مجازة ولقد اصطفيته في الدنيا  
 والآخرة وإنه لمن الصالحين . وروى حماد بن حجاج - وهو حماد الأسود ، وهو أيضاً حماد  
 الأصول المعروف بزيق السمل - قال : سمعت معاوية بن قرة يقول : اللهم إنا الصالحين أنت  
 أصلحتهم ووزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم ، اللهم كما أصلحتهم فأصلحهم وكما وزقتهم  
 أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم فأوزقنا أن نعمل بطاعتك وأرض عنا .

(١) في بعض الأصول : « تناسبا ... » . (٢) ظاهر كلام المؤلف إن هذا راجع من أوجه  
 الأعراب . وهو غير واضح . وظاهر كلام أبي حيان أنه ضمير لأحد المعاني فكيف في المراءى من قوله تعالى :  
 في الآخرة . (٣) كما ورد في بعض نسخ الأصل وأبي حيان . وفي بعضها : « الحسين » .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾ الآية . العامل في إذ قوله : ﴿ أَصْطَفَيْنَاهُ ﴾ .  
 أى أصصيناه إذ قال له ربه أسلم . وكان هذا القول من الله تعالى حين ابتلاه بالكوكب  
 والقمر والشمس . وقال ابن كيسان والكلبي : أى أخلص دينك لله بالتوحيد ؛ وقيل :  
 أخضع وأخشع . وقال ابن عباس : إنما قال له ذلك حين خرج من السرب<sup>(١)</sup> على ما باتى  
 ذكره في الأنعام<sup>(٢)</sup> . والإسلام هنا على آتم وجوهه . والإسلام في كلام العرب الخضوع  
 والافتقار للتسليم . وليس كل إسلام إيماناً ، وكل إيمان إسلاماً ؛ لأن من آمن بالله فقد اتقاد  
 واستسلم لله ، وليس كل من أسلم آمن بالله ؛ لأنه قد يتكلم قرآناً من السيف ولا يكون ذلك  
 إيماناً ؛ خلافاً للقدرية والخوارج حيث قالوا : إن الإسلام هو الإيمان ؛ فكل مؤمن مسلم ،  
 وكل مسلم مؤمن ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ؛ فدل على أن الإسلام هو  
 الدين ، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن .

ودليلاً لقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ الآية .  
 فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمناً ؛ فدل على أنه ليس كل مسلم مؤمناً . وقال صلى  
 الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص لما قال له : أعط فلاناً فإنه مؤمن ؛ فقال النبي صلى الله  
 عليه وسلم : « أو مسلم » الحديث ، نخرجه مسلم ؛ فدل على أن الإيمان ليس الإسلام ، فإن  
 الإيمان باطن ، والإسلام ظاهر ؛ وهذا بين . وقد يطلق الإيمان بمعنى الإسلام ، والإسلام  
 ويراد به الإيمان ؛ للزوم أحدهما الآخر وصدوره عنه كالإسلام الذى هو ثمرة الإيمان ودلالة  
 على صحته فأعلمه ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى بالملة ؛ وقيل : بالكلية التى هى قوله :  
 ﴿ أَسْلَمْتُ رَبِّ الْمَالِئِينَ ﴾ ، وهو أصوب ؛ لأنه أقرب مذكور ، أى قولوا : أسلمنا .  
 ووصى وأوصى لنتان لقريش وغيرهم بمعنى ، مثل كرمنا وأكرمنا ؛ وقري بهما . وفى مصحف

(١) لعل الأول حذف وان اللفظ هنا . (٢) السرب (بالضريك) : الحفرة ؛ وبيت تحت الأرض .

(٣) عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَدْرَبْ ... ﴾ الآيات .

عبد الله : ووصى ، وفي مصحف عثمان : وأوصى ، وهي قراءة أهل المدينة والشام ، والباقيون ووصى ، وقبه معنى الكثير . وإبراهيم رفع يده ، ويقوب عطف عليه ؛ وقيل هو مقطوع مستأنف ، والمعنى : وأوصى يعقوب وقال : يا بني إن الله اصطفى لك الدين ؛ فيكون إبراهيم قد وصى بنيه ، ثم وصى بعده يعقوب بنيه .

وبنو إبراهيم : إسماعيل وأمه هاجر القبطية ، وهو أكبر ولده . قتل إبراهيم إلى مكة وهو رضيع ؛ وقيل : كان له ستان ؛ وقيل : كان له أربع عشرة سنة ؛ والأول أصح ؛ على ما يأتي في سورة إبراهيم بيانه إن شاء الله تعالى . وولد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة ، ومات وله مائة وسبع وثلاثون سنة ؛ وقيل : مائة وثلاثون . وكان سنة لما مات أبوه إبراهيم عليها السلام تسعا وعشرين سنة ؛ وهو الذبيح في قول . وإسحاق أمه سارة ، وهو الذي سح في قول آخر ، وهو الأشح ، على ما يأتي بيانه في سورة الصافات إن شاء الله . ومن ولده : الروم واليونان والأرمن ومن يحرم إبراهيم وبنو إسرائيل . وعاش إسحاق مائة وعشرين سنة ، وبات بالأرض المقدسة ودفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليها السلام ، ثم لما توفيت سارة تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا بنت يقطن الكنعانية ، فولدت له مدين ومدين ونهشان وزمران ونشيق وشيوخ<sup>(١)</sup> ، ثم توفى عليه السلام ، وكان بين وفاته وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحو من ألفي سنة وسبعمائة سنة ؛ واليهود يقصون من ذلك نحواً من أربعمائة سنة . وسياق ذكر أولاد يعقوب في سورة يوسف إن شاء الله تعالى . وقرأ عمرو بن فائد الأسواري وإسماعيل ابن عبد الله المكي : ( وَيَعْقُوبَ ) بالنصب عطفًا على بنيه ؛ فيكون يعقوب داخلًا فيمن أوصى . قال القشيري : وقرئ ( يَعْقُوبَ ) بالنصب عطفًا على بنيه وهو بعيد ؛ لأن يعقوب لم يكن فيما بين أولاد إبراهيم لما وصلهم ، ولم ينقل أن يعقوب أدرك جده إبراهيم ، وإنما ولد بعد موت إبراهيم ، وأن يعقوب أوصى بنيه أيضًا كما فعل إبراهيم .

(١) كما وردت هذه الأسماء في فتح الأوسل . والفي في كتاب الرسل والملوك لابن جرير الطبري ثم أتت ص ٣٤٥ طبع أوروبا : « قحطان ، وزمران ، ومدين ، ونشيق ، وسوح ، وبعير » . وفي تاريخ ابن الأثير : « قحطان وزمران ، ومدين ، ونشيق ، وسوح » .

قال الكلي : لما دخل يعقوب الى مصر رآهم يعبدون الأوثان واليران والبقرة ، فجع  
ولده وخاف عليهم وقال : ما تعبدون من بعدى ؟

ويقال : إنما سمي يعقوب ؛ لأنه كان هو واليصى توميين ، فخرج من بطن أمه آخذاً  
بعقب أخيه اليصى . وفي ذلك نظر ؛ لأن هذا اشتقاق عربي ، ويعقوب اسم أعجمي ،  
وإن كان قد وافق العربية في التسمية به كذكر الجليل <sup>(١)</sup> . عاش عليه السلام مائة وسبعا  
وأربعين سنة ومات بمصر ، وأوصى أن يحمل الى الأرض المقدسة ، ويدفن عند أبيه إسحاق ،  
فحمله يوسف ودفنه عنده .

قوله تعالى : ( يَا بَنِيَّ ) معناه أنت يا بني ؛ وكذلك هو في قراءة أبي بن مسعود  
والضحاك . قال الفراء : أنيت أن لأن التوسية كالقول ، وكل كلام يرجع الى القول جاز  
فيه دخول أن وجاز فيه إلّاؤها . قال : وقول النحويين إنما أراد أن قالت ليس بشيء .  
الخاص : يا بني ، نداء مضاف ، وهذه ياء التضمن لا يجوز هنا إلّا فتحها ، لأنها لو سكنت  
لالتقى سا كان ؛ ومثله بمضرنج . ( إِنَّ اللَّهَ ) كسرت إن لأن أوصى وقال واحد . وقيل ؛  
على إختيار القول . ( اصطفى ) : اختار . قال الرازي :

يأين ملوك ووزروا الأملاك . خلافة الله التي أعطاك

• لك اصطفاها ولما اصطفاك •

( لَكُمْ الدِّينَ ) أي الإسلام . والألف واللام في الدين للمهد ؛ لأنهم قد كانوا عرّفوه .  
( فَلَا تَحْمُوتُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ) إيجاز بليغ . والمعنى : الزموا الإسلام ودوموا عليه ولا تهاووه  
حتى تموتوا ؛ فاقى بلفظ موجز يتضمن اللقصود ، ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت ؛ وذلك  
أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى ؛ فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلّا وهو عليه ، فقد  
توجه الخاطب من وقت الأمر دائماً لازماً . ولا نهي . تموت في موضع جزم بالنهي ، أكد

(١) الجبل (بالضرب) : لما عمل قدام الخيام كاهناً ، أحرر الخمار والرجلين ، ويسمى فجاج البر . ويسمى  
الذكرت يعقوب وجمه ياقب ويعاقب .

بالتون الثقيلة، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين . إلا وأتم مسالمون، ابتداء وخبر في موضع الحال، أي محسنون بركم الظن، وقيل : مخلصون، وقيل : مفوضون، وقيل : مؤمنون . قوله تعالى : ( أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ) . شهداء خبر كان، ولم تصرف لأن فيها ألف التانيث، ودخلت لتانيث الجماعة كما تدخل الماء . وللطباب لليهود والنصارى الذين يفسون إلى إبراهيم مالم يوص به فيه، وأنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله عليهم قولهم وكذبهم، وقال لم على جهة التوبيخ : أنيستم يعقوب وعلمت بما أوصى فتدعون عن علم ! أي لم تشهدوا، بل أتم نصرتون . وأم بمعنى بل أي بل أشهد أسلافكم يعقوب . والعالم في إذا الأولى معنى الشهادة، وإذا الثانية بدل من الأولى . وشهداء جمع شاهد أي حاضر . ومعنى حضر يعقوب الموت أي مقدماته وأسبابه ؛ وإلا فلوحضر الموت لما أمكن أن يقول شيئا . وعبر عن المبدؤ بما ولم يقل من ؛ لأنه أراد أن يجتهدهم ؛ ولو قال من ، لكان مقصوده أن ينظر من لم الانتهاء منهم ؛ وإنما أراد تجربتهم فقال ما . وأيضا فالعبدات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والنجارة ؛ فاستفهم عما يبدون من هذه . ومعنى ( مِنْ بَدَى ) أي من بدى موق . وحكى أن يعقوب حين خيرا كما تخير الأنبياء اختار الموت وقال : أمهلوني حتى أوصى بنى وأهل ؛ فجمعهم وقال لم هذا، فاعتدوا وقالوا : ( تَبَدُّ الْمَلِكِ ) الآية، فاروه ثبوتهم على الدين ومعرفة الله تعالى .

قوله تعالى : ( قَالُوا تَبَدُّ الْمَلِكِ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ) في موضع خفض على البدل، ولم تصرف لأنها أعجمية . قال الكسائي : وإن شئت صرفت إسحاق وجعلته من السحق، وصرفت يعقوب وجعلته من الطير . وسمى الله كل واحد من النعم والحمد آباء، وبدأ بذكر الجد ثم إسماعيل الم لأنه أكبر من إسحاق . و ( إله ) بدل من إلهك بدل النكرة من المعرفة، وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية . وقيل : إله حال . قال ابن عطية : وهو قول حسن ؛ لأن الفرض إثبات حال الوحدانية . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر والجمهور وأبو ربه المطاردى : وإله أهلك . وفيه وجهان :

أحدهما — أن يكون أفرد وأراد إبراهيم وحده، وكره أن يجعل إسماعيل أباً لأنه عم .  
قال النحاس : وهذا لا يجب ؛ لأن العرب تسمى الم أباً .  
الثاني — على مذهب سيويه أن يكون «أيك» جمع سلامة . حكى سيويه أب وأبون  
وأين ؛ كما قال الشاعر :

« فقلنا اسلموا إذا أخوكم <sup>(١)</sup> »

وقال آخر :

فلما تبين أصواتنا • بكتين وقد بنا بالأيثنا

قوله تعالى : ( وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ) ابتداء وخبر ؛ ويشتمل أن يكون في موضع الحال ،  
والعامل نعيد .

قوله تعالى : ( يَبْكُ أُمَةٌ قَدْ خَلَتْ ) . تلك مبتدأ . وأمة خبره . وقد خلت نعت لأمة ،  
وإن شئت كان خبر المبتدأ ، وتكون أمة بدلا من تلك . ( لَمَّا مَا كَسَبْتُ ) . ما في موضع  
رفع بالابتداء أو بالصفة على قول الكوفيين . ( وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ) مثله . يريد من خير وشر .  
وفي هذا دليل على أن البعد يضاف إليه أعمال وأكساب ؛ وإن كان الله تعالى أقدره على  
ذلك إن كان خيرا فيفضله ، وإن كان شرا فيعقله ؛ وهذا مذهب أهل السنة ؛ والآي  
في القرآن بهذا المعنى كثيرة . فالبعد مكتسب لأفعاله ، على معنى أنه خلقت له قدرة مقاربة للفعل  
يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرخصة مثلا ؛ وذلك التمكن هو مناط التكليف .  
وقالت الجبرية بنى أكساب البعد ، وإنه كالتبأت الذي تصرفه الرياح . وقالت القدرية  
والمعتزلة خلاف هذين القولين ، وإن البعد يخلق أفعاله .

قوله تعالى : ( وَلَا تَسْتَوُونَ عَمَّا كَانُوا يَسْكُونُونَ ) أى لا يؤخذ أحد بذهب أحد ؛ فنزل  
قوله تعالى : ( وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَزُرَّةً أُخْرَى ) أى لا تحمل حاملة تحمل أخرى ؛ وسيأتي .

(١) الشاهد فيه أخوكم ، فانه جمع أخ ، ليعم الاخبار به من ضمير الجمع . وتعام البيت :

« قد سلت من الإذن الصدور »

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ . دعت كل فرقة الى ما يحى عليه ؛ فرد الله تعالى ذلك عليهم فقال : ﴿ بَلْ مِلَّةٌ ﴾ أى قس يا محمد ؛ بل تتبع ملة ؛ فلهذا نصب الملة ؛ وقيل : المعنى بل نهتدى بملة إبراهيم ؛ فلما حذف حرف الجر صار منصوبا .  
وقرأ الأعرج وابن أبي عمير : ﴿ بَلْ مِلَّةٌ ﴾ بالرفع ؛ والتقدير بل المدي بملة ؛ أو ملتنا دين إبراهيم . وحنيفا ما تلا عن الأديان المكرومة الى الحق دين إبراهيم ؛ وهو كى موضع نصب على الحال ؛ قاله الزجاج . أى بل تتبع ملة إبراهيم فى هذه الحالة . وقال على بن سليمان : هو منصوب على أئى ؛ والحال خطأ ؛ لا يجوز جملته غلام هند مسرمة . وسمى إبراهيم حنيفا ؛ لأنه حنيف الى دين الله وهو الإسلام . والحنف الميل ؛ ومنه رجل حنفاء ؛ ورجل أحنف ؛ وهو الذى تميل قدماء كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها . قالت أم الأحنف :  
والله لو لا حنّف يـرجـله • ما كان فى قـيـانكم من مثـله

، قال الشاعر :

إذا حوّل الظل الشئ رأيتَه      حنيفا وفى قرن الضحى ينصّر

أى الحرياء تستقبل القبلة بالشئ ؛ والمشرق بالنداء وهو قبلة النصارى . وقال قوم : الحنف الاستقامة ؛ فسمى دين إبراهيم حنيفا لاستقامته . وسمى الموحج الرجلين أحنف فثاؤلا بالاستقامة ؛ كما قيل للدين سليم ، وللهلكة مفازة فى قول أكرمهم .

قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ . خرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويضربونها بالعربية لأهل الإسلام ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الآيات " . وقال محمد بن سيرين : إنا قيل لك : أنت مؤمن ؟ قل : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ الآية . وكره أكثر السلف أن يقول الرجل : أنا مؤمن حقا ؛ وسيأتى بيانه فى الأفعال إن شاء الله تعالى . ويستل بعض المتقدمين عن رجل قيل له : أتؤمن بفلان النبي فسمه باسم لم يعرفه ؛ فلو قال : نعم فلعله لم يكن



نينا فقد شهد بالنبوة لغير نبي ، ولو قال لا ، فله نبي فقد جحد نينا من الأنبياء ؛ فكيف يصح ؟ فقال : ينبغي أن يقول : إن كان نينا فقد آمنت به . والخطاب في هذه الآية لهذه الأمة علمهم الإيمان . قال ابن عباس : جاء نفر من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عن يؤمن به من الأنبياء ، فترت الآية . فلما جاء ذكر عيسى قالوا : لا تؤمن بعيسى ولا من آمن به .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْنَا وَمَا أَنزَلْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ . جمع إبراهيم إبراهيم . وإسماعيل إسماعيل ، قاله الخليل وسبويه ، وقاله الكوفيون وحكوا إبراهيم وإسماعيل ، وحكوا إبراهيم وإسماعيل . قال محمد بن يزيد : هذا غلط ؛ لأن الممزة ليس هذا موضع زيادتها ، ولكن أقول : أباه وإسماعيل ، ويحوز أباه وإسماعيل . وأجاز أحمد بن يحيى رآه كما يقال في التصغير برية . وجمع إسحاق إسحاق ، وحكى الكوفيون إسحاق وإسحاق ، وكذا يعقوب ويعاقب ، ويعاقبة ويعاقب . قال النحاس : فأما إسرائيل فلا نعلم أحدا يحذف الممزة من أوله ، وإنما يقال أساريل ، وحكى الكوفيون أسارة وأساريل . والباب في هذا كله أن يجمع مسلماً فيقال إبراهيمون وإسحاقون ويعقوبون ، والمسلم لا عمل فيه .

والأسباط ولد يعقوب عليه السلام وهم اثنا عشر ولدا ، ولد لكل واحد منهم أمة من الناس ، وأقدم سبط ، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل . وسُموا الأسباط من السبط وهو التاج ، فهم جماعة متابعون . وقيل : أصله من السبط ( بالجر ) وهو الشجر ، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر ، الواحدة سبطة . قال أبو إسحاق الزجاج : وسين لك هذا ما حدثنا به محمد بن جعفر الثبيري قال حدثنا أبو محمد الدقاق قال حدثنا الأسود بن عامر قال حدثنا إسرائيل عن سمك عن عكرمة عن ابن عباس قال : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة : نوحا وشعيا وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وعهدا .

(١) كما ورد في نسخة من الأصل وتفسير ابن كثير في هذا الموضع . وفي سائر الأصول : « أبو محمد » .

صل الله عليه وسلم . ولم يكن أحد له إيمان إلا عيسى ويعقوب . والسبط الجماعة والقبيلة  
الراجعون إلى أصل واحد . وشمر سبط وسيط غير جد . ﴿ لَا تَقْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾  
قال الفراء : أى لا تؤمن ببعضهم وتكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُ بِهِ فَقَدْ آتَيْنَاهُمْ ﴾ الخطاب لمحمد صلى الله  
عليه وسلم وأمه . المعنى : فإن آمنوا مثل إيمانكم وصدقوا مثل تصديقكم فقد آتيناكم  
فالمائة وقت بين الإيمانين ، وقيل : (١) إن الباء زائدة مؤكدة . وكان ابن عباس يقرأ فيما حكى  
الطبري : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِالَّذِي آمَنْتُ بِهِ فَقَدْ آتَيْنَاهُمْ ﴾ وهذا هو معنى القراءة وإن خالف  
المصنف ؛ فبش زائدة كما هي في قوله : ﴿ لَيْسَ كَيْفَ شَيْءٌ ﴾ أى ليس كهوشى . قال  
الشاعر :

• فَصَبِّرُوا مِثْلَ كَمَصْفٍ مَا كَوْلُ •

وروى ياقبة حشا شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس قال : لا تقولوا فإن آمنوا بمثل  
ما آمنتم به فإن الله ليس له مثل ، ولكن قولوا : بالذي آمنتم به . تابعه علي بن نصر  
الجلهمي عن شعبة ، ذكره البيهقي . والمعنى أى فإن آمنوا بنبيناكم وبعمامة الأنبياء ولم يفترقوا  
بينهم كما لم يفترقوا فقد آتيناكم ، وإن أبوا إلا التفريق فهم التاركون عن الدين إلى الشقاق  
فسبككم الله . وحكى عن جماعة من أهل النظر قالوا : ويحتمل أن تكون الكاف  
في قوله : ﴿ لَيْسَ كَيْفَ شَيْءٌ ﴾ زائدة . قال : والذي روى عن ابن عباس من نبيه عن الله أنه  
الساكنة شيء ذهب إليه الباقون في تشبيهه عن الله عز وجل . وقال ابن عطية : هذا  
من ابن عباس على جهة التفسير أى هكذا فليأتوا . وقد قيل : إن الباء بمعنى على ، والمعنى :  
فإن آمنوا على مثل إيمانكم . وقيل : « مثل » على بابها أى بمثل المثل ؛ دليله قوله : ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ  
بِمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ وقوله : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ﴾ .

(١) هذه الجملة من تمام القول الأول وليست قولا آخر كما يتبادر من السياق .

(٢) في نسخة من الأصل : « عن النبيين » . وفي أخرى : « عن النبيين » .

قوله تعالى : ( وَإِنْ تَوَلَّوْا ) أى عن الإيمان ( فَأَتَيْنَاهُمْ فِي شِقَاقِ ) قال زيد بن أسلم : الشِّقَاقُ المنازعة ؛ وقيل : الشِّقَاقُ المجادلة والمخالفة والخصام . وأصله من الشَّقِّ وهو الجانب ؛ فكان كل واحد من الفريقين في شق غير شق صاحبه . قال الشاعر :

إلى كم يقتل العلماء قسرا      ويصور بالشقاق وبالغشاق<sup>(١)</sup>

وقال آخر :

وإِلَّا فَأَعْلَمُوا أَنَا وَأَنْتُمْ      بُسْلَةً مَا بَعِثْنَا فِي شِقَاقِ

وقيل : إن الشقاق مأخوذ من فعل مَايَشُقُّ وَيَصُصُّ ؛ فكان كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه .

قوله تعالى : ( فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ) أى سيكفي الله رسوله عدوه ؛ فكان هذا وعدا من الله تعالى لنبيه عليه السلام أنه سيكفيه من عانده ومن خالفه من المتولين بن يديه من المؤمنين ، فانجزله الوعد ، وكان ذلك في قتل بن قتيقاع وبنى قريظة . وإجلاء بن النضير . فالكاف ، والماء والميم في موضع نصب مفعولان . ويجوز في غير القرآن : فسيكفيك أيامهم . وهذا الحرفية ( فسيكفيكم الله ) هو الذى وقع عليه دم عثمان حين قتل بإخبار النبي صلى الله عليه وسلم إياه بذلك . والسميع لقول كل قائل . العليم بما يُفْعَلُ في عبادته ويُجرى عليهم . وحكى أن أبا دلامة دخل إلى المنصور وعليه قلنسوة طويلة ، ودُزَاعَةٌ مكتوب بين كتفها ( فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ) ، وسيفٌ معلق في وسطه ، وكان المنصور قد أمر الجند بهذا الزى ، فقال له : كيف حالك يا أبا دلامة ؟ قال : بشرا يا أمير المؤمنين ؛ قال : وكيف ذلك ؟ قال : ما ظنك برجل وجهه في وسطه ، وسيفه في آسته ، وقد نبت كلاب الله وراه ظهره ! فضحك المنصور . ثم وأمر بتغيير ذلك الزى من وقته .

قوله تعالى : ( حَبِطَتْ آلَهُ ) فيه مستطان :

(١) في نسخة من الأصل : « ... قتل ... وتجزى ... » إلخ .

(٢) الدزاعة والدرع : حبة مشقوقة القدم .

الأولى — قوله تعالى : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قال الأخفش وغيره : دين الله ، وهو بدل من ملته . وقال الكسائي : هي منصوبة على تقدير اتبعوا أو على الإغراء أى الزموا ؛ ولو قرئت بالرفع بلاز ، أى هي صبغة الله . وروى شيان عن قتادة قال : : إن اليهود تصبغ أبناءهم يهودا ، وإن النصارى تصبغ أبناءهم نصارى ، وإن صبغة الله الإسلام ؛ قال الزجاج : و بذلك على هذا أن صبغة بدل من ملته . وقال مجاهد : أى فطرة الله التى فطر الناس عليها . قال أبو إسحاق الزجاج : وقول مجاهد هذا يرجع إلى الإسلام ؛ لأن الفطرة ابتداء الخلق ، وابتداء ما خلقوا عليه الإسلام . وروى عن مجاهد والحسن وأبي المالية وقاتدة : الصبغة الدين . وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى الماء ، وهو الذى يسمونه المعمودية ، ويقولون : هذا تطهير لهم . قال ابن عباس : هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فاقى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لم يقال له : ماء المعمودية ، فصبغوه بذلك ليطهروه به مكان الختان ؛ لأن الختان تطهير ، فافعلوا ذلك قالوا : الآن صار نصرانيا حقا ؛ فرد الله تعالى ذلك عليهم بأن قال : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أى صبغة الله أحسن صبغة وهى الإسلام ؛ فسمى الدين صبغة استمارة وبجازا من حيث تظهر أعماله ويثبت على المتدين ، كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب . وقال بعض شعراء ملوك همدان :

وكل أناس لم صبغة      وصبغة همدان خير الصبغ  
صبغت على ذاك أبناءنا      فأكرم بصيغتنا فى الصبغ

وقيل : إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول فى الإسلام ، بدلا من معمودية النصارى ؛ ذكره الماوردى .

قلت : وعلى هذا التأويل يكون غسل الكافر واجبا متبدا ، وهى : المسألة الثانية ؛ لأن معنى صبغة الله غسل الله ، أى اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذى أوجبه الله عليكم . وبهذا المعنى جاءت السنة الثابتة فى قيس بن طهمس وعلمة بن أقال حين أسلما . روى أبو حاتم البستي فى صحيح مسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن ثمامة الحنظلى أسرفه به النبي <sup>(١)</sup> .

(١) ثمامة الحنظلى ، هو ثمامة بن أثال .

صلى الله عليه وسلم يوما فأسلم ، فبعت به إلى حائط أبي طلحة فأمره أن يتنسل فاعتسل  
 وصل ركعتين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن إسلام صاحبكم » . ونخرج  
 أيضا عن قيس بن عاصم أنه أسلم ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتنسل بماء وسفره .  
 وذكره النسائي ومحمد أبو محمد عبد الحق . وقيل : إن القربة إلى الله تعالى يقال لها صبة ؛  
 حكاه ابن فارس في المعجم . وقال الجوهري : صبة الله دينه . وقيل : إن الصبة  
 الحبان ، اختن إبراهيم بغرت الصبة على الختان بصيغهم الفيلان في الماء ؛ قاله الفراء .  
 ( وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ) ابتداء وخبر .

( قُلْ أَتَحْجُوتُنِي فِي اللَّهِ ) الآية . قال الحسن : كانت الحاجة أن قالوا : نحن أولى بالله  
 منكم ؛ لأننا أبناء الله وأحباءه ؛ وقيل : لتقدم آبائنا وكنيتنا ، ولأننا لم نبسد الأوثان . فبني  
 الآية : قل لهم يا محمد ، أي قل لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباءه  
 وأدعوا أنهم أولى بالله منكم لتقدم آبائهم وكنيتهم : أتأجذبوننا إلى الحجّة على  
 دعواكم والرب واحد ، وكلّ مجازي بصله ؛ أي تأييد تقدم الدين . ومعنى « في الله » أي في دينه  
 أو القرب منه والحظوة له . وقرأة الجساعة : ( أَتَحْجُوتُنَا ) . وجاز اجتماع حرفين مثلين من  
 جلس واحد متحركين ؛ لأن الثاني كللف ففصل . وقرأ ابن محيصن ( أَتَحْجُوتُنَا ) بالإدغام  
 لا اجتماع المثنيين ؛ قال الصام : وهذا جائز إلا أنه يخالف للسواد . ويحوز « أتأججون » بمذق  
 التثنية الثانية ، كما قرأ نافع : ( قَمِ يَبْشُرُونَ ) .

قوله تعالى : ( وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ) أي مخلصون البادة ، وفيه معنى التوبيخ ، أي  
 ولم تخلصوا أتم فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم . والإخلاص حقيقة تصفية الفعل  
 عن ملاحظة المخلوقين . قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول أنا خير شريك  
 فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي يأبى الناس إخلاصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله تعالى لا يخل  
 إلا ما خلص له ولا تهولوا هذا لله ولقرم فإنها للرم وليس لله منها شيء ولا تهولوا هذا لله

(١) الحائط : القيسان من القيس إذا كان عليه جدار . (٢) كما في الأصول . ولعل سواه : « واخترت منه » .

ولوجوهكم فانها اوجوهكم وليس لله تعالى منها شيء . رواه الضحاك بن قيس النهري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره ، نرجه البار قطنى . وقال رؤيم : الإخلاص من العمل هو ألا يريد صاحبه عليه عوضا في البارين ولا حظا من الملكين . وقال الجنييد : الإخلاص سر بين البعد وبين الله لا يملكه ملك فيكبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله . وذكر أبو القاسم القشيري وضعه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سألت جبريل عن الإخلاص ما هو فقال سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو قال سر من سرى استودعته قلب من أحبه من عبادي " .

قوله تعالى : ( أَمْ يَقُولُونَ ) بمعنى قالوا . وقرا حزة والكسائي وطامس في رواية حفص ( يَقُولُونَ ) بالتاء وهي قراءة حسنة ، لأن الكلام منسق ، كأن للحنى : اتعاجونا في الله أم تقولون إن الأنبياء كانوا على دينكم ، فهي أم المتصلة ، وهي على قراءة من قرا بالياء منقطعة ؛ فيكون كلامين وتكون أم بمعنى بل . ( هُودًا ) خير كان ، وخبر إن في الجملة . ويموز في خبر القرآن رفع هودا على خبر إن ، وتكون كان ملغاة ؛ ذكره النحاس .

قوله تعالى : ( قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ ) تقرير وتوبيخ في آدماتهم أنهم كانوا هودا أو نصارى ؛ فإذ الله عليهم بأنه أعلم بهم منهم ، أى لم يكونوا هودا ولا نصارى .

قوله تعالى : ( وَمَنْ أَظْلَمُ ) لفظة الاستفهام ، والمعنى : لا أحد أظلم . ( مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً ) يريد عليهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام ؛ وقيل : ما كتموه من صفة عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ قاله قتادة ؛ والأول أشبه بسباق الآية . ( وَمَا أَفْضَلُ عَمَّا تَصِفُونَ ) وعبد وإعلام بأنه لم يترك أمرهم سدى وأنه يمازهم على أعمالهم . والناقل الذى لا يظن الأمور إحصاءه ، ماخوذ من الأرض النفل وهي التى لا علم بها ولا أثر عمارة ، وثاقه غفل لا يمتد بها ، ورجل غفل لم يحرب الأمور . وقال الكسائي : أرض غفل لم تطر . غفلت عن الشيء غفلة وغفولا ، وأغفلت عن الشيء : تركته على ذكر منك .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ كرهها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ،  
أى إذا كان أولئك الأتياء على إيمانهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأتهم أخرى ؛ فوجب التأكيد  
فذلك كرهها .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ آلِي كَابُورٍ عَلَيْهِمْ ﴾ .  
فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ﴾ أعلم الله تعالى أنهم سيقولون فى تحويل  
المؤمنين من الشام الى الكعبة ما ولّاهم . وسيقول بمعنى قال ؛ جعل المستقبل موضع الماضى  
دلالة على استدامة ذلك وأنهم يستمرون على ذلك القول . وخصّ بقوله : ﴿ مِنْ النَّاسِ ﴾  
لأن السفه يكون فى جمادات وحوانات ، والمراد من السفهاء جمع من قال ما ولّاهم .  
والسفهاء جمع ، واحد سفیه ، وهو الخفيف العقل ؛ من قولهم : ثوب سفیه إذا كان خفيف  
النسج ، وقد تقدّم . والنساء سفاهه ، وقال المؤرّج : السفیه البهات الکذاب المتعمد خلاف  
ما يعلم . فطرب : الظلم الجھول . والمراد بالسفهاء هنا اليهود الذين بالمدينة ؛ قاله مجاهد .  
السُّدَى : المناقون . الزجاج : كفار قريش لما أنكروا تحويل القبلة قالوا : قد اشتاق  
محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم . وقالت اليهود . قد التيس عليه أمره وتخيّر .  
وقال المناقون : ما ولّاهم عن قِبَلِهِمُ ! واستهزأوا بالمسلمين . ولّاهم بمعنى علمهم وصرفهم .

الثانية - روى الأئمة واللفظ لمالك عن ابن عمر قال : بينا الناس رُقباء فى صلاة  
الصبح إذ جاءكم آت فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر  
أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ؛ وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة . وخرج  
البخارى عن البراء أنه النبي صلى الله عليه وسلم صلى الى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة  
عشر شهرا ، وكان يُجِبه أنت تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها البصر  
وصلى معه قوم بمغزج رجل من كان صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فزع على أهل المسجد  
وهم راكعون فقال : أشهد بالله ، لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل مكة ؛ فنادوا

كأهم قبل البيت؛ وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قُتلوا لم ندر ما قول فيه؛ فانزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾. ففى هذه الرواية صلاة العصر، وفى رواية مالك صلاة الصبح. وقيل: نزل ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سَلَمَةَ وهو فى صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحول فى الصلاة؛ فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين. وذكر أبو الفرج أن عباد بن تَمِيم كان مع النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الصلاة. وذكر أبو عمر فى التمهيد عن نوبة بنت أسلم وكانت من المايعات؛ قالت: كنا فى صلاة الظهر فأقبل عباد بن بشر بن قَيْظَى فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل القبلة - أوقال: البيت الحرام - فتحول الرجال مكان النساء، وتحول النساء مكان الرجال. وقيل: إن الآية نزلت فى غير صلاة، وهو الأكثر. وكان أول صلاة إلى الكعبة العصر وانه أعلم. وروى أن أول من صلى إلى الكعبة حين صُرِفَت القبلة عن بيت المقدس أبو سعيد بن المَعْلَى؛ وذلك أنه كان مجتازا على المسجد، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بتحويل القبلة على المنبر وهو يقرأ هذه الآية: ﴿قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ حتى فرغ من الآية؛ فقلت لصاحبي: نعال ترك ركعتين قبل أن يتول رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أول من صلى فتوارينا بعباد فضلياها؛ ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بالناس الظهر يومئذ. قال أبو عمر: ليس لأبي سعيد بن المَعْلَى غير هذا الحديث وحديث «كنت أصلى» فى فضل القاعة؛ خرجه البخارى، وقد تقدم.

الثالثة - واختلف فى وقت تحويل القبلة بعد قدومه المدينة؛ فقيل: حولت بعد ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا كما فى البخارى، وخرجه القادقطنى عن البراء أيضا؛ قال: صليا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا نحو بيت المقدس؛ ثم علم الله هوى نية قرات: ﴿قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية. ففى هذه الرواية

(١) فى كتاب الاستيلاء والقاموس: «قوة» بالتون، وقال صاحب القاموس: «وهى كجبهة». وقد ذكرت فى كتاب الإمامة مصغرة فى حرف التاء والتون، وهى بالتون رواية إسحاق بن إدريس عن يسعير بن محمود، وبإسناد رواية إبراهيم بن حزة؛ قال صاحب الإمامة: «وهى أخرى».



سنة عشر شهرا من غير شك ، وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب ، أن تحويلها كان قبل بدر شهرين ؛ قال إبراهيم بن إسحاق : وذلك في رجب من سنة اثنتين . وقال أبو حاتم البستي : صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام سواء ؛ وذلك أن قدومه المدينة كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وأمره الله عز وجل باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء لتتوسط من شعبان .

الرابعة — واختلف العلماء أيضا في كيفية استقباله بيت المقدس على ثلاثة أقوال ؛ فقال الحسن : كان ذلك منه عن رأى واجتهاد ، وقاله عكرمة وأبو العالية . الثاني — أنه كان مخيرا بينه وبين الكعبة ، فاختر الله تعالى طمعا في إيمان اليهود واستقامتهم ؛ قاله الطبري . وقال الزجاج : امتحانا للتركين لأنهم ألقوا بالكعبة . الثالث — وهو الذي عليه الجمهور : ابن عباس وغيره ، وجب عليه استقباله بأمر الله تعالى ووجه لا محالة ، ثم نسخ الله ذلك وأمره الله أن يستقبل بصلاته الكعبة ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَآجِئْنَا بِقَبْلَةِ آثَى كُنْتَ عَلَيْهِمْ إِلَّا لَتَعْلَمَنَّ مِنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴾ .

الخامسة — واختلفوا أيضا حين فرضت عليه الصلاة أولا بمكة : هل كانت إلى بيت المقدس أو إلى مكة ، على قولين ؛ فقالت طائفة : إلى بيت المقدس وبالمدينة سبعة عشر شهرا ، ثم صرفه الله تعالى إلى الكعبة ؛ قاله ابن عباس . وقال آخرون : أول ما افترضت الصلاة عليه إلى الكعبة ، ولم يزل يصل إليها طول مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل ؛ فلما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا على الخلاف ، ثم صرفه الله إلى الكعبة . قال أبو عمر : وهذا أصح القولين عندى . قال غيره : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أراد أن يستألف اليهود فتوجه [إلى] قبلتهم ليكون ذلك أدى لهم ؛ فلما تبين عنادهم وأيس منهم أحب أن يحول إلى الكعبة فكان ينظر إلى السماء وكانت محبته إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم ؛ عن ابن عباس ، وقيل : لأنها كانت

أدعى العرب الى الاسلام ، وقيل : عاقبة اليهود ، عن مجاهد . وروى عن أبي العالية الزياشي أنه قال : كانت مسجد صالح عليه السلام وقبلته الى الكعبة . قال : وكان موسى عليه السلام يصل الى الصخرة بمحذ الكعبة ، وهي قبلة الأنبياء كلهم عليهم السلام .

السادسة - في هذه الآية دليل واضح على أن في أحكام الله تعالى وكلية ناسخا ومنسوخا ، وأجمعت عليه الأمة إلا من شذ كما تقدم . وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما أنسخ من القرآن ، وأنها نسخت مرتين ، على أحد القولين المذكورين في المسئلة قبل .

السابعة - ودلت أيضا على جواز نسخ السنة بالقرآن ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ، وليس في ذلك قرآن ، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة ثم نسخ ذلك بالقرآن . وعلى هذا يكون : ( كُنْتُ عَلَيْهَا ) بمعنى أنت عليها .

الثامنة - وفيها دليل على جواز القطع بنجر الواحد ، وذلك أن استقبال بيت المقدس كان مقطوعا به من الشريعة عندهم ، ثم أن أهل قباء لما أتاهم الآتي فأخبرهم أن القبلة قد حوت الى المسجد الحرام ، قبلوا قوله واستنداروا نحو الكعبة ، فتركوا المتوار بنجر الواحد وهو مظنون .

وقد اختلفت العلماء في جوازه عقلا ووقوعه ، فقال أبو حاتم : والفتار جواز ذلك عقلا لو تبع الشرع به ، ووقوعا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدليل قصة قباء ، وبدليل أنه كان عليه السلام ينفذ آساد الولاة الى الأطراف وكانوا يملكون النافع والمنسوخ جميعا . ولكن ذلك ممنوع بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، بدليل الإجماع من الصحابة على أن القرآن والمتواتر المعلوم لا يرفع بنجر الواحد ، فلا ذاهب الى تجويزه من السلف والخلف . احتج من منع ذلك بأنه يفضي الى الحال وهو رفع المقطوع بالمظنون . وأما قصة أهل قباء وولاء النبي

(١) العبارة حاشية واحدة . وفي الطبري (ج ٢ ص ٢١ طبع بولاق) : « ... قال الربيع : إن يوردا باسم أبي العالية فقال : إن موسى عليه السلام كان يصل الى حجرة بيت المقدس . فقال أبو العالية : كان يصل عند الصخرة الى البيت الحرام . قال قال : فيقول ويترك مسجد صالح فانه يحج من الجبل ، قال أبو العالية : قد صليت فيه وقبلته الى البيت الحرام . قال الربيع : وأخبرني أبو العالية أنه مر على مسجد في القرنين وقبلته الى الكعبة » .

صلّى الله عليه وسلم فمحصول على قرأتين إتيان العلم إما قهلاً وتحقيقاً، وإما احتمالاً وتقديراً .  
وتتم هذا سؤالاً وجواباً في أصول الفقه .

الثامنة - وفيها دليل على أن من لم يلبس النسخ إنه متعبد بالحكم الأول ، خلافاً لمن  
قال : إن الحكم الأول يرفع بوجود النسخ لا بالمسلم به ، والأول أصح ، لأن أهل قُباة لم يزالوا  
يصلّون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتي فأخبرهم بالنسخ فالوا نحو الكعبة . فالنسخ إنّما  
حصل في الوجود فهو رافع لا محالة لكن بشرط العلم به ، لأن النسخ خطاب ، ولا يكون خطاباً  
في حق من لم يلبس . وقائلة هذا الخلاف في عبادات فُتلت بعد النسخ وقبل البلاغ هل  
تعاد أم لا ؛ وعليه تنبني مسألة الوكيل في تصرفه بعد عزل موكله أو موته وقبل علمه بذلك  
على قولين . وكذلك المقارض<sup>(١)</sup> ، والحاكم إذا مات من ولّاه أو عزل . والصحيح أن ما فعله كل  
واحد من هؤلاء ينفذ فعله ولا يرد حكمه . قال القاضي عياض : ولم يختلف المذهب  
في أحكام من أعتق ولم يعلم بعقته أنها أحكام حُرّفاً بينه وبين الناس ، وأما بينه وبين الله  
تعالى بخاترة . ولم يختلفوا في المنفعة أنها لا تبيد ما صلّت بعد عقها وقبل علمها بغير ستر ،  
وإنما اختلفوا فيمن يطرا عليه موجب بغير حكم عبادته . وهو فيها قياساً على مسألة قباة ؛ فمن  
صلّى على حال ثم تغيّرت به حاله تلك قبل أن يتم صلاته إنه يجزئ ولا يقطعها ويجزئ به ما مضى ؛  
وذلك كن صلّى عُرّباناً ثم وجد ثوباً في الصلاة ، أو ابتدأ صلاته جميعاً فرض ، أو مرضاً  
فصَحّ ، أو قاعداً ثم قدر على القيام ، أو أُمّة عتقت وهي في الصلاة إنها تأخذ قاعها وتغني .  
قلت : ولكن دخل في الصلاة بالتيتم فطراً عليه الماء إنه لا يقطع ، كما يقوله مالك والشافعي  
- رحمهما الله تعالى - وغيرهما . وقيل : يقطع ؛ وهو قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى وسيأتي .

العاشر - وفيها دليل على قبول خبر الواحد ، وهو مجمع عليه من السلف معلوم بالتواتر  
من عادة النبي صلى الله عليه وسلم في توجيه ولّاته ورسله أحياناً للآفاق ؛ ليعلموا الناس دينهم  
فيلزمهم سنّة رسولهم صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهي .

(١) القراض عند المالكية هو ما يئس بالخضارية عند الحنفية . وهو إصالة . المقارض (كبير الرأ) وهو رب المال  
المقارض (فتح الرأ) وهو العامل لا لا يجبره على أن يكون له جزء من الربح .

لِلْحَادِيَةِ عَشْرَةَ - وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَانَ يَقْرَأُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَفِي حَالٍ بَعْدَ حَالٍ، عَلَى حَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ؛ حَتَّى أَكْمَلَ اللَّهُ دِينَهُ كَمَا قَالَ :  
**(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)** .

قوله تعالى : **(قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ)** أَقَامَهُ حُجَّةً، أَيْ لَهُ مَلِكُ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَهُوَ أَنْ يَأْمُرَ بِالرُّسُومِ إِلَى أَى جِهَةٍ شَاءَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

قوله تعالى : **(يَسْجُدْ مِنْ بُنَاءٍ)** إِشَارَةٌ إِلَى هِدَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ إِلَى قِبَلَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَاقِهِ تَعَالَى أَعْلَمَ . وَالصِّرَاطُ : الطَّرِيقُ . وَالْمُسْتَقِيمُ : الَّذِي لَا اعْوْجَاجَ فِيهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .  
 قوله تعالى : **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)** الْآيَةُ . فِيهِ أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْأُولَى - قوله تعالى : **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)** الْمَعْنَى : وَكَأَنَّ الْكُتُبَةَ وَسَطُ الْأَرْضِ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا، أَيْ جَعَلْنَاكُمْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ وَفَوْقَ الْأُمَمِ . وَالْوَسْطُ : الْعَدْلُ . وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ أَحَدَ الْأَشْيَاءِ أَوْسَطُهَا . رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)** قَالَ : "عَدْلًا" .  
 قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَفِي التَّنْزِيلِ : **(قَالَ أَوْسَطُهُمْ)** أَيْ أَعْدَلُهُمْ وَخَيْرُهُمْ . وَقَالَ زُهَيْرٌ :

مُّمَّ وَنَسَطُ يَرْضَى الْأُمَمَ بِحُكْمِهِمْ • إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى الْيَالِي يُعْظِمُ  
 آخِرُ :

أَنْتُمْ أَوْسَطُ حَقٍّ طَلَسُوا • بِصَغِيرِ الْأَمْرِ أَوْ إِحْدَى الْكِبَرِ  
 وَقَالَ آخَرُ :

لَا تَنْهَعِينَ فِي الْأُمُورِ قَرْمًا • لَا تَسْأَلَنَّ إِنْ سَأَلْتَ شَطَطًا  
 • وَكَفَى مِنَ النَّاسِ جَيْمًا وَسَطًا •

ووسط الوادى خير موضع فيه وأكثره كلاً وماء . ولما كان الوسط مجانباً للتلو والتقصير كان محموداً أى هذه الأمة لم تزل غزو النصارى فى أنبيائهم ، ولا قصروا تقصير اليهود فى أنبيائهم . وفى الحديث : " خير الأمور أوسطها " . وفيه عن على رضى الله عنه : « طمِّحُوا بِالْفُطْرِ الْأَوْسَطِ ، فَإِنَّهُ يَرْقَى إِلَى الْوَالِيهِ يَرْفَعُ النَّزْلَ » . وفلان من أوسط قومه ، وإنه لو لم يسطه قومه ، ووسط قومه ، أى من خيارهم وأهل الحسب منهم . وقد وسَّطَ وساطةً وسيطةً ، وليس من الوسط الذى بين شيئين فى شيء . والوسط (يسكون السين) الظرف ، تقول : جلست وسط القوم ، وجلست وسط النار (بالتحريك) لأنه اسم . قال الجوهري : وكل موضع صلح فيه "ين" فهو وسط ، وإن لم يصلح فيه "ين" فهو وسط بالتحريك ، وربما يسكن وليس بالوجه .

الثانية - قوله تعالى : ( لَتَكُونُوا ) نصب بلام كى ، أى لأن تكونوا . ( شُهَدَاءَ ) خبر كان . ( عَلَى النَّاسِ ) أى فى الحشر للأشياء على أهمهم ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَدْعَى نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَيْكَ وَسَعْدِيكَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقَالُ لَأَمْتَهُ هَلْ بَلَّغْتُمْ فَيَقُولُونَ مَا أَنَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأَمْتُهُ فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ... " . وذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ مَقُولُوا ابْنَ الْمُبَارَكِ بِمَعْنَى ، وفيه : " فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا فيقول لم الرب سبحانه كيف تشهدون على من لم تدركوا فيقولون ربنا بشت إلينا رسولا وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقسمت علينا أنهم قد بلغوا فتشهدنا بما عهدت إلينا فيقول الرب صلِّحوا فذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا وَالْوَسْطُ الْمَنْدَلُ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً " . قال ابن أثير : فليخفى أنه يشهد يومئذ أمة محمد ، إلا من كان فى قلبه

(١) فى اللسان مادة وسط : « غير الناس هذا الوسط الأوسط ، بلخى يوم القال ، ويرجع اليهم القال » .

حَسَّةَ عَلَى أَخِيهِ . وقالت طائفة : معنى الآية يشهد بضمكم على بعض بعد الموت ؛ كما ثبت في صحيح مسلم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حين مرت به جنازة فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقَالَ : ” وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ ” . ثم مرَّ عليه بأخرى فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقَالَ : ” وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ ” ؛ فقال عمر : فَنَدَى لَكَ أَبِي وَأُمِّي ! مرَّ بجنازة فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقُلْتُ : ” وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ ” ومرَّ بجنازة فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقُلْتُ : ” وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ ” . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” مَنْ أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجِبَتْ لَهُ النَّارُ أَتَمَّ شَهِدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَتَمَّ شَهِدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ” . أخرجه البخاري بمعناه . وفي بعض طرقه في غير الصحيحين ونحو : ( لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ) . وروى أبان وثلاث عن شهر بن حوشب عن عباد بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” أُعْطِيتُ أُمِّي ثَلَاثًا لَمْ تَعْطَ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ كَانَ اللَّهُ إِذَا بَعَثَ نَبِيًّا قَالَ لَهُ ادْعُنِي أُسَجِّبْ لَكَ وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ ادْعُونِي أُسَجِّبْ لَكُمْ وَكَانَ اللَّهُ إِذَا بَعَثَ نَبِيًّا قَالَ لَهُ ادْعُنِي أُسَجِّبْ لَكَ وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ ادْعُونِي أُسَجِّبْ لَكُمْ وَكَانَ اللَّهُ إِذَا بَعَثَ نَبِيًّا جَعَلَهُ شَهِيدًا عَلَى قَوْمِهِ وَجَعَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ شَهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ ” . خرَّجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول .

الثالثة - قال علماءنا : أنبأنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لـ باسم العادلة وتولية خليفته الشهادة على جميع خلقه ، فجعلنا أولًا مكاتبًا وإن كنا آخرًا زمانًا ؛ كما قال عليه السلام : ” لِمَنْ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ ” . وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدلون ، ولا يغفل قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلًا . وسيأتي بيان العادلة وحكمها في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الرابعة - وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به ؛ لأنهم إذا كانوا عدولًا شهدوا على الناس ، فكل عصر شهيد على من بعده ؛ فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين ، وقول

التابعين على من بعدهم . واذ جعلت الأمة شهداء فقد وجب قبول قولهم ؛ ولا معنى لقول من قال : أريد به جميع الأمة ؛ لأنه حينئذ لا يثبت مجمع عليه الى قيام الساعة . وبيان هذا في كتب أصول الفقه .

قوله تعالى : ( وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ) قيل : معناه بأعمالكم يوم القيامة ؛ وقيل : عليكم بمعنى لكم ، أى يشهد لكم بالإيمان ؛ وقيل : أى يشهد عليكم بالتبليغ لكم .

قوله تعالى : ( وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ) قيل : المراد بالقبلة هنا القبلة الأولى ؛ لقوله : ( كُنْتَ عَلَيْهَا ) . وقيل : الثانية ؛ فتكون الكاف زائدة ، أى أنت الآن عليها كما تقدم ، وكما قال : ( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ) أى أتم ، في قول بعضهم ، وسيأتي .

قوله تعالى : ( إِلَّا لَتَسْلَمَنَّ مِنْ يُحْيِي الرُّسُلَ ) قال علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : معنى لتسلم لئلا ترى . والعرب تضع السلم مكان الرؤية ، والرؤية مكان السلم ؛ كقوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ ) بمعنى ألم تسلم . وقيل : المعنى إلا لتعلموا أننا نعلم ؛ فإن المتأقين كانوا في شك من علم الله تعالى بالأشياء قبل كونها . وقيل : المعنى تميز أهل اليقين من أهل الشك ؛ حكاه ابن قزوين ، وذكره الطبري عن ابن عباس . وقيل : المعنى إلا ليعلم النبي وأتباعه ، وأخبر تعالى بذلك عن نفسه ؛ كما يقال : فعل الأمير كذا ، وإنما فعله أتباعه ؛ ذكره المهدي وهو جيد . وقيل : معناه ليعلم محمد ؛ فأضاف عمله الى نفسه تعالى تخصيصا وتفضيلا ، كما كتفى عن نفسه سبحانه في قوله : " يا ابن آدم مريضت فلم تفتدي " الحديث . والأولى أظهر ، وأن معناه علم الملائكة الذى يوجب الجزاء ، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة ، علم ما يكون قبل أن يكون ، تختلف الأحوال على المصلوبات وعلمه لا يختلف بل يتعلق بالكل متعاقبا واحدا . وهكذا كل ما ورد في الكتاب من هذا المعنى من قوله تعالى : ( وَلْيَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَبَيَّحَدَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ) . ( وَلْيَبْلُغْكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ ) وما أشبه . والآية جواب لقريش في قولهم : ( مَا وَلاَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الْآلِ كَانُوا عَلَيْهَا ) وكانت قريش تائف الكعبة ، وأراد الله عز وجل أن يبينهم بغير ما القوم ليظهر من قبض الرسول

مَنْ لَا يَتَّقِهِ . وَقَرَأَ الزُّهْرِيُّ ( إِلَّا لِيَعْلَمَ ) . فَبُنِيَ فِي مَوْضِعٍ رُفِعَ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ ؛ لِأَنَّهَا  
اسْمٌ مَالِمٌ بِسَمِ قَاعِلُهُ . وَعَلَى قِرَاءَةِ الْجَمَاعَةِ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَلَى الْمَفْعُولِ ( يَتَّبِعُ الرَّسُولَ )  
يَعْنِي فِيهَا أَمْرُهُ مِنْ اسْتِقْبَالِ الْكُتُبَةِ ( يَمُنُّ يَتَّقِلُ عَلَى عَقِيْدِهِ ) يَعْنِي مَنْ يَرْتَدُّ عَنْ دِينِهِ ؛  
لِأَنَّ الْقِبْلَةَ لَمَّا حُوِّلَتْ ارْتَدَّتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَوْمٌ وَتَأَقَّقُوا قَوْمٌ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ( وَإِنْ كَانَتْ لَكَيْفِيَّةٌ )  
أَيُّ تَعْوِيلُهَا ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ . وَتَقْدِيرُهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَإِنْ كَانَتْ التَّحْوِيلَةُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَإِنْ كَانَتْ لَكَيْفِيَّةٌ ) نَعْبُ الْقِسْرَاءُ إِلَى أَذَى إِنْ وَاللَّامُ بِمَعْنَى مَا وَإِلَّا ؛  
وَالْبَعْضِيُّونَ يَقُولُونَ : هِيَ إِنْ التَّحْوِيلَةُ خُفِّفَتْ . وَقَالَ الْأَخْفَشُ : أَيُّ وَإِنْ كَانَتْ الْقِبْلَةُ  
أَوْ التَّحْوِيلَةُ أَوْ التَّوَلَّى لَكَيْفِيَّةٌ . ( إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ) أَيُّ خَلَقَ الْهَدَى الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ  
فِي قُلُوبِهِمْ ؛ كَمَا قَالَ : ( أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ ) اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا تَزَلَّتْ فِيمَنْ مَاتَ  
وَهُوَ يَصِلُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ مَازِيْبٍ عَلَى مَا هَدَّمَتْ .  
وَنُجَاجِ الثَّوْمَنِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا رُجِّعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْكُتُبَةِ قَالُوا :  
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ بِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :  
( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ ) الْآيَةُ ، قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . فَتَسَى الصَّلَاةَ  
إِيمَانًا لِاسْتِمْلَاحِهَا عَلَى نِيَّةٍ وَقَوْلٍ وَعَمَلٍ . وَقَالَ مَالِكٌ : إِنِّي لَا أَذْكُرُ هَذِهِ الْآيَةَ قَوْلَ الْمَرْجَةِ : إِيْمَانًا  
الصَّلَاةَ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : ( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ ) أَيُّ  
بِاتِّوَجِهِ إِلَى الْقِبْلَةِ وَتَصْدِيقِكُمْ لِنَبِيِّكُمْ ؛ وَعَلَى هَذَا مَعْلُومٌ مِنَ الْأَمْثَلِيِّينَ . وَرَوَى أَبُو وَهْبٍ  
وَأَبْنُ الْقَاسِمِ وَأَبْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ وَأَبْنُ مَالِكٍ ( وَمَا كَلَّفَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ ) قَالَ :  
صَلَامُكُمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( إِنَّ اللَّهَ وَالنَّاسَ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ ) الرَّأْفَةُ أَنْ تَنْزِلَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو  
الْعِلَاةُ : الرَّأْفَةُ أَكْثَرُ مِنَ الرَّحْمَةِ ؛ وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ . وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى لَفْظِهِ وَأَشْغَارِهِ وَمَعَانِيهِ



في الكتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» - فليظن هناك - وقرأ الكوفيون وأبو عمرو «لَرْوْفٌ» على وزن فُعْل، وهي لغة بني أسد؛ ومنه قول الوليد بن عتبة :

وشر الطالين فلا تكتنه      يغافل عنه الرؤف الرحيم

وحكى الكسائي أن لغة بني أسد لَرْأَف، على فُعْل، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع «لَرْوْفٌ» مثقالاً بنير هزم؛ وكذلك سَمَل كل هزلة في كتاب الله تعالى، ما كتبه كانت أو متحركة .

قوله تعالى : ( قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ) الآية . قال العلماء : هذه الآية مقدمة في التوراة على قوله تعالى : ( سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ) . ومعنى تقلب وجهك نحوول وجهك الى السماء؛ قاله الطبري . الزجاج : تقلب عينك في النظر الى السماء . والمعنى متقارب . قال السدي : كان إذا صلى نحو بيت المقدس رفع رأسه الى السماء ينظر ما يؤمر به ، وكان يجب أن يصل الى قبل الكعبة فانزل الله تعالى : ( قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ) . وروى أبو إسحاق عن البراء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حلياً نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يوجه نحو الكعبة ؛ فانزل الله تعالى : ( قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ) . وقد تقدم هذا المعنى والقول فيه ، والحمد لله . وخص السماء بالذكر إذ هي مخصصة بتعظيم ما أضيف إليها ويعود منها كالمطر والرحمة والوحي . ومعنى «رضاها» تحبها .

قوله تعالى : ( قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ) . فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( قَوْلَ ) أمر ( وَجْهِكَ شَطْرَ ) أى ناحية ( الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ )  
يعنى الكعبة ، ولاخلاف في هذا . قيل : حبال البيت كله ؛ عن ابن عباس . وقال ابن عمر :  
حبال الميزاب من الكعبة ؛ قاله ابن عطية . والميزاب هو قبلة المدينة وأهل الشام ، وهناك  
قبلة أهل الأندلس .

قلت : قد روى ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي» .

الثانية - قوله تعالى : ( شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ) . الشطر له محامل : يكون الناحية والجهة كما في هذه الآية ، وهو ظرف مكان ، كما تقول : لقاء وجهته . وانتصب الظرف لأنه فضلة بمنزلة المفعول [به] ، وأيضاً فإن الفعل واقع فيه . وقال داود بن أبي هند : إن في حرف ابن مسعود «نَوَّلَ وَجْهَكَ تَلْقَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» . وقال الشاعر :

أقول لأتم زنباع أفيى ، صدور العيس شطر بني تمم

وقال آخر :

وقد أظلمكم من شطير تفركم ، هَوَّلَ له ظلم ينشاكم قطعاً

وقال آخر :

ألا من مبلغ عمراً رسولاً ، وما تبنى الرسالة شطر عمرو

وشطر الشيء نصفه ، ومنه الحديث : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ » . ويكون من الأضداد ، يقال : شطرالى كذا إذا أقبل نحوه ، وشطر عن كذا إذا أبعد منه وأعرض عنه . فأما الشاطر من الرجال فلا نه قد أخذ في نحو غير الاستواء ، وهو الذى أعاى أهله خُبثاً ، وقد شَطَّرَ وشَطَّرَ بالضم شطارة فبهما . وسئل بعضهم عن الشاطر ، فقال : هو من أخذ في البعد عما نهى الله عنه .

الثالثة - لاختلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة في كل أُنق، وأجمعوا على أن من شاعدها وباينها فرض عليه استقبالها ، وأنه إن ترك استقبالها وهو معان لها وعالم يجهتها فلا صلاة له ، وعليه إعادة كل ماضى ، ذكره أبو عمرو . وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاها ، فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من التجويز والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها . ومن جلس في المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيماناً واحتساباً ، فإنه يروى أن النظر إلى الكعبة عبادة ؛ قاله عطاء ومجاهد .

(١) الكعبة من إعراب القرآن الخامس (نسخة مخطوطة بحفظة يد الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٠ تفسير) .

الرأسه — واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين أو الجهة؛ فمنهم من قال بالأول، قال ابن العربي: وهو ضعيف؛ لأنه تكليف لما لا يصل<sup>(١)</sup> إليه. ومنهم من قال بالجهة، وهو الصحيح لثلاثة أوجه؛ الأول — أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف. الثاني — أنه المأمور به في القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. الثالث — أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يعلم قطعا أنه أضماض عرض البيت.

الخامسة — في هذه الآية حجة واضحة لما ذهب إليه مالك ومن وافقه في أن المصلّي حكه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده. وقال الثوري وأبو حنيفة والشافعي والحسن بن حي: يستحب أن يكون نظره إلى موضع سجوده. وقال شريك القاضي: ينظر في القيام إلى موضع السجود، وفي الركوع إلى موضع قدميه، وفي السجود إلى موضع أنفه، وفي القعود إلى سجده. قال ابن العربي: إنما ينظر أمامه فإنه إن حنى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليه في الرأس وهو أشرف الأعضاء؛ وإن أقام رأسه وتكلف النظر بصره إلى الأرض فذلك مسنة عظيمة وحرَج، وما جعل علينا في الدين من حرج؛ أما إن ذلك أفضل لمن قدر عليه. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني تحويل الكعبة من بيت المقدس. فإن قيل: كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا في كتابهم؟ قيل عنه جوابان: أحدهما — أنهم لما علموا من كتابهم أن محمدا نبيّ علموا أنه لا يقول إلا الحق ولا يامر إلا به. الثاني — أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جمده بعضهم فصاروا عالمين يجوز القبلة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفْعَلُ نَحْمًا يَسْمُكُونَ﴾ تقدم معناه. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي: «تسمكون» بالاء على غاطبة أهل الكتاب أو أمة عهد صلى الله عليه وسلم. وعلى الوجهين فهو إلام بأن الله تعالى لا يعمل أعمال العباد ولا ينفل عنها، وضمته الوعيد. وقرأ الباقون بالياء من تحت.

(١) كذا في كتاب الأحكام لابن العربي. وفي الأصول: «ما لا يصل».

قوله تعالى : ( وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِيلَتُمْ ) لاشمهم كذا .  
وقد تبتوا الحق وليس تفهم الآيات أى العلامات . وجمع قِيلَ في التكسير قِيلٌ ، وفي التسليم  
قِيلَاتٌ ، ويجوز أن تبدل من الكسرة فتحة ، فتقول قِيلَات ، ويجوز أن تحذف الكسرة  
وتسكن الباء فتقول قِيلَات . وأجبت «لئن» يجواب «لو» وهى ضمة ما إن «لو» تطلب  
في جوابها المعنى والوقوع ، و«لئن» تطلب الاستقبال ؛ فقال الفراء والأخفش : أجبت  
يجواب لولأن المعنى : ولو آتيت . وكذلك تجاب لو يجواب لئن تقول : لو أحسنت أحسن  
إليك ، ومثله قوله تعالى : ( وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا قَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا ) أى ولو أرسلنا ريحا .  
وخالفهما سيبويه فقال : إن معنى «لئن» مخالف لمعنى «لو» فلا يدخل واحد منهما على الآخر ؛  
فاللغنى : ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلك . قال سيبويه : ومعنى ولئن  
أرسلنا ريحا قَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا لِيُظَلُّوا .

قوله تعالى : ( وَمَا أَنتَ بِتَائِيحٍ قِيلَتُمْ ) لفظ خبر ويتضمن الأمر أى فلا تترك إلى شئ  
من ذلك . ثم أخبر تعالى أن اليهود ليست بتبعة قبلة النصارى ولا النصارى بتبعة قبلة اليهود ؛  
عن السدى وابن زيد . فهذا إعلام باختلافهم وتباينهم وضلالهم . وقال قوم : المعنى وما  
من اتبعك من أسلم منهم بجمع قبلة من لم يُسَلِّم ، ولا من لم يُسَلِّم قبلة من أسلم . والأوّل  
أظهر . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ( وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لَإِنْ الظَّالِمِينَ )  
الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد أنه ممن يجوز أن يتبع هواه فيصير باتباعه ظالما ،  
وليس يجوز أن يفعل النبي صلى الله عليه وسلم ما يكون به ظالما ؛ فهو مجبول على إرادة أمره  
لحكمة النبي صلى الله عليه وسلم وقطعا أن ذلك لا يكون منه ، وخوطف النبي صلى الله  
عليه وسلم تعظيما لأمره ولأنه المثل علىه . والأهواء جمع هوى ، وقد تقدم ؛ وكذا «مِنَ الْحَقِّ»  
تتقم أيضا فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنَتُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ بَعْدُ ؟ ﴾ الذين في موضع رفع بالابتداء والخبر يعرفونه ؛ ويصح أن يكون في موضع خفض على الصنفة للظالمين ، ويعرفون في موضع الحال أي يعرفون نبوته وصدق رسالته . والضمير يائد على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وقيل : يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة أنه حق ؛ قاله ابن عباس وابن جرير والربيع وقتادة أيضا . وخص الأبناء في المعرفة بالذكر دون الأئمة وإن كانت ألق لأن الإنسان يمر عليه من زمته برهة لا يعرف فيها نفسه ، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه أبنته . وروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام : أعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف أبنتك ؟ قال : نعم وأكثر ، بعث الله أمينه في سمائه إلى أبيته في أرضه بنته ففرقه ، وأجى لا أدرى ما كان من أمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ فَرِقْنَا مِنْهُمْ لَنَنكَسَهُنَّ إِلَى الْوَادِي ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مجاهد وقتادة وخصيف . وقيل : استقبال الكعبة ، على ما ذكرنا آتاه .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ظاهر في صحة الكفر عتادا ؛ ومثله : ﴿ وَتَحَدَّوْا بَهَا وَاسْتَفِيقْتَهَا أَفَقَسُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعني استقبال الكعبة ، لا ما أخبرك به اليهود من قبلتهم . وروى عن علي رضي الله عنه أنه قرأ « الحق » منصوبا يعلمون ، أي يعلمون الحق . ويصح نصبه على تقدير الزم الحق . والرفع على الابتداء أو على إضمار مبتدأ ، والتقدير هو الحق ، أو على إضمار فعل أي جاءك الحق . قال النحاس : فاما الذي في الأبناء ﴿ الْحَقُّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ فلا تعلم أحدا قرأه إلا منصوبا . والفرق بينهما أن الذي في سورة البقرة مبتدأ به ، والذي في الأبناء ليس كذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي من الشاكين ، والمطالب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . يقال : انتزى فلان [ف] كذا إذا اعتزعه اليقين مرة والشك مرة فدافع إحداهما بالآخرى ؛ ومثله المراء لأن كل واحد منهما يشك في قوله صاحبه . والامتراء

في الشيء الشك فيه ، وكذا التتارى . وأشد الطبرى شاكدا على أن المتقين الشاكرون قول الأئسي :

تَنَزَّ عَلَى أَسْوَاقِ الْمَسْتَدْرِ • مِنْ رَهْطًا إِذَا مَا السَّرَابُ أَرَجَحُ

قال ابن عطية : وويهم في هذا ؛ لأن أبا عبيدة وغيره قال : المترون في البيت هم الذين يمرّون الخليل بأرجلهم همزا لتجرى كأنهم يحتلبون الجرى منها ، وليس في البيت معنى الشك كما قال الطبرى .

قلت : معنى الشك فيه وجوده ؛ لأنه يحتمل أن يختبر الفرس صاحبه هل هو على ما عهد منه من الجرى أو لا ؛ لأن لا يكون أصابه شيء ، أو يكون هذا عند أول شرائه فيجره يعلم مقدار جريه . قال الجوهري : ومرت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجرى بسوط أو غيره . والاسم المربة وقد تضم . ومرت الناقة مرزا إذا مسحت ضرعها لتبرز . وأمرت هي إذا دز لبنها . والاسم المربة بالكسر ، والضمر غلط . والمربة الشك وقد تضم ، وقرئ بهما . قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلًى فَلَاقَتِهَا إِلَهَاتُهَا ﴾ . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ ﴾ الوجهة وزنها فعللة من المواجهة ، والوجهة والجهة والوجه بمعنى واحد ، والمراد القبلة ، أى إنهم لا يتبعون قبلك وأنت لا تتبع قبيلهم ؛ ولكل وجهة إما بحق وإما بهوى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ هُوَ مَوْلًى ﴾ هو عائد على لفظ كل لا على مناه ؛ لأنه لو كان على المعنى لقال : هم مؤلواها وجوههم ، فإطاء والأكلف مفعول أول والمفعول الثانى محذوف ، أى هو موليا وجهه ونفسه ؛ والمعنى : ولكل صاحب ملة قبيلة ، صاحب القبيلة موليا وجهه ، على لفظ كل ؛ وهو قول الزبيد وعطاء وابن عباس . وقال علي بن سليمان : مؤليا أى متوليا . وقرأ ابن عباس وابن عامر « مؤلاها » على ما لم يسم فاعله . والضميم على هذه القراءة لواحد ، أى لكل واحد من الناس قبيلة ، الواحد مؤلاها أى مصروف اليها ؛ قاله الزجاج . ويحتمل أنه يكون على قراءة الجماعة هو ضمير اسم الله عز وجل وإن لم يتجر له ذكر ، إذ هو معلوم إن

الله عز وجل فاعل ذلك، والمعنى : لكل صاحب ملة قبله الله موليها إياه. وحكى الطبري : أن قرأوا « ولكل وجهة » بإضافة كل إلى وجهة . قال ابن عطية : وخطأها الطبري ، وهي متجهة ، أى فاستبقوا الخيرات لكل وجهة ولا تكبوها ، ولا تعترضوا فيها أمركم بين هذه وهذه ، أى إنما عليكم الطاعة في الجمع . وقدم قوله : ﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ ﴾ على الأمر في قوله : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ للاهتمام بالوجهة كما تقدم المفعول ، وذكر أبو عمرو الداني هذه القراءة عن ابن عباس رضى الله عنهما . وسلبت الراوى وجهة للفرق بين عدة وزنة ، لأن جهة ظرف ، وتلك مصادر . وقال أبو علي : ذهب قوم إلى أنه مصدر شذ عن القياس فلم يذهب قوم إلى أنه اسم وليس بمصدر ، وقال غير أبي علي : وإذا أردت المصدر قلت جهة ، وقد يقال الجهة في الظرف .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أى إلى الخيرات فحذف الحرف ، أى بادروا ما أمركم الله ببل وعز من استقبال البيت الحرام ، وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم ، فالمراد ما ذكر من الاستقبال لباقي الآي .

والمعنى المراد : المبادرة بالصلاة أول وقتها . والله تعالى أعلم . روى النسائي عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثل المهاجر إلى الصلاة كمثل الذى يهذى البدنة ثم الذى على أثره كالذى يهذى البقرة ثم الذى على أثره كالذى يهذى الكبش ثم الذى على أثره كالذى يهذى الدجاجة ثم الذى على أثره كالذى يهذى الببغاء » . وروى الدارقطني عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحركم ليصل الصلاة لوقتها وقد ترك من الوقت الأول ما هو خير له من أهله وماله » . وأخرجه مالك عن يحيى بن سعيد . وروى الدارقطني أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الأعمال الصلاة في أول وقتها » . وفي حديث ابن مسعود « أول وقتها » بإسقاط « في » . وروى أيضا عن إبراهيم بن عبيد الملك عن أبي مخنف عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول الوقت رضوان الله ووسط الوقت وجهية الله وآخر الوقت

عفو الله . زاد ابن العربي : قال أبو بكر : رضوان الله أحب اليّ من عفوهِ ؛ فإن رضوانه  
للحسين وعفوهُ للقصرين ؛ وهذا اختيار الشافعي . وقال أبو حنيفة : آخر الوقت أفضل ؛  
لأنه وقت الوجوب . فأما مالك فقصّل القول : فأما الصبح والمغرب فأول الوقت فيها  
أفضل ؛ أما الصبح فلهديث عائشة رضی الله عنها قالت : " إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
عليه وسلم يصل الصبح فينصرف النساء مُتَلَفَاتٍ بِمِرْطَينَ ما يعرفن من كلفس " - في رواية  
" مُتَلَفَاتٍ " - . وأما المغرب فلهديث سلمة بن الأكوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
كان يصلي المغرب إذا غربت الشمس وتولت بالجباب . أخرجهما مسلم . وأما العشاء  
فتأخيرها أفضل لمن قدر عليه . روى عن ابن عمر قال : مكثنا [ ذات ] ليلة ننظر رسول الله  
صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة ؛ فخرج إلينا حين ذهب ثلث الليل أو بعده ، فلا ندري  
أشئ شغل في أهله أو غير ذلك ؛ فقال حين نخرج : " إنكم لتنتظرون صلاة ما ينتظرها أهل  
دين غيركم ولولا أن يتنزل على أمي لصليت بهم هذه الساعة " . وفي البخاري عن أنس قال :  
" آخر النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء إلى نصف الليل ثم صلى ... " وذكر الحديث ؛  
وقال أبو برزة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستحب تأخيرها . وأما الظهر فإنها تأتي الناس  
[ على ] غفلة فيستحب تأخيرها قليلا حتى يتأهبوا ويحتموا . قال أبو الفرج قال مالك : أول  
الوقت أفضل في كل صلاة إلا الظهر في شدة الحر . وقال ابن أبي أويس : كان مالك يكره  
أن يصل الظهر عند الزوال ولكن بعد ذلك ، ويقول : تلك صلاة الخوارج . وفي صحيح  
البخاري وصحيح الترمذي عن أبي ذر الغفاري قال : كما مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر  
فأراد المؤذن أن يؤذن للظهر ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إرد " ثم أراد أن يؤذن فقال  
له : " إرد " حتى رأينا في الطول ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن شدة الحر من فيح  
سجهم فإذا أشد الحر فأبدوا بالصلاة " . وفي صحيح مسلم عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الزيادة عن صحيح مسلم وسنن الشافعي .

(٢) الزيادة من كتاب أحكام الفرائد لابن العربي .

(٣) الفتح ؛ سلخ المؤذنين .



وسلم كان يصلي الظهر إذا زالت الشمس . والذي يجمع بين الحدين ما رواه أنس أنه إذا كان الحز أرد بالصلاة ، وإذا كان البرد غل . قال أبو عيسى الترمذي : « وقد اختار قوم [ من أهل العلم ] تأخير صلاة الظهر في شدة الحز ، وهو قول ابن المبارك وأحمد وإسحاق . قال الشافعي : إنما الإيراد بصلاة الظهر إذا كان [ مسجداً ] يناب أهله من البعد ، أما المصل وحده والذي يصلي في مسجد فونه فالذي أحب له ألا يؤخر الصلاة في شدة الحز . قال أبو عيسى : ومعنى من ذهب إلى تأخير الظهر في شدة الحز هو أولى وأشبه بالاتباع . وأما ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله أنه الرخصة لمن يناب من البعد وللشفقة على الناس ، فإن في حديث أبي ذر رضي الله عنه ما يدل على خلاف ما قال الشافعي ؛ قال أبو ذر : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فاذن بلالٌ بصلاة الظهر ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « [ يا بلال ] <sup>(١)</sup> أرد ثم أرد » . فلو كانت الأمر على ما ذهب إليه الشافعي لم يكن للإيراد في ذلك الوقت معنى ؛ لاجتماعهم في السفر وكانوا لا يحتاجون أن ينابوا من البعد . وأما العصر فتقدمها أفضل . ولا خلاف في مذهبنا أن تأخير الصلاة رجاء الجماعة أفضل من تقدمها ؛ فإن فضل الجماعة معلوم ، وفضل أول الوقت مجهور ، وتحصيل المعلوم أولى ؛ قاله ابن العربي .

الرابعة - قوله تعالى : ( أَيْمَنَّا تَكُونُوا ) شرط ، وجوابه : ( يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ) يعني يوم القيامة . ثم وصف نفسه تعالى بالقدرة على كل شيء ، لتناسب الصفة مع ما ذكر من الإعادة بعد الموت والى .

قوله تعالى : ( وَمَنْ حَيْثُ تَرَجَّتْ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ) قيل : هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة وإهتمام بها ؛ لأن موقع التحويل كان مَعْتًا في قلوبهم جدا ، فأكد الأمر ليرى الناس الإهتمام به فيخف عليهم وتسكن قلوبهم إليه . وقيل : أراد بالأول ول وجهك شطر الكعبة أي عاينها إذا صليت تلقاها . ثم قال : ( وَحَيْثُ

(١) الزيادة عن صحيح الترمذي . (٢) اناب : نعم .

(٣) كما في صحيح الترمذي . وفي الأصول : « تأخير الصلاة » .

مَا كُنْتُمْ) معاشر المسلمين في سائر الساجد بالمدينة وغيرها (فَقُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) .  
ثم قال : (وَمِنْ حَيْثُ تَرَبَّعْتَ) يعني وجوب الاستقبال في الأسفار فكان هذا أمرا  
بالوجه الى الكعبة في جميع المواضع من نواحي الأرض .

قلت : هذا القول أحسن من الأول ؛ لأن فيه حمل كل آية على فائدة . وقد روى  
الدارقطني عن أنس بن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر فأراد أن  
يصل على راحته استقبل القبلة وكبر ثم صلى حيث توجهت به . أخرجه أبو داود أيضا ،  
وبه قال الشافعي وأحمد وأبو ثور . وزعم مالك إلى أنه لا يلزمه الاستقبال لحديث ابن عمر  
قال : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحته  
قال : وفيه رُل (فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا قِبَةَ رَبِّهِ اللَّهُ) . . . وقد تقدم .

قلت : ولا تعارض بين الحديثين ؛ لأن هذا من باب المطلق والمقيد ، قبول الشافعي  
أولى وحديث أنس في ذلك حديث صحيح . وروى أن جعفر بن محمد سئل ما معنى تكرر  
التمسك في القرآن ؟ فقال : علم الله أن كل الناس لا تحفظ القرآن فلو لم تكن القصة مكررة  
بلما زان تكون عند بعض الناس ولا تكون عند بعض ؛ فكررت لتكون عند من حفظ البعض .

قوله تعالى : (لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) . قال مجاهد : هم  
مشركو العرب ، وجهتهم قولهم : راجعت قبلنا . وقد أجابوا عن هذا به : (قُلْ لِلَّهِ الشِّرْكَ  
وَالْكَوْتُبُ) . وقيل : معنى (لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ) لئلا يوالكم . قد أمرتم  
باستقبال الكعبة ولستم ترونها . فلما قل جل وعز : (وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)  
زال هذا . وقال أبو عبيدة : إن إلهامنا يعني الواو ، أي والذين ظلموا ، فهو استثناء بمعنى  
الواو ؛ ومنه قول الشاعر :

ما بالمدينة دار غير واحدة • دار الخليفة إلا دار مروان

كأنه قال : إلا دار الخليفة ودار مروان ؛ وكذا قيل في قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) أي والذين آمنوا . وأبطل الزجاج هذا القول وقال :

هذا خطأ عند المخذلق من التحوين، وفيه بطلان المعاني، وتكون، إلا وما بعدها مستثنى  
عن ذكرهما. والقول عندهم أن هذا استثناء ليس من الأول، أي لكن الذين ظلموا منهم  
فانهم يحجون. قال أبو إسحاق الزجاج: أي عزكم الله أمر الاحتجاج في القبلة في قوله:  
(وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيًّا) (لَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ) إلا من ظلم باحتجاجة فيما قد  
وضع له، كما تقول: مالك على حجة إلا الظلم أو إلا أن تظلمني، أي مالك حجة البتة ولكنك  
تظلمني، فسمي ظلمه حجة لأن المحتج به تمام حجة وإن كانت داحضة. وقال قطرب:  
يخوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا، فالذين بدل من الكاف  
والميم في عليكم. وقالت فرقة: إلا الذين استثناء متصل، روى عنه ابن عباس وغيره،  
واختاره الطبري وقال: نفي الله أن يكون لأحد حجة على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه  
في استبالم الكعبة. والمعنى: لا حجة لأحد عليكم إلا الحجمة الداحضة حيث قالوا: ما ولأهم،  
ولغير محمد في دينه، وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا كآلهي منه، وغير ذلك من الأقوال التي  
تبين إلا من عبد وثني أو من يهودي أو منافق. والحجة بمعنى الحاجة أي الحاجة والمجادلة.  
وسماها الله حجة وحكم بسادها حيث كانت من ظلمة. قاله ابن عطية. وقيل إن الاستثناء  
منقطع، وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب، كأنه قال: لكن  
الذين ظلموا يحجونكم. وقوله (منهم) يراد هذا التأويل. والمعنى لكن الذين ظلموا: يعني كفار  
قريش في قولهم: رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا كله. ويدخل في ذلك كل من تكلم  
في النازلة من غير اليهود. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وابن زيد «ألا الذين ظلموا» بفتح  
الحمة وتخفيف اللام على معنى استفتاح الكلام فيكون الذين ظلموا ابتداء، أو على معنى  
الإغراء فيكون الذين منصوبا بضمل مفتر.

قوله تعالى: (لَّا تَحْسَبُوا) يريد الناس (وَأَخْشَوْا) الخشية أصلها طمانينة في القلب  
تبين على التوق. والخوف: نزاع القلب تخف له الأعضاء، وتلفه الأعضاء به سمي خوفا.  
ومعنى الآية التحفيز لكل من سوى الله تعالى، والأمر بالطراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى.

قوله تعالى : ( وَلَئِمَّ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ ) معطوف على «لئلا يكون» أى ولأن اتم؛ قاله الأخفش . وقيل : مقطوع في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمرة ، التقدير : ولأتم نعمتي عليكم عرفكم قبلي ؛ قاله الزجاج . وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة ، وقيل : دخول الجنة ؛ قاله سعيد بن جبير . ولم تم نعمة الله على عبد حتى يدخله الجنة . و ( لعلكم تهتدون ) تقدم . قوله تعالى : ( كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ ) الكاف في موضع نصب على التثنية لمصدر محذوف . المعنى : ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل ما أرسلنا ؛ قاله الفراء . قال ابن عطية : وهذا أحسن الأقوال ، أى ولأتم نعمتي عليكم في بيان سنة إبراهيم عليه السلام مثل ما أرسلنا . وقيل : المعنى ولعلكم تهتدون اعتداء مثل ما أرسلنا . وقيل : هى في موضع نصب على الحال ، والمعنى : ولأتم نعمتي عليكم في هذه الحال . والتشبيه واقع على أن النعمة في القبلة كالنعمة في الرسالة ، وأن الذكر المأمور به في عظمه كعظم النعمة . وقيل : معنى الكلام على التقديم والتأخير ، أى فاذكروني كما أرسلنا ؛ روى عن علي رضي الله عنه وأختره الزواج ، أى كما أرسلنا فيكم رسولاً تعرفونه بالصدق ، فاذكروني بالتوحيد والتصديق به . والوقف على ( تهتدون ) على هذا القول جائز .

قلت : وهذا اختيار الترمذي الحكيم في كتابه ، أى كما فعلت بكم هذا من المنن التي عدتها عليكم فاذكروني بالشكر اذكركم بالمزيد ؛ لأن في ذكركم ذلك شكراً وقد وعدتكم بالمزيد على الشكر وهو قوله : ( لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ) . فالكاف في قوله ( كَمَا ) هنا وفي الأفعال ( كَمَا أَتْرَجَكُمْ رَبُّكُمْ ) وفي آخر الجمل ( كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ) متعلقة بما بعده ، على ما يأتي . قوله تعالى : ( فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ) أمر وجوابه ، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم . وأصل الذكر التنبه بالقلب للذكر والتيقظ له . وسُمي الذكر بالسان ذكر لأنه دلالة على الذكر التالي ؛ غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللسان صار هو السابق للفهم .

(١) نص البازة في البحر المحیط لأبي حبان : « وقيل : تنطق اللام قبل مؤنر ، التقدير : ولأتم نعمتي عليكم مرخصكم قبلي » . وما في الأصل هنا غير واضح إذ ليس في الكلام مبتداً ولا خبر .

ومعنى الآية : اذكروني بالطاعة أذكركم بالتواب والمغفرة ؛ قاله سعيد بن جبير . وقال أيضا :  
الذكر طاعة الله فمن لم يطعمه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن . روى عن  
النبي صلى الله عليه وسلم : " من أطاع الله فقد ذكر الله وإن أقل صلاته وصومه وصنيعه للخير  
ومن عصى الله فقد نسي الله وإن أكثر صلاته وصومه وصنيعه للخير " ؛ ذكره أبو عبد الله محمد  
ابن خوير منقاد في « أحكام القرآن » له . وقال أبو عثمان النهدي : إني لأعلم الساعة التي يذكرنا  
الله فيها ؛ قيل له : ومن أين تعلمها ؟ قال يقول الله عز وجل : ( قَدْ كُذِّبُوا أَذْكُرْكُمْ ) .  
قال السدي : ليس من عبيد يذكر الله إلا ذكره الله عز وجل ، لا يذكره مؤمن إلا ذكره  
برحمته ، ولا يذكره كافر إلا ذكره الله بعباده . وسئل أبو عثمان فقيل له : تذكر الله ولا تنجد  
في قلوبنا حلاوة ؛ فقال : احمدا الله تعالى على أن زين جارية من جوارحك بطاعته . وقال  
ذو النون المصري رحمه الله : من ذكر الله تعالى ذكرًا على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء ،  
وحفظ الله عليه كل شيء ، وكان له عوضا من كل شيء . وقال مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه :  
ما عمل ابن آدم من عمل أنجي له من عذاب الله من ذكر الله . والأحاديث في فضل الذكر  
وتوابع كثيرة نرجعها للأئمة . روى ابن ماجه عن عبد الله بن بسر أن أعرابيا قال لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم : إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأنبئني منها بشيء آتيت به ؛ قال :  
" لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عز وجل " . وخرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه  
وسلم قال : " إني أنبئكم بأمر يقول أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه " .  
وسياتي لهذا الباب مزيد بيان عند قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ) .  
وإن المراد ذكر القلب الذي يجب استدامته في عموم الحالات .

قوله تعالى : ( وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ) قال العلماء يقال : شكرتك وشكرتك لك ، ونصحتك  
ونصحت لك ؛ والفصيح الأول . والشكر معرفة الإحسان والتعنت به ؛ وأصله في اللغة  
الظهور ؛ وقد تقدم . فشكر العبد لله تعالى شاكرا عليه بذكر إحسانه إليه ، وشكر الحق سبحانه

لعبد تشاؤه عليه بطاعته له ؛ إلا أن شكر العبد نطق باللسان وإقرار بالقلب بأنعام الرب مع الطاعات .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ انتهى ولتلك حذفت منه نون الجماعة ، وهذه نون المتكلم . وحذفت الياء لأنها رأس آية ، وإبانتها أحسن في غير القرآن ، أي لا تكفروا نعمتي وأيادي . والكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب . وقد مضى القول في الكفر لغة ، ومضى القول في معنى الاستمانة بالصبر والصلاة فلا معنى لإعادته .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ ﴾ هذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ . وهناك يأتي الكلام في الشهداء وأحكامهم إن شاء الله تعالى .

وإنما كان الله تعالى يحبيهم بسد الموت ليرزقهم على ما يأتي ؛ فيجوز أن يحبي الكفار لعينهم ، ويكون فيه دليل على عذاب القبر . والشهداء أحياء كما قال الله تعالى : وليس مناه أنهم سيحيون ؛ إذ لو كان كذلك لم يكن بين الشهداء وبين غيرهم فرق إذ كل أحد سيحيا . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ والمؤمنون يشعرون أنهم سيحيون . وارتفع « أموات » على إضمار مبتدأ ، وكذلك « بل أحياء » أي هم أموات وهم أحياء ، ولا يصح إعمال القول فيه لأنه ليس بينه وبينه تناسب ؛ كما يصح في قولك : قلت كلاما وحجة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ هذه الواو مفتوحة عند سيويه لالتقاء الساكنين . وقال غيره : لما حُتمت إلى النون الثقيلة في الفعل نصار بمثلة خمسة عشر . والبلاء يكون حسنا ويكون سيئا ، وأصله المحنة . وقد تهم . والمعنى لنتحنكنكم لنعلم المجاهد والصابر علم عملية حتى يقع عليه الجزاء ، كما تهم . وقيل : إنما ابتلوا بهذا ليكون آية لمن بعدهم فعملوا أنهم إنما صبروا على هذا حين وضع لهم الحق . وقيل : أعلمهم بهذا ليكونوا على يقين من أنه يصيهم ؛ فويلوا أنفسهم طيه فيكون أجدر لهم من الجزع . وفيه تعجيل ثواب الله تعالى على العزم وتوطيئ النفس .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ أى بالثواب على الصبر . والصبر أصله الحسب ؛ وثوابه غير مقدر . وقد تقدم . لكن لا يكون ذلك إلا بالصبر عند الصدمة الأولى ؛ كما روى البخاري عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " . وأخرجه مسلم أمم منه ، أى إنما الصبر الشاق على النفس الذى يعظم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحاربتها ؛ فإنه يدل على قوة القلب وثبته فى مقام الصبر ، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذا ذاك ؛ ولذلك قيل : يجب على كل عاقل أن يلتم عند المصيبة ما لا يد لاحق منه بعد ثلاث . وقال سهل بن عبد الله التستري : لما قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ صار الصبر عيشاً <sup>(١)</sup> . والصبر صبران : صبر عن معصية الله فهنا مجاهد ، وصبر على طاعة الله . ومن صبر على طاعة الله أوره الله الرضا بقضائه ، وعلامة الرضا سكن القلب بما وريد على النفس من المكروهات والمحبات . وقال الخواص : الصبر الثبات على أحكام الكلب والسنّة . وقال روم : الصبر ترك الشكوى . وقال ذو النون المصري : الدبر هو الاستماعة بالله تعالى . وقال الأستاذ أبو مزهر : " الصبر مدّة ألا تقترض

على التقدير؛ فأما إظهار البلوى على غير وجه الشكوى فلا يتفق الصبر؛ قال الله تعالى في قصة  
أيوب: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّمَ الْعَبْدُ) مع ما أخبر عنه أنه قال: (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) .

قوله تعالى: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) . فيه ست

مسائل:

الأولى - قوله تعالى (مُصِيبَةٌ) للمصيبة كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه؛ يقال: أصابه  
إصابة ومصابة ومصابا . والمصيبة واحد للمصائب . والمصوبة (بضم الصاد) مثل المصيبة .  
وأجمعت العرب على هزلة للمصائب، وأصله الواو؛ كأنهم شبهوا الأصل بالزائد، ويجمع على  
مصاوب، وهو الأصل . والمصائب الإصابة؛ قال الشاعر:

أَسْلِمُ إِذَا مَصَابِكُمْ رَجَلًا ه أَعْدَى السَّلَامِ نَجْمَةٌ ظَلَمُ

وصاب السهم القرطاس يصيب صبيًا، لنة في أصابه . والمصيبة التكية ينكها الإنسان  
وإن صغرت؛ وتستعمل في الشر؛ روى عكرمة أن مصباح رسول الله صلى الله عليه وسلم  
إناظنا ذات ليلة فقال: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) قيل: أمصيبة هي يا رسول الله؟  
قال: "نعم كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة" .

قلت: هذا ثابت معناه في الصحيح، نخرج مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضى  
الله عنهما أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما يصيب المؤمن من وصب  
ولا نصب ولا سقم ولا حرقة حتى الم<sup>(١)</sup> حمة إلا كفر به من سيئاته" .

الثانية - نخرج ابن ماجه في سننه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع بن الجراح  
عن هشام بن زياد عن أنه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم: "من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث استرجاعا وإن أقدم عليها كتب  
الله له من الأجر مثله يوم أصيب" .

(١) على حاشي صحيح مسلم: «قال القاضي: هو ضم الهمزة على ما لم يسم فاعه، وضمه فيه يفتح  
للإدغم المله، أو يفتح، وكلاهما صحيح» .



الثالثة — من أعظم المصائب المصيبة في الدين . ذكر أبو عمر عن الثوري قال  
حدثنا بطرين خليفة حدثنا عطارد بن أبي رياح قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنا  
أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه في فإنها من أعظم المصائب " . أخرجه السمرقندي  
أبو محمد في مسنده ، أخبرنا أبو نعيم قال أنبأنا فطرقد ذكر مثله سواء . وأسند مثله عن مكحول  
مرسلاً . قال أبو عمر : وصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن المصيبة به أعظم من كل  
مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة ؛ انقطع الوحي ومات النبوة . وكان أول ظهور  
الشربارتداد العرب وغير ذلك ، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه . قال أبو سعيد :  
ما نقصنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا . ولقد  
أحسن أبو القاسم في نظمه معنى هذا الحديث حيث يقول :

إصبر لكل مصيبة وتجلد . وأعلم بأن المرء غير محمد  
أولاً ترى أن المصائب جمّة . وترى المنة للعباد بمرصد  
من لم يصب بمن ترى بمصيبة ؟ . هذا سبيل لست فيه بأوحد  
فإننا ذكرت مما ومصابه . فاذكر مصابك بالنبي محمد

الرابعة — قوله تعالى : ( قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ) . جعل الله هذه الكلمات  
ملجأ لدوى المصائب ، وعصمة للمتقين ؛ لما جمعت من المعاني المباركة ؛ فان قوله :  
( إِنَّا لِلَّهِ ) توحيد وإقرار بالعبودية والملك . وقوله : ( وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ) إقرار بالملك  
على أنفسنا والبعث من قبورنا . واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له . قال سعيد بن جبير  
رحمته الله تعالى : لم تمل هذه الكلمات نياً قبل نبينا ، ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسقى  
على يوسف .

الخامسة — قال أبو سنان : دفنت أبي سنان ، وأبو طلحة الخولاني على شفير القبر  
فلما أريد الخروج أخذ بيدي فأنشطني وقال : ألا ابتشرك يا أبا سنان ، حدثني الضحاك عن

أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنا مات ولد العبد قال الله للملائكة أقبضتم ولد عبدي فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول فلماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد " . وروى مسلم عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عز وجل إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها " . فهذا تنبيه على قوله تعالى : ( وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ) . إنا بالخلف كما أخلف الله لأُم سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه تزوجها لما مات أبو سلمة زوجها ، وإنا بالتواب الجزيل كما في حديث أبي موسى ، وقد يكون بهما .

السادسة - قوله تعالى : ( أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ) . هذه نعم من الله عز وجل على الصابرين المسترجعين . وصلاة الله على عبده عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة . وقال الزجاج : الصلاة من الله عز وجل الغفران والثناء الحسن . ومن هذا الصلاة على الميت إنما هو الثناء عليه والدعاء له ؛ فذكر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيداً وإشباعاً للغي ؛ كما قال : ( يَتُوبُ إِلَيْنَا وَالْمُهْتَدُونَ ) . وقوله : ( أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ) . وقال الشاعر :

صلى على يحيى وأشياحه • رب كريم وشفيق مطاع

وقيل : أراد بالرحمة كشف الكرب وقضاء الحاجة . وفي البخاري وقال عمر رضي الله عنه : . . . نعيم المبدأ . ونعم الصلاة : ( الَّذِينَ إِنْ أَسَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ) . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . أراد بالمهتدين الصلاة والرحمة ، وبالصلاة الاحتذاء . قيل : إلى استحقاق الثواب وإبراز الأجر ، وقيل : إلى تسهيل المعائب وتخفيف الحزن .

قوله تعالى : ( إِنَّ الصَّافِيَاتِ وَالْمُرَوِّاتِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَنَحْنُ كَآيَاتٍ أَوْ أَضَمُّ ) إلى قوله : ( شَاكِرٌ عَلَيْهِمْ ) : فيه تسع مسائل :

الأولى - روى البخارى عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال : كما ترى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكا بهما ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ . وخرج الترمذى عن عروة قال : « قلت لعائشة : ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا ، وما أبالي ألا أطوف بينهما » . فقالت : بشئ ما قلت يا بن أختي ، طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف المسلمون ، وإنما كان من أهل لُبَّة الطاغية التي بالمثل لا يطوفون بين الصفا والمروة ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ ولو كانت كما تقول لكنت : « فلا جناح عليه ألا يطوف بهما » . قال الزهري : فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ؛ فاعجبه ذلك وقال : إن هذا لعلم ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون : إنما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم يؤمر به بين الصفا والمروة ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فإراها قد نزلت في هؤلاء وهؤلاء . قال : هذا حديث حسن صحيح . أخرجه البخارى بمعناه وفيه بعد قوله : فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ قالت عائشة : وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما ؛ ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال : إن هذا لعلم ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهل بمناء كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة ؛ فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا : يا رسول الله ، كما تطوف بالصفا والمروة ، وأن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا ، فهل علينا من

(١) مناة ، اسم صنم في جهة البحر على عقبة بالمثل ( وهو جبل هبط منه إلى قديد من ناحية البحر ) على صفة أمال من المدينة . وكانت الأزبد وغسان يهلون له ويحجون إليه ، وكانت أول من نصبه عمر بن عبد العزيز . ( راجع معجم ياقوت في اسم مناة ) .

خرج أن تطوف بالصفاء والمروة ؟ فآثر الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ الآية . قال أبو بكر : فاستمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما : في الذين كانوا يهتجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفاء والمروة ، والذين يطوفون ثم يهتجون أن يطوفوا بهما في الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت . وروى الترمذي عن عاصم بن سليمان الأحول قال : « سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال : كانا من شعائر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أسكتا عنهما فآثر الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قال : هما تطوع ، ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ . قال : هذا حديث حسن صحيح . » ترجمه البخاري أيضا . وعن ابن عباس قال : كان في الجاهلية شياطين تمزق الليل كله بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة ، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون : يا رسول الله ، لا تطوف بين الصفا والمروة فانهما شرك ؟ فنزلت . وقال الشعبي : كان على الصفا في الجاهلية صنم يسمى « إسافا » وعلى المروة صنم يسمى « نائلة » فكانوا يسبحونهما إذا طافوا ، فامتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك ، فنزلت الآية .

الثانية - أصل الصفا في اللغة الحجر الأملس . وهو هنا جبل بمكة معروف ، وكذلك المروة جبل أيضا ، ولذلك أخرجهما بلفظ التبريد . وذكر الصفا لأن آدم المصطفى صلى الله عليه وسلم وقف عليه فسعى به ، ووقفت حواء على المروة فسميت باسم المرأة فانت لذلك والله أعلم . وقال الشعبي : كان على الصفا صنم يسمى « إسافا » وعلى المروة صنم يدعى « نائلة » فاطرد ذلك في التذكير والتأنيث وقدم المذكر ، وهذا حسن ، لأن الإحاديث المذكورة تدل على هذا المعنى . وما كان كراهة من كره الطواف بينهما إلا من أجل هذا ، حتى رفع الله الحرج في ذلك . وزعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فسخنها الله فحجرين فوضعهما على الصفا والمروة ليعتبر بهما ، فلما طالت المدة عيضا من دون الله - والله تعالى أعلم - والصفا مقصور

(١) كذا في الأصول وصحيح البخاري وتفسير الطبري . والذي في صحيح الترمذي : « أنس بن سيرين ... »

وهو قول أنس بن مالك ومن روى عنه .

جمع صفة : وهى الحجارة الملص . وقيل : الصفا اسم مفرد ، وجمعه صفي ( بضم الصاد )  
وأصفا على مثل أرعاء . قال الرازي :

كَأَنَّ مَتْنَهُ مِنَ النَّيِّ • موافقُ الطَّيْرِ عَلَى الصُّنِيِّ •

وقيل : من شروط الصفا البياض والصلابة . واشتقاقه من صفا يصفو ، أى خلص  
من التراب والطين . والمروة ( واحدة المرو ) وهى الحجارة الصغار التى فيها لين . وقد قيل  
إنها الصلاب . والصحيح أن المرو : الحجارة صليها ورخوها الذى يتشظى وترق حاشيته ؛  
وفى هذا يقال : المرو أكثر ويقال فى الصليب . قال الشاعر :

وتولى الأرض خفا ذابلا • فافا ما جادف المرو رشح

وقال أبو ذؤيب :

حتى كَأَنَّ لِهَوَادِثَ مَرَوَةٍ • بصفا المشتق كل يوم تفرع

وقد قيل : إنها الحجارة السود ، وقيل : حجارة بيض برأقة تكون فيها النار .

الثالثة - قوله تعالى : ( مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ) أى من معالمه ومواضع عباداته ، وهى  
جمع شعيرة . والشعائر : المتعبات التى أشعرها الله تعالى ، أى جعلها أعلاما للناس ، من الموقف  
والسعى والتحر . والشعار العلامة ؛ يقال : أشعر الهدى أعلامه بفرز حديدة فى سنامه ؛ من  
قواك : أشعرت أى أعلمت ، وقال الكيث :

فَقَتَلَهُمْ جَيْلًا بَجَلًا رَأَاهُمْ • شَعَائِرُ قُرْبَانٍ بِهِمْ يُقَرَّبُ

الرابعة - قوله تعالى : ( قَنْ جَحَّيْتِ ) أى قصد . وأصل الجح قصد ؛

قال الشاعر :

فَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ لِمَوْلَا كَثِيرَةٍ • يَحْتَجُونَ سَبَّ الزَّيْرِ قَانَ الْمُزَعَفَرَا

(١) النى : تطهير الماء من الزئاض بمسح الاستقاء . ونش الدار : ما يتبعه وزئاض . قال صاحب اللسان :

«ورفعه لميل فقال : شبه الماء وقد وقع على من الإسفن يدرق العائر على الصفى» .

(٢) المحلول : الأحياء المجتمعة ( وهو جمع حال ) .

السب لفظ مشترك . قال أبو عبيدة : السب ( بالكسر ) الكثير السباب . وسبك  
أيضا الذى يسبك ؛ قال الشاعر :

لَا تَسْبِيْ فَلَستَ بِسَبِيٍّ • إِنَّ سَبِيٍّ مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيْمِ

والسب أيضا الخمار ، وكذلك الهامة ؛ قال الخليل السعدي :

• يَحْمِلُونَ سَبَّ الزُّبُرِ قَانَ الْمَزْعُورَا •

والسب أيضا الخبل ؛ قال أبو ذؤيب :

تَدَلَّى عَلَيْهَا بَيْنَ سَبَبٍ وَخَبَطَةٍ • يَجْرَدَاءُ مِثْلَ الْوَكْفِ يَكْبُو غُرَابُهَا

والسبوب الخبال . والسب شقة كان رقيقة ، والسبية مثله ؛ والجمع السبوب والسباب .

قاله الجوهرى . ويصح الطيب الشجة إذا سرها بالليل ؛ قال الشاعر :

• يَحْمِجُ مَأْمُومَةً فِي قَمَرِهَا جَفَّ<sup>(١)</sup> •

الجف : الخسف ؛ فَجَعَفَ الْبَرْ : انْحَسَفَ أَصْفَلَهَا . ثم انحص هذا الاسم بالتصدي الى الميت  
الحرام لأعمال مخصوصة .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ ائْتَمِرْ ﴾ أى زار . والعمره : الزيارة ؛ قال الشاعر :

لَقَدْ سَمَا أَبْنُ مَعْمَرٍ حِينَ ائْتَمَرَ • مَعَزَى يَسِيدَانِ مِنْ بَعِيدٍ وَضَبَرِ<sup>(٢)</sup>

السادسة - قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ أى لا إثم . وأصله من الجنوح

وهو الميل ؛ ومنه الجواخ للأعضاء لاعوجاجها . وقد تقدم تأويل : إنشئة لهذه الآية .

قال ابن العربى : « تحقيق القول فيه أن قول القائل : لا جناح عليك أن تفعل ؛ إباحة الفعل

وقوله : لا جناح عليك ألا تفعل ؛ إباحة ترك الفعل ؛ فلما سمع عبادة قول الله تعالى :

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ . قال : هذا دليل على أن ترك الطواف جائز ، ثم رأى

الشريعة مطابقة على أن الطواف لا برخصة فى تركه ، فطلب الجمع بين هذين المتعارضين .

(١) المأومة : الشجة التى يفتأ أم الرأس ، وهى الجملة التى يحرم المسامحة .

(٢) ضرب : جمع قوائم فيئب .

فقال له عائشة : ليس قوله : ( فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا ) دليلا على ترك الطواف ، إما كان يكون دليلا على تركه لو كان . « فلا جناح عليه ألا يطوف بهما » فلم يأت هذا اللفظ لإباحة ترك الطواف ، ولا فيه دليل عليه ؛ وإنما جاء لإفادة إباحة الطواف لمن كان يخرج منه في الجاهلية ، أو لمن كان يطوف به في الجاهلية قصدا للاصنام التي كانت فيه ؛ فاعلمهم الله سبحانه أن الطواف ليس بمغفلور إذا لم يقصد الطائف قصدا باطلا .

فإن قيل : فقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قرأ « فلا جناح عليه ألا يطوف بهما » وهي قراءة ابن مسعود ، وروى أنه في مصحف أبي كذا ، وروى عن أنس مثل هذا . فالجواب أن ذلك خلاف ما في المصحف ، ولا يترك ما قد ثبت في المصحف إلى قراءة لا يدرى أصح أم لا . وكان عطاء يكثر الإرسال عن ابن عباس من غير سماع . والرواية في هذا عن أنس قد قيل : إنها ليست بالمضبوطة ؛ أو يكون « لا » زائدة للتوكيد ؛ كما قال : وما ألوم البيض ألا تسخرا . لما رأين الشمط اتفندرا<sup>(١)</sup>

السابعة — روى الترمذي عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم مكة فثأف باليت سبعا قرأ : ( وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ) . وصل خلف المقام ، ثم أتى الحجر فاستلمه ثم قال : « نبأ بما بدأ الله به » قبل بالصفا وقال : ( إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ) . قال : هذا حديث حسن صحيح . والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة ؛ فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يحزه وبدأ بالصفا .

الثامنة — واختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة ؛ قال الشافعي وابن حنبل : هو ركن ؛ وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لقوله عليه السلام : « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي » . ترجمه القارطبي . فكتب يعني أوجب لقوله تعالى : ( كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ) . وقوله عليه السلام : « خمس صلوات كتبهن الله على العبد » . وخروج ابن ماجه عن أم ولد لشعبة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى بين الصفا والمروة

(١) الصحيح المظهر . (٢) الترمذي : « نبأ بما بدأ الله به » .

وهو يقول : " لا يقطع الأبطح إلا شداً " <sup>(١)</sup> فمن تركه أو شوطاً منه ناسياً أو ما بدا رجوع من بعده أو من حيث ذكر إلى مكة ، يطوف ويسعى ؛ لأن السعي لا يكون إلا متصلاً بالطواف . وسواء عند مالك كان ذلك في حج أو عمرة وإن لم يكن في العمرة فرضاً ، فإن كان قد أصاب النساء قبله عمرة وهدي عند مالك مع تمام مناسكه . وقال الشافعي : عليه هدي ، ولا معنى للعمرة إذا رجع وطاف وسعى . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والشافعي : ليس بواجب ، فإن تركه أحد من الحاج حتى يرجع إلى بلاده جبره بالتم لأنه سنة من سنن الحج . وهو قول مالك في النية <sup>(٢)</sup> . وروى عن ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين أنه تطوع ؛ لقوله تعالى : ( وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ) . وقرأ حمزة والكسائي « تطوع » مضارع مجزوم ، وكذلك « فمن تطوع خيراً فهو خير له » الباقون « تطوع » ماض . وهو ما يأتيه المؤمن من قبل نفسه ؛ فمن أتى بشيء من التوافل فإن الله يشكره . وشكر الله للعبد إجابته على الطاعة ، والصحيح ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى لما ذكرنا ، وقوله عليه السلام : « خذوا عني مناسككم » فصار بياناً لجعل الحج ، فالواجب أن يكون فرضاً ؛ كيانه لصدد الزكوات ، وما كان مثل ذلك ، إذا لم يتفق على أنه سنة أو تطوع . وقال طليوب : رأى ابن عباس قوماً يطوفون بين الصفا والمروة فقال : هذا ما أوردتكم أم إسماعيل .

قلت : وهذا ثابت في صحيح البخاري ، على ما يأتي بيانه في سورة إبراهيم .

الثامنة - ولا يجوز أن يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكباً إلا من عذر ؛ فإن طاف معذوراً قبله دم ، وإن طاف غير معذور أعاد إن كان بمحضرة البيت ، وإن غاب عنه أهدى . إنما قلنا ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم طاف بنفسه وقال : « خذوا عني مناسككم » . وإما يجوزنا ذلك من العذر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم طاف على بئره واستلم

(١) شذاً أي عدواً .

(٢) النية : كتاب لفتح الأعملى محمد بن أحمد بن عبد العزيز التي للقرطبي المتوفى سنة ٢٥٤ هـ ، في طلبه

الامام مالك ، نسبت إلى مؤلفها .



الركن <sup>(١)</sup> ينجته، وقال لمانسة وقد قالت له : إني أشتكي . فقال : " طوف من وراء الناس وأنت راكبة " . وفوق أصحابنا بين أن يطوف على بعير أو يطوف على ظهر إنسان؛ فإن طاف على ظهر إنسان لم يجره؛ لأنه حيث لا يكون طائفا، إنما الطائف الحامل . وإذا طاف على بعير يكون هو الطائف . قال ابن خوير مناد : وهذه مفرقة اختيار ، وأما الإجزاء فيجزي؛ ألا ترى أنه لو أغشى عليه طفيف به محمولا، أو وقف به بمرقات محمولا كان مجزئا عنه .

قوله تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ) . فيه سبع مسائل :

الأولى — أخبر الله تعالى أن الذي يكتم ما أنزل من البينات والهدى ملعون . واختصوا من المراد بذلك ؛ قيل : أhabار اليهود ورحبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كتم اليهود أمر الرجم . وقيل : المراد كل من كتم الحق؛ فهو عانة في كل من كتم علما من دين الله يحتاج إلى بته . وذلك مفسر في قوله صلى الله عليه وسلم : " من سئل عن علم [علمه] فكتمه ألجه الله يوم القيامة بلجام من نار " . رواه أبو هريرة وعمر بن العاص . أخرجه ابن ماجه . ويأرضه قول عبد الله بن مسعود : ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . وقال عليه السلام : " حدث الناس بما يفهمون أقيمون أن يكذب الله ورسوله " . وهذا محمول على بعض العلوم؛ كعلم الكلام أو ما لا يستوى في فهمه جميع العوام؛ لحكم العالم أن يحدث بما يفهمه عنه، ويقول كل إنسان منزله؛ والله تعالى أعلم .

الثانية — هذه الآية هي التي أراد أبو هريرة رضى الله عنه في قوله : لولا أية في كتاب الله تعالى ما حدثتكم حديثا . وما استدلل العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق، وتبيان العلم على الجملة؛ دون أخذ الأجرة عليه؛ إذ لا يستحق الأجرة على ما عليه الله، كما لا يستحق الأجرة على الإسلام . وقد مضى القول في هذا .

(١) المحسن : صا صورة الرأس يتخلل بها الركاب ما سقط له .

(٢) الزيادة من سنن ابن ماجه .

(٣) أقوى في صحيح البخاري، وسنن ابن ماجه : « لولا آيات » .

وتحقيق الآية هو أن العالم إذا تصد كتمان العلم عصى ، وإذا لم يقصد لم يلزمه التبليغ  
إذا عرف أنه مع غيره . وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث ، أما أنه  
لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يسلم ، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الحسد والنجاح  
ليجادله به أهل الحق ، ولا يعلم الخضم على خصمه حجة يقطع بها ماله ، ولا السلطان تأويلا  
يتطرق به إلى مكاره الرعية ، ولا ينشر الرخص في السفهاء فيضلوا ذلك طريقا إلى ارتكاب  
المخطورات ، وترك الواجبات ونحو ذلك . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
” لا تمنوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تفضوها في غير أهلها فتظلموها ” وروى عنه صلى الله  
عليه وسلم أنه قال : ” لا تعلقوا الفلز في أعناق الخنازير ” . يريد تعليم الفقه من ليس من  
أهله . وقد قال سحنون : إن حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص إنما جاء في الشهادة . قال  
ابن العربي : والصحيح خلافه ؛ لأن في الحديث ” من سئل عن علم ” ولم يقل عن شهادة ،  
والبقاء على الظاهر ، حتى يرد عليه ما يزيله . والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : ( مِنْ آلِ بَنِي نَافِثٍ وَآلِ مَدْيَنَ ) بم المنصوص عليه والمستنيط  
لشؤل اسم المدي للجمع . وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد ؛ لأنه لا يجب عليه  
البيان إلا وقد وجب قبول قوله . وقال : ( إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا ) حكم بوقوع  
البيان بغيرهم .

فإن قيل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منيا عن الكتمان ومأمورا بالبيان ليكثر  
المخبرون ويتواتر بهم الخبر . قلت : هذا غلط لأنهم لم ينهوا عن الكتمان إلا وهم ممن يجوز  
عليهم التواطؤ عليه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان فلا يكون خبرهم موجبا للعلم . والله  
تعالى أعلم .

الرابعة - لما قال : ( مِنْ آلِ بَنِي نَافِثٍ وَآلِ مَدْيَنَ ) دل على أن ما كان من غير ذلك جائز  
كتسه ، لاسيما إن كان مع ذلك خوف فإن ذلك أكد في الكتمان ؛ وقد ترك أبو هريرة ذلك  
حين خاف فقال : حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين ، فأما أحدهما فبسته ، وأما

الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم . أخرجه البخاري . قال أبو عبد الله : البلعوم مجرى الطعام قال مسلمونا : وهذا الذي لم يثنه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل ، إنما هو مما يتعلق بأمر الفتن . والنص على أعيان المرتدين والمنافقين ونحو هذا مما لا يتعلق بالبيئات والمهدى . والله تعالى أعلم .

الخامسة - قوله تعالى : ( مِنْ بَعْدِ مَا يَنْتَهِى ) الكفاية في « بيانه » ترجع إلى ما أنزل من البيئات والمهدى . والكاتب اسم جنس ، والمراد جميع الكتب المنزلة .

السادسة - قوله تعالى : ( أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ) أى يبرأ منهم ويعصمهم من ثوابه ويقول لهم : طمأنيتى ، كما قال لقين : عليك لعنتى . وأصل اللعن فى اللغة الإبعاد والطرد . وقد تقدم .

السابعة - قوله تعالى : ( وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ) . قال قتادة والزبيح : المراد باللاعنون الملائكة والمؤمنون . قال ابن عطية : وهذا واضح جار على مقتضى الكلام . وقال مجاهد وعكرمة : هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجذب بذنوب علماء سوء الكافرين فيلعنونه . قال الزجاج : والصواب قول من قال : اللاعنون ، الملائكة والمؤمنون ، فلما أن يكون ذلك لدواب الأرض فلا يوقف على حقيقة إلا ينص أو خبر لازم ولم نجد من ذنبك شيئا .

قلت : قد جاء بذلك خبر رواه البراء بن عازب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ( يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ) . قال : « دواب الأرض » . أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح أنباء عمار بن محمد عن ليث عن أبى المنهال عن زاذان عن البراء باسناد حسن .

فإن قيل : كيف جمع من لا يقل جمع من يقل . قيل : لأنه أسند إليهم فصل من يقل ، كما قال : ( وَأَيُّهُمْ لِي مَاجِدِينَ ) . ولم يقل ساجدات ، وقد قال : ( لَمْ تَسْجُدْ طَيْبًا ) . وقال : ( وَتَرَأَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ) . ومنه كثير وسيأتى أن شاء الله تعالى .

(١) أبو عبد الله ، كنية البخارى رضى الله عنه .

وقال البراء بن عازب وابن عباس: الايعون كل المخاوف ما عدا التلخين: الجن والانس؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الكافر إذا ضرب في قبره فصاح صممه الكل إلا التلخين ولمنه كل سامع". وقال ابن مسعود والسدي: هو الرجل يلحن صاحبه قرتفع اللمة إلى السماء ترجع ثم تحدر فلا تجد صاحبها الذي قبلت فيه أهلاً لذلك، يرجع إلى الذي تكلم بها فلا تجده أهلاً فتطلق فتقع على اليهود الذين كثموا ما أنزل الله تعالى؛ فهو قوله: ﴿وَيَلْمُهُمُ الْآيُونَ﴾ فمن مات منهم ارتفعت اللمة عنه فكانت فيمن بقى من اليهود.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثنى تعالى التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم للمنيبين لتوبتهم. ولا يكفي في التوبة عند علمائنا قول القائل: قد تبت؛ حتى يظهر منه في الثاني خلاف الأول؛ فإن كان مرتباً رجع إلى الاسلام مظهراً شرائعه، وإن كان من أهل المعاصي ظهر منه العمل الصالح، وجانب أهل الفساد والأحوال التي كان عليها. وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وتخالط أهل الإسلام، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه. وسيأتي بيان التوبة وأحكامها في النساء إن شاء الله تعالى. وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَيَتُوبُوا﴾ أي بكسر الخمر وإراقها. وقيل: يتوبوا يعني ما في التوراة من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ووجوب اتباعه. والمعموم أولى على ما بيناه، أي يتوبوا خلاف ما كانوا عليه؛ والله تعالى أعلم. ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. تقدم والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الآية. فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَمَمَّ كُفَّارٌ﴾ الواو واو الحال. قال ابن العربي: قال لي: ير من أشتاخي إن الكافر الممين لا يجوز له؛ لأن حاله عند الوفاة لا تعلم، وقد شرط الله تعالى في هذه الآية في إطلاق اللمة: الوفاة على الكفر؛ وأما ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لمن أقواماً باعيتهم من الكفار فإنما كان ذلك لعلمه بأعلم. قال ابن العربي: والصحيح عندى جواز لمة لظاهر حاله ولجواز قتله وقتاله؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اللهم إن عمرو بن العاص هجاني وقد علم أني لست بشاعر فألمته واجهه عدد

ما هجاني . قلته وإن كان الإيمان والدين والإسلام ماله . وأتصف بقوله : " عدد ما هجاني " ولم يزد ليعلم العدل والإنصاف ، وأضاف المجدو إلى الله تعالى في باب الجزاء ، دون الابتداء بالوصف بذلك ؛ كما يضاف إليه المكر والاستهزاء والخديعة . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون ملأوا كثيرا .

قلت : أما لمن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف في ذلك ؛ لما رواه مالك عن داود ابن الحصين أنه سمع الأعرج يقول : ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان . قال لماؤنا : ومساء كانت لهم ذمة أم لم تكن ، وليس ذلك بواجب ، ولكنه مباح لمن فعله ؛ لمعلم الحق وعداوتهم للذين وأهله . وكذلك كل من جاهر بالمعاصي كشرب الخمر وأكل الربا ، ومن تشبه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء ، إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث عنه .

الثانية — ليس لمن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر ؛ بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره ؛ كان الكافر ميتا أو مجنونا . وقال قوم من السلف : إنه لا فائدة في لعن من جُن أو مات منهم ، لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر ، فإنه لا يثأر به .

والمراد بالآية على هذا المعنى أن الناس يلعنونه يوم القيامة لثأر بذلك وتضرر ويتألم قلبه ؛ فيكون ذلك جزاء على كفره ؛ كما قال تعالى : ( ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّسَمِئَاتِهِمْ بِمَعْصِيَةٍ ) . ويدل على هذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن الله تعالى بلعنهم ، لا على الأمر . وذكر ابن العربي أن لعن المعاصي لا يجوز إتفاقا ؛ لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى يشارب نحر مرارا ، فقال بعض من حضره : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تكونوا عون الشيطان على أخيك " فجعل له حرمة الأخوة ؛ وهذا يوجب الشفقة ، وهذا حديث صحيح .

قلت : أخرجه البخاري ومسلم . وقد ذكر بعض العلماء خلافا في لمن العاصي الميعن ؛ قال : وإنما قال عليه السلام : " لا تكونوا عون الشيطان على أخيك " . في حق تيمان<sup>(١)</sup> بعد إقامة الحد عليه ؛ ومن أقيم عليه حد الله تعالى فلا يبنى لئنه ، ومن لم يبق عليه الحد فليسته جائزة سواء سئى أو عيّن أم لا ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلحن إلا من تجب عليه اللعنة مادام على تلك الحالة المرجية للعين ؛ فإذا تاب منها وأطع وطهره الحد فلا لعنة تتوجه عليه . وبين هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا زنت أمة أحكم فليجلدها الحد ولا يثريب " . فدل هذا الحديث مع صحته على أن التريب واللعن إنما يكون قبل أخذ الحد وقبل التوبة . والله تعالى أعلم .

قال ابن العربي : وأما لمن العاصي مطلقا فيجوز إجماعا لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لمن الله السارق يسرق البيضة تقطع يده " .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ ظَنِمَ لَنَسَةِ اللَّهِ ﴾ أى إعدامهم من رحمته . وأصل اللعن الطرد والإبعاد ؛ وقد خدم . فاللعنة : من المباد الطرد ، ومن الله العذاب ، وقرا الحسن البصري « والملائكة والناس أجمعون » بالرفع . وتأويلها أولئك جزاؤهم أن يلعنهم الله ويلعنهم الملائكة ويلعنهم الناس أجمعون ؛ كما تقول : كرهت قيام زيد وعمرو وخالد ؛ لأن المعنى : كرهت أن قام زيد . وقراءة الحسن هذه غالبة للأصاحف .

فإن قيل : ليس يلعنهم جميع الناس لأن قومهم لا يلعنونهم . قيل عن هذا ثلاثة أجوبة ؛ أحدها — أن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لئنه الناس تنليها لحكم الأكثر على الأقل . الثاني — قال السدي : كل أحد يلحن الظالم ، وإذا لحن الكافر الظالم فقد لحن نفسه . الثالث — قال أبو العالقة : المراد به يوم القيامة يلعنهم قومهم مع جميع الناس ؛ كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَئِن بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ . ثم قال جل وعز :

(١) تيمان (مصر) هرازين مبرورين وقاعة . عبد الحق ويدر والشاهد بعدا . وكان كثير الزنا ، يمشك النبي صلى الله عليه وسلم من مزاحه . (عن أحمد الطائي) .

(حَالِدِينَ فِيهَا) يعني في اللعنة، أى في جزائها . وقيل : خلودهم في اللعنة أنها موزنة عليهم .  
(وَلَا يَمُوتُ يَتُفَكَّرُونَ) أى لا يؤخرون عن السذاب وقتا من الأوقات . وغالدين نصب على الحال من الماء والميم في عليهم ؛ والمعامل فيه الظرف من قوله : (عَلِيمٌ) لأن فيها استمرار اللعنة .

قوله تعالى : (وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) فيه مستثنان :

الأولى — قوله تعالى : (وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ) لما حذر تعالى من كتمان الحق من أن أقل ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان ، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع ؛ ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء . قال ابن عباس رضى الله عنهما : قالت كفار قريش : يا عبد آتسب لنا ربك ؛ فأنزل الله تعالى سورة الاخلاص وهذه الآية . وكان للشركيين ثمانية وستون صنفا فين الله أنه واحد .

الثانية — قوله تعالى : (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) حتى وإثبات، أولا كفو وآخرها إيمان، ومما لا معبود إلا الله . وحكى عن التثنية رحمه الله تعالى أنه كان يقول : الله . ولا يقول : لا إله ؛ فستل عن ذلك فقال : أخشى أن أخذ في كلمة الجحود ولا أصل الى كلمة الإقرار .

قلت : وهذا من علومهم الدقيقة، التي ليست لما حقيقة؛ فإن الله جل اسمه ذكر هذا المعنى في كتابه نفيا وإثباتا وكرره، ووعد بالتواب الجزيل لقائله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ نخرجه الموطأ والبخارى ومسلم وغيرهم . وقال صلى الله عليه وسلم : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " . نخرجه مسلم . والمقصود القلب لا اللسان ؛ فلو قال : لا إله ومات ومعتقده وضيمه الرحنانية وما يجب له من الصفات لكان من أهل الجنة باتفاق أهل السنة . وقد أتينا على معنى أسم الواحد ، ولا إله إلا هو الرحمن الرحيم في الكتاب « الأسنى »، في شرح أسماء الله الحسنى ، والحمد لله .

قوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الى قوله : (يَقُولُونَ) فيه

أربع عشرة مسألة :

الأولى - قال عطاء : لما نزلت ( وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ) قالت كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ! فنزلت ( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) . رواه سفيان عن أبيه عن أبي الضحى قال : لما نزلت ( وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ) قالوا : هل من دليل على ذلك ؟ فانزل الله تعالى ( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) فكانهم طلبوا آية فين لم دليل التوحيد وأن هذا العالم والبناء العجيب لا بد له من إله وصانع . وجمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى . ووجد الأرض لأنها كلها تراب ؛ والله تعالى أعلم .

فأية السموات ارتفاعها بنير عمد من تحتها ولا علاتي من فوقها ؛ يدل ذلك على القدرة وخرق العادة . ولو جاء نبي فتحدى بوقوف جبل في الهواء دون علاقة كان معجزا . ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وفاربة ، نيرة ومحمّزة آية ثانية . وآية الأرض بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها وعمرها .

الثانية - قوله تعالى : ( وَأَخْلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ) قيل : اختلافهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر من حيث لا يعلم . وقيل : اختلافهما في الأوصاف من التور والغلظة والطول والقصر . والليل جمع ليلة ؛ مثل ثمرة وتمرة ونخلة ونخل . ويجمع أيضا ليل إلى ليل ، وهو مما شذ عن قياس الجموع ؛ كشبه ومشابه وساجدة وحوائج وذكر ومذاكر ؛ وكان ليل إلى في القياس جمع ليلاة . وقد استعملوا ذلك في الشعر قال :

• في كل يوم وكل ليلة •

وقال آخر :

في كل يوم ما وكل ليلاه • حتى يسول كل رائد إذ رآه •

• يورثه من أجل ما أشقاه •

قال ابن فارس في الجمل : ويقال إن بعض الطير يسمى ليلاء ؛ ولا أعرفه . والنهار يجمع نهر وأنهره . قال أحمد بن يحيى ثعلب : نهر جمع نهر وهو جمع للنهار . وقيل : النهار اسم

(١) في لسان العرب أن الليل فرخ الكروان .



مفرد لم يحس لأنه بمعنى المصدر؛ كقواك : الضياء ؛ يقع على القليل والكثير . والأول أكثر ؛ قال الشاعر :

لولا القريدان هلكا بالضمّر • تريدُ لئلا وتريدُ بالتهسر

قال ابن فارس : التهر معروف ، والجمع نهروا نهار . ويقال : إن النهار يحس على التهر . والنهار ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس . ورجل نهرٌ صاحب نهار . وقال : إن النهار فرخ الجبارى . قال النضر بن شميل : أول النهار طلوع الشمس ، ولا يعد ما قبل ذلك من النهار . وقال ثعلب : أوله عند الغروب طلوع الشمس ؛ واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت :

والشمس تطلع كل آخر ليلة • حمراء يصبح لونها يتوزد

وأشد قول عدي بن زيد :

ويجاءل الشمس يمصرًا لا غداة • بين النهار وبين الليل قد فصلًا

وأشد الكافي :

إنما طلعت شمس النهار فلها • أماره قبلي طيك فلي

قال الزجاج في كتاب الأتواء : أول النهار ذرور الشمس . وقسم ابن الأنباري الزمن ثلاثة أقسام : فبما جعله ليلًا محضًا ؛ وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وبما جعله نهارًا محضًا ؛ وهو من طلوع الشمس إلى غروبها . وبما جعله مشتركًا بين النهار والليل ؛ وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس بقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار .

قلت : والصحيح أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ؛ كما رواه ابن فارس في الجمل . يدل عليه ما ثبت في صحيح مسلم عن عدي بن حاتم قال : لما نزلت ( حَتَّى تَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ) قال له عدي : يا رسول الله ، إنى أجعل تحت وسادتي عقابين : عقابا أبيض ، وعقابا أسود أعرف بهما الليل من النهار . فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن سادك لمريض إنما هو سواد الليل وبياض النهار".  
فهذا الحديث يقضى أن التهاور من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ؛ وهو مقتضى الفقه  
في الأيمان ، وبه ترتبط الأحكام . فمن حلف ألا يكلم فلانا نهارا ؛ فكله قبل طلوع الشمس  
احتسب . وعلى الأول لا يحتسب . وقول النبي صلى الله عليه وسلم هو الفصيل في ذلك والحكم .  
وأما على ظاهر اللغة وأخذ من السمة ، فهو من وقت الإسفار إذا اتسع ، وقت النهار ؛ كما قال :  
ملككت بها كفى فانهرت فقها . يرى قائم من دونها ما ورامها

وقد جاء عن حذيفة ما يدل على هذا القول ؛ نثره النسائي . وسياق في آي الصيام  
إن شاء الله تعالى .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَأَنَّكَ الْبَاقِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ ) الفلك : السفن ، وإفراده  
وجمعه بلفظ واحد ، ويدكر ويؤنث . وليست الحركات في المفرد تك بأعينها في الجمع ،  
بل كأنه بنى الجمع بناء آخر ؛ يدل على ذلك توسط التنوين في قولهم : فُلُكُن . والفلك المفرد  
مذكر ، قال الله تعالى : ( فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ) بقاء به مذكرا . وقال : ( وَأَنَّكَ الْبَاقِي تَجْرَى  
فِي الْبَحْرِ ) فأنث . ويحمل واحدا وجمعا . وقال : ( حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ  
بِخَمْعٍ ، فَكَانَهُ يَذْهَبُ بِهَا إِذَا كَانَتْ وَاحِدَةً إِلَى الْمَرْكَبِ فَيَذْكُرُ ، وَإِلَى السَّفِينَةِ فَيُؤْنِثُ . وَقِيلَ :  
وَاحِدَهُ فُلْكَ ، مِثْلُ أُنْدٍ وَأُنْثَى ، وَخَشَبٌ وَخَشْبٌ .

وأصله من الدوران ؛ ومنه : فلك السماء الذي تدور عليه النجوم . وفُلُكْتُ الجارية :  
استدارت لها ؛ ومنه فُلُكْتُ المَرْوَل . وسُميت السفينة فُلْكا لأنها تدور بالماء سهل دور ؛

وجه الآية في الفلك تسخير الله إياها حتى تجرى على وجه الماء ووقوفها فوقه مع قلها .  
وأول من عملها نوح عليه السلام كما أخبر تعالى ؛ وقال له جبريل : اجلسها على جَوْجِ الطَّائِرِ ؛  
فعملها نوح عليه السلام وراثة في العالمين بما أراه جبريل . والسفينة طائر مقلوب والماء  
في أسفلها فظهر الهواء في أعلاها . قاله ابن العربي .

الراية - هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة كان أو عبادة ؛ كالبحر والجهاد . ومن السنة حديث أبي هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، هل نلحفه . وحديث أنس بن مالك في قصة أم حرام ؛ أن نرحبهما الأثمة : مالك وغيره . وروى حديث أنس عنه جماعة عن إسماعيل بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس ، ورواه بشر بن عمر عن مالك عن إسماعيل عن أنس عن أم حرام . جملة من مستد أم حرام لا من مستد أنس . وهكذا حدث عنه به بنادر محمد بن بشر ؛ فقيه دليل واضح على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء . وإذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للحج المقترض أولى وأوجب . وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما المنع من ركوبه . والقرآن والسنة يرد هذا القول ؛ ولو كانت ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم الذين قالوا له : إنا نركب البحر . وهذه الآية وما كان مثلها نص في الفرض واليه المقتضى . وقد تقول ما روى عن العمرين في ذلك : بأن ذلك محمول على الاحتياط وترك التفرير بالمهيج في طلب الدنيا والاستكثار منها . وأما في أداء الفرائض فلا . ومما يدل على جواز ركوبه من جهة المعنى أن الله تعالى ضرب البحر وسط الأرض وجعل الخلق في السدوتين<sup>(١)</sup> ، وقسم المنافع بين الجهتين فلا يوصل إلى جلبها إلا بشق البحر لها ؛ فسهل الله سبيله بالفتك . قاله ابن العزى . قال أبو عمر : وقد كان مالك يكره المرأة الحج في البحر وهو للجهاد لذلك أكرهه . والقرآن والسنة ترد قوله ، إلا أن بعض أصحابنا من أهل البصرة قال : إنما كره مالك لأن السفن بالجهاز صغار ، والنساء لا يقدرن على الاستكثار عند الخلاء فيها لضيقها وتراحم الناس فيها ؛ وكان الطريق من المدينة إلى مكة على البحر ممكنا ؛ فلذلك كره مالك ذلك . وأما السفن الكبار نحو سفن أهل البصرة فليس بذلك بأس . قال : والأصل أن الحج على كل

من استطاع اليه سبيلا من الأحرار البالغين نساء كانوا أو رجلا إذا كان الأغلب من الطريق الأمن، ولم يحص بحرا من بحر.

قلت : فدل الكتاب والسنة والمعنى على إباحة ركوبه للنعين جميعا : العبادة والتجارة ؛ فهي المحبة وفيها الأسوة ؛ إلا أنه الناس في ركوب البحر تختلف أحوالهم ؛ فرب راكب سهل عليه ذلك ولا يشق ، وآخر يشق عليه ويضغف به ؛ كالكلمة المفرط المبد ، ومن لم يقدر معه على أداء فرض الصلاة ونحوها من الفرائض ؛ فلاؤل ذلك له جائز ، والثاني يحرم عليه ويمح منه . ولا خلاف بين أهل العلم وهي :

الخامسة - إن البحر إذا ارجح لم يميز ركوبه لأحد بوجه من الوجوه في حين ارجاحه ولا في الزمن الذي الأغلب فيه عدم السلامة . وإنما يجوز عندهم ركوبه في زمن تكون السلامة فيه الأغلب ؛ فان الذين يركبونه حال السلامة ويخون لا حاصر لهم ، والذين يهلكون فيه محصورون .

السادسة - قوله تعالى : ( وَمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ) أى بالذى ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التى تصلح بها أحوالهم . ويركوب البحر نكتسب الأرباح ، وينفع من يحمل إليه المنافع أيضا . وقد قال بعض من طعن فى الذين : إن الله تعالى يقول فى كتابكم : ( مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ) فإين ذكر التوابل المصلحة للطعام من الملح والفلفل وغير ذلك . فقليل له فى قوله : ( وَمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ) .

السابعة - قوله تعالى : ( وَمَا أَرْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ ) يعنى بها الأمطار التى بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق ، وجعل منه المنزول عنة للاسفاف فى غير وقت نزوله ؛ كما قال تعالى : ( فَاسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ ) .

الثامنة - قوله تعالى : ( وَبَيْنَ فِيمَنْ يَمُكِّلُ دَابَّةً ) أى فرق : نشر ؛ ومنه ( كَأَنَّا نُرِيشَ الْجَبُوتِ ) . ودابة تجمع الحيوان كله . وقد أخرج بعض الناس : أنه ربه وهو محدود ، قال الله

(١) المائدة : الذى يركب البحر حتى يصاد به ويكاد ينش عليه .

تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ فإن الطير يذب على رجله في بعض حالاته ؛ قال الأعشى :

• دَيْبَ قَطَا الْبَطْعَاءِ فِي كُلِّ مَثَلٍ •

وقال علقمة بن جعدة :

• صَوَاعِقُهَا لَطَّيْعِينَ دَيْبٍ •

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ ﴾ تصريفها إرسالها عقبا ومقلعة وصرًا ونصرًا وهلاكًا وحارة وباردة ولينة وعاصفة . وقيل : تصريفها إرسالها جنوبًا وشمالًا ودبورًا وصبا ونكلا : وهي التي تأتي بين مهي ريحين . وقيل : تصريفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها ، والصغار كذلك ؛ ويصرف عنها ما يضرهما ، ولا اعتبار يكبر القلوع ولا صغرها ؛ فإن الريح لو جانت جسدا واحدا لصدمت القلوع وأغرقت . والرياح جمع ريح سميت به لأنها تأتي بالروح غالبا ؛ روى أبو داود عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسئلوها الله خيرها واستغيثوا بالله من شرها " . وأخرجه أيضا ابن ماجه في سننه حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة حدثنا يحيى بن سعيد عن الأوزاعي عن الزهري حدثنا ثابت الزرقى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها " . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تسبوا الريح فإنها من قس الرحمن " . والمعنى أن الله تعالى جعل فيها التفرج والتنفيس والترويح ؛ والإضافة من طريق التعليل ، والمعنى : أن الله تعالى جعلها كذلك . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلِكْتُ عَادَ بِالْدُّبُورِ " . وهذا مضى ماجاه في الخبر أن الله

(١) كما روى في سنن أبي داود . وأما في الأصول : « الريح من روح الله » قال سلة : فروح الله مزوج . تأتي ... الخ . وسلة أحد من روى منهم أبو داود هذا الحديث ، قال أبو داود : حدثنا أحمد بن محمد المرزوقي سلة عن ابن قتيب قال ... الخ .

سبحانه وتعالى فرج عن نبيه صلى الله عليه وسلم بالريح يوم الأحزاب ؛ فقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُوشًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ . يقال : نفّس الله عن فلان كربة من كرب الدنيا ، أى فرج عنه . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : " من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة " . أى فرج عنه . وقال الشاعر :

كَأَنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَبَسَّمتْ • عَلَى قَلْبٍ مَهْمُومٍ تَجَلَّتْ مَهْمُومًا

قال ابن الأعرابي : النفس أولُ هبوب الريح . وأصل الريح روح ؛ ولها قيل فى جمع القلة : أرواح . ولا يقال : أرياح ؛ لأنها من ذوات الواو ، وإنما قيل : رايح من جهة الكثرة وطلب تناسب الياء معها . وفى مصحف حفصة « وتصريف الأرواح » .

العاشرة - قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفَ الرِّيَّاحِ ﴾ وقرا حمزة والكسائي « الريح » على الإفراد ، وكذا فى الأعراف والكهف وإبراهيم والنمل والروم وفاطر والشورى والجنات . لا خلاف بينهم فى ذلك . ووافقهما ابن كثير فى الأعراف والنمل والروم وفاطر والشورى . وأفرد حمزة « الريح لوائح » . وأفرد ابن كثير « وهو الذى أرسل الريح » فى الفرقان . وقرا الباقر بالجمع فى جميعها سوى الذى فى إبراهيم والشورى فلم يقرأهما بالجمع سوى نافع . ولم يختلف السبعة فيما سوى هذه المواضع . والذى ذكرناه فى الروم هو الثانى « الذى يرسل الرياح » . ولا خلاف بينهم فى « الرياح مبشرات » . وكان أبو جعفر يزيد بن القعقاع يحى الرياح إذا كان فيها ألف ولام فى جميع القرآن ؛ سوى « تهوى به الريح » و « الريح المقيم » . فأن لم يكن فيه ألف ولام أفرد . فمن وحد الريح فلاته اسم جنس يدل على القليل والكثير . ومن جمع فلاختلاف الجهات التى تهب منها الرياح . ومن جمع مع الريحه ووحد مع العذاب فإنه فعل ذلك اعتبارا بالأغلب فى القرآن ؛ نحو : « الرياح مبشرات » و « الريح المقيم » . فقامت فى القرآن مجموعة مع الريحه مفردة مع العذاب ؛ إلا فى يونس فى قوله : ﴿ وَجَحْرِينْ يَوْمَ يُسْفِكُ نَارُ السَّيْفِ ﴾ . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا هبت الريح : « اللهم

اجسامها رياحا ولا تجعلها ريحا " . وذلك لأن ريح العذاب شديدة مثمنة الأجزاء كأنها جسم واحد ، وريح الرحمة لبنة منقطعة فلذلك هي رياح . فافترت مع الفلك في يونس ؛ لأن ريح إجراء السفن إنما هي ريح واحدة متصلة ثم وصفت بالطيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح المذاب .

الحادية عشرة - قال العلماء : الريح تحرك الهواء ؛ وقد يشتد ويضعف . فإذا بدت حركة الهواء تجاه القبلة قيل لتلك الريح : « الصبا » . وإذا بدت حركة الهواء من وراء القبلة ذاهبة الى تجاه القبلة قيل لتلك الريح : « الدبور » . وإذا بدت حركة الهواء عن يمين القبلة ذاهبة الى يسارها قيل لها : « ربح الجنوب » . وإذا بدت حركة الهواء عن يسار القبلة ذاهبة الى يمينها قيل لها : « ربح الشمال » . ولكل واحدة من هذه الرياح طبع فتكون متفتحة بحسب طبعها ؛ فالصبا حارة يابسة ، والدبور باردة رطبة ، والجنوب حارة رطبة ، والشمال باردة يابسة . واختلاف طبعها كاختلاف طباع فصول السنة ؛ وذلك أن الله تعالى وضع للزمان أربعة فصول مرجعها الى تغير أحوال الهواء ؛ فجعل الربيع الذي هو أول الفصول حارا رطبا ، وربب فيه النشء والنمو فتزل فيه المياه ، وتخرج الأرض زهرتها وتظهر نباتها ، ويأخذ الناس في غرس الأشجار وكثير من الزرع ، وتولد فيه الحيوانات وتكثر الألبان . فإذا أفضى الربيع تلاء الصيف الذي هو مشا كل الربيع في إحدى طبيعته وهى الحرارة ، وبما ين له فى الأخرى وهى الرطوبة ؛ لأن الهواء فى الصيف حار يابس فتضج فيه الثمار وتيس فيه الحبوب المزروعة فى الربيع . فإذا أفضى الصيف تبعه الخريف الذى هو مشا كل الصيف فى إحدى طبيعته وهى البس ، وبما ين له فى الأخرى وهى الحرارة ؛ لأن الهواء فى الخريف بارد يابس فيتأخر فيه صلاح الثمار وتيسر فى تقصير الى حال الادخار فتطف الثمار ويحصد الأعشاب وتخرج من جمها الأشجار . فإذا أفضى الخريف تلاء الشتاء وهو ملامم الخريف فى إحدى طبيعته وهى البرودة ، وبما ين له فى الأخرى وهو البس ؛ لأن الهواء فى الشتاء بارد رطب فتكثر الأمطار والتلوج وتهب الأرض كالسند المستريح

فلا تحرك إلى أن يبد الله تبارك وتعالى إليها حرارة الريح ؛ فإذا اجتمعت مع الرطوبة كان ذلك عيد النشء والنشء ياذن الله سبحانه وتعالى . وقد تهب رياح كثيرة سوى ما ذكرنا إلا أن الأصول هذه الأربعة . فكل ربح تهب بين ريحين فحكمها حكم الريح التي تكون في هبوبها أقرب إلى مكانها وتسمى «النكباء» .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ( **وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ) سُمي السحاب سحابا لانسحابه في الهواء . وصحبت ذيل سحبا . وتسحب فلان على فلان : اجترأ . والسحب شدة الأكل والشرب . والمسخر : المذل ؛ وتسخيره بئنه من مكان إلى آخر . وقيل : تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق ؛ والأول أظهر . وقد يكون بقاء وبغذاب ؛ روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بيننا رجل بغلاة من الأرض فسمع صوتا في سحابة أنشأ حديقة فلان فتتجى ذلك السحاب فأفرغ مائه في حرة فإذا شرية من تلك الشراب قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمحاطته فقال له يا عبد الله ما اسمك قال فلان للاسم الذي سمع في السحابة فقال له يا عبد الله لم تسألني عن اسمي فقال إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول أنشأ حديقة فلان لاسمك فأتبعني [فيها] قال أنا إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فانصتق بلكه وأكل أنا وعبادتنا وأرد فيها ثلثه . وفي رواية "وأجمل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل" . وفي الترمذي : ( **وَاللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُبْرِئُ السَّحَابَ فَتُسْقَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ** ) وقال : ( **حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِمَالٍ أُسْقَاهُ لِأَبْنٍ مَيِّتٍ** ) . وهو في الترمذي كثير . وخبرج ابن ماجه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى سحبا مقبلا من أنق من الآفاق ترك ما هو فيه وإن كان في صلاة حتى يستقبله فيقول : " اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أوصل به " فان أمطر قال : " اللهم سيئا فاقما " مرتين أو ثلاثا ، وإن كشفه الله ولم يطر حمد الله على ذلك . أخرجه مسلم عنه عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) المرة : أرض ذات أجار سود . والشرية : طريق للماء وسيله . (٢) الزيادة من صحيح مسلم .



الله عليه وسلم إذا كان يوم الريح والقيم عرف ذلك في وجهه وأقبل وأدبر؛ فإذا مطرت سُرَّ به ونهب عنه ذلك . قالت عائشة : فسأله فقال : " إني خشيت أن يكون عذابا سُلْطَ على أمي " . ويقول إذا رأى المطر : " رحمة " في رواية فقال : " لله يا عائشة كما قال قوم ماد فلما رأوه عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا " . فهذه الأحاديث والآي تدل على صحة القول الأول وأن تسخيرها ليس ثبوتها والله تعالى أعلم .

فإن الثبوت يدل على عدم الاستقال . فإن أريد بالثبوت كونها في الهواء ليست في السماء ولا في الأرض فصحيح لقوله : ( يَنْ ) وهي مع ذلك مسخرة محمولة . وذلك أعظم في القدرة كالطير في الهواء ؛ قال الله تعالى : ( أَلَمْ يَرْوِ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمِيسُكُنَّ إِلَّا اللَّهُ ) . وقال : ( أَلَمْ يَرْوِ إِلَى الطَّيْرِ قُوَّةَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمِيسُكُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ) .

الثالثة عشرة — قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ، لولا السحاب حين يترل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض . رواه عبد الله بن عباس . ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن علي عن معاذ بن عبد الله بن حبيب الجهمي قال : رأيت ابن عباس مرة على بنية وأنا في بني سلمة فتربه يتبع ابن امرأة كعب فسلم على ابن عباس فسأله ابن عباس : هل سمعت كعب الأحبار يقول في السحاب شيئا ؟ قال : نعم ؛ قال : السحاب غربال المطر ؛ لولا السحاب حين يترل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض . قال : سمعت كعبا يقول في الأرض تبت العام نباتا وتبت عاما قابلا غيره ؟ قال : نعم ، سمعته يقول : إن البذر يترل من السماء . قال ابن عباس : وقد سمعت ذلك من كعب .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ( لَا يَأْتِ ) أي دلالات تدل على وسلايته وقدرته ؛ ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله : ( وَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ ) ليدل بها على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وسلايته سبحانه وذكر رحته وبرأته بخلقته . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ويل لمن قرأ هذه الآية فجح بها " أي لم يتفكر فيها ولم يتبرها .

فإن قيل : قبا أنكرت أنها أحدثت نفسها . قيل له : هذا محال ؛ لأنها لو أحدثت  
 نفسها لم تحل من أن تكون أحدثتها وهي موجودة أو هي معدومة . فإن أحدثتها وهي  
 معدومة ، كان محالا ؛ لأن الإحداث لا يتأتى إلا من شيء عالم قادر مريد ، وما ليس بوجود  
 لا يصح وصفه بذلك . وإن كانت موجودة فوجودها يفتى عن إحداث نفسها . وأيضا فلو  
 جاز ما قالوه لجاز أن يحدث البناء نفسه ؛ وكذلك التجارة والنسج . وذلك محال وما أدى إلى  
 المحال محال . ثم أن الله تعالى لم يقتصر بها في وحدانيته على مجرد الإخبار حتى قرن ذلك بالنظر  
 والاعتبار في آي القرآن ؛ فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ .  
 والخطاب للكفار ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال :  
 ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يسئ بالملوك والآيات . وقال :  
 ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يقول : أو لم ينظروا في ذلك نظر تفكر وتدبر حتى يستدلوا  
 بكونها محلا للحوادث والتغيرات على أنها محدثات والمحدث لا يستغنى عن صانع يصنعه وأن  
 ذلك الصانع حكيم عالم قدير سميع بصير متكلم ؛ لأن لو لم يكن بهذه الصفات لكان الإنسان  
 أكل منه وذلك محال . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ يعنى آدم  
 عليه السلام . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ أى جعلنا نسله وذريته ﴿ نُفُوقَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ إلى قوله :  
 ﴿ تَبْتَلُونَ ﴾ . فالإنسان إذا تفكر بهذا التنبيه بما جعل له من العقل في نفسه رأها مدبرة وعلى  
 أحوال شتى مصرفة . كانت نفقة ثم عقة ثم مضغة ثم لحما وعظا ؛ فيعلم أنه لم ينقل نفسه  
 من حال النقص إلى حال الكمال ؛ لأنه لا يقدر على أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل التي  
 هي كمال عقله وبلوغ أشده بعضوا من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة ؛  
 فبذلك على أنه في حال نقصه ولوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز ، وقد يرى نفسه شابا  
 ثم كهلا ثم شيخا وهو لم يتغير بنفسه من حال الشباب والقوة إلى حال الشيخوخة والهرم ،  
 ولا اختاره لنفسه ولا في وسمه أن يزائل حال الشباب ويراجع قوة الشباب ؛ فيعلم بذلك أنه  
 ليس هو الذي فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعا صنعه وناظرا تعلقه من حال إلى حال ؛

ولولا ذلك لم يتبدل أحواله بلا تأمل ولا مدبر . وقال بعض الحكماء : إن كل شيء في العالم الكبير له نظير في العالم الصغير الذي هو بدن الإنسان ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . فحواس الإنسان أشرف من الكواكب المضيئة ، والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر في إدراك المدركات بها ، وأعضاؤه تصير عند البلى ترابا من جنس الأرض . وفيه من جنس الماء العرق وسائر طوبات البدن . ومن جنس الهواء فيه الروح والنفس . ومن جنس النار فيه التوة الصفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار في الأرض . وكيده بمنزلة العيون التي تستمد منها الأنهار ؛ لأن المروق تستمد من الكبد . ومثاقبه بمنزلة البحر ؛ لانصباب ما في أوعية البدن إليها كما تنصب الأنهار إلى البحر . وعظامه بمنزلة الجبال التي هي أوتاد الأرض . وأعضاؤه كالأشجار كما أن لكل شجر ورقا أو ثمرًا فكذلك لكل عضو فعل أو أثر . والشعر على البدن بمنزلة النباتات والحشيش على الأرض . ثم إن الإنسان يحكي بلسانه كل صوت حيوان ويحاكي بأعضائه صنع كل حيوان ؛ فهو العالم الصغير مع العالم الكبير مخلوق بعثت لصانع واحد ؛ لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ يَخُذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾ الآية . لما أخبر الله سبحانه وتعالى في الآية قبل ما دل على وحدانيته وقدرته وعظم سلطانه أخبر أن مع هذه الآيات القاهرة لدوى العقول من يتخذ معه أندادا . وواحدها ند . وقد تقدم . والمراد الأوثان والأصنام التي كانوا يعبدونها كعبادة الله مع عجزها ؛ قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ أى يحبون أصنامهم على الباطل كحب المؤمنين لله على الحق ؛ قاله المبرد . وقال معناه الزجاج ، أى أنهم مع عجز الأصنام يحبونهم كحب المؤمنين لله على الحق مع قدرته . وقال ابن عباس والسدي : المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون ؛ يطيعونهم في ما سوى الله . وجاء الضمير في « يحبونهم » على هذا على الأصل ، وعلى الأول جاء ضمير الأصنام ؛ ضمير من يعقل على غير الأصل . وقال ابن كيسان والزجاج أيضا : معنى « يحبونهم كحب الله » أى يسوون بين الأصنام وبين الله تعالى في المحبة . قال أبو إسحاق : وهذا القول الصحيح ؛

والدليل على صحته : ( وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ) وقرا أبو رجا « يحبونهم » فتح الياء .  
وكذلك ما كان منه في القرآن ، وهي لغة ؛ يقال : حبيت الرجل فهو محبوب . قال الفراء :  
أشدني أبو تراب :

أحبَّ لحبها السودان حتى • حبيت لحبها سود الكلاب

ومن ، في قوله : ( مَنْ يَتَّخِذْ ) في موضع رفع بالابتداء . ويتخذ على اللفظ ، ويجوز في غير  
القرآن « يتخذون » على المعنى . ويحبونهم على المعنى ، ويعبهم على اللفظ ، وهو في موضع  
نصب على الحال من الضمير الذي في يتخذ ، أى محبين . وإن شئت كان نعتا للاعتداد ،  
أى محبوبة . والكاف من « كتب » نعت لمصدر محذوف ، أى يحبونهم حبا كتب الله .  
( وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ) أى أشد من حب أهل الأوثان لأوثانهم والتابعين لمبتوعهم .  
وقيل : إنما قال ( وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ) لأن الله تعالى أحبهم ، أولائهم أحبه .  
ومن شهد له محبوه بالحب كانت محبة أئم ، قال الله تعالى : ( يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوهُ ) . وسيأتى  
بيان حب المؤمنين لله وجهه لهم في سورة آل عمران إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ ) قراءة أهل المدينة وأهل الشام  
بالتاء ، وأهل مكة وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء ، وهو اختيار أبي عبيد . وفي الآية إشكال  
وحذف ؛ فقال أبو عبيد : المعنى لو يرى الذين ظلموا في الدنيا عذاب الآخرة لعلوا حين  
يرونه أن القوة لله جميعا . و « يرى » على هذا من رؤية البصر . قال النحاس في كتاب  
« معاني القرآن » له : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير . وقال في كتاب « إعراب القرآن »  
له : وروى عن محمد بن يزيد أنه قال : هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد وليس عبارة  
فيه بالجملة ؛ لأنه يقدر : ولو يرى الذين ظلموا العذاب ؛ فكأنه يجعله مشكوكا فيه وقد أوجبه  
الله تعالى . ولكن التفسير وهو قول الأخفش : : ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله . ويرى  
بمعنى يعلم ، أى لو يعلمون حقيقة قوة الله عز وجل وشدة عذابه . فىرى واضحة على أن القوة  
الله ؛ وشئت من المفعولين : والذين فاعل يرى . وجواب لو محذوف ، أى يتبينوا ضرر

اتخاذهم الآلهة كما قال عز وجل . ( وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ) ( وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا ) ومثله قول القتال : لو رأى فلان فلانا والسياط تأخذه ! ومن قرأ بالناء بالقدير : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم واستغاثهم لأثروا أن القوة لله . فالجواب مضمّر على هذا النحو من المعنى وهو العامل في أن . وتحذير آخر : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعا . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم علم ذلك ، ولكن خوطب والمراد أمته ، فإن فهم من يحتاج إلى حقوة علمه بمشاهدة مثل هذا . ويموز أن يكون المعنى : قل يا محمد للظالم هذا . وقيل : أن في موضع نصب مفعول من أجله ، أي لأن القوة لله جميعا . وأشد سبويه :

وأغفر عوراء الكريم آذخاره . وأمرض عن شتم اللئيم تكرا

أي لآذخاره ، والمعنى : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولاستعظمت ما حل بهم . ودخلت « إذ » وهي لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريرا للأمر وتصحيحا لوقوعه . وقرأ ابن عامر وعده « يرون » بضم الياء ، والباقيون بفتحها . وقرأ الحسن ويعقوب وشيبة وسلام وأبو جعفر « إن القوة » وإن الله « بكسر المعزة فهما على الاستئناف أو على تهديد القول ، أي ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون إن القوة لله . وثبت بنص هذه الآية القوة لله بخلاف المستقلة في فهم معاني الصفات القديمة ؛ تعالى الله عن قولهم .

قوله تعالى : ( إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا ) يعني السادة والرؤساء تبرؤا من أتباعهم على الكفر ؛ عن قتادة وعطاء والربيع . وقال قتادة أيضا والسدى : هم الشياطين المضلون تبرؤا من الإنس . وقيل : هو عام في كل متبوع . ( وَرَأَوْا الْعَذَابَ ) يعني التابيع والتبوعين ؛ قيل : يقيهم له عند الملائكة في الدنيا . وقيل : عند المرض والمساخة في الآخرة .

قلت : كلاهما جاصل فيهم ، يماينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان ، وفي الآخرة ينفقون أليم العذاب والكمال .

قوله تعالى : ( وَتَقَطَّعْتَ يَدِ الْأَيْمَنِ الْاَيْتَابُ ) أى الوُصَلَاتُ الَّتِي كَانُوا يَتَوَاصَلُونَ بِهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ رَحِمٍ وَغَيْرِهِ . الْوَاحِدُ سَبَبُ وَوَصْلَةٌ . وَأَصْلُهُ الْحَبْلُ يَشُدُّ بِالشَّيْءِ ، فَيَجْذِبُهُ ؛ ثُمَّ جَعَلَ كُلَّ مَا يَرْتَشِطُ سَبَبًا . وَقَالَ السَّيِّدِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ : إِنَّ الْأَسْبَابَ أَعْمَالُهُمْ . وَالسَّبَبُ الْتَاخِيَّةُ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمِنْ هَابِ أَسْبَابِ الْمَنَاءِ يَنْتَه . وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بَسُتُمْ

قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ) أَيْ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ ، أَيْ لَوْ ثَبِتَ أَنْ لَنَا رَجْعَةً ( فَتَنْتَبِهُوا مِنْهُمْ ) جَوَابُ الْتَمَنَّى . وَالْكَرَّةُ : الرَّجْعَةُ وَالْمَعْوِدَةُ إِلَى حَالٍ قَدْ كَانَتْ ، أَيْ قَالَ الْأَيْبَاعُ : لَوْ رُفِدْنَا إِلَى الدُّنْيَا حَتَّى نَعْمَلَ صَالِحًا وَنَتَّبِعَ مِنْهُمْ كَمَا تَبِعُوا مِنَّا . أَيْ تَجِدُوا كَمَا ؛ فَالْكَافُ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ عَلَى التَّمَتِّ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ . وَيُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ نَصَبًا عَلَى الْحَالِ ، تَقْدِيرُهَا مَتَّبِعِينَ ؛ وَالتَّبَرُّؤُ الْإِنْفِصَالُ .

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ ) الْكَافُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ ، أَيْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . أَيْ كَمَا أَرَاهُمْ اللَّهُ الْعَذَابَ كَذَلِكَ يَرَاهُمْ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ . وَ ( يُرِيهِمُ اللَّهُ ) قِيلَ : هِيَ مِنْ رُؤْيَا الْبَصَرِ ؛ فَيَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِمَفْعُولَيْنِ ، الْأَوَّلَى الْمَاءُ وَالْمِيمُ فِي يَرَاهُمْ ، وَالثَّانِي أَعْمَالَهُمْ ؛ فَيَكُونُ « حَسْرَاتٍ » حَالٌ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ رُؤْيَا الْقَلْبِ ؛ فَتَكُونُ « حَسْرَاتٍ » الْمَفْعُولُ الثَّلَاثُ . ( أَعْمَالُهُمْ ) قَالَ الرَّيْجُ : أَيْ الْأَعْمَالُ الْفَاسِدَةُ الَّتِي لَرَتَّبُوهَا فَوَجِبَتْ لَهَا نَارُ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالسَّيِّدِيُّ : الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي تَرْكُوهَا فَنَاقَتْهُمْ الْجَنَّةُ . وَرَوَيْتُ فِي هَذَا الْقَوْلِ أَحَادِيثَ . قَالَ السَّيِّدِيُّ : تَرْفَعُ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَإِلَى بُيُوتِهِمْ فِيهَا لَوْ أَطَاعُوا اللَّهَ تَعَالَى ، ثُمَّ تَقْصَمُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فَذَلِكَ حِينَ يَتَذَمَّرُونَ . وَأَضْيَقَتْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ بِأُمُورٍ فِيهَا ، وَأَمَّا إِضَافَةُ الْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ إِلَيْهِمْ فَمِنْ حَيْثُ عَمَلُوهَا . وَالْحَسْرَةُ وَاحِدَةُ الْحَسْرَاتِ ؛ كَثْرَةُ وَتَمَرَاتُ ، وَجَفَّةٌ وَجَفَنَاتُ ، وَشَهْوَةٌ وَشَهَوَاتُ ؛ نَحْنُ إِذَا كَانَ اسْمُهَا ، فَإِنْ مَنَعَتْهُ سَكَنَتْ ؛ كَقَوْلِكَ :

ضخمة وضخات، وعجلة وعجلات . والحسرة أعلى درجات الندامة على شيء فانت . والتحصير التلهف . يقال : حيرت عليه بالكسر أحسر أحسرا وحسرة . وهي مشتقة من الشيء الحسير الذي قد انقطع ونهبت قوته كالبعير . وقيل : هي مشتقة من حسر إذا كشف؛ ومنه الحاسر في الحرب الذي لا درع معه؛ فالانحصار الانكشاف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُمْسِكِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ دليل على خلود الكفار فيها وأنهم لا يخرجون منها . وهذا قول جماعة أهل السنة؛ لهذه الآية ولقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ . وسيأتي .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ فيه أربع مسائل .

الأولى - قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الآية . قيل : إنها نزلت في تقيف وتزاعة وبني مدليج فيما حرموه على أنفسهم من الأنعام . واللفظ عام . والطيب هنا الحلال؛ فهو تأكيد لاختلاف اللفظ؛ وهذا قول مالك في الطيب . وقال الشافعي : الطيب المستطعم؛ فهو تنوع ولذلك يمنع أكل الحيوان القدر . وسيأتي بيان هذا في الأنعام والأعراف إن شاء الله تعالى .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ حلالا حال . وقيل مفعول . سمى الحلال حلالا لانحلال عقدة الحظر عنه . قال سهل بن عبد الله : النجاة في ثلاثة؛ أكل الحلال، وإداء الفرائض، والاعتدال بالنبي صلى الله عليه وسلم . وقال أبو عبد الله الساجي واسمه سعيد ابن يزيد : خمس خصال بها تمام العلم، وهي معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال؛ فإن فقدت واحدة لم يرض العمل . قال سهل : ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المال حلالا حتى يصفو من ست خصال : الربا والحرام والشبهت وهو اسم مجمل والنفل والمكروه والشبهة .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقِيمُوا ﴾ نهي ﴿ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ خُطُوبَات جمع خُطُوبَة وخُطُوبَة بمعنى واحد . قال القرطبي : خُطُوبَات جمع خُطُوبَة بالفتح . وخُطُوبَة بالضم : ما بين القدمين . وقال الجوهرى : وجمع القسلة خُطُوبَات وخُطُوبَات وخُطُوبَات، والكثير خُطَا .

والخطوة بالفتح المرة الواحدة ، والجمع خطوات ( بالتحريك ) ويخطئ ؛ مثل ركوة وركاء ؛ قال امرؤ القيس :

لما وثبات كوثب الظباء • فواد خطاء وواد مفسر

وقرأ أبو السمال وعبيد بن عمير « خطوات » بفتح الخاء والطاء . وروى عن علي بن أبي طالب وقادة والأعرج وعمرو بن ميمون والأعشى « خطوات » بضم الخاء والطاء والمزة على الواو . قال الأخفش : ذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خلية من الخطا لان الخطو . والمضى على قراءة الجمهور : ولا تقفوا أثر الشيطان وعمله ؛ وما لم يرد به الشر فهو منسوب إلى الشيطان . قال ابن عباس : أعماله . مجاهد : خطاياه . السدي : طاعته . أبو جازر : هي النذور في الماضي .

قلت - والصحيح أن اللفظ عام في كل ما عدا السن والشرائع من البدع والمأصى .  
وتقدم القول في الشيطان مستوفى .

الراصة - قوله تعالى : ( إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوِّينَ ) أخبر تعالى بأن الشيطان عدو ، وشبه حق وصدق ؛ قالوا يجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عدوانه من زمن آدم ، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم ؛ وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال جل من قائل : ( وَلَا تَقْبَلُوا خُطَايَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ) . ( إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَإِنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) وقال : ( الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ) وقال : ( وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ) وقال : ( إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُفْضِحَ بَيْنَكُمْ الْعَهْدَ وَالْإِنْفَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ) وقال : ( إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ) وقال : ( إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَتْحَابِ السَّعِيرِ ) . وهذا غاية في التحذير ، وبمثل في القرآن كثير . وقال جده الله

(١) أبو الهيثم (فتح البيان) وشبهه الله بالأمم (هو قسطنطين بن أبي صنف القسطنطيني) فإنه اختار  
والقراءات شاذة من العامة - ذكره في الأصول ويقاسف عجزاً .



ابن عمر : إن إبليس موثق في الأرض السفلى ، فإذا تحرك فإن كل شبر في الأرض بين اثنين فصاعداً من تحركه . ونرج الترمذى من حديث أبي مالك الأشعرى وفيه : " وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج المدفأ في أثره سراط حتى إذا أتى على حصين حصين فأحرز نفسه منهم كذلك المبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا يذكر الله " الحديث . وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : ( إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ) سمي السوء سوا لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه . وهو مصدر ما يسوء سوا وساءة إذا أضرته . وسوءه فسيء إذا أضرته فخرن ؛ قال الله تعالى : ( يَبْتَغِ وَيُجِوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ) . وقال الشاعر :  
 إن يك هذا البحر قد سافى • فطالباً قد سرتني البحر  
 الأمر عندى فيها واحد • لئلا شكرك ولئلا صبر

والفحشاء أصله قبح المنظر ؛ كما قال :

• وجيد بكيد الرم ليس فاحش •

ثم استعملت اللفظة فيما يقبح من المعاني ، والشرع هو الذي يحسن ويقبح ؛ فكل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء . وقال مقاتل : إن كل ما في القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنا إلا قوله : ( الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ) فإنه منع الزكاة .

قلت : قل هذا قيل : السوء ما لاحد فيه ، والفحشاء ما فيه حد . وحكى عن ابن عباس وغيره ؛ والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ( وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) قال الطبري : يريد ما حرموا من البعرة والسابعة ونحوهما مما جملوه شرما . وأن تقولوا ، في موضع خفض على قوله تعالى : وَالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ .

قوله تعالى : ( وَإِنَّا قِيلَ لَمْ آتِيُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ تَبِيعُ مَا آفَقْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا )  
إلى قوله : ( يَهْتَدُونَ ) . فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَإِنَّا قِيلَ لَمْ ) . يعنى كفار العرب . ابن عباس : نزلت في اليهود . الطبري : الضمير في «لم» عائد على الناس من قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا ) . وقيل : هو عائد على «من» في قوله تعالى : ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّبِعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) الآية . وقوله : ( آتِيُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ ) أى بالقبول والعمل . ( قَالُوا بَلْ تَبِيعُ مَا آفَقْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ) ألقيا : وجدنا . وقال الشاعر :

فألقينه غير مستعجب \* ولا ذاكر الله إلا قليلا

الثانية - قوله تعالى : ( أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ ) الألف للاستفهام ، وفحش الواو لأنها واو عطف ، عطفت جملة كلام على جملة ؛ لأن غاية الفساد في الالتزام أن يقولوا : تبع آباءنا ولو كانوا لا يفعلون ؛ ففقدوا على التزامهم هذا ، إذ هي حال آباؤهم .

مسألة - قال علماءنا : وقوة الفاظ هذه الآية تعطى إبطال التقليد ؛ ونظيرها : ( وَإِنَّا قِيلَ لَمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ) الآية . وهذه الآية والتي قبلها مرتبطة بما قبلهما ؛ وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تمكنت فيه بآرائها السفهية في البحيرة والسائبة والوصيلة ؛ فاحججوا بأنه أمر وجدوا عليه آباؤهم فاتبعوا في ذلك ، وتركوا ما أنزل الله على رسوله وأمر به في دينه : فالضمير في «لم» عائد عليهم في الآيتين جميعا .

الثالثة - تعلق قوم بهذه الآية في ذم التقليد لعم الله تعالى الكفار بتباسهم لآبائهم في الباطل واتخاذهم بهم في الكفر والمصيبة ؛ وهذا في الباطل صحيح . أما التقليد في الحق فاصل من أصول الدين ، وعصمة من عصم المسلمين يلجأ إليها الملحد المفسر عن دوك النظر . واختلف العلماء في جوازه في مسائل الأصول على ما يأتي ، وأما جوازه في مسائل الفروع فصحيح .

الرابعة — التقليد عند العلماء حقيقة قبيح قول بلا حجة، وعلى هذا فمن قيل قول النبي صلى الله عليه وسلم من غير نظر في معجزته بكونه قلدا، وأما من نظر فيها فلا يكون مقابلا . وقيل : هو اعتقاد صحة قُتيا من لا يعلم صحة قوله . وهو في اللغة مأخوذ من قلادة البعير؛ فإن العرب تقول : قلدت البعير إذا جعلت في عنقه حبلا يقاد به؛ فكأن المقلد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء؛ وكذلك قال شاعرهم :

وقلُّوا أمركم لله دَرَكُم \* ثَبَّتَ الْجَنَانُ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مَضْطَلَعًا

الخامسة — التقليد ليس طريقا للعلم ولا موصلا له، لا في الأصول ولا في الفروع؛ وهو قول جمهور العقلاء والعلماء، خلافا لما يحكى عن جهال الحشوية والتعلنية من أنه طريق إلى معرفة الحق، وأن ذلك هو الواجب، وأن النظر والبحث حرام . والاحتجاج عليهم في كتب الأصول .

السادسة — فرض العamy: الذي لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها لعدم أهليته، فيما لا يعلمه من أمر دينه ويحتاج إليه، أن يقصد أعلم من في زمانه وبلده فيسأله عن نازله فيمثل فيها قواه؛ لقوله تعالى: ﴿ تَأْسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وعليه الاجتهاد في أعلم أهل وقته بالبحث عنه، حتى يقع عليه الاتفاق من الأكثر من الناس وعلى العالم أيضا فرض أن يقلد طالما مثله في نازلة خفى عليه فيها ونهه العليل والنظر، وأراد أن يحدد الفكر فيها والنظر حتى يقف على المطلوب، فضاق الوقت عن ذلك، وخاف على العبادة أن تفوت، أو على الحكم أن ينهب سواء كان ذلك المجتهد الآخر صحابيا أو غيره؛ وإليه ذهب القاضي أبو بكر وجماعة من المحققين .

السابعة — قال ابن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد . وذكر فيه غيره خلافا كالقاضي أبي بكر بن المرئي وأبي عمرو عثمان بن عيسى بن درياس الشافعي . قال ابن درياس في كتاب «الاتصاف» له : وقال بعض الناس يجوز التقليد في أمور التوحيد؛ وهو خطأ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ .. فذهبهم بتقليد آبائهم وتركهم اتباع.

الرسول؛ كصنيع أهل الأهواء في تقليدكم أبائكم وتركهم اتباع محمد صلى الله عليه وسلم في دينه؛  
ولأنه فرض على كل مكلف تعلم أمر التوحيد والقطع به؛ وذلك لا يحصل إلا من جهة  
الكتاب والسنة كما بيناه في آية التوحيد، والله يهدي من يشاء.

قال ابن درباس: وقد أكثر أهل الزيغ القول على من تمسك بالكتاب والسنة أنهم  
مقلدون؛ وهذا خطأ منهم بل هو بهم البقي وبمذاهبهم أخلق؛ إذ قبلوا قول ساداتهم وكبرائهم  
فما خالفوا فيه كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة رضي الله عنهم؛ فكانوا داخلين فيمن  
ذمهم الله بقوله: ( رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا ) إلى قوله: ( كَثِيرًا ) وقوله: ( إِنَّا  
وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ) ثم قال لنبيه: ( قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ  
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ) ثم قال لنبيه عليه السلام: ( فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ )  
الآية . فين تعالى انت المهدى فيها جاءت به رسله عليهم السلام . وليس قول أهل الأثر  
في عقائدهم: إنا وجدنا آئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح  
من الأمة ، من قولهم: إنا وجدنا آباءنا وأطعنا ساداتنا وكبراءنا ، بسبيل ؛ لأن هؤلاء نسبوا  
ذلك إلى التنزيل وإلى متابعة الرسول . واولئك نسبوا إناهم إلى أهل الأباطيل ، فازدادوا  
بذلك في الضليل ؛ ألا ترى أن الله سبحانه أنى على يوسف عليه السلام في القرآن حيث قال :  
( إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِبَرَاهِيمَ  
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ) .  
فلما كان آباءه عليه وعليهم السلام أنبياء متبعين للوحى وهو الدين الخالص الذى ارتضاه الله ،  
كان اتباعه آباءه من صفات المدح . ولم يحى فيها جلاوا به ذكر الأعراس وتعلقها بالجواهر  
واقتلاها فيها ؛ فدل على الآهذى فيها ولا رشد في واضعها .

قال ابن الحصار : وإنما ظهر التلظظ بها زمن المأمون بعد المائتين لما ترجعت كتب  
الأوائل وظهر فيها اختلافهم في قدم العالم وسدونه ، واختلافهم في الجوهر وشبوته ، والمرض  
وما بهته ؛ فسارع المبتدعون ومن في قلبه زيغ إلى حفظ تلك الاصطلاحات ، وقصدها .

الإغراب على أهل السنة، وإدخال الشبه على الضعفاء من أهل الملة؛ فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البدعة، وصارت للبدعة شعبة، وألتبس الأمر على السلطان، حتى قال الأمير بخلق القرآن، وجبر الناس عليه، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك.

فانتدب رجال من أهل السنة كالشيخ أبي الحسن الأشعري وأبي عبد الله بن كلاب وابن مجاهد والمحاسبي وأضرابهم، فخاصوا مع المبتدعة في اصطلاحاتهم، ثم قاتلهم وقتلهم بسلاحهم. وكان من درج من المسلمين من هذه الأمة متمسكين بالكتاب والسنة، معرضين عن شبه الملحدين، لم ينظروا في الجوهر والعرض. على ذلك كان السلف.

قلت: ومن نظر الآن في اصطلاح المتكلمين حتى يناضل بذلك عن الدين فنتزله فريبة من التبيين. فاما من يهجن من غلاة المتكلمين طريق من أخذ بالأثر من المؤمنين، ويخص على درس كتب الكلام، وأنه لا يعرف الحق إلا من جهة تلك الاصطلاحات فصاروا مذموين لتقصيرهم طريق المتقدمين من الأئمة الماضين. والله أعلم. وأما الخاصة والمجدال بالدليل والبرهان فذلك بين في القرآن. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ ﴾ شبه تعالى إعطى للكفار وداعهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم بالرأى الذى يتق بالتم والإيل فلا تسمع إلا دعاءه وتداءه، ولا تفهم ما يقول. هكذا فسر ابن عباس ومجاهد وعكرمة والزجاج والفراء وسيبويه؛ وهذه نهاية الإيماز. قال سيبويه: ولم يشبهوا بالتأق إنما شبهوا بالنسوق به. والمعنى: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل التأق والنسوق به من البهائم التى لا تفهم؛ لحذف دلالة المعنى. وقال ابن زيد: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم الآلهة من الجناد كمثل الصائغ في جوف الليل فيجبه الصدى؛ فهو يصيح بما لا يسمع، ويجهى مالا حقيقة فيه ولا منفعة. وقال قطرب: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم مالا يفهم، يعنى الأصنام، كمثل الرأى إذا نق بمنه وهو لا يدري أين هي. قال الطبري: المراد مثل الكافرين في دعائهم آلهتهم كمثل الذى يتق بنى، بيد فهو لا يسمع من أجل البعد؛ فليس التأق من ذلك إلا التمداء الذى يتبعه

وَيَصْبِهِ . قُتِي هَذِهِ الثَّالِثَةُ بِشِبْهِ الْكَفَّارِ بِالنَّاعِقِ الصَّائِحِ ، وَالْأَصْنَامِ بِالْمَنْوَقِ بِهِ .  
وَالنَّمِيقُ : زَجْرُ النَّمِ وَالصَّيَاحُ بِهَا ؛ يُقَالُ : نَمِقَ الرَّاعِي بِنَمِيقِهِ نَمِيقًا وَنَمَقَانًا أَيْ صَاحَ بِهَا  
وَزَجَرَهَا . قَالَ الْأَخْطَلُ :

أَنْتَسَقِي بِضَانِكَ بِأَجْرِ رِقَابِي \* مَتَّكَ نَفْسُكَ فِي الْخِلَاءِ ضَلَالًا

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ : لَمْ يَكُنْ جَرِيرَ رَاعِي ضَانٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَكُنِيَ كَلْبٌ يُعِيرُونَ بِرَعَى الضَّانِ ،  
وَجَرِيرُ مَنَهْمٍ ؛ فَهُوَ فِي جِهْلِهِمْ . وَالْعَرَبُ تَضْرِبُ الْمَثَلَ بِرَاعِي النَّمِ فِي الْجَهْلِ وَيَقُولُونَ : « أَجْهَلُ  
مَنْ رَاعَى ضَانٌ » . قَالَ الْقُتَيْبِيُّ : وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا فِي مَعْنَى الْآيَةِ كَانَ مَذْهَبًا ، غَيْرَ أَنَّهُ  
لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِيمَا نَعْلَمُ .

وَالنَّدَاءُ لِلْبَعِيدِ ، وَالنَّدَاءُ لِلْقَرِيبِ ؛ وَلِفَتْكَ قِيلَ لِلْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ نَدَاءً لِأَنَّهُ لَا يُبَادِعُ . وَقَدْ  
تَضَمَّنَ النَّوْنُ فِي النَّدَاءِ وَالْأَصْلُ الْكَسْرُ . ثُمَّ شَبَّهَ تَعَالَى الْكَافِرِينَ بِأَنَّهُمْ صَمٌّ بِكُمْ عَمَى . وَقَدْ  
تَقَدَّمَ فِي آيَةِ السُّورَةِ :

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ هَذَا تَأْكِيدٌ لِأَمْرِ الْأَوَّلِ ،  
وَحُصِيَ الْمُؤْمِنِينَ هُنَا بِالذِّكْرِ تَفْضِيلًا . وَالْمُرَادُ بِالْأَكْلِ الْإِنْتِفَاعُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ . وَقِيلَ :  
هُوَ الْأَكْلُ الْمُنَادٍ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « [ يَا النَّاسُ ] إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا . وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ  
بِمَا أَمَرَ الْمُرْسَلِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ  
عَلِيمٌ وَقَالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّيْلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشَشَ  
أَنْفَرًا يَنْذِرُ إِلَى السَّمَاءِ يَارَبِّ يَارَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ [ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ] فَأَنَّى يَسْتَجَابُ  
لِلَّذَلِكِ » ، ( وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ ) تَقَدَّمَ مَعْنَى الشُّكْرِ فَلَا مَعْنَى الْإِعَادَةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فِيهِ أَرْبَعُ

وَعَلَّاهُ مَسْئَلَةٌ :

(١) الْإِعَادَةُ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ . كِتَابُ الزَّكَاةِ . (٢) الَّتِي سَبَقَ ثَلَاثَ وَثَلَاثُونَ مَسْئَلَةً .

الأول - قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ إنما ، كلمة موضوعة للصبر تضمن  
الشيء والإثبات ؛ فنبت ما تناوله الخطاب وتبقى ما عداه . وقد حصرت هاهنا التحريم لا سيما  
وقد جاءت عقيب التحليل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ .  
فأفادت الإباحة على الإطلاق ، ثم عقبها بذكر المحرم بكلمة « إنما » الحاصرة فاقضى ذلك  
الإيجاب للقسامين ؛ فلا محرم يخرج عن هذه الآية . وهي مدنية وأكدها بالآية الأخرى وهي  
التي روى أنها نزلت بعرفة : ﴿ قُلْ لَا أُعِدُّ فِتْيَا أَوْحِي إِلَى مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ إلى  
آخرها ؛ فاستوفى اليان أولا وآخرا . قاله ابن البرقي . وساقى الكلام في ذلك في الأنعام إن  
شاء الله تعالى .

الثانية - الميتة . نصب يحزم . وما كافة ، ويجوز أن تجعلها بمعنى الذي ، منفصلة  
في الخط ؛ وترفع الميتة والدم ولحم الخنزير على خبر « لَنْب » وهي قراءة ابن أبي عمير .  
وفي حزم ضمير يعود على الذي ؛ ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَحَّوْا كَيْدَ بَاسِجٍ ﴾ . وقرأ  
أبو جعفر بنظم الحاء وكسر الزاء ورفع الأسماء بعدها ، إنما على ما لم يسم فاعله ، وإما على خبر  
إن . وقرأ أبو جعفر بن القمعاق أيضا « الميتة » بالتشديد . الطبري : وقال جماعة من  
اللغويين التشديد والتخفيف في ميت وميت لفتان . وقال أبو حاتم وغيره : ما قدمنا  
فيقالن فيه ، وما لم يمت بعد فلا يقال فيه ميت بالتخفيف ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ  
مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ . وقال الشاعر :

ليس من مات فاستراح ميت . إنما الميت ميت الأحياء .  
ولم يقرأ أحد بتخفيف ما لم يمت إلا ما روى البرقي عن ابن كثير « وما هو ميت »  
والمشهور عنه التثنية ؛ وأما قول الشاعر :

إذا ما مات ميت من مماتكم . ففسرك أن يميت بلحي . بزاد  
فلا ألحق في المعجم من أنه أراد الميتة حقيقة . وقد ذهب بعض الناس إلى أنه أراد من  
شارف الموت ، والأول أشهر .

الثالثة - الميتة ما فازت به الروح من غير ذكاة مما يذبح . وما ليس بما كول فذكاته كونه كالسباع وغيرها ، على ما يأتي بيانه هنا وفي الأنعام إن شاء الله تعالى .

الرابعة - هذه الآية عامة دخلها التخصيص بقوله عليه السلام : " أحلت لنا ميتتان الحوت والجراد ودمان الكبد والطحال " . أخرجه الدارقطني . وكذلك حديث جابر بن المنيّر يخص عموم القرآن بصحة سنده . نزهة البخاري . ومسلم مع قوله تعالى : ( **أَحَلَّ لَكُم مِّمَّا صِيدَ الْبَحْرِ** ) . على ما يأتي هناك إن شاء الله تعالى .

وأكثر أهل الفقه يميزون أكل جميع دواب البحر حيها وميتها ، وهو مذهب مالك . وتوقف أن يجب في خنزير الماء وقال : أتم يقولون خنزيرا . قال ابن القاسم : وأنا أنفيه ولا أراه حراما .

الخامسة - وقد اختلف الناس في تخصيص كتاب الله بالسنة ، ومع اختلافهم في ذلك اتفقوا على أنه لا يجوز تخصيصه بحديث ضعيف . قال ابن العربي : وقد يستدل على تخصيص هذه الآية أيضا بما في جميع مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كانا كل الجراد معه . وظاهره أكله كيف ما مات بسلاح أو حاف أنه ، وهذا قال ابن نافع وابن عبد الحكم وأكثر العلماء . وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرها . ومنع مالك وجهور أصحابه من أكله إن مات حاف أنه ؛ لأنه من صيد البر . ألا ترى أن المحرم يخرجه إذا قتله ، فأنشبه الغزال . وقال أنشب : إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل ؛ لأنها حالة قد يعيش بها وينسل . وسأقي لحكم الجراد مزيد بيان في الأعراف عند ذكره ، إن شاء الله تعالى .

السادسة - واختلف العلماء هل يجوز أن يذبح بالميتة أو شيء من التبلسات . واختلف عن مالك في ذلك أيضا ، قال مرة : يجوز الاستئذان بها ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم مر على شاة صبيحة فقال : " **هلا أخذتم لها بها** " الحديث . وقال مرة : جعلها حزم فلا يجوز الاستئذان بشيء منها ، ولا بشيء من التبلسات على وجه من وجوه الاستئذان ، حتى



لا يجوز أن يسقى الزرع ولا الحيوان الماء النجس، ولا تعلق البهائم النجاسات، ولا تطعم الميتة الكلاب والسباع، وإن أكلتها لم تمنع. ووجه هذا القول ظاهر قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالْمَيِّتُ وَالْمَيِّتُ وَالْمَيِّتُ ﴾ ولم ينص وجها من وجهه، ولا يجوز أن يقال: هذا الخطاب مجمل، لأن الجمل مالا يفهم المراد من ظاهره، وقد فهمت العرب المراد من قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ ﴾. وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تتعضوا من الميتة بشئ»، وفي حديث عبد الله بن عكيم «لا تتعضوا من الميتة بإهاب ولا عصب». وهذا آخر ما ورد به كتابه قبل موته بشهر، وسيأتي بيان هذه الأخبار والكلام عليها في التعلل إن شاء الله تعالى.

السابعة — فأما الناقة إذا تحرت، أو البقرة أو الشاة إذا ذبحت، وكان في بطنها جبين ميت بغائر أكله من غير تذكية له في نفسه، إلا أن يخرج حيا فيذكي، ويكون له حكم نفسه، وذلك أن الجبين إذا خرج منها بعد الذبح ميتا جرى مجرى العضو من أعضائها. ومما بين ذلك أنه لو باع الشاة واستقى ما في بطنها لم يميز، كما لو استقى عضوا منها، وكان ما في بطنها تابعا لما كسائر أعضائها. وكذلك لو اعتقها من غير أن يوقع على ما في بطنها عقا مبتدا. ولو كان منفصلا عنها لم يقيمها في بيع ولا عتق. وقد روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن البقرة والشاة تذبح، والناقة تحترق فيكون في بطنها جبين ميت، فقال: «إن شقمت فكلوه لأن ذكاته ذكاة أمته». أخرجه أبو داود بمعناه من حديث أبي سعيد الخدري وهو نص لا يشتمل. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة المسائدة إن شاء الله تعالى.

الثامنة — واختلفت الرواية عن مالك في جلد الميتة هل يطهر بالدباغ أولا؛ فروى عنه أنه لا يطهر وهو ظاهر مذهبه. وروى عنه أنه يطهر؛ لقوله عليه السلام: «أبدا إهاب دبح فقد طهر». ووجه قوله: لا يطهر؛ بأنه جزء من الميتة لو أخذ منها في حال الحياة كان نجسا، فوجب ألا يطهره الدباغ قياسا على اللحم. وتحمل الأخبار بالطهارة على أن إنب الدباغ يزِيل الأوساخ عن الجلد حتى يتخف به في الأشياء اليابسة وفي الجلوس عليه، ويجوز أيضا أن يتخف به في الماء بأن يجعل يمسكه؛ لأن الماء على أصل الطهارة ما لم يتغير له وصف.

على ما بقى من حكمة في سورة الفرقان . والطهارة في اللغة متوجة نحو إزالة الأوساخ  
كما توجه إلى الطهارة الشرعية . والله تعالى أعلم .

الثامنة - وأما شعر الميتة وصوفها فظاهر؛ لما روى عن أم سامة رضي الله عنها عن  
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا بأس بمسك الميتة إذا دبح وصوفها وشعرها إذا غسل".  
ولأنه كان طاهرا لو أخذ منها في حال الحياة فوجب أن يكون كذلك بعد الموت، إلا أن الظن  
لما كان نجسا في حال الحياة كان كذلك بعد الموت؛ فيجب أن يكون الصوف خلافا حال  
الموت كما كان خلافا حال الحياة استدلالا بالعكس . ولا يلزم على هذا اللبن والبيض من  
الميتة؛ لأن اللبن عندنا طاهر بعد الموت، وكذلك البيض؛ ولكنهما حصلا في وعاء نجس  
فتنجسا بمخالوة الوعاء لا أنهما نجسا بالموت . وسيأتي مزيد بيان لهذه المسئلة والتي قبلها  
وما للعلماء فيها من الخلاف في سورة النحل إن شاء الله تعالى .

العاشر - وأما ما وقعت فيه القارة فله حالتان : حالة تكون إن أنجحت القارة حية  
فهو طاهر، وإن ماتت فيه فله حالتان : حالة يكون مائما فانه نجس بجميعه . وحالة يكون  
جامدا فينجس ما جاورها، فتطرح وما حولها، ويتنقع بما بقي وهو على طهارته؛ لما روى  
أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن القارة تنقع في السمن تدمت؛ فقال عليه السلام :  
"إن كان جامدا فاطرحوها وما حولها وإن كان مائما فأزرقوه". واختلف العلماء فيه إذا غسل؛  
ف قيل : لا يطهر بالنسل؛ لأنه مائع نجس فأشبه الدم والخر والبول وسائر النجاسات .  
وقال ابن القمام : يطهر بالنسل؛ لأنه جسم تقيس بمخالوة النجاسة فأشبه التوب . ولا يلزم  
على هذا الدم لأنه نجس بجمه، ولا الخمر والبول لأن النسل يستلكنهما ولا يتأني فيه .

الحادية عشرة - فأذا حكنا بطهارته بالنسل رجع إلى حاله الأول في الطهارة وسائر  
وجوه الانتفاع؛ لكن لا ييمه حتى يبرأ؛ لأن ذلك عيب عند الناس تأباه قوسهم، ومنهم  
من يعتقد تحريمه ونجاسته فلا يجوز بيعه حتى يبرأ العيب كسائر الأشياء الملية . وأما قبل  
النسل فلا يجوز بيعه بجل؛ لأن الطهارة عند لا يجوز بيعها، ولأنه مائع نجس فأشبه

انحر، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ثمن النحر فقال: «لبن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجعلوها فباعوها وأكلوا أموالها» . وإن الله إذا حرم شيئا حرم ثمنه . وهذا المانع يحرم لتبائسه فوجب أن يحرم ثمنه بحكم الظاهر .

الثانية عشرة - واختلف إذا وقع في القدر حيوان، طائر أو غيره؛ [قات] فروى ابن وهب عن مالك أنه قال: لا يؤكل ما في القدر، وقد تبس بالخالطة الميتة إياه . وروى ابن القاسم عنه أنه قال: يسئل اللحم ويراق المرق . وقد سئل ابن عباس عن هذه المسئلة؛ قال: يسئل اللحم ويؤكل . ولا يخالف له في المرق من أصحابه؛ ذكره ابن خزيمة متناد .

الثالثة عشرة - فاما أقمعة الميتة ولبن الميتة؛ فقال الشافعي: ذلك نجس لمعوم قوله تعالى: ( حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ ) . وقال أبو حنيفة بطهارتهما، ولم يجعل لموضع الخلقة أثرا في تبس ما جاوره مما حدث فيه خلقة قال: ولذلك يؤكل اللحم بما فيه من العروق، مع القطع بياضه الدم لمواظفها من غير تطهير ولا غسل إجماعا . وقال مالك نحو قول أبي حنيفة: إن ذلك لا ينجس بالموت، ولكن ينجس بياضه الوعاء النجس وهو مما لا يأتى فيه التسل . وكذلك للباحة تخرج منها البيضة بعد موتها؛ لأن البيضة لينة في حكم المائع قبل خروجها وإما تجدد وتصلب بالهواء .

قال ابن خزيمة متناد قال قيل: قولكم يؤدى إلى خلاف الإجماع؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده كانوا يأكلون الجبن وكان يجلوا إليهم من أرض السجم، ومعلوم أن ذبائح السجم وهم بحرس ميتة، ولم يستأوا بأن يكون مجدا بأقمعة الميتة أو المذكي . قيل له: قد رما يقع من الأقمعة فاللبن الجبن يسير . واليسير من التبسة معقو عنه إذا خالط الكثير من المائع . هذا جواب على إحدى الروايتين . وعلى الرواية الأخرى إنما كان ذلك في أول الإسلام ولا يمكن أحدا أن يقول أن الصحابة أكلت اللبن المحمول من أرض السجم، بل اللبن ليس من طعام العرب؛ فلما انتشر المسلمون في أرض السجم بالفتح صارت الذبائح (١) تحت السجم مباحة؛ إذا أذبه .

لم ؛ فمن أين لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة أكلت جثا فضلا عن أن يكون محولا من أرض النجس ومعمولا من أئمة ذبايحهم .

وقال أبو عمر : ولا بأس بأكل طعام عبدة الأوثان والمجوس وسائر من لا تكلب له من الكفار ما لم يكن من ذبايحهم ولم يحتاج إلى ذكاة إلا الجبن لما فيه من أئمة الميتة . وفي سنن ابن ماجه «الجبن والسمن» حدثنا إسماعيل بن موسى السدي حدثنا سيف بن هارون عن سليمان التيمي عن أبي عثمان التهدي عن سلمان الفارسي قال : مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمن والجبن والقراء . فقال : «الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه» .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ( وَالْدَّم ) اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا يفتق به . قال ابن خوزمندان : وأما الدم فحرم مالم تم به البلوى ، ومفق عما تم به البلوى . والذي تم به البلوى هو الدم في اللحم وعروقه . ويسيره في البدن والتوب يصل فيه . وإنما قلنا ذلك لأن الله تعالى قال : ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ ) . وقال في موضع آخر : ( قُلْ لَا أُجِدُّ فِيهَا أَوْحَى إِلَى عَمْرَأَةٍ عَلَى طَائِعٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ) فحرم المسفوح من الدم . وقد روت عائشة رضي الله عنها قالت : كنا نطبخ البرمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلوها الصفرة من الدم فتأكل ولا تسكره ؛ لأن التحفظ من هذا أمر روفي مشقة . والإصرار والمشقة في الدين موضوع . وهذا أصل في التشريع : أن كلما حُرِّجت الأمة في أداء العبادات فيه وتقل عليها سقطت العبادات عنها فيه . ألا ترى أن المضطر يأكل الميتة ، وأن المريض يفترو ويقيم في نحو ذلك .

قلت : ذكر الله سبحانه وتعالى الدم هاهنا مطلقا وقيدته في الأضام بقوله : ( مَسْفُوحًا ) . وحل العلماء هاهنا المطلق على المقيد إجماعا . فالدم هنا يراد به المسفوح ؛ لأن ما خالط اللحم فغير محرم بإجماع ، وكذلك الكبد والطحال يجمع عليه . وفي دم الحوت المزابل له اختلاف ؛

وروى عن القابسي أنه طاهر، ويلزم على طهارته أنه غير محرم . وهو اختيار ابن العربي ، قال : لأنه لو كان دم السمك نجسا لشرعت ذكائه .

قلت : وهو مذهب أبي حنيفة في دم الحوت ؛ سمعت بعض الحنفية يقول : الدليل على أنه طاهر أنه إذا يئس أبيض بخلاف سائر العماء فإنه يسود . وهذه النكته لم في الاحتجاج على الشافعية .

الخامسة عشرة - قوله تعالى ﴿ وَلَمْ يَنْخُزْ بِهِنَّ ﴾ خص الله تعالى ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ذكي أو لم يذك ، ولحم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها .

السادسة عشرة - أجمعت الأمة على تحريم شحم الخنزير . وقد استدل مالك وأصحابه على أن من حلف ألا يأكل شحما فاكل لحما لم يحنث بأكل اللحم . فإن حلف ألا يأكل لحما فاكل شحما حنث ؛ لأن اللحم مع الشحم يقع عليه اسم اللحم ؛ فقد دخل الشحم في اسم اللحم ولا يدخل اللحم في اسم الشحم . وقد حرم الله تعالى لحم الخنزير فتاب ذكر لحمه عن شحمه ؛ لأنه دخل تحت اسم اللحم . وحرم الله تعالى على بني إسرائيل الشحوم بقوله : ﴿ حَرَّمَ عَلَيْنَا شُحُومَهُمَا ﴾ فلم يقع بهذا عليهم تحريم اللحم ولم يدخل في اسم الشحم ؛ فلهذا فرق مالك بين الحالف في الشحم والحالف في اللحم ؛ إلا أن يكون الحالف نيته في اللحم دون الشحم ؛ والله تعالى أعلم . ولا يحنث في قول الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي إذا حلف ألا يأكل لحما فاكل شحما . وقال أحمد : إذا حلف ألا يأكل لحما فاكل الشحم لا بأس به إلا أن يكون أراد اجتنب القسم .

السابعة عشرة - لا خلاف أن حيلة الخنزير حزمة إلا الشعر فانه يجوز الخرازة به . وقد روى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخرازة بشعر الخنزير ؛ فقال : " لا بأس بذلك " ذكره ابن خزيمة متناهد . قال : ولأن الخرازة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ؛ وبعدة موجودة ظاهرة ؛ لا تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكرها ولا أحد من الأئمة بعده . وما أجوزة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كابتداء الشرع منه .

الثامنة عشرة - لا خلاف في تحريم خنزير البر كما ذكرنا . وفي خنزير الماء خلاف ؛ وأبي مالك أن يحبس فيه بشيء . وقال : أتم تقولون خنزيرا . وقد تقدم . وسأيت ياته في المائة إن شاء الله تعالى .

الثامنة عشرة - ذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية . وحكي ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خزر العين ؛ لأنه كذلك ينظر ، واللفظة على هذا ثلاثية . وفي الصحاح : وتنازرو الرجل إذا ضيق جفنه ليعتد النظر . والخنزور : ضيق العين وبصرها . رجل خنزور الخنزور ، ويقال : هو أن يكون الإنسان كأنه ينظر بخنزيرها . وجمع الخنزير خنازير . والتنازير أيضا لغة معروفة ، وهي فروع صلبة تحدث في الرقبة .

المرفوعة عشرين - قوله تعالى : ( وَمَا أَهْلُ بِهِ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ ) أي ذكر عليه اسم غير الله تعالى ، وهي ذبيحة المحوسى والوثقى والمعتل . فالوثقى بذبح اللوث ، والمحوسى للثار ، والمعتل لا يستد شيئا فيذبح لنفسه . ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المحوسى لثاره ، والوثقى لوثه لا يؤكل ، ولا تؤكل ذبيحتهما ، عند مالك والشافعي وغيرهما ، وإن لم يذبحا لثاره ووثقه ، وأجازهما ابن المسيب وأبو ثور إذا ذبح لمسلم بأمره . وسأيت لهذا مزيد بيان . إن شاء الله تعالى في سورة « المائة » . والإهلال : رفع الصوت ؛ يقال : أهل بكنا ، أي رفع صوته ؛ قال ابن جرير صف فلاة :

يُهل بالقرقة رُكُلتُها • كما يُهل الراكب للمُتمير

وقال الناجية :

أو درة صنفية غواصها • بهج متى يرها يهل ويسجد

ومنه إهلال الصبي واستهلاله ، وهو صياحه عند ولادته . وقال ابن عباس وغيره : المراد ما ذبح للأتصاب والأوثان ، لا بما ذكر عليه اسم المسيح ، على ما يأتي بيانه في سورة « المائة » . إن شاء الله تعالى . ووجرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة . وغلب ذلك في استعمالهم حتى عبروا عن الشيء الذي هي لغة التحريم . ألا ترى أن علي بن أبي طالب رضي

الله منه راعى النية في الإبل التي منحها غالب أبو الغزندق فقال : إنها مما أهل لنير الله به ؛  
فتركها الناس . قال ابن عطية : ورأيت في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سئل عن  
امرأة متوفة صنعت لغيرها عرسا فتحرت جزورا ؛ فقال الحسن : لا يحمل أكلها فانها إنما  
نحوت لصنم .

قلت : ومن هذا المعنى ما رواه عن يحيى بن يحيى التميمي شيخ مسلم قال : أخبرنا  
جرير عن قابوس قال : أرسل أبي امرأة إلى عائشة رضى الله عنها وأمرها أن تقرأ عليها  
السلام منه ، ونسألكم آية صلاة كانت أعجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدوم عليها .  
قالت : كان يصلي قبل الظهر أربع ركعات يطيل فيهن القيام ويمسح الركوع والسجود ،  
فأما ما لم يدع قط : صحيحا ولا مريضا ولا شاهدا ركعتين قبل صلاة الغداة . قالت امرأة  
عند ذلك من الناس : يا أم المؤمنين ، إن لنا أظارا من العجم لا يزال يكون لهم عيد فيلبثون  
لنا منه ، أفأكل منه شيئا ؟ قالت : أما ما ذبح لك اليوم فلا تأكلوا ولكن كلوا  
من أشجارهم .

الحادية والعشرون - قوله تعالى : ( فَمَنْ أَضْطَرُّ ) قرئ بضم النون للإبتاع ،  
وبالكسر وهو الأصل لاكتفاء الساكنين . وفيه إختار ، أى فمن اضطر إلى شئ من هذه المحرمات  
أى أحوج إليها ؛ فهو أقتل من الضرورة . وقرأ ابن محيصن « فمن أطر » بإدغام الضاد .  
وأبو السمال « فمن أضطر » بكسر الطاء . وأصله اضطرر فلما أدغمت ثقلت حركة الراء  
إلى الطاء .

الثانية والعشرون - الاضطراب لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم ، أو بيجوع في خصعة .  
والذى عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء في معنى الآية هو من صيره القدم والقرت وهو الجوع  
إلى ذلك ؛ وهو الصحيح . وقيل : معناه أكره وظلب على أكل هذه المحرمات . قال مجاهد :  
يشى أكره عليه كالرجل يأخذ المدق فيكرهونه على لحم الخنزير وغيره من مصيبة الله تعالى .  
إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه .

وأما المحصنة فلا يحل أن تكون دأمة أولاً ؛ فإن كانت دأمة فلا خلاف في جواز الشرب من الميتة ؛ إلا أنه لا يحل له أكلها وهو يعد مال مسلم لا يخاف فيه قطعا ؛ كالتمر المعاق ، وحرية الجبل ، ونحو ذلك مما لا قطع فيه ولا أدنى . وهذا مما لا اختلاف فيه ؛ لحديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : بينا نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر إذ رأينا إبلا مصرورة بمضاد الشجر فتبنا إليها فنادانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا إليه فقال : "إن هذه الإبل لأهل بيت من المسلمين هو قوتهم وبئهم بعد الله أيسركم لو رجعت إلى مزاولكم فوجدتم ما فيها قد ذهب به آتون ذلك عدلا" قالوا : لا ؛ فقال : "إن هذا كذلك" . قلنا : أفرأيت إن احتجنا إلى الطعام والشراب ؟ فقال : "كل ولا تحمل واشرب ولا تحمل" . نزعنا ابن ماجه رحمه الله ؛ وقال : هذا الأصل عندى . وذكره ابن المنذر قال : قلنا يا رسول الله ، ما يحل لأحدنا من مال أخيه إذا اضطر إليه ؟ قال : "يا كل ولا يحمل ويشرب ولا يحمل" قال ابن المنذر : وكل مختلف فيه بعد ذلك فردود إلى تحريم الله الأموال . قال أبو عمر : وبجمله القول في ذلك أن المسلم إذا تبين عليه رد رفق مهجة المسلم ، وتوبه الفرض في ذلك بالألا يكون هناك غيره قضى عليه بتريق تلك المهجة الآدمية . وكان للمنع منه ماله من ذلك عبارة من منته ومقاتلته ، وإن أتى ذلك على نفسه . وذلك عند أهل العلم إذا لم يكن هناك إلا واحد لا غير ؛ فحينئذ يتعين عليه الفرض . فإن كانوا كثيرا أو جماعة وعددا كان ذلك عليهم فرضا على الكفاية . والماء في ذلك وغيره مما يرد نفس المسلم ويمسكها سواء . إلا أنهم اختلفوا في وجوب قيمة ذلك الشيء على الذى ردته به مهجته وورق به نفسه ؛ فأوجبها موجبون ، وأباحتها آخرون . وفي مذهبتنا القولان جميعا . ولا خلاف بين أهل العلم بتأخيرهم ومتقسطهم في وجوب رد مهجة المسلم عند خوف التعاب والتلف بالشيء اليسير الذى لا مضرة فيه على صاحبه وفيه البلغة .

(١) الحرصة : الناة تترك للإلا . وفي الحديث "لا تطلع في حرية الجبل" . أى ليس بما يحرس بالجبل تطلع ؛ لأنه ليس بحرزة .

(٢) كذا في سنن ابن ماجه ؛ أى يركبهم وخيرهم . وفي الأموال : « قسيتهم » .



الثالثة والعشرون - نخرج ابن ماجه أنبأ أبو بكر بن أبي شيبة أنبأ شاذان وحسن محمد ابن بشار ومحمد بن الوليد قالوا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر جعفر بن إياس قال : سمعت عباد بن شرحبيل - رجلا من بني فُهر - قال : أصابنا علم بمخمة فأتيت المدينة فأتيت حائطا من حيطانها فأخذت منبلا ففركته واكنته وجعلته في كسائي ؛ بقاء صاحب الحائط فضر بني وأخذ ثوبي ؛ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ؛ فقال للرجل : " ما أطعمته إذ كان جائعا أو ساعبا ولا علمته إذ كان جاهلا " فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فرد إليه ثوبه ، وأمر له بوثق من طعام أو نصف وسيق .

قلت : هذا حديث صحيح انفق على رجاله البخاري ومسلم ؛ إلا ابن أبي شيبة فإنه لمسلم وحده . وعباد بن شرحبيل الفهري البشكري لم يخرج له البخاري ومسلم شيئا ، وليس له عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذه القصة فيما ذكر أبو عمر رحمه الله ، وهو ينفي القطع والأدب في المخمصة . وقد روى أبو داود عن الحسن بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أتى أحدكم على ماشية فإن كان فيها صاحبها فليستأذنه فإن أذنته فليحتلب وليشرب وإن لم يكن فيها فليصوت ثلاثا فإن أجاب فليستأذنه فإن أذنت له وإلا فليحتلب وليشرب ولا يحمل " . وذكر الترمذي عن يحيى بن سليم عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من دخل حائطا غليا كل ولا يتخذ خُبنة " . قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن سليم . وذكر من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الثمر المعلق ؛ فقال : " من أصاب منه من ذى حاجة غير متخذ خُبنة فلا شيء عليه " . قال فيه : حديث حسن . وفي حديث عمر رضي الله عنه : " إذا مر أحدكم بحائط غليا كل منه ولا يتخذ ثيابا " . قال أبو عبيد الله أبو عمر : وهو الوطاء الذي يحمل فيه الشيء . فإن حملته بين يديك فهو ثياب ؛ يقال : قد تبيت ثيابا . فإن حملته على ظهرك فهو الحلال ؛ يقال منه : قد تحمّلت كسائي إذا جعلت فيه شيئا ثم حملته على ظهرك .

فان جعلته فى حضنك فهو خَبْنَة . ومنه حديث عمرو بن شعيب المرفوع "ولا يتخذ خبنة".  
يقال فيه : خَبَنَ أَخْبَنَ خَبْنًا . قال أبو عبيد : وإنما يوجه هذا الحديث أنه رخص فيه  
للجامع المضطر الذى لا شئ معه يشترى به الآكل إلا ما كان فى بطنه قدر قوته .

قلت : لأن الأصل المتفق عليه تحريم مال الغير إلا بطيب نفس منه ؛ فان كانت هناك  
عادة بعمل ذلك كما كان فى أول الاسلام ، أو كما هو الآن فى بعض البلدان ، فذلك جائز .  
ويحل ذلك على أوقات المجاعة والضرورة ، كما تقدم والله أعلم .

وإن كان الشئ<sup>(١)</sup> وهو الجدر فى وقت من الأوقات ؛ فاختلف العلماء فيها على قولين :  
أحدهما - أنه يأكل حتى يشبع ويتضلع<sup>(٢)</sup>؛ ويتردد إذا خشى الضرورة فيما بين يديه من مفازة  
وقفر ، وإذا وجد عنها غنى طرحها . قال معناه مالك فى موطأه . وبه قال الشافعى وكثير  
من العلماء . والمجبة فى ذلك أن الضرورة ترفع التحريم فيعود بإباحة . ومقدار الضرورة إنما هو  
فى حالة عدم القوت الى حالة وجوده . وحديث المنبر نص فى ذلك ؛ فإن أصحاب النبي صلى  
الله عليه وسلم لما وجعوا من سفرهم وقد ذهب عنهم الزاد ، انطلقوا الى ساحل البحر فرفع  
لهم على ساحله كهية الكتيب الضخم ؛ فلما أتوه اذا هى دابة تدعى المنبر فقال أبو عبيدة  
أميرهم : ميتة . ثم قال : لا ، بل نحن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى سبيل الله ،  
وقد اضطررتم فاكلوا . قال : فاكلنا عليها شهرا ونحن ثمانية حتى سميت . الحديث . فاكلوا  
وشبعوا - رضوان الله عليهم - مما اعتقدوا أنه ميتة وترقدوا منها الى المدينة ، وذكروا ذلك  
لنبي صلى الله عليه وسلم فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه حلال وقال : "هل معكم من لحمه شئ"  
فتطعمونا . فأرسلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله . وقالت طائفة : يأكل  
بقدر سد الرمق . وبه قال ابن الماجشون وابن حبيب . وفتى أصحاب الشافعى بين حالة  
المقيم والمسافر فقالوا : المقيم يأكل بقدر ما يسد رمقه ، والمسافر يتضلع ويترقد ؛ فإذا وجد

(١) يريد بالثاني أحد فرضي الخمسة الذى تقدم فى المسئلة « الثانية والعشرين » وهو غير الباقية .

(٢) تضلع : امتلا شبا أو ديا .

غنى عنها طرحها ، وإن وجد مضطرا أعطاه إياها ولا يأخذ منه عوضا ، فإن الميتة لا يجوز بيعها .

الرابعة والمشرون — فإن اضطرت إلى نحر فإن كان يكره شرب بلا خلاف ، وإن كان يجوز أو عطش فلا يشرب . وبه قال مالك في الميتة قال . ولا يزيده النحر إلا عطشا . وهو قول الشافعي ؛ فإن الله تعالى حرم النحر تحريما مطلقا ، وحرم الميتة بشرط عدم الضرورة . وقال الأجهزي : إن ردت النحر عنه جوعا أو عطشا شربها ؛ لأن الله تعالى قال في النحر «إنه رجس» ثم أباحه للضرورة . وقال تعالى في النحر «إنها رجس» فتدخل في إباحة النحر للضرورة بالمعنى الجلي الذي هو أقوى من القياس ؛ ولا بد أن تروى ولو ساعة ، وترد الجوع وإرمدة .

الخامسة والمشرون — روى أصحح عن ابن القاسم أنه قال : يشرب المضطر الدم ولا يشرب النحر . وبأكل الميتة ولا يقرب صول الإبل . وقاله ابن وهب . ويشرب البول ولا يشرب النحر ؛ لأن النحر يلزم فيها الحد فهي أعظم . نص عليه أصحاب الشافعي .

السادسة والمشرون — فإن غص بقمة فهل يسبها بنحر أو لا ؛ قيل : لا ، مخافة أن يدعى ذلك . وأجاز ذلك ابن حبيب ؛ لأنها حالة ضرورة . ابن العربي : «أما الناس بقمة فإنه يجوز له فيما بينه وبين الله تعالى ، وأما فيما بيننا فإن شاهدناه فلا نخفى علينا بقرائن الحال صورة النصة من غيرها ؛ فيصدق إذا ظهر ذلك ؛ وإن لم يظهر حددناه ظاهرا وسلم من العقوبة عند الله تعالى باطنا . ثم إذا وجد المضطر ميتة وخترنا ولم ين آدم أكل الميتة ؛ لأنها حلال في حال . والتحريم وابن آدم لا يحمل بحال . والتحريم الخفيف أولى أن يقتصر من التحريم الثقيل ؛ كما لو أكره أن يطأ أخته أو أجنبية وطئ الأجنبي لأنها تحمل له بحال . وهذا هو الضابط لهذه الأحكام . ولا يأكل ابن آدم ولو مات . قاله علماؤنا وبه قال أحمد وناوذة . احتج أحمد بقوله عليه السلام : «كسر عظم الميت ككسره حيا» . وقال الشافعي : يأكل لحم ابن آدم ، ولا يجوز له أن يقتل قتيلا لا يعمه الدم ، ولا مسلما ولا أسيرا لا يملك بالشرع

فإن كان حربيا أو زانيا عصفا جاز قتله والأكل منه . وشنع داود على المزني بأن قال : قد أبت أكل لحوم الأنبياء ! فقلب عليه ابن شريح بأن قال : فانت قد تمرضت لقتل الأنبياء إذ منتهم من أكل الكافر . قال ابن العربي : الصحيح عندى ألا يأكل الآدمي إلا إذا تحقق أن ذلك يجنيه ويحييه . والله أعلم .

السابعة والعشرون - مثل مالك من المضطر إلى أكل الميتة وهو يجد مال الغير ثم أوزرعا أو غنا؛ فقال : إن أمن الضرر على بدنه بحيث لا يمد سارقا ويصدق في قوله أكل من أكل ذلك وجد ما يرد جموعه ولا يحمل منه شيئا ، وذلك أحب إلى من أن يأكل الميتة . وقد تحتم هذا الملقى مستوفى . وإن هو غشى إلا يستقوه وأن يمدوه سارقا فلك أكل الميتة أجوز عندى ، وله في أكل الميتة على هذه المذلة سعة .

الثامنة والعشرون - روى أبو داود قال حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا حماد عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة أن رجلا نزل الحزة ومعه أهله وولده ؛ فقال رجل : إن ناقة لي ضلت فإن وجدتها فأمسكها ؛ فوجدوها ولم يوجد صاحبها ففرضت ؛ فقالت أمرأته : انحرها ؛ فابى نفقت . فقالت : اسلخها حتى قلند لها وشحمها وتأكله ؛ فقال : حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فساله ؛ فقال : " هل عندك غنى يُفنيك " قال : لا ؛ قال : " فكلوها " قال : بغاه صاحبها فأخبره الخبر ؛ فقال : هلا كنت نحرمتها ! فقال : استجيت منك . قال ابن خزيمة : في هذا الحديث دليلان : أحدهما - أن المضطر يأكل من الميتة وإن لم يخف التلف ؛ لأنه ساله عن النقي ولم يسأله عن خوفه على نفسه . والثاني - يأكل ويشبع وينترو ويتردد ؛ لأنه أباحه الاختار ولم يشترط عليه أن يشبع . قال أبو داود : وحدثنا هارون بن عبد الله قال حدثنا الفضل بن دكين قال أنباء عتبة بن وهب بن عقبة العامري قال : سمعت أبي يحدث عن الشعبي العامري أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما نحل لنا الميتة ؟ قال : " ما بطل عليكم " قلنا : يتنقى وتصطليح . قال أبو نعيم : فسره لي عتبة ففدح غدوة وقدم حشية قال : ذاك ؛ وأبى الجوع . قال : فأكل لم الميتة

على هذه الحال . قال أبو داود : القيق من آخر النهار والصُّبُوح من أوّل النهار . وقال الخطابي : القيق العشاء ، والصُّبُوح الغداء ، والقِدَح من اللبن بالغداة ، والقِدَح بالعشي يمسك الرميح ويقيم النفس وإن كان لا يفذي البدن ولا ينشع الشبع التام . وقد أباح لمع مع ذلك تناول الميتة ؛ فكان دلالته أن تناول الميتة مباح إلى أن تأخذ النفس حاجتها من القوت . وإلى هذا ذهب مالك وهو أحد قول الشافعي . قال ابن خزيمة : إذا جاز أن يصطبجوا ويستبقوا جاز أن يشعوا ويتزودوا . وقال أبو حنيفة والشافعي في القول الآخر : لا يجوز له أن يتناول من الميتة إلا قدر ما يمسك رفق . وإليه ذهب المزني . قالوا : لأنه لو كان في الإبتداء بهذه الحال لم يجره أن يأكل منها شيئا ؛ فكذلك إذا بلغها بعد تناولها . وروى نحوه عن الحسن . وقال قتادة : لا يتصلح منها بشي . وقال مقاتل بن حيان : لا يزداد على ثلاث لقم . والصحيح خلاف هذا ؛ كما تقدم .

التاسعة والعشرون - وأما التداوى بها فلا يخلو أن يحتاج إلى استعمالها قائمة البين أو محرقة ؛ فإن تغيرت بالاحراق فقال ابن حبيب : يجوز التداوى بها والصلاة . وخففه ابن الماجشون بناء على أن الحرق تطهير لغير الصفات . وفي التوبة من رواية مالك في المرتك<sup>(١)</sup> يصنع من عظام الميتة إذا وضعه في جرحه لا يصل به حتى يشفيه .

وإن كانت الميتة قائمة بينها فقد قال مجنون : لا يتداوى بها بحال ولا بالخرق ؛ لأن منها عوضا حلالا بخلاف الجماعة . ولو وجد منها عوض في الجماعة لم تترك . وكذلك الخمر لا يتداوى بها ، قاله مالك ، وهو ظاهر مذهب الشافعي ، وهو اختيار ابن أبي هريرة من أصحابه . وقال أبو حنيفة : يجوز شربها للتداوى دون العطش ؛ وهو اختيار القاضي الطبري من أصحاب الشافعي ، وهو قول الثوري . وقال بعض البغداديين من الشافعية : يجوز شربها للعطش دون التداوى ؛ لأن ضرر العطش عاجل بخلاف التداوى . وقيل : يجوز شربها للأمرين جميعا . ومنع بعض أصحاب الشافعي التداوى بكل محرم إلا بأبوال الإبل خاصة ؛ لحديث المرتين .

(١) المرتك (كلمة) : شرب من الأدوية .

ومنع بعضهم التداوى بكل مجزم؛ لقوله عليه السلام: «إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليهم». ولقوله عليه السلام لطارق بن سويد وقد سأله عن الخمر فقهاه أكره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء؛ فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء». رواه مسلم في الصحيح. وهذا يحتمل أن يقيد بحالة الاضطرار فإنه يجوز التداوى بالسّم ولا يجوز شربه. والله أعلم.

المؤيدة ثلاثين - قوله تعالى: (غَيْرِ بَاغٍ) غير، نصب على الحال. وقيل: على الاستثناء. وإذا رأيت "غير" يصلح في موضعها "في" فهي حال، وإذا صلح موضعها "إلا" فهي استثناء، قس عليه. وبإغ، أصله باغى فقلت الضمة على الياء فسكنت والثنون ساكن فحذفت الياء والكسرة دالة عليها. والمعنى فيما قل قتادة والحسن والربيع وابن زيد وعكرمة: غير باغ في أكله فوق حاجته، ولا عاد بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة ويأكلها. وقال السدي: غير باغ في أكلها شهوة وتلذذا، ولا عاد باستيفاء الأكل إلى حد الشبع. وقال مجاهد وابن جبير وغيرهما: المعنى غير باغ على المسلمين ولا عاد عليهم؛ فيدخل في الباغي والعادي قطاع الطريق والخارج على السلطان والمساخر في قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله. وهذا صحيح؛ فإن أصل البغي في اللغة قصد الفساد؛ يقال: بَغَت المرأة تَبْنِي بِنَاءً إِذَا بَغَرَتْ؛ قال الله تعالى: (وَلَا تُكْرَهُوا قِتَابَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ). وربما استعمل البني في طلب غير الفساد. والعرب تقول: خرج الرجل في بُغَاءٍ لَيْلٍ لَهُ، أي في طلبها؛ ومنه قول الشاعر:

لا يَمْنَعُكَ مِنْ بُغَا • انْصَبِرْ تَعْقَادَ الزَّيْتِ

إِنَّ الْأُنْثَى كَلَايَا • مِنَ الْوَيْلِ مِنَ كَلَاثِمِ

الحادية والثلاثون - قوله تعالى: (وَلَا عَادٍ) أصل عاد عائد؛ فهو من المقلوب كشاك السلاح وهار ولآث. والأصل شائك وهار ولآث من قَتَّ الهلمة. فأباح الله في حالة الاضطرار أكل جميع المحرمات لجزءه عن جميع المباحات كما بينا؛ فصار عدم المباح شرطا في استباحة المحرم.

الثانية والثلاثون — واختلف العلماء إذا اقترن بضرورة معصية، بقطع طريق وإخافة سبيل؛ فحظرها عليه مالك والشافعي في أحد قوليهِ لأجل معصيته ؛ لأن الله سبحانه أباح ذلك عوناً ، والمعاصي لا يحل أن يعان بها فإن أراد الأكل فليتب وليأكل . وإباحته له أبو حنيفة والشافعي في القول الآخر له ، وسواء في استحبابه بين طاعته ومعصيته . قال ابن العربي : وعجبا ممن يدعي له ذلك مع التصادي على المعصية ، وما أظن أحداً يقول ، فإن قاله فهو مخطئ ، قطعاً .

قلت : الصحيح خلاف هذا ؛ فإن إلتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وهذا عام ، ولعله يتوب في ثاني حال فتمحو التوبة عنه ما كان . وقد قال مسروق : من اضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى مات دخل النار ؛ إلا أن يعفو الله عنه . قال أبو الحسن الطبري المعروف بالكي : وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة بل هو عزيمة واجبة ، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصياً ، ونيسر [تأول] الميتة من رخص السفر أو متعلقاً بالسفر بل هو من نتائج الضرورة سفرًا كان أو حضراً ، وهو كالإفطار للمعاصي المقيم إذا كان مريضاً ، وكالتيمم للمعاصي المسافر عند عدم الماء . قال : وهو الصحيح عندنا .

قلت : واختلفت الروايات عن مالك في ذلك ؛ فالشهور من مذهبه فيها ذكره الباسي في المتن : أنه يجوز له الأكل في سفر المعصية ولا يجوز له القصر والفطر . وقال ابن خزيمة : فاما الأكل عند الاضطرار فالطامع والمعاصي فيه سواء ؛ لأن الميتة يجوز تناولها في السفر والحضر ، وليس بمفروج الخارج إلى المعاصي يسقط عنه حكم المقيم بل أسوأ حالة من أن يكون مقيماً ؛ وليس كذلك الفطر والقصر لأنهما رخصتان متعلقتان بالسفر . فتي كان السفر سفر معصية لم يميز أن يقصر فيه ؛ لأن هذه الرخصة تختص بالسفر ؛ ولذلك قلنا : إنه يقيم إذا عدم الماء في سفر المعصية ؛ لأن التيمم في الحضر والسفر سواء . وكيف

يجوز منه من أكل الميتة والتميم لأجل معصية ارتكبتها ، وفي تركه الأكل تلف نفسه ،  
وتلك أكبر المعاصي ، وفي تركه التيمم إضاعة الصلاة . يجوز أن يقال له : ارتكبت معصية  
فارتكبت أخرى ؟ يجوز أن يقال لشارب الخمر : اذن ، ولا زاني : اكفر ؟ أو يقال لها : ضيما الصلاة ؟  
ذكر هذا كله في أحكام القرآن له . ولم يذكر خلافا عن مالك ولا عن أحد من الصحابة .  
وقال الباجي : وروى زياد بن عبد الرحمن الأنباري أن المعاصي يسفره يقصر الصلاة ،  
ويغفر في رمضان . فسوى بين ذلك كله ، وهو قول أبي حنيفة . ولا خلاف أنه لا يجوز له  
قتل نفسه بالإسكاف عن الأكل ، وأنه مأمور بالأكل على وجه الوجوب . ومن كان في سفر  
معصية لا تسقط عنه القروض والواجبات من الصيام والصلاة ، بل يلزمه الإتيان بكليهما ،  
فكذلك ما ذكرناه . وجه القول الأول أن هذه المعاني إنما أيجت في الأسفار لحاجة الناس  
اليها ، فلا يباح له أن يستعين بها على المعاصي وله سبيل إلى ألا يقتل نفسه . قال ابن حبيب :  
وذلك بأن يتوب ثم يتناول لحم الميتة بعد توبته . وتعلق ابن حبيب في ذلك بقوله تعالى :  
( لَقَدْ أَضَلُّواْ غَيْرَ بَآغٍ وَلَا عَادٍ ) . فاشتراط إبادة الميتة للضرورة ألا يكون باغيا . والمسافر  
على وجه الحراية أو القلع ، أو في قطع رحم أو طالب إثم ، باغ ومعتد ، فلم توجد فيه شروط  
الإبادة . والله أعلم .

قلت : هذا استدلال بمفهوم الخطاب ، وهو مختلف فيه بين الأصوليين . ومنظوم الآية  
أن المضطر غير باغ ولا عاد لا إثم عليه ، وغيره مسكوت عنه ، والأصل عموم الخطاب ؛ فمن  
ادعى زواله لأمر ما فعله الدليل .

الرابعة والثلاثون — قوله تعالى : ( فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) أي بغفر المعاصي ؛ فأولى  
الأول بأخذ بما رخص فيه ، ومن رخصه أنه رخص .

قوله تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ) . يعني علماء اليهود كنتموا  
ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته . ومعنى أنزل : أظهر ؛



كما قال تعالى : ( وَمَنْ قَالْ سَاءَ بِلِيٍّ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ) أى ساطع . وقيل : هو على بابه من القول ، أى ما أنزل به ملائكته على رسله . ( وَيَشْتَرُونَ بِهِ ) أى بالمكسب ( نَحْمًا قَلِيلًا ) يعنى أخذ الرشاء . وسماه قليلا لامتطاع مدته وسوء عاقبه . وقيل : لأن ما كانوا يأخذونه من الرشاء كان قليلا .

قلت : وهذه الآية وإن كانت فى الأخبار فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق غفارا لذلك بسبب دنيا يصيبها . وقد تقدم هذا المعنى .

قوله تعالى : ( فِي بَطُونِهِمْ ) ذكر البطون دلالة وتأكيذا على حقيقة الأكل إذ قد يستعمل مجازا فى مثل : أكل فلان أرضى ونحوه . وفى ذكر البطون أيضا تنبيه على جشعهم وانهم باعوا آخرتهم بمخبطهم من الطعام الذى لا خطر له . ومعنى « إِلَّا النَّارَ » أى إنه حرام بصنيعهم الله عليه بالنار ، فسعى ما أكلوه من الرشاء نارا لأنه يؤتىهم الى النار . هكذا قال أكثر المفسرين . وقيل : أى إنه يعاقبهم على كتمانهم باكل النار فى جهنم حقيقة ، فأخبر عن المال بالحال ، كما قال تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بَطُونِهِمْ نَارًا ) أى أن عاقبه تؤول الى ذلك ، ومنه قولهم :

• لِدُوا لَوْتَ وَلِئِنَّا لَهَرَاب •

قال :

• قللموت ما تلد الوالدة •

آخر :

• ودورنا لخراب الدهر نينها •

وهو فى القرآن والشعر كثير .

قوله تعالى : ( وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ) عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضا عنهم ، يقال : فلان لا يكلم فلانا إذا غضب عليه . وقال الطبرى : المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه . وفى الترتيل : ( اخشعوا فيها وَلَا تَكَلِّبُونَ ) . وقيل : المعنى ولا يرسل اليهم الملائكة بالتحية . ( وَلَا يَرْكَبُكُمْ ) أى لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم . وقال الزجاج : لا يلقى عليهم شيئا

ولا يسئهم أن يكلف « أليم » يعني مؤلم ، وقد تقدم . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة  
 رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة  
 ولا يزكهم ولا ينظر إليهم ولم يغاب أليم شيخ زان وبك كذاب وعامل مستكر » .  
 وإنما خص هؤلاء باليم المذاب وشدة العقوبة لمحض الممانعة والاستغفاف الحامل لم على  
 تلك المعاصي ؛ إذ لم يحملهم على ذلك حاجة ولا دفعهم إليه ضرورة كما تدعون لم يكن  
 مثلهم . ومعنى « لا ينظر إليهم » لا يرحمهم ولا يعطف عليهم . وسياق في آل عمران إن  
 شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْمَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ) تقدم القول  
 فيه . ولما كان المذاب تابعا لله ؛ إذ وكانت المغفرة تابعة للهدى الذى أطرحوه دخلا  
 في تجوز الشراء .

قوله تعالى : ( قُلْ أَصْبَرُمْ عَلَى النَّارِ ) مذهب الجمهور ، منهم الحسن وعجمه ، أن « ما »  
 منهاء التجب ؛ وهو مردود إلى المخلقين ؛ كأنه قال : أعجزوا من صبرهم على النار ومكثهم  
 فيها ؛ وفي التزيل : ( قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرُ ) و ( أَسْبَحَ بِمِ وَابْصُر ) . وهذا اللفظ  
 صدر أبو علي . قال الحسن وقتادة وابن جبير والربيع : ما لم والله علينا من صبر ، ولكن  
 ما أجرام على النار ؛ وهي لغة بنية معروفة . قال الفراء : أخبرني الكاشي قال : أخبرني  
 قاضي اليمن أن خصمين اختصما إليه فوجبت اليمين على أحدهما خلف ؛ فقال له صاحبه :  
 ما أصبرك على الله . أى ما أجراك عليه . والمعنى : ما أشجعهم على النار إذ يصلون عملا يؤدى  
 إليها . وحكى الزجاج أن المعنى ما أقام على النار ؛ من قولهم : ما أصبر فلانا على الحبس !  
 أى ما أبقاء فيه . وقيل : المعنى فما أقل جزعهم من النار ؛ بفعل فلة الجزع صبرا . وقيل  
 الكاشي وضرب : أى ما أدومهم على عمل أهل النار . وقيل : ما استنهم منهاء التوبيخ ؛  
 قاله ابن عباس والسدى وعطاء وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، ومنه : أى أى شئ صبرهم  
 على عمل أهل النار ؟ ! وقيل مقابله وبه الاستهانة بهم والاستغفاف بأمرهم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ذلك في موضع رفع ، وهو إشارة إلى الحكم ؛ كأنه قال : ذلك الحكم بالنار . وقال الزجاج : تقديره الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر أو ذلك العذاب لهم . قال الأخفش : وخبر ذلك مضمرة ، معناه ذلك معلوم لهم . وقيل : محله نصب ، معناه فعلنا ذلك بهم . ﴿ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ زَلَّ الْكِتَابِ ﴾ يعني القرآن في هذا الموضع ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقيل بالجملة . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ ﴾ يعنى التوراة ؛ فادعى النصارى أن فيها صفة عيسى ، وأنكر اليهود صفته . وقيل : خالفوا آباءهم وسلفهم في التسبب بها . وقيل : خالفوا ما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم واختلّفوا فيها . وقيل : المراد القرآن . والذين اختلفوا كفار قريش ، يقول بعضهم : هو سحر . وبعضهم يقول : أساطير الأولين . وبعضهم : مقترى ؛ إلى غير ذلك . وقد تقدّم القول في معنى الشقاق والجدد .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْمُتَّقُونَ ﴾ فيه ثمان مسائل : الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ ﴾ اختلف من المراد بهذا الخطاب ؛ فقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا سأل نبي الله صلى الله عليه وسلم عن البر ؛ فأئزله هذه الآية ؛ قال : وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ؛ ثم مات على ذلك وجبت له الجنة ؛ فأئزله هذه الآية . وقال الربيع وقاتدة أيضا : الخطاب لليهود والنصارى لأنهم اختلفوا في التوجه والتولي ؛ فاليهود إلى المغرب قبل بيت المقدس ، والنصارى إلى المشرق مطلع الشمس . وتكلموا في تحويل القبلة ونقضت كل فرقة توليتها ؛ فقيل لهم : ليس البر ما أتم فيه ، ولكن البر من آمن بالله .

الثانية — قرأ حمزة وحفص « البر » بالنصب ؛ لأنّ ليس من أخوات كان ، يقع بعدها المرفقان فتجعل أيهما شئت الاسم أو الخبر ؛ فلما وقع بعد ليس « البر » نصبه ؛ وجعل « أن تولوا » الاسم ، وكان المصدر أولى بأن يكون اسما لأنه لا يتنكر ، والبر قد يتنكر والفعل أقوى في التعريف . وقرأ الباقون بالرفع على أنه اسم ليس . وخبره « أن تولوا » تقديره : ليس بجهوليتكم وجوهكم ؛ وعلى الأول ليس توليتكم وجوهكم البر ؛ كقوله : ﴿ مَا كَانَ

مَجْمَعُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ) : ( ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَأُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا ) ( فَكَانَ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ ) وما كان مثله . ويقوى قراءة الرفع أن الثاني منه الباء إجماعاً في قوله : ( وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْقُبُورَ مِنْ ظُهُورِهَا ) ولا يجوز فيه إلا الرفع ؛ فعمل الأول على الثاني أولى من مخالفته له . وكذلك هو في مصحف أبي بـالباء « ليس البر بأن تولوا » وكذلك في مصحف ابن مسعود أيضاً ؛ وعليه أكثر القراء ، والقراءتان حسنان .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَلَيْكِنْ الْبِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ) البرها هنا أسم جامع للخير ، والتقدير : ولكن البر من آمن ؛ فحذف المضاف كقوله تعالى : ( وَاسْتَلِ الْقَرْيَةَ ) . ( وَاشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمُبِغْلَ ) . قاله الفراء وقطرب والزجاج . وقال الشاعر :

فإنما هي إقبال وإدبار .

أى ذات إقبال وذات إدبار . وقال النابتة :

وكيف تواصل من أصبحت . خلاسته كتابي مرحب

أى تكللة أبى مرحب ؛ فحذف . وقيل : للمعنى ولكن ذا البر ؛ كقوله تعالى : ( ثُمَّ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ) أى ذنوب درجات . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وفرضت الفرائض وصرفت القبيلة إلى الكعبة وحنت الحنود أنزل الله هذه الآية فقال : ليس البر كله أن تصلوا ولا تعملوا غير ذلك ، ولكن البر أى ذا البر من آمن بالله إلى آخرها ؛ قاله ابن عباس وعجاجة والضحاك وطاء وسفيان والزجاج أيضاً . ويجوز أن يكون « البر » بمعنى البار والبر ، والفاعل قد يسى بمعنى المصنوع ؛ كما يقال : رجل عدل ، وصوم وفطر . وفى التبريل : ( إِنْ أَصْبَحَ مَلَأُكُمْ غَوْرًا ) أى غائراً . وهذا اختيار أبى دينة . وقال المبرد : لو كنت ممن يقرأ القرآن لقراءت « ولكن البر » بفتح الباء .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَالْمُؤْمِنُونَ يَهْتَدُونَ لَكُمْ وَالصَّابِرِينَ ) قيل : يكون « المؤمنون » عطفاً على « مَنْ » لأن من في موضع جمع وعمل رفع ، كأنه قال : ولكن ، البر المؤمنون والمؤمنون ؛ قاله الفراء والأخفش . والصابرين ، نصب على المدح ، أو بإسماهم فصل .

والعرب تنصب على المدح وعلى الذم؛ كأنهم يريدون بذلك أفراد المدح والمذموم ولا يتبعونه  
أول الكلام، وينصبونه. فاما المدح فقوله: (وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالَةِ) . وأتشد الكسائي :  
وكل قوم أطاعوا أمر مرشدكم . إلا مُعْتَبَرًا اطاعت أمر غلوها  
الطاعين ولما يَطْعَمُوا أَحَدًا . والقائلون لمن دار مُخْلِهَا

وأشد أبو عبيدة :

لَا يَتَّبِعُونَ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ . سَمِ السَّاءَةِ وَآفَةُ الْجَزْرِ  
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُتَرَكٍّ . وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأُزْرِ

وقال آخر :

• نحن بنى ضَبَّةٍ أصحاب الجَلَلِ •

فنصب على المدح . وأما الذم فقوله تعالى : (مَلُومِينَ أَعْمَاءٌ تَفُوقُوا) الآية . وقال عروة  
ابن الورد :

سَقَوْنِي الْخَرْمَ تَكْشِفُونِي • عُدَّةَ اللَّهِ مِنْ كَيْدٍ وَزَوْرٍ

وهذا مهج في النعت لا مطعن فيه من جهة الإعراب موجود في كلام العرب كما بينا .  
وقال بعض من تصف في كلامه : إن هذا غلط من الكُتُب حين كتبوا مصحف الإمام ؛  
قال : والدليل على ذلك ما روى عن عثمان أنه نظر في المصحف فقال : أرى فيه لحنا ومستحيمة

(١) راجع كتاب سيويه وتوجيه الأعراب فيه . (٢) المصح : الطريق الرابعين .

(٣) هذا القول من أبيه ما وضع الرضاعون على عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وقد أنكر العلماء صحة نفيه إليه .  
على أن عثمان لم يستقل بجميع المصحف بل شاركه كبار الصحابة في جمعه وكتابته ولم يشروه بين المسلمين حتى قالوه على  
المصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي الله عنه ، فلم يتداره المسلمون إلا وهو إجماع الصحابة موافق تمام  
الموافقة لفرقة الأخيرة التي عرض فيها النبي صلى الله عليه وسلم القرآن على جبريل عليه السلام . وعلى عثمان أن عثمان  
رضي الله عنه وهو ثالث الخلفاء الراشدين يرى في المصحف لحنا يخالف ما أنزل الله ويتركه ويقول مستحيمة العرب  
بالسنة ، وكيف يستقل أن يقول ذلك في حضرة الصحابة ولا يتفقون في روجه ويردون عليه قوله وهم أنصار الدين  
وحجته . ومن أنكر نسبة هذا القول إلى عثمان المصحف والرضاعين وأبو حنيفة والأكبر في سورة النساء عند قوله  
تعالى : (وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالَةِ) فراجع ذلك إلى شتة .

الحرب بالسنتها . وهكذا قال في سورة النباء ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالَةِ﴾ . وفي سورة المائدة ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ . والجواب ما ذكرناه . وقيل : الموفون رفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره وهم الموفون . وقال الكسائي : والصابرين عطف على «ذوي القربى» كأنه قال : أتى الصابرين . قال النحاس : «وهذا القول خطأ وغلط بين ؛ لأنك إذا نصبت «والصابرين» ونسقت على «ذوي القربى» دخل في صلة «من» وإذا رفعت «الموفون» على أنه نسق على «من» فقد نسقت على من قبل أن تتم الصلاة، وفزقت بين الصلاة والموصول بالمعطوف . وقال الكسائي : وفي قراءة عبد الله «والموفين والصابرين» . وقال النحاس : «يكونان منسوقين على «ذوي القربى» أو على المدح . قال الفراء : وفي قراءة عبد الله في النساء «والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة»<sup>(١)</sup> . وقرا يعقوب والأعشى «والموفون والصابرون» بالرفع فيهما . وقرا الجحدري «بمهودهم» . وقد قيل : إن «والموفون» عطف على الضمير الذي في آمن ؛ وأنكره أبو علي وقال : ليس المعنى عليه ؛ إذ ليس المراد أن البربر آمن بالله هو والموفون ، أي آمنوا جميعا ؛ كما تقول : الشجاع من أقدم هو وعمره ؛ وإنما الذي بعد قوله «من آمن» تعداد لأفعال من آمن وأوصافهم .

الخلاصة — قال طحاذا : هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة : الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته . وقد أتينا عليها في الكتاب «الأسنى» والنشر والحشر والميزان والصراف والحوض والشفاعة والجنة والنار . وقد أتينا عليها في كتاب «التذكرة» والملائكة والكتب المعلقة وأنها حق من عند الله ، كما تقدم ، واليمين وإنفاق المال فيما بين من الواجب والمستنوب وإلصال القرابة وترك قطعهم وتقصد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك ، ومراعاة ابن السبيل ؛ قيل : المنقطع به ، وقيل : الضيف . والسؤال وفك الزمان . وسيأتي بيان هذا في آية الصدقات . والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء

(١) كما في كتاب «إعراب القرآن» النحاس ، وما يدل عليه سياق الكلام في البحر المحيط لأبي حيان في سورة النساء . وفي الأسرله : «والمؤمنين... والمؤتين» .

بالمهود والصبر في الشدائد . وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب . ونخدم التنبيه على أكثرها ، وبأني بيان باقيها بما فيها في مواضعها إن شاء الله تعالى .

واختلف هل يعطى اليتيم من صدقة التطوع بمجرد اليتيم على وجه الصلة وإن كان غنيا أولا يعطى حتى يكون فقيرا ، قولان للعلماء . وهذا على أن يكون إيتاء المال غير الزكاة الواجبة على ما بيته آنفا .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ استدلل به من قال : إن في المال حقا سوى الزكاة وبها كل البر . وقيل : المراد الزكاة المفروضة ، والأول أصح ، لما خرجه التارططني عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في المال حقا سوى الزكاة ثم تلا هذه الآية ( لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ ) إلى آخر الآية " . وأخرجه ابن ماجه في سننه ، والترمذي في جامعه وقال : « هذا حديث ليس بإسناده بذلك ، وأبو حمزة ميون الأعمور يصفه . وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي هذا الحديث وهو أصح . »

قلت : والحديث وإن كان فيه مقال فقد دل على صحته معنى ما في الآية نفسها من قوله تعالى : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ فذكر الزكاة مع الصلاة ، وذلك دليل على أن المراد بقوله : ﴿ وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ ليس الزكاة المفروضة ، فإن ذلك كان يكون تكرارا . والله أعلم . واعتق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس قضاء أسرارهم وإن استغرق ذلك أموالهم . وهذا إجماع أيضا ، وهو يخفى ما اختاره . والموفق إليه .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ الضمير في « حبه » اخطف في عوده ، قيل : يعود على المعطى المال ، وحذف للمفعول وهو المال . ويموز نصب « ذوى القربى » . بالحب ، فيكون التقدير على حب المعطى ذوى القربى . وقيل : يعود على المال ، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول . قال ابن عطية : ويحتمل قوله : ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ اجتراسا ليلحا أشبه القول .

قلت : ونظيره ﴿ وَنُطْعِمُونَ الطَّامَ عَلَى حَبِّ مَسْكِينًا ﴾ فإنه جمع المعنيين : الاعتراض وإضافة المصدر إلى المفعول ، أى على حب الطعام . ومن الاعتراض ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ ﴾ . وهذا عندهم يسمى التسميع وهو نوع من البلاغة ، ويسمى أيضا الاحتراس والاحتياط . فتم بقوله ﴿ عَلَى حَبِّ ﴾ وقوله ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ، ومنه قول زهير :

من يلق يوما على علامته هَرَمًا ، يلق السباحة منه والتدى خلفا  
وقال امرؤ القيس :

على هيك يعلبك قبل سؤاله • أنا نين جرى غير كرك ولا وان

فقوله : « على علامته » و « قبل سؤاله » ، تميم حسن ، ومنه قول عترة :

أتني على بما علمت فأننى • سهل خالفتي إذا لم أظلم

فقوله : « إذا لم أظلم » ، تميم حسن . وقال طرفة :

فسق ديارك غير مفسدها • صوب الريح وديمة تهي

وقال الريح بن ضبيح الفزاري :

فبت وماضى صنعي ومنطقى • وكل امرئ إلا أحاديثه فان

فقوله : « غير مفسدها » ، و « إلا أحاديثه » ، تميم واحتراس .

فأننى الزدى أرواحا غير ظالم • وألقى التدى أموالا غير عائب

فقوله : « غير ظالم » ، و « غير عائب » ، تميم واحتياط . وهو في الشعر كثير . وقيل : يعود

على الإتياء ، لأن الفعل يدل على مصدره ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ

بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أى البخل خيرا لهم . فلذا أصابت الناس حاجة

أو ناقة فإتياء المال حبيب إليهم . وقيل : يعود على اسم الله تعالى في قوله : ﴿ مَنْ آمَنَ

بِاللَّهِ ﴾ . والمعنى المقصود أن يتصدق المرء في هذه الوجوه وهو صحيح شحيح يفتنى الفقير

ويأبل البقا .



الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ يَهْدِيهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ﴾ أي فيما بينهم وبين الله تعالى وفيما بينهم وبين الناس ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ البأساء : الشدة والفقر . والضراء : المرض والزمانة ؛ قاله ابن مسعود . وقال عليه السلام : " يقول الله تعالى أيما عبد من عباده ابتليته بلاء في فراشه فلم يشك إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فان قبضته فإلى رحتي وإن عافيته عافيته وليس له ذنب " قيل : يا رسول الله ، ما لحم خير من لحمه ؟ قال : " لحم لم يذنب " قيل : فما دم خير من دمه ؟ قال : " دم لم يذنب " . والبأساء والضراء اسمان بيا على فعلاء ، ولا فصل لهما ؛ لأنهما اسمان وليسا بنعت . ﴿ وَحِينَ الْأُسَى ﴾ أي وقت الحرب .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وصفهم بالصدق والتقوى في أمورهم والوفاء بها ، وأنهم كانوا جاذبين في الدين ، وهذا غاية الثناء . والصدق خلاف الكذب ؛ ويقال : صدقهم القتال . والصدق الملازم للصدق ، وفي الحديث : " عليك بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتجزى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا " .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَنَ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى - روى البخاري والشافعي والدارقطني عن ابن عباس قال : « كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فهم الدية ؛ فقال الله لهذه الأمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ وَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ وَالْعَبْدِ بِالْأَنْثَى وَالْأَنْثَى بِالنَّثَى قَنَ عُنِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ . فالفهم أن يعقل الدية في العمد : ﴿ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ يتبع بالمعروف ويؤدى بإحسان ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ . مما كتب على من كان قبلكم . ﴿ قَنَ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قتل بعد قبول الدية . هذا لفظ البخاري : حدثنا الحيمدي حدثنا سفان حدثنا عمرو [قال] سمعت مجاهدا [قال] سمعت ابن عباس . وقال الشعبي في قوله تعالى :

(أَطْرَفُ الْحَرِّ وَالْمَيْدُ بِالْمَيْدِ وَالْأَثَى بِالْأَثَى) . قال : أنزلت في قبيلتين من قبائل العرب اقتلتا فقالوا : نقتل يعبدنا فلان ابن فلان ، وبأمتنا فلانة بنت فلان . ونحوه عن قتادة .

الثانية - قوله تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقصاصُ) . كتب معناه فرض وأثبت ؛ ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا • وعلى الغنائم جزاء الذبول

وقد قيل : إن كتب هنا إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء . والقصاص مأخوذ من قص الأثر وهو أتباعه ؛ ومنه القاص لأنه يتبع الآثار والأخبار . وقص الشعر أتباع أثره ؛ فكان القاتل سلك طريقا من القتل فقص أثره فيها ومشي على سبيله في ذلك ؛ ومنه (فارتدنا على آثارهما قصصا) . وقيل : القص القطع ؛ يقال : قصصت ما بينهما ؛ ومنه أخذ القصاص لأنه يحرقه مثل جرحه أو يقتله به ؛ يقال : اقتص الحاكم لفلان من فلان وأباه به فأمثله فامتثل منه أى اقتص منه .

الثالثة - صورة القصاص هو أن القاتل فرض عليه إذا أراد الولي القتل الاستسلام لأمر الله والالتحاق لقصاصه المشروع ، وأن الولي فرض عليه الوقوف عند قاتل وليه وترك التمدي إلى غيره ؛ كما كانت العرب تمدى فتقتل غير القاتل ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : "إن من أعتى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة رجل قتل غير قاتله ورجل قتل في الحرم ورجل أخذ بسحول الجاهلية" . قال الشعبي وقاتله وغيرها : إن أهل الجاهلية كان فيهم بنى وطاعة للشيطان ؛ فكان الحى إذا كان فيه عز وممنة فقتل لم يجد قتله بعد قوم آخرين ، قالوا : لا تقتل به إلا أحرأ ، وإذا قتلت منهم امرأة قالوا : لا تقتل فيها إلا رجلا ، وإذا قتل لم وضع قالوا : لا تقتل به إلا شرفا . ويقولون : "القتل أوقى للقتل" ، بالواو والقاف . ويروى أبقى ، بالباء والقاف . ويروى أبقى ، بالنون والقاف . فتهاهم الله عن البقى فقال :

(١) القتل : النار وطلب المكافأة بجناية بحيث عليه من كل أوجه ، ونحو ذلك .

( كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ) الآية ، وقال : ( وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ) . وبين الكلامين في الفصاحة والحزل بون عظيم .

الرابعة - لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيم إلا أولو الأمر ، فرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود وغير ذلك ؛ لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ثم لا يتبنا للمؤمنين جميعا أن يقتصوا على القصاص ؛ فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود . وليس القصاص يلازم إنما اللازم ألا يتجاوز القصاص إلى الاعتداء ؛ فأما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح ، على ما أتى بيانه .

فإن قيل : فإن قوله ( كُتِبَ عَلَيْكُم ) معناه : فرض وألزم ؛ فكيف يكون القصاص غير واجب ؟ قيل له : معناه إذا أردتم . فأعلم أن القصاص هو الغاية عند التشاح . والقتل جمع قتل ، لفظ مؤنث تأنيث الجماعة ، وهو مما يدخل على الناس كرها ؛ فلذلك جاء على هذا البناء بجرى وزنى وحرق وغرق ، وشبههن .

الخامسة - قوله تعالى : ( الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى ) الآية . اختلف في تأويلها ؛ فقالت طائفة : جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قتل نوعه ؛ فينت حكم الحر إذا قتل حرا ، والعبد إذا قتل عبدا ، والأنثى إذا قتل أنثى . ولم يتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر ؛ فالآية محكمة وفيها إجمال بينه قوله تعالى : ( وَكُتِبَتْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ) . وبينه النبي صلى الله عليه وسلم بسطه لما قتل اليهودي بالمرأة ؛ قاله مجاهد ، وذكره أبو عبيد عن ابن عباس روى عن ابن عباس أيضا أنها منسوخة بآية المائدة ؛ وهو قول أهل العراق .

السادسة - قال الكوفيون والعمري : يقتل الحر بالعبد ، والمسلم بالذمي ، واحتجوا بقوله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ) نعم ، وقوله : ( وَكُتِبَتْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ) قالوا : والذمي مع المسلم متساوون في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأيد ؛ فإن الذمي يحقون الدم على التأيد ، والمسلم

كذلك ، وكلاهما قد جاز من أهل دار الإسلام . . . والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذي ، وهذا يدل على أن مال الذي قد ساوى مال المسلم ، فدل على مساواته لدمه إذا مال إنما يحرم بحرمه ماله . وانفق أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وأصحابه على أن الحر يقتل بال عبد كما يقتل العبد به ، وهو قول داود وروى ذلك عن علي وأبن مسعود رضي الله عنهما ، وبه قال سعيد بن المسيب وقادة وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة . والمجهور من العلماء لا يقتلون الحر بال عبد ، للتنويع والتقسيم في الآية . وقال أبو ثور : لما اتفق جميعهم على أنه لا قصاص بين العبيد والأحرار فيما دون النفوس كانت النفوس أخرى بذلك . ومن فرق منهم بين ذلك فقد ناقض . وأيضاً فالإجماع فيمن قتل عبداً خطأ أنه ليس عليه إلا القيمة ، فكأن لم ينسبه الحر في الخطأ لم يشبهه في العمد . وأيضاً فإن العبد سامة من السلع يباع ويشترى ويتصرف فيه الحر كيف شاء ، فلا مساواة بينه وبين الحر ولا مقاومة

قلت : هذا الإجماع صحيح ، وأما قوله أولاً : ولما اتفق جميعهم على قوله : فقد ناقض ، فقد قال ابن أبي ليلى وداود بالقصاص بين الأحرار والعبيد في النفس وفي جميع الأعضاء . واستدل داود بقوله عليه السلام : " المسلمون متكافؤا دماؤهم " فلم يفرق بين حر وعبد . وسيأتي بيانه في « النساء » إن شاء الله تعالى

السابعة - والمجهور أيضاً على أنه لا يقتل مسلم بكافر ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم " لا يقتل مسلم بكافر " أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب . ولا يصح لم يروى عن حديث ربيعة أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل يوم خيبر مسلماً بكافر لأنه منقطع ، ومن حديث ابن أبي عمير وهو ضعيف عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم مرغوعاً . قال النازعني : « لم يستند فيه إبراهيم بن أبي يحيى وهو متروك الحديث والصواب عن ربيعة عن ابن أبي عمير عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن أبي عمير ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث ، فكيف بما أرسله »

قلت : فلا يصح في الباب إلا حديث البخاري وهو يخصص عموم قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۚ ﴾ الآية . وعموم قوله : ﴿ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ۖ ﴾ .

الثامنة - روى عن علي بن أبي طالب والحسن بن أبي الحسن البصري أن الآية نزلت مينة حكم المذكورين ؛ ليدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يقتل حرّ عبداً أو عبداً حراً أو ذكر أنثى أو أنثى ذكراً ، وقالوا : إذا قتل رجل امرأة فإن أراد أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفوا أولياءه نصف الدية ، وإن أرادوا استحيوه وأخذوا منه دية المرأة . وإذا قتل امرأة رجلاً فإن أراد أولياؤه قتلها قتلوا وأخذوا نصف الدية ، وإلا أخذوا دية صاحبهم واستحيوها . وإذا قتل الحر العبد ، فإن أراد سيد العبد قتل وأعطى دية الحر إلا قيمة العبد ، وإن شاء استحيا وأخذ قيمة العبد . هذا مذكور عن علي والحسن . وقد أنكر ذلك عنهم أيضا . روى هذا الشعبي عن علي ، ولا يصح ؛ لأن الشعبي لم يلق علياً . وقد روى الحكم عن علي وعبد الله قالوا : إذا قتل الرجل المرأة متعمدا فهو بها قود . وهذا يعارض رواية الشعبي عن علي . وأجمع العلماء على أن الأعور والأشل إذا قتل رجلاً سالم الأعضاء أنه ليس لوليّه أن يقتل الأعور ، ويأخذ منه نصف الدية من أجل أنه قتل ذا عيين وهو أعور ، وقتل ذا يدين وهو أشل . فهذا يدل على أن النفس مكافئة للنفس ، ويكافئ الطفل فيها الكبير .

ويقال لقائل ذلك : إن كان الرجل لا تكافئه المرأة ولا تدخل تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم : " المسلمون متكافؤ دماؤهم " فلم تقتل الرجل بها وهي لا تكافئه ثم تأخذ نصف الدية ، والعلماء قد أجمعوا أن الدية لا تجتمع مع القصاص ، وأن الدية إذا قبلت حرم الدم . وارتفع القصاص ؛ فليس قوله هذا باطل ولا قياس ؛ قاله أبو عمر رحمه الله .

التاسعة - وأجمع العلماء على قتل المرأة بالرجل والرجل بها . والجمهور لا يرون الرجوع بشئ . وفرقة ترى الاتباع بفضل الذيات . قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق والثوري .

وأبو ثور : وكذلك القصاص بينهما فيا دون النفس . وقال حماد بن أبي سليمان وأبو حنيفة : لا قصاص بينهما فيا دون النفس وإنما هو في النفس بالنفس . وهما مجعوبان لما حاق ما دون النفس بالنفس على طريق الأخرى والأولى ، على ما تقدم .

الماشرة - قال ابن العري : « ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا : يقتل الحر بعد نفسه . ورووا في ذلك حديثا عن الحسن عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل عبده قتلاه » . وهو حديث ضعيف ؛ ودليلا قوله تعالى : ( وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَتُوفَّى فِي الْقَتْلِ ) والولي ها هنا السيد ؛ فكيف يجعل له سلطان على نفسه . وقد اتفق الجميع على أن السيد إذا قتل عبده خطأ أنه لا تؤخذ منه قيمته لبيت المال . وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا قتل عبده متممدا بخلده النبي صلى الله عليه وسلم وفناه سنة وخمسة وسبعين من المسلمين ولم يقده به .

فإن قيل : فإذا قتل الرجل زوجته لم تم قولوا : ينصب النكاح شبهة في درة القصاص عن الزوج ، إذ النكاح ضرب من الرق ، وقد قال ذلك الليث بن سعد . قلنا : النكاح ينقده لها طيه ، كما ينقده له عليها ؛ بدليل أنه لا يتزوج أختها ولا أربما سواها ، وتطالبه في حق الوطء بما يطلبها ، ولكن له عليها فضل القوامة التي جعل الله له عليها بما اتفق من ماله ، أي بما وجب عليه من صداق ونفقة ؛ فلو أورث شبهة لأورثها في المالين .

قلت : هذا الحديث الذي ضمه ابن العري وهو صحيح ، أخرجه الثنائي وأبو داود . وتيممته « ومن جدعه جدعته ومن أخصاه أخصيته » . وقال البخاري عن علي بن المديني : سماع الحسن من سمرة صحيح . وأخذ بهذا الحديث . وقال البخاري : وأنا أذهب إليه . فلو لم يصح الحديث لما ذهب إليه هذان الإمامان . وحسبك بهما . ويقتل الحر بعد نفسه . قال الثعفي والثوري في أحد قوليه : وقد قيل : إن الحسن لم ينصح من سمرة إلا حديث العقيقة والله أعلم . واختلوا في القصاص بين السيد فيا دون النفس ؛ هذا قول عمر بن عبد العزيز وسالم

ابن عبد الله والزهرى وقُرْآن ومالك والشافعى وأبو ثور . وقال الشَّيْبَانِي والنخعي والثوري وأبو حنيفة : لا قصاص بينهم إلا في النفس . قال ابن المنذر : الأول أصح

الحادية عشرة — روى الدارقطني وأبو عيسى الترمذى عن سراقه بن مالك قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد للأب من ابنه ، ولا يقيد للابن من أبيه . قال أبو عيسى : هذا حديث لا نعرفه من حديث سراقه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بصحيح . رواه اسماعيل بن عمار عن أبي المنخني بن الصباح ، وأبو المنخني يضعف في الحديث . وقد روى هذا الحديث أبو خالد الأحمر عن المجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روى هذا الحديث عن عمرو بن شعيب مرسل ، وهذا الحديث فيه اضطراب . والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قتل ابنه لا يقتل به ، وإذا قذفه لا يحد . وقال ابن المنذر : اختلف أهل العلم في الرجل يقتل ابنه عمداً ، فقالت طائفة : لا قود عليه وعليه دية ، وهذا قول الشافعى وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي ، وروى ذلك من عطاء ومجاهد . وقال مالك وابن قانع وابن عبد الحكم : يقتل به . قال ابن المنذر : وبهذا قول لظاهر الكتاب والسنة ، فاما ظاهر الكتاب فقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ . والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأَ دِمَائُهُمْ " ولا نعلم خبراً ثابتاً يجب به استثناء الأب من جملة الآية . وقد روينا فيه أخباراً غير ثابتة . وحكى الكفا الطبري عن عثمان بن عتيق أن قتيل الوالد يولد به للعمومات في القصاص . وروى مثل ذلك عن مالك ، ولطهما لا يقبلان أخبار الإخاد في مقابلة عمومات القرآن .

قلت : لا خلاف في مذهب مالك أنه إذا قتل الرجل ابنه متعمداً ، مثل أن يضيئه ويذبحه أو يصوره مما لا عنزله به ولا شبهة في ادعاء الخطأ ، أنه يقتل به قولا واحداً . فاما

(١) تزان (بضم زاء) وتزيد (راء) بن تمام الأسدي ، توفى سنة إحدى ومائتين وثمانمائة .

(٢) كذا في نسخة من الأصل . وصبر الإنسان وغيره على القتل : أفت يحبس فيموت حتى يموت . وفي سائر الأصول : « أدبره » .

إن رماه بالصلاح أدبا أو حقا قتله، ففيه في المذهب قولان : يقتل به، ولا يقتل به وتختلف  
 الدية . وبه قال جماعة العلماء . ويقتل الأجنبي بمثل هذا . <sup>(١)</sup> ابن العربي : « سمعت شيخنا  
 تفر الإسلام الشافعي يقول في النظر : لا يقتل الأب بآبته ، لأن الأب كان سبب وجوده ،  
 فكيف يكون هو سبب عدمه . وهذا يطل بما إذا زنا بآبته فانه يرجع ، وكان سبب وجوده  
 وتكون هي سبب عدمه . ثم أيّ فقه تحت هذا ، ولم لا يكون سبب عدمه أنا عصي الله  
 تعالى في ذلك . وقد أقرّوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يقاد الوالد  
 بولده » . وهو حديث باطل ، متفقهم أن عمر رضي الله عنه قضى بالدية مغلفة في قاتل آبته  
 ولم ينكر أحد من الصحابة عليه ، فأخذ سائر الفقهاء رضي الله عنهم المسئلة <sup>(٢)</sup> مسجلة ، وقالوا :  
 لا يقتل الوالد بولده . وأخذها مالك بحكمة مفصلة فقال : إنه لو حذفه بالسيف وهذه حالة  
 محتملة لتقصيد القتل وعدمه ، وشفقة الأبوّة شبهة متعينة شاهدة بعدم التقصيد للقتل تسقط  
 القود . فإذا أجنبه كسفت الفطاء عن قصده فالتحق بأصله » . قال ابن المنذر : وكان مالك  
 والشافعي واحد وإسحاق يقولون : إذا قتل الابن الأب قتل به .

ثانية عشرة - وقد استدل الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية على قوله : لا تقتل الجماعة  
 بالواحد ، قال : لأن الله سبحانه بشرط المساواة ولا مساواة بين الجماعة والواحد . وقد قال  
 تعالى : ( وَكُنْتُمْ طَائِفَتًا مِّنْ أَهْلِ النَّفْسِ وَالنَّفْسِ وَالْمَيِّتِ وَالْمَيِّتِ ) . والجواب أن الراد بالفصاح  
 في الآية قتل من قتل كائنا من كان ، ردا على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قُتل به . لم  
 يقتل ، ويقتل في مقابلة الواحد مائة ، اقتضارا واستظهارا بالجاه والمقدرة ، فأمر الله سبحانه  
 بالعدل والمساواة ، وذلك بأن يقتل من قتل ، وقد قتل عمر رضي الله عنه سبعة رجل بصنماء  
 وقال : لو تألأ عليه أهل صنماء لقتلهم به جميعا . وقتل علي رضي الله عنه <sup>(٣)</sup> الحزورية ببسب الله

(١) أثبت كلام ابن العربي ما كورد في كتابه « أحكام القرآن » . وقد ورد في الأصول بقص ومخريف

من قساح . (٢) مرقعة حقة .

(٣) الحزورية : طائفة من الخوارج نسبوا إلى الحزولاء (موضع قريب من الكوفة) لأن أول مجرمهم  
 وتكلمهم به .



ابن حَبَاب . فإنه تَوَقَّفَ عن قتالهم حتى يُحْدِثُوا فلما ذبحوا عبد الله بن حَبَاب كما تَذْبَحُ الشاة ، وأخبر علي بذلك قال : الله أكبر ، نادوهم أن أخرجوا الينا فقاتل عبد الله بن حَبَاب . قتالوا : كلنا قتلناه ثلاث مرات ؛ فقال علي لأصحابه : دونكم القوم ؛ فلبث أن قتلهم علي وأصحابه . خرج الحديثين التارقُطَني في سننه . وفي الترمذى عن أبي سعيد وأبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتروا في دم مؤمن لأَكْبَهُم الله في النار " . وقال فيه : حديث غريب . وأيضاً فلو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا الواحد لم يقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم وبلغوا الأمل من التثني . ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الإلغاف . والله أعلم . وقال ابن المنذر : وقال الزهري وحبيب ابن أبي ثابت وأبن سيرين : لا يقتل اثنان بواحد . وروينا ذلك عن معاذ بن جبل وأبن الزبير وعبد الملك . قال ابن الزبير : وهذا أصح ، ولا حجة مع من أباح قتل جماعة بواحد . وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه .

الثالثة عشرة — روى الأئمة عن أبي شريح الكهني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا إنكم يا مشركي خراة قتلتم هذا القتل من هذيل وإنى عاقله فمن قتل له بعد مقاتلي هذه قبيل فأهله بين خيرتين أن يأخذوا العقل أو يقتلوا " . لفظ أبي داود . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . وروى عن أبي شريح الخزاعي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قتل له قتل فله أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية " وذهب إلى هذا بعض أهل العلم ، وهو قول أحد وإسحاق .

الرابعة عشرة — اختلف أهل العلم في أخذ الدية من قاتل العمد ؛ فقالت طائفة : ولي المقتول بالتخييار إن شاء اقتص وإن شاء أخذ الدية وإن لم يرض القاتل . يروى هذا عن سعيد ابن المسيب وعطاء والحسن ، ورواه أشهب عن مالك ؛ وبه قال الليث والأوزاعي والثاقل وأحمد وإسحاق وأبو ثور . وجميعهم حديث أبي شريح وما كان في معناه ؛ وهو نص في موضع (١) أبو شريح الخزاعي : هو أبو شريح الكهني . واختلف في اسمه ، والمشهور أنه غريب ابن عمرو بن نصر أسلمهم الفتح .

الخلافة؛ وأيضا من طريق النظر فإنما لزمته الدية بنبرضاه؛ لأن فرضا عليه إحياء نفسه، وقد قال الله تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) وقوله: (قَنْ عَيْنِي لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ) أى ترك له دمه في أحد التأويلات ورضى منه بالدية (فَتَبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) أى فعل صاحب الدم اتباع بالمعروف في المطالبة بالدية، وعلى القائل أداه إليه بإحسان، أى من غير عماطلة وتأخير عن الوقت (ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ) أى أنه من كان قبلنا لم يفرض عليهم غير النفس بالنفس؛ ففضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضى بها ولّى الدم؛ على ما يأتى بيانه. وقال آخرون: ليس لولّى المقتول إلا التقصاص، ولا يأخذ الدية إلا إذا رضى القاتل. رواه ابن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه، وبه قال الثوري والكوفيون. واحتجوا بحديث أنس في قصة الربيع حين كسرت ثيابه المرأة. رواه الأئمة، قالوا: فلما حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتقصاص وقال: "التقصاص كتاب الله، التقصاص كتاب الله" ولم يغير المعنى عليه بين التقصاص والدية ثبت بذلك أن الذى يجب بكاتب الله وسنة رسوله في الممد هو التقصاص، والأول أصح؛ لحديث أبي شريح المذكور. وروى الربيع عن الشافعي قال: أخبرني أبو حنيفة ابن سنان بن الفضل الشهابي قال: وحدثنى ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح: "من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود". فقال أبو حنيفة: قتل لابن أبي ذئب: أناخذ بهذا يا أبا الحارث؟ فضرب صدرى وصاح على صياحا كثيرا وقال منى وقال: أحذرك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول: أناخذ به؛ ثم آخذ به، وذلك الفرض على وعلى من سمعه، إن الله عز وجل شافه اختار عبد الله صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه، واختار لم ياختاره له وعلى لسانه؛ فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو دائرين، لا يخرج لمسلم من ذلك. قال: وما سكت عنى حتى تميت أن يسكت.

الخامسة عشرة - قوله تعالى: (قَنْ عَيْنِي لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ) فَتَبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ (اختلف العلماء في تأويل «من» و«عنى» على تأويلات خمس:

أحدها - أن «من» يراد بها القتال. و«عنى» تتضمن عافيا هو ولى الدم. والأخ هو المقتول و«شىء» هو الدم الذى يعنى عنه ويرجع إلى أخذ الدية؛ هذا قول ابن عباس وقادة ومجاهد وجماعة من العلماء. والعفو في هذا القول على بابته الذى هو الترك. والمعنى أن القتال إذا عفى له ولى المقتول عن دم مقتوله وأسقط القصاص فإنه يأخذ الدية ويتبع بالمعروف، ويؤدى إليه القتال بإحسان.

الثاني - وهو قول مالك أن «من» يراد به الولي «وعنى» يسر، لا على بابته في العفو. والأخ يراد به القتال و«شىء» هو الدية، أى أن الولي إذا جئح إلى العفو عن القصاص على أخذ الدية فإن القتال غيرين أن يعطيا أو يسلم نفسه؛ فقرة يسر ومرة لا يسر. وغير مالك يقول: إذا رضى الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل تلزمه. وقد روى عن مالك هذا القول، ووجه كثير من أصحابه.

وقال أبو حنيفة: إن معنى «عنى» بذل؛ والعفو في اللغة: البذل؛ ولما قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أى ما سهل. وقال أبو الأسود الدؤلى:

«خُذِ الْعَفْوَ مَنى تَسْتَدِى مَوْذَى»

وقال صلى الله عليه وسلم أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله بنى شهادته على عباده. فكانه قال: من بذل له شىء من الدية فليقبل وليتبع بالمعروف.

وقال قوم: وليؤدى إليه القتال بإحسان فندبه تعالى إلى أخذ المال إذا سهل ذلك من جهة القتال وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة كما قال ذلك عقب ذكر القصاص في سورة المائدة ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ فندب إلى رحمة العفو والصدقة وكذلك ندبه فيما ذكر في هذه الآية إلى قبول الدية إذا بذلها الجاني بإعطاء الدية ثم أمر الولي بالتباعد وأمر الجاني بالإداء بالإحسان، وقد قال قوم إن هذه الألفاظ في الميمين الذين نزلت فيهم الآية كلها وتأسقطوا الديات فيما بينهم مقاصدة. ومعنى الآية: لمن فضل له نزع الطائفتين على الأخرى شىء من تلك الديات؛ ويكون «عنى» بمعنى فضل.

روى سفيان بن حنين بن شوعة عن الشعبي قال كان بين حيين من العرب قتال فقتل من هؤلاء وهؤلاء وقال أحد الحيين لا رضى حتى يقتل بالمرأة الرجل وبالرجل المرأة فارتضوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل عليه السلام القتل سواه فاصططحوا على الديات ففضل أحد الحيين على الآخر فهو قوله كتب إلى قوله فمن عفى له من أخيه شيء يعني فمن فضل له على أخيه فضل فيرده بالمعروف فأخبر الشعبي عن السبب في نزول الآية، وذكر سفيان المعفو هنا الفضل وهو معنى يحتمله اللفظ .

وتأويل خامس - وهو قول علي رضي الله عنه والحسن في التفضل بين دية الرجل والمرأة والحرة والعبد، أي من كان له ذلك الفضل فلتابع بالمعروف؛ «وعنى» في هذا الموضع أيضا بمعنى فضل .

السادسة عشرة - هذه الآية حث من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب، وحسن القضاء من المؤدى؛ وهل ذلك على الوجوب أو الندب؛ فقرأة الرضع تدل على الوجوب؛ لأن المعنى فعليه اتباع بالمعروف . قال النحاس : فمن عفى له، شرط والجواب فلتابع، وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه اتباع بالمعروف . ويجوز في غير القرآن «فلتابع» وأداءه بمسما مصدرين . قال ابن عطية : وقرأ إبراهيم بن أبي عملة «فلتابع» بالنصب، والرفع سيل للراجبات؛ كقوله تعالى : (فَأَسْأَلُ بِمَعْرِفٍ) . وأما المندوب إليه فيأتي منصوبا؛ كقوله : (فَقَرَّبَ الرُّقَبِ) .

السابعة عشرة - قوله تعالى : (ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكَ وَرَحْمَةٌ) لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قود ولا دية؛ فجعل الله تعالى ذلك تخفيفا لهذه الأمة؛ فمن شاء قتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا . قوله تعالى : (فَمَن آتَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ) شرط وجوابه . أي قتل بعند أخذ الدية وسقوط قاتل وليه (فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) . قال الحسن : كان الرجل في الجاهلية إذا قتل قتيلا

فرأى قومه فيجئ قومه فيصالحون بالدية؛ فيقول لى المقتول : إني أقبل الدية، حتى يأمن القتال ويخرج؛ فيقتله ويرى بهم بالدية :

«واختلف العلماء فيمن قتل بعد أخذ الدية؛ فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعي : هو كمن قتل ابتداء، إن شاء الولي قتله وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة. وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم : عذابه أن يقتل البتة، ولا يمكن الحاكم الولي من الصفو. وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أخفى من قتل بعد أخذ الدية " . وقال أبو الحسن : عذابه أن يرذ الدية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة . وقيل عمر بن عبد العزيز : أسره إلى الإمام يصنع فيه ما يرى . وفي سنن الدارقطني عن أبي شريح الخزازي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أصيب بدم أو خبل - والتخيل عرج - فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فإن أراد الرأسة غلظوا على يديه بين أن يقتص أو يسفو أو يأخذ العقل فإن قبل شيئا من ذلك ثم عدا بعد ذلك فله النار خلفها فيها عقابا " . قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ هذا من الكلام البيخ الوجيز كما تقدم، ومعناه : لا يقتل بعضهم بعضا؛ رواه سفيان عن السدي عن أبي مالك. والمعنى : أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر عفاة أن يقتص منه لحيا بذلك مما . وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر جنى قتيلاهما وتقاتلوا، وكان ذلك داهيا إلى قتل العدد الكثير؛ فلما شرع الله القصاص قنع الكل به وتركوا الاقتال؛ فلهم في ذلك حياة .

الثانية - اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض؛ وإنما ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك؛ ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدي الناس بعضهم عن بعض .

(١) أخفى، من خالفني إذا كثرت زياده . وهذا دعاء عليه، أي لاكثر ماله ولا استغنى .

الثالثة - وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقص من نفسه إن تعدى على أحد من الرعية، إذ هو واحد منهم وإنما له منزلة النظر لم كالوصي والوكيل، وذلك لا يمنع القصاص، وليس بينهم وبين العامة فرق في أحكام الله عز وجل؛ لقوله جل ذكره: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ) وثبت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرجل شكاه إليه أن عاملا قطع يده: لئن كنت صادقا لأفيدنك منه. وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم شيئا إذ أكب عليه رجل، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخرجون كان معه، فصاح الرجل؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم [فاستقد]. قال: بل عفوت يا رسول الله. وروى أبو داود الطيالسي عن أبي فراس قال: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلى أبيه منه. فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمي المؤمنين، لئن آتيت رجلا من أهل ربيته لتقصصه منه؟ قال: كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه. ولقد أبى داود السجستاني عنه قال: خطبنا عمر بن الخطاب فقال: إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبناءكم ولا ليأخذوا أموالكم، فمن نسل ذلك به فليرضه إلى أقصه منه. وذكر الحديث بمناه.

الرابعة - قوله تعالى: (لَكُمْ تَقْوَى) تقدم معناه، والمراد هنا لتقوى القتل قتلهم من القصاص، ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى في غير ذلك؛ فان الله شيب بالطاعة على الطاعة، وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الرسي «ولكم في القصص حياة». قال النحاس: قراءة أبي الجوزاء شاذة. قال غيره: يحتمل أن يكون مصدرا كالقصاص. وقيل: أراد بالقصص القرآن، أي لكم في كتاب الله الذي شرع فيه القصص حياة، أي نجاة.

قوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ) إلى قوله: (عَلَى الْمُتَّقِينَ). فيه إحدى وعشرون مسألة:

الأولى - قوله تعالى : ( كُتِبَ عَلَيْكُمُ ) هذه آية الوصية ، وليس في القرآن ذكر الوصية إلا في هذه الآية وفي النساء « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ » وفي المائدة « حِينَ الْوَصِيَّةِ » . والتي في البقرة أتمها وأكملها ، ونزلت قبل نزول الفرائض والموارث على ما يأتي بيانه . وفي الكلام تقدير واو العطف ، أي وكتب عليكم ؛ فلما طال الكلام أسقطت الواو ؛ ومثله في بعض الأقوال : ( لَا يَصْلَحُ إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ) ، أي والذي ؛ فحذف . وقيل : لما ذكر أن لولي الدم إن يقتص ؛ فهذا الذي أشرف على أن يقتص منه هو سبب الموت فكأنما حضره الموت ، فهذا أو أن الوصية . فالآية مرتبطة بما قبلها ومتصلة بها فلذلك سقطت واو العطف . وكتب معناه فرض وأثبت ، كما تقدم . وحضور الموت : أسبابه ، ومتى حضر السبب كنت به العرب عن المسبب ؛ قال شاعرهم :

يا أيها الراكب المزجي مطيته . سائل بني أسد ما هذه الصوت

وقل لهم بادروا بالنذر واتموا . قولاً يبرئكم إلى أنا الموت

وقال عنترة :

وإن الموت طوع يدي إذا ما . وصلت بئنها بالهندوان

وقال جرير في مهابة الفرزدق :

أنا الموت الذي حدثت عنه . فليس لها ريب متى تجاء

الثانية - إن قيل : لم قال كتب ولم يقل كتب ، والوصية مؤنثة . قيل له : إنما ذلك لأنه أراد بالوصية الإيصاء . وقيل : لأنه تحتمل فاعل ؛ فكان الفاعل كالعوض من تاء الثانية ؛ تقول العرب : حضر القاضي اليوم امرأة . وقد حكى سيديويه قام امرأة . ولكن حسن ذلك إنما هو مع طول الحال .

الثالثة - قوله تعالى : ( إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ) و « إِنْ » شرط وفي جوابه لأبي الحسن الأخفش قولان : قال الأخفش : التقدير فالوصية ، ثم حذف الفاء ؛ كما قال الشاعر :

من فعل الحسنات الله يشكرها . والشر بالشر عند الله مثلاً .

( ١ ) الموت مذكور ، وإنما أتت حاشا لأنه أراد به الفرضاء والجلية ، هل هي السجدة - من القرآن

والجواب الآخر أن المأخوذ يجوز أن يكون جوابه قبله وبعده ، فيكون التفسير الوصية للوالدين والأقربين إن ترك خيرا . فإن قدرت الفاء فالوصية رفع بالابتداء ، وإن لم تقدر الفاء جاز أن ترفعها بالابتداء وأن ترفعها على ما لم يسم فاعله ، أى كتب عليكم الوصية . ولا يصح عند جمهور النحاة أن تعمل الوصية في إذا ؛ لأنها في حكم الصلة المصدر الذى هو الوصية وقد تقدمت ، فلا يجوز أن تعمل فيها متقدمة . ويجوز أن يكون العامل في إذا كتب ، والمعنى : توجه لإيجاب الله إليكم ومقتضى كتابه إذا حضر ؛ فبعد عن توجه الإيجاب بكتب لينظم الى هذا المعنى أنه مكتوب في الأزل . ويجوز أن يكون العامل في إذا الإيصاء يكون مقدرا دل على الوصية ، المعنى : كتب عليكم الإيصاء إذا .

الرابعة - قوله تعالى : ( خَيْرًا ) الخيره من المال من غير خلاف ، واختلفوا في مقداره ؛ فقيل : المال الكثير ؛ روى ذلك عن علي وعائشة وابن عباس وقالوا في سبعمائة دينار إنه قليل . فائدة عن الحسن : الخير ألف دينار فما فوقها . الشعبي : ما بين خمسمائة دينار الى ألف . والوصية عبارة عن كل شئ يؤمر بفعله ويمنع به في الحياة وبعد الموت . وخصصها العرف بما يهد بفعله وتنفيذه بعد الموت ، والجمع وصايا كالقضاء يجمع قضية . والوصى يكون الموصى والموصى إليه ، وأصله من وصى غفقا . وتوصى التبت تواميا إذا اتصل . وأرض واصمة : متصلة النبات . وأوصيت له بنى وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك . والاسم الوصاية والوصاية بالكسر والفتح . وأوصيته ووصيته أيضا توصية بمعنى . والاسم الوصاة . وتوصى القوم أوصى بعضهم بعضا . وفي الحديث : " استوصوا بالنساء خيرا فانهن عون عندكم " . ووصيت الشئ بكذا إذا وصلته به .

الخامسة - اختلف العلماء في وجوب الوصية على من خلف مالا ، بعد إجماعهم على أنها واجبة على من قبله وذائق وعليه دين . وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس قبله شئ من ذلك ، وهو قول مالك والشافعي والثوري ، موسرا كان الموصى أو فقيرا . وقالت



طائفة : الوصية واجبة على ظاهر القرآن؛ قاله الزهري وأبو حنيفة، فليلا كان المال أو كثيراً، وقال أبو ثور : ليست الوصية واجبة إلا على رجل عليه دين أو عنده مال لقوم؛ فواجب عليه أن يكسب وصيته ويحرم بما عليه . فأما ما لا دين عليه ولا ودية عنده فليست بواجبة عليه إلا أن يشاء . قال ابن المنذر : وهذا حسن ؛ لأن الله فرض أداء الأمانات إلى أهلها ؛ ومن لا حق عليه ولا أمانة قبله فليس واجب عليه أن يوصي . احتج الأولون بما رواه الأئمة عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه بيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده " . وفي رواية " بيت ثلاث ليل " وفيها قال عبد الله بن عمر : ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك إلا وعندي وصيقي . احتج من لم يوجبها بأن قال : لو كانت واجبة لم يسلها إلى إرادة الموصي ولكن ذلك لازماً على كل حال ، ثم لو سلم أن ظاهره الوجوب فاقول بالموجب يرده ، وذلك فيمن كانت عليه حقوق للناس يخاف ضياعها عليهم ؛ كما قال أبو ثور؛ وكذلك إن كانت له حقوق عند الناس يخاف تلفها على الورثة؛ فهذا يجب عليه الوصية ولا يختلف فيه .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : ( كُتِبَ عَلَيْكُمْ ) وكسب بمعنى فرض ؛ فدل على وجوب الوصية . قيل لم : قد تقدم الجواب عنه في الآية قبل ، والمعنى : إذا أردتم الوصية . والله أعلم . وقال النخعي : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يوص ، وقد أوصى أبو بكر؛ فإن أوصى الحسن ، وإن لم يوص فلا شيء عليه .

السادسة - لم يبين الله تعالى في كتابه مقدار ما يوصي به من المال ، وإنما قال : ( إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ) والخير المال ؛ كقوله : ( وَمَا تَتَّقُوا مِنْ خَيْرٍ ) ( وَآلِهَةُ الْإِنْسَانِ ) . فاختلف العلماء في مقدار ذلك ؛ فروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه أوصى بالخمس . وقال علي رضي الله عنه من غنم المسلمين بالخمس . وقال ميمون بن قيس : أوصى عمر بالربع . وذكره البخاري عن ابن عباس . وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : لأن أوصي بالخمس أحب إلي من أن أوصي بالربع ، ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث .

، واختار جماعة لمن ماله قليل وله ورثة ترك الوصية ؛ روى ذلك عن عليّ وابن عباس وعائشة ورضوان الله عليهم أجمعين . روى ابن أبي شيبة عن حنبل بن أبي مليكة عن عائشة قال لما رجع : إني أريد أن أوصي . قالت : كم مالك ؟ قال : ثلاثة آلاف . قالت : فكيف عيالك ؟ قال : أربعة . قالت : إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وهذا شيء يسير فندعه لعيالك فإنه أفضل لك .

السابعة — ذهب الجمهور من العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه فانهم قالوا : إن لم يترك الموصي ورثة جاز له أن يوصي بماله كله . وقالوا : إن الإقتصار على الثلث في الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء ؛ لقوله عليه السلام : " إني أنذر ورثتك أغنياء خير من أن تندم عائلة يتكفون الناس " . الحديث رواه الأئمة . ومن لا وارت له فليس ممن عني بالحديث ؛ روى هذا القول عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة ومسروق ، وإليه ذهب أصحاب مالك في أحد قوله ، وروى عن عليّ . وسبب الخلاف مع ما ذكرنا ، الخلاف في بيت المال هل هو وارث أو حائفل لما يعمل فيه ؛ قولان .

الثامنة — أجمع العلماء على أن من مات وله ورثة فليس له أن يوصي بجميع ماله . وروى عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة لابنه عبد الله : إني قد أردت أن أوصي ؛ فقال له : أوص وما لك في مالي ؛ فندط كتابنا فأبى ، فقال عبد الله فقلت له : ما أراك إلا قد أتيت حل مالي ومالك ، ولو دعوت إخوتي فاستحلتهم .

التاسعة — وأجمعوا أن للإنسان أن يبيعه ويبيع فيما شاء منها . إلا أنهم اختلفوا من ذلك في المدبر ؛ فقال مالك رحمه الله : الأمر المجمع عليه عندنا أن الموصي إذا أوصى في صحته أو مرضه بوصية فيها حائفة رقيق من رقيقه أو غير ذلك ، فإنه يغير من ذلك ما بدا له ويصنع من ذلك ما شاء حتى يموت ، وإن أحب أن يطرح تلك الوصية ويستقطعها ، فصل ، إلا أن يدبر فإن دبر مملوك فلا حيل له إلى تغيير ما دبر ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » .  
قال أبو الفرج المالكي : المدبر في القياس كالمعتق إلى شهر ، لأنه أجل آت لا عالة . وأجمعوا  
الآ يبيع في اليقين بالعتق والمعتق إلى أجل فكذلك المدبر ، وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي  
وأحمد وإسحاق : هو وصية لإجماعهم أنه في الثلث كسائر الوصايا . وفي إجازتهم وطء المدبرة  
ما ينقص قياسهم المدبر على العتق إلى أجل ، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم باع مدبرا ،  
وأن عائشة ذهبت جارية لها ثم باعها . وهو قول جماعة من التابعين . وقالت طائفة : يبيع  
الرجل من وصيته ما شاء إلا المتأقعة ، وكذلك قال الشعبي وابن سيرين وابن شبرمة والنخعي ،  
وهو قول سفيان الثوري .

الساخرة — واختلفوا في الرجل يقول لعبد : أنت حر بعد موتي وأراد الوصية ، فله  
الرجوع عند مالك في ذلك . وإن قال : فلان مدبر بعد موتي ، لم يكن له الرجوع فيه . وإن  
أراد التدبير بقوله الأثل لم يبيع أيضا عند أكثر أصحاب مالك . وأما الشافعي وأحمد وإسحاق  
وأبو ثور فكل هذا عندهم وصية ؛ لأنه في الثلث ، وكل ما كان في الثلث فهو وصية ؛ إلا أن  
الشافعي قال : لا يكون الرجوع في المدبر إلا بأن يخرج عن ملكه ببيع أو هبة . وليس  
قوله : « قد رجعت » رجوعا ؛ وإن لم يخرج المدبر عن ملكه حتى يموت فإنه يمتق بموته .  
وقال في القسديم : يبيع في المدبر كما يبيع في الوصية . واختاره المزني قياسا على إجماعهم على  
الرجوع فيمن أوصى بعتقه . وقال أبو ثور : إذا قال قد رجعت في مدبري فقد بطل التدبير ،  
فإن مات لم يمتق . واختلف ابن القاسم وأشباهه فيمن قال : عبدى حر بعد موتي . ولم يرد  
الوصية ولا التدبير ؛ فقال ابن القاسم : هو وصية . وقال أشباهه : هو مدبر وإن لم يرد الوصية .

الحادية عشرة — اختلف العلماء في هذه الآية هل هي منسوخة أو محكمة ؛ فقيل :  
هي محكمة ، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدین  
وفي القرابة غير الوثمة ؛ قاله الضحاك وطاوس والحسن ، واختاره الطبري . وعن الزمري أن  
الوصية واجبة فيما قل أو أكثر . وقال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على

أن الوصية للوالدين الذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة . وقال ابن عباس والحسن أيضا وقادة : الآية عامة ، وتقرّر الحكم بها برهة من الدهر ، ونسخ منها كل من كان يرث بآية الفرائض . وقد قيل : إن آية الفرائض لم تستقل بنسخها بل بضميمة أخرى وهي قوله عليه السلام : « إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » . رواه أبو أمامة ، أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح . فنسخ الآية إنما كان بالسنة الثابتة لا بالإرث على الصحيح من أقوال العلماء . ولولا « هذا الحديث لأمكن الجمع بين الآيتين بأن يأخذوا المسال عن الموزن بالوصية ، والميراث إن لم يوص ، أو ما بقي من الوصية ؛ لكن منع من ذلك هذا الحديث والإجماع . والشافعي وأبو الفرج وإن كانا من من نسخ الكتاب بالسنة فالصحيح جوازهم بدليل أن الكل حكم الله تبارك وتعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء ، وقد تقدم هذا المعنى . ونحن وإن كان هذا الخبر يلحق أحادا لكن قد انضم إليه إجماع المسلمين أنه لا تجوز وصية لوارث . فقد ظهر أن وجوب الوصية للأقربين للوارثين منسوخ بالسنة وأنها مستند الجمعين . والله أعلم .

وقال ابن عباس والحسن : نسخت الوصية للوالدين بالفرض في سورة « النساء » وثبتت للأقربين الذين لا يرثون . وهذا من مذهب الشافعي وأكثر المالكيين وجماعة من أهل العلم . وفي البخاري عن ابن عباس قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين ؛ فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس ، وجعل للزوجة النصف والزوج الشطر والربع .

وقال ابن عمر وابن عباس وابن زيد : الآية كلها منسوخة ، وبقيت الوصية ندبا . ونحو هذا قول مالك رحمه الله ، وذكره التماس عن الشعبي والنخعي . وقال الربيع بن خثيم : لا وصية . قال عمرو بن ثابت : قلت للربيع ابن خثيم أوص لي بمصحك ؛ فتنظر إلى ولده وتقرأ ( وَأُولُوا الْأَرْحَامِ مِنْهُمْ أَوْلَى بَعْضُهُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ) . ونحو هذا صنع ابن عمر رضي الله عنه .

(١) ختم ، بنم آية وضع ثابته ، كذا في التفسير . وفي الخلاصة ينتج المعجزة والمصلحة بينهما بخاتمة ما كتبه .







